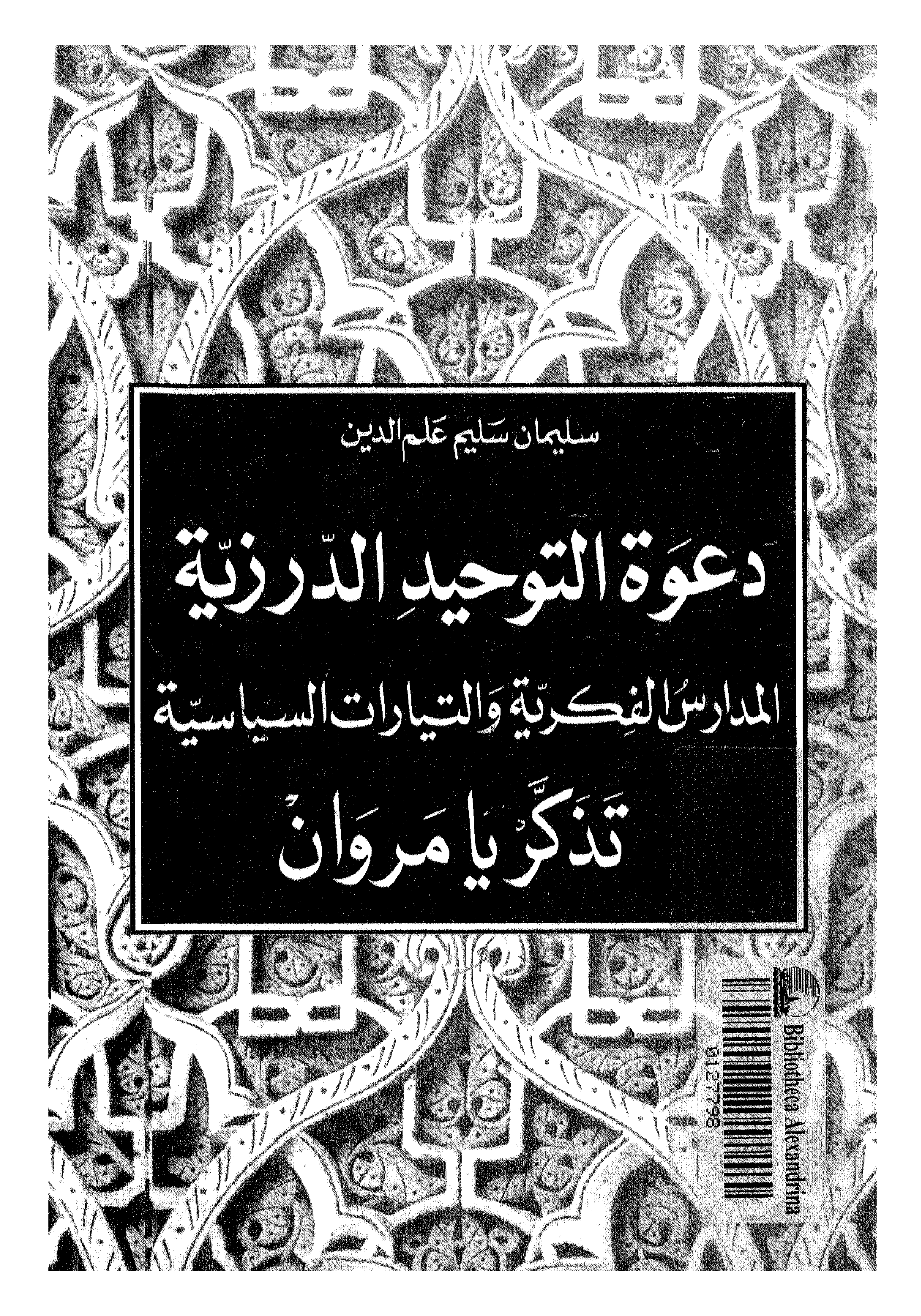

سليمان سليم علم الدين
دعوة التوحيد الدرزية
المدارس الفكرية والتيارات السياسية
تذكر يا مروان
Bibliotheca Alexandrina
0127798



دعوَةُ التوحيدِ الدّرزيّة



دعوة التوحيد الدرزية

المدارس الفكرية والتيارات السياسية

تذكر يا مروان

سليمان سليم علم الدين



الطبعة الاولى١٩٩٨

نوفل
٩٩ شارع الصوراتي • بيروت • لبنان • فاكس ٣٥٤٣٩٤ (٠١)
تلفون ٣٥٤٨٩٨ (٠١) ٧٤٦١٣٠ (٠١) ٤٩٩٠٧٤ (٠١) ٣٥٣٥٠٨ (٠٣)

توطئة

بين البحث التاريخي والدراسة الدينية التقاء في المنهج وافتراق في المقصد. كلاهما يتوخيان المعرفة وينهلان من منابعها. ولكنّ بين البحث التاريخي والدراسة الفكرية هامشاً تستوجبه حرمة المعتقد الديني ايا كان. وبمقدار، فلحرّية الرأي من حقوق تصونها الدساتير العصرية، كذلك للمعتقد الديني حرمة ذاتية تقف عند عتبتها حرية الرأي المسؤول ومهمة الباحث الموضوعي.

في عالم تزدحم وتتقارع فيه الافكار، اصبحت مهمة الباحث الموضوعي في معطيات التاريخ ان يوفق بين حرية الرأي وحرمة المعتقد فلا يفتئت على ذا ولا يجوز على ذاك ولا يظلم الحقيقة في الوقت نفسه.

ومهمة الباحث الامين تصبح اكثر دقة في سياق البحث في المعتقدات التي تستمد جوهرها من المعاني المستعلية، او الباطنية، للقرآن الكريم، كما مذهب الموحدين الدروز القائم على الاسلام والمفسر للآيات المنزلة، تفسيراً يتعدى ظاهر الشريعة ومذاهبها بالمعنى المحدود للتعبير.

يوم اسر لي الصديق الكريم الشيخ سليمان علم الدين برغبته في الكتابة عن نشأة مذهب التوحيد - او الدروز كما يعرفون في عالم اليوم - اكبرت فيه شغفه للبحث وثمنت توقه للمعرفة واطمأننت لقصده من قناعته الذاتية، بأن الخوض في جوهر معتقد التوحيد وحكمته هي مهمة المؤتمنين على مذهب التوحيد من المشايخ العارفين والحكماء المطلعين ومن يقينه بأن مهمة الباحث المؤرخ تقريب سبل المعرفة بين الجاهل والعارف.

طبيعي ان يكون اي جهد موثوق وموثّق للتقريب بين الجاهل والعارف من ابناء التوحيد سعياً مشكوراً، خصوصاً، اذا توخى هذا السعي حث الراغب في المعرفة تطفلاً، الى التوجه اليها شوقاً علّ توجهه يمهد له سبل الارتقاء يوماً الى مرتبة العقال والتفقه على ايدي من تتوفر فيهم الامانة الروحية.

كتاب «تذكّرْ يا مروان» اطروحة تقرع باب المعرفة بيد الباحث الامين وتترك ولوج رحابها الواسعة لمن تتوفر فيهم شروط الاهلية الروحية والاستحقاق الخلقي لكي يصبحوا من حفّاظ الوديعة وحافظيها، «ولا يكلّف الله نفساً الا وسعها».

وحين يطرق اي باحث باب الفكر الاسلامي، لا بد له من ان يتطرق الى تأثير الفلسفة اليونانية عليه، والتي يقال ان من ادخلها رحاب الفكر الاسلامي كان المفكر احمد النسفي ومترجمات السريان النصارى الذين كان لهم الفضل الأول في تعريف الاسلام على الفلسفة اليونانية بحكم ترجمتهم المؤلفات اليونانية الى السريانية، ومن ثم الى العربية في مدارس حرّان - الرها - وديرقنسرين - وانطاكية ومدرسة جنديا سبور التي انشأها كسرى انوشروان، ودرس فيها حمزة بن علي بن احمد الزوزني. ثم كان «بيت الحكمة» الذي اسسه الخليفة العباسي المأمون عبدالله بن الرشيد وزوده بمئات الألوف من المؤلفات القيمة وبجيش من المترجمين، وقد قيل عن المأمون انه كان أعظم راع للفلسفة وخصوصاً اليونانية.

الاّ ان بعض المؤرخين المسلمين يقولون ان هدف النصارى من تشجيع ونشر الفلسفة اليونانية كان ادخال العقل المطلق على الفكر الاسلامي ليكون عامل شك يزعزع الايمان الديني المطلق على اعتبار ان العقل يرفض المعجزات والخوارق. وفي ذلك يقول أبو الحسن الأشعري، صاحب المدرسة الأشعرية، في كتابه «مقالات الاسلاميين». «ان الأهمية المطلقة للعقل لا تفضي الى دعم الدين، كما زعم المعتزلة، بل ان ذلك على العكس، يفضي الى نفي الدين والى استبدال الايمان بالعقل. اذ ما قيمة الايمان بالله اذن وبالكتاب المنزل ما دام العقل، بحد ذاته، ارفع من المعطيات الدينية؟»

في هذه الدراسة يحصر الكاتب تأثير الفلسفة اليونانية على عقيدة التوحيد، في فلسفة الفيض التي قال بها الفيلسوف افلوطين، الملقب بالشيخ الاسكندراني، واعتنقتها الاسماعيلية ونادت بها «رسائل اخوان الصفا» وهي فيض الله تعالى بنوره الشعشعاني على العقل، وفيض العقل على النفس، وفيض النفس على الهيولى. ويضيف الموحدون «الكلمة» إلى هذه المراتب.

يستفيض الكاتب في دراسة الاسماعيلية وتاريخها وتطور معتقداتها ثم تحولها

الى عقيدة دينية مع قيام الدولة الفاطمية، ثم انقسامها الى فرق متعددة بعد عهد الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧هـ) ثم تقلصها اثر تسلط الايوبيين على حكم مصر وبلاد الشام، واستمرارها، حتى يومنا هذا، كتجمعات ثانوية، منتشرة في بعض البلدان الاسلامية.

قد لا يوافق البعض على اعطاء الاسماعيلية دوراً محدوداً وتأثيراً صغيراً على المعتقدات التوحيدية، فالكاتب يعتبر ان عقيدة التوحيد ليست، كما يظن البعض، وليدة الاسماعيلية، لان العقيدتين تفترقان في مبادئ عديدة وأساسية، في مقدمتها الامامة، وهي ركن اساسي في المعتقد الاسماعيلي بينما زالت كلياً من عقيدة التوحيد، فلا امامَ عند الموحدين.

ويتضح من دراسة الشيخ سليمان علم الدين ايمانه في عقائد الاعتزال وفي صوابية اعتماد المعتزلة على العقل المطلق في ايمانها الفكري. ويعتقد الكاتب ان الموحدين تأثروا بنظريتي التوحيد والعقل من هذه العقائد، فاستحقوا لقب الموحدين وأصبحوا أهل التوحيد يقدسون العقل ويعتبرونه الارادة الإلهية على الأرض، وبالتالي علة العلل ومدبر الكون.

ويفسح الكاتب للصوفية فصلاً مستفيضاً يبدأ من تاريخ نشأتها، كتيار زهد لدى المسلمين الاوائل الى انتشارها في العراق وبلاد فارس، ثم ازدهارها وانتقالها في العهدين، الايوبي والمملوكي، من الأندلس والمغرب الى مصر وبلاد الشام حيث عمّت الطرق الصوفية العالم الاسلامي. ويبدو ان العديد من ابناء التوحيد عمدوا في أعقاب انتقال دعوة التوحيد من مصر الى بلاد الشام، بعد المحنة، اي عام ٤١١هـ، الى الانضمام الى الاسماعيلية، في حين اتجه قسم منهم الى اعتناق الصوفية، خوفاً من اضطهاد الفاطميين وذلك بسبب تشتتهم في بلاد الشام بلا قيادة زمنية او دينية يرجعون اليها، وقد دام هذا التشتت والضياع العقائدي حتى القرن التاسع هجري، اي الى زمن الأمير السيد عبدالله التنوخي، الذي جمع رسائل الحكمة وكتب شروحاتها فحفظ عقيدة التوحيد كما نعرفها اليوم.

ويخص الكاتب القرامطة بدراسة مقتضبة ترجع جذورها الى قبيلة تيم الله بن ثعلبة القرمطية التي قدمت في القرن الثالث هجري من سواد الكوفة واستقرت في

وادي التيم الذي عرف باسمها منذ ذلك الحين. وفي وقت لاحق، انضمت اليهم فلول القرامطة في بلاد الشام وذلك بعد معركة الرملة عام ٣٦٨هـ بين الجيش الفاطمي بقيادة نشتكين الدزبري، وجيش افتكين القائد التركي العباسي وحلفائه القرامطة، بقيادة جعفر الجنابي، وكانت احدى نتائج هذه المعركة انتهاء دور القرامطة في بلاد الشام، ولكن جيوباً منهم بقيت في جبل السمّاق قرب حلب، وانطاكية وضواحي دمشق، ومن المرجح ان يكون معظم هؤلاء القرامطة قد اعتنقوا المذهب التوحيدي في ما بعد.

وتشمل هذه الدراسة معلومات تاريخية موثقة عن عدد من اعلام التوحيد، كالخليفة الفاطمي الامام الحاكم بامر الله، والامام حمزة بن علي بن احمد، وسلمان الفارسي والأمير رافع ابي الليل الكلبي والمقداد بن الاسود الكندي، والأمير السيد عبدالله التنوخي.

وليد ابي مرشد

تذكّر يا مروان

هذه الدراسة المقتضبة للتيارات الفكرية والاجتماعية والعوامل الروحانية العقلانية التي رافقت نشوء وانتشار الدعوة التوحيدية الدرزية توحي القاء الضوء على الصراع العقائدي الذين اثر على الرواد الاوائل للدعوة التوحيدية وجعل العقل لديهم، المخلوق الأول الذي اطلقه الله، عز وجل، من نوره الشعشعاني فجعل الإيمان العقلاني نعمة المولى الكريم ومعتقدهم المقدس.

رائدهم والحد الاول، مولاي العقل، وملجأهم الروحي مشيخة العقل، وشيوخهم لقبهم العقّال، كتبهم كتب الحكمة والحكمة وليدة العقل.

مروان سهيل المصفي، كتلة من الصفات الحميدة، دمث الاخلاق، حلو الشمائل، صادق في أعماقه واقواله، الحب عنده عطاء، لأن هدف من يعطي سعادة وسروراً للغير.

ولد مروان مثل ابناء ملته، موحداً درزياً، من دون أن يؤخذ رأيه في ما أعطي له وفي من يريد أن يكون والى ماذا ينتمي. جل ما يعرفه عن قومه، فخر واعتزاز باخلاقهم وتقاليدهم، وفي مقدمتها الكرم والشجاعة والوفاء والصدق واغاثة السائل. ولكن مروان الآن يطلب حقه الطبيعي الذي منحه اياه المولى تعالى، يريد معرفة جذور انتمائه والعقيدة التي تربطه بالله نور الأنوار، الذي يعبد ويخضع له، وهذا أمر مشروع في زمن يزداد فيه الاهتمام بتحديد الهويات ومعرفة الانتماء العقائدي، ويسأل بفضول خلقي وعلمي، لماذا لا أعرف ما يحق لي معرفته، والمعرفة تنير السبيل الى الحقيقة التي هي برهان العقل وأصل التوحيد يريدها الله تعالى لعباده، فالمعدوم مجهول والجهل بلاء وشر لا يريدهما الله لخلقه.

الغاية من هذه الدراسة

ان جاز لي ان ابدأ بنفسي، يسعدني أني قوي الايمان بالله تعالى، الرحمن الرحيم، هو، عز وجل، الحق ونور الأنوار، خالق الدنيا وما عليها، لا فاعل الاّ هو، جل ذكره، ولا معين غيره. له العبادة والصلاة وعليه التوكل. لا اله الاّ هو وحده لا شريك له.

انا لست مؤرخاً ولا باحثاً، بل مجرد انسان فضولي «كثير الغلبة» يتوق الى معرفة ما يجري امامه، علّه يعرف نفسه في هذا الوجود الرائع الذي أبدعه المولى لخلقه. من اين اتى؟ الى أين يسير؟ الى ماذا والى من ينتمي؟ وفي النهاية يطرح السؤال نفسه، من أنت؟ جل ما تعرفه أنك ولدت موحّداً؟

انا فضولي يهمني ان اؤمن بان ما اعتقده صدق يقبله عقلي، لأن العقل واجب الوجود، علة العلل، اشعاع المعرفة ووليد الحق وأول ما أبدعه الله من نوره الشعشعاني، وهو الارادة الالهية على الأرض لتدبير الكون، وهو ثاني الله تعالى. انا أرفض ما لا يقبله العقل، لأن العقل هو كل شيء وقبل كل شيء وفوق كل شيء.

انا أنتمي الى طائفةِ العقلُ مولاها، كتبها «الحكمة» والحكمة وليدة العقل والقيمون على عقائدها لقبهم «عقّال».

بالاضافة الى عبادة وتوحيد الله تعالى، والاعتماد الكلي على العقل، لي الايمان الثابت، والعمل الصادق بقول الامام الأول علي «الخلق كلُّهم عيال الله واحبهم اليه انفعهم لعياله». اي الإخاء بين الانسان والانسان.

انا أرفض أن أسلك طريقاً بلا نور، وأرفض نوراً أجهل مصدره وغاية وجوده. أرفض الايمان بالعدم، وأطلب الهداية التي ينيرها العقل فهي الطريق الى الايمان الصادق غير المغلق.

الايمان الواعي الصادق الذي يحده ويقبله العقل هو هبة الله تعالى لاطمئنان النفس، واطمئنان النفس هي السعادة التي تسبغ مسحة الرضى على الحياة، والرضى نهاية التوكيل ونعمة التوحيد.

المذاهب والعقائد قد تتفاوت وتتناقض لأن الله وهب الانسان حرية الاعتقاد والعمل. فالناس يخلقون أعمالهم، فهم مخيّرون لا مسيّرون، ومن أجل هذا يثابون او يعاقبون، وهذا عدل المولى الكريم لأنه، سبحانه وتعالى، لا يفرض على عباده المعاصي ثم يعذبهم بها.

التاريخ حوادث وقعت تدون بصدق وأمانة، واسبابها تحلل بعقل ونزاهة، ونتائجها يستخلصها المؤرخ الواعي الأمين من الأخبار المدونة في كتب أصحاب العلم والمعرفة بتجرد وجرأة في الحق، وللحق وحده، والعزوف عن التعصب لعقيدة او لمذهب مع ايمانه أن «فوق كل ذي علم عليم».

اكرر ما قلته سابقاً، انا لست مؤرخاً أكتب بدافع الهواية. وكل ما في الأمر، اطلعت على بعض أحداثٍ ذات قيمة، أقدمها للقارئ كما حدثت، وأعرضها كما فهمتها، متوخياً الحقيقة، طالباً من المولى، عز وجل، ان يبعده عن التعصب المقيت والانفعالات النفسية ان كان لدين او عقائد سياسية ويجعل الصدق رائده، لأن الحضارات لا تشيد بالعواطف، بل بالعقول المفكرة المنفتحة بمنطق واتزان وهذه من مزايا المؤرخ الصادق الأمين.

يقول الدكتور طه حسين في كتابه، الفتنة الكبرى – عثمان. «وانا أريد ان أنظر الى هذه القضية نظرة خالصة مجرّدة، لا تصدر عن عاطفة ولا هوى، ولا تتأثر بالإيمان ولا بالدين، وانما هي نظرة المؤرخ الذي يجدد نفسه تجديداً كاملاً من النزعات والعواطف والاهواء مهما تختلف مظاهرها ومصادرها وغاياتها.»

توضيح موضوع هذه الدراسة

قال المتصوف الكبير محيي الملة والدين العربي – الطائي الحاتمي الاندلسي، المعروف باسم ابن عربي:

فافهم، فديتك، سر الله فيك ولا
تظهره فهو عن الاغيار مكفون
وغر عليه، وصنه ما حييت به
فالسرّميت بقلب الحر مدفون[1]

أمانة مشايخ الأجاويد الموحدين الدروز صيانة المعتقدات والحفاظ عليها، لأن أسرار الحكمة هي أساس الايمان ومنطلق العرفان، والعرفان علم النبوة، وهم القيمون على الشريعة والكاتمون أسرارها والقادة الروحيّون للموحّدين.

هذه الدراسة المقتضبة محاولة تفسيرية لمعرفة تأثير بعض الأفكار والتيارات الاجتماعية الفلسفية واحداثها التاريخية على نشأة الدعوة التوحيدية وهي سجلّ صادقٌ لأحداث فكرية جرت وعبرة تستفيد الأجيال القادمة من جيدها وتحاول تفادي باطلها.

من يروي أحداث التاريخ بصدق وامانة متجرداً عن انفعالات نفسية ومقاصد شخصية يكون مسؤولاً فقط عن سرد حقائق وقعت من دون أن يكون مسؤولاً عن أسبابها أو نتائجها، فهو الراوي وليس المحدث لهذه الوقائع.

من هذا المنظار يمكن القول إن أبرز التيارات الدينية والفكرية المرتبطة بتاريخ نشوء الدعوة التوحيدية هي الامامة والمعتقدات التي تنحصر بفلسفة الفيض اليونانية والفكر المعتزلي العقلاني، وهم أهل العدل والتوحيد، ثم المبادئ والسلوك الصوفي.

(١) مخطوطة لدى الكاتب عن شرح قصيدة ابن عربي «التائية» كتبها الصوفي عبدالله الرومي البوسني.

لذلك لا علاقة لهذه الدراسة بالمذهب التوحيدي بالنسبة للسرية الصارمة التي فرضت عليه، في عام ٤٣٤هـ منذ اغلاق الدعوة التوحيدية في مصر.

الاوضاع السياسية في بلاد الشام في عهد الدعوة التوحيدية الدرزية

- الفاطميون في بلاد الشام
- بنو كلب
- بنو مرداس
- الحمدانيون
- بنو الجرّاح وقبيلة طي
- بنو عقيل
- القرامطة



الاوضاع السياسية في بلاد الشام في عهد الدعوة التوحيدية الدرزية

قال أنس بن مالك: «قلت يا رسول الله اين الناس في يوم القيامة؟..[*]
فقال: «في خير أرض الله وأحبها اليه، الشام وهي أرض فلسطين والاسكندرية في خير أرضين»[١].

قال عبدالله بن عمر بن الخطاب، ان رسول الله قال: «الخير عشرة أعشار. تسعة بالشام وواحد بسائر البلدان. والشر عشرة، واحد بالشام وتسعة في سائر البلدان. اذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم»[٢].

قال حفص بن سعد عن أبيه، قال رسول الله: «اذا وقعت الفتن فهاجروا الى الشام، فانها من الله بمنظر وهي أرض المحشر»[٣].

قال ابن حوالة لرسول الله الكريم: «اختر لي ان أدركني ذلك. قال: اني اختار لك الشام، فانه صفوة الله في بلاده واليه يجتبي صفوته من عباده»[٤].

ويقال ان كعب الاحيار قدم المدينة والتقى عمر بن الخطّاب الذي قال له: «ما يمنعك من النزول بالمدينة، فانها مهاجر رسول الله وبها مدفنه.»؟. فقال كعب «يا أمير المؤمنين، اني وجدت في كتاب الله المنزل في التوراة، ان الشام كنز الله في أرضه وفيها كنز الله من عباده»[٥].

(*) انس بن مالك هو صحابي معروف ومن اصحاب الحديث وليس الفقيه الكبير مالك بن أنس.
(١) تاريخ دمشق لابن عساكر. «الامام محمد المعروف بابن منظور» ص ٥٩ .
(٢) كتاب تاريخ دمشق ابن عساكر مجلد ١ ص ١٤٣ . وكتاب بغية الطلب في أخبار حلب. ابن العديم ص ٣٤١ .
(٣) كتاب تاريخ دمشق. ابن عساكر. مجلد ١ ص ١٧١ .
(٤) كتاب تاريخ دمشق. ابن عساكر ص ٥١ .
(٥) كتاب تاريخ دمشق. ابن عساكر ص ٥٩ .

ويصف أبو القاسم ابن حوقل الموقع الجغرافي لبلاد الشام فيقول: «واما الشآم فان غربيها بحر الروم وشرقيها البادية من ايلة الى الفرات، ثم من الفرات الى حد الروم، وشماليها بلاد الروم، وجنوبيها مصر وتيه بني اسرائيل وآخر حدودها مما يلي مصر رفح، ومما يلي الروم الثغور المعروفة كانت قديماً بثغور الجزيرة وهي ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربه والمصيصة واذنه وطرسوس، فالنواحي التي قدمت ذكرها في تصوير الشام وفي اعادتها تطويل[٦].

بلاد الشام أرض المتناقضات، ففي قلبها صحراء سورية وهي جزء من الصحراء العربية، ثم هناك، ما يسمى بالهلال الخصيب الذي يمتد من العراق حتى لبنان ويشمل ساحل البحر المتوسط، وثم سهول ما يعرف ببلاد ما بين النهرين، اي وادي دجلة والفرات. وبلاد الشام بالواقع، حلقة اتصال بين آسيا وأفريقيا وأوروبا حيث عبرت شعوب ثم عادت لتعبر ثانية فوق أرضها. كما نما وتطور فيها الفكر والعلم، وسطر فيها التاريخ معارك للجيوش حتى قيل، «ان الحرب تأتي من الشرق، وتندلع ثم تحسم في الشرق».

هذا الموقع لبلاد الشام جعلها معبراً ومستقراً لقبائل وشعوب غير عربية. ففي العصور الغابرة قطنتها شعوب واحتلتها جيوش عديدة، نذكر منها الفينيقيين، الحثّيين، الأشوريين والمصريين والفرس والأغريق والرومان. ثم في القرون الوسطى، غزاها التركمان والمغول والتتر ثم الصلبيون، ولهذا يمكن القول إن شعب بلاد الشام، بالرغم من طغيان العنصر العربي عليه، لا بدّ أنه تأثر من بعض الصفات العنصرية والقومية التي كانت تتميز بها هذه الشعوب الغريبة التي احتكت بها.

تميز الحكم في بلاد الشام بعدم الاستقرار، فتارة كان في حكم واحد يخضع لسلطة مركزية واحدة، وأحياناً يتألف من امارات وولايات مستقلة ولكنها تخضع، أحيانا بالاسم فقط، لسلطة مركزية عاصمتها، اما دمشق أو بغداد أو القاهرة.

بعد أن قضى الاسكندر المقدوني على الامبراطورية الفارسية انضمت بلاد الشام، التي كانت جزءاً من امبراطورية فارس، الى المملكة الهلينية التي كانت

---

(٦) كتاب صورة الأرض ص ١٦٥ .

عاصمتها انطاكية[٧]. ثم كان الفتح الروماني في القرن الأول قبل الميلاد، فأصبحت بلاد الشام ضمن الامبراطورية الرومانية التي انقسمت الى جزئين، شرقي وعاصمتها القسطنطينية، وعرفت بالدولة البيزنطية. وغربي وعاصمتها روما.

قبل الفتح الاسلامي كان دخول القبائل العربية الى بلاد الشام ظاهرة مستمرة، إما بدافع القحط وانحباس الأمطار والجفاف الذي كان يقضي على المراعي، وإما بسبب الغزو أو تصرف عدائي للقبيلة، أو حتى لأحد أفرادها، يؤدي الى صدامات دموية بين القبائل فتضطر احداها الى النزوح، وغالباً شمالاً الى بلاد الشام.

وفي الشمال بلاد الشام، التي تتألف من سهول فسيحة ووديان خصبة تهطل فيها الأمطار الموسمية، بالاضافة الى منطقة صحراوية معتدلة المناخ تصلح للرعي وأنهار غزيرة المياه، وكان الجاذب لقدومهم اليها كي ينالوا منها رزقهم بعد مشقة العيش والقحط.

تعتمد معيشة البدو على ابلهم، وغنمهم، والكلأ وشجرة النخيل، وحيناً على الغزو، وقال ابن خلدون: «رزق البدو في ظلال رماحهم».

يقول المؤرخ المصري الكبير محمد حسين هيكل: «ولم تلبث بادية الشام، حين انتشرت فيها قبائل العرب[٨] الذين هاجروا اليها ان صارت كأنها من شبه الجزيرة. وكان الغسانيون[٩] اقوى هذه القبائل عنصراً وأكثرهم على الحياة صبراً وجلداً، لذلك أقاموا مملكة بني غسان على حدود الشام، كما أقام اللخميون ملك الحيرة على شواطئ الفرات، ولقد كان دأب هؤلاء العرب يومئذ كدأب بني وطنهم دائماً، يشاركون الأمة التي يقيمون على حدودها في مصيرها ويشاطرونها آمالها، ومن ثم

---

(٧) اسم انطاكية أعجمي معرّب واسمها بالرومية انطوخيا وكانت تدعى مدينة الله لأنها أول بلد ظهر فيها دين المسيحية.

(٨) القبائل التي أتت بلاد الشام كانت: غسان، تغلب، اياد، النمر، قضاعة، طي، وكلاب وكلب، (كلاب بطن من عامر بن صعصعة وكلب بطن من قضاعة).

(٩) الغساسنة كانوا من الازد احدى قبائل عُمان التي تنسب الى شعب كهلان اليمني هم من القحطانية وانتشروا في البلقاء واليرموك وحمص.

سلّموا في الشام بحكم الروم، وفي العراق بحكم الفرس»[١٠] فكانت مملكة الغساسنة حليفة البيزنطيين وكان ملوك الحيرة حلفاء الفرس.

بدأ الرسول دعوته في عام ٦١١ ميلادي وانضوت قبائل الجزيرة العربية تحت راية الاسلام. وفي عهد الخلفاء الراشدين والخلافة الأموية، انطلقت هذه القبائل في نشر العقيدة الاسلامية في بلاد الشام.

أرسل أبو بكر الصديق عام ١٢هـ، اول جيش بقيادة خالد بن سعيد بن العاص الأموي الذي ذهب عن طريق فلسطين، وعندما هزمه الجيش البيزنطي في معركة «مرج الصّفر»، اسرع لنجدته عكرمة بن جهل الذي قدم بجيش من اليمن، كان فيه عدي بن حاتم طي، ضرار بن الازور والحارث بن هشام[*].

وكان الجيش الثاني بأمرة عمرو بن العاص الذي سار الى فلسطين وكان مساعده سعيد بن الحارث السهمي، وكان معظم جيش عمرو من قضاعة وعذرة. وكان عمرو بن العاص يصلي في المسلمين اذ اجتمعوا. وفي الوقت نفسه، سار الى الأردن، جيش بقيادة الوليد بن عقبة. ثم سار جيش شرحبيل بن حسنة وضم اليه جيش الوليد بن عقبة الذي كان في الأردن.

ثم سار الجيش الرابع الى دمشق، وكان بأمرة يزيد بن أبي سفيان يساعده أخوه معاوية. كان جُلّ جنده من مَكّة. وكان الجيش الذي توجه الى حمص بقيادة الصحابي الكبير، أبو عبيدة ابن الجرّاح الذي أصبح، بعد وفاة أبو بكر الصديق، قائداً لجميع الجيوش الاسلامية.

بعد انطلاق الجيوش الاسلامية، وجُلّهم من القبائل العربية، وانضمام جيش الوليد بن عقبة، الذي كان ضم اليه جيش عكرمة بن ابي جهل، الى جيش شرحبيل

(١٠) كتاب ابو بكر الصديق، محمد حسين هيكل، ص ١٨٠ .

(*) القبائل التي كانت تدين بالمسيحية: غسان، تغلب، طي، لخم، جزام وعاملة، والحارث بن هشام المخزومي الجد الأول للعائلة الشهابيّة.

بن حسنة، وانضمام جيش سعيد بن العاص الى جيش عمرو بن العاص، اصبحت الجيوش الاسلامية بقيادة عمرو بن العاص، وابو عبيدة ابن الجرّاح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وكان عدد جنده يقارب الثلاثين الفاً، جلهم من القبائل العربية.

خاف المسلمون من جيش الروم الذي كان جنده يفوق المائتي ألف مقاتل من الروم وبعض قبائل العرب، فقرروا الاجتماع بجيش واحد فاجتمعت قواتهم الموّحدة على الشاطئ الأيسر من نهر اليرموك وبقيت محصورة مدة شهرين حتى قدم خالد بن الوليد من العراق على رأس جيش قوامه تسعة آلاف رجل.

اجتمع قادة الجيوش العربية فقال لهم خالد بن الوليد: «هلموا فلنتعاون الامارة، فليكن بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم، ودعوني أتأمر اليوم»[١١].

لم يتردد امراء الجيوش من اجابة طلب خالد بن الوليد وهو فاتح العراق وغازي اليمامة والذي دوخ الفرس وحطّم جيوشهم. وأطلق خالد مقولته الشهيرة عندما سمع أحد الجند يقول: «ما أكثر الروم وأقل المسلمين» فقال: «ما أقل الروم وأكثر المسلمين، انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال»[١٢].

انتصر المسلمون وقضي على كل أمل للروم في استعادة قوتهم لاستبقاء الشام، فجلا هرقل عن معسكره في مدينة حمص وسار منها الى انطاكية، التي كانت في ذلك الوقت من أهم مدن بيزنطية: أما دمشق فلم يتمكن هرقل من نجدتها، وبالرغم من دفاع أهلها المستميت، سقطت في يد المسلمين عام ١٤ هجري.

ذكر احمد بن يحيى البلاذري قال: حدثني أبو جعفر الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز: «لما فتح أبو عبيدة ابن الجرّاح دمشق، استخلف يزيد على دمشق وعمرو بن العاص على فلسطين، وشرحبيل على الأردن وخلف على حمص عبادة ابن الصامت»[١٣].

---

(١١) كتاب أبو بكر الصديق، محمد حسين هيكل، ص ٢٦٠ .

(١٢) كتاب أبو بكر الصديق، محمد حسين هيكل، ص ٢٦١ .

(١٣) كتاب بغية الطلب من تاريخ حلب، ابن العديم، ص ٥٨٥ . وكتاب انساب الاشراف. البلاذري مجلد ٣ ص ١٤٨ .

استخدم عمر بن الخطّاب على الشام يزيد بن أبي سفيان، ثم بعد وفاة يزيد عام ١٩هـ. ولّى أخاه معاوية. ويقول أبو جعفر الطبري «وفي خلافة عثمان بن عفان، جعل معاوية بن أبي سفيان على الشام كله وألحق به ولاية الجزيرة»[١٤].

بقي معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام حتى اغتيال الامام علي بن أبي طالب عام ٤٠هـ. حيث بويع بالخلافة، وأسس عام ٤١هـ. المسمى بعام الجماعة، الدولة الأموية.

كانت قريش أشرف قبائل الجزيرة العربية وأرفعها مكانة يُخشى أمرها وتهاب سلطتها. وكانت فيها اسرتان، هاشم ومنها النبي محمد والامام علي بن أبي طالب، وامية، وكانت أوفر عدداً وأكثر مالاً من هاشم، ومنها سفيان بن حرب والد يزيد ومعاوية مؤسس الدولة الأموية.

قاد سفيان بن حرب جيش قريش في غزوة أحد وجيش الأحلاف في حرب الخندق. بقي سفيان مشركاً حتى كان عام الفتح، عندما أعلن رسول الله: «من اغمد سيفه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن». فعل رسول الله ذلك لحقن الدماء وتوحيد كلمة العرب. في ذلك العام، أطلق النبي محمد على بني أمية لقب «الطلقاء». وقيل إن بني أمية لم يعتنقوا الاسلام الاّ خوفاً أو طمعاً بحظوة بعد أن حاولوا عبثاً القضاء على رسالة النبي العظيم.

عرف النبي محمد مكانة بني أمية ونفوذهم بين العرب، فاستخدمهم في دولته الفتية. ويقول أحمد بن علي المقريزي. «وكان من عماله منهم على مكة أبو عتاب بن أسيد بن أبي أمية بن عبد شمس، أحد من أسلم يوم فتح مكة، كما كان منهم خالد بن سعيد بن العاص بن أمية عامل الرسول على صنعاء اليمن، حيث بعثه اليها في السنة العاشرة للهجرة وبقي فيها حتى وفاة الرسول. كما كان ابان بن سعيد بن العاص بن أمية على البحرين» ثم يقول «واستعمل ايضاً أبو سفيان بن حرب بن أمية على نجران، وظل في منصبه حتى توفي الرسول»[١٥].

---

(١٤) كتاب تاريخ الرسل والملوك، مجلد ٣ ص ١٤٨ .

(١٥) كتاب النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم، ص ٤٦ .

«مما يلفت النظر أن معظم الولاة الذين استخدموا من قبل الرسول وأبو بكر وعمر بن الخطّاب لم يكونوا من بني هاشم، بل جلّهم من بني أمية، مما دفع الأمويين الى طمعهم بالحكم فيما بعد»[١٦].

كانت دولة بني أمية دولة عربية، فالعنصر الحاكم فيها كان عربياً، والجيش الذي كان عماد الدولة وحاميها وحامل لوائها كان عربياً ايضاً؛ أفراده من قدماء المقاتلين في جيش الفتح الأول العربي، وقادته جلهم من زعماء القبائل التي نزحت من الجزيرة العربية. كما استلم ادارة الدولة وتصريف أعمالها عرب من النصارى لتفوقهم في العلم وادارة شؤون الحكم.

في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حلّت اللغة العربية محل اللغات المحلية التي كانت سائدة في بلاد الشام كاليونانية، والفارسية في العراق. وكذلك شكّ الدينار العربي وحل محل العملة البيزنطية والفارسية.

يمكن القول إن في عهد الأمويين تبوأ العرب الصدارة والقيادة، ولهذا سمّيت دولتهم، عن حق وجدارة، بالدولة العربية، كما دعيت لاحقاً دولة العباسيين، بالدولة الاسلامية لغياب العنصر العربي عن قيادتها، حيث آل الأمر الى الاعاجم، كالترك والفرس، الذين اعتنقوا الدين الاسلامي ولكنهم ظلّوا على عنصريتهم الغريبة والدخيلة على العرق العربي.

في العهد الأموي امتدت الفتوحات الاسلامية العربية الى اقصى حد، حتى شملت فارس وأجزاء من بيزنطية وتوغلت حتى الصين.

بعد الفتنة عام ٣٥هـ. التي اودت بحياة الخليفة عثمان بن عفان، تغيرت أسس الحكم الاسلامي، اذ كان أمر الخلافة يقوم على البيعة، أي رضا الرعية، وكان سلطان الخليفة مقيداً بالحدود التي رسمها الدين، فأصبحت في عهد الخليفة معاوية، كأنها ملك لصاحب السلطة ينقله الى من أحب من أبنائه دون مشورة الرعية، فبرزت بدعة توريث الملك، وتحولت الدعوة الدينية المسلمة الى دولة بقيادة زعامة عائلية قبلية، سيطرت على مقدرات البلاد السياسية والاقتصادية.

هذا البحث المقتضب عن الخلافة الأموية هو تتمة للتسلسل التاريخي للحكم

---

(١٦) كتاب النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم، ص ٥٦ .

الاسلاميّ فقط، كي نقدم للقارئ فكرة واضحة عن الخلفيات التاريخية والعوامل الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي أثرت على نشوء وانتشار الدعوة التوحيدية الدرزية، وهي موضوع هذه الدراسة.

لن أشرح بالتفصيل أسباب ونتيجة هذا الصراع على الطائفة الدرزية لأن دراسةً مفصّلةً كاملةً خصّصت لهذا الموضوع المهم، في فصل «الخلافات الدرزية التي نتج عنها تخلّيهم عن حكم جبل لبنان».

ما يهمنا من هذه الدراسة المقتضبة عن العهد الأموي هو الصراع الشديد الذي نشب، خلال ذلك العهد، بين القيسية واليمنية الذي انتقل الى لبنان بواسطة بني كلب، وهم بطن من قضاعة القحطانيين، والقيسية بواسطة المعنيين وهم من بني كلاب بن مضر بطن من قبيلة ربيعة من العدنانيين. فعرف القحطانيون عرب الجنوب باليمنيين، وعرف العدنانيون عرب الشمال بالقيسيين.

كان عهد الخلافة العباسية، العهد الأهم بالنسبة لدراستنا، على اعتبار أن دعوة التوحيد الدرزية انتشرت ابانه وتأثرت بمناخاته الفكرية والاجتماعية والسياسية. في عهد الخلافة العباسية انطلقت المدارس الفكرية والعقائد الفلسفية، كالاعتزال والاسماعيلية، والصوفية، وفيه كذلك، انتشرت الفلسفة اليونانية والحكمة الهندية وكتبت رسائل اخوان الصفا. وجميع هذه العلوم الفكرية أثرت، بنسب متفاوتة، على العقيدة التوحيدية الدرزية.

اخذت الدولة العباسية اسمها نسبة الى العباس بن عبد المطلب عم النبي محمد الذي، بالرغم من انه لم يكن من الاوائل الذين اعتنقوا الاسلام، فقد أسلم عام فتح مكة، ولكنه لم يقف من النبي موقفاً معادياً، كما فعل شقيقه أبو لهب، بل بالعكس، كان يحمي الرسول من مشركي قريش، وكان على اتصال به، حتى بعد هجرته الى المدينة.

لم يظهر العباس طموحاً في الخلافة نظراً لأنه لم يكن من الأوائل الذين اسلموا، بل صب اهتمامه لتولية ابن أخيه علي بن أبي طالب، وهو من قال له بعد اجتماع السقيفة: «امدد يدك لنبايعك».

توفي العباس بن عبد المطلب عام ٣٢هـ وتولى زعامة الأسرة العباسية بعد وفاته

ابنه عبدالله بن العباس الذي كان شخصية علمية مرموقة وكان حجّةً في رواية الحديث وتفسير القرآن[1] ومن المقربين الى ابن عمه علي بن أبي طالب، الذي، عند توليه الخلافة عام ٣٥هـ. ولّى عبدالله اعمال البصرة. وبعد اغتيال الامام علي عام ٤٠هـ وانتقال الخلافة الى معاوية بن أبي سفيان الأموي، ترك عبدالله بن العباس البصرة وأقام في الطائف يروي الحديث ويفسر القرآن وقيل كان له مدرسة في هذه العلوم يؤمها الكثيرون من طلاب علوم الدين. توفي عبدالله بن العباس عام ٦٨هـ. في خلافة عبد الملك بن مروان[*]. «أنجب عبدالله بن العباس ولداً سمّاه علي لأنه ولد

(١) حسب رواية ابن الاثير ان سلمان الفارسي روى قصة اسلامه وسفره الى بلاد الشام الى عبدالله بن العباس.

(*) اما الدكتور طه حسين في كتابه – الفتنة الكبرى (ص ١٣٣) فيقول ان ابن عباس، الذي ولاّه الامام علي على البصرة، اختلف مع الامام علي، بعد أن شكاه صاحب بيت المال، أبو الأسود الدؤلي بأنه يعبث بأموال المسلمين. غضب الامام علي وكتب لابن عباس يؤنبه على تصرفه الشاذ منها قوله: «فانه لا يسعني تركك حتى تعلمني ما أخذت من الجزية، ومن اين اخذته وفيما وضعت ما انفقت منه. فاتق الله مما ائتمنتك عليه واسترعيتك حفظه (ص ١٣٦). اجاب ابن عباس «لعمري ان حقي من بيت المال لأعظم ما اخذت منه. ثم اتهم الامام علي «بسفك دماء المسلمين لأجل الملك وليس لأجل الله».

ثم يقول الدكتور طه حسين (ص ١٣٩) ان ابن عباس لم يخرج من البصرة فارغ اليدين كما دخلها حين ولي عليها، انما خرج وقد ملأ يديه بما كان في بيت المال مما ينقل وهو يعلم أنه ليس له في هذا المال حق والذي يقدره المؤرخون بستة ملايين درهم، «وانه لم يكد يستقر بمكة حتى أقبل على شيء من الترف واشترى ثلاث جواري مولدات حور بثلاثة آلاف دينار. ويستدرك الدكتور طه حسين بقوله «والغريب ان كثيراً من المحدثين اهملوا هذه القصة ولم يشيروا اليها تحرجاً من ذكرها لمكان ابن عباس من النبي ومكانه من الفقه بالدين أعظم من أن يظن به مثل هذا التجاوز للحق والخلاف على الامام» (ص ١٤٢).

يظهر تناقض واضح وكبير بين ما كتبه العالم الدكتور طه حسين وبين ما قاله بعض المؤرخين، اذ معظمهم قالوا ان ابن عباس ترك البصرة بعد اغتيال الامام علي واستقر في الطائف حيث أسس مدرسة لتعليم الفقه وعلوم الدين وانه كان يعيش حياة تقشف وزهد. اما الدكتور طه حسين، الذي استند في روايته الى رسائل تبادلها الامام علي وابن عباس، يقول ان ابن عباس، خلال حياة الامام علي، استولى على اموال بيت مال البصرة وسار الى مكة حيث عاش حياة ترف ورفاهية.

في الليلة نفسها التي قتل فيها الامام علي عام ٤٠هـ»[٢] على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم.

استدعى الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ) علي بن عبدالله بن العباس الى الشام واقطعه قرية في البلقاء في شرق الأردن اسمها «الحميمة» وكان هدف الأمويين من ذلك، جعل بني العباس تحت رقابتهم بالشام لشكهم في نواياهم وخوفهم من موالاة بعض المسلمين لآل البيت اذ كان الأمويون يعتبرون بني العباس هاشميين وآل البيت من بني هاشم.

توفي علي بن عبدالله بن العباس في قرية «الحميمة» في البلقاء عام ١١٨هـ وترك ابناً، اسمه محمد، الذي اتصف بالشجاعة والطموح فنظّم الدعوة تنظيماً سرياً وأرسل الدعاة، وكانوا سبعين داعياً واثني عشر نقيباً، الى الجهات الملائمة لهذه الدعوة، واهمها خراسان حيث كان التذمر من أعمال الأمويين على أشده.

يقول بعض المؤرخين أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية، وهو ابن علي بن أبي طالب من زوجته خولة بنت قيس الحنفي، قدم الى الحميمة، قبل وفاته بمدة قصيرة، وتنازل عن حقه بالخلافة الى محمد بن علي وسلّم له زمام الدعوة الكيسانية والحق في الخلافة الاّ ان الكثيرين من المؤرخين يعتبرون هذه الرواية مختلقة ولا يعترفون بصحتها.

كانت الدعوة تنشر باسم «الرضى من آل محمد» التي كانت تعني أي فردٍ من آل محمد، وكان الهدف من ذلك التمويه على الشيعة واستقطابا لمساندتهم.

توفي محمد بن علي بن عبدالله عام ١٢٥هـ في «الحميمة» وخلفه ابنه ابراهيم الذي كان على صلة ومعرفة بمولى فارسي اسمه عبد الرحمن بهزدان وكنيته أبو مسلم الخراساني، فأرسله داعياً الى خراسان عام ١٢٩هـ حيث تمكن في وقت قصير من ان يسيطر على الامارة بمساعدة اتباعه من موالي الفرس وجماعة اليمينية. ثم

(٢) كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي، الدكتور احمد مختار العبادي، ص ١٨ .

استولى على مرو، عاصمة خراسان، عام ١٣١هـ حيث اضطر واليها، نصر بن سيّار، ان يفر الى العراق ولكنه مات في الطريق في مدينة الري عام ١٣١هـ(*).

اتجهت جيوش ابو مسلم الخراساني نحو العراق بقيادة قحطبة بن شبيب وفي مسيرها اتت الكوفة حيث استسلم الوالي الامويّ محمد بن خالد بن عبدالله القسري، وهنا ظهر العبّاس واعلن إمامته فبايعه الناس بالخلافة في شهر ربيع أول عام ١٣٢هـ.

لم يبق امام العباسيين الاهزيمة وتحطيم الجيش الأموي، فأرسل أبو العباس عمه عبدالله بن علي يرافقه أبو مسلم الخراساني على رأس جيش، معظم جنده من اهل خراسان الفرس، فكانت معركة الزاب في شهر جمادى الآخرة عام ١٣٢هـ. حيث انتصر الجيش العباسي وفر الخليفة الأموي مروان بن محمد طالباً مصر للاعتصام بها، ولكن الجيش العباسي لحقه في بلدة «بوصير» حيث قتله، وذلك في اواخر عام ١٣٢هـ. وبذلك انتهت الدولة الأموية.

كما قلنا سابقاً، ان العهد العباسي، خصوصاً في بلاد الشام، هو الاهم في هذه الدراسة لأن خلاله نشأت الدعوة التوحيدية الدرزية في مصر ثم انتقلت الى بلاد الشام في اوائل القرن الخامس هجري.

اكرر القول: إنَّ هذه الدراسة عن المدارس الفكرية والسياسية، التي قد تكون أثرت على نشوء وانتشار دعوة التوحيد، وربما على غيرها من الدعوات العقائدية التي انتشرت في ذلك الزمن، كالاسماعيلية والقرمطية وغيرهما، هي دراسة محض تاريخية لا علاقة لها بالمذاهب الدينية، وأخص بالذكر، المذهب التوحيدي الدرزي أو المعتقدات الدرزية التي يحيطها مشايخ الأجاويد الموحدين بالسرية التامة وهم القيمون عليها.

ان هذه الدراسة التاريخية تبحث في حوادث وقعت في ذلك الزمن سجلتها وأفاضت بالكتابة عنها كتب التاريخ الاسلامية، وغير الاسلامية، اذ تناولتها

(*) اضطهاد الوالي زياد بن ابيه ومن بعده ابنه عبيد الله بن زياد للعلويين في الكوفة والبصرة وطردهم الى خراسان جعل منهم قوة انضمت الى ابي مسلم الخراساني.

بالتفصيل ودققت في صحتها وكتب عنها مجلدات عديدة مستشرقون من الملل كافةً باسهاب وشرح كامل، وأصبحت كتبهم في متناول كل من يرغب في الاطلاع على هذا الموضوع الذي يتناول حقبة من الزمن معروفة من التاريخ الاسلامي.

كما هو معروف ومدوّن في كتب التاريخ، ان دعوة التوحيد نشأت في مصر في عهد الخليفة الفاطمي الامام أبو علي المنصور الحاكم بأمر الله (٣٧٥ = ٤١١هـ) ثم انتقلت الى بلاد الشام حيث كانت في ذلك الزمن دول وقبائل عديدة تتصارع على النفوذ السياسي والسيطرة الاقتصادية على مرافق الحياة.

كانت الحياة السياسية مضطربة في بلاد الشام لأسباب عديدة في مقدمتها ضعف الخلافة العباسية والفساد المستشري في الدولة وسيطرة الفرس والأتراك والجيش وحتى الجواري خصوصاً «القهرمانات»[٣] على الخلفاء، فأصبح منصب الخلافة رهناً بتسلط الغرباء على خلفاء لا هم لهم الاّ اللهو والمجون.

انذاك انقسمت الدولة العباسية الى مناطق نفوذ ومقاطعات تخضع لحكم الغرباء، كبني بويه والسلجوقين الأتراك، والسامانيين الفرس من خراسان، والقرامطة في الاحساء، والحمدانيين في شمال بلاد الشام والفاطميين في شمال افريقيا ومصر.

بغداد ظلت تحت حكم الخليفة العباسي الذي كان خاضعاً لتحكّم الغرباء من فرس وأتراك، فأصبحت الاحاطة بأوضاع تلك الحقبة التاريخية تستوجب دراسة وضع كل دولة، قبيلة أو فئة منفردة ثم علاقاتها مع الدول الأخرى.

ان العودة الى هذه الخلفية التاريخية والى تياراتها الفكرية والسياسية يساعد على تكوين صورة واضحة وشاملة عن التيارات والأوضاع التي نشأت في ظلها عقيدة التوحيد الدرزية.

هذه الدراسة المختصرة لا تتسع طبعاً لتدوين كل ما حدث تاريخياً او فكرياً في ذلك العصر، فهي تقتصر فقط على موضوعها، أي المدارس الفكرية التي أثرت على عقيدة التوحيد الدرزية.

---

(٣) القهرمانه هي المسؤولة عن الجواري.

الفاطميون في بلاد الشام

قبل أن نخوض في تاريخ الفاطميين في بلاد الشام، من المناسب أن نشرح، ولو باقتضاب، نشوء الدولة الفاطمية كي يكون لدينا صورة، ولو كانت مختصرة، عن العوامل التي تسببت في خلق هذه الدولة التي كانت من اقوى الدول الاسلامية في ذلك الوقت وأول دولة شيعية في تاريخ الاسلام.

الفترة بين وفاة الامام جعفر الصادق وقيام الدولة الفاطمية عرفت بدور السّتْر، لأن الائمة الاسماعيلية، اتخذوا السّتْر خوفاً من اضطهاد وبطش العباسيين. ان دور السّتْر يبدأ بالامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق، وينتهي بمبايعة الامام عبيدالله المهدي اميراً للمؤمنين في مدينة سجلماسة عام ٢٩٦ هجري.

بعد أن أعلن عبيدالله المهدي عن امامته، أخرج بذلك الامامة من السرية الى العلنية وأنهى دور السّتْر المعروف ولم يعد هناك من مبرر لاخفاء أسماء الأئمة وانتظار المهدي القائد الروحي الذي يتولى تأمين الاستقرار ونشر العدالة، فهرعت الناس لاعتناق الدعوة الاسماعيلية.

حصر عبيدالله المهدي الخلافة بالفاطميين، أي بنسل فاطمة الزهراء ابنة الرسول الكريم وزوجة علي بن أبي طالب، وانتقى هذا الاسم، لربط اسم الدولة الجديدة باسم مرغوب فيه ومحبب لقلوب الناس في المغرب، وفي الوقت نفسه، لا يشمل حق الخلافة جميع أبناء علي بن أبي طالب، وكان عددهم عند وفاته أربعة وعشرين ولداً، قيل واحداً وثلاثين. منذ ذلك الحين، اقتصرت الخلافة على ابناء فاطمة وأحفادها فلقبت الدعوة بالخلافة الفاطمية نسبة اليها. اما الاسماعيلية، فبقيت الاسم الديني للذين يعتنقون المعتقدات الاسماعيلية، وهذا اللقب عاد للظهور بعد انهيار الدولة الفاطمية.

بدأت الدعوة الاسماعيلية في المغرب عندما أرسل الامام جعفر الصادق الداعيين، أبا سفيان والحلواني الى المغرب، اللّذين أخذا يدعوان الناس لطاعة آل البيت.

ثم أتى الداعي عبدالله الحسين بن احمد بن زكريا، المعروف باسم أبو عبدالله الشيعي الى المغرب من الحجاز مع رجال من قبيلة كتامة، كان التقاهم في مكة في موسم الحج، فأعجبوا بعلمه وسعة اطلاعه على علوم الدين، فدعوه الى بلادهم كي يعلمهم المذهب الاسماعيلي.

أبو عبدالله الشيعي أصله من الكوفة، ذهب الى اليمن بطلب من الامام المستور الحسين بن احمد بن عبدالله الملقب بالاهوازي (توفي عام ٢٨٩هـ)، حيث التحق بالداعي الشيعي، ابن حوشب الذي شجعه على الذهاب الى المغرب ليكمل دعوة أبي سفيان والحلواني.

تمكن أبو عبدالله الشيعي من استقطاب قبيلة كتامة، وكانت أكبر قبيلة بربرية، فجعل منهم جيشاً كبيراً تمكن بواسطته من القضاء على دولة الاغالبة (١٨٤ - ٢٦٦هـ) الذين كانوا يدينون بالولاء للخلافة العباسية وذلك عام ٢٦٦هـ. ثم على الدولة الرستمية (١٤٤ - ١٩٦هـ) وهي دولة من الخوارج الاباضية[٤] وذلك عام ١٩٦هـ ثم على الدولة المدرارية وهي دولة من الخوارج الاصفرية[٥] ولكن هذه الدولة بقيت، ولو ضعيفة، مستقلة الى أن قضى عليها القائد جوهر الصقلبي عام ٣٤٩هـ . ثم دولة الادارسة التي كانت شيعية أسسها ادريس بن عبدالله الذي يرجع نسبه الى الحسن بن علي بن أبي طالب.

أرسل أبو عبدالله الشيعي الى الامام عبيدالله المهدي، الذي كان يدعو باسمه وانه هو المهدي المنتظر، وكان متخفياً في «سلمية»، خوفاً من العباسيين، وكذلك القرامطة، فأتى عبيدالله المهدي المغرب عن طريق فلسطين ومصر، وعند وصوله الى مدينة سجلماسة، سجنه واليها، «اليسع بن مدرار»، طلباً للفدية، حتى احتلها أبو عبدالله الشيعي وأطلق سراحه ونادى به أميراً للمؤمنين والمهدي المنتظر.

جرّب أبو عبدالله الشيعي الاستمرار في ادارة الدولة والاشتراك في الحكم، ولكن عبيدالله المهدي كان يريد الاستئثار بالسلطة، فاتهم أبا عبدالله بالدعوة للعصيان عليه بمساعدة بني كتامة، فامر بقتله مع أخيه أبي العباس وانفرد بالحكم.

---

(٤) نسبة الى عبدالله بن يحيى الاباضي من بني مرة بن عبيد بن تميم.

(٥) نسبة الى زياد بن الاصفر.

بعد موت أمير المؤمنين عبيدالله المهدي عام ٣٢٢هـ انتقلت الخلافة الى ابنه القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤هـ) وعند وفاته انتقلت الى ولده المنصور بالله (٣٣٤ - ٣٤١هـ).

خلال حكم المنصور بالله قامت ثورة أبو يزيد مخلد بن كيداد من قبيلة زناته البربرية وكانت خطراً حقيقيا كادت تقضي على الخلافة الفاطمية الناشئة ولكن المنصور بالله تمكن من القضاء على هذه الثورة.

ثم تولى الخلافة المعز لدين الله وكنيته أبو تميم (٣٤١ - ٣٦٥هـ) فأخضع المغرب للنفوذ الفاطمي وتم توحيده تحت حكمهم.

ان سرد الوقائع التاريخية للعهد الأول الفاطمي، اي من عهد عبيدالله المهدي حتى عهد المنصور بالله، باقتضاب، لأن لا تأثير لهذا العهد على نشوء الدعوة التوحيدية ولهذا اقتضى الاختصار. فهذه الدراسة ليست عن تاريخ الخلافة الفاطمية بل هي محصورة في النزعات والمدارس الفكرية التي سادت في بلاد الشام في وقت النفوذ الفاطمي في ذلك الزمن الذي ابتدأ في عهد الخليفة المعز لدين الله واستمر حتى الحكم الأيوبي.

أما عن الفتح الفاطمي لمصر فيقول الدكتور أحمد مختار العبادي، «سبقت الاشارة الى اهتمام الفاطميين بامتلاك مصر منذ بداية قيام دولتهم بالمغرب، لما تمتاز به من موقع جغرافي فريد في قلب العالم العربي، ليتيح لهم فرصة الاستيلاء على المراكز الاسلامية القديمة، مثل مكة والمدينة ودمشق، بل وبغداد نفسها، حاضرة الخلافة العباسية المعادية لهم»[٦].

أرسل الفاطميون ثلاث حملات لغزو مصر الأولى سنة ٣٠١هـ، والثانية سنة ٣٠٧هـ والثالثة سنة ٣٢٢هـ، واستغرقت كل حملة من هذه الحملات مدة سنتين على الأقل، ولكنها فشلت لأن الخلافة العباسية، في ذلك الوقت، كانت من القوة بحيث تستطيع أن تصد تلك الحملات[٧].

---

(٦) كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٤٧ .

(٧) كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٤٨ .

في عهد الخليفة المعز لدين الله كانت المحاولة الرابعة والناجحة فجهّز المعز لدين الله جيشاً من مائة ألف رجل، معظمهم من قبيلة كتامة المغربية، وجعل على رأسه القائد جوهر الصقلبي[٨]. وقيل ان تكاليف الجيش بلغت فوق العشرين مليون دينار.

سار الجيش الفاطمي في ١٤ ربيع الأول عام ٣٥٨هـ واستولى على مدينة الاسكندرية حيث قابله وفد من اعيان مصر وسلموا له البلاد من دون مقاومة، الاّ معركة قصيرة مع تجمع اخشيدي[*]. كتب جوهر الصقلبي اماناً لأهل مصر وتركهم احراراً على مذاهبهم الدينية. وكان اهل مصر في ذلك الوقت، ثلثين على مذهب السنة وثلثاً نصارى مع بعض اليهود وقلة من الشيعة، اعتنقت المذهب الشيعي خلال ولاية محمد بن أبي بكر الصديق على مصر في عهد علي بن أبي طالب.

كان حلم الخليفة المعز لدين الله احتلال بغداد والقضاء على الخلافة العباسية، أما جوهر الصقلبي ، امير الجيوش، فكان يرى أنه لا بد لتأمين حدود مصر في ناحية الشمال، لمنع خطر البيزنطيين من احتلال بلاد الشام، وجلاء الأخشيد عنها وجعلها، حسب رغبة الخليفة، جسراً تعبره الجيوش الفاطمية لفتح بغداد والقضاء على الخلافة العباسية. كان الخليفة العباسي، في ذلك الوقت، المطيع لله أبو القاسم الفضل ابن المقتدر (٣٣٤ - ٣٦٢هـ).

جهز القائد جوهر الصقلبي جيشاً، جله من الجنود المغاربة، وأرسله لاحتلال بلاد الشام وعلى رأسه القائد جعفر بن فلاح ابن أبي مرزوق الكتامي القائد الفاطمي ومن كبار زعماء قبيلة كتامة.

---

(٨) كان مملوكاً صقليا ولد في صقلية التي كانت تابعة للحكم الفاطمي ثم التحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله. عن سيرته أنظر كتاب، صلاح الدين الصفدي. امراء دمشق في الاسلام، ص ٢٤ .

(*) بعد الاسكندرية سار جوهر الصقلبي الى الجيزة. ويقول ابن زولاق: «كتاب الذيل على كتاب الامراء للكنديّ». غداة يوم الثلثاء لسبع عشر خلت من شعبان سنة ٣٥٨ خرج أبو جعفرالحسيني وجعفر بن الفضل الوزير، وسائر الاشراف والقضاة والعلماء والوجوه ووجوه التجار والرعية الى الجيزة، فلما تكامل الناس، أقبل جوهر في عساكره وتقدم الناس وأبو جعفر احمد بن نصر يعرفه بالناس واحداً واحداً.

كان القائد الكتامي جعفر بن فلاح يرى نفسه أجل من المملوك الصقلبي جوهر، ثم كان الجيش الفاطمي من المغاربة الكتاميين مع أقلية من الصقالبة، فلهذا كان جوهر يخافه ولا يثق بولائه، ولكي يبعده عن مصر وعن الخليفة المعز لدين الله أرسله لاحتلال بلاد الشام.

كانت المعركة الأولى بين الجيش الأخشيدي والجيش الفاطمي في مدينة الرملة في شهر ذي الحجة عام ٣٥٩هـ فانهزم الأخشيد ووقع قائدهم الحسن بن أخشيد اسيراً، فبعث به جعفر بن فلاح الى مصر ومنها أرسل الى المغرب حيث بقي فيها حتى مات.

بعد احتلال الرملة سار جعفر بن فلاح الى طبريّة حيث استلمها من دون قتال من واليها «ملهم» الذي اقام الخطبة للخليفة المعز لدين الله.

بعد احتلال طبرية توجه جعفر بن فلاح الى دمشق، ولكن قبل تركه طبرية، اتاه وفد من اعيان دمشق، منهم عقيل بن الحسن بن الحسين العلوي، وابن ابي يعلى العباسي يطلبون منه الأمان على أرواح أهل دمشق وعدم نهب وتدمير المنازل على أن يسلموه المدينة من دون قتال. رفض جعفر طلبهم واساء معاملتهم، فعادوا الى دمشق خائبين، وعندما علم الأهالي بذلك قرّروا المقاومة.

وصل جعفر بن الفلاح وجيشه الى دمشق فدارت رحى الحرب بينهم وبين أهالي المدينة الذين كانوا بقيادة محمد بن عصودا وابن يعلى العباسي. انهزم اهالي دمشق ولكن تمكنوا من قتل عدد كبير من الجنود المغاربة.

احتل جعفر بن فلاح دمشق وترك جنوده المغاربة يسلبون الأهالي وينهبون بيوتهم. ومما زاد في حدة الخلاف وسوء المعاملة، كان الخلاف المذهبي بين الطرفين، فالدمشقيون كانوا على مذهب السنة والمغاربة من الشيعة الاسماعيلية.

عندما كثر الشغب والتعدي وكادت الفوضى أن تصير عامة، قرر جعفر ان الأمن لن يستتب الاّ بالقضاء على زعماء الفتنة فأعدم جماعة من زعماء دمشق فأدى سلوكه الغاشم هذا الى ازدياد نقمة الشعب وفرار عدد من زعمائه، فقد فر ظالم بن موهوب العقيلي ومحمد ابن عصودا الى الاحساء حيث اوغرا صدور القرامطة على الفاطميين وأثارا حماستهم لقتالهم.

استطاع جعفر بن فلاح أن يقيم الخطبة في دمشق للخليفة المعز لدين الله الفاطمي الاسماعيلي، الخطبة لأمام اسماعيلي شيعي على شعب يدين بالمذهب السني، ولكنّه لم يتمكن من الاستيلاء على جميع بلاد الشام. فكان الحمدانيون في حلب يناوئون الفاطميين من حين الى آخر ويحتمون بالبيزنطيين، ثم فشلت حملته على انطاكية بقيادة غلامه «فتوح» ثم ظهر الخطر القرمطي، الذي استنفرهم ظالم بن موهوب العقيلي.

في عام ٣٦٠هـ قدم القائد القرمطي حسن الأعصم الى دمشق مع حلفائه الحمدانيين وبعض الأخشيدية وجمع كبير من جند العقيليين بقيادة ظالم بن موهوب العقيلي وجرت معركة في مكان يقال له «الدكة» فانهزم جعفر بن فلاح وتشتت جيشه بعد أن قتل عدد كبير من جنده ثم تمكن القرامطة من قتله في شهر ذي القعدة من العام نفسه.

استولى القرامطة على دمشق وخطبوا للخليفة العباسي المطيع لله ابو القاسم الفضل بن المقتدر (٣٣٤ - ٣٦٣هـ) ومن دمشق سار حسن الأعصم القرمطي الى الرملة.

«احتل حسن الأعصم الرملة بعد قتال شديد واستولى على جميع ما فيها من الثروة فامتلأت أيدي القرامطة من المال والسلاح وغيره».[٩] ثم اتجه الى مصر بعد أن ترك والياً على الرملة من قبله وأرسل الى يافا جيشاً بقيادة القائد القرمطي «المنجا»[١٠] والزعيم ظالم بن موهوب العقيلي، اللذين اختلفا على حكم المدينة وعلى اقتسام الجزية التي جمعاها من الأهالي.

سار القائد حسن الأعصم الى مصر مع حلفائه الأخشيد والعقيليين والحمدانيين في عام ٣٦١هـ فاحتل مدينة القلزم ثم عين شمس ثم اتجه الى القاهرة.

ان محاولة حسن الأعصم احتلال مصر والمعارك التي جرت، من أجل ذلك، ثم محاولته الثانية عام ٣٦٢هـ مع حلفائه بني الجرّاح ستبحث في فصل «القرامطة» الذي يلي هذا الفصل عن الفاطميين.

(٩) كتاب تاريخ دمشق، ابن القلانسي، ص ٣ .

(١٠) هو القائد أبو الهيجا عبدالله بن علي المنجا احد الأصحاب المقرّبين من حسن الاعصم.

كان الفضل الأكبر لانتصار الفاطميين هو لقيادة جوهر الصقلبي الحازمة وبراعته كقائد عسكري وسياسة الوزير يعقوب بن يوسف بن كلس الحكيمة[11].

على الرغم من نجاح الفاطميين في استرجاع حكمهم في بلاد الشام، جابهوا انتفاضات كثيرة وخصوصاً في دمشق، حيث ثار الأهالي على الجنود المغاربة الذين كانوا بقيادة أبي محمود بن فلاح الكتامي فكانت فتنة قتل فيها الكثيرون وحرقت بيوت وشوارع حتى المساجد[12].

انتهت الفتنة في دمشق باقالة الوالي ظالم بن موهوب العقيلي واستلام الحكم من القائد جيش بن الصمصامة، ابن أخت القائد، الذي كان سبب الفتنة، أبي محمود بن فلاح الكتامي.

اكرر ما قلناه سابقاً، ان اختلاف المذاهب في دمشق بين الأهالي، وكانوا على مذهب السنة، والفاطميين الاسماعيليين الشيعة، وتعديات الجنود المغاربة على الأهالي، وعدم طاعتهم لقادتهم، وحتى اختلاف اللهجة المغربية، التي تطغى عليها اللهجة البربرية، عن لهجة الدمشقيين العربية، جعل الدمشقيين ينظرون اليهم كجيش غريب محتل لبلدهم ويسعون للخلاص منه.

وفي عام ٣٦٤هـ قدم القائد التركي العباسي أبو منصور أفتكين وكان معه ثلاثمائة جندي من الأتراك. ترك أفتكين بغداد وكان قائد الفرقة التركية في الجيش العباسي، بعد الفتنة التي حصلت بين الديلم والترك واستلام الخليفة الطائع لله أبو الفضل (٣٦٢ – ٣٨١هـ) الذي كان يميل الى الديلم ولا يثق بافتكين، ممّا اضطر أن يترك بغداد الى بلاد الشام ولكنه بقي على ولائه للعباسيين.

وصل افتكين الى حمص ومنها سار الى دمشق فخرج اليه اعيانها وسألوه الاقامة عندهم، ودفع أذية وتعدي المغاربة عنهم فقبل ذلك وأحسن السيرة وقمع

---

(١١) يعقوب بن كلس يهودي من العراق اتى مصر والتحق بكافور الأخشيدي حيث أعلن اسلامه. ثم ذهب الى المغرب فالتحق بالمعزّ لدين الله ورافق جيش جوهر الصقلبي لمصر حيث وضع أساس النظام الاداري للدولة الفاطمية وتسلم الوزارة مرات عدة وتوفي في أيام الخليفة العزيز بالله.

(١٢) كتاب تاريخ دمشق لابن القلانسي من ص ١٠ الى ص ٢٠ تفصيل كامل عن هذه الفتنة المدمرة.

الفساد وهاجم المغاربة وقتل الكثير منهم فاستتب الأمن وسادت الطمأنينة في المدينة وخطب للخليفة الطائع العباسي في المساجد وبذلك قضى على النفوذ الفاطمي في دمشق وذلك عام ٣٦٤هـ.

سار افتكين الى بعلبك لتحجيم نفوذ ظالم موهوب العقيلي الذي فر الى صيدا، ولكن في ذلك الوقت، كان الاجتياح البيزنطي بقيادة الامبراطور «يوحنا تريكس» الذي هدد دمشق. وبما أن افتكين كان على خلاف مع الفاطميين لا يستطيع طلب المساعدة منهم، فاتفق مع البيزنطيين على أن يدفع لهم ثلاثين ألف دينار سنوياً، وهكذا عدل البيزنطيون عن احتلال دمشق.

ويقول المؤرخ ابن ايبك الدواداري «وأراد افتكين احتلال بلاد الشام بأجمعها وجعلها تحت نفوذه، فسار الى صيدا حيث اصطدم مع واليها ابن الشيخ وظالم بن موهوب العقيلي، فاستولى عليها بعد معركة قتل فيها عدد كبير من الجند والأهالي، ثم اتجه الى عكا وحاصرها ولكنه لم يتمكن من دخولها ثم احتل مدينة طبرية»(١٣).

وخاف الخليفة المعز لدين الله من امتداد نفوذ افتكين وتقربه من البيزنطين، فجهز جيشاً ليسير به الى بلاد الشام ولكنه مات عام ٣٦٥هـ وخلفه ابنه ابو المنصور العزيز بالله(*) الذي كتب الى افتكين يطلب الاجتماع به واعداً بحسن المعاملة كي يمنع سفك دماء المسلمين فكان جواب افتكين. «هذا بلد أخذته بالسيف وما ادين فيه لأحد بطاعة ولا اقبل منه امراً»(١٤).

أرسل الخليفة العزيز بالله جيشاً بقيادة جوهر الصقلبي، بعد أن أعاده الى منصبه أميراً للجيوش، فوصل دمشق في ذي القعدة عام ٣٦٥ وحاصرها، فأرسل افتكين

(١٣) كتاب الدرة المضيئة في اخبار الدولة الفاطمية، ص ١٧٦ .

(*) ولد العزيز بالله في مدينة المنصورية في تونس وتسلم الخلافة عام ٣٦٥هـ وتوفي في بلبيس عام ٣٨٦هـ.

(١٤) كتاب تاريخ دمشق. ابن القلانسي ص ٢٩ . وكتاب تكملة تاريخ الطبري، محمد الهمذاني ص ٢٢٥ .

يستدعي القرمطي محمد حسن الجنابي المعروف «بالحسن الأعصم»[١٥]. فلما علم جوهر بذلك رفع الحصار عن دمشق وذهب الى الرملة حيث اشتبك مع جيش افتكين وجيش القرامطة في شهر محرم عام ٣٦٧هـ.

انهزم افتكين والتجأ الى المفرج بن دغفل زعيم بني الجرّاح، وجاء به الى الخليفة العزيز بالله الذي عامله معاملة كريمة وأسكنه قصراً في القاهرة مع جميع ما يحتاجه من مال وخدم. وكان قائد الجيش القرمطي جعفر ابن عم الأعصم الذي اجتمع برسول الخليفة العزيز بالله واتفق على أن لا يرجع الى بلاد الشام مقابل عشرين ألف دينار تدفع له سنويا[١٦] وكان ذلك انتهاء حروب القرامطة في بلاد الشام ولم يرجعوا بعد ذلك اليها.

سنلقي نظرة سريعة ومختصرة على بعض الحوادث التي جرت مع الفاطميين في بلاد الشام كي لا نترك فجوة في تاريخهم في تلك البلاد، هذا مع العلم بأن هذه الحوادث لم تؤثر على نشوء وانتشار دعوة التوحيد.

أول حادث مهم كان تسليم مدينة حلب، لأول مرة في تاريخ الفاطميين، الى الخليفة الحاكم بأمر الله بواسطة «فتح» غلام مرتضى الدولة وذلك عام ٤٠٦هـ.

بتسلّم الفاطميين مدينة حلب تحققت أول خطوة لامكانية القضاء على الخلافة العباسية، الذي كان حلم الفاطميين منذ عهد الخليفة المعز لدين الله، لأن حلب تعتبر المدخل الطبيعي للعراق. لم يتحقق هذا الحلم في ذلك الوقت لضعف الجيش الفاطمي.

---

(١٥) توفي الحسن الأعصم عام ٣٦٦ وخلفه ابن عمه جعفر في قيادة القرامطة. حسن الأعصم هو ابن سعيد بن الحسن الجنابي الذي عندما مات عام ٣٥٩هـ تولى ولده الحسن زعامة القرامطة.

(١٦) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين. الدكتوره أمينة بيطار، ص ٧٧ . يقول محمد بن عبد الملك الهمذاني كتاب تكملة تاريخ الطبري ص ٢٢٨ ان المبلغ كان سبعين ألف دينار.

ثم كانت مبايعة بني الجرّاح لأبي الفتوح الحسن بن جعفر العلوي والي مكة، بالخلافة وقدومه الى بلاد الشام مع جيش صغير من العلويين عام ٤٠١هـ. وكان ذلك في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله(*).

أعلن الحسن بن جعفر العلوي خلافته في المسجد في مكة وتوجه مع جيشه من العلويين الى الرملة متقلداً «ذو الفقار» سيف الامام علي بن أبي طالب. أرسل الحاكم بأمر الله جيشاً للقضاء على هذه الانتفاضة العلوية، فحصلت معركة قرب «داروم» وانهزم الجيش الفاطمي وبذلك قوي نفوذ بني الجرّاح في بلاد الشام واشتد عزمهم على مبايعة أبي الفتوح العلوي(**).

لجأ الحاكم بأمر الله الى المال فأرسل الى حسّان ابن الجرّاح مبلغاً كبيراً فتخلى عن أبي الفتوح، الذي كان قد نفد ماله، فرجع الى مكة عام ٤٠٣هـ وكتب الى الحاكم بأمر الله يطلب العفو والغفران فصفح عنه الحاكم بأمر الله وأرجعه والياً على مكة.

وكان الحلف الثلاثي عام ٤١٥هـ عندما قسمت بلاد الشام الى ثلاث مناطق. من الرملة الى حدود مصر لبني الجرّاح، دمشق وضواحيها الى بني كلب، وللمرداسيين من حلب الى نهر الفرات. انتشرت الفوضى في بلاد الشام اذ استولى بنو الجرّاح عام ٤١٥هـ على الرملة، وكانت أكبر مدينة في فلسطين، فأحرقوها بعد نهبها، كما احرقوا ونهبوا قرى عديدة غيرها.

أرسل الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله (٤١١ = ٤٢٧هـ) عام ٤١٩هـ جيشاً مؤلفاً من سبعة آلاف فارس، بقيادة القائد التركي انوشتكين الدزبري، لقتال هذا الحلف والقضاء عليه.

(*) كتاب تاريخ دمشق. ابن القلانسي ص ٣٢ الى ص ٣٦ . وكتاب تاريخ الاسماعيلية، عارف تامر ص ١٥٧ الى ص ١٦٢ وكتاب موقف أمراء العرب من الفاطميين. الدكتورة امينة بيطار يعطي وصفاً مفصلاً عن معركة الرملة وما جرى بين افتكين والعزيز بالله.

(**) تلقب الحسن بن جعفر العلوي باسم الخليفة الراشد بالله.

جرت المعركة في مكان في فلسطين يدعى الاقحوانة[17] حيث انهزمت فيها جموع العرب وقتل فيها صالح بن مرداس زعيم بني مرداس وولده الأصغر[18].

ما يهم الموحدين الدروز من معركة الاقحوانة أنهم اشتركوا فيها مع رجال بني كلب، بقيادة الأمير رافع بن ابي الليل الكلبي[19] ثم مقتل عدوهم صالح بن مرداس، الذي اشترك مع والي دمشق عبد الرحيم بن الياس، في اضطهادهم وقتل الكثير منهم.

أما نصر بن صالح بن مرداس، الذي تزعم المرداسيين بعد موت والده في معركة الاقحوانة، فقد هاجم الموحدين عند انتفاضتهم عام ٤٢٣هـ في جبل السمّاق وانطاكية حيث جرت مذابح قُتل فيها الكثيرون من الموحدين الدروز.

قتل نصر بن صالح بن مرداس عام ٤٢٨ في معركة «تل فاس» قرب سلمية عندما فر أخوه ثمال بن صالح الى حلب وتركه، مع قلة من الجند، يحارب الجيش الفاطمي، ويقال ان هذا الجيش كان بقيادة الأمير رافع بن أبي الليل الكلبي[*].

في عام ٤٥٠هـ في عهد الخليفة المستنصر بالله، احتل القائد أرسلان البساسيري بمساعدة الفيلسوف الاسماعيلي هبة الله الشيرازي وبني عقيل بغداد وخطب للخليفة المستنصر في مساجدها وسك النقود باسمه. وبهذا الاحتلال، الذي لم يدم الاّ سنة واحدة، تحقق ما كان يحلم به جميع الخلفاء الفاطميين وخصوصا المعزّ لدين الله. بما أن هذا الحدث المهم حصل في العراق، وهو خارج عن نطاق هذه الدراسة، فلا فائدة من التعمق في دراسته.

---

(١٧) كتاب تاريخ دمشق. ابن القلانسي ص ١١٨ - ١٢٠ .

(١٨) قيل ان الذي قتل صالح بن مرداس كان طريف من قبيلة فزارة. تاريخ دمشق ابن القلانسي. ص ١١٩ . ويقال أنه الأمير ابن أبي الليل الكلبي. وكذلك قيل أنه القائد الكتامي جعفر بن كليد الذي كان والي حمص ومساعد الدزبري.

(١٩) الأمير رافع بن أبي الليل الكلبي هو ابن عم أمير قبيلة بني كلب سنان بن عليان.

(*) هذه الحوادث سيأتي ذكرها مرة أخرى في الفصل عن امارة المرداسيين والفصل عن قبيلة بني كلب.

من العوامل التي ساعدت على فشل الفاطميين، زيادةً على سوء تصرف قادتهم وجنودهم المغاربة، كان فشلهم في تحقيق دعوتهم بعودة المهدي المنتظر لنشر الخير والعدل بين الناس والقضاء على الظلم والفساد. ان هذه الوعود كانت أساس الدعوة الفاطمية التي بثها الدعاة الاسماعيليّون وروج لها الخلفاء الفاطميون الذين ارتكزت سياستهم على قاعدة من العلاقات العامة نشرها الألوف من الدعاة في العالم الاسلامي وهؤلاء الدعاة درسوا العقائد الاسماعيلية في «دار الحكمة» في القاهرة ويقولون إن في عهد الداعي الكبير احمد حميد الدين الكرماني، وكان مديراً لدار الحكمة حيث تدرب الدعاة، كان لديه أكثر من ألف وأربعماية داع منتشرين في البلاد الاسلامية يبثون الدعوة الاسماعيلية ومنها عودة المهدي المنتظر.

علاقة الموحدين الدروز بالفاطميين علاقة مهمة جداً، لأن في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله انطلقت الدعوة التوحيدية وفي عهد ابنه الظاهر لاعزار دين الله اضطهدت في مصر وانتقلت الى بلاد الشام.

بنو كلب

بنو عمرو بن لؤي بن رهم بن معاوية بن أسلم بن أحمس بن الغوث من قضاعة[1]. بنو قضاعة قبيلة من حمَير من القحطانية[2].

تقول الدكتورة أمينة بيطار. «بنو كلب» من قضاعة، وهم بنو كلب بن وبرة. أما بنو بحدل فبطن من بني كلب بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحافي من قضاعة. وكانت رئاسة بني كلب في الاسلام لبني بحدل[3].

قلنا سابقاً، انحدر العرب من جدين عظيمين هما: قحطان الذي عاش في جنوب شبه الجزيرة العربية، وعدنان الذي عاش في شمالها. الحزبان اللذان تحاربا في مرج راهط عام ٦٤هـ كانا ابناء الجنوب اليمانيين، وعلى رأسهم بنو كلب، وفي الجانب المقابل، ابناء الشمال القيسيين وجلهم من بني كلاب.

نزل بنو كلب بادية الشام وحلب وتدمر وقراها، وكانوا يعتبرون من انصاف أهل البادية، يعيشون من تربية الماشية والزراعة، كما انهم ساعدوا على ازدهار التجارة في بلاد الشام، حتى قيل إنهم ورثوا المركز التجاري الذي كان للغساسنة.

ومما يلفت النظر من الناحية الدرزية، «ان بني كلب كانوا من بني قضاعة وهم مؤلفون من قبائل شتى بينها بهراء وتنوخ»[4]. ان معظم العائلات الدرزية من سلالة

---

(١) كتاب نهاية الأرب في معرفة انساب العرب ابو العباس القلقشندي ص ٤٠٨ .

(٢) كتاب نهاية الأرب في معرفة انساب العرب ابو العباس القلقشندي ص ٤٠٠ .

(٣) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين ص ١٤٣ .

(٤) قحطان هو ابن عابر، وهو هود. وقد تفرع عنه سبأ بن يشجب بن يعرب وحمير وكهلان ومنهم بطون كثيرة خرجت من اليمن وانتشرت في بلاد العرب، وأشهر بطون كهلان هم الازد وهم أولاد الازد بن الغوث بن مالك بن زيد بن كهلان، تفرقوا بعد خراب سد مأرب ومنهم الأوس والخزرج الذين سكنوا المدينة (يثرب) ومن الأزد الغساسنة الذين سكنوا بلاد الشام. من كهلان قبيلة مذجح ومن مذجح قبيلة عنس وهي قبيلة الصحابي عمّار بن ياسر. كتاب عشائر الشام. وصفي زكريا. مجلد ١ ص ٧٣ .

التنوخيين، ثم ان المقداد بن الأسود الذي يحترمه، الدروز لشجاعته وفروسيته والذي قال عنه عمرو بن العاص «يقوم مقام ألف رجل»[٥]، كان من قبيلة البهراء ومن الاوائل الذين شايعوا للامام علي بن أبي طالب. في معركة بدر لم يكن لدى المسلمين الا فرس واحدة اسمها «سبحة» وكانت للمقداد بن الأسود.

كان القسم الأعظم من بني كلب وهم من حلف تنوخ، يعتنق النصرانية، وذلك لأنهم كانوا يقيمون في بلاد الشام في مجتمع نصراني. ولكن عند قدوم القائد أبو عبيدة عامر ابن الجرّاح الى ضواحي حلب حيث مضارب بني كلب، «أرسل هؤلاء الى خالد بن الوليد يستعطفونه ويبدون له انهم، انما ذهبوا الى البيزنطيين مرغمين ودون ارادتهم ولم يكن من رأيهم قتال المسلمين. فاستجاب خالد لندائهم وقبل منهم ما عرضوا عليه وتركهم»[٦]. أسلم معظم بني كلب على يد خالد بن الوليد وانضموا اليه وقاتلوا في صفوفه.

قبل قيام الخلافة الأموية تزوج الخليفة الراشد الثالث، عثمان بن عفان، بنائلة بنت القرافصة بن الاحوض الكلبي[٧]. ثم رأى معاوية بن أبي سفيان أن يتقرب من بني كلب، وهي من أكبر القبائل العربية في بلاد الشام، فتزوج ميسون بنت بحدل[*] زعيم بني كلب، فولدت له يزيد، فأصبح بنو كلب اخوال ولي العهد وحماة طبيعيين له فقويت شوكتهم.

---

(٥) كتاب تاريخ اليعقوبي. احمد بن يعقوب اليعقوبي مجلد ١ ص ١٤٨ .

(٦) كتاب خطط الشام. محمد كرد علي ص ٦٧ .

(٧) كتاب انساب الاشراف. احمد بن يحيى بن جابر البلاذري مجلد ٥ ص ١٢ .

(*) ميسون بنت بحدل صاحبة الشعر المعروف:

ولبس عباءةٍ وتقرُّعيني	احب الي من لبس الشفوف
وبيتٍ تعصف الارياح فيه	احب الي من قصر منيف
واكل كسيرة من كسر بيتي	احب الي من اكل الرغيف
واصوات الرياح بكل فج	احب الي من نقر الدّفوف
وخرق من بني عمي نحيف	احب الي من علج عنيف

ولما سمع معاوية هذا الشعر قال «ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتني علجاً عنيفاً» مخطوطة للامام أبو محمد القاسم بن علي الحريري – درة الخواص. ورقة ٣٨ .

ان زواج معاوية بن أبي سفيان من بني كلب، وتفضيله لهم على اشراف قريش وأهل بيته خاصة، جعل لهم نفوذاً كبيراً مما أثار حقد قبيلة كلاب القيسية عليهم وامتعاض بني ثقيف، حلفاء بني امية حتى قبل الاسلام، الذين شعروا بخطر تقارب السلطة لبني كلب على نفوذهم ومصالحهم.

عندما قام عبدالله بن الزبير بن العوام بدعوته للخلافة انضم القيسيون اليه بقيادة الضحاك بن قيس، وكانت علاقة اليمنيين، بني كلب، بالسلطة في ذلك الوقت، قد اعتراها نفور، حتى عداء، لأنهم نادوا بالقدرية، التي كانت أمية تحاربها، لأنها تقول بحرية الانسان في أعماله وان الخلافة حق للمسلمين يختارون لها أقدرهم عليها وأصلحهم لها. ذلك يعني تجريد الأمويين من حق الخلافة الوراثي وانتخاب غيرهم. ثم هاجموا سياسة أمية المالية بالتصرف بأموال المسلمين حسب أهوائهم ومصالحهم التي لا علاقة لها بالاسلام. أدى ذلك الى نفور كبير بين بني كلب اليمانيين والأمويين لدرجة أن أهدر الخلفاء الأمويون دماء من يقول بالقدرية، وذلك يشمل بني كلب.

بعد موت يزيد بن معاوية عام ٦٤هـ تولى الخلافة ابنه معاوية الثاني ولكنه تنحى عنها بعد أربعين يوماً واعتكف في بيته حتى مات.

عند موت معاوية الثاني تقدم للخلافة مروان بن الحكم الذي كان يطمع بها منذ زمن الخليفة عثمان بن عفان. عارض أول الأمر ترشيح مروان بن الحكم بنو كلب فكان موقفهم مؤيداً لفكرة ابقاء الخلافة في نسل يزيد، اي في ابنه خالد، وهو من نسل ابنتهم ميسون، والدة يزيد، وليس تحويلها الى المروانيين.

برز في دمشق الضّحاك بن قيس الفهري واستطاع استلام قيادة الناس وكان يميل الى ابن الزبير الذي اعتبره أحق بالخلافة من مروان بن الحكم.

تأزم الوضع في دمشق فاقترح المعارضون لابن الزبير عقد مؤتمر في مكان يدعى «الجابية» في حوران.

تمكن مروان بن الحكم من أخذ البيعة لنفسه في مؤتمر الجابية بعد أن اتفق مع حسّان بن مالك بن بحدل، زعيم بني كلب، على أن تكون الخلافة لمروان بن الحكم ولكن يتولى بعده خالد بن يزيد بن معاوية فترجع الخلافة الى السفيانيين.

وتكلم حسّان بن مالك بن بحدل زعيم بني كلب فقال: «رأي لرأيكم، انما

كرهت أن تعدل الخلافة الى ابن الزبير وتخرج من هذا البيت»[8].

عندما اجتمعت كلمة المؤتمرين في الجابية على مروان بن الحكم، جرت معركة «مرج راهط» عام ٦٤هـ التي استمرت أياماً عدّة واسفرت عن نصر مروان بن الحكم ومن معه، وعن مقتل بعض زعماء بني كلاب القيسيين، منهم الضّحاك بن قيس الفهري.

والمعروف أن من أهداف الفاطميين كان احتلال بلاد الشام وجعلها ممراً الى بغداد للقضاء على الخلافة العباسية، ولكن نجاحهم اقتصر على جنوب بلاد الشام، في فترات متقطعة، واخفقوا في الشمال، اولاً، لبعد عاصمتهم القاهرة عن حلب، ثم ضعف الخلافة الفاطمية وامتداد سلطتها على مسافات شاسعة ومقاومة البيزنطيين للوجود الفاطمي، مما ساعد في توطيد نفوذ القبائل العربية البدوية في بلاد الشام، التي كانت تملك قوة كبيرة وفعّالة، خصوصاً الفرص التي أتاحتها اليها الأوضاع غير المستقرّة، ثم غياب السلطة المركزية فاستولت على مدن ومناطق أسست فيها أسراً حاكمة بدوية، أو شبه البدوية، كأسر بني طي، كلاب وحمدان ومرداس وكلب.

كان لبني كلب مقاييسهم الخاصة في الاخلاص السياسي؛ فان طبيعتهم البدوية جعلتهم يغترون ببريق المال، فسرعان ما كانوا يتركون نصرة قائد وينضمون الى أخر اذا ما عرض عليهم المال، ولهذا نجدهم ينضمون الى فئة دون أخرى، ليس بتأثير الدين او العنصرية بل بمصالحهم المادية.

كانت علاقة بني كلب بالقرامطة مبهمة ولم تشر اليها المصادر التاريخية الاسلامية الاّ كحوادث عرضية وأخبار متفرقة، ومنها التي وردت في أحد كتب التاريخ الاسلامي. «ان بني كلب والتنوخيين[*] كانوا حلفاء وهم يرجعون الى قضاعة القحطانية وانهم انتقلوا الى الاحساء وتحالفوا مع القرامطة». ويقول محمد عبد الفتاح عليان «وكان أعراب تلك البادية وموالوهم يقومون بنقل المتاجر على ابلهم فيما بين الكوفة ودمشق، ولهذا مال بنو كلب، الذين يسكنون بادية «المسمارة» واعتنقوا مذهب القرامطة»[9].

(٨) كتاب انساب الاشراف. احمد بن يحيى البلاذري. مجلد ٥ ص ١٢٨ .

(*) كان بنو كلب من القبائل التي شكلت الحلف التنوخي.

(٩) رسالة القرامطة ص ٨١ .

ويقول ابن القلانسي، نقلاً عن سبط الجوزي (مرآة الزمان) «ان حازم بن نبهان القرمطي هو أمير بني كلب»[10].

أما محمد كرد علي فيقول «فاما بنو كلب فقد انضموا الى غانم القرمطي، الذي خرج في أيام الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) وقوي امر القرمطي بهم، فوجه الخليفة المقتدر اليهم الحسين بن حمدان بن حمدون فحاربهم[11].

ما يهمنا كموحدين دروز، هو علاقة بني كلب، الذين نزح بعضهم لاحقاً الى لبنان، بالقرامطة، بالاضافة، ان الذين اعتنقوا العقيدة التوحيدية في جبل السمّاق ووادي التيم كانوا من جماعات القرامطة الذين لم ينزحوا من بلاد الشام بعد معركة الرملة عام ٣٦٧هـ واتخذوا اسم غلاة الاسماعيلية بالنسبة لكره الناس للقرامطة لما اقترفوه من التدمير والقتل في حروبهم في بلاد الشام ثم اتهامهم بالكفر لنسخهم الفروض الاسلامية وهجومهم على مكة.

قدم جماعة من بني كلب الى لبنان وجلبوا معهم العصبية اليمنية وبهذا يقول الشاعر أبو الفتح منصور المعروف بالبيني.

سقى الله قوماً حول لبنان مثلما ترشفت فيه من رضاب ظبائه

قبائل من كلب اذا نزلت به فقد نزلت فيه نجوم سمائه

نزلوا على الوادي الذي حرّ مهجتي وحرّ الحشا شوقاً الى برد مائه

ترى كل عين فيه ما في ضميرها كذلك لون الماء لون إنائه[12]

بعد سقوط خلافة بني امية عام ١٣٢هـ وقيام الخلافة العباسية، التي اعتمدت على العناصر الاسلامية واهملت العرب، ضعفت القبائل العربية في بلاد الشام وزال نفوذها، ومن هؤلاء بنو كلب الذين زال عنهم ما كان يتمتعون به من السلطة والنفوذ في زمن بني أمية، فأصبحت وظائفهم حراسة طرق القوافل في الصحراء وتأمين سلامة طرق التجارة بين بلاد الشام والعراق والحجاز.

---

(١٠) كتاب تاريخ دمشق. حاشية، ص ٩٧ .

(١١) كتاب خطط الشام، ص ٢١٠ .

(١٢) كتاب اخبار مصر في سنتي ٤١٤ و ٤١٥ . المسبحي ص، ٦٩ .

استعاد بنو كلب مكانتهم ونفوذهم بعد الاحتلال الفاطمي اذ كانت الدولة الفاطمية تخشى وقوفهم الى جانب أعدائها، وخصوصاً في الأوقات التي كان يسود فيها الاضطراب والحروب الأهلية، ولم يكن للفاطميين الا جيشهم ومعظمه من المغاربة الغرباء، لفرض سلطتهم وحمايتهم، فاضطروا الى الاعتماد على مقاتلي بني كلب كرديف للجيش الفاطمي وكسلطة محلية يثق الناس بها لتهدئة الأوضاع الأمنية.

اشترك بنو كلب في حروب عديدة معظم أسبابها كان الكسب المادي، فيوماً كانوا حلفاء الفاطميين، ويوماً قاتلوهم وكذلك الأمر مع البيزنطيين وغيرهم. ولهذا لا ضرورة لدراسة هذه الحروب لأن سببها ونتائجها كان الحصول على المادة وهي ليست موضوع هذه الدراسة.

خلال العهد الفاطمي برز زعماء من بني كلب أهمهم:

- سنان بن عليان الكلبي: قاتل الفاطميين ثم انحاز اليهم بعد ان اغروه بالمال. ثم عقد حلفاً مع صالح بن مرداس وحسّان بن مفرج بن الجرّاح واقتسموا بلاد الشام الى ثلاث مناطق بقيت حتى معركة «الاقحوانة» حين هزم هذا الحلف الثلاثي القائد نشتكين الدزبري.

- الامير رافع بن أبي الليل الكلبي: يقول بعض الموحدين الدروز أن الأمير رافع بن أبي الليل اعتنق مذهب التوحيد الدرزي وانه، في معركة «الاقحوانة» في فلسطين، حارب مع جمع من الموحدين في صفوف القائد الفاطمي نشتكين الدزبري، ويروى، ان الذي تولى قتل صالح بن مرداس هو الامير رافع بن أبي الليل الكلبي ولكن معظم المؤرخين يشك في ذلك.

الأمير رافع بن أبي الليل بسط حمايته على الموحدين الدروز وساعدهم كثيراً ولكنه لم ينفصل عن عمه سنان بن عليان، بل الواقع أن الزعيم سنان بن عليان مات عام ٤١٩هـ / ١٠٢٨م وحدث خلاف على الامارة بين زعماء بني كلب فذهب الأمير رافع بن ابي الليل الى القاهرة حيث عيّنه الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أميراً على بني كلب وخليفة لعمه.

يقول ابن القلانسي «وكان صالح بن مرداس على فرسه المشهور، فوقف به من

كد الهزيمة ولم ينهض به، فلحقه رجل من العرب يعرف بطريف من فزارة، فضربه بالسيف في رأسه وكان مكشوفاً فصاح ووقع ولم يعرفه، ثم جدّ في طلب فرسه، فمر به رجل من البادية فعرفه فقطع رأسه وعاد يرقص به فلقيه الأمير عز الدولة رافع (رافع بن أبي الليل من امراء كلب) فأخذه منه وجاء به الى الأمير المظفر»[١٢].

عيّن القائد نشتكين الدزبري الأمير رافع بن أبي الليل قائداً على فرقة من جيشه فاشترك في معركة «تل فاس» في ١٥ شعبان عام ٤٢٧هـ حيث قتل نصر بن صالح بن مرداس. وفي عام ٤٢٧هـ زوّج الأمير رافع ابنته الى نشتكين الدزبري فأصبح مقرباً إليه وصاحب نفوذ كبير.

بالنسبة الى المكانة الرفيعة والاحترام الذي يكنه الموحدون الدروز للأمير رافع بن أبي الليل بن عليان الكلبي أصبح من الواجب والضرورة اعطاء بعض التفاصيل، ولو قليلة نقلتها كتب التاريخ الاسلامية، عن أعمال هذا الأمير الشجاع الوفي وعلاقته مع الفاطميين.

الواقع ان علاقة بني كلب بالفاطميين بدأت على شكل عدائي اثناء رياسة أميرهم سنان بن عليان الكلبي، عم الأمير رافع بن أبي الليل. ولكن ما أن توفي الأمير سنان بن عليان عام ٤١٩هـ (١٠٢٨م) حتّى تمكن الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله من

(١٢) الأمير المظفر أمير الجيوش عضد الدولة أبو منصور أبو نشتكين الدزبري كان تركيا ولد في منطقة خطل حيث نهر جيحون. بيع وهو غلام في كاشغر تركيا ولكنه فرّ الى بخارى في فارس حيث قبض عليه وأرسل الى دمشق حيث وصلها عام ٤٠٠هـ ثم بيع في دمشق الى ضابط فاطمي من أصل فارسي يعرف باسم «دزبر» وكان هذا لقبه في عام ٤٠٣ قدم الى الحاكم بأمر الله حيث خدم لمدة سنة ثم عام ٤٠٦هـ سار الى دمشق مع الجيش الفاطمي. عيّن واليا على بعلبك لمدة أربع سنوات ثم نقل الى قيسرية حيث رقي الى منصب والي فلسطين. عزل من منصبه كوالي حلب بسبب دسائس الوزير الجرجرائي.

أن يكسب بني كلب الى جانبه ويوقف هجومهم على مدينة دمشق واوساط بلاد الشام. وبهذا انتهت فترة عداء بني كلب للفاطميين ودانوا لهم بالطاعة لفترة طويلة امتدت حتى ظهور القائد الفاطمي بدر الجمالي وسيطرته على مقاليد الحكم في الدولة الفاطمية في عهد الخليفة المستنصر بالله.

دخل رافع بن أبي الليل بن عليان في طاعة الخليفة الفاطمي الظاهر لاعزاز دين الله، فقرّبه اليه وأولاه ثقته، وكما قلنا سابقاً، عقد له الامارة على الكلبيين وأوكل اليه قتال بني الجرّاح حلفاء عمه بالأمس، كما أمر القائد انوشتكين الدزبري أن يولي رافع بن أبي الليل على قسم في الجيش الفاطمي الذي كان موجوداً في حلب وكما أشرنا سابقاً في شعبان عام ٤٢٧هـ قاد رافع بن أبي الليل الجيش الفاطمي في معركة «تل فاس» الى القرب من بلدة «لطمين» واشتبك في معركة مع نصر بن صالح بن مرداس حيث هزمه وقتل نصر وأرسل جسده الى حماه ليصلب على أسوار قلعتها. منذ أن تولى رافع بن أبي الليل بن عليان امارة بني كلب بقي على ولائه واخلاصه للفاطميين يساعدهم في حروبهم حتى وفاته.

– مسمار بن سنان بن عليان الكلبي. في عام ٤٥٨هـ حارب القائد الفاطمي بدر الجمالي ومنعه من احتلال دمشق بل اضطره الى الهرب الى صيدا. في الثورة التي اندلعت في دمشق بين الأهالي والجنود الفاطميين المغاربة وقف مسمار بن سنان مع الأهالي.

– حازم بن نبهان القرمطي صار أمير بني كلب بعد مسمار بن سنان وكان حليف القرامطة.

– بدر بن حازم بن نبهان الكلبي. انضم الى الفاطميين في قتالهم مع «اتسز» التركماني حيث اشترك مع الفين من رجاله وهزموا اتسز التركماني.

وفي عام ٤٤٨هـ، عندما سار الداعي الاسماعيلي هبة الله الشيرازي مع القائد البويهي، أبي الحارث أرسلان البساسيري لاحتلال العراق والقضاء على الخلافة العباسية، كان معه ثلاثة آلاف رجل من بني كلب وكانوا عماد الجيش، الاّ أنهم، رفضوا أن يكونوا في صف واحد مع الترك والأكراد وأصروا على الانفصال عنهم لاستعلائهم على كل عنصر غير عربي، وكذلك تسببوا بمصاعب جمة بسبب

تفردهم بقراراتهم ورفضهم التقيد بأوامر القادة غير العرب[١٣].

تجب الاشارة الى انتفاضة الموحدين الدروز في جبل السمّاق وانطاكية عام ٤٢٣هـ وذلك خلال خلافة الظاهر لاعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧هـ) ووجود القائد الفاطمي انوشتكين الدزبري في شمال بلاد الشام، (تزوج ابنة الأمير رافع بن أبي الليل عام ٤٢٧هـ في حلب) وكان الأمير رافع بن أبي الليل أميراً على بني كلب وقائداً للجيش الفاطمي في حلب، ولكن تمكن نصر بن صالح بن مرداس وحاكم انطاكية البيزنطي من قتل الآلاف من الموحدين الدروز وتدمير قراهم. ولكن الأمير رافع قتل نصر وحطم جيشه في معركة «تل فاس»[١٤].

يقول محمد بن علي بن ميسر «لا يوجد ما يشير الى وجود بعثة دعوة اسماعيلية أو أتباع للمذهب الاسماعيلي في حلب في فترة بحثنا، ويبدو أن الدعاة الاسماعيلين الذين ظهروا فيما بعد في حلب، كان نشاطهم مركزاً في فترتنا على المناطق المحيطة بحلب، وقد وضح هذا في منطقة جبل السمّاق وسرمين، وكانت هذه المنطقة مسرحاً لبعض نشاطات الدعوة الاسماعيلية الاخرى، والمعنى بذلك نشاط فرقة الدروز الذين آمنوا بربوبية الحاكم بأمر الله الفاطمي، وقد تمخضت الأعمال التبشيرية لدعاة الدروز عن اعلان الثورة في سنة ٤٢٣هـ / ١٠٣١م»[*].

---

(١٣) كتاب أخبار مصر. مجلد ٢ ص ٣٧ . كتاب زبدة الحلَب من تاريخ حلب ابن العديم مجلد ١٢ ص ١٢٢ .

(١٤) كتاب امارة حلب. الدكتور سهيل زكار ص ٢١٣ .

(*) القصيدة التي نشرها محمد عبيدالله المسبحي في كتابه أخبار مصر في سنتي ٤١٤ و ٤١٥هـ التي تدل على قدوم بني كلب الى لبنان تدل على قدوم قسم من بني كلب قبل هذا التاريخ والقسم الأكبر من القبيلة بقي في سوريا لأنّ معركة الاقحوانة التي اشترك بها بنو كلب كانت عام ٤٤٨هـ واشتراكهم في جيش البساسيري في غزو العراق كان ٤٤٨هـ اي بعد تاريخ كتاب المسبّحي. وكما ولّي الأمير رافع بن أبي الليل أميراً على بني كلب عام ٤١٩هـ وزوج ابنته من القائد نشتكين الدزبري في حلب عام ٤٢٧هـ مما يدل على أن من قدم لبنان من بني كلب كان فئة قليلة وليست هجرة ولهذا لم يذكرها المؤرخون العرب في كتبهم.

ويقدم لنا يحيى بن سعيد الأنطاكي رواية مفصلة عن هذه الثورة بقوله[١٥].

«وكان قد اجتمع في جبل السمّاق من بلد الروم جماعة من الدرزية وجاهروا بمذهبهم، وخرّبوا ما عندهم من المساجد، وتحصن دعاتهم وكثير من عوامهم في مغاور شاهقة منيعة وقصدهم وانضوى اليهم خلق من أهل نحلتهم، وتوفر عددهم واستعانوا بالمسلمين المجاورين لهم من أهل بلدان حلب والذين بينهم وأطعموا عوامهم بقوة أيديهم وكثرة استيلائهم على البلاد والأعمال القريبة والبعيدة، وعندما عظم خطرهم قام حاكم انطاكية البيزنطي تعاونه عساكر حلب بحصار مغاورهم، واستخدم ضدهم النار والدخان حتى أمكنه القضاء على ثورتهم»[١٦].

(١٥) كتاب امارة حلب. الدكتور سهيل زكار ص ٢١٢ .

(١٦) كتاب تاريخ يحيى سعيد الانطاكي ص ٢٦٥ .

بنو الجرّاح وقبيلة طي

لا تكتمل معرفة نشأة الدروز من دون معرفة تاريخ القبائل العربية التي ينتسب معظمهم اليها.

وهذه القبائل العربية التي تشمل، تنوخ، وربيعة، وتيم الله بن ثعلبة القرمطية، وكلب ولخم استقرت في بلاد الشام، قبل وبعد الفتوحات الاسلامية.

من القبائل العربية التي قدمت بلاد الشام والتي بلغت شأنا عظيماً وتركت بصمات مهمة على تاريخ المنطقة، كانت قبيلة بني الجرّاح وهي من بطون طي وتنتسب الى كهلان بطن من أسد بن خزيمة من القحطانية[1] منهم الصحابي الكبير زيد الخيل بن مهلهل وحاتم طي، الذي أصبح اسمه مرادفاً للكرم، وابنه عدي الذي كان من ابطال المسلمين وأسلم بعد معركة بدر. ومن طي كان أبو تمام الشاعر العربي الكبير.

وتقول الدكتورة أمينة بيطار «فاما بنو الجرّاح فهم أحد بطون طيء التي أقامت في فلسطين وهم ينتسبون الى جدهم حوط بن عمر بن خالد معبد بن عدي بن أفلت الطائي، وبنو طيء قبيلة عظيمة من كهلان القحطانية وتتفرع منها بطون وأفخاذ عديدة. ثم تقول «وكانت منازل طي في اليمن، ثم ما لبثوا أن خرجوا منها بعد سيل عرم الى الحجاز واستقروا هناك. ثم تفرقوا في أول الاسلام، زمن الفتوحات الاسلامية وانتشروا في الشام والحجاز والعراق»[2].

يجب ان نرد أصول القبائل العربية التي قدمت بلاد الشام الى مصادرها القديمة، ولو اضطررنا الى العودة الى الوراء في محاولة لتتبع جذور هذه القبائل عبر تاريخها القديم الذي يرجع الى قرون طويلة قبل قيامها بدورها الجديد في بلاد الشام في العصور الوسطى[3].

---

(١) كتاب نهاية الارب في معرفة انساب العرب. ابو العباس القلقشندي، ص ٣٢٦ .

(٢) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين، ص ٨٣ .

(٣) كتاب الامارات العربية في بلاد الشام. الدكتور محمد مرسي الشيخ، ص ١٣ .

يقول المستشرق الفرنسي «ر. ديسو». «ليس من السهل تحديد زمن معيّن لوصول القبائل والبطون العربية الى مسرحها الجديد لأن دخول البدو الى الشام كان ظاهرة مستمرة وعادية حتى قبل ظهور الاسلام، كما أن الصلات بين بلاد الشام ووسط وجنوب الجزيرة العربية، صلات قديمة بطبيعة الحال. واذا كان الفتح الاسلامي، الذي حدث في القرن السابع ميلادي، يبدو كما لو كان حدثاً فريداً في اتساعه، فهو في الحقيقة يعد حركة طبيعية للقبائل العربية التي كانت تتجه دائماً، لا الى الأقاليم الحضارية فحسب، بل الى الاقامة فيها ايضاً»[٤].

لا بد أن نشير الى موضوع العصبية القبلية التي سببت نزاعاً، شبه متواصل، في بلاد الشام وكان لها الدور الرئيسي الحاسم لانحطاط الدور السياسي لطائفة التوحيد الدرزية وأنهت حكمها بجبل لبنان (جبل الدروز) في أواخر القرن السادس عشر، وهو النزاع البغيض بين العصبية القيسية والعصبية اليمنية الذي تسرب الى جبل لبنان من بلاد الشام بواسطة بني كلب اليمانيين وبني معن وهم من بني كلاب القيسيين.

لتوضيح هذه العصبية القبلية التي سادت مدة طويلة في بلاد الشام ونتج عنها صراع دموي ونزوح كامل لقبائل كثيرة من بلد الى آخر، كنزوح بعض القيسية الى الأندلس، بعد معركة مرج راهط عام ٦٤هـ، لا بد من العودة الى الوراء اي الى نشوء هذه العصبية.

اهتم بأخبار النزاع بين العصبيتين، القيسية واليمانية، المستشرق الهولندي المعروف «ر. دوزي» فيقول «ذلك أن معظم النسابين والكتاب القدامى اتفقوا على رد الأمة العربية في مجموعها الى رجلين» ثم يقول: «واقدم الرجلين دون شك هو قحطان[*]، الذي غزا نسله بلاد العرب الجنوبية قبل الميلاد بقرونٍ عدّة، وأخضعوا

---

(٤) كتاب Topographie Historique de La Syrie Antique et Médiévale, Page 2. R. Dussaud.

(*) قحطان: هو قحطان بن عابر بن شالح بن ارمخشد بن سام بن نوح (مروج الذهب مجلد ١ صفحة ٢٧٦). وفي سفر التكوين الاصحاح العاشر آية ٢٥ من التوراة يرد اسمه «يقطان بن شالح بن عابر بن ارفكشاد بن سام».

العدنانيون او المعديون هم من صلب اسماعيل بن ابراهيم وامرأته رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، كان موطنهم تهامة، ومكة من تهامة. (ابن الأثير مجلد ١ صفحة ٤٩).

لحكمهم الجنس الذي يسكن تلك البقعة، ومن ثم جرت العادة على تسمية القحطانيين باسم اليمنيين، نسبة الى أكثر أقاليم جنوب شبه الجزيرة رخاء»[٥].

أما الشعب الآخر، فينتسب الى عدنان، أحد حفدة اسماعيل، الذي يروون أنه سكن منطقة الحجاز الممتدة من فلسطين حتى اليمن والتي توجد بها مكة والمدينة فضلاً عن نجد، وسمي هذا الشعب بمعد أو نزار أو مضر أو قيس[٦]. ويقول جواد علي: «فعرف القحطانيون باليمنيين والكلبيين، وعرف العدنانيون بالقيسيين والمضريين»[٧].

كما قلنا سابقاً، كانت قبيلة طيء في الأصل قبيلة يمنية، اعتنق أهلها النصرانية ونزحوا من اليمن الى الحجاز ثم سكنوا العراق وبلاد الشام بعد الاسلام[*].

في اعقاب الدعوة الاسلامية اعتنق العديد من ابناء قبيلة طي الاسلام وكانوا من أصحاب الرئاسة في العرب ولم يرتدوا مع المرتدين بل تمسكوا بالاسلام، فحاربوا مع خالد بن الوليد في حروب الردة «وشاركوا في الفتوحات مع المثنى في العراق عام ١٤هـ كما ناصروا علي بن أبي طالب في معركتي الجمل عام ٣٦هـ ومعركة صفين عام ٣٧هـ»[٨].

في العهدين الأموي والعباسي لم ترد سيرة بني طيء ولكن بدأ ظهورهم في عهد الطولونيين (٢٥٤ - ٢٩٢هـ). «ففي عام ٢٨٥هـ نهضوا بقيادة زعيمهم صالح بن مدرك بقطع طريق الحج في منطقة «الجفر» وأخذوا من الأموال والمماليك والنساء الكثير، ما يفوق المليون دينار»[٩].

ويقول المؤرخ تغري بردي «وتكررت هذه الحادثة مرة أخرى بعد مضي سنتين فقط. فقد شعر بنو طيء بعدم وجود سلطة حاكمة قوية، فنهض زعيمهم صالح

(٥) كتاب تاريخ مسلمي اسبانيا مجلد ١ ص ٧٦ ترجمه د. حسن حبشي.

(٦) كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر. عبد الرحمن ابن خلدون. مجلد ٢ ص ٣٠٠ .

(٧) كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام. جواد علي. مجلد ١ ص ٢٩٢ .

(*) كان بنو طي وبنو كلب من اليمانيين. وبنو كلاب وبنو نمير، بنو خفاجة وبنو ربيعة من القيسيين.

(٨) كتاب معجم قبائل العرب القديمة والحديثة. عمر رضا كحالة. مجلد ٢ ص ٦٩١ .

(٩) كتاب النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة. تغري بردي مجلد ٣ ص ١١٦ .

بن مدرك في محرم سنة ٢٨٧ بمهاجمة الحاج العراقي، وكان برفقته ما يزيد عن ثلاثة آلاف من عرب طيء ما بين فارس وراجل. وقام أمير الحاج بمهمة قتال قبيلة طيء وزعيمها صالح بن مدرك يوماً وليلة، حتى تمكن من هزيمتهم بعد أن قتل عددا كبيراً من اعيانهم، وأنقذ الحاج من خطرهم»[١٠]. وكانت هذه آخر معاركهم وهجماتهم على الحاج.

أما بنو الجراح فهم بطن من قبيلة طي استوطنوا فلسطين ولعبوا دوراً مهماً بين عامي ٣٥٨هـ و ٤٣٣هـ ، وكان آخر زعمائم حسّان بن مفرج بن دغفل بن الجرّاح الذي فر من الفاطميين والتجأ الى البيزنطيين عام ٤٢٢هـ وانتهى بذلك دور بني الجرّاح في بلاد الشام الاّ بعض حوادث ليست لها اهمية تذكر.

لم يشكل بنو الجرّاح امارة خاصة بهم، بالرغم من كثرة عددهم وقوتهم لأن شدة قبضة القوات الفاطمية على المناطق الجنوبية في بلاد الشام لم يسمح لبني الجرّاح بتشكيل امارة يهدد وجودها الخلافة الفاطمية بل بقوا قبيلة كبيرة في فلسطين لها تحالفاتها مع القبائل والقوى الموجودة في جوارها، تتحكم في أعمالها الطبائع العربية القبلية ونفور العربي من السلطة وعدم الخضوع لها وكان بنو الجرّاح يرفضون الخضوع للقانون وللسلطة المركزية وينضمون الى الجهة التي تؤثر على مصالحهم وخصوصاً المادية.

استغل بنو الجرّاح الفوضى التي سادت بلاد الشام في العهد الفاطمي وعدم استقرار الحكم واندلاع الثورات للسيطرة على الأرض التي في جنوب البلاد، فحصلت حروب واصطدامات عديدة، لكنها لا تقع تحت هذه الدراسة لأن لا علاقة أو تأثير لها على المعتقدات التوحيدية الدرزية، ولكن لا بد من الاشارة الى بعض الحروب المهمة التي خاضها بنو الجرّاح وكان لها تأثير في تاريخ بلاد الشام.

من هذه الحروب التي اشترك فيها بنو الجرّاح كانت حرب القرامطة عام ٣٦١هـ بقيادة الحسن الاعصم، حيث جرت معركة قرب القاهرة، ولكن انسحب الحسن

---

(١٠) كتاب النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة. مجلد ٣ ص ١٢١ - ١٢٢ . كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين. الدكتورة أمينة بيطار، ص ٨٥ - ٨٦ .

الاعصم وجيشه بسبب شجاعة الجيش الفاطمي وكثرة الاسلاب التي كانت مع القرامطة والتي قدرت بحمولة خمسة عشر الف بغل وجمل من أواني الذهب والفضة والسلاح والأقمشة.

وفي عام ٣٦٣هـ رجع الحسن الأعصم وهاجم القاهرة، وكان معظم جيشه من بني الجرّاح. أرسل الخليفة المعز لدين الله مائة الف دينار من الذهب الى زعيم بني الجرّاح حسّان بن الجرّاح كي ينسحب من المعركة مما سبب هزيمة القرامطة.

وفي عام ٣٦٥هـ تحالف بنو الجرّاح مع القائد التركي العباسي «أفتكين»، فكانت معركة الرملة حيث استسلم أفتكين الى الخليفة العزيز بالله، وانسحب القرامطة الى الاحساء بعد أن قبلوا أن يدفع لهم سبعين ألف دينار سنوياً كي لا يرجعوا الى بلاد الشام، أما بنو الجرّاح فأعلنوا طاعتهم للفاطميين.

وفي عام ٤١٢هـ عقد في مدينة حلب الحلف الثلاثي بين صالح بن مرداس أمير بني كلاب، وحسّان ابن الجرّاح زعيم بني جرّاح وسنان بن عليان الكلبي زعيم بني كلب.

اتفق هؤلاء الزعماء على تقسيم بلاد الشام فيما بينهم الى مناطق نفوذ ثلاث. واحدة من حلب الى نهر الفرات ويسيطر عليها بنو مرداس، والثانية تمتد من الرملة حتى حدود مصر، ويسيطر عليها بنو الجرّاح، والثالثة منطقة دمشق وتوابعها التي تخضع الى سنان بن عليان، عم الأمير رافع بن أبي الليل الكلبي، الذي يعتبره الموحدون الدروز موحداً درزياً. كانت مدينة الرملة في فلسطين ضمن نفوذ بني الجرّاح.

عاث أولياء هذه المناطق الثلاث فساداً ونهباً في مناطقهم، فعمت الثورات حتى ضاق صدر الخليفة الظاهر باعزاز دين الله فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة انشتكين الدزبري في محرم عام ٤١٧هـ للقضاء على هذا الحلف(*).

(*) يعتبر عام ٤١٧ من سنوات «المحنة» عند الموحدين وكانوا ينظرون لعداء الظاهر الذي اضطهدهم، فمن الصعب ان ينضموا الى الجيش الفاطمي، ولكن قد يجوز أنهم اشتركوا كفرقة مستقلة لقتال عدوهم صالح بن مرداس.

وفي محرم عام ٤١٧هـ نشبت معركة الاقحوانة في فلسطين، ويقال إنه كان برفقة الجيش الفاطمي أنذاك بعض الموحدين الدروز بقيادة الامير الكلبي رافع بن أبي الليل(١١).

كانت الدعوة بالخلافة للحسن بن جعفر الحسين العلوي، الملقب بأبي الفتوح، أمير مكة، وقد كان ولاّه عليها الحاكم بامر الله. وقد شجّع الحسن العلوي على هذه الدعوة، الداعي والوزير الاسماعيلي، أبو القاسم الحسين بن المغربي، الذي كان على خلاف مع الحاكم بأمر الله. كذلك حرّض ابو القاسم الحسين بن المغربي، الزعيم حسّان بن مفرج، زعيم بني الجرّاح، على الدولة الفاطمية وأغراه بالمال.

أعلن حسّان بن مفرج ولاءَه لأبي الفتوح وطلب منه القدوم الى بلاد الشام، كما بايعه بالخلافة. شاور أبو الفتوح أقرباءه العلويين فوافقوا على الفكرة وبايعوه بالخلافة وتلقب بالخليفة الراشد لدين الله وخطب له في مساجد مكة والمدينة.

سار أبو الفتوح العلوي الى فلسطين متقلداً سيفاً ادعى أنه سيف الامام علي بن أبي طالب المعروف باسم «ذو الفقار» والذي اشتهر بالمقولة «لا فتى الاّ علي ولا سيف الاّ ذو الفقار» وكان أهداه النبي الكريم الى الامام علي في معركة بدر.

عندما اقترب أبو الفتوح من مدينة الرملة، مع ألف فارس من العلويين، تلقاه ابن الجرّاح وسلّم عليه بأمرة أمير المؤمنين.

أرسل الحاكم بامر الله جيشاً الى فلسطين للقضاء على هذه الحركة غير أن هذا الجيش انهزم، مما زاد في نفوذ بني الجرّاح وأمل أبو الفتوح بالخلافة.

وكان الحاكم يعرف ضعف بني الجرّاح الى المال فالتجأ اليه وأجزل لهم العطاء، فتخلى ابن الجرّاح عن أبي الفتوح الذي كان نضب ماله، وأرسله الى مكة عام ٤٠٣هـ مع جماعة من بني طي. توسل أبو الفتوح الخليفة الحاكم بامر الله الذي عفا عنه وأرجعه والياً على مكة والمدينة.

(١١) صالح بن مرداس ملعون عند الدروز لاضطهادهم وقتلهم. أرسل جيشاً الى وادي التيم للقضاء عليهم.

وآخر معارك بني الجرّاح، وكان زعيمهم حسّان بن مفرج بن الجرّاح، كانت مع والي دمشق ناصر الدولة الحسين بن حمدان، حيث وقعت بينهم معركة عنيفة في فلسطين، لم يعرف عنها الكثير لأن التاريخ لا يذكرها بالتفصيل، «الاّ أن الخليفة المستنصر بالله قبض على زعمائهم، مثل حازم بن علي الجرّاح وحميد بن محمود بن الجرّاح، وقد ظلوا بالسجن ما يزيد عن عشرين سنة»[١٢]. بعد هذه المعركة انتهى أمر بني الجرّاح ولم تقم لهم بعدها قائمة، وكان ذلك في منتصف القرن الخامس هجري. اذن دامت حروب بني الجرّاح من عام ٣٥٨هـ الى عام ٤٣٣ هجري.

يقال إن الأمير زمّاخ بن مفرج بن دغفل بن جرّاح الطائي وأخاه جابر كانا من دعاة مذهب التوحيد الدرزي.

(١٢) كتاب موقف الامراء العرب من الفاطميين، الدكتورة أمينة بيطار، ص ١٣٨ .

الحمدانيون

الحمدانيون بطن من تغلب، وتغلب بن وائل من بطون ربيعة بن نزار العدنانية. كانت بلاد تغلب في الجزيرة الفراتية بجهات «نصيبين» وتعرف بديار ربيعة. ومنهم الشاعر عمرو بن كلثوم[1].

كان بنو تغلب كثيري العدد واشتهروا بالفروسية والشجاعة حتى قال عنهم أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي «انه لو لم يظهر الاسلام لكان بنو تغلب التهموا كل العرب».

قبل الدعوة الاسلامية، كان بنو تغلب يعتنقون النصرانية، الاّ أن قسماً كبيراً منهم اعتنق الاسلام في حياة الرسول الكريم، وحاربوا مع المثنّى بن حارثة الشيباني[2] ضد الفرس عام ١٣هـ وكانوا الى جانب القائد العربي سعد بن أبي وقاص[3] عند احتلاله العراق عام ١٦هـ.

أما الحمدانيون، موضوع دراستنا، فان مؤسس هذه الأسرة العربية، هو حمدان بن حمدون التغلبي، الذي كان ذا مكانة بارزة في منطقته، ومن أبنائه المرموقين كان أبو الهيجاء والد الأمير سيف الدولة الحمداني.

---

(١) كتاب نهاية الارب في معرفة انساب العرب. أبو العباس القلقشندي، ص ١٨٦ و ٢٣٦ .

(٢) هو المثنى بن حارثة الشيباني – شيبان بطن من وائل من العدنانية – كان يلقب مؤسس العراق وموحده. كان، قبل الاسلام، يغير على أهل فارس مع قبائل بكر بن وائل وتميم. قدم المدينة عام ١١هـ وطلب من أبي بكر الصديق مساعدته على قتال الفرس فقبل أبو بكر، حققت غاراته نجاحاً كبيراً فأرسل أبو بكر خالد بن الوليد لمساعدته بعد تحطيم الجيش الفارسي نزل خالد بن الوليد الى بلاد الشام. عند استلام عمر بن الخطاب عزله كما عزل خالد بن الوليد.

(٣) هو سعد بن مالك من بني زهرة، وزهرة عائلة من قريش. بعد وفاة المثنى الشيباني حشد الفرس جيشاً كبيراً بقيادة رستم فالتقاه سعد بن أبي وقّاص في سهل القادسية، وكان انضم اليه جيش من بلاد الشام بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي. بقيت المعركة ثلاثة أيام، انهزم فيها الفرس وكانت ابتداء احتلال فارس والعراق. حضّر هذه المعركة سلمان الفارسي وقد كان داعية ورائد المقاتلين.

ويقول أبو العباس القلقشندي. «وأول ملك منهم، أبو الهيجاء عبدالله بن حمدان، ثم أخواه سعيد ونصر أبناء حمدان. ثم استولى على الشام وحلب معين الدولة علي بن أبي الهيجاء بن حمدان، ثم لؤلؤ مولى سعيد الدولة بن حمدان، وبقي حتى غلبه على ذلك صالح بن مرداس أمير بني كلاب وانتزعه منه في سنة اثنين وأربعماية»(٤).

زال الحكم العربي العصبي بزوال حكم بني أمية، وكانت نتيجته السياسية العباسية، التي أهملت العرب وانحازت الى الفرس والأتراك، اذ ضعف نفوذ القبائل العربية، ومنها قبيلة تغلب التي انحدر منها الحمدانيون.

انتعش العنصر العربي، بعد ضعف العباسيين، وذلك خلال العصر الثاني من الدولة العباسية، وكان انتعاشاً محصوراً في الحكم المحلي، اي بغداد وضواحيها، وذلك في عهد الخليفة المعتضد بالله أحمد بن الموفق (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) حتى عهد المتقي بالله ابراهيم بن المقتدر (٣٢٩ - ٣٣٣هـ) وأخذت الامارات العجمية والعربية تنتشر في أطراف الدولة العباسية المتهاوية. وانتشرت الدويلات، حتى في المناطق التي بقيت خاضعة للحكم العباسي.

وأما بنو حمدان، فقد رأوا أن لهم القوة التي تمكنهم تأسيس امارة لهم والاستقلال بدولة مثل هذه الدويلات، فهم عرب ينحدرون من قبائل عربية فيها المنعة والقوة والعصبية ولها وجود مفروض على الوجود السياسي الحاكم.

في عام ٢٧٢هـ (٨٩٠م) تمكن حمدان بن حمدون التغلبي، مؤسس الدولة الحمدانية وزعيم بني تغلب، من الاستيلاء، بمساعدة حليفه الخارجي هارون الشاري، على قلعة «ماردين» ولكنه أجبر على التخلي عنها، الى الخليفة المعتضد بالله أحمد بن الموفق (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) عام ٢٨١هـ عند قدومه الى الموصل وهرب الى البادية، ولكنه بعد عجزه على الاستمرار بالفرار والعيش في البادية بين قبائل لا تكن له الصداقة والخير، استسلم للخليفة المعتضد الذي أودعه السجن، حيث بقي الى أن أخرجه ابنه الحسين بن حمدان الذي كان نال رضا الخليفة المعتضد حين هزم الخارجي هارون الشاري.

(٤) كتاب نهاية الأرب في معرفة انساب العرب، ص ٢٣٦ .

اعتمد الخليفة المعتضد بالله على حسين بن حمدان فوجهه باتجاه القرامطة للحد من شرهم، ثم أرسله لطرد الطولونيين من حلب، وكان يدفعه لقمع كل ثورة تنشب ضد الخلافة في بغداد. ثم عيّنه والياً على مدينة «قم» في فارس. ولكن في خلافة المقتدر بالله بن المعتضد، (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) حصل خلاف بينهما فأمر الخليفة بسجنه حيث بقي حتى مات عام ٣٠٦هـ.

بعد وفاة حمدان بن حمدون التغلبي عام ٢٩٤هـ عيّن أبو الهيجاء، أخو الحسين الحمداني ووالد الأمير سيف الدولة، أميراً على الموصل من قبل الخليفة المقتدر بالله وظل يحكمها حتى توفي عام ٣١٧هـ (٩٢٩م).

بعد وفاة أبي الهيجاء، آلت الامارة لابنه الحسن بن حمدان وعاونه في ذلك أخوه الأصغر، علي بن عبدالله المعروف باسم سيف الدولة الحمداني. بسط الحسن سلطانه على الجزيرة كلها وشمالي بلاد الشام.

وفي عام ٣٣٠هـ. فرّ الخليفة المتقي بالله أبو اسحق ابراهيم بن المقتدر (٣٢٩ - ٣٣٣هـ) الى الموصل هرباً من خطر هجوم أمير خوزستان البريدي على العراق، وكان برفقته أمير أمراء الجيش القائد محمد بن رائق الذي كانت السلطة بيده، حتى أن اسمه كان يذكر مع اسم الخليفة في خطبة الجمعة في مساجد بغداد. كان محمد بن رائق مسيطراً على الحكم ولم يكن للخليفة الاّ المنصب دون النفوذ أو السلطة.

قتل الحسن بن حمدان أمير أمراء الجيش محمد بن رائق[٥] وارجع السلطة للخليفة، ولكن بعد أن أكرهه على تعيينه أمير أمراء الجيش، وخلع عليه لقب ناصر الدولة وعلى شقيقه علي لقب سيف الدولة، ومقابل ذلك اعاد له الخطبة في مساجد بغداد وغيرها من المدن العراقية.

وفي عام ٣٣٤هـ احتل معز الدولة البويهي بغداد وشن حرباً على الحمدانيين في الموصل انتهت بسقوط دولتهم، ولكن بقي الأمير ناصر الدولة أميراً على الموصل وديار الشام على أن يؤدي جزية سنوية لبغداد ويخطب للخليفة العباسي في المساجد، وبقيت الحالة على ذلك حتى وفاة الحسن بن حمدان عام ٣٥٧هـ.

---

(٥) كتاب تكملة تاريخ الطبري. محمد بن عبد الملك الهمذاني في شرح واف عن مقتل ابن رائق، ص ١٢٨ .

أثر مقتل أبو العلاء بن حمدان على يد ابن أخيه ناصر الدولة، نشب خلاف حاد بين افراد العائلة الحمدانية ولكنه انتهى عند زحف عضد الدولة البويهي على الموصل عام ٣٦٧هـ فاجتمعت العائلة لصد هذا الخطر، ولكن عضد الدولة، اضطر أن يرجع الى بغداد بسبب اشتباك الجنود البويهيين الشيعة واهالي بغداد السنة.

اقتنع الحمدانيون بأن لا مستقبل لهم في العراق، بالنسبة للصراع الدائم على السلطة في بغداد وخطر البيزنطيين والأكراد والأتراك في الشمال، فاتجهت أنظارهم الى بلاد الشام الغنية بمحاصيلها وتجارتها، وحيث السلطة المركزية شبه معدومة والنفوذ العباسي غير العربي، مكروه من الشعب الشامي.

كان الأخشيد قد احتلوا حلب عام ٣٢٥هـ وعينوا أبا الفتح الكلابي اميراً عليها، ولكنّ الأمور لم تستقم لهم بل سادث الفوضى والقلاقل، وخصوصاً بعد أن وصلت، الى شمال بلاد الشام جموع من قبائل بني كلاب ونمير وعقيل وسببت هذه الهجرة فوضى سياسية وأمنية في المناطق التي نزلت فيها.

وكانت قبيلة كلاب، ومنها أبو الفتح الكلابي أمير حلب، تعاني من التمزق والخلاف بين زعمائها فاتصلوا بسيف الدولة ودعوه للقدوم الى حلب وتسلم الحكم فيها ووضع حد للفوضى والفساد. قرر سيف الدولة أن يستغل الخلاف القائم بين الكلابيين وضعف واليها أبي الفتح، فقدم حلب ودخلها من دون مقاومة يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول سنة ٣٣٣هـ[٦] وذلك بعد انصراف أبي بكر محمد بن طغج الأخشيدي وأبو الفتح الكلابي.

وفي عام ٣٣٤هـ نشبت بعض المعارك بين سيف الدولة والأخشيد أسفرت عن عقد اتفاق على أن تكون حلب وحمص وانطاكية لسيف الدولة[٧]. وتزوج سيف الدولة ابنة أخ عبيدالله بن طغج الأخشيدي.

حروب الحمدانيين، خصوصاً حروب الأمير سيف الدولة، تنقسم الى أربع فئات:

---

(٦) مخطوطة الدول المنقطعة. ابن ظافر الازدي، ص ٤ .

(٧) كتاب تاريخ دول الاسلام. ف. رزق الله، ص ٢٤ .

١ - حروب الأخشيد
٢ - حروب القبائل العربية
٣ - حروب البيزنطيين
٤ - حروب الفاطميين

يقول المستشرق (Kay) . «كان على الامارة الحمدانية أن تتعامل مع القبائل العربية النازحة قديماً وحديثاً والتي استقرت على طول السهول الممتدة بين شمال العراق وسوريا لتلعب دورها في تاريخ المنطقة منذ ذلك الوقت»[٨].

أسس سيف الدولة الحمداني حكم الدولة في حلب عام ٣٣٣هـ (٩٤٥م) وأقام الخطبة للخليفة العباسي المستكفي بالله عبدالله بن المكتفي (٣٣٣ - ٣٣٤هـ) ولأخيه ناصر الدولة الحمداني امير الموصل، ثم سار الى حمص في طريقه الى دمشق، وعند محلة «رستن» اشتبك في معركة مع الجيش الأخشيدي وأنزل به هزيمة كبيرة. وفي عام ٣٣٤هـ كانت معركة «قنسرين» وكان قائد الأخشيد محمد بن طغج الذي أنزل الهزيمة بسيف الدولة ثم عقد معه صلحاً على أن تكون حلب وضواحيها لسيف الدولة، على أن يدفع له خمسين ألف دينار سنوياً، وتكون دمشق واعمالها للأخشيد.

وفي جمادى الآخرة عام ٣٣٥هـ هزم كافور والجيش المصري الأخشيدي، سيف الدولة قرب دمشق. وتقهقر سيف الدولة الى حمص حيث انضم اليه بنو عقيل وكلب، ولكنه انهزم في معركة «مرج عذراء» قرب حمص ودخل الأخشيد حلب بعد أن فر سيف الدولة الى الرقة[٩].

عقد صلح بين الأخشيد وسيف الدولة على أن تكون حلب لسيف الدولة، ولكن كافور رفض أن يدفع هذه المرة مبلغ خمسين الف دينار. رحب الأخشيد بتلك الاتفاقية اذ جعلت من سيف الدولة حصناً منيعاً بينهم وبين البيزنطيين[١٠].

---

(٨) كتاب Kay. Notes on the history of the Banu Okayl page 508 (Published May 1880).
(٩) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب. ابن العديم. مجلد ١، ص ١١٧ .
(١٠) كتاب تاريخ الاسلام السياسي. حسن ابراهيم حسن. مجلد ص، ص ٢١١ .

وفي عام ٣٣٧هـ هاجم بنو كلاب، حلفاء الحمدانيين، بني كلب وقتلوا منهم الكثير وسبوا نساءهم ونهبوا أموالهم، وكان ذلك في انشغال سيف الدولة في حربه مع القائد البيزنطي «انطرطوس». هاجم سيف الدولة، مع ابن عمه الشاعر أبي فراس، بني كلاب في موقعة «كفرطاب» والحق بهم خسائر جسيمة ونهب أموالهم(١١).

وفي عام ٣٣٩هـ أنزل أبو فراس هزيمة في بني كلاب في معركة «بالس» وقتل زعيمهم «كثير بن عوسجة».

وفي عام ٣٤٣هـ وجه سيف الدولة حملةً ضد بني كلاب، بمساعدة أبو فراس الذي كان والياً على «منبج» وحدثت معركة عند جبل «بشر» حيث أنزل بهم هزيمة كبيرة وقتل الكثير من رجالهم ونهب أموالهم(١٢).

وفي عام ٣٤٤هـ كان التجمع القبلي من عناصر يمنية من بني كلب وطي بالاضافة الى القيسيين من بني عامر بن صعصعة، وبني نمير وبني كعب بن ربيعة وعقيل حيث اجتمعوا في «سلمية» ومنها هاجموا «قنسرين» وأنزلوا الهزيمة بعامل الحمدانين، «الصباح بن عمارة المخارقي»، عندئذ تصدى لهم سيف الدولة، ومعه ابن عمه أبو فراس، ودارت حرب ضارية انتهت بهزيمة القبائل العربية وقتل الكثير منهم وفرّوا حتى مدينة تدمر حيث تبعهم سيف الدولة - فقتلهم وأهلكهم عطشاً وقتلاً بالسماوة والأرض(١٣).

وفي ذي القعدة عام ٣٥٤هـ ثار في انطاكية العاملان رشيق النسيمي وابن الاهوازي منتهزين فرصة مرض سيف الدولة وضعف الجيش الحمداني، فهاجما حلب ولكن تمكن الجيش، بقيادة أبي فراس، من صدهم والحاق الهزيمة بهم وقتل العامل رشيق النسيمي. ولكن قائداً آخر من انطاكية اسمه «دزبر بن اونيم» واصل العصيان في أنطاكية فهزم الجيش الحمداني ودخل حلب في جمادى الأولى عام ٣٥٥هـ ثمّ احتل «قنسرين» حيث انضم اليه بنو كلاب.

---

(١١) كتاب. Marius Canard. Histoire de La Dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie.. Page 599.

(١٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٠٨.

(١٣) ديوان أبي فراس - الرهان - مجلد ٢، ص ١٢.

بالرغم من مرضه، خرج سيف الدولة، محمولاً على محفة، واشترك في معركة شرق مدينة حلب في مكان يقال له «سبعين» فتخلى بنو كلاب عن «دزبر ابن اونيم» وانضموا الى الجيش الحمداني مما أدى الى هزيمة جيش دزبر ابن اونيم، وقيل إن قتلاهم بلغت الألوف ولكن لم يمض ثلاثة أيام حتى مات سيف الدولة وذلك يوم العاشر من صفر عام ٣٥٦هـ[١٤].

بعد وفاة سيف الدولة الحمداني، تفجر الصراع بين ابنه سعد الدولة وبين الشاعر أبي فراس، الذي اراد أن يستولي على السلطة، وذلك عام ٣٥٧هـ فحصلت معركة في سلمية حيث انهزم ابو فراس وأسر، فأمر قرغويه غلام سعد الدولة، بضرب عنقه فخسر العرب شاعراً كبيراً[١٥].

كانت الدولة الحمدانية في حلب مستقلة عن الدولة العباسية في بغداد ما عدا الخطبة في المساجد للخليفة العباسي، واكتفت الدولة العباسية بذلك، لأن الحمدانيين كفوها شر قتال البيزنطيين وكانوا حصناً مانعاً ضد خطر الاحتلال البيزنطي لبلاد الشام.

كانت حروب سيف الدولة والبيزنطيين متعددة. في عام ٣٣٧هـ جرت معركة في «مرعش» انهزم بها سيف الدولة واستولى الروم على مرعش[١٦].

وفي عام ٣٤٠هـ أعاد سيف الدولة جمع جيشه وهاجم البيزنطيين في عقر دارهم واوغل في بلادهم ولكن عند رجوعه الى حلب سد البيزنطيون عليه الطريق، فخاض معهم معركة عنيفة خسرها وتقهقر الى حلب مع من بقي معه من الجند.

وفي عام ٣٤٢هـ هاجم بلدة «زبطرة» في بلاد الروم وعاد الى حلب منتصراً حيث استقر حتى عام ٣٤٥هـ، عندما حاول الكرة وتوغل كثيراً في بلاد الروم حتى التقى بالقائد قسطنطين ابن الدمستق فاشتبكا في معركة عنيفة قتل فيها القائد قسطنطين وهزم البيزنطيون ورجع سيف الدولة الى حلب مع كميات كبيرة من الاسلاب والغنائم.

---

(١٤) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب. ابن العديم، ص ١٥١ .

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) كتاب تكملة تاريخ الطبري، محمد عبد الملك الهمذاني، ص ١٦٠ .

وفي عام ٣٥٠هـ هاجم «نقفور فوكاس»[١٧] البيزنطي طرسوس، عين زربة ومرعش فدمرهما ثم سار الى حلب بجيش قوامه مائتا ألف فارس وثلاثون ألف راجل فاحتلها ونهبها وأحرق المساجد ومعظم الأسواق، وقتل آلافاً من الأهالي بطريقة وحشية وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى، لقد كاد أن يفرغ حلب من الحياة.

بعد أن دمّر «نقفور فوكاس» البيزنطي حلب وقتل وأسر معظم سكانها، جلب سيف الدولة، لملء الفراغ، عائلات شيعية من مدينة «حرّان» الى حلب فانتشر المذهب الشيعي الاثنا عشري؛ ولم يطل الأمر، حتى اعتنقه معظم سكان حلب[١٨].

من الصعب أن نبحث بدقة علاقة سيف الدولة بالفاطميين لأنه توفي عام ٣٥٦هـ، أي قبل الفتح الفاطمي لمصر وديار الشام. المستشرق Marius Canard يقول. «فان الفترة الحاسمة من تاريخ العلاقات بين الحمدانيين والفاطميين تقع فيما بين سنتي ٣٥٩هـ و ٤٠٦هـ، وعلى وجه التخصيص، بعد وفاة المعز لدين الله الفاطمي، وتولي العزيز بالله الخلافة»[١٩].

بالرغم من ان المذهب الشيعي وحبّ آل البيت تغلب على الحمدانيين، ولكن علاقتهم بالفاطميين، والفاطميون من الشيعة السبعية اي الاسماعيلية، فقد غلب الطابع العدائي على علاقتهم، وذلك للأسباب التالية:

١ - كان خوفهم من الفاطميين في توسعهم في بلاد الشام على اعتبارها الممر الطبيعي الى بغداد حيث الخلافة العباسية التي يريدون القضاء عليها.

٢ - كان الحمدانيون يعترفون بالسيادة العباسية ويخطبون للخليفة العباسي في مساجدهم ويخافون منهم لقربهم من حدودهم ولقوتهم العسكرية القائمة على عناصر غير عربية تكره العنصر العربي، كالفرس والأتراك(*).

---

(١٧) كتاب. تاريخ الشعوب الاسلامية. كارل بروكلمان، ص ٢٤٢ يقول ان اسم القائد البيزنطي كان «بيرزوس فوكاس».

(١٨) كتاب. اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء. محمد راغب الطباخ. مجلد ١، ص ٢٧٩ .

(١٩) كتاب .Histoire de La Dynastie des Hamdanides. Page 579

(*) مما يلفت النظر أن حروب سيف الدولة مع البيزنطيين كانت غارات من دون هدف واضح.

٣ - علاقة الحمدانيين بالقرامطة، الذين كانوا من الد اعداء الفاطميين، كانت علاقة جيدة، خصوصاً في عهد ناصر الدولة بن حمدان، شقيق سيف الدولة، ويقال إن جيش الحسن الأعصم القرمطي، الذي هاجم مصر للمرة الأولى عام ٣٦١هـ كان يضم عدداً كبيراً من الحمدانيين.

يقول الدكتور محمد محمد مرسي الشيخ. «والواقع أن سيف الدولة كان قد خلف لابنه أبي المعالي سعد الدولة ٣٥٦ - ٣٨١هـ تركة مثقلة بالاعباء والمتاعب وامارة تتكاثر من حولها الاطماع وتتجمع في افقها الغيوم والعواصف»[٢٠].

من الصعب والجهد غير المجدي سرد الحوادث التاريخية والصراع السياسي الذي حدث بعد وفاة سيف الدولة لأن ذلك محصور في نزاعات محلية معظمها يدور على الاستيلاء على السلطة والحكم الذي لم يتعدّ حدود الامارة الحمدانية، بالاضافة، الى ان هذه الأحداث لم تكن لها علاقة بنشوء وانتشار الدعوة التوحيدية الدرزية موضوع هذه الدراسة.

يمكننا سرد بعض الحوادث المهمة كي لا نترك فراغاً في التسلسل التاريخي في حياة الامارة الحمدانية.

انتهت ثورة أبي فراس الحمداني، ابن عم الأمير سيف الدولة في اوائل سنة ٣٥٧هـ[٢١] وتغلب غلام سيف الدولة «قرغويه» على حلب وأجبر أبا المعالي سعد الدولة على الاستقرار في حلب[٢٢]. ثم قام بنو كلاب، بمساعدة أبي المعالي سعد الدولة، على استرداد حلب واودعوا قرغويه في السجن وثم استسلم بكجور، حليف قرغويه، الذي كان انشق عنه، فعفا عنه سعد الدولة وولاه مدينة حمص عام ٣٦٦هـ.

في عام ٣٨١هـ قام بكجور بمحاولة الاستيلاء على الحكم فحدثت معركة «الناعورة» حيث قتل بكجور ولكن سعد الدولة توفي في رمضان عام ٣٨١هـ.

تولى امارة الحمدانيين أبو الفضائل سعيد الدولة عام ٣٨١هـ وكان وصيّه لؤلؤ السيفي «فتعرضت حلب الى هجمات الفاطميين بقيادة «منجوتكين» الفاطمي

(٢٠) كتاب الامارات العربية في بلاد الشام، ص ٧٩ .

(٢١) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب. ابن العديم مجلد ١، ص ١٥٦ .

(٢٢) كتاب تاريخ دمشق. ابن القلانسي، ص ٢٧ .

وذلك في جمادى الأولى عام ٣٨٢هـ وذي القعدة عام ٣٨٢هـ وصفر عام ٣٨٤هـ، فساءت أحوالها وأوشكت على الاستسلام»[٢٣]. تتابعت هجمات منجوتكين الفاطمي ثم اشترك في الغزوات الجيش البيزنطي فتمكن أبو الفضائل سعيد الدولة، مع لؤلؤ من المقاومة، ولكنه تخلى عن الحكم الى مولاه لؤلؤ الذي دس له ولزوجته، ابنة لؤلؤ، السم فماتا في ليلة النصف من صفر سنة ٣٩٢هـ»[٢٤].

بعد وفاة الأمير سعيد الدولة أرسل لؤلؤ أبناء أبي المعالي سعيد الدولة، أبا الحسن علي وأبا المعالي شريفاً الى مصر وأصبح الحاكم الفعلي لحلب وجعل ابنه منصور ولياً على الدولة منذ عام ٣٩٤هـ. مات لؤلؤ عام ٣٩٩هـ فخلفه ابنه منصور وخطب في المساجد للخليفة الحاكم بأمر الله وذلك عام ٤٠٢هـ الذي أرسل له سجلاً بتمليكه حلب وأعمالها وأطلق عليه لقب مرتضى الدولة.

عهد مرتضى الدولة، ابن منصور بن لؤلؤ، كان حافلاً بالدسائس والمؤامرات حتى تمكن غلامه «فتح» من الاتصال بالحاكم بأمر الله وطلب منه ارسال ولاته لتسلم حلب، فرحل مرتضى الدولة الى البيزنطيين عام ٤٠٦ والتجأ اليهم.

سر الحاكم بأمر الله بخضوع حلب له، التي أصبحت، لأول مرة، تابعة للحكم الفاطمي فلقب فتح «مبارك الدولة» وسعدها واعطاه ولاية صيدا وبيروت.

بقيت حلب تحت حكم نواب الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله حتى عام ٤٠٧هـ حتى صارت ولايتها الى الأمير عزيز الملك فاتك الحمداني الذي، بعد اختفاء الحاكم بأمر الله عام ٤١١هـ، حاول الاستقلال بامارة حلب فتآمرت ست الملك، التي كانت وصية على الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله، مع بدر غلام الأمير عزيز الملك فاتك فقتله واستلم حكم حلب، ثم سلمها الى الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله، وبذلك زال حكم الحمدانيين في الشام نهائياً عام ٤١٣هـ.

---

(٢٣) كتاب تاريخ الانطاكي. يحيى بن سعيد الانطاكي، ص ١٧٤ .

(٢٤) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب. مجلد ١، ص ١٩٢ .

عرف عن سيف الدولة اهتمامه بالعلوم والفنون ورعايته لها. وكان ابن عمه الشاعر المشهور أبو فراس الحمداني من أنشط من رفع شأن الأدب والشعر، وله قصائد رائعة ومنها قصيدة مشهورة، قالها في مدح آل البيت، يتناقلها الشيعة حتى يومنا هذا.

وفي عام ٣٣٧هـ قدم الى بلاط سيف الدولة في حلب الشاعر أبو الطيب المتنبي(٢٥) الذي أصبح شاعر سيف الدولة الذي أحبه وقربه اليه واستصحبه الى الحروب والغزوات المختلفة. أقام المتنبي عند سيف الدولة تسع سنوات نظم في اثنائها ثمانيَ وثلاثين قصيدة، منها أربع عشرة في معارك الأمير مع الروم(٢٦).

تعدت الحركة الفكرية في حلب الشعر والأدب الى العلم والفلسفة، لمع في سمائها أبو نصر الفارابي(٢٧) الذي أتى حلب من بغداد عام ٣٣٠هـ حيث حل في كنف الحمدانيين وعمل على نشر الفلسفة اليونانية، خصوصاً فلسفة أفلاطون وأرسطو طاليس، واكتسب ثقافة واسعة لُقب بسببها «المعلم الثاني» على أن أرسطو طاليس هو «المعلم الأول».

كما قلنا سابقاً، اعتنق الحمدانيون مذهب الشيعة الاثني عشرية، في عهد الأمير سيف الدولة الحمداني، وكانوا في نسبهم ينتمون الى قبيلة تغلب، وتغلب بن وائل

(٢٥) هو احمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفي. وجعفي بن سعد عشيرة من مذحج من كهلان من قحطان. ولد في الكوفة عام ٣٠٣هـ وقتل عام ٣٥٤هـ. كان والده يعرف بعبدان السقا، كان يترفع عن ذكر نسبه فقال:

لا بقومي شرفت، بل شرفوا بي   وبنفسي فخرتُ، لا بجدودي

كان علوي النشأة، اسماعيلي المذهب وقرمطي النزعة. نصب نفسه داعية اسماعيلياً وادعى النبوة.

(٢٦) كتاب الجديد في الأدب العربي. حنا الفاخوري، ص ١٨١ .

(٢٧) هو أبو نصر محمد بن طرخان بن اوزلغ المعروف بالفارابي. ولد عام ٢٥٩هـ في مدينة فاراب في تركيا وكان والده قائداً في الجيش التركي. قدم الى بغداد حيث درس علم المنطق والفلسفة والرياضيات على يد «يوحنا بن حبلان». قدم حلب عام ٣٣٠هـ حيث التحق بالبلاط الحمداني. كان مفكراً زاهداً متقشفاً كان يعتزل الناس ويحب الخلوة الى نفسه له مؤلفات عديدة في فلسفة أفلاطون وأرسطو طاليس وتأثيرهما على الفلسفة الاسلامية.

بن بطون ربيعة، كانت تنتشر في الجزيرة العربية وقسم من العراق بعيدة عن الموصل معقل الحمدانيين، ولهذا كان ضعف القاعدة القبلية، بل انعدامها فعلياً، عند الحمدانيين، سبباً لاضطرارهم تجنيد الأتراك والفرس، وهم على مذهب السنة، في جيشهم والاعتماد على المال، وليس على الدين والقبيلة، لكسب ولاء الجنود، مما سبب للحمدانيين انفاقاً باهظاً تحول عبئاً كبيراً على مركزهم المالي، فاضطروا الى رفع الضرائب مما سبب في فوضى معيشية وتذمر ونفور بين الأهالي.

من المعروف تاريخياً أن أول انطلاقة لعقيدة التوحيد الدرزية في بلاد الشام، كانت في أواخر عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، أي من عام ٤٠٨هـ حتى عام ٤١١هـ، ثم خلال أوائل عهد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أي من عام ٤١١ حتى عام ٤١٧هـ أي أيام المحنة. كانت هذه الانطلاقة في بعض قرى الغوطة في ضواحي دمشق، وجبل السمّاق قرب حلب، والتجمع الدرزي في وادي التيم، اذ أن هؤلاء الموحدين كانوا بقايا القرامطة الذين بقوا في بلاد الشام بعد معركة الرملة عام ٣٦٧هـ ونزوح القرامطة النهائي الى الاحساء. بعد عام ٤١١هـ أطلق على الموحدين الدروز في مصر اسم «المنتظرة» أي منتظرين رجوع الحاكم بأمر الله، وفي بلاد الشام اسم غلاة الاسماعيلية خوفاً من اضطهاد السلطة الحاكمة لهم.

حصلت انطلاقة التوحيد الدرزية في آخر عهد الحمدانيين اذ انتهت امارتهم عام ٤١٣هـ.

في لبنان عائلات حمدان من الصعب القول إنها من سلالة العائلة الحمدانية التي حكمت حلب، بالنسبة لعدم وجود مراجع تاريخية تنص على ذلك، منهم عائلة مشايخ حمدان المعروفة في باتر الشوف وكان منهم القاضي عادل حمدان. ويقال إنّ هذه العائلة أتت الى لبنان عند قدوم علي باشا جنبلاط وابنه رباح عام ١٦٣٠م.

ثم هناك عائلة حمدان في قرية «البنّيه»، فهذه الأسرة من سلالة التنوخيين وكانوا من أصحاب النفوذ يقطنون قرية «كفرا» ولا تزال خرائبها موجودة قرب بلدة عيناب في قضاء عاليه. كان بنو حمدان من العصبية اليمينية فاشتبكوا في معركة مع المعنيين القيسيين، فخسروها، فدمّر المعنيون «كفرا» وهاجرت عائلة حمدان، كغيرها من العائلات اليمانية، الى سوريا حيث صاروا زعماء جبل الدروز حتى منتصف

القرن الماضي اذ انتقلت زعامة الجبل الى عائلة الأطرش. في حرب الدروز ضد جيش ابراهيم باشا المصري في منطقة «اللجاه» كان الشيخ يحيى حمدان قائد الدروز[٢٨].

يقول الكاتب George Washington Chasseud وهو ابن قنصل انجلترا في لبنان عام ١٨٤١م انه عندما زار بلدة عيناب عام ١٩٤٢ نزل ضيفاً على شيخها وكان من عائلة حمدان[٢٩].

---

(٢٨) كتاب سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي. بازيلي، ص ١٨٩ .

(٢٩) كتاب Druses of the Lebanon, Printed 1855 .

بنو مرداس الكلابيون

المرداسيون فرع من بني كلاب، وهم بطن من بني عوف بن بني عوف بن سليم بن عامر بن صعصعة من العدنانية[1]. كانت مساكنهم بين قابس وبلد العناب قبل أن ينتقلوا الى «يثرب»[2] في الجزيرة العربية، ومن يثرب انتقلوا الى شمال بلاد الشام في الفتوحات الاسلامية الأولى.

اسرة بني مرداس هي وليدة بني كلاب أصل العصبية القيسية وأعداء بني كلب اليمانيين. بعد معركة مرج راهط عام ٦٤هـ، ضعف نفوذ بني كلاب حتى قيل فيهم «مساكين كقيسي في حمص» يقال إنهم كانوا أكثر العرب عدداً وأشدهم بأساً وأكثرهم خبرة في الغزو والقتال، لهم صفة البداوة وخشونتها، والنفرة من النظام وعدم التقيد بالولاء الاّ لمن كانت مصالحهم في يده.

اما عن بروز اسم بني مرداس كدولة في ذلك الوقت فيقول المؤرخ M. Canard «برز اسم بني مرداس لأول مرة عندما استعان الخليفة الحاكم بأمر الله بصالح بن مرداس وحرضه على قتال مرتضى الدولة بن لؤلؤ والي حلب ومنحه مقابل ذلك، ولاية مدينة «الرحبة» ولقبه بأسد الدولة، وكان بنو كلاب قد أخذوا في ذلك الوقت يسيطرون على شمال بلاد الشام بعد أن ضعف الحمدانيون»[3].

اما المؤرخ ابن الأثير، فتختلف روايته عن رواية M. Canard اذ يقول: «في عام ٣٩٩هـ حدثت فتنة في مدينة «الرحبة» وكان واليها رجل يدعى ابن «قحطان» فراسل صالح بن مرداس يستعين به لاخماد الفتنة، وكان صالح لا يزال أسير عاداته الجافية وقسوته البدوية، فقاتل حليفه ابن «محكان» على البلد ثم استولى على الرحبة

(١) كتاب نهاية الأرب في معرفة انساب العرب، ابو العباس القلقشندي، ص ٤١٨ .

(٢) يثرب هو الاسم القديم للمدينة المنورة.

(٣) كتاب Marius Canard, Histoire de la Dynastie des Hamadanides de Jazira et de Syrie, page 714.

وأقام الدعوة بها للمصريين. وفي عام ٤٠٠هـ بدأ يتدخل في شؤون حلب. وكانت هذه أول مرة سمع فيها بصالح بن مرداس»[٤].

اما المؤرخان ابن العديم[٥] ويحيى بن سعيد الأنطاكي[٦] فتختلف روايتهما، وهي التي يعتمدها معظم المؤرخين المسلمين، عن غيرها في بعض التفاصيل، وهذه بعض المقتطفات عن الأحداث التي جرت في ذلك الوقت:

«توفي يوم الخامس من صفر عام ٣٩٢هـ أبو الفضائل سعيد الدولة الحمداني، وكان ذلك بمثابة النهاية الفعلية لحكم الأسرة الحمدانية بحلب وأصبح الحكم الفعلي للحاجب لؤلؤ، الذي كان من غلمان سيف الدولة[٧].

حكم لؤلؤ باسم ولدي الأمير سعيد الدولة الحمداني، أبو الحسن علي وأبو المعالي شريف، ثم بعثهما الى مصر وأعلن نفسه حاكماً منفرداً لحلب وساعده ابنه المنصور الذي نكّل واضطهد، مع والده، ببقية الأسرة الحمدانية[٨].

توفي لؤلؤ في نهاية عام ٣٩٩هـ وبوفاته غدا ابنه منصور حاكماً منفرداً لحلب وكان قصير النظر سكيراً فاسداً وماجناً.

ضاق سكان حلب من أعمال منصور وظلمه وفساده وشرعوا بالبحث عن طريق يتخلصون بها منه فكان امامهم، اما استدعاء احد أولاد الأمير سعيد الدولة من مصر او جلب أبي الهيجاء من بيزنطية.

قرر أهل حلب جلب أبو الهيجاء من بيزنطية وساندهم بذلك زعماء بني كلاب الذين كان لديهم قوة فعّالة في حلب. طلب أهالي حلب من عهد الدولة الحاكم المرواني لديار بكر ووالد زوجة الأمير الحمداني أبي الهيجاء الذي كان على علاقة طيبة مع البيزنطيين المساعدة، فوافق على ذلك وقدم المال اللازم مع مائتي فارس لمرافقة أبي الهيجاء وذلك عام ٤٠٠هـ.

---

(٤) كتاب التاريخ الباهر في دولة الاتابكية، ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي الجزري.

(٥) كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب وكتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب.

(٦) كتاب تاريخ المجتمع في التحقيق والتصديق، يحيى بن سعيد الأنطاكي.

(٧) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب، مجلد ١، ص ١٩٠ .

(٨) المرجع نفسه، مجلد ١، ص ١٩٥ .

خلال وجود أبي الهيجاء في «ميافارقين» عند والد زوجته ممهد الدولة، اجتمع بجماعة من شيوخ بني كلاب الذين وعدوه بالتأييد حتى يصل الى هدفه.

وصل أبو الهيجاء الحمداني الى اطراف حلب وكان برفقته بنو كلاب وحشودهم، ولكن للكلابيين وشيوخهم مقاييس خاصة في الاخلاص السياسي ومفهوم الوعود والاتفاقيات اذ كانوا، كمعظم أهل البداوة، على استعداد للنظر في هذه الوعود والاتفاقيات بعين الاعتبار لمنافعهم الشخصية ومرابحهم. كان منصور اتصل سرياً ببني كلاب، قبل قدومهم الى حلب، وعرض عليهم المال والاشتراك في حكم حلب اذا تخلوا عن ابي الهيجاء.

عند وصول الجيش الفاطمي، الذي أرسله الخليفة الحاكم بأمر الله لمساعدة منصور، بقيادة قاضي طرابلس علي بن عبد الواحد بن حيدرة، الى معسكر أبي الهيجاء تفرق الكلبيون وانسحبوا من المعركة، وذلك حسب اتفاقهم مع منصور. فانهزم جيش أبي الهيجاء الذي فر الى القسطنطينية حيث قضى بقية حياته[٩].

حاول القاضي علي بن عبد الواحد بن حيدرة احتلال حلب، ولكن الوالي منصور أغلق أبواب حلب في وجهه فرجع الى طرابلس خائبا من دون نتيجة تذكر للدولة الفاطمية.

غضب الخليفة الحاكم بامر الله من منع جيشه احتلال حلب، فأرسل قوات جديدة بقيادة ابي المعالي شريف بن سعيد الدولة، وهو أحد الأميرين الحمدانيين من أبناء سعيد الدولة اللذين ارسلهما منصور الى مصر. وصل الجيش الفاطمي الى معرة النعمان عام ٤٠٢هـ , حيث اشتبك مع بني كلاب في معركة عنيفة أضطر على أثرها الى التراجع الى القاهرة[١٠].

اعلن منصور طاعته للحاكم فنال رضاه فبعث اليه سجلاً في رمضان عام ٤٠٤هـ اكد فيه ولايته على حلب، ويقال انه كان أول حاكم لحلب اعترف بسلطان الخلافة الفاطمية بدلاً من العباسية[١١].

---

(٩) كتاب المجموع على التحقيق والتصديق، يحيى سعيد الانطاكي، ص ٢١١ .

(١٠) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب، ابن العديم، مجلد ١، ص ٢٠٠ .

(١١) كتاب الكامل في التاريخ، الطبري، مجلد ٩، ص ١٥٩ .

طالب الكلابيون الوالي منصور الوفاء بوعده لهم بالمال والمشاركة في الحكم، خصوصاً، زواج ابنته من صالح بن مرداس وتقسيم دخل الدولة معه. تنكر منصور لذلك وماطل وأراد التملص من وعوده، فحاصر صالح بن مرداس والكلبيون حلب ومنعوا دخول المؤن اليها وعاثوا في ضواحيها فقطعوا الأشجار وأتلفوا المزروعات وسببوا مصاعب جمة لسكانها[١٢].

اعلن منصور أنه يريد الوفاء بوعوده السابقة بل سيسعى الى تحالف واتفاق جديد مع شيوخ بني كلاب، فدعا زعماء القبيلة وشيوخها الى وليمة كبيرة داخل قصره، قيل قدم اليها أكثر من سبعماية شخص من كبار الكلابيين، وعند دخولهم قصر منصور كان بانتظارهم جمهور من غلمانه وجنده والسيوف بأيديهم فقتل عدد كبير من الكلابيين وسجن الباقون في زنزانات سجن القلعة. حدث ذلك في اليوم الثاني من ذي القعدة عام ٤٠٢هـ.

كان بين السجناء صالح بن مرداس أحد زعماء بني كلاب الذي حاول منصور اذلاله واهانته فأجبره على طلاق زوجته «طرود» وتزوجها ووضع الحديد في رجليه.. بقي صالح بن مرداس في السجن من عام ٤٠٢هـ الى عام ٤٠٥هـ ثم تمكن، بمساعدة بعض أتباعه، من الفرار من سجنه عام ٤٠٥هـ وذهب الى مرج دابق حيث مضارب بني كلاب.

وفي احدى الروايات التي شاعت: «ان صديقاً مجهولاً أعطى صالح بن مرداس مبرداً فتمكن بواسطته من قطع واحد من قيود قدميه ولكنه عجز عن قطع القيد الثاني فقام بربط السلسلة حول ساقه وقفز في ظلمة الليل في الأول من محرم ٤٠٥هـ منطلقاً نحو حريته». يرفض هذه الرواية الكثير من المؤرخين. «على ان المرء يحتاج الى معجزة كي يستطيع أن يقفز من أعلى سور القلعة المرتفع وهناك قيد وسلسلة مربوط بلبنة من الحديد ثقيلة قد لفت حول احدى الساقين. يستطيع أن يقفز ويصل دون ان تصيبه جراحة او دون اثارة انتباه الحرس»[١٣].

(١٢) كتاب تاريخ الانطاكي، يحيى بن سعيد الانطاكي، ص ٢١٢ - ٢١٣.
(١٣) كتاب امارة حلب، الدكتور سهيل زكار، ص ٤٥.

جمع صالح بن مرداس جيشاً من بني مرداس وكانوا حاقدين على منصور لقتله وسجنه الكثير من زعمائهم في خديعة «الوليمة» عام ٤٠٢هـ، فوعدوه بالطاعة والقتال معه. حاول منصور القتال فنشبت معركة في ١٢ صفر عام ٤٠٥هـ فهزم منصور وجيشه وقتل الكثير من أهل حلب ووقع منصور بالأسر مع كبار قادته.

ربح صالح بن مرداس معركة حلب ضد الوالي منصور بن لؤلؤ ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على المدينة، ولهذا جرت تسوية امكن الوصول بواسطتها الى مصالحة، اطلق بموجبها صالح سراح الوالي منصور، الذي كان اسيراً عنده، وأطلق منصور سجناء بني كلاب ودفع مبلغ خمسين ألف دينار ذهبي وعشرين رطلاً من الفضة وأطلق النساء الكلبيات اللاّتي قد تزوجهن، منهن زوجة صالح بن مرداس، على أن يتزوج صالح ابنة الوالي منصور ويصبح شريكاً في حكم حلب يتقاسمان خراجها بينهما. ثم يعترف منصور بأن صالح أعلى أمير في بني كلاب وعلى جميع امرائها طاعته. كانت هذه الاتفاقية أول خطوة في ارساء قاعدة حكم الأسرة المرداسية[١٤].

وكانت نهاية حكم الوالي منصور في اختلافه مع غلامه «فتح القلعي» حاكم قلعة حلب. فقد اتهمه منصور بأنه ساعد صالح بن مرداس على الفرار من سجنه عام ٤٠٥هـ. ساد النفور بينهما وأعلن «فتح» العصيان ونادى بولائه لصالح بن مرداس وذلك في ٢٤ رجب عام ٤٠٦هـ. خاف منصور أن يكون صالح وراء عصيان فتح، فهرب مع أولاده الى انطاكية حيث التجأ الى البيزنطيين، وكان ذلك نهاية الحكم الحمداني[١٥].

بعد اعلان حلب ولاية فاطمية وبعد أن صارت الخطبة للخليفة الحاكم بأمر الله، ارسلت القاهرة ولاة فاطميين على حلب منهم، فاتك ولقبه أمير الأمراء وعزيز الدولة الذي وصل حلب في رمضان عام ٤٠٧هـ وتمكن من استمالة صالح بن

(١٤) كتاب تاريخ يحيى الانطاكي، ص ٢١٠ – ٢١٣ . كتاب الكامل في التاريخ، ابن الاثير مجلد ٩، ص ١٠٥ .

(١٥) كتاب تاريخ يحيى الانطاكي ص ٢١٤ . كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب ابن العديم مجلد ١، ص ٢٠٧ .

مرداس، الذي بقي موالياً له مدة خمس سنوات. عند اختفاء الخليفة الحاكم بأمر الله عام ٤١١هـ حاول عزيز الدولة فاتك التقرب من الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله ولكن ست الملك، شقيقة الحاكم والتي كانت مسيطرة على الحكم، كانت تعرف عن فاتك محاولاته للاستقلال والانشقاق عن القاهرة، فحرضت غلامه بدر على قتله ثم أرسلت مَن قتلَه بعد ثلاثة أشهر من توليه ولاية حلب.

بعد بدر، وفي الاربعاء ١١ رجب عام ٤١٣هـ قدم حلب واليان، والٍ للمدينة صفي الدولة محمد بن علي بن جعفر بن فلاح الكتام، ووالٍ للقلعة يمن الدولة الخادم. لم يستمر هذا التعيين طويلاً، ففي ١٥ محرم عام ٤١٤هـ صرف الوالي الكتامي واستبدل بكتامي أخر، سيد الدولة الحسن بن محمد بن ثعبان، الذي انتهى حكمه بموته في ٢١ ربيع عام ٤١٥هـ.

كان صالح بن مرداس في ذلك الوقت قوياً ناشطاً يسير بقيادته معظم قبيلة كلاب فسيطر على السلطة في حلب، ولكنه بقي على ولائه للفاطميين.

عندما احتل حلب صالح بن مرداس عام ٤١٤هـ، بعد ان فتح له سالم بن مستفاد، غلام سيف الدولة، باب قنسرين، استقر في حكمه واتخذ وزيراً هوتادروس بن الحسن النصراني واستكمل مظاهر العظمة وعيّن قاضياً أبا يعلى عبد المنعم بن عبد الكريم بن سنان، فانتقل من حياة البداوة الى حياة الرخاء والرفاهية والترف.

سبق وقلنا قام الحلف الثلاثي بين القبائل الكبيرة في بلاد الشام وقسمت البلاد الى ثلاث مناطق نفوذ: المرداسيون في حلب وآل الجرّاح في فلسطين وبنو كلب في دمشق وجوارها.

كتبنا سابقاً بالتفصيل عن هذا الحلف وعن معركة الاقحوانة(١٦) التي قضت على هذا الحلف وانهت دور صالح بن مرداس الذي قتل خلالها مع ابنه الصغير.

كان مقتل صالح بن مرداس في معركة الاقحوانة، بعد سنوات قليلة من تأسيس الامارة المرداسية، ضربة قوية لهذه الامارة الناشئة ولكنه كان قد نجح في ارساء الحكم المرداسي في حلب وأسس امارة ثابتة وقوية لبني كلاب في بلاد الشام.

---

(١٦) كتاب تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ١١٩، (تفصيل دقيق عن معركة الاقحوانة).

تقول الدكتورة أمينة بيطار: «ولم تعش الامارة المرداسية طويلا، وأول من تولى الأمارة فيها هو صالح بن مرداس الكلابي في سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤م. حتى ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م. ثم شبل الدولة نصر بن مرداس من سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م حتى ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م، ثم معز الدولة ثمال بن مرداس من سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤٢م حتى سنة ٤٥٣ / ١٠٦١ . ثم عطية بن صالح ومحمود بن مرداس من سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م. حتى سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م.

بعد مقتل صالح بن مرداس واستلام أولاده، نصر، ثمال وعطية الحكم، جرت حروب عديدة على جميع الجبهات ومع جميع القوى والقبائل من عدو وحتى صديق حليف، وهذه الحروب التي كان سببها الغزو والنهب والسيطرة ونتائجها القتل والسلب والدمار لا تدخل في موضوع هذه الدراسة لأنها ليست دراسة في تاريخ الامارة المرداسية، بل عن علاقة عقيدة التوحيد الدرزية في تاريخ الامارة المرداسية.

تنحصر علاقة الموحدين الدروز بالمرداسيين في قضيتين: الاولى اضطهاد الدروز في ضواحي دمشق من الوالي عبد الرحيم بن الياس ومساعدة صالح بن مرداس له ثم ارسالهم جيشاً الى وادي التيم للقضاء على الدعوة التوحيدية. اما القضية الثانية فهي انتفاضة الموحدين الدروز في جبل السمّاق عام ٤٢٣هـ وقمعها بشراسة من نصر بن صالح بن مرداس بمعاونة القائد البيزنطي «فقيطا» او «نقياس» ثم امتداد المذبحة الى انطاكية.

ويجب أن نذكر أن القائد نشتكين الدزبري، وبعض المؤرخين يقولون أن الأمير رافع أبا الليل الكلبي، قتل نصر بن صالح بن مرداس في معركة «تل فاس» قرب بلدة «لطمين» في ١٣ شعبان عام ٤٢٧هـ.

انتهت امارة المرداسيين عام ٤٧١هـ عندما احتل مسلم العقيلي أمير الموصل حلب[١٧].

---

(١٧) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين، الدكتورة امينه بيطار، ص ٢٩١ .

بنو عقيل

بنو عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من العدنانية ومنهم الشاعر مجنون بن عامر، قيس بن الملّوح – الملقب – بمجنون ليلى[1].

ويقول القلقشندي: «وكانت مساكنهم بالبحرين في كثير من العرب. وكان أعظم قبائلهم هناك، بنو عقيل، وبنو تغلب، وبنو سليم، وكان أظهرهم في الكثرة والعز بنو تغلب. ثم اجتمع بنو عقيل وبنو تغلب على بني سليم حتى أخرجوهم من البحرين ودخلوا الى مصر». ويقول: «ثم اختلفت بنو عقيل وبنو تغلب بن مرة، فغلبت بنو تغلب على بني عقيل وطردوهم من البحرين، فساروا الى العراق وملكوا الكوفة والبلاد الفراتية وتغلبوا على الموصل، وملكوا تلك البلاد ومنهم، كان المقلد، وقرواش، وقريش وابنه مسلم بن قريش»[2].

لا تزال قبيلة عقيل، حتى يومنا هذا، ذات شأن ونفوذ في الجزيرة العربية وكذلك في جنوب العراق.

بما أن هذه الدراسة هي توضيح وتفسير العوامل التاريخية والفكرية التي أثرت على نشوء دعوة التوحيد الدرزية وليست عن تاريخ القبائل العربية التي كانت تعيش في بلاد الشام في القرنين الرابع والخامس هجري، ولأن بني عقيل لم يؤثروا على هذه العقائد، الاّ في تحالفهم احياناً مع القرامطة، وكان تحالفاً عسكرياً وليس فكرياً او عقائدياً، فعليه سأحصر دراستنا عن بني عقيل في بعض الحوادث التاريخية لتكملة التسلسل التاريخي في بلاد الشام في تلك الحقبة من الزمن.

تقول الدكتورة امينة بيطار: «وكان لبني عامر بن صعصعة، الذين ينحدر منهم بنو عقيل، نفوذ واسع في الجزيرة الفراتية عند بعثة الرسول محمد، حتى انه عرض

(١) كتاب نهاية الأرب في معرفة انساب العرب، القلقشندي، ص ٣٦٦ .

(٢) المصدر لنفسه، ص ٣٦٦ .

نفسه عليهم، عندما أبلغ رسالته، طالباً مساعدتهم وتأييدهم له. وكان لبني عامر بن صعصعة نصيب وافر من غنائم غزوة حنين التي وزعها الرسول على المبايعين له[٣].

كان ولاء بني عقيل لآل البيت ولكن حاربوا الفاطميين مراراً وتحالفوا مع اعدائهم لمصالحهم الخاصة، كما انهم عرفوا بتعصبهم الشديد لنزعتهم العربية ضد الفرس والاتراك.

عندما ثار نصر بن شيث العقيلي عام ١٩٨هـ، ارسل الى الخليفة المأمون عبدالله بن الرشيد (١٩٨ - ٢١٨هـ). «انه يحاربه دفاعاً عن العرب لأنه قدم عليهم العجم». ثم قال كذلك: «انه حارب الخليفة المأمون لأن امه فارسية وساعد أخاه الأمين، لأن أم الأمين عربية»[٤].

منذ ثورة نصر بن شيث عام ١٩٨هـ حتى تأسيس امارتهم في الموصل عام ٣٨٠هـ بواسطة الأمير محمد بن المسيّب العقيلي، كان بنو عقيل رعايا لبني حمدان.

كما قلنا سابقاً، ان هذه الدراسة ليست عن تاريخ بني عقيل، فلهذا سنختصر بحث ما قام به بنو عقيل من حروب مع القرامطة، الفاطميين وغيرهم.

تقول الدكتورة امينة بيطار عن زعماء بني عقيل:

١ - ابو الذؤاد محمد بن المسيّب العقيلي، الملقب نجدة الدولة ابو كامل منصور. وقد أسس الدولة العقيلية في الموصل سنة ٣٨٠هـ وتوفي عام ٣٨٦هـ.

٢ - المقلد بن المسيّب، الملقب حسام الدولة، والذي قتل سنة ٣٩١هـ غيلة على يد غلمانه من الأتراك.

٣ - قرواش بن المقلد الملقب معتمد الدولة، الذي قتل سنة ٤٤٤هـ.

٤ - قريش بن بدران العقيلي، الملقب علم الدين أبو المعالي، والذي ظل يتولى امارة الموصل حتى سنة ٤٥٣هـ.

٥ - مسلم بن قريش الملقب شرف الدولة ابو البركات.

---

(٣) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين، ص ٣١٩ .

(٤) كتاب دولة بني عقيل بن الموصل، خاشع المعاصيدي، ص ٤٤ .

ثم تقول الدكتورة امينة بيطار «اما ظالم بن موهوب فلم يكن له دور في الامارة، ولكنه لعب دوراً بارزاً في احداث الشام ايام الفتح الفاطمي»[٥].

عندما احتل الفاطميون بلاد الشام، او قسما منها، كانت خطة القائد الفاطمي الكتامي، جعفر بن فلاح، ضرب وتشتيت القبائل العربية، فأرسل بني مرة وفزارة لقتال بني عقيل في حوران فهزموهم، فانسحب بنو عقيل الى البحرين حيث انضموا الى القرامطة. في البحرين، بعد قدومه من دمشق، حرّض ظالم موهوب العقيلي، زعيم بني عقيل، القرامطة على الفاطميين. سار القرامطة الى دمشق عام ٣٦٠هـ فاحتلوها وقتلوا القائد الفاطمي جعفر بن فلاح الكتامي وعيّنوا ظالم موهوب العقيلي والياً عليها.

حرّض أبو منجا الحمداني، المعروف بالنابلسي، القائد القرمطي الحسن الأعصم على ظالم موهوب العقيلي لاختلافهما على خراج يافا ورئاسة الجيش، فجرت معركة عام ٣٦١هـ أسر بها ظالم موهوب العقيلي، ولكنه تمكن من الفرار من سجنه وذهب الى العراق[٦].

بعد هذه المعركة، تغير موقف ظالم العقيلي من القرامطة وأعلن ولاءه للفاطميين الذين كانوا يحاولون التقرب من القبائل العربية والاعتماد عليهم لصد هجمات القرامطة على بلاد الشام.

في العاشر من رمضان عام ٣٦٣هـ احتل الفاطميون دمشق وعينوا ظالم بن موهوب العقيلي والياً عليها. فقبض ظالم العقيلي على ابي المنجا، الذي كان والياً على دمشق من قبل القرامطة، وأرسله الى القاهرة حيث أمر بقتله الخليفة المعز لدين الله. في العام نفسه ٣٦٣هـ اقيمت الخطبة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله في مساجد دمشق وسيطر الفاطميون على بلاد الشام ما عدا حلب.

في يوم الثلثاء، لثلاثةٍ بقين من شهر رمضان عام ٣٦٣هـ[٧] قدم القائد

---

(٥) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين، ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

(٦) المرجع نفسه.

(٧) كتاب تاريخ دمشق، ابن القلانسي، ص ٩ .

الكتامي ابو محمود بن ابراهيم بن جعفر بن فلاح دمشق مع جيش من المغاربة الذين عاثوا فساداً وكثرت تعدياتهم على الأهالي، فثار أهالي دمشق وجرت معارك شرسة حرق بها بيوت كثيرة حتى المخازن والمساجد وقتل الألوف من الناس والجند(٨).

كانت نتيجة الفتنة، الخراب والدمار وحرق قسم كبير من مدينة دمشق. اما الوالي، ظالم موهوب العقيلي، فأخذ جانب أهالي دمشق، فحمل السيف ضد الجنود المغاربة وقاتلهم قتالاً شديداً، ولكنه لم يستطع قمع شغب المغاربة واستهتارهم بالسلطة، او تهدئة أحداث دمشق وكانوا بقيادة زعيمهم محمد بن عصودا، فسعى الى المصالحة حتى يستتب الأمن ولكن من دون نتيجة، فنحي عن ولاية دمشق في ذي القعدة عام ٣٦٣ واستلمها القائد جيش بن الصمصامة، ابن شقيقة القائد الفاطمي ابو محمود ابراهيم، فترك ظالم العقيلي دمشق وسار الى بعلبك حيث عيّن والياً عليها.

خلال ولاية ظالم العقيلي على بعلبك قدم القائد التركي «افتكين» فجرت معركة انهزم على أثرها ظالم العقيلي وحليفه القائد الفاطمي أبو محمود بن ابراهيم بن جعفر بن فلاح فاضطر ظالم العقيلي الى التقهقر الى صور.

في عهد الأمير قريش بن بدران، الذي تولى الامارة عام ٤٤٤هـ بعد وفاة عمه قرواش، انحاز قريش الى البساسيري عام ٤٤٨هـ وقاتل تحت لوائه في معركة «القيارة» جنوب الموصل وبعد ذلك اختلفوا مع الداعي هبة الله الشيرازي لكثرة طلبهم للمال، ولكنهم انضموا اليه في زحفه على الموصل ثم ساروا مع البساسيري ودخلوا بغداد في ٨ ذي القعدة عام ٤٥٠هـ من دون مقاومة تذكر(٩).

كانت حروب بني عقيل مع السلجوقيين مرهقة لهم، ففي عام ٤٧٤هـ احتل القائد السلجوقي «تتش» دمشق، فتصدى له الأمير مسلم بن قريش العقيلي، وفي عام ٤٧٥هـ جرت معركة حشد فيها «تتش» جيشه كافة، فانهزم مسلم بن قريش ورجع الى الموصل بعد ان تكبد خسائر فادحة. وفي عام ٤٧٩هـ سقطت حلب بيد التركمان ثم لحقها الموصل عام ٤٨٩هـ وبذلك انتهت امارة بني عقيل.

---

(٨) كتاب تاريخ دمشق ابن القلانسي، تفاصيل عن هذه المعارك من ص ٩ الى ص ٢٠ .

(٩) كتاب النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، محمد جمال الدين سرور، ص ١١٦ .

القرامطة في بلاد الشام

ما يعنينا من القرامطة في هذه الدراسة، هي عقائدهم وتقاليدهم وحروبهم في بلاد الشام، وما عدا ذلك، كتاريخهم واعمالهم في الاحساء، والعراق، واليمن والجزيرة العربية فهو موضوع يهم من يريد البحث عن أصل القرامطة ومنشأ دعوتهم كتاريخ كامل لهذه الحركة الثورية الاشتراكية، وحتى الشيوعية، اوجدتها الظروف الصعبة في زمن مليء بالقلق والاضطراب الفكري والديني متخم بالصراع الطبقي والعقائدي يتحكم فيه التناحر العنصري بين العرب والفرس والأتراك، حتى الأكراد والأرمن ويسوده النفور والبغضاء بين الموالي والارقاء والأرستقراطية العربية المسيطرة على الثروة الاقتصادية ولكن ليس على الحكم.

عم الرخاء والترف وكثر المال الذي سبب اللهو والمجون فاستشرى الفساد والانحلال الاخلاقي في طبقة الحكّام وأصحاب النفوذ وقادة الجيوش، فكانت قصور الخلفاء مليئة بالجواري والغلمان والارقاء من جميع الأجناس والألوان التي كانت تباع كالسلع في أسواق النخاسة فعم الفجور والتهتك مما سبب ثورات عديدة وانتفاضات منها الحركة الثورية الاشتراكية الدينية القرمطية، التي بدأت من أجل تحرير الانسان من القهر والظلم والفقر، واقامة مجتمع العدالة والمساواة، حين اطلقت المبادئ الاشتراكية، واعتبرت الانسان العامل الأول والأساسي في المجتمع وليس المادة، فالمادة وجدت لخدمة الانسان والانسان لم يخلق عبداً للمادة.

ولكن بعض المؤرخين اعتبر أن الحركة القرمطية بدعة كفر عبثت بالقيم والأخلاق، فدمرت المدن وقتلت النساء والأطفال والشيوخ ودنست الأماكن المقدسة ولم تترك للتاريخ الاّ أخباراً كئيبة وفواجع قاسية والآلاف من الضحايا البريئة أوجدها سوء الطالع في الأماكن التي اجتاحها هؤلاء القساة السفاحون.

يقول احد المؤرخين الأوائل ان القرامطة أحلوا سفك دماء الناس واخذ اموالهم والشهادة عليهم بالكفر، على مذهب الازارقة الخوارج، واعتمدوا في ذلك قول الله تعالى «واقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» (سورة التوبة، آية ٥). ثم كذلك أوّلوا

قول الله سبحانه «لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً (سورة نوح، آية ٢٦). وقالوا يجب ان يقتل من قال بامامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وكل من نصب اماماً غير اسماعيل وابنه محمد. وقتل من نصب اماماً من بني هاشم. او من قال بالامامة ممن ليس على قولهم ومذهبهم. والقتل يشمل الجميع من رجال ونساء وأطفال.

القرامطة كانوا من جماعات الدعوة الاسماعيلية، ويمكن القول، انهم فرع من فروع الاسماعيلية. ولهذا لا بد من ان نتقبل فكرة الأصل المشترك للدعوتين، على الرغم من ان العلاقة بينهما تباينت بها اختلافات عقائدية، فجنحت القرمطية الى الممارسة بالبدع والعقائد التي يرفضها الاسلام، «فنسخوا الفروض الاسلامية وتنكروا للأنبياء»[1].

ويقول احد شعراء القرامطة[2]:

خذي الدف يا هذه والعبي ... وغني هزاريك ثم اطربي

تولى نبي بني هاشم ... وهذا نبي بني يعرب

لكل نبي مضى شرعه ... وهذي شرائع هذ النبي

فقد حط عنا فروض الصلاة ... وحط الصيام ولم يتعب

اذا الناس صلوا فلا تنهضي ... وان صاموا كلي واشربي

ولا تطلبي السعي عند الصفا ... ولا زورة القبر في يثرب

وما الخمر الا كماء السماء ... حلالاً فقُدست من مذهب

في عام ٣١٧هـ هاجم ابو طاهر الجنابي القرمطي مكة، فقتل الآلاف من المسلمين وقال لأصحابه «ضعوا السيف واقتلوا من لقيتم، لا تشتغلوا الاّ بالقتل ولم

(١) كتاب كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة، محمد بن مالك الحمادي، تاريخ القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٢٠٣ - ٢٠٧ .

(٢) مخطوطة من مكتبة جامعة ليدن رقم ٢٠٢ .

يزل كذلك ثلاثة أيام»[٣]. ثم دخل الكعبة وقال «اين ربكم يا اهل مكة يذود عنكم».

(المؤرخ ابو الفرج عبد الرحمن علي بن جعفر الجوزي - كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم).

(والمفكر قاضي القضاة عبد الجبار الهمذاني - كتاب دلائل نبوة سيدنا محمد).

(ومحمد بن مالك ابن ابي الفضل الحمادي - كتاب كشف أسرار الفاطمية واخبار القرامطة).

فقد قالوا: «القرامطة انهم باطنية ملحدون، قد جحدوا الشرائع، وكان الباعث لهم هو تهديم الاسلام وتعلقوا بتعاليم زرادشت ومزدك، كانوا يحللون المحظورات، ويحللون المحرمات والاباحية المطلقة، وقالوا ان جميع الأنبياء كذبوا على اممهم».

ويقول المفكر الاسماعيلي ناصر خسرو «وفيها اكثر من عشرين الف محارب (الاحساء). وقيل ان سلطانهم كان شريفاً وقد ردهم عن الاسلام، وقال اني اعفيتكم من الصلاة والصوم، ودعاهم الى ان مرجعهم لا يكون الاّ اليه واسمه ابو سعيد، وحين يسألون عن مذهبهم يقولون، إنّا ابو سعيديون، وهم لا يصلون ولا يصومون، ولكنهم يقرون بمحمد المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وبرسالته. وقد قال لهم ابو سعيد، اني راجع اليكم، يعني بعد الوفاة». ثم يقول: «وليس في مدينة الاحساء مسجد جمعة ولا تقام بها صلاة او خطبة»[٤].

يقول معظم المؤرخين ان الحركة القرمطية نشأت في سواد الكوفة، ولكن قلة قالت ان أبا القاسم بن الفرج بن حوشب هو الذي بثها في اليمن ثم انتقلت الى سواد الكوفة. ان هذا الادعاء الضعيف قد يكون سببه عدم التفريق بين الدعوة الاسماعيلية، التي بثها ابو حوشب في اليمن، وبين الحركة القرمطية «التي بدأت في عام ٢٦٦هـ»[٥].

---

(٣) كتاب تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد، قاضي القضاة عبد الجبار الهمذاني، كتاب اخبار القرامطة الدكتور سهيل زكار، ص ١٥٦ .

(٤) كتاب سفرنامه، نقله الى العربية الدكتور يحيى الخشاب، ص ١٤٢ .

(٥) كتاب القرامطة، ميكال بان دي خويه، ترجمة حسني زينة، ص ٣٨ .

كان من السهل القيام بهذه الانتفاضة الاشتراكية في سواد الكوفة لتصحيح الوضع الاجتماعي والمعيشي لأن المال والأرض كانت بأيدي قلة من الزعماء، والأكثرية من عامة الشعب مستعبدة تعيش كفاف يومها دون أمل بتحسين اوضاعها.

ومما زاد في اذكاء وانتشار هذه الانتفاضة الاسماعيلية – القرمطية في سواد الكوفة بين عامة الناس، كون قادتها الاسماعيليين من آل البيت يحوزون على عطف ومحبة الجماهير ويقرّون لهم بالحق في الحكم، فهم من سلالة فاطمة بنت الرسول وقد اعتدي على حقهم واضطهدوا. هذا مع العلم بان معظم سكان الكوفة كانوا من اتباع العلويين، والكوفة كانت معقل الامام الأول علي بن ابي طالب.

ويقول المؤرخ الاسماعيلي الدكتور عارف تامر «ان أول اتصال بالقرامطة، وذلك ابتغاء لنشر الدعوة الاسماعيلية، كان الامام المستور حسين بن احمد ابن عبدالله الملقب بالاهوازي(٦) وهو الامام العاشر من جده علي بن ابي طالب. ولد حسين الاهوازي في بلدة مصياف سنة ١٩٨ هـ وكان يملك ثروة طائلة وقرى عديدة ومزارع، وكان كثير التنقل والذهاب الى بلاد فارس والبحرين والحجاز»(٧).

واثناء وجود الامام حسين الاهوازي في سواد الكوفة التقى بحمدان بن الأشعث المعروف «بقرمط»(٨). ويقول ابن العديم: «وانما سمي بقرمط لأنه كان

(٦) مؤرخو الاسماعيلية يقولون ان حسين الأهوازي هو امام الستر الثالث والد عبيدالله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية. اما باقي المؤرخين المسلمين فيعتبرونه داعيةً اسماعيلياً كان يعمل للامام احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل. اما قاضي القضاة عبد الجبار الهمذاني – كتابه دلائل نبوة سيدنا محمد – فيقول ان حسين الاهوازي كان داعيةً لابن ميمون القداح.

ويقول الدكتور محمد احمد زيود، كتاب العلاقات بين الشام ومصر. «وقد اخذ حمدان هذه الدعوة عن الحسين الأهوازي وهو احد دعاة عبدالله بن ميمون القداح»، ص ١٥٣ .

(٧) كتاب تاريخ الاسماعيلية مجلد ١، ص ١٣٢ .

(٨) المصدر نفسه، ص ١٣٣ .

قصيراً. وكانت رجلاه قصيرتين، خطواته متقاربة، فسمي لهذا السبب قرمطاً»[٩] وقيل ان قرمط لقب رجل من سواد الكوفة كان يحمل غلة على اثوار واسمه حمدان[١٠].

ويقول ابن خلكان «القرمطي والقرمطة في اللغة تقارب الشيء بعضه من بعض، يقال خط مقرمط ومشي مقرمط اذا كان كذلك، وكان ابو سعيد المذكور قصيراً مجتمع الخلق اسمر اللون كريه المنظر، فلذلك قيل له قرمطي»[١١]. يقول المستشرق سلفستر دي ساسي، «كلمة قرمط اي غضب وعبس».

ويقول ثابت بن سنان ابن مرة الصابئي: «في سنة ٢٧٨هـ فيها تحرّك بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة، كان ابتداء امرهم – فيما ذكر – ان زعيم هذه الطائفة قدم من بلدة من خوزستان الى عاصمة الكوفة، فنزل بموضع يقال له النهرين وتظاهر بالزهد والورع والتقشف». ثم يقول: «ثم مرض فمكث على الطريق مطروحاً، وكان في القرية رجل يدعى «كرميتة»، لحمرة عينه يحمل على أثوار له غلة، فكلم البقّال في حمل المريض الى بيته، فحمله وأقام حتى برىء. ودعا اهل القرية الى اعتناق مذهبه وكان يأخذ من كل رجل دينارا ويزعم انه للامام». ثم يقول «وسمي نفسه باسم الرجل الذي كان في داره «كرميتة»، صاحب الأثوار، ثم خفف فقيل قرمط»[١٢].

ويقول الدكتور عارف تامر عن التقاء الامام حسين الأهوازي بحمدان بن الأشعث، قرمط، «بعد ان توثقت بينهما اواصر الصداقة تمكن من التأثير عليه وادخاله في دعوته»[١٣]. وفي الوقت نفسه، التقى بزكرويه بن مهرويه وهو ثري وصاحب قرى كثيرة ومن بلد يقال له «الصوان»، ولهذا لقب بالصواني. اصبح

---

(٩) كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب، كتاب تاريخ القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٢٧٧ .

(١٠) مخطوطة لثابت بن سنان بن مرة موجودة عند المستشرق برنارد لويس.

(١١) كتاب وفيات الأعيان مجلد ٢، ص ١٥٠ .

(١٢) كتاب تاريخ القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٧ و ٨ .

(١٣) المصدر نفسه، ص ٨ .

زكرويه من قادة القرامطة ولعب مع اولاده، ابو العباس احمد بن عبدالله، الملقب بأبي الناقة، والحسين بن زكرويه (ابن المهزول) الذي ادعى بأنه امير المؤمنين والمهدي، ولقب بأبي الشامة او الخال وذلك لشامة كانت على وجهه. قيل ان زكرويه بن مهرويه باع جميع ما كان يملك من بساتين النخل والقرى ووزع ثمنها على الفقراء والمحتاجين، تحقيقاً لمبادئ الاشتراكية التي كان يؤمن بها ويدعو اليها».

انضم الى الحركة القرمطية علماء ومفكرون ساعدوا على تنظيمها وادارتها وانتشارها كالحسن بن سنبر، والد زوجة ابي سعيد الجنابي، وأبي طريف عدي بن محمد بن الغمر، كانا الوزيرين الاولين، ثم ابي الحسن احمد بن بشر الحارثي، وزير العدل، وثور بن ثور الكلابي»[١٤]. «اما الذين ساعدوا على استقطاب القبائل العربية التي كانت في سواد الكوفة فهم تستر البوراني وابو الفوارس وهذه القبائل كانت بني عابس، عنزة، تيم الله بن ثعلبة[١٥]، تيم ثعل وبني شيبان وذهل»[١٦].

اما تقي الدين المقريزي فيقول عن حمدان الأشعث، قرمط: «وكان ذكياً داهية اخذ على اكثر اهل السواد، فكان ممن اجابه، مهرويه بن زكرويه السليماني، وجلندي الرازي وعكرمة البابلي، واسحاق البوراني، وعطيف النبيلي وغيرهم وبث دعاته في السواد يأخذون على الناس. وكان من اكبر دعاته عبدان، وكان فطناً خبيثاً، خارجاً عن طبقة نظرائه من اهل السواد، ذا فهم وحذق، وكان يعمل عند نفسه على نصب له، من غير ان يتجاوز به الى غيره، ولا يظهر غير التشيع والعلم، ويدعو الى الامام من آل رسول الله محمد بن اسماعيل بن جعفر»[١٧].

---

(١٤) كتاب القرامطة، ميكال بان دي خويه، ص ١٢٣ .

(١٥) تيم الله بن ثعلبة بن عكاية بن علي بن بكر بن وائل، بطن من ربيعة اعتنقوا الاسماعيلية ثم انضموا الى القرامطة ونزلوا سواد الكوفة وقدموا الى بلاد الشام حيث سكنوا في الوادي المعروف اليوم باسم وادي التيم، كتاب القرامطة الدكتور سهيل زكار، ص ٣٢٩ - ٢٩٥ .

(١٦) كتاب تاريخ الاسماعيلية الدكتور عارف تامر، ص ١٥٣ .

(١٧) كتاب اتعاظ الحنفاء باخبار الائمة الفاطميين الخلفاء، تاريخ القرامطة الدكتور سهيل زكار، ص ٣٢٩ .

واما المؤرخ الاسماعيلي الدكتور عارف تامر فيقول «اما عبدان، فكان من الشخصيات المثقفة الذين عرفوا بسعة العلم، والفطنة، والفهم والحذق، والاحاطة بكل شيء حوله، فقد قدم الخدمات، وأصاب النجاح، وألف الكتب واعطى الدروس حتى اعتبر انه احد الذين ساهموا بوضع دستور الدولة القرمطية الاشتراكية. ومن الجدير بالذكر، ان عبدان هو الذي أثر في ابي سعيد الجنابي، الزعيم البحراني الواسع النفوذ، الذي لعب دوراً كبيراً على مسرح السياسة وتمكن من نقل الدولة القرمطية الى البحرين»[١٨]. كان عبدان صهر حمدان بن الأشعث، قرمط.

وبهذا نكون قدمنا وشرحنا، ولو باختصار، الخلفيات التاريخية لانطلاق الحركة القرمطية الاسماعيلية في البلاد الاسلامية كما حدثت قبل انتشار الدعوة التوحيدية الدرزية، وثم تفسير المعتقدات الدينية القرمطية التي من الصعب مقارنتها مع عقيدة التوحيد الدرزية، وعما اذا كانت تأثرت بها وذلك بسبب الغطاء المتشدّد المفروض على سريّة مذهب التوحيد، مع العلم بان هذه الدراسة هي عن المدارس الفكرية فقط التي اثرت على عقيدة التوحيد وليست عن المذهب الديني، ولهذا سنحصر درسنا فقط بالعقيدة القرمطية كما روتها كتب التاريخ الاسلامي دون البحث في مذهب التوحيد الدرزي.

واما حروب القرامطة التي جرت في الاحساء، العراق، واليمن، والجزيرة العربية، فهي خارجة عن نطاق هذه الدراسة، لأن لا علاقة لها او تأثيراً على عقيدة التوحيد التي لم تتعد بلاد الشام، الاّ اذا تطرقنا الى انتشار الدعوة الاسماعيلية في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥هـ) في مدينة «ملتان» في بلاد السند وكان ذلك لمدة قصيرة قبل ان يقضي عليها الجيش الغزنوي بقيادة السلطان محمود الذي غزاها لأول مرة عام ٤٠١هـ ثم هاجمها في عام ٤١٦هـ وقتل معظم الاسماعيليين.

وفي عام ٢٨٤هـ هاجم بنو طي، بتشجيع من حلفائهم قرامطة سواد الكوفة، طريق المواصلات بين سورية والحجاز، فعطلوا طريق الحج في بلاد الشام، ولكن كان هذا الاجتياح غزوة قبلية، اعتبرها المؤرخون حادث شغب أمني قليل الاهمية.

---

(١٨) كتاب تاريخ الاسماعيلية، ص ١٥٥ .

وفي أول عهدهم كان القرامطة يدينون بالولاء الى الخلفاء الفاطميين، وعندما استلم زعامة القرامطة احمد اخو طاهر الجنابي، طلب منه الخليفة المعز لدين الله مساعدته لفتح مصر، فانصاع له ابو طاهر وأرسل جيشاً من القرامطة الى بلاد الشام. وفي عام ٣٥٧هـ احرز ابو طاهر انتصاراً باهراً على الجيش الأخشيدي فهرب الوالي حسين بن عبيدالله الى مصر. ولكن بدلاً من متابعة المسيرة الى مصر هادن احمد القرمطي حسين بن عبيدالله على فدية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار تدفع له سنوياً»[١٩].

اما الغزوة الاولى فكانت عام ٢٤٣هـ حين قدم الى بلاد الشام قائد قرمطي اسمه ابو غانم مع جمع من بني كلب واسد. وصل الى بصرى وازرع في حوران فقتل ونهب ثم سار الى طبريا في الأردن حيث استولى عليها وقتل واليها يوسف بن ابراهيم بعارمردي ثم نهبها ودمّر القسم الأكبر منها. ولكن الخليفة المتوكل على الله ابو الفضل جعفر (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) ارسل جيشاً بقيادة الحسين ابن حمدان التغلبي حيث اشتبك مع الجيش القرمطي في معركة «وادي خندف» قرب دمشق، فانهزم القرمطي فأسره بنو كلب وقتلوه. بعض المؤرخين يقول، انه لم يقتل بل فرّ الى البادية.

وفي عام ٢٨٩هـ، اواخر الدولة الطولونية في مصر، إذ صار محمد بن طغج الفرغاني[٢٠] عاملاً على الشام عام ٢٩٧هـ. انطلق الزعيم القرمطي زكرويه بن مهرويه الى بلاد الشام على رأس جيش من قرامطة سواد الكوفة وجموع من البدو من اسد وطي وتميم، فالتقى مع الجيش العباسي بقيادة شبل الديلمي في مكان يقال له «الرصافة» في العراق فانهزم الجيش العباسي، وابيدت اكثر قواته.

سار زكرويه بن مهرويه الى بلاد الشام فوصل الى مكان يقال له المزة في ضواحي دمشق بعد ان دمّر القرى وقتل الآلاف من الشيوخ والرجال والنساء وحتى الاطفال، ثم تخلى عن قيادة الجيش الى ابنه يحيى بن الحسين، الملقب بصاحب الناقة، وقفل راجعاً الى سواد الكوفة.

(١٩) كتاب الكامل في التاريخ، ابن الأثير، مجلد ٨ ص ٤٥٢هـ. وكتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابو المحاسن يوسف بن تغري بردي، مجلد ٤، ص ٧٥ .

(٢٠) المصدر نفسه.

كان والي دمشق طغج بن جف الفرغاني من قبل احمد بن طولون. نشبت معركة في المزة بين الجيش القرمطي وجيش طغج بن جف، فانهزم طغج وقتل الكثير من جنده، فالتجأ الى قلعة دمشق حيث لم يتمكن القرامطة من الوصول اليه لمناعتها وحسن تحصينها.

بقي طغج بن جف سبعة اشهر يقاوم من قلعة دمشق حتى وصل جيش كبير من مصر بقيادة «بدر الحمامي» الذي اشتبك في معركة ضارية مع القرامطة، فانهزم القرامطة وقتل قائدهم «صاحب الناقة». «رماه بعض المغاربة بمزراق (رمح قصير منفّط وملتهب، فاحترق به شيخ القرامطة»[٢١].

ويقول سنان بن ثابت الصابئي «ولما قتل ومن معه اجتمع من بقي منهم على اخيه الحسين، ويسمي نفسه احمد، وكنيته ابو العباس، ودعا الناس اليه فأجابه اكثر اهل البوادي وغيرهم واشتدت شوكته، واظهر شامة في وجهه وادعى أنها آيته وختم نبوته»[٢٢].

هذه الهزيمة الكبيرة للقرامطة، مع مقتل قائدهم صاحب الناقة لم تؤثر عليهم او تثبط عزائمهم، فاعدوا تنظيم جيشهم واندفعوا باتجاه دمشق. وعند وصولهم الى مدينة «الرقة» عام ٢٨٩هـ اشتبكوا في معركة ضارية مع الجيش العباسي فابادوه وقضوا على معظم جنده، ثم تابعوا سيرهم عبر حلب وحمص وحماه حيث دمّروا وقتلوا وسبوا النساء حتى دخلوا مدينة دمشق فأعملوا السيف في رقاب أهلها بعد أن قتلوا الوالي طغج بن جف انتقاماً عن هزيمتهم السابقة ومقتل قائدهم «صاحب الناقة».

ترك صاحب الخال دمشق وسار الى حمص حيث خطب له في مساجدها كأمير المؤمنين والمهدي وأعلن ابن عمّه المدعو عبدالله بن محمد المكنى «بالمدثر» مساعداً ونائباً عنه وخليفته على المسلمين. ثم سار الى حماه وحمص ومعرة النعمان وبعلبك حيث قتل ودمّر وأحرق القرى ثم اتجه الى «سلمية» «مدينة الزعفران» ليقتل الامام عبيدالله المهدي لأن قيل له، ان عبيدالله المهدي يرفض القول ان الامام محمد

(٢١) كتاب اخبار القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ١٩ (عن سنان بن ثابت الصابئي).
(٢٢) المصدر نفسه.

بن اسماعيل بن جعفر الصادق هو صاحب الزمان وقائم الحق الذي برجوعه تكون القيامة ويحاسب الناس على اعمالهم ويعطي الحق لصاحبه(٢٣). عندما عرف الامام عبيدالله ذلك هرب الى شمال افريقيا حيث أسسس الدولة الفاطمية(*).

«وصل صاحب الشامة الى سلمية، وكان ذلك في مستهل رمضان، فمنعه اهلها، ولم يقدر على مقاومتهم، فصالحهم وامنهم ففتحوا له بابها، فبدأ بمن فيها من بني هاشم، وكانوا جماعةً فقتلهم ولم يبق منهم احداً، وقتل الصبيان والفقهاء والشيوخ والبهائم وخرج منها وليس بها عين تطرف، ودخل في القرى المجاورة لها يسبي ويقتل وينهب ويقطع السبيل ويأتي من المنكرات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت»(٢٤).

(٢٣) كتاب المقالات والفرق يقول سعد القمي، وهو من معاصري القرامطة وأول من كتب عنهم «ان سابع الأئمة هو محمد بن اسماعيل وهو حي لم يمت وانه غائب مستتر وانه القائم المهدي. ومعنى القائم عندهم (القرامطة) يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد. ويقول القاضي النعمان – كتاب الرسالة المذهبية في الحكمة والتأويل – القائم هو سابع سبعة ودوره آخر الادوار، يأتي ويلغي كل الشرائع السابقة.. ويقول الداعي ابن منصور اليمن. كتاب الكشف فسره الفيلسوف «شتروطمان» (اكسفورد عام ١٩٥٢) «عندما يخرج المهدي القائم، حينئذ يشرب الثور والسبع من حوض واحد ويخلف الراعي الذئب على غنمه، ولا يدع بدعة من البدع الاّ اطفئت ومحقت ويرد الحق الى أهله حتى يعود الانسان كما ولد.

(*) اعتنق القرامطة عقيدة الامام المنتظر وقالوا انه قمة الايمان وقائم الحق وصاحب الزمان، حتى انهم استبقوا قدومه فألغوا الامامة، فالمهدي امامهم، نسخوا دور الأنبياء والشرائع لأن المهدي المنتظر سيأتي بشريعة جديدة تنسخ ما قبلها من الشرائع وتعم العالم. تخلّوا عن الفروض كالصلاة والزكاة والصوم والحج. سيطرت فكرة رجعة الامام من غيبته على مجمل تفكيرهم، ونسمع عن الزعيم القرمطي ابي طاهر الجنابي يستقدم من الهند علماء الفلك والمنجمين كي يخبروه عن وقت رجعة الامام المهدي.

(٢٤) كتاب اخبار القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٢٠، عن ثابت بن سنان ابن قرة الصابئي.

ويقول محمد بن جرير الطبري «لم يبق في سلمية حتى كلب ينبح او عين تطرف»(٢٥).

غضب الخليفة العباسي المكتفي بالله علي بن المعتضد (٢٨٩ - ٢٩٥هـ) فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة ابي الآغر السلمي، فلقي القرامطة في حلب حيث اوقعوا به هزيمة كبرى، ثم أرسل اليهم جيشاً آخر بقيادة محمد بن سليمان الكاتب الذي قصد حلب والتقى بالقرامطة عام ٢٩١هـ في مكان قريب من حماه، وهناك نشبت معركة عنيفة حيث انهزم القرامطة وشرّد جيشهم، وهرب «صاحب الشامة» مع ابن عمه وخليفته «المدثر» ودليل رومي، وعندما صاروا على مقربة من الرحبة عرفهم أهالي البلدة فقبضوا عليهم وأتوا بهم الى الوالي الذي أرسلهم الى بغداد حيث عذبوا وضربت اعناقهم وصلبوا على أبواب المدينة. وكان ذلك عام ٢٩٢ هجري(٢٦).

بعد مقتل ولديه، صاحب الناقة وصاحب الشامة، خرج زكرويه بن مهرويه من عزلته في قرية «الذرية»، طالبا الثأر لأولاده، فاستجابت له بنو كلب وبنو القليص وغيرهم، فجند جيشاً كبيراً، فحاصر دمشق ودخلها ثم سار الى بلاد حوران ففتحها ثم عاد الى دمشق حيث اشتبك مع الجيش العباسي وكان على رأسه صالح ابي الفضل فهزمه وقتل القائد صالح أبي الفضل ولكنه لم يدخل دمشق بل سار الى طبرية حيث دمّر القرى وقتل الكثير من الناس(*).

ثم سار عام ٢٩٣ الى الكوفة مع جيشه واعملوا القتل في اهاليها ثم وصل الجيش العباسي وكانت معركة كبيرة انهزم بها الجيش العباسي بعد خسارة كبيرة. وفي عام ٢٩٤هـ هاجم زكرويه الحج ولكن القافلة ارتحلت قبل قدومه ثم غار على بني اسد فدمّر بيوتهم ثم هاجم قافلة من خراسان لم ينج منها الاّ القليل واستولى على جميع الأموال وسبى النساء وقتل الشيوخ والاطفال.

---

(٢٥) كتاب تاريخ الرسل والملوك، تحقيق بان دي خويه ليدن.

(٢٦) كتاب ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب تحقيق الدكتور سهيل زكّار. تفصيل أسر واعدام ابو الشامة من ص ٢٨١ الى ص ٢٨٦ .

(*) عدد الهاشميين، وهم من آل البيت، الذين قتلهم صاحب الشامه من سلمية كان ١٤١ منهم ٩٥ شيخ من الفقهاء. بنو هاشم بن عبد مناف والد عبد المطلب جد النبي محمد وهم «اهل البيت». آل البيت سلالة علي بن أبي طالب.

وغضب الخليفة المكتفي بالله ممّا جرى للحجيج فأرسل جيشاً بقيادة وصيف بن سوارتكين عام ٢٩٤هـ فحدثت معركة كبيرة على طريق «خفان» قرب الكوفة، قتل فيها من القرامطة ما لا يحصى عدده، اما زكرويه فقد ضربه رجل بسيفه على رأسه فوقع على الأرض فحملوه أسيراً، ولكنه مات بعد مضي خمسة أيام فأرسلت جثته الى بغداد(*).

انتهت حروب قرامطة سواد الكوفة وآل مهرويه، وكان سبب اخفاقهم عدم التنظيم اذ كان جيشهم من البدو بدون قيادة يطيعونها، ثم السلب والنهب والقتل والتدمير حتى كرههم الناس، واوجد قتل الهاشميين في سلمية نقمة واشمئزازاً من الشعب كافةً وخصوصاً الاسماعيلية والهاشميين.

قبل ان ننتقل الى حروب القرامطة من أسرة الجنابي في بلاد الشام، وهي حروب القرمطي حسن الاعصم، لا بد من كلمة موجزة عن اشتراكية القرامطة.

يقول ناصر خسرو «ومن الى مطاحن مملوكة للسلطان تطحن الحبوب للرعية مجاناً ويدفع السلطان نفقات اصلاحها وأجور الطحانين»[٢٧].

وصلت اشتراكية قرامطة البحرين الى درجة الشيوعية المطلقة حتى قيل، «ان القرمطي لا يملك الاّ سيفه وجواده» ويقول المستشرق «كيار» (Un grand maître des Assassins) «ان الحركة القرمطية، كحركة اصلاحية ثورية تقدمية اشتراكية، وصلت الى اعلى درجة من التطبيق الاشتراكي الى المشاعية، التي لم يصل اليها اي نظام اشتراكي في وقتنا الحاضر. اقامت جمهورية شورى اجتماعية في البحرين من العمال والفلاحين والجنود المثقفين انصهرت في بوتقتها المذاهب والأديان والأجناس والعناصر كافة دونما تفريق بسبب الدين او اللون او العرق.

«وكان لكل قرية داع يجمع ما يملكه اهل القرية من ماشية ومتاع، وبالمقابل يوفر لهم الكساء وما يحتاجون اليه من قوت وينفق عليهم ما يكفيهم حتى لم يبق محتاج واحد من الناس»(*).

(*) كتاب القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٣٤ . الطبري، ٢٢٧٥ .

(٢٧) كتاب سفرنامه، نقله الى العربية الدكتور يحيى خشاب، ص ١٤٣ .

(*) كتاب القرامطة، بان دي خويه، ص ٣٥ .

منذ زمن الامام عبيدالله المهدي واعلانه قيام الدولة السياسية الفاطمية، وتحجيم دور الدعوة الاسماعيلية، التي يعتنقها القرامطة، والتي كانت الصلة الوحيدة التي تربطهم باسماعيلية بلاد الشام كعقيدة دينية فقط، ثم ارتياب القرامطة بنسب عبيدالله المهدي الى آل البيت، بسبب الاشاعة ان ائمة الستر من نسل ميمون القدّاح، ضعّف التعاون بين القرامطة والفاطميين، الاّ امامتهم، مع الشك بها، بقيت معترفاً بها، وحصّتهم من الفائدات ترسل لهم، ولكن التعاون بينهما اخذت تشوبه سياسة احتراس ومهادنة بعيدة كل البعد عن التعصب الديني الجامح الذي كان يحرك الأوائل منهم.

عند احتلال الفاطميين لمصر اصبح القرامطة والفاطميون متجاورين، ولكن هذا الجوار لم يرق للقرامطة، خصوصاً عند اعلان الخليفة المعز لدين الله انه سيجعل بلاد الشام ممراً الى بغداد للقضاء على الخلافة العباسية، كما رفض القائد جوهر الصقلبي التعاون مع القرامطة لأنه يريد بلاد الشام حصناً للدفاع عن الحدود الشمالية للدولة الفاطمية من خطر البيزنطيين، وهذا يعني للقرامطة أن بلاد الشام التي يعتبرونها من اقطاعهم أصبحت قسماً من الدولة الفاطمية وهم غرباء عنها.

ثم كانت القشة التي قصمت ظهر البعير عندما اوقف الخليفة المعز لدين الله دفع مبلغ ثلاثمائة ألف دينار كان الأخشيديون يدفعونها للقرامطة كاتاوة بعد انتصارهم في معركة عام ٣٥٧هـ ويستعملها القرامطة لتغطية مصاريف جيشهم.

وتقول الدكتورة امينة بيطار: «كان هذا هو السبب المباشر الذي ادى الى الصدام بين القرامطة والفاطميين. اما السبب الحقيقي لهذا الصدام، فيمكن تلخيصه في أن القرامطة كانوا يعتبرون بلاد الشام مجالاً حيوياً لنفوذهم وسيادتهم، وخصوصاً بعد أن استطاعوا الانتصار على الأخشيديين في المعارك التي جرت بينهم في سنة ٣٥٣هـ وسنة ٣٥٧هـ. ولما استولى الفاطميون على بلاد الشام اعتبر القرامطة ذلك اعتداء منهم على مجال نفوذهم وتضييقاً على نشاطهم»[٢٨].

(٢٨) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين، ص ٥٥ .

ونأتي الآن الى قرامطة البحرين الذين اجتاحوا بلاد الشام بعد أن قضي على أسرة زكرويه بن مهرويه، وهم قرامطة سواد الكوفة. برزت لقيادة القرامطة اسرة الجنابي التي اشتهر منها القائد حسن الأعصم الذي وصل بجيوشه مدينة القاهرة.

انشأ أسرة الجنابي ابو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي وكان من فارس وادعى انه من سلالة الامام علي بن أبي طالب. نادى ابو سعيد بدعوته في الاحساء فكان «ان استجاب له بنو سنبر وهم الحسين وعلي وحمدان»[٢٩].

انتشرت دعوته وقاتل من خالفه، وهدم مدينة هجر وبنى دار الهجرة بمدينة الاحساء، التي كانت في السابق ولاية فارسية وسكانها من الفرس.

يقول المفكر الفرنسي سلفستر دي ساسي: «علم ابو سعيد ان الله يمقت العرب لأنهم قتلوا الحسين وانه يحب رعايا الاكاسرة وخلائفهم لأنهم الوحيدون الذين قاموا لنصرة حقوق الأئمة في الخلافة»[٣٠]. مات ابو سعيد الجنابي عام ٣٠٢هـ، قتله غلامه في الحمام.

خلف ابا سعيد ابنه ابو طاهر سليمان الذي عرف بكثرة حروبه المدمرة وقتله الحجيج في طريقهم الى مكة، وانتزاع الحجر الأسود من الكعبة، ونقله الى الاحساء، وذلك لاستبدال الاحساء بمكة وسلب مكة طابعها المقدس، وقتله الآلاف من المسلمين والقاء جثثهم في بئر زمزم وفي الكعبة، وقوله: «اين ربكم يا اهل مكة يذود عنكم». قيل عن ابي سعيد: «كان جواداً وحريصاً على تصيد افضل الفرص للنهب والسبي». مات ابو طاهر سليمان بداء الجدري في رمضان عام ٣٣٢هـ.

بعد وفاة ابي طاهر سليمان بويع أخوه احمد بالزعامة، بالرغم من ميل بعض اهل الشورى الى مبايعة ابنه سابور الذي قبل ان يسند اليه زعامة الجيش. وعند استلامه قيادة الجيش، القى القبض على عمه احمد واودعه السجن. ولكن احمد،

---

(٢٩) كتاب اخبار القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٤٠٠ (كتاب المقفى الكبير في تراجم اهل مصر والوافدين عليها).

(٣٠) كتاب دين الدروز ، المقدمة، ص ١٢٦ . سلفستر دي ساسي.

بمساعدة بعض اتباعه، خرج من السجن وقتل ابن اخيه سابور وذلك في ١٥ رمضان عام ٣٥٨هـ(*).

يقول ابن حوقل النصيبي: «ان مقتل سابور كان ابتداء انحطاط القرامطة واختلافهم، وبمقتله تحول ولاء القرامطة الى العباسيين بدلاً من الفاطميين» كان سابور من غلاة الاسماعيلية يكره العباسيين ويشنّ غارات متواصلة على معاقلهم في جنوب العراق.

بعد مقتل سابور عام ٣٥٨هـ استلم زعامة الجيش الحسن الأعصم وهو ابن احمد بن الحسن بن بهرام الجنابي، اي حفيد ابي سعيد منشئ الأسرة الجنابية، ولد في الاحساء وتوفي في طبرية عام ٣٦٦هـ وقيل ان جعفر ابن عمه، الذي استلم قيادة الجيش القرمطي، بعد وفاة الحسن الأعصم، نقل رفاته الى الاحساء.

وهكذا ادى التخلص من سابور الى تباعد القرامطة عن الفاطميين وتقربهم الى العباسيين. اراد الحسن الأعصم الابقاء على علاقة، ولو باهتة، مع الفاطميين، فأرسل الى الخليفة المعز لدين الله يطلب الضريبة التي كان يدفعها لهم الأخشيد. رفض الخليفة المعز لدين الله الطلب، بل كتب للأعصم واغلظ له بالكلام. فساء الحسن الأعصم ذلك، زيادة على خوفه من تسلط الفاطميين على بلاد الشام واضمحلال، بل انحسار، نفوذه على بلادٍ يعتبرها تابعة له.

خلع الحسن الأعصم طاعة الخليفة المعز لدين الله وخطب في المساجد للخليفة العباسي المطيع لله الفضل بن المقتدر (٣٣٤ - ٣٦٣هـ) ولبس السواد تقرباً من العباسيين[٣١] وكتب القرامطة على اعلامهم عبارة «السادة الراجعون الى الحق» على الرغم من انه يجمعهم والفاطميين مذهب واحد هو المذهب الاسماعيلي..

(*) كتاب القرامطة، ميكال بان دي خويه، ص ١٥٠ .

(٣١) كتاب وفيات الأعيان وابناء الزمان، ابن خلكان، مجلد ٤، ص ٤٨ .

عمل الحسن الأعصم جاهداً على استمالة جميع الأطراف التي كانت على عداء مع الفاطميين، كالعباسيين والحمدانيين والعقيليين وبعض قبائل العرب ثم اتصل بالسلطان البويهي، عز الدولة بختيار، طالبا منه المساعدة بالمال والسلاح واعداً اياه بطرد الفاطميين من بلاد الشام وحتى من مصر، على ان يحكمها باسمهم.

وافق السلطان عز الدولة بختيار البويهي ان يساعد الحسن الاعصم، ولكن الخليفة العباسي المطيع لله رفض مساعدته وقال كلمته المشهورة: «كلهم قرامطة وعلى دين واحد، اما المصريون فأقاموا السنيين وقتلوا، واما هولاء القرامطة فقتلوا الحاج وقلعوا الحجر الأسود وفعلوا ما فعلوا»[٣٢].

اصر السلطان عز الدولة على مساعدة الحسن الأعصم «وأمر باعطائه الف الف درهم، والف سيف، والف رمح والف قوس والف جعبة وكمية كبيرة من العلف للجياد ومونة للرجال»[٣٣]. ارسل هذا السلاح الى الأعصم في الكوفة.

سار الحسن الأعصم بجيشه لاحتلال دمشق، وكانت جنوده، زيادة عن القرامطة، خليطاً من الحمدانيين والأخشيديين والعقيليين، الذين كانوا بزعامة ظالم موهوب العقيلي الذي، بعد فتنة دمشق عام ٣٦٣هـ وتنحيته عن ولايتها وتولية جيش بن الصمصامة مكانه، فر الى الاحساء مع محمد ابن عصمودا، قائد المليشيات الشامية واوغر صدور القرامطة وأثار حماستهم على الفاطميين وحثهم على قتالهم.

بلغ الحسن الأعصم بجيشه ورجال القبائل التي انضمت اليه، دمشق وفيها قوة من الجيش الفاطمي بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي الذي لم يعبأ بهم ولهذا لم يطلب مدداً من مصر بل اكتفى بما لديه من الجيش، وجل جنده من المغاربة المكروهين من اهل دمشق. جرت معركة في مكان يقال له «الدكة» فانهزم جعفر وقتل عدد كبير من جنده، كما قتل جعفر بن فلاح في ستة ذي القعدة عام ٣٦٠هـ.

استولى الحسن الأعصم على دمشق وقطع الخطبة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله وخطب للخليفة العباسي المطيع لله.

---

(٣٢) كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، مجلد ١١، ص ١٥ .

(٣٣) تاريخ دمشق، ابن القلانسي، ص ١ .

يقال ان سبب هزيمة جعفر بن فلاح، وهو من زعماء قبيلة كتامة المغربية، هو التأخر في طلب المساعدة من جوهر الصقلبي لسوء علاقته به. كان جوهر يمقت جعفر بن فلاح لترفعه عليه بصفته زعيما كتامياً، وجعفر ينظر الى جوهر الصقلبي كمملوك رومي مجهول النسب وأتباعه في الجيش الفاطمي قلة من الصقالبة.

غضب الخليفة المعز لدين الله لتلكؤ جوهر عن مساعدة جعفر بن فلاح الزعيم الكتامي المغربي، وهو يعتمد على المغاربة لتوطيد حكمه، فنحى جوهر الصقلبي، الذي فتح له مصر، عن قيادة الجيوش الفاطمية.

سيطر الحسن الأعصم على دمشق ونواحيها، وولى عليها القائد «وشاح السلمي»، وسار الى الرملة، التي كانت عاصمة فلسطين، حيث احتلها بعد أن تخلى عنها واليها سعادة ابن حيان المغربي وفرّ الى يافا. فاستخلف على الرملة ظالم بن موهوب الذي أرسله بعد ذلك، مع القائد أبو الهيجاء عبدالله بن علي بن المنجا، لحصار يافا.

وصل الحسن الأعصم الى مصر واحتل القلزم في اوائل عام ٣٦١هـ. ثم سار الى عين شمس واستولى عليها وتابع سيره الى القاهرة مع جيش خليط من القرامطة ومقاتلين من قبائل مختلفة لا صلة تربطهم الاّ الغزو والنهب.

جمع جوهر الصقلبي قواته وراء خندق كبير كان حضّره للدفاع عن المدينة، كما فعل الرسول الكريم في معركة الخندق، وكان يعاون جوهر الأمير عبدالله، ابن الخليفة المعز لدين الله، الذي برز لاحقاً كقائد شجاع باسل عندما قاد المعركة الثانية ضد القرامطة على ابواب القاهرة عام ٣٦٣هـ.

بدأ القتال في ٦ ربيع الأول عام ٣٦١هـ حيث استمر ثلاثة أيام من دون نتائج حاسمة ولكنَّ الخسائر كانت كبيرة من الجانبين. استبسل الجنود الفاطميون بالدفاع عن القاهرة حتى اضطر الحسن الأعصم الىالانسحاب ورحل الى الاحساء ليلم شعث جيشه بعد الهزيمة، وان لم تكن المعركة حاسمة، ولكنها دفعت الهجوم القرمطي الى الفشل، خصوصاً بعد تخلي بعض القبائل العربية عن مساعدته بعد ان اغراها جوهر الصقلبي بالمال.

يقول المؤرخ أبو ظافر الازدي، ان الذي سبب الهزيمة، كان انشغال جيش

الحسن الأعصم بالمسلوبات التي كانت معهم حتى قيل: «كان معهم خمسة عشر ألف جمل وبغل تحمل صناديق الأموال والأواني الذهب والفضة والسلاح، سوى ما تحمل المضارب والخيم والبنود وغير ذلك من الأثقال»[٣٤].

لاحق جوهر الصقلبي الجيش القرمطي فأجلاه عن الرملة، ثم عن القسم الأكبر من فلسطين، فانسحب الحسن الاعصم الى الاحساء حيث جمع جيشاً كبيراً ورجع ثانية لمهاجمة مصر عام ٣٦٣هـ مع جموع غفيرة من البدو، وخصوصاً، بني الجرّاح، الذين كانوا على استعداد للقتال مع من يدفع لهم المال. كان قائدهم، في ذلك الوقت، زعيمهم حسّان بن الجرّاح الطائي.

عندما عرف القائد جوهر الصقلبي بقدوم الحسن الأعصم مع جيش كبير من القرامطة وبني الجرّاح وغيرهم من البدو، كتب الى الخليفة المعز لدين الله، الذي كان لا يزال في المهدية، ان يأتي الى مصر لدرس هذا الموضوع الخطير عن كثب والاتفاق على خطة اما لتفادي هذا الخطر سلمياً او مقاومته عسكرياً.

«قدم الخليفة المعز لدين الله من المهدية حيث وصل القاهرة يوم الثلثاء لخمس ليال خلون من رمضان سنة اثنين وستين وثلاثمائة[٣٥]».

ارسل الخليفة المعز لدين الله رسالته الشهيرة يطلب من الحسن الأعصم الدخول في طاعته ويوبخه ويذكره بأن اباءه (الأئمة الاسماعيلية) هم اسياد وحكام ابائه واجداده ويقول فيها: «فاما انت الغادر الخائن الناكث البائن عن هدى ابائه واجداده، المنسلخ عن دين اسلافه وانداده، الموقد لنار الفتنة والخارج عن الجماعة والسنة». ثم يقول: «ان آباءك كانوا اتباع آبائي فما انت وقومك الاّ كمناخ نعم او كمراح غنم». ويقول: «اما كان لك بجدك ابي سعيد اسوة وبعمل ابي طاهر قدوة؟ اما نظرت في كتبهم واخبارهم ولا قرأت وصاياهم واشعارهم؟ الم تعلم انهم كانوا عباداً لنا أولي بأس شديد وعزم سديد وأمر رشيد وفعل حميد تفيض اليهم موادنا وتنشر عليهم

(٣٤) كتاب اخبار الدول المنقطعة، ابن ظاهر الازدي، ص ٤٨ .

(٣٥) كتاب اخبار القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٢٧٢ . عن كتاب الدول المنقطعة علي بن ظاهر الازدي.

بركاتنا حتى ظهروا على الاعمال، ودان لهم كل أمير ووال ولقبوا بالسادة[٣٦] فسادوا منحة منا واسماً من اسمائنا فعلت اسماؤهم»[٣٧].

فكان جواب القائد القرمطي الحسن الأعصم «بسم الله الرحمن الرحيم، وصل كتابك الذي كثر تفصيله وقل تحصيله ونحن سائرون على اثره والسلام، وحسبنا الله ونعم الوكيل»[٣٨].

وصل الحسن الأعصم وجيشه للمرة الثانية عام ٣٦٣هـ الى الديار المصرية وكان قوام جيشه من القرامطة مع جموع من رجال القبائل العربية معظمهم من بني الجرّاح بقيادة زعيمهم حسّان بن الجرّاح الطائي وكانوا اقوى عناصر جيش الحسن الأعصم.

عمد الخليفة المعز لدين الله الى رشوة حسّان بن الجرّاح، وكان بنو الجرّاح يقاتلون لأجل المال وولاؤهم الى من يحمله. فوعد المعز لدين الله حسّان بن الجرّاح بمبلغ مائة ألف دينار على ان ينسحب من المعركة ويتظاهر بالهزيمة امام الجيش الفاطمي وهذا ما حصل، فأصبح جيش الحسن الأعصم في موقف حرج، ورغم ذلك، قاتل قتالاً شديداً ولكن الفرصة فاتته فانهزم تاركاً ألوف القتلى والأسرى ورحل الحسن الاعصم، وما بقي من جيشه، الى الاحساء وترك بلاد الشام لمساعده ابي المنجا.

---

(٣٦) يلقب المعز لدين الله أبو سعيد الجنابي وأبو طاهر سليمان «بالسادة» كلقب اجتماعي وراثي عائلي كلقب «شيخ» لبعض عائلات محدودة من الدروز، وليس كلقب ديني مقدس كما هو الحال عند الشيعة الاثني عشرية اذ يلقبون الرجال من سلالة علي بن ابي طالب «بالسادة» او السيّاد ومنهم العديد في جنوب لبنان يلبسون العمائم الخضراء دلالة على ذلك اللقب الديني العائلي. يقول قاضي القضاة عبد الجبار الهمذاني، كتاب تثبيت سيدنا محمد: «كان كل واحد من زعماء قرامطة الاحساء من آل الجنابي ينادى بلقب (سيد)». يؤكد ذلك الدكتور سهيل زكار في كتاب تاريخ القرامطة، ص ١٨٨ . الحاشية.

(٣٧) كتاب اخبار القرامطة، الدكتور سهيل زكار عن كتاب المقريزي: الحنفاء في اخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، توجد الرسالة كاملة من ص ٣٦٧ الى ص ٣٨٢.

(٣٨) كتاب اخبار القرامطة ص ٣٨٣ . عن كتاب المقريزي الحنفاء في اخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء.

يقول المؤرخون، ومنهم تقي الدين المقريزي، عندما احضر المال الى المعز لدين الله استكثره فأمربسكّ دنانير من نحاس وطلائها بالذهب وجعلها في اكياس ووضع على رأس كل كيس منها دنانير يسيرة من الذهب ليغطي ما تحتها من دنانير النحاس.

عندما انسحب الحسن الاعصم، بعد هزيمته في مصر عام ٣٦٣هـ استولى الفاطميون على فلسطين وبلاد الشام. عيّن الخليفة المعز لدين الله ظالم موهوب العقيلي والياً على دمشق ومنحه الصلاحيات كافة. قبض ظالم على أبي المنجا، نائب الحسن الأعصم، وطهّر دمشق من بقايا اتباع القرامطة، فاعتبر الفاطميون ان هذا كان انتصاراً لهم وان بلاد الشام أصبحت تحت سلطتهم، لا سيّما بعد ان ضموا الى الوالي ظالم موهوب العقيلي فرقة من الجيش الفاطمي، معظم جنودها من المغاربة، بقيادة علي بن جعفر بن فلاح الكتامي.

وحسب عادة اهل الشام، لم يطل الأمر حتى ضاقوا ذرعاً بظالم بن موهوب العقيلي، كما اظهروا التذمر من علي بن جعفر بن فلاح وجيش المغاربة، فحصلت فتنة مدمّرة استمرت ستة أشهر فأحرقت ودمّرت، حتى المساجد، فعزل الوالي ظالم موهوب العقيلي، وعيّن مكانه جيش بن الصمصامة ابن شقيقة علي بن فلاح الذي أرسل الى الرملة.

وفي عام ٣٦٤هـ وصل القائد التركي العباسي افتكين الشرابي(٣٩) مع جيشه من الجنود الأتراك وبرفقته أبو المعالي بن حمدان أمير حلب.

بعد معركة قصيرة على مقربة من دمشق اشترك بها ظالم بن موهوب العقيلي، الذي كان واليا على بعلبك، وابراهيم بن جعفر والي دمشق وعلي بن فلاح قائد الرحلة، تمكن افتكين من هزيمتهم والدخول الى دمشق حيث قطع الخطبة في مساجدها للخليفة الفاطمي، المعز لدين الله، وخطب للخليفة العباسي الطائع لله عبد

---

(٣٩) كان افتكين (الباتكين) الشرابي غلاماً لمعز الدولة احمد بن بويه وكان قائد الفرقة التركية من الجيش العباسي. عند قتال الأتراك للديلم اشتهر بالشجاعة ولكن حصل منه مصاعب سياسية، البويهيون والديلم شيعة، والاتراك ومنهم افتكين ستّة ترك بغداد مع اربعمائة جندي تركي وسار الى بلاد الشام.

الكريم ابن المطيع (٣٦٣ - ٣٨١هـ). رحّب بافتكين اهالي دمشق ووجدوا فيه مخلصاً ومنقذاً من الحكم الفاطمي وفساد الجيش المغربي وتعديات جنده.

وجد افتكين ان من مصلحته، لاتقاء خطر الفاطميين، التحالف مع البيزنطيين. «فقام ابو بكر الزيات، عميل البيزنطيين وحليفهم، بدور الوساطة بين الفريقين، البيزنطي والدمشقي، واتفق الفريقان على ان يكف البيزنطيون يدهم عن البلد مقابل قسط من المال يدفع لهم وقدره ثلاثون الف دينار. وهكذا عدل الروم عن دخول دمشق»(٤٠).

سار افتكين الى الرملة ومنها توجه الى صيدا حيث اشتبك مع واليها «ابن الشيخ» وكان انضم اليه ظالم بن موهوب العقيلي، فالحق بهما هزيمة كبرى وقتل منهم خلقاً كثيراً، ثم توجه الى بعلبك ومنهار سار الى عكا ثم طبرية واستولى عليها، ثم عاد الى دمشق حيث جمع المؤن والمال من حوران من دون ان يثير غضب الأهالي عليه.

غضب الخليفة المعز لدين الله من أعمال افتكين وخسارته لبلاد الشام، فجهز جيشاً كبيراً لقتاله ولكنه مات قبل المسير الى بلاد الشام وخلفه ابنه العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) والد الخليفة الامام الحاكم بأمر الله.

كان الخليفة العزيز بالله يكره العنف فحاول التفاهم مع افتكين ليتجنب الحروب وسفك الدماء وفي هذا الصدد رأى أن يبدأ بمبادرة سياسية قبل اللجوء الى العمل العسكري. فكتب الى افتكين يعرض عليه الاجتماع لبحث امكانية انهاء الأزمة من دون قتال.

اجاب افتكين بلهجة استفزاز وتحد: «هذا بلد اخذته بالسيف وما ادين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه امراً».

فشلت محاولة العزيز بالله في التفاهم مع افتكين فأرسل جيشاً بقيادة جوهر الصقلبي، بعد ان اعاده الى منصبه قائد الجيوش الفاطمية الذي عزله منه المعز لدين

---

(٤٠) كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (صلة تاريخ او تيخيا) يحيى بن سعيد الانطاكي مجلد ٢، ص ٣٦٥ .

الله، فوصل الى ضواحي دمشق في ذي القعدة عام ٣٦٥هـ حيث حصلت معارك عنيفة، تراجع على اثرها افتكين الى دمشق وتحصن بها.

شعر افتكين بحراجة موقفه وان لا يمكنه الحصار مدة طويلة، فبعد مشاورة اعيان وزعماء دمشق كتب الى الزعيم القرمطي الحسن الأعصم يطلب منه النجدة والحضور بنفسه لقيادة المعركة.

وصل الحسن الأعصم الى دمشق فوجد ان جوهر الصقلبي فك الحصار وسار الى طبرية كي لا يكون بين نارين، اهالي دمشق وافتكين والجيش القرمطي، ثم كانت الامدادات من مصر لا تصل بسهولة لأن الوقت كان شتاء والطرقات صعبة السلوك.

ترك جوهر طبرية وسار الى عسقلان ليكون قريباً من مصر مصدر امدادته، ولكن افتكين والحسن الأعصم حاصراه حتى اضطر ان يتصل بافتكين عارضاً الصلح. قبل افتكين بالرغم من ان الحسن الأعصم لم يقبل بشرط الصلح، ولكن افتكين اصر واتفق مع جوهر على أن يكون من مدينة غزة الى مصر للفاطميين، وبلاد الشام، بما فيها فلسطين، لافتكين، على ان تكون الخطبة للخليفة الفاطميّ العزيز بالله.

رفض الخليفة العزيز بالله الاتفاق وجهّز جيشاً كبيراً وسار الى فلسطين حيث اشتبك في مدينة الرملة عام ٣٦٦هـ مع جيش افتكين والجيش القرمطي بقتال شديد كانت نتجته هزيمة جيش افتكين والجيش القرمطي وأسر افتكين، الذي احتمى بصديقه المفرج ابن دغفل الجرّاح زعيم بني جرّاح، فجاء به الى الخليفة العزيز بالله الذي عامله معاملة حسنة وخصص له قصراً في القاهرة مع جميع ما يحتاجه من المصروف والخدم والمؤَن. اخذ المفرج بن دغفل بن الجرّاح مائة الف دينار من العزيز بالله.

انهزم الحسن الأعصم الى طبرية حيث مات في الثالث والعشرين من رجب عام ٣٦٦هـ واستلم قيادة الجيش القرمطي ابن عمه جعفر ابن سعيد الجنابي الذي اتفق مع الخليفة العزيز بالله على ان يدفع له مبلغاً سنوياً قدره عشرون الف دينار طيلة حياته على ان لا يعود الى بلاد الشام. وظل هذا المبلغ يدفع بانتظام حتى وفاة الخليفة العزيز بالله[٤١].

---

(٤١) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين، الدكتورة امينة بيطار، ص ٧٧ .

بعد معركة الرملة عام ٣٦٦هـ وهزيمة الجيش القرمطي تمّ الاتفاق مع جعفر ابن سعيد الجنابي على مبلغ عشرين الف دينار وانسحابه الى الاحساء، انتهت حروب القرامطة في بلاد الشام نهائياً ولم يعد يسمع لهم ذكر بعد ذلك(٤٢).

تقول قلة من الناس، ان القرامطة وجدوا في بلاد الشام خلال عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ) وهذا القول لا تذكره الكتب التاريخية بل جلها تقول ان القرامطة انتهى وجودهم الفعلي السياسي بعد معركة الرملة عام ٣٦٦هـ اي قبل مولد الحاكم بأمر الله بتسع سنوات.

ولكن وجدت بعض العائلات القرمطية في وادي التيم وجبل السمّاق كان يطلق عليهم لقب غلاة الاسماعيلية(٤٣) حتى اعتنقوا المذهب التوحيدي، فعندئذ اطلق عليهم لقب الموحدين الدروز.

يقول ابن العديم في كتابه - بغية الطلب في تاريخ حلب ما يأتي:

صفحة ١٣٩ - سرمين مدينة بطرف جبل السمّاق لها مسجد جامع وأسواق اكثرها من الاسماعيلية.

صفحة ٢٧٠ - اما الباب فهي اكثر عمارة من «بزاغا» وكان فيها مغاور تعصمهم من الغارات وكان بها طائفة كثيرة من الاسماعيلية.

صفحة ٤٢٣ - جبل السمّاق، الغالب من اهل هذا الجبل اسديون من بني كاهل ومذهب عامتهم في زماننا هو الاسماعيلية.

صفحة ١٢٩ - قال ابن واضح الكاتب. ومعرة النعمان مدينة قديمة خراب وأهلها تنوخ. وفي صفحة ١٣٠ «وصلت معرة النعمان فوجدتها واسعة والأسواق كثيرة الارقاق، واهلها يميلون الى الخير والتعفف ويعيشون بالقناعة والتكلف وفيهم بعض الحمية وشيء من العصبية ولهم في ذلك معرفة بالشر والخصومة».

---

(٤٢) كتاب تاريخ دمشق، ابن القلانسي من صفحة ٢٨ الى صفحة ٣٧ دراسة مفصلة عن حروب جوهر الصقلبي مع افتكين، كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين، الدكتورة امينه بيطار من صفحة ٧١ الى صفحة ٧٧ . مخطوطة ثابت بن سنان الصابئي، ص ٦٦ - ٦٩ ثم ٧٦ - ٨٠ .

(٤٣) قلنا سابقا ان القرامطة فرع من فروع الاسماعيلية.

صفحة ١٢٨ - والصحيح ان النعمان بن بشير جدد بناءها وزاد فيه واختارها للمقام أيام ولايته فنسبت اليه، وقد كانت معروفة قبل ذلك، فتحها ابو عبيدة رضي الله عنه، اكثر اهلها من تنوخ.

يمكن ان نستخلص من هذه الأقوال أنه كان في جبل السمّاق، الذي أصبح معقلا للموحدين الدروز، قوم أطلق عليهم لقب الاسماعيلية في ذلك الوقت، ومن الجائز أنهم اعتنقوا المذهب التوحيدي بعد ذلك. كما نعلم أن التنوخيين هم من الموحدين الدروز وأن معظم الدروز اليوم من سلالتهم وأنهم وجدوا بكثرة في معرة النعمان التي قدموا اليها في وقت الفتوحات الاسلامية من الجزيرة العربية. وتقول كتب التاريخ أن التنوخيين انضموا الى جيش خالد بن الوليد وقاتلوا معه(*).

(*) بالرغم من قدوم التنوخيين الى لبنان في عهد الخليفة المنصور العباسي بقي منهم اعداد كبيرة في سورية. في كتاب «بغية الطلب من تاريخ حلب» لابن العديم وجدت اسماء عديدة لرجال فقه وعلم التنوخيين. يقول ابو الفرج العبري، كتاب، تاريخ الزمان ص ١٢ انه عندما قدم الخليفة المهدي الى حلب أتاه العديد من التنوخيين للسلام عليه ولما علم انهم على دين النصارى اضطرهم ان يؤسلموا فاسلم خمسة آلاف منهم.

المعتقدات الدينية القرمطية

اما معتقداتهم الدينية فقد خرجوا عن الاسلام؛ نسخوا الفروض وتنكروا لعقيدتهم الاسماعيلية حتى اتهموا بالكفر والالحاد وبهدف تقويض الاسلام والقضاء عليه[٤٤].

ويقول المستشرق الهولندي «دي خويه»: «كانوا خارج الاسلام تماماً، ولئن لم يقوموا باداء فرائض هذا الدين وشعائره او علّموا ان الصلاة والصيام والحج نوافل لا حاجة لعباد الله الحقيقيين بها، فقد كسبوا بهذه الطريقة قلوب البدو واستمالوا انصاراً كثيرين»[٤٥].

وهذه رسالة كتبها الزعيم القرمطي - القيرواني - الى القرمطي، سلمان بن الحسن ونشرها المستشرق الانجليزي «نيكلسون». «اني اوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والانجيل ودعوتهم الى ابطال الشرائع والى ابطال المعاد والنشر في القبور وابطال الملائكة في السماء، وابطال الجن في الأرض، ومن هذا دعوتنا الباطنية. واوصيك بأن تدعوهم الى القول بأن قبل آدم بشر كثير فان ذلك عون بقدم العالم»[٤٦].

كان الدين عند القرامطة ضعيفا حتى قيل فيهم المثل: «ارق من ريق النحل ومن دين القرامطة»[٤٧]. الدين هو الاسلام وقبول فرائضه والعمل بها. فالقرامطة نسخوا الصلاة والزكاة والحج وهجروا المساجد.

---

(٤٤) ينبغي ان لا ننسى ان القرمطي كان موضوع مقت المسلم وخصوصاً السنة. معظم المؤرخين الذين كتبوا عن القرامطة كانوا على مذهب السنة ومن الطبيعي ان نجد التحامل على القرامطة.

(٤٥) كتاب القرامطة، دي خويه، ص ١٣٢ .

(٤٦) P.A. Nicholson, Studies in Mysticism, Cambridge 1921

(٤٧) كتاب مجمع الامثال، الميداني.

يقول المستشرق الهولندي Van Berchen . «ان الشعائر الدينية مورست في جمهورية القرامطة، ولكن القرامطة لم يجعلوا من تلك الشعائر موانع وحواجز بينهم وبين الحياة المتقدمة». ثم يقول: «وهم يقولون بالعقل الاول ونظرية الفيض والظاهر والباطن، والتأويل كما جاء في القرآن الكريم، ويؤمنون بأن الامام هو المثل الأعلى لهم ولكنهم لم يجعلوه قوة رهيبة متسلطة تفرض اشياء لا تتفق ومصلحة الجماهير»(٤٨).

ويقول المستشرق R. Dozy : «ان عقيدة القرامطة هي عبارة عن عبادة تصدر عن تسلسل ومراتب العقل الكلي، فيؤمنون بأن الله هو الآمر، والكلمة الذي قال للشيء، «كن فيكون»، ويعتقدون بوحدة الأديان والعبادات، وتندرج نورانية الله التي تفيض على الكون فيقبلها كل حسب اعتقاده وايمانه من مرتبة النبوة الى مرتبة الامامة»(٤٩).

ويقول المفكر اللبناني الشيعي حسين مروه: «كل ما يمكن قوله بشأن عقيدة مؤسس جمهورية البحرين القرمطية، انه كانت لهم فلسفة ولم تكن عقيدة بالمعنى الديني. تتمثل هذه الفلسفة بفكرة تأليه العقل او عقلنة الله، فهم يقولون بالعقل الأعلى الذي هو الله، او الحكمة العليا. فقد الغوا الطقوس والشعائر الدينية الظاهرية كلياً»(٥٠).

ويقول المؤرخ علي بن ظافر الازدي: «وكانوا باطنيين يجتمعون سراً ولا يبوحون بمعتقداتهم، وهم طبقات من العلماء والشيوخ ثم الجهّال ثم الخدم». ثم يقول: «من معالمهم ان الجاهل عليه ان يدخل مدرسة لمدة ثلاث سنوات يخدمه بها غلمان ويدرسه العلماء، ولكن على تدريج بين الطبقات، ويلبسون ثياب الصوف الخشنة ويتقشفون ويعيشون حياة زهد واعتكاف» ثم يقول: «ان من تعاليمهم، ترك الدنيا والاعراض عن الشهوات والتعلق بالصدق والامانة والأمر بالمعروف والنهي عن

(٤٨) M. Van Berchen, Syrie du Sud.

(٤٩) R. Dozy, Histoire des Musulmans

(٥٠) كتاب النزعات المادية، مجلد ٢، ص ٢١ .

المنكر. ويقولون بالايمان على كل مالك وكل امرأة لك طالقة ثلاثاً ان اخبرت بذلك»[٥١].

ان بعض الاشارات الموجودة في العقائد القرمطية التي تقول بفلسفة الفيض الافلوطينية اليونانية قد تكون مقتبسة من رسائل اخوان الصفا، التي يقول المؤرخون الاسماعيلية، انها كتبت في سلمية في القرن الثاني الهجري، وهذه الرسائل كانت في متناول مفكري القرامطة، كما توجد في معتقدات القرامطة تلميحات بارزة مأخوذة عن العقيدة الاسماعيلية. فالقرمطية فرع من فروع الاسماعيلية، ولهذا نرى المستشرق R. Guyard يقول: «ان القرامطة يعتبرون ان الله هو الكائن المحجوب، المعدوم الصفات مذ ولد الالوهة – العقل الكلي – التي تظهر في الناطق الذي يحق للناس ويجب عليهم طاعتها، والناطق خلق معاونه – النفس الكلية – التي تظهر بالاساس، فالامام والحجة الذي يأتي بعد الامام مباشرة والمكلف باعطاء الأدلة على رسالة الناطق، واخيراً الداعي يوازن تجليات النفس الكلية في المادة الأولى والمكان والزمان»[٥٢].

وتبرز العقيدة الاسماعيلية بوضوح عند قولهم: «ان ثمة سبعة انبياء ناطقين هم: آدم، نوح، وابراهيم، وموسى، وعيسى ومحمد ومحمد بن اسماعيل، هو اكملهم وهو الذي نشر المذهب الذي سيملأ العالم بأسره وهو الذي يرتقب رجوعه المجيد.. ارى ان هؤلاء الناطقين السبعة يمثلون التجسدات الآلهية السبعة والمفروض ان تكون الانسانية مرّت في تطورها عبر سبعة ادوار، وفي نهاية الدور السابع الذي بدأ بتجسد الألوهة في محمد بن اسماعيل، سيشاهد ظهور أخير هو عودة محمد بن اسماعيل»[٥٣]. وتعتقد الاسماعيلية، والقرامطة فرع من فروع الاسماعيلية، ان محمد بن اسماعيل هو الامام السابع وهو صاحب الزمان وقائم الحق، وصاحب

---

(٥١) اخبار الدول المنقطعة ومخطوط في المتحف البريطاني، علي بن ظافر الازدي توفي عام ٦١٣هـ في القاهرة. كان موظفا في الدولة الايوبية.

(٥٢) S. Guyard, Fragments relatifs à la doctrine des Ismaelis, كتاب القرامطة، ميكال يان دي خويه، ص ١٣٧ .

(٥٣) كتاب دين الدروز، سلفستر دي ساسي، ص ١١٢ . ومجلد ١، ص ٢٠ .

الكشف في الدور السابع، وكما أسلفنا، هو الذي ينشر المذهب الذي سيملأ العالم بأسره، هو المهدي المنتظر.

ويقول ابو الحسن الاشعري. تقول القرامطة: «وخص جعفر على امامة ابن ابنه «محمد بن اسماعيل» وزعموا ان محمد بن اسماعيل هو الى اليوم لم يمت ولا يموت حتى يملك الأرض وانه هو المهدي الذي تقدمت به البشارة، واحتجوا في ذلك بأخبار رووها عن أسلافهم يخبرون فيها ان سابع الأئمة قائمهم»(*).

من الواضح الذي لا يقبل الشك ان القرامطة كانوا يؤمنون ايماناً قاطعاً بعقيدة «الامام المهدي المنتظر ولهذا الغوا دور الامامة ونسخوا الشريعة والفرائض ودور الأنبياء، وقالوا ان الامام السابع محمد بن اسماعيل هو المهدي المنتظر، قائم الحق الحق وصاحب الزمان وهو آخر الأنبياء وسيرجع بشريعة جديدة تلغي ما سبقها وتعم العالم.

ويقول سلفستر دي ساسي «الالوهة، او بالأحرى تجلياتها قد تكشفت للبشر مرات عديدة، فهي تنتقل من دور الى دور حتى دور الكشف وظهور صاحب الزمان وقائم الحق»(٥٤).

وننهي سرد هذه المجموعة من الأقوال المتناقضة، بل المتنافرة وغير المنسقة عن عقائد القرامطة بما قاله المؤرخ عبد الرحمن الجوزي عن عقائد الاسماعيلية التي تتطابق مع عقيدة القرامطة «وقد ثبت عنهم أنهم يقولون بألهين قديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان الاّ ان احدهما علة لوجود الثاني، واسم العلة السابق واسم المعلول التالي، وان السابق خلق العالم بواسطة التالي لا بنفسه وقد يسمون الأول عقلاً والثاني نفساً، الأول تاماً والثاني ناقصاً الأول لا يوصف بوجود ولا عدم ولا موصوف ولا غير موصوف، فهم يرمون الى النفي لأنهم لو قالوا معدوم ما قبل منهم وقد سموا هذا النفي تنزيها»(٥٥).

(*) كتاب مقالات الاسلاميين، ص ٢٦ .

(٥٤) كتاب دين الدروز، مجلد ١، ص ١ . سلفستر دي ساسي.

(٥٥) كتاب اخبار القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٢٦٣، (عن كتاب المنتظم من تاريخ الملوك والامم، الامام ابو الفرج عبد الرحمن بن محمد الجوزي).

يقول عبد الرحمن الجوزي «ويقولون عن النبي عبارة عن شخص فاضت عليه من السابق بقوة التالي قدسية صافية وان جبريل عبارة عن العقل الفائض عليه لا انه شخص وان القرآن هو تعبير محمد عن المعارف التي فاضت عليه من العقل، فسمي كلام الله مجازاً لأنه مركب من جهته، وهذه القوة الفائضة على النبي لا تفيض عليه من اول أمره انما تتربى لنطفة»(٥٦). ثم يقول عبد الرحمن الجوزي «انكروا القيامة وقالوا هذا النظام وتعاقب الليل والنهار وتولد الحيوانات لا ينقضي ابداً. وأوّلوا القيامة بأنها رمز الى خروج الامام ولم يثبتوا الحشر ولا النشر ولا الجنة ولا النار، ومعنى المعاد عندهم، عود كل شيء الى أصله»(٥٧).

ان جميع ما كتب في هذا الفصل هو فقط عن العقيدة القرمطية الاسماعيلية كما جاءت في كتب التاريخ الاسلامية ومن الصعب جداً ان يكوّن رأيٌ عن تأثير المعتقدات القرمطية على العقيدة التوحيدية لأن ذلك يتطلب الخوض في عقائد المذهب التوحيدي، وهذا، كما قلنا سابقاً ونكرر الآن، خارج عن موضوع هذه الدراسة ولا يحق لنا البحث فيه وكما هو معروف، عند الخاصة والعامة، ان المذهب التوحيدي محوط بسرية تامة وصارمة ولا يسمح الاّ للعقّال، اي مشايخ الاجاويد، الاطلاع عليه، فعندهم المعرفة التامة والخبر اليقين وهم القيمون على المذهب منذ نشوئه.

(٥٦) المصدر السابق، ص ٢٦٤ .

(٥٧) المصدر السابق كذلك، ص ٢٦٤ .

الدّولتان الطولونية والأخشيدية
في بلاد الشام

الدولة الطولونية (٢٥٤- ٢٩٢هـ)
الدولة الأخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨هـ)

لا علاقة او تأثير للدولتين الطولونية والأخشيدية على دعوة التوحيد الدرزية اذ ان الدولة الأخشيدية، وهي تمثل انتهاء دور هاتين الدولتين، اختفت من الوجود السياسي عام ٣٥٨هـ، اي قبل افتتاح الدعوة التوحيدية بخمسين سنة.

ولكن بما ان الأحوال السياسية في بلاد الشام، عند افتتاح وانتشار الدعوة التوحيدية الدرزية، ينبغي ان لا تتخللها فجوات تاريخية، فلهذا وجدنا من المناسب والصدق التاريخي، القاء نظرة، ولو قصيرة وسريعة، على الحوادث التي جرت في عهد هاتين الدولتين كي نحتفظ بمصداقية التسلسل التاريخي.

١ - الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢هـ).

كان الخليفة المأمون، ابو جعفر عبدالله بن الرشيد (١٩٨ - ٢١٨هـ) يميل الى أخيه المعتصم بالله لشجاعته واقدامه، ولكن المعتصم بالله كان قليل العلم يعتمد القوة والبطش في حكمه بدلاً من المرونة والحنكة السياسية.

بالرغم من معارضة اعيان البلاد وقادة الجيش ولّى الخليفة المأمون اخاه المعتصم بدلاً من ابنه العباس الذي، حسماً للفتنة واحتراماً لوصية ابيه الخليفة المأمون، بايع عمه بالخلافة التي امتدت من عام ٢١٨هـ الى عام ٢٢٧هـ.

اهتم الخليفة المعتصم بالله بتجنيد الأتراك في الجيش وذلك لتحجيم النفوذ الفارسي في الجيش وادارة الدولة، وذلك يرجع الى أن أمه كانت تركية اسمها

«مارية» احاطت نفسها باتباع من الأتراك وكان تدخلها في الحكم سافراً، حتى من دون استشارة ولدها الخليفة المعتصم.

كانت والدة المعتصم تكره الفرس، خصوصاً ان ام المأمون كانت فارسية، وتخشى العصبية التي عرف بها العرب والتي برزت في تكتل العناصر العربية حول شخص الأمين، لان ام الأمين كانت عربية، فجذب التعصب العنصري ام المعتصم كي تحيط نفسها بأبناء جلدتها الأتراك.

جلب الخليفة المعتصم بالله الجنود الأتراك من اقاليم ما وراء النهر، مثل سمرقند، وفرغانة وخوارزم، وكان ذلك، اما عن طريق النخاسة او الشراء، او عن طريق الأسر في الحروب، اوعن طريق الهدايا التي كان يؤديها ولاة هذه الأقاليم على شكل رقيق الى الخليفة او الوزير[1].

كان العنصر التركي متمرناً على الحرب واعمال الغزو والفروسية والقتال ولكنهم كانوا اميين عديمي الثقافة بالنسبة للثقافة والعلم عند الفرس والعرب.

وصل عدد الأتراك الى ارقام خيالية، قيل سبعين ألف فارس، واخذ اهل بغداد، وجلهم من العرب والفرس، يتذمرون من تصرف الأتراك الفظ المهين، اذ كانوا ينزلون بخيولهم الى الشوارع والأسواق فيصطدمون مع الأهالي فينتج عن ذلك خلل في الأمن وحتى حوادث دامية.

قرر الخليفة المعتصم بالله ان ينتقل مع أتباعه وجنده الاتراك الى مدينة ثانية غير بغداد، فيبعدهم عن الناس كافة، فبنى مدينة سامّراء، (سُر من رأى) وسّع الشوارع والأسواق وبنى القصور واعطاها لقواد جيشه من الأتراك فأصبحت المدينة لهم يحكمون كما يشاؤون حتى قال ابن سعد «ان الأتراك سيردون العرب في يوم من الأيام الى بواديهم».

بعد وفاة الخليفة المعتصم بالله عام ٢٢٧هـ، وحتى تولي الحكم الخليفة المهتدي بالله محمد بن الواثق (٢٥٥ - ٢٥٦هـ) عام ٢٥٥هـ، انغمس الخلفاء العباسيون في ملذاتهم وهيمن على مقاليد الحكم القواد الأتراك والغلمان وحتى الجواري، حتى قيل في الخليفة المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٢هـ).

---

(١) كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي، الدكتور احمد مختار العبادي، ص ١١٧ .

خليفة في قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له كما تقول الببغا

وقال الخليفة المعتمد على الله العباس بن احمد المتوكل (٢٥٦ - ٢٧٩هـ).

«اليس من العجائب ان مثلي يرى ما قل مجتمعاً لديه ويؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما في ذاك شيء في يديه».

بعد وفاة المعتصم بالله عام ٢٢٧هـ. قام بالأمر بعده ابنه الواثق بالله ابو جعفر بن المعتصم (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) الذي كان من اصحاب الاعتزال وانصرف للعلم حتى سمي، المأمون الاصغر، والقى بمقاليد الحكم والسلطة لوزرائه وقواده الأتراك.

عندما توفي الخليفة الواثق بالله عام ٢٢٢هـ لم يكن للدولة العباسية ولي عهد فعيّن الأتراك المتوكل أخا الواثق (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) وجعلوه خليفة، وهكذا أصبحت تولية الخلفاء العباسيين بيد الأتراك.

اراد الخليفة المتوكل على الله تحجيم نفوذ وسلطة الأتراك فتقرب من اهالي بغداد، ومعظمهم عرب من أتباع الفقيه احمد بن حنبل، عدو المعتزلة وكان يؤمن بالنص المطلق، فاضطهد، حتى انه تمكن من القضاء على عقيدة الاعتزال، اكراماً لأهل بغداد حتى يعينوه على تحجيم التسلط التركي.

شعر الأتراك بالمؤامرة والخطر الذي يحدق بهم فتجمعوا واقبلوا على ابن المتوكل، المنتصر بالله ابو جعفر (٢٤٧ - ٢٤٨هـ) يحرضونه على والده وساروا الى المتوكل فوجدوه يشرب فقتلوه وهو على مائدة الشراب»[٢].

منذ ذلك الوقت سيطر الأتراك على الدولة تماماً حتى صارت في ايديهم يفعلون بها ما يشاؤون. يقول محمد بن علي طباطبا، يصف تلك الحالة في الدولة العباسية «واستولى الأتراك، منذ مقتل المتوكل على الخلافة، فكان الخليفة في ايديهم كالأسير. ان شاءوا ابقوه، وان شاءوا خلعوه، وان شاءوا قتلوه»[٣].

ويقول الدكتور احمد مختار العبادي: «نذكر احمد بن طولون. كان ابوه طولون من المماليك الأتراك الذين أرسلهم حاكم مدينة بخارى ضمن هدية الرقيق

---

(٢) كتاب تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص ١٠٢ .

(٣) كتاب الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٢ .

التركي الى الخليفة العباسي المأمون سنة ٢٠٠هـ. وتدرج طولون في حياة المماليك بالمجتمع العباسي حتى وصل الى مرتبة قائد الحرس الخلافي»(٤). وتلقب بأمير السّتر اي حارس الخليفة الخاص.

ولد احمد بن طولون في مدينة سامراء عام ٢٢٠هـ(٥) في عهد الخليفة المعتصم بالله. بعد وفاة طولون، والد احمد، تزوجت ام احمد، واسمها هاشم، الأمير التركي «باكباك» الذي ولاّه الخليفة العباسي المتوكل على الله بن المعتصم ولاية مصر. آثر «باكباك» البقاء في بغداد مركز السلطة حيث الرفاه ورغدة العيش، فأرسل ابن زوجته احمد بن طولون ليتولى باسمه حكم مصر وذلك عام ٢٥٤هـ. بعد مقتل ربيبه «باكباك» حل محله في القيادة أمير تركي اسمه «يارجوخ» فتزوج احمد بن طولون ابنته «خاتون» كتأمين لمركزه فكانت نتيجة هذا الزواج اقرار ولاية احمد بن طولون على مصر. ولدت له خاتون ابنة يارجوخ، ابنه العباس وابنته فاطمة. اما ابنه خمارويه فهو من الجاريه «مياس» المصرية.

تمكن احمد بن طولون ان يقيم في مصر اول دولة مستقلة في العصر الاسلامي، ولكنها لم تكن عربية ولم يربطها بالخلافة العباسية في بغداد الاّ ارسال جزء من الخراج، الخطبة للخليفة في المساجد ونقش اسم الخليفة على النقود وفي عام ٢٦٣هـ ولّى الخليفة المعتمد احمد بن طولون على خراج مصر فأصبح سيد البلاد المصرية والمشرق على جميع اعمالها.

وفي عام ٢٥٩هـ مات «يارجوخ» صاحب اقطاع مصر، الذي كان احمد بن طولون يحكمها نيابة عنه، وبموته اصبح ابن طولون والياً على مصر من قبل الخليفة العباسي في بغداد.

يقول الدكتور محمد احمد زيّود: «وركزت على حقيقة كانت تراود السياسيين والباحثين منذ القديم والقائلة بأن الخطر المحدق بمصر وحكوماتها يأتي دوماً من الشام، ولذلك كان على كل سلطة تود البقاء والاستمرار في مصر ان تحمي

---

(٤) كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي، ١٢٩ .

(٥) يقول ابن خلدون انه ولد في بغداد لأن سامراء بنيت عام ٢٢١ اي بعد ولادته بسنة. اما المؤرخ طه بدر، كتاب مصر الاسلامية ص ١١٤ فيقول انه ولد عام ٢١٤ في بغداد.

نفسها من الشرق وتضم اليها بلاد الشام، وتعتبر ذلك من ضرورات الأمن لها وسلامة وجودها»[٦].

ويقول الدكتور فيليب حتي عن بلاد الشام في العهد العباسي الذي كان سائداً في وقت احمد بن طولون. «لم يتمكن العباسيون من زرع روح الثقة عند عامة الشعب في بلاد الشام والسيطرة على سكان المدن، كما لم يتمكن هؤلاء من اقامة الوفاق بين القبائل العربية في الشام ايضاً، وهكذا بقيت هذه البلاد تحركها ثورات مختلفة وحركات تمرد كثيرة»[٧].

عندما عزم احمد بن طولون التوجه الى احتلال بلاد الشام أعلن أنه قائم على الجهاد وتحقيق النصر على البيزنطيين وحماية دولته المسلمة منهم. تعاون الناس معه للجهاد ضد البيزنطيين واعتبروها من واجباتهم الدينية، وبذلك البس حملته لباساً دينياً وانضم الكثير من رجال القبائل العربية لحملته، فأصبح جيشه يفوق عدده على المائة ألف جندي.

سار احمد بن طولون الى الشام في شوال عام ٢٦٤هـ فوصل الرملة في فلسطين حيث دخلها دون قتال وولّى محمد ابن ابي رافع عليها، ثم سار الى دمشق حيث استقبله الوالي علي بن اماجوز فاقاله لكره الناس له واستخلف على دمشق احمد بن دغباش، ثم توجه الى حمص، مع جمع من قادة دمشق، فاحتلها وعزل واليها عيسى الكرخي وعيّن عليها يمن التركي ومنها سار الى حماه وحلب حيث دخلهما من دون قتال، وفي طريقه الى انطاكية اشتبك في قنسرين مع «سيما الطويل»، والي انطاكية فانهزم سيما الطويل وجيشه، فتبعه حتى انطاكية حيث حاصرها واحتلها بعد ان قتل الأهالي الوالي «سيما الطويل»[٨].

وفي طريقه الى مصر احتل بلدته المحببة طرسوس، التي درس فيها العلوم العسكرية وعيّن عليها «طخشي بن يلبرد» ثم أرسل غلامه لؤلؤ فاحتل جميع الثغور،

(٦) كتاب العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والأخشيدي، ص ٧ .

(٧) كتاب تاريخ سورية، ص ١٢٤ .

(٨) كتاب مروج الذهب المسعودي، مجلد ٤، ص ١٢٤ .

طرابلس، وعكا ويافا ثم احتل منطقة الرقة وضواحيها وجعل الرقة مقرّاً للحكومة الطولونية في شمال بلاد الشام.

هكذا انضمت مصر والشام لسلطة واحدة يحكمها احمد بن طولون بمساعدة غلامه لؤلؤ الذي عينه على رأس بلاد الشام.

رجع احمد بن طولون الى مصر سنة ٢٦٥هـ عندما انقلب عليه ابنه العباس وحاول الاستيلاء على حكم مصر.

تمكن ابن طولون من احتلال بلاد الشام وبسط سيطرته الكاملة عليها وذلك اولاً، لانشغال الجيش العباسي في اخماد ثورة الزنج، وثانياً كان يعمل برضى الخليفة العباسي لصبغ أعماله بالشرعية، وثالثاً اعتماده على معاونين ووكلاء يقومون بالاتصال بذوي النفوذ والعناصر المسيطرة على الخلافة لخدمة اهدافه، واشترى قادة الجيش والأعيان وحتى القضاة بأغداق الهدايا والعطاء المستمر لهم، وهكذا كان في مصر على علم تام بكل الأمور التي تجري في بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

وفي عام ٢٥٨هـ كانت محاولة ابن طولون نقل الخلافة العباسية الى مصر، فأرسل رسالة الى الخليفة المعتمد على الله العباس بن احمد المتوكل (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) الذي كان على اختلاف مع أخيه وولي عهده الأمير أحمد الموفق الذي كان استبد بالحكم واستولى على السلطة، يشجعه على القدوم الى مصر. وافق الخليفة المعتمد على ترك بغداد والهرب الى مصر للتخلص من سيطرة واستبداد أخيه الأمير احمد موفق.

عندما علم الأمير احمد بالأمر، اصدر أمره بالقبض على شقيقه الخليفة المعتمد مع جميع اتباعه والقاهم في السجن وهدد احمد بن طولون باحتلال مصر والقضاء على الدولة الطولونية.

بعد فشل المشروع واعتقال الخليفة المعتمد على الله عقد احمد بن طولون مؤتمراً في دمشق عام ٢٦٩هـ مع جمع من العلماء والفقهاء الأعيان وهاجم الأمير احمد موفق لاعتقاله الخليفة، ونادى بخلع الأمير احمد من ولاية العهد وأمر بسبّه في المساجد ولعنه. اثار هذا العمل غضب الأمير احمد موفق فأمر بسبّ ولعن ابن طولون في مساجد بغداد وجميع البلاد التي تخضع للعباسيين.

بنى ابن طولون للجيش الطولوني مدينة القطائع عام ٢٥٦هـ قرب القاهرة، وجعل لكل فئة من جنوده قطعة خاصة بني فيها ثكنات ومنازل. وكان عدد جيشه يبلغ فوق السبعين الف جندي مؤلفاً من الأتراك والسودان والروم، وبذلك تمكن من عدم تجمعهم كقوة موحدة تستعمل ضده، وكذلك تمكن من مراقبتهم وجعلهم تحت سلطته المباشرة.

ثم بنى جامع طولون الشهير في القاهرة على هندسة المساجد العراقية المأخوذة عن الهندسة الفارسية وبهذا ابتدأ عهد البناء الجديد في مصر اذ تخلص من التأثيرات البيزنطية التي كانت سائدة في مصر وبلاد الشام.

سوف لن نتطرق الى الحوادث التي جرت في عهد احمد بن طولون، كمحاولة ابنه العباس الاستيلاء على الحكم، وانتفاضة احمد بن حمد بن طباطبا في برقة عام ٢٥٥هـ ثم الحركة الشيعية بقيادة ابراهيم بن علي الذي يرجع نسبه الى الحسن بن علي بن ابي طالب، وخروج غلامه لؤلؤ، الذي خلفه ابن طولون اميراً على بلاد الشام، عن طاعته ومحاولته الاستقلال عن مصر، وغيرها من الانتفاضات، لأن لا مجال لها في هذه الدراسة المقتضبة التي لا يمكن ان تشمل كامل تاريخ بلاد الشام في القرنين الرابع والخامس هجري، حين انبثقت ثم انتشرت دعوة التوحيد الدرزية.

كان احمد بن طولون عالماً في الدين والفقه، قيل عنه الرحمة والتقوى والاحسان ولكن مع القسوة والعنف مع اعدائه فقد كان حاد الخلق والمزاج ومات في سجنه الألوف من الناس.

ويقول حسن احمد محمود «اكرم اهل الشام، واغدق عليهم، حتى قيل انه لم يبق احد في الشام الاّ اصابه مال من ابن طولون. لم يترك الشام الا بعد ان احسن الى اهلها احساناً كبيراً بالغاً»[٩]. ويقول محمد كرد علي «ان ابن طولون لعدله وحسن سياسته الى بلاد الشام فضّله الناس على بعض الخلفاء»[١٠].

ويقول حسن احمد محمود عن وصول ابن طولون الى طرسوس: «حيث انتقل

---

(٩) كتاب مصر في عهد الطولونيين والأخشيديين، ص ٣٣.

(١٠) كتاب خطط الشام، مجلد ١، ص ١٧٤.

كناسك متعبد وكمحسن كريم، يجود بما عنده لهولاء المجاهدين. وجلس لقضاء حاجة كل محتاج، واسرف في العطاء، وكان يطوي اياماً ويحيي الليل بالصلاة الى الصباح»[١١].

وبعد زيارة طرسوس سار الى المصيصة حيث أقام اياماً ولكنه شعر بالمرض، فذهب الى انطاكية حيث زادت علته فتوجه الى مصر ومات في ذي القعدة عام ٢٧٠هـ. وعند وفاته وصلت الدولة الطولونية الى حدود العراق، وجبال طوروس وطرابلس الغرب وكانت في اوج عزها ومجدها.

خلف احمد بن طولون ابنه خمارويه (٢٧٠ - ٢٨٢هـ) على ولاية مصر وبلاد الشام، «وترك له ثروة طائلة وجيشاً مؤلفاً من الآلاف من الجنود المماليك والغلمان الترك والسودانيين، وأسطولاً، يقال كان يحوي على مائتين من المراكب الكبيرة»[١٢].

تميّز اول عهد خمارويه بفوضى سياسية وحروب قادها الأمير احمد موفق وابنه العباس، الذي تمكن من استمالة بعض القادة الطولونيين بالمال والوعود بتقليدهم مناصب كبيرة، وعلى رأسهم احمد بن دغباش والي منطقة حلب، وكذلك القائد الواسطي الذي كان نائب خمارويه على ولاية دمشق.

استولى الجيش العباسي على دمشق واتجه جنوباً حتى حدود مصر، فتصدى له الجيش الطولوني بقيادة خمارويه ولكنه انهزم واتجه مع قادته الى مصر ولكن القائد سعد الأيسر استطاع مواصلة القتال، بما كان معه من الجيش الطولوني، فانتصر على الجيش العباسي حتى وصل دمشق فدخلها ودعا فيها لخمارويه»[١٣].

انعم خمارويه على القائد سعد الايسر بقيادة الجيش وجعله نائبه على ولاية دمشق حيث استمال اليه اهالي دمشق بكرمه وعدله، ولكن سعداً ركبه الغرور وعاش في نشوة انتصاراته حتى فكر بالاستقلال عن مصر وحكم بلاد الشام.

---

(١١) كتاب حضارة مصر في العصر الطولوني، ص ٨٨ - ٨٩ .

(١٢) كتاب المغرب، ابن سعيد، ص ١٣٢ .

(١٣) . كتاب العبر، ابن خلدون، مجلد ٣، ص ٣٣٢ .

قرر خمارويه القدوم الى دمشق في ذي القعدة عام ٢٧٢هـ وعند وصوله الى الرملة في فلسطين استدعى القائد سعد الايسر وقتله، فحدثت فتنة في دمشق، لحب الناس لسعد الايسر، فلعنوا خمارويه واظهروا العصيان ولكن خمارويه، عند دخوله دمشق، عمل على تهدئة الفتنة فاستتب الأمر وهدأت الأحوال، وفي خلال وجوده، قام بتفريق الأموال الكثيرة على الفقراء والمساكين فاستمال اليه اهل دمشق. ومن دمشق واصل خمارويه فتوحاته الى الجزيرة والموصل واعاد حدود دولته الى العراق.

بعد وفاة الأمير احمد موفق وأخيه الخليفة المعتمد على الله عام ٢٧٨هـ تمكن خمارويه من التقرب من الخليفة الجديد المعتضد بالله ابن الموفق (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) وزوجه ابنته اسماء الي كانت تدعى «بقطر الندى» وذلك عام ٢٨١ هجري.

وفي عام ٢٨٢هـ توفي خمارويه قتيلاً على يد جارية، وخلفه ابنه ابو العساكر، وكان ارعن، قليل الحنكة السياسية، ماجناً يحب اللهو وشرب الخمر خاف من اعمامه ان يستولوا على الخلافة فقتلهم، وكانوا ثلاثة من ابناء خمارويه.

غضب عليه قادة الجيش وبرزت بوادر فتنة من الشعب فأقيل من الخلافة وسجن وتولى أخوه الأصغر هرون مكانه وعُيّن أبو جعفر محمد وصياً عليه وقد عُرف بالدهاء والمكر.

في اوائل عهد هرون بن خمارويه ظهر القرامطة في بلاد الشام وبان خطر الفاطميين الاسماعيليين في شمال افريقيا وفشلت الجيوش الطولونية في القضاء على القرامطة الذين انتشروا في بلاد الشام، فخافت السلطة في بغداد من ضعف الطولونيين، فصممت على استرداد مصر من ايديهم قبل أن تقع في أيدي القرامطة او الفاطميين.

أرسل في عام ٢٩٢هـ الخليفة المكتفي بالله ابن المعتضد (٢٨٩ - ٢٩٥هـ) جيشاً الى مصر بقيادة محمد بن سلمان المعروف بالكاتب، كما اصدر أوامره الى قائد الأسطول العباسي لاحتلال الثغور الشامية ثم التوجه الى مصر. تمكن الأسطول العباسي من القضاء على الأسطول الطولوني عند مدينة «تينس»، وفي الوقت نفسه تقدمت الجيوش العباسية واجتاحت بلاد الشام ومصر بقيادة محمد بن سلمان الذي

دمّر مدينة «القطائع»، وبذلك عادت مصر وبلاد الشام الى الحكم العباسي، بعد أن تمتعتا بالاستقلال لمدة تقارب أربعين سنة.

الفترة التي تلت هزيمة الطولونيين في مصر حتى قيام الدولة الأخشيدية، وتقدر بنحو ثلاثين سنة، من عام ٢٩٣ الى ٣٢٣هـ، كانت مصر ولاية عباسية تابعة للخلافة في بغداد ويحكمها ولاة من قبل الخلافة العباسية.

وفي هذه الحقبة بين الدولتين الطولونية والأخشيدية، اي من عام ٢٩٢هـ الى عام ٣٥٨هـ، لا بدّ من الاشارة الى تولية القائد التركي «تكين» اربع مرات على مصر وقسم من بلاد الشام وذلك بين سنتي ٢٩٨هـ و ٣٢١هـ حكمها في مجموعها اكثر من ستة عشر عاماً. كما سيطرت الأسرة الماذرائية على خراج مصر والادارة وشغلت دوراً هاماً في الأحداث السياسية والادارية ابان تلك الفترة واثناء نهاية الدولة الطولونية. ويقال ان الحسين بن احمد الماذرائي، المعروف بأبي زنبور، الذي كان وزيراً خلال الهجوم العباسي على مصر عام ٢٩٢، انضم الى القائد العباسي محمد بن سلمان وساهم بدور بارز في انهاء الدولة الطولونية[١٤]. وكان للأسرة الماذرائية دور بارز في الأحداث السياسية حتى عام ٣٢٣هـ حين استلم محمد بن طغج الأخشيدي، للمرة الثانية، ولاية مصر.

ويقول ابن سعيد «وكانوا مع الولاة بمثابة أمير الأمراء، حتى ندب الخليفة الراضي الفضل بن جعفر بن الفرات وزيراً مفوضاً على أعمال مصر والشام وأعطاه تفويضاً كاملاً بتدبير كافة الأمور، وكان ابن الفرات يكره الماذرائيين فأنهى سلطتهم في مصر والشام وصادر أملاكهم واموالهم»[١٥].

ونكرّر القول ان لا تأثير او علاقة بين الدولة الطولونية ودعوة التوحيد الدرزية. فالدولة الطولونية زالت عام ٢٩٣هـ، ودعوة التوحيد أعلنت في القاهرة عام ٤٠٨هـ،

---

(١٤) الماذرائيون أسرة فارسية تنسب الى قرية «ماذريا» من اعمال البصرة، نزح قسم من افرادها الى مصر في عهد احمد بن طولون حيث وجدوا الرخاء والنجاح وتمكن بعضهم من تولي الوظائف الهامة. يقول المؤرخ سيده كاشف، كتاب مصر في العهد الأخشيدي ص ٤٣ . «في سنة ٣٠٤هـ قلد محمد بن علي بن زنبور الماذرائي اعمال مصر والاشراف على اعمال الشام».

(١٥) كتاب المغرب، ص ١٥٧ .

اي بعد اكثر من مائة سنة من انهيار الدولة الطولونية. ولهذا اختصرنا تاريخ هذه الدولة واكتفينا بالقليل من سرد الحوادث المهمة التي حصلت خلال قيامها، كي لا نترك ثغرات في تسلسل تاريخ بلاد الشام حيث انتشرت لاحقاً دعوة التوحيد.

الدولة الأخشيدية ٣٢٣ - ٣٥٨هـ ٩٣٥ - ٩٦٩م

مؤسس هذه الدولة، محمد بن طغج بن جف الملقب بالأخشيد. والأخشيد لقب تركي كان يتلقب به ملوك اقليم فرغانة في بلاد ما بين وراء النهر[١٦].

محمد الأخشيد كان تركياً من أصل فرغاني، وان جده «جف» كان ضابطاً في جيش الخليفة المعتصم بالله بسامراء. وخدم أبوه طغج في جيش «احمد بن طولون» الذي كان معجباً بشخصه، وكان كثيراً ما يتشبه به في بلاطه ومواكبه[١٧].

ويقول محمد احمد زيّود «فعندما كان أبوه والياً للطولونيين على دمشق وطبرية استخلف هذا ابنه محمداً، نيابة عنه، ليتولى أمر طبرية، وفيها اقدم على قتل ابي الطيب العلوي»[١٨].

استمر محمد بن طغج والياً على طبرية الى ان كانت نكبة الطولونيين، فانتقل مع والده الى بغداد حيث سجنه الوزير العباسي، العباس بن الحسن لكبرياء والده على هذا الوزير وبقي في السجن الى ان مات والده عام ٢٩٤هـ في سجنه، فأطلقه الوزير العباسي مع أخيه عبيدالله حيث عملا في خدمته[١٩].

بعد مقتل الوزير العباسي، العباس بن الحسن، ذهب محمد بن طغج الى بلاد الشام والتحق بخدمة واليها احمد بن بسطام على الخراج[٢٠].

التحق محمد بن طغج بخدمة القائد التركي «تكين» الذين كان اميراً على مصر، وعندما انتقل تكين الى دمشق رافقه محمد بن طغج، فولاّه تكين عمان،

---

(١٦) كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي، الدكتور احمد مختار العبادي، ص ١٤٠ .

(١٧) المصدر السابق، ص ١٤١ .

(١٨) كتاب العلاقات بين مصر والشام، ص ٢٧٥ .

(١٩) كتاب العلاقات بين الشام ومصر، الدكتور محمدُ احمد زيّود، ص ٢٧٥ .

(٢٠) المصدر السابق، ص ٢٧٦ .

حيث أظهر مقدرة سياسية وشجاعة عند قتاله لقبائل من لخم وجذام لصدها عن غزو قوافل الحجاج في طريقها الى مكة.

عندما عيّن القائد التركي، للمرة الثانية، اميراً على مصر عام ٣٠٧، صحبه محمد بن طغج فولّاه على الاسكندرية.

وفي عام ٣١٦هـ قلّده الخليفة المقتدر بالله ابن المعتضد (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) ولاية الرملة حيث بقي والياً عليها حتى سنة ٣٢٣هـ عندما قلّده الخليفة الراضي ولاية بلاد الشام.

وفي عام ٣٢١هـ توفي والي مصر، القائد التركي «تكين»، طلب محمد بن طغج الولاية لنفسه ولكن الخلافة في بغداد لم توافق على طلبه، ولكن في عام ٣٢٣هـ قلّده الخليفة الراضي بالله بن المقتدر (٣٢٢ - ٣٢٩هـ) ولاية بلاد الشام[٢١].

وفي شهر جمادى الاولى (عام ٣٢٤هـ) غزت مصر من المغرب القوات الفاطمية وعلى رأسها الخليفة القائم بالله فهزمها الجيش الأخشيدي بقيادة الحسن بن طغج، وشاركه في القيادة محمد بن طغج، الذي أظهر شجاعة وحنكة عسكرية ويقول الدكتور احمد مختار العبادي: «فكافاءه الخليفة الراضي بالله احمد بن المقتدر بأن ولاّه على مصر، وهكذا اسس الأخشيد ثاني دولة مستقلة عرفتها مصر الاسلامية[٢٢]. كما وان الخليفة الراضي بالله لقّبه بالأخشيد عام ٣٢٧هـ.

بعد استيلائه على مصر قرر ضم بلاد الشام، حين كان والياً، الى دولته الجديدة مصر، ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب تنازع السيادة على بلاد الشام من قوى متعددة كالحمدانيين والبيزنطيين والعباسيين وغيرهم.

كان في مقدمة هذه القوى القائد محمد بن رائق الخزري.

---

(٢١) كتاب مصر في عهد الأخشيديين، سيدة كاشف، ص ٧٦ .

(٢٢) كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ١٤١ .

«محمد بن رائق كان اقوى شخصية عسكرية في بغداد، وفي عام ٣٢٤هـ عيّنه الخليفة الراضي بالله أمير الجيوش وخطب له على المنابر في جميع انحاء العالم الاسلامي وأصبح الأمر كله بيده»(٢٣).

في عام ٣٢٦هـ خرج عليه القائد التركي «بجكم» وحل محله في أمرة الجيوش. طلب بن رائق من الخليفة الراضي بالله ان يوّليه على حرّان والرّها من ضواحي قنسرين. أجابه الخليفة لذلك(٢٤).

في عام ٣٢٧هـ سار ابن رائق الى أن أتى حلب(٢٥) وبدأت سلسلة من الصدامات الدامية بينه وبين محمد بن طغج الأخشيدي.

طلب بن رائق من محمد طغج جزية على الممتلكات الأخشيدية في بلاد الشام، فأرسلها محمد بن طغج كي يضمن سلامة ولايته. ولكن غاية بن رائق كانت الاستيلاء على بلاد الشام. سار بن رائق بجيش كبير واستولى على حمص ثم توجه الى دمشق فهزم واليها بدر بن عبيدالله الأخشيدي وملكها وولى عليها محمد بن برداد الشهرزوري، الذي بقي عليها حتى قتله ابن رائق عام ٣٣٠هـ. سار ابن رائق من دمشق الى الرملة عام ٣٢٧هـ وقصد عريش مصر حيث كانت القوات الأخشيدية بقيادة عمران بن فارس.

يقول ابو الحسن المسعودي: «انهزم ابن رائق في معركة بلدة العريش وانسحب مع جيشه الى الرملة، ثم جرى صلح بينهما على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالي الرملة وعلى أن يدفع الأخشيد اليه جزية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار»(٢٦).

بعد المعاهدة بسنتين قتل محمد بن رائق وعادت بلاد الشام بحوزة الأخشيد من دون حرب(٢٧).

---

(٢٣) كتاب الكامل في التاريخ، ابن الاثير ، مجلد ٦، ص ٢٥٤ .

(٢٤) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب، مجلد ١، ص ٩٩ .

(٢٥) كتاب تحف الأنبياء من تاريخ حلب الشهباء، المستشرق بتشوف، ص ٢٨ .

(٢٦) كتاب Lane poole, The History of Egypt in the Middle Ages Vol. VI, page 93.

(٢٧) المصدر السابق، ص ٨٤ .

ويقول ابن العديم: «وفي عام ٣٣٣ استطاع محمد بن طغج الأخشيد ان يحصل على تقليد من الخليفة المتقي لولاية مصر وحق توريث امارتها لأبنائه من بعده»[٢٨].

وفي عام ٣٢٨هـ زوّج محمد طغج الأخشيد ابنته فاطمة الى مزاحم بن محمد بن رائق مما مكّن اواصر الصداقة بينهما، وكذلك تقرر أن يبقى عبيد الله بن طغج عند ابن رائق ومزاحم عند محمد بن طغج الأخشيد.

بعد وفاة الخليفة الراضي بالله عام ٣٢٩هـ وبيعة اخيه المتقي بالله (٣٢٩ – ٣٣٣هـ) ومقتل امير الجيوش القائد التركي «بجكم» انفجر الصراع بين الديلم والترك فاستدعى الخليفة المتقي بالله ابن رائق من بلاد الشام لانهاء الفتنة. بعد ان استتب الأمن عيّن محمد بن رائق امير الأمراء وقائد الجيوش.

استغل ابن رائق ضعف الخليفة المتقي بالله فاستبد في حكم الدولة وتسلط على الادارة والخراج، حتى ان اسمه كان يذكر مع اسم الخليفة في خطبة الجمعة في مساجد بغداد، واصبح الخليفة دمية في يده لا يملك الاّ المنصب من دون النفوذ او السلطة.

وفي عام ٣٣٠هـ. فرّ الخليفة المتقي بالله الى الموصل هرباً من خطر هجوم أمير خوزستان البريدي على العراق وكان برفقته القائد محمد بن رائق.

قتل الحسن بن حمدان أمير الأمراء محمد بن رائق عام ٣٣٠ وارجع السلطة للخليفة الذي كافأه، ويقال مكرهاً، على تعيينه امير امراء الجيش وخلع عليه لقب ناصر الدولة وعلى شقيقه علي لقب سيف الدولة.

كانت مطامع سيف الدولة الاستيلاء على جميع بلاد الشام، فسار الى حمص يريد دمشق، فلما علم الأخشيد ذلك، ارسل الى الشام جيشاً حيث نشبت معركة عند بلدة «الرستن» – بين مدينتي حماه وحمص – وكان النصر لسيف الدولة وانهزم الأخشيد وعاد الى مصر، اما سيف الدولة فقدم دمشق واحتلها.

استخلف محمد بن طغج ابنه انوجور على مصر وسار على رأس جيش كبير

---

(٢٨) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب، مجلد ١، ص ٤٣٩ .

الى دمشق لاحتلالها. فحصلت المعركة في قنسرين في شوال عام ٣٣٣هـ حيث انهزم سيف الدولة واحتل الأخشيد حلب واسترد دمشق، ثم عقد صلحاً مع سيف الدولة على ان يكون للحمدانيين حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً، ويكون للأخشيد دمشق واعمالها على ان يدفع الأخشيد لسيف الدولة جزية سنوية.

وافق محمد بن طغج الأخشيدي على هذا الصلح، على الرغم من انتصاره، خوفاً من البيزنطيين، فاراد ان يبقى الدولة الحمدانية حصناً ضدهم. في عام ٣٣٢هـ اجتمع محمد بن طغج الأخشيدي مع الخليفة المكتفي بالله في «الرقة» وعرض عليه ان يسير معه الى مصر والشام فتنتقل الخلافة العباسية الى مصر، كما حاول قبله احمد بن طولون. ابى الخليفة الدعوة وامتنع عن الذهاب الى مصر، وعند عودته الى بغداد قبض عليه امير الجيوش «توزون» والقاه في السجن وبايع ابنه ابا القاسم عبدالله بالخلافة.

توفي محمد بن طغج الأخشيدي في دمشق في ذي الحجة عام ٣٣٤هـ وعاد جيشه الى مصر، فاتجه سيف الدولة بجيشه الى دمشق واحتلها، ولكن أهالي دمشق طلبوا نجدة من كافور، الذي كان في ذلك الوقت وصياً على اولاد محمد بن طغج الأخشيدي، اناجور واخيه علي.

قدم كافور الى الشام عام ٣٣٥هـ فجرت معركة «بأكسال» في شهر جمادى الأولى، فانهزم الجيش الحمداني الذي تقهقر الى حمص حيث انضم اليه جيش من بني نمير، وعقيل، وكلاب، وغيرهم فسار نحو دمشق حيث اشتبك بالجيش الأخشيدي في مكان يقال له «عذرا» فانهزم سيف الدولة وتقهقر الى حلب وتبعه كافور وجيشه فاتجه الى الرقة حيث عسكر فيها[٢٩].

احتل كافور حلب وعيّن عليها «يانس المؤنس» الذي كان تمرد على سيف الدولة والتجأ الى انطاكية، ولكن سيف الدولة هاجم حلب في ربيع الآخر عام ٣٣٦هـ واحتلها. بعد هذه المحاولة عقدت معاهدة بين كافور وسيف الدولة بالشروط نفسها لمعاهدة عام ٣٣٤هـ ما عدا الجزية التي رفضها كافور.

---

(٢٩) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب، ابن العديم، ص ١١٨ .

استقرت بعد ذلك احوال بلاد الشام حتى كان الاجتياح البيزنطي عام ٣٥١هـ، فأرسل الأخشيديون جيشاً لمساعدة سيف الدولة على رأسه المهلّل بن سلال العقيلي، فكان هذا التعاون من الأسباب التي جعلت البيزنطيين يتخلّون عن مهاجمة بلاد الشام.

عندما مات محمد بن طغج ترك أولاده تحت وصاية كافور الذي حكم مصر وبلاد الشام كوصي على الولدين مدة عشرين سنة، ثم أصبح والياً على مصر لمدة سنتين حتى مات عام ٣٥٧هـ.

اما أولاد محمد بن طغج الأخشيدي فكان انوجور ولياً على مصر بعد وفاة ابيه، حيث ولاّه الخليفة المطيع لله بن المقتدر (٣٣٤ - ٣٦٣هـ) على مصر وبلاد الشام واستمر على ولاية مصر ومات عام ٣٤٩هـ، قيل دس له السم كافور، ودفن في القدس[٣٠].

اما علي، فبعد ان مات أخوه انوجور، اقامه كافور على مكانه، فكان له الاسم من الامارة فقط[٣١] اذ كان كافور مستولياً على مقاليد الحكم. اختلف علي مع كافور فعزله ومات عام ٣٥٥هـ وكذلك دفن في القدس.

وبعد موت علي بن محمد طغج، ولّى الخليفة المطيع لله كافور على إمارة مصر عام ٣٥٥هـ. فحكم سنتين وتوفي عام ٣٥٧هـ.

عمل كافور على توطيد الحكم الأخشيدي وأخّر الفتح الفاطمي حيث احتفظ مع الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بعلاقات غير عدائية.

عند وفاة كافور اجتمع الرأي على تولية احمد بن علي الأخشيد وكان يبلغ من العمر احدى عشرة سنة. ولكن في ذلك الوقت ساءت الأحوال في مصر بسبب القحط وهلك الكثير، فأقدم جماعة من اعيان وعلماء مصر على مراسلة الخليفة الفاطمي المعز لدين الله يستدعونه ليتسلم حكم البلاد.

---

(٣٠) كتاب الكامل في التاريخ، ابن الاثير، مجلد ٨، ص ٥٣٣ .

(٣١) كتاب الولاء والقضاء، ابو عمر الكندي، ص ٢٩٦ .

يقول الدكتور محمد احمد زيّود: «بعد موت محمد بن طغج وفي عهد كافور، حدثت فتن وانتفاضات كثيرة منها:

١ - حركة بنو كلاب عام ٣٢٥هـ. في المعرة.

٢ - فتنة دمشق عام ٣٣٤هـ.

٣ - حركة المهلل العقيلي عام ٣٣٤ .

٤ - حركة شبيب بن جرير في عمان عام ٣٤٨هـ.

٥ - خروج محمد بن السلمي من الثراة عام ٣٥٢هـ.

٦ - ثورة اهل عمان عام ٣٥٤هـ.

٧ - خروج بني سليم على طريق الحج عام ٣٥٥ .

٨ - تمرد اهل طرابلس على الوالي الأخشيدي ابو الحسن احمد بن تحرير الأرغلي.

٩ - تمرد والي بيت المقدس محمد بن اسماعيل الصناجي ونهب كنيسة القيامة[٣٢].

زيادة على الحروب مع الفاطميين والحمدانيين والبيزنطيين تعرض الأخشيد في بلاد الشام للخطر القرمطي حيث لعب سيف الدولة الحمداني دوراً كبيراً اذ كان يصانع القرامطة في اكثر الأحيان ويقدم لهم الامدادات الكثيرة ويشجعهم على غزو بلاد الشام ضد الأخشيديين[٣٣]. ولهذا لم يتعرض القرامطة عند غزوهم بلاد الشام لأملاك الحمدانيين.

في عام ٣٥٧هـ هاجم القرامطة بلاد الشام واحتلوا دمشق ثم ساروا الى الرملة في فلسطين، وكان واليها الحسن بن عبيدالله ابن طغج، الذي لم يتمكن من صدهم فاتفق معهم على اتاوة سنوية، قدرها ثلاثمائة ألف دينار، بقيت تدفع لهم حتى قطعها الخليفة المعز لدين الله. في ذلك الوقت اي، قبل الفتح الفاطمي عام ٣٥٨هـ اصبح النفوذ الأخشيدي في بلاد الشام في حكم الزائل.

(٣٢) كتاب العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والأخشيدي، ص ٣٢٢ - ٣٢٦ مع تفاصيل وشروحات مستفيضة.

(٣٣) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب، ابن العديم، مجلد ١، ص ١٣٣ .

مما يجب ذكره، المعارك التي جرت بين الجيش الفاطمي، بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي والجيش الأخشيدي عند احتلال الفاطميين لبلاد الشام.

خاض الجيش الفاطمي ثلاث معارك رئيسية انتصر بها جميعاً على الأخشيد.

كانت المعركة الأولى في مدينة الرملة في ذي الحجة عام ٣٥٨هـ اي بعد المعركة الأخيرة عام ٣٥٧هـ بين القرامطة والأخشيد، وكان الجيش الأخشيدي منهوك القوى بعد حروبه مع القرامطة. انهزم الأخشيد وأسر قائده الحسن بن عبيدالله بن طغج وأرسل الى المغرب وظل فيها حتى مات.

وكانت المعركة الثانية في طبرية حيث استسلم القائد فاتك غلام الوالي «ملهم» من دون مقاومة، واقيمت الخطبة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله.

ثم كانت المعركة الثالثة في دمشق، فقد كان وصل الى أهالي دمشق خبر انتصارات الفاطميين في الرملة وطبرية، فأرسلوا وفداً من كبار رجالهم يطلبون الأمان على أن يسلموا دمشق من دون قتال. وكان مع الوفد عقيل بن الحسين العلوي وابن ابي يعلى العباسي. رجع الوفد الى دمشق بعد ان لاقى معاملة سيئة من القادة الفاطميين.

فر القائد الأخشيدي «شمول» وانضم الى جعفر بن فلاح وترك دمشق من دون امير او قائد يدافع عنها. ولكن الأهالي، مع بعض من بقي من الأخشيد وبعض البدو من القبائل العربية، قاوموا بضراوة وشجاعة والحقوا بالفاطميين خسائر فادحة بالأرواح والمعدات.

يقول تغري بردي: «استطاع جعفر بن فلاح دخول دمشق في محرم عام ٣٥٩هـ واقام الخطبة للمعز لدين الله، وقطع خطبة الخليفة العباسي المطيع لله»[(٣٤)].

سوف لن نتطرق الى الحروب الصليبية، وامارة بني منقذ في «شزر» وامارة بني عمّار في طرابلس الشام لأن هذه الحوادث والحروب التي جرت في زمن هذه الامارات خارجة عن موضوع هذه الدراسة.

في ١٨ رجب عام ٣٥٨هـ استولى جوهر الصقلبي على مصر وانتهت دولة الأخشيد.

---

(٣٤) كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مجلد ٤، ص ٣٣ .

الامامة

لا يمكن لأي دراسة عن دعوة التوحيد الدرزية ان تكتمل من دون العودة الى تاريخ نشوء الامامة وتطورها في الاسلام، اذ قال الله تعالى في كتابه الكريم «يوم ندعو كل أناس بامامهم...»[1]. ثم قال سبحانه وتعالى: «وجعلنٰهم أيمةً يهدون بأمرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلوة وايتاء الزكوة وكانوا لنا عٰبدين»[2] ثم قال، عز وجل، «يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم...»[3] وقال: «واذ ابتلى ابرهيم ربُّه بكلمٰت فأتمّهن قال اني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظٰلمين»[4].

وابو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني يقول: «وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الامامة، اذ ما سّل سيف في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سّل على الامامة في كل زمان»[5].

ويقول عبد القاهر طاهر بن محمد البغدادي عن اختلاف الأمة «ثم اختلفوا بعد ذلك في الامامة واذعنت الانصار الى البيعة لسعد بن عبادة الخزرجي[*] وقالت قريش: ان الامامة لا تكون الاّ في قريش، ثم اذعنت الأنصار لقريش لما روي لهم قول النبي، عليه السلام «الأئمة من قريش» وهذا الخلاف باق الى اليوم»[6].

---

(١) سورة الاسراء، آية ٧١

(٢) سورة الانبياء، آية ٧٣

(٣) سورة النساء، آية ٥٩

(٤) سورة البقرة، آية ١٢٤

(٥) كتاب الملل والنحل، ص ٢٤

(*) هو سعد بن عبادة بن دليم، الخزرجي الانصاري، كان سيد الخزرج وكانت معه راية الانصار في معركة بدر، رفض مبايعة ابي بكر الصديق ومات بحوران في بلاد الشام عام ١٥هـ.

(٦) كتاب الفرق بين الفرق، ص ١٥ البغدادي، ص ١٥

اختلف المؤرخون المسلمون في مقولة ابي بكر في اجتماع السقيفة، ان الرسول الكريم قال: «الأئمة من قريش» فبعضهم اكد ذلك[٧] اما المؤرخ المعروف محمد حسين هيكل، فيقول ان ابا بكر قال: «اما العرب فلن تعرف هذا الأمر الاّ لهذا الحي في قريش»[٨]. ولم يذكر ان هذه المقولة للرسول (صلعم) ابو محمد عبدالله بن قتيبة الدينوري يورد خطبة ابي بكر يوم سقيفة بني ساعدة كما يلي. «نحن المهاجرون اول الناس اسلاماً واوسطهم داراً، واكرمهم حسابا واحسنهم وجوها، واكثر الناس ولادة في العرب، وامسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم، اسلمنا قبلكم وقُدّمنا في القرآن عليكم، فانتم اخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء، وانصارنا على العدو، آويتم واسلمتم فجزاكم الله خيراً. نحن الامراء وانتم الوزراء، لا تدين العرب الاّ لهذا الحي من قريش، وانتم محقوقون الا تنفسوا على اخوانكم من المهاجرين ما ساق الله عليهم..[*]

ولذلك اختلف المؤرخون في من أتى السقيفة، فمعظمهم قال، كانوا ثلاثة، أبو بكر الصديق، عمر بن الخطّاب وابو عبيدة عامر بن الجرّاح، ولكن البعض الآخر، وهم قلة، قال ان عاصم بن عدي وعويم بن ساعدة، انضما اليهم فأصبحوا خمسة ولكن هذه المقولة لا تؤكدها المراجع التاريخية الاسلامية.

والقول بان من اتى الى السقيفة كانوا خمسة من المهاجرين يثبته الفقيه الشافعي، علي بن محمد ابو الحسن الماوردي في كتابه «كتاب الاحكام السلطانية»، قال: «قل من تنعقد منهم الامامة خمسة يجتمعون على عقدها، او يعقدها احدهم برضى الأربعة استدلالا بأمرين احدهما، ان بيعة ابي بكر رضي الله عنه، انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها، ثم تابعهم الناس فيهم وهم عمر بن الخطّاب، وابو عبيدة بن الجرّاح واسيد بن حضير وبشر بن سعد وسالم مولى حذيفة رضي الله عنهم»[٩].

---

(٧) كتاب الملل والنحل، الشهرستاني، ص ٢٤ . كتاب الاحكام السلطانية، ابو الحسن الماوردي ص ٣ .

(٨) كتاب الصديق ابو بكر، محمد حسين هيكل، ص ٥٨ .

(*) كتاب عيون الاخبار، الطبعة الاولى ١٩٢٨، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٩) كتاب الخلافة وشروط الزعامة عند اهل السنة والجماعة، الدكتور يوسف إيبش ، ص ٢٤ .

يقول بعض مؤرخي الشيعة، ان الامامة انبثقت بعد ان بويع أبو بكر الصديق بالخلافة، الاّ ان بعض الصحابة رفضوا ذلك، ومعظمهم من بني هاشم مع بعض الانصار، كسعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج وبعض مريدي علي بن ابي طالب منهم العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس والزبير بن العوام بن العاص، ابن صفية بنت عبد المطلب عمّة الرسول، وخالد بن سعيد وسلمان الفارسي[١٠] والمقداد بن الاسود الكندي وابو ذر الغفاري وعمّار بن ياسر والبراء بن عازب وابي بن ابي كعب[١١].

كان هؤلاء الصحابة يؤمنون بأن الخلافة من حق علي بن ابي طالب، فهو ثاني من اعتنق الاسلام، بعد خديجة زوجة الرسول، وجاهد كل حياته لأجله، وقاتل له، وعرض حياته للموت في سبيل نصرته وهو ابن عم النبي، وصفّيه وكاتم اسراره وزوج فاطمة ابنته المفضلة، وعرف بعلمه وزهده، وورعه وشجاعته ووارث علم النبوة.

وقالوا، بالرغم من التضحيات الكبيرة التي قدمها ابو بكر الصديق، الذي صحب الرسول من وقت اسلامه حتى وفاته، وكان رفيقه في الغار وفي خروجه الى يثرب، (المدينة) وكان خامس من اعتنق الاسلام، محترماً بين الناس، ذا مكانة مرموقة بين المسلمين وهو الذي أمره الرسول، عند مرضه، ان يصلي بالناس، والصلاة بالناس اول مظهر للقيام مقام الرسول، ولكن قالوا ان علي احق منه بالخلافة.

ولاعطاء علي بن ابي طالب الحق بالامامة التي يعتبرون مركزاً يستحقه لانجازاته وتضحياته في الاسلام، اعتمد شيعته على نصوص من القرآن منها: «وقال الذين اوتوا العلم والايمان» ثم «اني مخلف فيكم الثقلين» وغيرها، كما اعتمدوا حديث الرسول، خصوصاً في اجتماع «غدير خم». ثم قول الرسول قبل وفاته: «آتوني بدواة وصحيفة اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ابداً»، ان الرسول أراد ان ينص على خلافة علي ولكن عمر بن الخطّاب اراد منعه من ذلك فقال: «ان رسول الله قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن وحسبنا كتاب الله». واعلنوا امامة علي بن ابي طالب، وقالوا ان

---

(١٠) اسمه روزبه بن مرزبان الفارسي اطلق عليه النبي اسم سلمان.

(١١) كتاب الصديق ابو بكر، محمد حسين هيكل، ص ٦٣ .

الامامة لا تكون الاّ في آل البيت من نسل فاطمة بنت الرسول، وان الامام هو ممثل الله على الأرض له العصمة وحق التأويل وهو ثاني النبي لا يفرقه عنه الا الوحي، اما الخليفة فهو خليفة النبي وقائد الأمة[١٢].

كانت ردة فعل مؤيدي ابي بكر الصديق ان قالوا ان الصحابة من مهاجرين وأنصار الذين بايعوا ابا بكر بايعوه بالامامة باقرارهم ان الأئمة من قريش، وبما ان المبايعة كانت من الجماعة، اذاً تكون شورى.

يرفض المفكرون الشيعة، على جميع مذاهبهم الشورى ويقولون: «ولو افترضنا جدلاً ان الأمة توجهت منزهة عن كل غرض وهوى النفس لاختيار الامام، فان الخطأ، اذ كان جائزاً على كل فرد، فقد جاز الخطأ على المجموع، وبذلك تخطئ الأمة المستحق وتختار غيره ولا يتضح لهم الأمر الاّ بعد ان يتعذر خلعه باثارة الفتن واراقة الدماء»[١٣]. اذاً الامامة تكون بالنص، وقد نصّ عليها الله في القرآن والرسول في الحديث لعلي بن أبي طالب.

ويقول المستشرق كارل بروكلمن: «وتفصيل الأمر انه كان على المسلمين ان يختاروا زعيماً يؤم الناس في الصلاة الجامعة ويشرف على مقدرات النظام الجديد. لم يكن ثمة حقوق وراثية، بل لم يكن ثمة طريقة معروفة للانتخاب، والقرآن نفسه، الذي كان دستوراً يسير النبي على ضوئه في الحكم، لم يشتمل على أيّما توصية يستعين بها المسلمون على حل مشاكلهم ويهديهم سواء السبيل الى معرفة الرجل الذي يجب ان يدعى لخلافة الرسول»[١٤].

اختلف المسلمون على اختيار الرجل الذي يجب ان يولّى عليهم. فقالت السنة، انه يجب ان تختاره الجماعة، فيكون شورى. ويجب ان يكون من قريش. اما الشيعة، على جميع مذاهبهم، فقالوا: «ان الامامة احدى دعائم الدين وسموها

---

(١٢) بعض العلماء والمؤرخين يرفضون هذا التحليل للامامة ونشوئها اذ يقولون ان الامامة كانت قبل الاسلام وان الله تعالى اشار اليها في كتابه الكريم، سورة الاسراء، آية ٧١، سورة الانبياء، آية ٧٣ وسورة البقرة، آية ١٢٤ .

(١٣) كتاب الامام والامامة عند الشيعة، الدكتور يوسف ايبش، ص ٨ .

(١٤) كتاب تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ١٠٥ .

الولاية وان الدين لا يتقدم الاّ بها ويجب ان تكون بالنص وقد نص الله والرسول على علي بن ابي طالب». وقالت المعتزلة. لم يقدم رسول الله احداً بعينه ولا اشار اليه ولكنه أمر الناس ان يختاروا بعده رجلاً يولونه على أنفسهم فاختاروا ابا بكر.

اما الخوارج، خصوصاً الازارقة والضرارية، فقالوا: «لم ندر ولم يبلغنا النبي امرا في ذلك بشيء ولا انه لم يأمر ولا اشار ولا لم يشر ولكن لا بد من امام يقيم الحدود وينفذ الاحكام وانها تصلح في القرشي وفي غير القرشي اذا كان فاضلاً تقيا مستجمعاً لشروط الاسلام». وقالت الزيدية بالنص وعلى ان تكون في ولد علي وفاطمة بنت النبي.

هدأت العاصفة بعد ان بايع علي بن ابي طالب ابا بكر في بيت بني هاشم وبحضور جمع منهم وذلك بعد وفاة فاطمة بستة اشهر فقط من وفاة ابيها النبي. عمل علي مستشاراً لأبي بكر وساعده كثيراً في تسيير امور المسلمين، حتى قال بعض المؤرخين، «لولا علي لفشل ابو بكر في حكمه». وقيل، كان ذلك عن عمر بن الخطّاب وليس عن ابي بكر.

ويقول ابو الحسن الأشعري، «ان المسلمين بايعوه وتابعوه وانقادوا لامامته وقالوا له يا خليفة رسول الله، ورأينا علياً والعباس، رضي الله عنهما، بايعاه، رضي الله عنه، واقرّا له بالامامة»(١٥).

ويقول الدكتور يوسف ايش: «لم يكن النبي محمد في حياته مجرد رسول تنحصر مهمته في تبليغ الرسالة وتعليم الاسلام فقط، انما كان الى جانب مؤسس الأمة، وجامع شملها ومدير شؤونها الدنيوية وكان القاضي المطبّق للتشريع والمنفذ لاحكامه، وكان الحكم بما يريده الله من عباده ولهم، وكانت الأمة تخضع لسلطته الروحية – الزمانية ومنها قيادة الجيوش والمجاهدة في سبيل الله»(١٦).

عندما توفي النبي، كان لا بد من ايجاد شخص يقوم بهذه المهمات، التي هي أساس الدين، وعليه ان يجمع شمل الأمة ويحافظ عليها ويطبق العدالة الكاملة ويكون عارفاً بالشريعة وسديد الرأي.

---

(١٥) كتاب الخلافة وشروط الزعامة عند اهل السنّة والجماعة، الدكتور يوسف ايش، ص ١٨ .

(١٦) المرجع نفسه، ص ٦ .

ويقول القاضي ابو بكر الباقلاني[١٧] في وصف الامام « يجب ان يكون على اوصاف، منها ان يكون قرشياً في الصميم، ومنها ان يكون في العلم بمنزلة من يصلح ان يكون قاضياً من قضاة المسلمين، ومنها ان يكون ذا بصيرة بأمر الحرب وتدبير الجيوش، وسد الثغور، وحماية البيضة، وحفظ الأمة، والانتقام من ظالمها والأخذ لمظلومها وما يتعلق به من مصالحها، ومنها ان يكون ممن لا تلحقه رقة ولا هوادة في اقامة الحدود، ولا جزع لضرب الرقاب والابشار، ومنها ان يكون من امثلهم في العلم وسائر هذه الأبواب التي يمكن التفاضل فيها، الاّ ان يمنع عارض في الأفضل فيسوغ نصب المفضول، وليس من صفاته ان يكون معصوماً، ولا عالماً بالغيب، ولا أفرس الأمة واشجعهم، ولا ان يكون من بني هاشم فقط دون غيرهم من قبائل قريش[١٨].

يقول المستشرق: «هنري كوربان»[١٩]. «فنظراً لأن الامامة هي المظهر الالهي الأصيل ووحي الحضرة الالهية والهادي الى هذا الوحي، فان الامام هو «الحجة» العظمى والكفيل الذي ينوب عن الالوهية اللامعلومة»[٢٠].

ثم يقول: «هنري كوربان». «من جهة لا يمكن للأرض ان تكون خالية من امام، حتى وان كان مستوراً، لانها تكون عندئذ بلا اتصال مع السماء، اذ ان الأمام هو القطب الروحاني، فلو انه كف عن الوجود، لما زالت الانسانية في وسعها البقاء في الوجود ولئن كان الجمهور العريض من البشر غير واعٍ بوجود هذا القطب، فهذا لا يغير في الأمر شيئاً، فيجب اذن الاّ يكف الامام ابداً من ان يكون حاضراً»[٢١].

---

(١٧) ابو بكر الباقلاني من الجيل الثاني من متكلمي الاشاعرة، كان يلقب «بشيخ السنة لسان الأمّة» وله كتاب «التمهيد في الرد على الملحدة والرافضة والخوارج والمعتزلة واعجاز القرآن»، توفي عام ٤٠٣هـ.

(١٨) كتاب الخلافة وشروط الزعامة عند اهل السنة والجماعة، الدكتور يوسف ايش، ص ٦٢ .

(١٩) المستشرق الفرنسي هنري كوربان كان استاذاً في جامعة طهران ثم جامعة باريس – السوربون ويتكلم الفارسية والعربية، من اشهر الباحثين في الفلسفة الاسلامية وخصوصاً المذهب الشيعي.

(٢٠) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ١٦٣ .

(٢١) كتاب الشيعة الاثني عشرية، ص ٧٥ .

الامام الثالث علي زين العابدين، وهو ابن الامام حسين بن علي بن ابي طالب، يقول: «لم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجة الله فيها ظاهر مشهور او غائب مستور، ولا تخلو الى ان تقوم الساعة من حجة الله فيها، ولولا ذلك لم يعبد الله»[٢٢].

وتؤمن الشيعة، بان النبي محمداً كان خاتم النبيين وبه تنتهي النبوة، بيد ان التاريخ الديني للبشرية لم يقفل، بل بموت الرسول بدأ عهد الولاية، اي الامامة، وعليه فان دورة الولاية بدأت عندما اقفلت دورة النبوة، التي تجلت في شخص الامام علي بن ابي طالب، وستنتهي، اي ستقفل، عند ظهور الامام الغائب، اي الثاني عشر، محمد بن حسن العسكري وهو القائم المهدي، القائم بالقيامة او القائم المنتظر الذي اختفى في اليوم الرابع من شوال عام ٢٦٠ هجري. وتقول الشيعة: «عندما يظهر خاتم الولاية المحمدية، اي الامام الثاني عشر، محمد القائم المهدي، سوف تنجلي جميع الأسرار وستكون سيطرة الدين النقي بالروح وبالحقيقة، وهذا الخاتم سيكون الامام الأخير الثاني عشر يظهر من جديد في الحاضر كامام ينبئ بالبعث، (قائم القيامة)[٢٣]. ويعتقد الشيعة ان اتباع الامام لا يمكن ان يكونوا اسرى ماضٍ مقفل ومختوم.

اما علاقة الامام بالله تعالى، فيصفها الامام جعفر الصادق، الامام السادس (توفي عام ١٤٨ هـ)، بقوله: «بنا يُعبد الله، وبنا يطاع الله، وبنا يعصى الله، فمن اطاعنا فقد اطاع الله، ومن عصانا فقد عصى الله، سبقت طاعتنا عزيمة من الله الى خلقه، انه لا يقبل عملاً من احد الاّ بنا، ولا يرحم احداً الاّ بنا، ولا يعذب احداً الاّ بنا، فنحن باب الله وحجته، واولياؤه على خلقه، وحفظة سره ومستودع علمه، ليس لمن منعنا حقنا في ماله نصيب»[٢٤].

---

(٢٢) كتاب الامام والامامة عند الشيعة، الدكتور يوسف ايش، ص ٧ .

(٢٣) كتاب الشيعة الاثني عشرية، هنري كوربان، ص ٥٨ .

(٢٤) كتاب دعائم الاسلام وذكر الحلال والقضايا والاحكام، القاضي ابو حنيفه النعمان بن محمد التميمي، مجلد ١، ص ٧٢ .

ويقول الامام علي بن ابي طالب في كتاب: «نهج البلاغة» «نحن باب الله وحجته، امناؤه على خلقه وحفظة سره، ومستودع علمه، والعترة هم اهل البيت ومنهم كرائم».

وفي اجتماع «غديرخم» الذي يعتبره الشيعة حدثاً مقدساً واثباتاً لا يقبل الشك او الجدل او الظن، يؤمنون ان النبي نص بالامامة على علي بن ابي طالب. يوم «غديرخم» يوم عيد عند الشيعة، يحتفلون به كل عام في مساجدهم، فيشكرون الله على اتمام دينهم بامامة علي بن ابي طالب، ويتمسكون بقول النبي، بعد ان اخذ بيد علي «فمن كنت مولاه فهذا مولاه، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه وان عترتي اهل بيتي»

اما قاضي القضاة، عبد الجبّار بن احمد الهمذاني المعتزلي فيقول عن اجتماع «غديرخم». «ان قول رسول الله الموالاة، لا تعتبر، لأن الموالاة ليست امامة وان كلمة امام لم يذكرها النبي في حديثه»[٢٥].

وفي نظرة سريعة على امامة الخلفاء الراشدين يتبين ان الامامة عند السنة هي اتفاق الجماعة والتأييد ورضوخ الاكثرية في المجموع. فالجماعة باكثريتها ايّدت ابا بكر الصديق لأنه كان افضلهم، زاهداً تقيا، ذا رأي سديد ويتمتع بالخصال التي تتطلبها الامامة. وقال قاضي القضاة عبد الجبّار بن احمد الهمذاني: «ان اجماع الصحابة على امامة ابي بكر دليل على صلاحه للامامة. فلو لم يكن يصلح لها، لم يجتمعوا عليه، لأن الأمة لا تجتمع على خطأ». انتقده بعض الناس لعدم اعطائه فاطمة، بنت الرسول مزرعة النبي «فدك» وقوله انه سمع النبي يقول: «نحن معاشر الانبياء لا نورث، ما تركناه صدقة». ثم ان بعضهم طعن في امامته بقول عمر بن الخطّاب: «كانت بيعة ابو بكر فلتة وقّى الله شرها». ولكن النبي قال عنه وعن عمر بن الخطّاب: «انه وعمر سيدا كهول الجنة، هما منّي بمنزلة يميني وشمالي».

ونص ابو بكر الصديق، على امامة عمر بن الخطّاب، وكان له الحق في ذلك، لأن الامامة عند السنة تكون، امّا باجماع اصحاب الرأي، او بنصّ الامام السابق على من يريد خلافته.

---

(٢٥) كتاب المغني في ابواب التوحيد والعدل، جزء ٢٠ في الامامة، ص ١٢٦ .

قيل عن عمر بن الخطّاب انه كان فظاً غليظاً. وقال عنه عثمان بن عفّان، «سريرته خير من علانيته وان ليس فينا مثله». انتقده البعض على قلة علمه وسرعة غضبه وقسوته مع الناس. ولكن يكفي عُمَرأنه كان قمة العدل والزهد.

امّا امامة عثمان بن عفان فلم يكن بها ريبة، فهو من قريش وفضائله مشهورة، ويكفي ان الرسول زوّجه مرتين، ولذلك لقب بذي النورين. ثم انفق اموالاً طائلة لنصرة الاسلام. كانت امامة عثمان بعد مشاورة اهل الشورى، ولم يحصل خلاف معه، الاّ بعد محاباته اقاربه من بني امية وتبذيرهم اموال المسلمين وتسلطهم على الحكم.

امّا امامة علي بن ابي طالب فلا خلاف عليها. وقال عنه النبي: «ان وليتم فاتخذوه هادياً مهدياً، ولأعطينَّ الراية غداً، رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»[٢٦].

وكما قلنا سابقاً، ان الشيعة تعتقد ان الامامة تسلسل النبوة، لأن تاريخ الانسانية الديني يجب ان يستمر بعد الرسول الذي قال الله عنه: «انما انت منذر ولكل قوم هاد»[٢٧].

والامام هو ممثل الله على الأرض، مفسر القرآن، باسط الحق والمعرفة وهو المثال الصالح لكشف الحقيقة الآلهية، وارساء العدل وانهاء الجور، هو الهادي يقود الأمة ويهدي البشر.

والدكتور يوسف ايش يقول: «لا يطيل الشيعة من عرض ادلتهم على وجوب الامامة، لأن معظم الفرق الاسلامية قد سلمت بذلك، ولكنهم يركزون استدلالاتهم على وجهة نظرتهم القائلة بالوجوب على الله، لأن العدالة الالهية تقضي الاّ يحرم الناس من التشريع السماوي والتوجيه الرباني بنصب الامام من الله، وان عناية الله تقضي الاّ يترك العالم خالياً من رئيس يدبر وامام يجمع الناس ويعرفهم مصالحهم

(٢٦) كتاب المغني في ابواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار الهمذاني، مجلد ٢٠، ص ٦ .
(٢٧) سورة الرعد، آية ٧ .

الدينية والدنيوية»[٢٨]. وكذلك يقول الدكتور يوسف ايبش: «من اهم ما نسب الى ائمة الشيعة من النص على الامام، فقد سئل الامام الباقر، عليه السلام، ما الحاجة الى الامام؟ فقال: «ليرفع الله العذاب عن أهل الأرض، قال تعالى: «ما كان ليعذبهم وانت فيهم». وهكذا استشهد بآية تشير الى النبي بوجه خاص في معرض الامامة، لأن الامامة عندهم خلافة عن النبوة قائمة مقامها الاّ في تنزيل الوحي»[٢٩].

ان ائمة الشيعة الاثني عشرية هم:

١ - علي بن ابي طالب. امير المؤمنين. زوج فاطمة بنت الرسول، وابن عمه. ولد في مكة عام ٦٠٥ ميلادية وقتله في الكوفة الخارجي عبد الرحمن بن ملجم عام ٤٠ هجري.

٢ - الحسن بن علي بن ابي طالب. يُكنّى «المختار» ولد في المدينة عام ٣هـ وتوفي عام ٤٩هـ.

٣ - الحسين بن علي بن ابي طالب. سيد الشهداء. ولد في المدينة عام ٤هـ. واستشهد في كربلاء عام ٦١ هجري.

٤ - علي زين العابدين بن الحسين. زين المتقين. ولد في المدينة عام ٣٦هـ وتوفي فيها عام ٩٥ هجري. مؤلف كتاب «مزامير» «واناجيل عائلة الرسول».

٥ - محمد الباقر ابن علي زين العابدين. ولد في المدينة عام ٥٧هـ وتوفي فيها عام ١١٥ هجري. كان عالماً في اصول الدين والفقه.

٦ - جعفر الصادق ابن محمد الباقر. ولد في المدينة عام ٨٠هـ وتوفي فيها عام ١٤٨ هجري. ينسب اليه الفقه الشيعي الجعفري. والد الامام اسماعيل الذي نسبت اليه الشيعة الاسماعيلية، اي السبعية.

---

(٢٨) كتاب الامام والامامة عند الشيعة، للدكتور يوسف إيبش، ص ٥ .

(٢٩) كتاب الامام والامامة عند الشيعة، ص ٧ .

٧ - موسى الكاظم ابن جعفر الصادق. ولد في المدينة عام ١٢٨هـ وتوفي في بغداد عام ١٨٣ هجري. ان الانقسام في الاسرة الشيعية بين الاثني عشرية والاسماعيلية حدث بسبب توليه الامامة بدلاً من ابن أخيه محمد بن اسماعيل المنصوص عليه من الامام السابق.

٨ - علي الرضا ابن موسى الكاظم. ولد في المدينة عام ١٥٣هـ وتوفي في مدينة «طوس» بخراسان عام ٢٠٣ هجري. مقامه في مدينة مشهد من فارس.

٩ - محمد الجواد ابن علي الرضا، الملقب بالتقي. ولد في المدينة عام ١٩٥هـ وتوفي في بغداد عام ٢٢٠ هجري.

١٠ - علي الهادي ابن محمد الجواد. ولد في بغداد عام ٢١٢هـ وتوفي عام ٢٥٤هـ في سجن سامّراء سجنه الخليفة العباسي الواثق بالله ابن المعتصم.

١١ - الحسن بن علي العسكري. ولد في المدينة عام ٢٣١هـ وتوفي في سامّراء عام ٢٦٠ هجري، وقبره في سامّراء احد مزارات الشيعة المقدّسة.

١٢ - محمد بن الحسن العسكري. ولد في سامّراء (سُر من رأى) عام ٢٥٥هـ واختفى في الرابع من شوال عام ٢٦٠هـ. ويقول مؤرخو الشيعة كان اختفاؤه في يوم وفاة والده الامام حسن العسكري، والامام محمد بن الحسن هو المهدي المنتظر عند الشيعة الاثني عشرية.

قال انس بن مالك: «خرج علينا رسول الله ذات يوم فرأى علياً، فوضع يده على كتفيه ثم قال: «يا علي لو لم يبق في الدنيا الاّ يوم واحد، لطول الله ذلك اليوم حتى يملك رجل من عترتي، يقال له المهدي، يهدي الى الله، عز وجل، ويهدي به العرب»(*).

ويقول المستشرق هنري كوربان: «قال النبي محمد، الأئمة من بعدي اثنا عشر. الاول علي بن ابي طالب والثاني عشر هو القائم المهدي، هو الهادي الذي يأخذ الله بيده ليعمل على فتح مشارق الأرض ومغاربها»(**).

(*) كتاب دلائل الامامة. محمد جرير الطبري، ص ٢٤٧ (الصحابي انس بن مالك هو غير الفقيه الكبير مالك بن أنس).

(**) كتاب الشيعة الاثني عشرية، ص ٧٣ . هنري كوربان.

ومن أقوال سلمان الفارسي: «قال النبي، صلى الله عليه واله، «الأئمة بعدي بعدد نقباء اسرائيل، كانوا اثني عشر». ثم وضع يده على صلب الحسين وقال: «من صلبه تسعة ائمة ابرار، والتاسع مهديهم يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، فالويل لمبغضهم»(***).

وتقول الشيعة الاثني عشرية، الامام علي هو خاتم «الحقبة النبوية» والامام المهدي، حجّة الله، والامام المستور، والرب غير المنظور بهذا الزمن، المحجوب عن الناس يقيم في عالم لا تراه البشر حتى ظهوره المقبل ورجعته النهائية ليتمم الرحلة الحاضرة في عالمنا.

اما بعض المؤرخين فيقولون، عند وفاة الامام حسن العسكري لم يكن عنده عقب الاّ محمد، الذي توفي بعده بزمن قليل، فخاف العلماء واصحاب الرأي، أن تنتهي الامامة بموته، فقالوا بغيبته وانه سيرجع وانه كان موجوداً بالماضي وهو موجود في المستقبل وهو غير منظور ولكن دائم الحضور مستوراً منذ احتجابه، وبهذه الغيبة، أمّنوا استمرارية الامامة.

اما الاسماعيلية فيقولون، ان النبوة بدأت مع آدم، وكل نبي جاء بكتابه ودينه، والنبي محمد كتابه هو ما انزل عليه وباطنه الولاية وهي أفضل دعائم الدين بعد الوصاية. النبي هو الناطق والوصي هو الامام، وهو حجة الله وممثله على الأرض له العصمة والتأويل.

ويعتقد الاسماعيليون، ان كل زمن يبدأ بنبي (الناطق) ومعه وصي وذلك حتى يوم القيامة. فآدم وصيه شيث، ونوح وصيه سام، وابراهيم وصيه اسماعيل، وموسى وصيه هارون، وعيسى وصيه شمعون ومحمد وصيه علي. والامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق هو المهدي، خاتم الولاية المحمدية، وهو ولي الزمان والامام المنتظر وقائم الحق وصاحب الكشف.

ويقول العالم الاسماعيلي الداعي احمد حميد الدين الكرماني في وجوب الامامة. «ولا كان من المقدور ان يكون من يجيء الى الكون من البشر الى يوم

(***) كتاب الامام والأمامة، الدكتور يوسف ايبش، ص ٩٤ .

القيامة، موجوداً جملة، ولا كان مقّدراً ان يبقى الرسول في العالم سرمدياً الى ان تنصرم الأمم ويؤدي اليهم امانة لديه، وجب ان ينصب من يقوم مقامه في اداء الامانة والنص على غيره ابداً اذا حان انتقاله، ومن ينصب لذلك هو الامام. اذاً الامامة واجبة»[٣٠].

وعن وجوب النص على الامامة، يقول الداعي الاسماعيلي احمد حميد الدين الكرماني: «ولما كانت نبوة الانبياء، التي هي الخلافة عن الله في أرضه من امضاء الأحكام بين عبيده، لا تصح الاّ بالنص من الله تعالى واختياره اياهم للقيام مقامه في الحكم والأمر والنهي. وكانت النبوة أصلاً للامامة، وكانت الامامة، التي هي فرع على النبوة، وهي الخلافة عن الرسول والقيام مقامه، اولى ان لا يصح الاّ باختيار الله تعالى واختيار رسوله والنص عليه. اذاً الامامة لا تصح الاّ بالنص والتوفيق»[٣١].

اما الأئمة الاسماعيلية فهم:

١ – علي بن ابي طالب توفي عام ٤٠هـ

٢ – الحسين بن علي بن ابي طالب توفي عام ٦٠هـ

٣ – علي زين العابدين بن الحسين توفي عام ٩٢هـ

٤ – محمد الباقر بن علي زين العابدين توفي عام ١١٥هـ

٥ – جعفر الصادق بن محمد الباقر توفي عام ١٤٨هـ

هولاء هم ائمة الشيعة قبل ان تفترق الى اثني عشرية والى اسماعيلية. اما الائمة الاسماعيلية الذين لا تعترف بهم الشيعة الاثني عشرية فهم:

١ – اسماعيل بن جعفر الصادق

ولد في المدينة عام ١١٠هـ، وهو صاحب النص الشرعي بالامامة. قيل انه مات عام ١٣٨هـ في المدينة، واثبت ذلك بموجب محضر رسميّ وقّعه بعض الفقهاء

(٣٠) كتاب المصابيح في اثبات الامامة، ص ٨١ .

(٣١) كتاب المصابيح في اثبات الامامة، ص ١٠٥ .

والعلماء وارسل الى الخليفة العباسي المنصور في بغداد كي يكف عن ملاحقة الامام اسماعيل. كما قيل انه توفي في عام ١٥٨هـ في البصرة حيث كان متخفياً عن عيون السلطة العباسية. كانت له ميول اعتزالية وكان صديق عمرو بن عبيد وابو الهذيل العلاّف المعتزليين.

٢ - محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق. ولد عام ١٣٢هـ في المدينة. ذهب مستتراً الى الكوفة، خوفاً من الخليفة العباسي المنصور أبو جعفر عبدالله (١٣٦ - ١٥٨هـ) الذي تشدد في ملاحقة واضطهاد آل البيت. ومن الكوفة ذهب الى «الري» ثم سار الى خراسان ومنها الى قلعة النهوند بفرغانة، وانتهى في نيسابور حيث تزوج ابنة الأمير علي الهمذاني، ثم أتى تدمر من بلاد الشام حيث بقي حتى مات عام ١٩٣ هجري.

الامام محمد بن اسماعيل، هو الامام السابع، وبه سميت الاسماعيلية «بالسبعة»، هو عند الاسماعيلية المهدي المنتظر، قائم الحق، صاحب الكشف، ويقولون انه دخل كهف الستر وانه عند عودته من غيبته الى الظهور سيستقيم العدل في العالم ويمنع الظلم والجور ويستتب السلام والأمن، فيشرب الثور والأسد من وعاء واحد، والذئب يرعى الغنم، كما بظهوره ينتهي دور الامامة، وينشئ شريعة تعم العالم، وتنسخ ما قبلها من شرائع ويكون ظهوره في مكة حيث يقتل المشركين ومن ظلم آل البيت، وبذلك يبدأ الدور السابع والأخير من تاريخ البشرية.

٣ - الامام عبدالله بن محمد بن اسماعيل (وفي احمد). نقل مركز الدعوة الى سلمية في بلاد الشام واقام بها مستتراً. وعندما اختلف كبار الدعاة، ذهب الى «دير عصفورين» ثم رجع الى «سلمية» تلبية لطلبهم. يقال انه هو الذي اشرف على كتابة «رسائل اخوان الصفا». توفي في بلدة مصياف في بلاد الشام عام ٢١٢ هجري.

٤ - الامام احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل (تقي محمد). ولد في «سلمية» عام ١٧٩هـ. نقل الدعوة الاسماعيلية من طور التأسيس الى طور الانتشار. درّب الدعاة في «سلمية» وأرسلهم الى البلاد الاسلامية، وفي عهده بلغت الدعوة اوجها. جمع «رسائل اخوان الصفا» وكتب «الرسالة الجامعة». توفي عام ٢٢٥ هجري ودفن في مصياف.

٥ – الامام الحسين بن عبدالله الملقب بالاهوازي او رضي الدين. ولد في مصياف ولكن نشاطه واقامته كانا في «سلمية».

الامام حسين بن عبدالله أرسل قاسم بن حوشب الى اليمن حيث نشر الدعوة الاسماعيلية. وكذلك التقى بحمدان بن الأشعث المعروف بالقرمطي وادخله في الدعوة الاسماعيلية. في عهده بلغت الدعوة الاسماعيلية اعلى مستوى من الانتشار في البلاد الاسلامية. توفي في «سلمية» عام ٢٨٩ هجري(*).

اما ابنه عبيدالله المهدي، فقد هرب من «سلمية» الى شمال افريقيا خوفاً من القرامطة، الذين ارادوا قتله، وتلبية لطلب الداعي عبدالله الشيعي الذي اكد له ان بلاد شمال افريقيا اصبحت تحت السيطرة الاسماعيلية.

اتى عبيدالله المهدي شمال افريقيا، وبمساعدة الداعي عبدالله الشيعي، أسس الدولة الفاطمية، فانتهى دور الاسماعيلية السياسي وبقيت عقيدة دينية فكرية حتى انتهاء الدولة الفاطمية.

وفي العقيدة الشيعية لا يجوز النص بالامامة الاّ على آل البيت وجعلها وراثة فيهم. وهي تسلسل من الأب الى الابن. وآل البيت هم من نسل علي بن ابي طالب وفاطمة بنت الرسول الكريم.

والمؤرخ المصري المعاصر محمد عبدالله عنان يقول: «كانت الامامة شعار الدولة الفاطمية ودعامة رياستها الدينية والزمنية تؤكد اهميتها وقدسها في كل مناسبة، وتحرص أشد الحرص على رسومها ومظاهرها[٣٢] ثم يقول: «ان نظرية الاسماعيلية من الناحية العملية، لم تكن تراث أمة هداها الله الى الاسلام، انما كانت تراثاً شخصياً لأسرة النبي، وان النبي أوصى بهذا الميراث الى ابن عمه علي بن ابي طالب زوج ابنته فاطمة، ومن بعده الى ابناء ولديه الحسن والحسين، وهكذا تغدو رئاسة الأمة الاسلامية، وفقاً لتأويلاتهم، ميراثاً خاصاً لا يليها حتى يوم القيامة احد

(*) يختلف المؤرخون في الامام حسين بن عبدالله، الاهوازي. منهم من قال انه كان اماماً مستتراً والبعض قال، انه كان داعياً لعبدالله بن ميمون القداح.

(٣٢) كتاب الحاكم بامر الله، ص ٣٤ .

سوى آل البيت» ثم يقول: «إنّا لنشعر شعوراً قوياً، بان صاحب الرسالة النبوية، كان برسالته أعظم وأجل واسمى من ان يعتبر الامة الاسلامية العظيمة، التي انشأتها عبقريته، يجب ان تغدو، بعد وفاته، ضيعة يختص برياستها ورعايتها آل البيت من ابناء علي دون سواهم الى الأبد»(٣٣).

اما انتقال الامامة الى العباسيين فيقول المؤرخون، ان بعد هزيمة «التوابين»(٣٤) في معركة «عين الورد» بالقرب من الكوفة عام ٦٥هـ، ثار المختار بن ابي عبيدة الثقفي وطالباً، باسم الامام محمد ابن الحنفية، وهو ابن الامام علي بن ابي طالب من زوجته خولة بنت قيس من بني حنيفة(٣٥)، بدم الامام حسين، كما نادى بالامام محمد ابن الحنفية، بالامام المهدي المنتظر الذي لم يمت بل يسكن جبل رضوى وسيرجع ليملأ الأرض عدلاً. فكان محمد ابن الحنفية اول امام مهدي منتظر.

انتهت ثورة المختار الثقفي عام ٦٧هـ عندما هزمه مصعب بن الزبير بمساعدة اشراف الكوفة ومعظمهم من اليمنيين. انتهى المختار ولكن الفرقة الكيسانية التي انشأها بقيت، ولكنها انقسمت الى ثلاث فرق أهمها الفرقة الهاشمية نسبة الى الامام عبدالله الملقب بأبي هاشم الابن الأكبر للامام محمد ابن الحنفية والذي مات عام ١١٨هـ في بيت محمد بن علي بن عباس في بلدة «الحميمة» وادعى العباسيون ان ابا هاشم، قبل وفاته، نص بالامامة على محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، وبهذا النص انتقلت الامامة الى بني العباس. وعند وفاة محمد بن علي عام ١٢٥هـ لقّب ابنه ابراهيم بالامام. بالاضافة، انضمت الفرقة الهاشمية العلوية الى العباسيين فأضفت على الدعوة العباسية الصيغة العلوية التي ساعدت العباسيين في ثورتهم على الأمويين، خصوصاً في خراسان حيث انضم اليمنيون العرب، وهم من اتباع العلويين، الى جيش ابو مسلم الخراساني العباسي.

---

(٣٣) كتاب الحاكم بامر الله، ص ٤٣ .

(٣٤) التوابون هم جماعة من كبار اهل الكوفة اعلنوا الثورة على الأمويين مطالبين بدم الامام حسين.

(٣٥) قالت الكيسانية ان الامام حسين نص بالامامة على اخيه محمد ابن الحنفية.

والجدير بالذكر، ان منذ وفاة الامام علي بن ابي طالب عام ٤٠هـ حتى امامة جعفر الصادق (٨٠ - ١٣٨هـ) وهو الامام الخامس عند الاسماعيلية، استشرت الفوضى في تنصيب الامامة عند الشيعة وذلك بسبب ادعاء الهاشميين ان «اهل البيت» هم سلالة عبد المطلب جد النبي ويحق لاحفاده تبوّء مركز الامامة، والامامة تصح في نص الامام السابق على من كان من سلالة عبد المطلب، وهكذا برزت امامة محمد ابن الحنفية وابنه ابي هاشم، وامامة الزيديين والعباسيين، حتى قال بعضهم، بامامة محمد بن عبدالله - النفس الزكية - واخيه ابراهيم.

بالرغم من رفض بعض فرق الخوارج، تمكن الامام جعفر الصادق من القضاء على هذه الفوضى وحصر الامامة في آل البيت، اي ابناء واحفاد الامام علي بن ابي طالب وزوجته فاطمة ابنة الرسول الكريم، وجعل الامامة لا تصح الاّ في نص الأب على الابن.

اما الامامة عند النصيرية (العلويين) وهم يفضلون لقب العلويين، نسبة الى الامام علي بن ابي طالب، الذي يقدسونه، فهي الامامة الشيعية الاثني عشرية مع تقديس، وحتى تأليه الامام علي.. النصيرية يقدسون الثالوث المقدس عندهم «عمس» وهي الاحرف الاولى من اسماء علي ومحمد وسلمان الفارسي.

يعيش النصيريون اليوم في جبال النصيرية في سورية وساحل جنوب تركية وهم شيعة ملّوا انتظار الامام الغائب، محمد بن الحسن العسكري، المهدي المنتظر، وصعب عليهم ان يبقوا دون امام يهديهم ويرجعون اليه في الصعاب ويشرح لهم معتقداتهم ويفسر لهم القرآن، فاستعاضوا عن الأمامة، التي جمدت بانتظار المهدي الامام الغائب، بوكلاء للامام اسموهم ابواب. يرجع النصيريون الى القرآن لتفسير الباب ويعتمدون الآيات التالية. «...وادخلوا الباب سجّداً وقولوا حِطّةٌ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين»[٣٦]. «ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين»[٣٧]. ثم قول النبي الكريم «انا مدينة العلم وعلي بابها».

---

(٣٦) سورة البقرة، آية ٥٨ .

(٣٧) سورة المائدة، آية ٢٣ .

الباب، هو سلمان الفارسي، وكيل الامام ونائبه يتمتع بالعصمة وبالعلم الالهي، يحق له تأويل الآيات وتفسير الباطن، وهو طرف من الثالوث المقدس «عمس» اي علي، محمد، وسلمان. كما يعتبرون ابو شعيب محمد بن نصير النميري باب الامام الحسن العسكري.

ويقدم النصيريون الامام علي بن ابي طالب على النبي محمد، وهذا واضح من ثالوثهم المقدس «عمس» ويقولون في كتابهم ،المجموع «سيرة الفتح» «ان مولاي، أمير النحل علي، اخترع السيد محمد من نور ذاته، وان السيد محمد خلق سلمان من نور نوره وجعله بابه وحامل كتابه وسلسل وسلسبيل وهو بالحقيقة رب العالمين»[٣٨].

ويقول النصيريون: «ان الأئمة خلقوا قبل الخلق اجمعين يعلمون أسرار الكون وما بعد الكون، وهم معصومون عن الخطأ وموجودون الى الأبد. لهم يكون القضاء واليهم المرجع في معرفة الله وهم يمثلونه على الأرض ولهم تفسير القرآن»[٣٩].

اما اسماعيلية «قلعة الموت» في فارس[٤٠] وهم من الاسماعيلية النزارية، نسبة الى الامام نزار ابن الخليفة المستنصر بالله، وكان زعيمهم الداعي الاسماعيلي المشهور حسن الصبّاح الملقب بشيخ الجبل، وكان سفراً من أسفار البطولة الشيعية، فيقدسون الثالوث «عسم» اي علي، سلمان ومحمد.

ويفسر المستشرق الفرنسي هنري كوربان عقيدة الامامية عند اسماعيلية «قلعة الموت» بقوله: «انهم يقولون ان الامام هو رجل الله وانه الانسان المفضل، ليس الاّ اقراراً بكونه اداة سامية للباطنية وهذه الأخيرة مرهونة بتحقيق المعنى الحقيقي لكل الظاهر. ويعتقدون ان الامام قد وجد وموجود وسيوجد وانه قال: «يمر الأنبياء ويتغيرون، واما نحن فإنّا الباقون، وقد عرفت الله من قبل ان يخلق السموات والأرض»[٤١].

---

(٣٨) مخطوطة من المكتبة الوطنية في باريس، رقم ١٤٥٠ .

(٣٩) كتاب «التهفت» والاظلة. المفصل بن عمر الجعفي.

(٤٠) «قلعه الموت» تعنى بالفارسية « عش العقاب» وهي واقعة في جبال قرب مدينة قزوين، بنيت عام ٢٥٧ وكانت عاصمة الامامة النزارية، دمرها المغول عام ٦٥٤هـ.

(٤١) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان ص ١٦٢ .

ويقول عن سلمان الفارسي، انه الحجة في حالة نموذجها الأصلي. وقال الامام علي لأحد السائلين: «كن مؤمنا بي اجعلك شبيهاً بي مثل سلمان». اذن الحجة (سلمان) هو شبيه الامام والامام هو نائب الله على الأرض.

وتقول اسماعيلية «قلعة الموت»، ان الناطق (النبي) بلّغ رسالة انزلت عليه وهي شريعة الظاهر، امّا الامام (علي) وحجته (سلمان) فلهما التأويل الذي يمثل عالم الدين وباطن الشريعة، ونتيجة ذلك تراجع في مرتبة المعطاة للناطق (النبي) المبلّغ للشريعة، وارتفاع مرتبة الامام (علي) والحجة (سلمان) ثم تحل مرتبة الامام وحجته محل منزلة النبي»[٤٢].

اذن يعتبر اسماعيلية «قلعة الموت»، النبي مبلغاً للشريعة، فيكون الداعي الذي يدعو الناس نحو الامام وحجته اللذين يمثلان المعنى المستور الباطني لهذه الشريعة، ولهذا اعتمدوا «عسم» ثالوثهم المقدس، وقدموا الامام (علي) والحجة (سلمان) على الناطق (النبي). كي لا نترك فجوة في دراستنا عن الامامة، لا بد من الاشارة الى الامامة الزيدية، التي كانت انتفاضة علوية بدأت في عهد الخليفة العباسي المنصور ابو جعفر عبدالله (١٣٦ - ١٥٨هـ) وما زالت اثارها في اليمن حتى يومنا هذا[*].

الزيدية فرقة شيعية اثني عشرية من أتباع زيد بن علي (زين العابدين) احد حفدة الامام علي بن ابي طالب، قالوا، كغيرهم من الشيعة، بالنص على الامام، على ان يكون من نسل فاطمة ابنة النبّي. وان الامامة تكون في اولاد الحسن، او من اولاد

---

(٤٢) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان، ص ١٦٢ - ١٦٥ .

(*) قال الفقيه الكبير ابو حنيفه النعمان، وكان تلميذاً للأمام زيد بن علي «شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله، فما رأيت في زمانه افقه منه ولا اعلم ولا اسرع جواباً ولا ابين قولاً. كتاب الأئمة الاربعة، مصطفى الشكعه، ص ٥٣ .

اما الرافضة، التي برزت في ذلك الزمن، فهم فريق من غلاة الشيعة اتوا الامام زيد بن علي، الذي كان يقول بصحة خلافة ابى بكر وعمر بن الخطّاب وطلبوا منه ان يتبرأ منهما حتى يقاتلوا معه ويؤيدوه. فقال الامام زيد «بل اتولاهما واقر لهما بالخلافة، لا انا لنبيّ الله شفاعة جَدّي ان لم اوالهما». فقالوا: اذن نرفضك، فسميت الرافضة وهم فِرَق عديدة منها الكيسانية اصحاب «المختار» الذين قالوا بالوهية محمد ابن الحنفية ابن علي بن ابي طالب.

الحسين. كما اعترفوا بأبي بكر الصديق وعمر بن الخطّاب وعثمان بن عفان وحقهم بالخلافة، ولهذا لم يكن بينهم وبين السنة خلاف.

مؤسس هذه الحركة هو زيد بن علي (زين العابدين)، الذي اعتنق الاعتزال على يد واصل بن عطاء، زعيم المعتزلة فأثار غضب ونفور الأمويين، بالاضافة، طالب بحق العلويين بالخلافة وكان ذلك في أيام هشام بن عبد الملك. أرسل أمير العراق، يوسف بن عمر الثقفي جيشاً الى الكوفة فقضى على ثورة زيد بن علي وقتله. وقيل صلبه في شارع في الكوفة عبرة وانذاراً للعلويين.

من ائمة الزيدية البارزين كان محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب المعروف «بالنفس الزكية» الذي كان يرى انه احق بالخلافة من العباسيين، بصفته حفيد الحسن بن علي بن ابي طالب. وفي شهر رجب عام ١٤٥هـ اعلن «النفس الزكية» عن ثورته وطلب من اخيه ابراهيم ان يثور في البصرة حتى يقع المنصور بين نارين. ولكن ابراهيم تأخر بسبب مرضه عن الانضمام الى ثورة «النفس الزكية» مما اتاح الفرصة لجيش المنصور، الذي كان بقيادة الأمير الهاشمي عيسى بن موسى بن علي ان يقضي على الثورتين، واحدة بعد الأخرى، فقتل «النفس الزكية» في المدينة في رمضان سنة ١٤٥هـ وقتل ابراهيم قرب الكوفة في ذي القعدة في العام نفسه. ويقال، ان الامام جعفر الصادق نصحهم بالاخلاد الىالسكينة وتجنب العنف.

قام بالامامة بعد زيد بن علي ابنه يحيى وذلك في أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذين اعتقله والي خراسان نصر بن سيّار ولم يخلِ سبيله حتى مات في السجن. ويقال قتله صاحب الشرطة سلّم ابن احوز المازني.

وفي عام ٢٥٠هـ استولى الحسن بن زيد على طرستان وجرجان وأقام دولة زيدية في بلاد الديلم من فارس بقيت حتى ازالها الساميون عام ٢٨٧هـ، ولكن اعادها الى سابق ازدهارها حسن بن علي الأطروش فبقيت حتى عام ٣١٤هـ عندما احتلها امراء «الزيارية» وبذلك انهوا الحكم الزيدي في فارس.

وفي اليمن أسس يحيى بن الحسين، حفيد العالم الزيدي القاسم الراسي، امارة، جعل عاصمتها مدينة «صعدة» وذلك عام ٢٤٦هـ فكانت الدولة الزيدية الأولى

وبقيت حتى عام ٧٠٠هـ عندما ازالها الأيوبيون.

اما في المغرب فكانت دولة الادارسة، التي أسسها ادريس اخو الامام يحيى بن زيد، فبقيت حتى قضى عليها الفاطميون(*).

اما الموحدون الدروز فهم موضوع هذه الدراسة من الناحية الفكرية التاريخية وليس المذهبية. ولهذا سنحصر بحثنا في الأمور المتداولة بين الموحدين دون التعرض للأمور العقائدية التي يجب ان تترك لأصحاب المعرفة القيمين على مذهب التوحيد وحافظي سره. ان المعروف والمتداول هو قولهم عن الامامة «ان الامام لا يؤمّه احد ولا يشهد عليه، فهو الشاهد على جميع الخلائق، هو أمر الله النافذ في خلقه».

ويقول المفكر الفرنسي سلفستر دي ساسي، ان الدروز الغوا مرتبة الامامة فيقولون: «اذا قام بالتوحيد آخر قائم من الأئمة الطاهرين المهديين(**) وعرفنا ان صاحب الكشف هو صاحب القيامة واليه انتهت ادوار الامامة الذي ظهر فيها للعالم بالالهية والتوحيد وانه قد فرغ الدور الذي تسمى فيه بالامام(٤٣).

لا امامة عند الموحدين الدروز ومشيخة العقل تعتبر المرجع الديني والسيادة الروحية عندهم وينظرون اليها بكل احترام وتقدير ولكن لا عصمة لشيخ العقل ولا يحق له التأويل.

(*) اخر قائم من الأئمة الطاهرين، يقصدون الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق وهو الامام السابع عند الاسماعيلية، وصاحب الكشف وقائم الحق وامام الزمان.

(**) الأئمة المهديون هم: القائم بامر الله، المنصور بالله، المعزّ لدين الله، والعزيز بالله والد الحاكم بامر الله وهم من أصل الخليفة الفاطمي الاول عبيدالله المهدي الذي توفي عام ٣٢٢هـ. وقد استثنى من الأئمة المهديين الحاكم بأمر الله الذي، يعتبر الموحدون، انه تخلّى عن الأمامة عام ٤٠٨هـ الى حمزة بن علي بن أحمد الذي يعتبرونه خاتم الأئمة وبه انتهت أدوار الامامة بصفته قائم الحق وأمام الزمان وصاحب الكشف والقيامة.

(٤٣) كتاب دين الدروز، سلفستر دي ساسي، طبع في باريس عام ١٨٣٨ .



الموحدون الدروز والامامة

في هذه الحقبة من تاريخ الاسلام، اي القرن الثالث والقرن الرابع للهجرة، شكلت الامامة الخلفية الفكرية والسياسية لانقسام الاسلام الى شيَع وأحزاب وفرق متعددة.

وفي هذا السياق، كان التنافس على السيطرة على الامامة، احد الأسباب التاريخية لانطلاقة العقيدة التوحيدية الدرزية. وهذا التنافس بلغ ذروته بين الامام حمزة بن علي بن احمد الزوزني، والداعي محمد بن اسماعيل الدرزي (نشتكين) على اعتبار ان الامامة، في ذلك الزمن، مرتكز النفوذ والحكم الفعلي، الذي كان ممكناً ان يساعد على نشر الدعوة التوحيدية الدرزية.

قبل الخوض في متاهات هذا النزاع بين الموحدين على الامامة، لا بد من التوضيح بان للعقيدة التوحيدية بعض التلاقي مع المعتقدات الاسماعيلية التي كانت المرتكز الديني للحكم الفاطمي، او ما يمكن تسميته بالتوافق العقائدي الفلسفي بين العقيدتين، وذلك باعتمادهما فلسفة الفيلسوف اليوناني الاسكندراني افلوطين، المعروف بلقب الشيخ «الاسكندراني»، وكذلك مفهومهما للعقل والنفس والهيولى. كما وانهما يتلاقيان في عقيدة التوحيد، وذلك بنفي الصفات عن الله تعالى، ثم يقولون ان العقل هو الابداع الأول عن الله تعالى، مدبر الكون والارادة الالهية على الأرض، ثم عقيدة الامام المهدي المنتظر.

ويبدو من سيرة حمزة بن علي بن احمد، انه قد يكون اطلع على فلسفة الفيض اليونانية ابان دراسته في جامعة «جنديا سبور» في فارس، ولكن في الوقت نفسه، لا يمكن نفي احتمال اخذه هذه المعتقدات الفلسفية عن العقيدة الاسماعيلية[1] او من

(١) رسالة «تحفة المستجيبين» لأبي يعقوب السجستاني، توفي عام ٣٣١هـ. فيها بحث مستفيض عن فلسفة الفيض اليونانية كما يقول بها الموحدون الدروز.

«رسائل اخوان الصفا «المشبعة بها والتي كانت منتشرة في ذلك الوقت. ولكن من الصعوبة بمكان، وخلافاً لما يقوله بعض المؤرخين، الجزم بوجود جذور مشتركة للعقيدة التوحيدية الدرزية مع المعتقدات الاسماعيلية لاختلافهما في بعض العقائد الاساسية كنسخ الفروض وغيرها، او القطع بان العقيدة التوحيدية منبثقة عن العقيدة الاسماعيلية او انها وليدتها.

ان عقيدة التوحيد الدرزية، من واقع ما لدينا من وثائق، وليدة نفسها، وهي انتفاضة فكرية محدودة، تشمل ايحاءات وتمنيات اجتماعية مرتكزة على طروحات فلسفية يونانية مقتصرة على فلسفة الفيض وتأثير من الفكر الصوفي والحكمة الهندية التي تسربت لاحقاً الى الفكر الاسلامي بواسطة بعض الفلاسفة كأبي الريحان محمد بن احمد البيروني.

الاسماعيلية، وهي فرقة من الشيعة، تضع الامامة في قمة المعتقدات الدينية ولكنها تقول، عدا عن اسماعيلية «قلعة الموت» في فارس، ان الانبياء أفضل من الأئمة ودرجة «النبوة» ارفع واجل من الامامة. اما اسماعيلية «قلعة الموت» في فارس فيضعون مرتبة الامام الأول علي بن ابي طالب فوق مرتبة النبي محمد.

اما الموحدون الدروز فيذهبون ابعد، فيعتبرون ان الامام لا يؤمّ عليه احد ولا يشهد عليه، وهو الشاهد على جميع الخلائق كلها مضافة اليه. هو مرسل النطقاء (الأنبياء) بامانة التوحيد، هو أمر الله النافذ في العوالم. والنطقاء، ومن يجري مجراهم، فانما هم حجج الايمان ودعاة اليه. وكذلك يعتبرون ان للامام المرتبة الأولى بعد الحاكم، حاكم الكون والوجود، فهو ممثل الله على الأرض وحجته على خلقه(٢).

اذا ما رجعنا في التاريخ الى الشرق الأوسط، والى ما قبل الاسلام، نجد انه كان خاضعاً لسيطرة الفرس من جهة والروم من جهة اخرى، في حين كان القسم الأكبر من العرب يعيش في حالة بداوة في الصحراء، وعلى أطراف هاتين الدولتين. ولكن الاسلام بث في هذه القبائل روح المبادرة، فانطلقت جحافل المسلمين مزودة بسلاح

---

(٢) كتاب دين الدروز، سلفستر دي ساسي، ان هذه المعلومات هي معلومات تاريخية قريبة من العقيدة الاسماعيلية ولا علاقة مباشرة لها بالمذهب التوحيدي الدرزي او المعتقدات الدرزية.

الايمان بدين الله، لتفتح بلداناً غريبة عنها فكان الدين والايمان بالله حافزين لنصر مبين اذهل الجميع. بنظرة بسيطة، فقد استطاع البدائي ان يسيطر على الحضاري، والمعرفة الفطرية على التقدم العلمي، واذا بالفاتح الغازي يعلن ان كتاب الله انزل بلغة عربية، وان نبي الله عربي، والامامة والخلافة عربيتان، بالنسبة للسنة، من قريش وللشيعة من آل البيت. فاصبحت الشعوب غير العربية المسلمة، رغم حضارتها وتقدمها العلمي، في مرتبة دون العرب في عصر الاسلام، خصوصاً ان الاسلام لم يمنحها اي حق في الامامة او في الخلافة. باختصار، كانت شعوب المنطقة سيدة نفسها، فأصبحت شقيقة للعرب في الدين ولكنها لا تقاسمها الحق في الحكم.

اعتبرت هذه الشعوب المسلمة، ولكن غير العربية، ان الامامة هي الطوق الذي يحاصرها ويشل طموحها في استعادة مجدها الغابر واسترجاع نفوذها السابق، فلا غرابة اذاً ان تثار عصبيتها العنصرية التي عرفت ايضاً «بالشعوبية» وان يذكّر الشاعر الفارسي مهيار الديلمي العرب بأمجاد ابائه في قصيدته الشهيرة التي يقول فيها:

لا تخالي نسباً يخفضني	انا من يرضيك عند النسب
قومي استولوا على الدهر فتى	ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم	وبنو ابياتهم بالشهب
وابي كسرى على ايوانه	اين في الناس اب مثل ابي
قد قبست الدين عن خير نبي	وورثت المجد عن خير أب
فضممتُ المجد من اطرافه	سؤود الفرس ودين العرب

يقضي اولاً باخراج الامامة من قريش وآل البيت وجعلها متاحة لجميع المسلمين مما يمنح الفرس وغيرهم من الشعوب المسلمة، فرصاً اوفر في تبوء مواقع القيادة السياسية في الاسلام(*).

(*) عند وصول الجيوش المسلمة الى «المدائن» لم يسمح للصحابي الكبير سلمان الفارسي ان يؤم الصلاة لأنه من اصل غير عربي.

وهنا يجوز الافتراض بأن الانتفاضة التوحيدية الدرزية لم تكن بعيدة عن المؤثرات الفكرية والعوامل السياسية الفارسية، خصوصاً ان القسم الأكبر من دعاة الاسماعيلية الاوائل، ومعظم الفلاسفة والمفكرين الاسلاميين، كانوا من الفرس.

مما يلفت النظر، ان الفرس الذين قدموا الى مصر في العهد الفاطمي، وكانوا يأتون باعداد كبيرة، لم يلتحقوا بجهاز الحكم، اي بالدولة او بالجيش، كالصقالبة والمغاربة والترك، بل عملوا دعاة يبثون الدعوة الاسماعيلية، منهم على سبيل المثل، داعي الدعاة ختكين الضيف، الفيلسوف احمد حميد الدين الكرماني، حسن حيدرة الفرغاني (الاخرم) وغيرهم، مما جعل علاقتهم المباشرة مع اصحاب الفكر من جهة، وعامة الشعب من جهة اخرى، حيث تمكنوا من بث افكارهم السياسية، التي كانت في بعض الأوقات لا تتفق مع سياسة السلطة العربية.

كما قلنا سابقاً، انحصرت الامامة عند الشيعة تسلسلاً في اعقاب الامام الأول علي بن ابي طالب من زوجته فاطمة ابنة الرسول الكريم، وهذا التقليد كان مقدساً عندهم. فالامام الأب ينص على امامة احد اولاده، وهكذا بالتتالي، كما لا يجوز ان تنتقل الامامة من أخ الى أخيه، ولذلك لا تعترف الاسماعيلية بامامة الحسن بن علي بن ابي طالب، بل تعتبره إماماً مستودعاً، اي نائباً لأخيه الامام الحسين عند غيبته.

عبر التاريخ الشيعي الاسلامي جرت ثلاث محاولات للخروج على هذا التقليد، فكانت النتيجة، قسمة الشيعة الى احزاب وفرق وصدامات سياسية، بل ودموية، كادت احداها تقضي على الخلافة الفاطمية.

المرة الاولى كانت في خروج الامام جعفر الصادق عن هذا التقليد، عندما نص بالامامة على ابنه موسى الكاظم بدلاً من اعطائها الى حفيده محمد بن اسماعيل المنصوص عليها من والده اسماعيل بن جعفر، وهو العقب الأول. وعلى الأثر انشقت الشيعة الى فئتين، الشيعة الاسماعيلية (السبعية) وهم اتباع الامام اسماعيل، والشيعة الاثني عشرية وهم اتباع الامام موسى الكاظم، وهؤلاء يشكلون اليوم معظم شيعة ايران، والعراق، ولبنان وشيعة شرق الجزيرة العربية. اما الاسماعيليون فينتشرون في سلمية (سوريا) والهند وباكستان، وتوجد نسبة قليلة في ايران واليمن.

اما الخروج الثاني على تقليد الامامة، والذي كان له تأثير اساسي ومباشر على

حركة التوحيد الدرزية، وفي الوقت نفسه، كاد ينهي الخلافة الفاطمية، وذلك عندما عيّن الخليفة الحاكم بأمر الله عام ٤٠٤هـ ابن عمه عبد الرحيم بن الياس[٣]، وهو حفيد الخليفة عبيد الله المهدي مؤسس الخلافة الفاطمية، خليفة له وولي عهده، فثار عليه غلاة الاسماعيلية، بتحريض من ست الملك أخت الحاكم بامر الله وداعي الدعاة افتكين الضيف، فاضطر الخليفة الحاكم لاحقاً الى ابعاد ابن عمه عبد الرحيم بن الياس من القاهرة وعيّنه والياً على دمشق لتفادي الصدام مع غلاة الاسماعيلية[*] وبعض قادة الجيش من الكتاميين المغاربة المقربين من ست الملك، مما كان قد يؤدي الى زعزعة الخلافة الفاطمية. وقيل ان ست الملك قالت للحاكم، امام جمع من العلماء وقادة الجيش، «يا أخي لا تجعل خراب هذا البيت عن يدك».

اللافت في هذا السياق، انه عندما اختفى الحاكم عام ٤١١هـ وتسلمت اخته ست الملك الحكم لمدة قصيرة، استدعت عبد الرحيم بن الياس من دمشق وامرت بقتله للقضاء على بدعة الانحراف عن تقليد نص الامامة من الأب الى الابن.

اما في ما يختص بحركة التوحيد الدرزية، حفزت هذه المحاولة، من قبل الخليفة الحاكم بامر الله، سعي كل من محمد بن اسماعيل[٤] الدرزي (نشتكين) وحمزة بن علي بن احمد للاستيلاء على الامامة لاقتناعهما بأن الحاكم بأمر الله لا يلتزم التقليد الشيعي بحصر الامامة في العقب وفي آل البيت وحجبها عن عامة المسلمين، ولكن

---

(٣) عبد الرحيم بن الياس ملعون عند الموحدين الدروز لقتله، مع حلفائه بني مرداس، خلال وجوده والياً في دمشق آلافا منهم وأرسل الى وادي التيم جيشاً لقتالهم وإبادتهم.

(*) عيّن الحاكم بامر الله عبد الرحيم بن الياس عام ٤٠٤هـ خليفته وولي عهده بالرغم من استنكار ومعارضةغلاة الاسماعيلية. بقي عبد الرحيم بن الياس في منصبه حتى شهر جمادى الثانية عام ٤٠٩هـ عندما أرسله الحاكم والياً على دمشق نتيجة ضغط كبار القادة المغاربة لاقالته وذلك بسبب اصرار ست الملك شقيقة الحاكم وقد كانت على علاقة متينة مع كبار قادة المغاربة التي كانت تفضلهم على الأتراك المشارقة الذين كانت تخاف من سيطرتهم على الحكم كما فعلوا في بغداد.

(٤) ان اسم محمد بن اسماعيل انتحله نشتكين الدرزي زوراً كي يوهم الاسماعيلية انه من شيعة الامام الاسماعيلي المستتر، محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق صاحب الكشف وقايم الحق وامام الزمان.

هذه المحاولة باءت بالفشل وأدت الى انقسام الموحدين الى فئتين، فئة مع حمزة بن علي والأخرى مع نشتكين الدرزي.

ويقال ان الحاكم بأمر الله نص على امامة حمزة بن علي عام ٤٠٨هـ وان نشتكين الدرزي أقر بامامة حمزة ولكنه انقلب فيما بعد وادعاها لنفسه وتلقب بسيف الايمان وسيد الهادين. ارسل اليه حمزة بن علي رسالة يؤنبه على انكاره امامته ويطلب منه الكف عن هذا الانحراف الذي قد يسبب المتاعب للدعوة التوحيدية.

ان اللافت للانتباه ان الذين سعوا للاستيلاء على الامامة كانوا من أصول فارسية، اي حمزة بن علي بن احمد، ومحمد بن اسماعيل الدرزي (نشتكين)، كما وان معظم اتباعهم كانوا من الفرس والمغاربة، فيما خلا «الحدود»، الذين انتقاهم حمزة بن علي، فكانوا عرباً، حتى محمد وهب القرشي يرجع نسبه الى قريش عائلة النبي محمد.

اما محمد بن اسماعيل الدرزي (نشتكين) فقد كان داعياً اسماعيلياً فارسياً من مدينة بخارى، قدم الى القاهرة عام ٣٩٦هـ، كالآلاف غيره من دعاة الاسماعيلية الفرس، على اعتبار ان القاهرة كانت حاضرة العلم وعاصمة الفاطميين وملتقى اصحاب الفكر الشيعي وفيها «دار الحكمة» مركز لتعليم وتدريب الدعاة الاسماعيلية.

استقر محمد بن اسماعيل الدرزي في القاهرة وتقرب من الخليفة الحاكم بأمر الله الذي عيّنه مديراً على بيت المال، فأصبح له نفوذ كبير حتى قيل ان كبار الناس وبعض قادة الجيش كانوا يقفون ببابه يطلبون المساعدة والتوسط لهم مع الحاكم.

الّف محمد اسماعيل الدرزي كتاباً عن عقيدة التوحيد سمّاه «الدستور» ولكنه اتلف ولم يبق من اثاره الاّ بعض المقولات، التي لا تؤكدها المراجع التاريخية الاسماعيلية، ولكن يشير اليها بعض المؤرخين في كتبهم عن تاريخ الفاطميين.

عندما قدم حمزة بن علي بن احمد الزوزني(٥) الخراساني الى القاهرة عام ٤٠٥هـ سكن في جامع ريدان وخلال وجوده في القاهرة زوّج شقيقته الى الداعي

(٥) الزوزني نسبة الى مولده في بلدة «زوزن» في خراسان من فارس.

الاسماعيلي القائد الفاطمي العربي اسماعيل بن محمد التميمي، المعروف عند الموحدين الدروز بلقب «ابو ابراهيم» والذي اشتهر باقدامه وشجاعته خلال معارك خاضها عندما كان قائداً في الجيش الفاطمي.

عرّف الداعي الاسماعيلي، علي بن احمد الحبّال، حمزة بن علي على محمد بن اسماعيل الدرزي «نشتكين» فأصبح نشتكين تلميذاً لحمزة يرافقه الى «دار الحكمة» حيث يشارك حمزة في الجدل الفلسفي والعقائدي مع الدعاة والعلماء الاسماعيلية.

كان حمزة بن علي من اكبر علماء عصره، متضلعاً ومرجعاً كبيراً في العلوم الدينية والفلسفية وهو من خريجي جامعة «جندياسبور» الفارسية التي انشأها كسرى انوشروان وكانت تدرّس فيها علوم الدين والفقه، وخصوصاً، الفلسفة اليونانية التي شجع على انتشارها الخليفة العباسي المأمون عبدالله بن الرشيد (١٩٨ - ٢١٨هـ).

في عام ٤٠٧هـ وقع خلاف في جبل السمّاق[٦] قرب مدينة حلب، بين اصحاب الأراضي والفلاحين، ومعظم هولاء كانوا من القرامطة الذين استوطنوا مدينة حلب وجوارها بعد النزوح النهائي لجيش القرامطة أثر هزيمته وحليفه افتكين التركي العباسي في معركة الرملة عام ٣٦٨هـ على يد القائد الفاطمي جوهر الصقلبي والجيش الفاطمي، في عهد الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ). ثم كان اتفاق قادتهم، بزعامة جعفر الجنابي ابن عم القائد القرمطي المشهور «الحسن الأعصم»، الذي كان توفي في الرملة قبل المعركة بشهرين، فخلفه جعفر في قيادة الجيش القرمطي واتفق مع الخليفة العزيز بالله على مبلغ سبعين ألف دينار يدفع لهم سنوياً على أن لا يعود القرامطة الى بلاد الشام، وبذلك انتهت حروب القرامطة، ولكن بقي منهم فلول في جبل السمّاق وضواحي دمشق وحلب ووادي التيم[٧].

وقيل ان الخليفة الحاكم بامر الله أرسل محمد بن اسماعيل الدرزي (نشتكين) لتسوية هذا الخلاف، الاّ ان الدكتورة نجلا ابو عز الدين، تنفي هذه المقولة وتقول:

---

(٦) يطلق الموحدون اسم «جبل الأنوار» على جبل السمّاق الذي يتألف من قرى قرب حلب.

(٧) كتاب تكملة تاريخ الطبري، محمد عبد الملك الهمذاني ص ٢٢٧ . ويقول ابن الأثير في كتاب «الكامل في التاريخ» مجلد ٨ ص ٤٨٧ ان المبلغ كان ثلاثين الف دينار.

«فالدرزي لم يغادر مصر وقد قتل والدعوة لم تزل في بدايتها، والدروز يتبرأون منه»[8].

ويقول بعض المؤرخين، ان نشتكين الدرزي، بعد انتهاء مهمته في جبل السمّاق، توجه الى وادي التيم[9] الذي كان مأهولاً انذاك بجماعات من القرامطة، فنشر فيهم دعوة التوحيد، ولذلك أطلق لقب الدروز على الموحدين، اي اتباع نشتكين الدرزي.

اننا لا نعرف عن محمد بن اسماعيل الدرزي (نشتكين) الاّ انه كان داعياً اسماعيليا ومديراً لبيت المال ومن المقربين الى الحاكم بأمر الله. التحق نشتكين بحمزة بن علي عند قدومه الى القاهرة عام ٤٠٥ هـ ثم انفصل عنه وحاول اغتصاب الامامة، ثم كانت محاولته لنشر الدعوة التوحيدية بالعنف، بالرغم من تحذير حمزة بن علي، فكانت ان باءت بالفشل.

اما عن تفكير نشتكين الدرزي العقائدي فيُعطينا بعض المعلومات المستشرق «مارشال هودجسون»[10] فيقول: «ان يحيى بن سعيد الانطاكي، يقول ان نشتكين الدرزي في كتابه «الدستور» قال: ان الحاكم هو الله، هو خالق الكون وجميع الموجودات»[11]. ثم يستطرد «مارشال هودجسون» قائلاً: «ان جمال الدين ابو المحاسن ابن تغري بردي قال: «ان الداعي الدرزي كان من غلاة الباطنية وانه في كتابه «الدستور» قال: «ان روح آدم تحولت الى علي بن ابي طالب، وروح علي الى والد الحاكم ثم تحولت الى الحاكم، ويعطي الحاكم روح الالهية ليس اكثر – ثم يقول: «ان الامام علي وليس الناطق (النبي) هو العقل الكلي، ويرفع مرتبة الامام فوق مرتبة النبي».

---

(٨) كتاب الدروز في التاريخ، ص ١٣٢ .

(٩) تيم الله بن ثعلبة بطن من قبيلة ربيعة عاشوا في سواد الكوفة، اعتنقوا القرمطية وقدموا الى بلاد الشام حيث سكنوا الوادي المعروف اليوم باسم وادي التيم.

(١٠) المستشرق «مارشال هودجسون» استاذ في جامعة شيكاغو في الولايات المتحدة، كتب كتاب «الدرزي وحمزة في تاريخ الدين الدرزي، ص ٧ .

(١١) كتاب تاريخ الانطاكي، ص ٢٢٠ .

هذا جل ما وصل الينا عن نشتكين الدرزي، فهو كان فارسي الأصل من غلاة الباطنية (الاسماعيلية) يعتقد ان مرتبة الامام أعلى من مرتبة النبي وانه حاول الاستيلاء على الامامة مما اثار غضب حمزة بن علي والموحدين الدروز الذين يتبرأون منه ويلعنونه.

اما بالنسبة الى حمزة بن علي، الرائد الفعلي للدعوة التوحيدية، فانه اعتمد على مساعدة الخليفة الحاكم بأمر الله، فلم يحاول استقطاب أصحاب النفوذ في السلطة، فلهذا عندما غاب الحاكم، لم يكن للدعوة سند قويّ يدافع عنها او عن الموحدين، فكانت عرضة للاضطهاد والتنكيل والتشريد.

ويقول «مارشال هودجسون»: «لم تكن الحركة على مستوى رفيع ذي أهمية اذ لم يكن لها متنفذون في السلطة الحاكمة، ويظهر انها كانت تضم بعض الغرباء وبعض صغار التجار والجنود المغاربة»[١٢].

اما المحاولة الثالثة للخروج عن تقاليد النص الشيعي للامامة، اي النص من الأب الى الابن، فحدثت بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله ابن الخليفة الامام الظاهر لاعزاز دين الله وحفيد الخليفة الحاكم بأمر الله[١٣] عام ٤٨٧هـ وادت الى انقسام الاسماعيلية الى نزارية ومستعلية.

هناك شرح مستفيض عن هذا الحدث في فصل «الاسماعيلية» ولكن باختصار يمكن القول ان الخليفة المستنصر بالله تزوج ابنة امير الجيوش الارمني بدر الجمالي وولدت له ابناً سمّاه «أحمد» (المستعلي) وكان أصغر أولاد المستنصر.

عند وفاة الخليفة المستنصر بالله أبرز امير الجيوش «الأفضل» سجلاً بان الخليفة

(١٢) كتاب الدرزي وحمزة في تاريخ الدين الدرزي، ص ٩ . وكتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، ص ٦٩ .

(١٣) يتهم الموحدون الدروز الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بقيادة الحملة للتنكيل بهم واضطهادهم ولكن المراجع التاريخية تثبت ان الذي قاد الحملة الشرسة كان ست الملك شقيقة الحاكم وداعي الدعاة ختكين الضيف واما الظاهر لاعزاز دين الله، الذي كان تقياً ورعاً فقد حاول مساعدتهم ولكنه فشل امام معارضة ستّ الملك وختكين الضيف وغلاة الاسماعيلية. الظاهر لاعزاز دين الله سمح للموحدين بمغادرة مصر والهجرة الى بلاد الشام.

نصّ قبل وفاته بالامامة الى ابنه أحمد (المستعلي) وليس الى نزار ابنه الاول. ثار الامام نزار واتهم الأفضل بالتزوير ثم سار الى «الاسكندرية» مع أتباعه حيث تبعه الافضل فحصلت معارك ضارية أسر على أثرها الامام نزار وارسل مع جميع عائلته الى القاهرة حيث قتلوا إلا ابنه محمد الهادي، الذي أخذه الداعي المشهور «حسن الصباح» الى «قلعة الموت» في فارس ونادى به اماماً. وبذلك خلقت الفرقة النزارية المعروفة اليوم باسم الفرقة «الأغاخانية» وانقسمت الاسماعيلة الى فرقتين: النزارية والمستعلية.

منذ قدوم حمزة بن علي عام ٤٠٥ هـ الى القاهرة بدأ الموحدون يتحلقون حوله، ولكن نشتكين الدرزي، بعد ان كان تلميذاً لحمزة ومقراً لقيادته وامامته، حاول نقل رئاسة الدعوة اليه والاستيلاء على الامامة. فكتب اليه حمزة «فان كنت تدعي الايمان فاقرّ لي بالامامة كما اقررت بالاول، من غير ان تلعن احداً، لأن اللعنة لا تزيد في الدين ولا تنقص منه، وخاطب الناس بالتي هي احسن، فان مولانا يحب المحسنين، فان فعلت مالت قلوب العالم الينا وارتفعت السنتهم عنا»(١٤).

تحذير حمزة بن علي لم يثن نشتكين عن مبتغاه، بل زاد في غلوه ورعونته، فأطلق على نفسه لقب، «سيف الايمان وسيد الهادين» واستعجل اعلان الدعوة عام ٤٠٨ هـ، رغم تحذير حمزة له، فكان ان ثارت نقمة أهل القاهرة على نشتكين واتباعه بتحريض داعي الدعاة، ختكين الضيف، الذي كان يكره الموحدين، خصوصاً نشتكين الدرزي وحمزة بن علي ويدعوهم بأصحاب البدع ويتهمهم بالكفر. يجب ان لا ننسى، ان داعي الدعاة، ختكين الضيف، بطلب من ست الملك شقيقة الحاكم، استدعى المفكر الاسماعيلي الكبير احمد حميد الدين الكرماني لمساعدته في القضاء على اصحاب البدع والأفكار الغريبة في مصر.

تصدت لنشتكين الدرزي واتباعه من المغاربة، مجموعة من عامة الشعب، مع بعض الجنود الأتراك، فقتلوا نحو أربعين منهم، فأمر الحاكم بأمر الله باغلاق أبواب القاهرة لمدة ثلاثة أيام حتى استتب الأمن. قيل ان نشتكين طلب نجدة من حمزة بن

---

(١٤) كتاب مذهب الدروز، عبدالله نجار، ص ١١٢ .

علي الذي رفض نجدته قائلاً: «لقد حذرته من اعمال العنف والطيش فلم يقبل نصيحتي».

وعقب ذلك، سعى نشتكين بطرق مشبوهة وغير شريفة، منها استعمال المال، الى اقناع بعض أهل الشغب من العامة، ومنهم بعض جنود الأتراك، بالهجوم على جامع ريدان حيث كان حمزة معتكفاً مع قلة من أتباعه الموحّدين لا يزيد عددهم عن اثني عشر موحداً، منهم خمسة شيوخ وأولاد.

صمدت هذه القلة من الموحدين ودافعت بضراوة وشجاعة فائقة، حتى أطلّ الحاكم بأمر الله على شرفة قصره فارتد المهاجمون عن الجامع، ويقال ان نشتكين الدرزي قتل في تلك المعركة، والأرجح بعدها بقليل، ولكن بعض المؤرخين قال انه تمكن من الهرب بمساعدة بعض اعوانه من أصحاب النفوذ وذهب الى بلاد الشام فنشر الدعوة هناك.

وعام ٤٠٩ هـ أمر الحاكم الموحدين ان يوقفوا نشاطهم ويلتزموا الهدوء، فعرفت تلك السنة، «بالغيبة الصغرى». ولكن في عام ٤١٠ هـ رجعوا الى نشاطهم، وفي تلك السنة كتبت معظم رسائل الحكمة.

وفي شهر شوال عام ٤١١هـ أرسل الامام[١٥] حمزة بن علي وفداً مؤلفاً من عشرين شخصاً الى قاضي القضاة احمد بن العوّام[١٦] يطلب منه نشر الدعوة التوحيدية واعلان تأليه الحاكم بأمر الله، والكف عن محاكمة الموحدين. الاّ ان

---

(١٥) قيل ان الحاكم بأمر الله نص على امامة حمزة بن علي عام ٤٠٨هـ.

(١٦) هو ابو العباس احمد بن محمد بن عبدالله بن احمد علي بن يحيى بن الحارث بن ابي العوّام الفقيه الحنفي. ولد في مصر عام ٣٤٩هـ من بيت أهل علم وكان سنّياً على مذهب الحنفية، ولاّه الحاكم بأمر الله قضاء مصر عام ٤٠٥هـ بعد مقتل القاضي مالك بن سعيد الفارقي واعترض على ذلك جماعة من غلاة الاسماعيلية وقالوا للحاكم «انه ليس على مذهبك ولا على مذهب من سلف من آبائك». قال: «هو من أهل مصر، ثقة مأمون عارف بالقضاء». ثم اضاف اليه احكام برقة والشام وجعل له ايضاً النظر في المعيار ودار الضرب والمساجد والمواريث. كتاب مصر في سنتي ٤١٤ و ٤١٥ . محمد بن عبيدالله المسبحي، ص ٢٣٩ .

القاضي ابن العوّام رفض دعوة الامام حمزة وحدثت مشادة عنيفة، ثار على أثرها الموجودون وقتلوا أعضاء الوفد. الاّ ان مصادر الموحدين تقول - قتل ثلاثة منهم فقط.

ثارت الجموع في القاهرة، تساندها مجموعة من الجنود الأتراك وأخذت تطارد الموحدين وتنكل بهم، فاختفى الامام حمزة مع جميع «الحدود» ويقال ان معظمهم ذهب الى الاسكندرية.

كما قلنا سابقاً، ان هذه الدراسة هي تفسير تاريخي لما حدث والعوامل الفكرية التي اثرت على هذه الأحداث المهمة، ولا علاقة مباشرة لهذه الدراسة بمعتقدات المذهب التوحيدي الدرزي ولكن التاريخ بمفهومه العلمي يعتمد على ثلاث حقائق. اولاها، اسباب الحدث، وثانيها حقيقة ما حدث، ثم النتائج التي نجمت عن الحدث. وما يهمنا في هذه الدراسة هو حقيقة ما حدث. اما الأسباب والنتائج فنتركها لأصحاب المعرفة المطلعين على حقيقة الأمور ولهم وحدهم تفسيرها.

ان القول بحقيقة ما حدث في اجتماع الموحدين مع قاضي القضاة احمد بن العوّام هو ما سجلته كتب التاريخ. اما اسبابه ونتائجه فهي، كما قلنا سابقاً، مسؤولية أصحاب المعرفة والقيمين على المذهب فعندهم المعرفة التامة بذلك.

بعد غيبة الحاكم بامر الله، الذي كان سنداً وحامياً للدعوة وللموحدين، زال نفوذ الذين ساندوا الدعاة من مواقع الحكم. فكان من الطبيعي ان يتعرض الموحدون للاضطهاد والتنكيل في غياب اي سلطة تحميهم او مسؤول يدافع عنهم، خصوصاً بعد أن انضمت ست الملك وبعض حاشية ربيبها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله الى المنادين بالقضاء على الدعوة وقتل دعاتها. وهكذا انتقلت الدعوة الى بلاد الشام حيث كانت يد الاضطهاد بعيدة عنهم ونفوذ الدولة الفاطمية وغلاة الاسماعيلية ضعيفين.

واللافت للانتباه هنا، ان الكتب التاريخية الاسلامية، وخصوصاً الاسماعيلية، لا تأتي على ذكر الدعوة التوحيدية الدرزية في تلك الحقبة، وقد يعود ذلك لكون غلاة الاسماعيلين، ومن بعدهم رجال الدولة الأيوبية، اتلفوا كتب الموحدين الدروز، او ان مدة انتشار الدعوة في مصر كان قصيراً لم يتعد بضع سنوات، فلم يكتب عنها الاّ القليل. بالاضافة، ان العقائد الفلسفية التي قامت عليها الدعوة التوحيدية،

كالفيض، والتوحيد والعقل وبعض العقائد الاسماعيلية المحدودة هي فلسفات قديمة معروفة تداولها الكثير من الفلاسفة والمفكرين في دراساتهم عن الفلسفة اليونانية والفكر الاسلامي، ولهذا لم تشكل عقائد جديدة تكون حافزاً لبحثها او تثير فضولاً ورغبة عند المفكرين لدرسها وتدوينها. ولهذا يمكن القول ان هذه العوامل كانت من اسباب الغموض المحيط بحقيقة الدعوة التوحيدية وتاريخها.

ويقول احد المؤرخين المعاصرين الدروز، ان كتاب «اخبار مصر وفضائلها وطرائقها وغرائبها وما بها من البقاع والآثار» للموحّد محمد بن عبيدالله المسبّحي، الذي عاش في ذلك الوقت في مصر، يحتوي على دراسة مستفيضة عن عقيدة التوحيد، وبما ان المسبّحي كان من الموحدين يكون لديه العلم الكافي والصادق عن نشأة المذهب، عقائده وتاريخه».

ان كتاب المسبّحي المهمّ (١٣٠٠٠ صفحة)، اتلف لسوء الحظ، ولم يبق منه إلاّ الجزء الأربعون[١٧] وهو بعنوان «تاريخ مصر في سنتي ٤١٤ و ٤١٥هـ. وبما ان عامي ٤١٤ و ٤١٥هـ هما من سني المحنة التوحيدية في مصر، فمن الطبيعي ان يحفل باخبار الموحدين وما نالهم من التنكيل والكوارث على يد غلاة الاسماعيلية[١٨]. ولكن للأسف، لم يأت على ذكر الموحدين واخبارهم الاّ اشارة عابرة، لا قيمة تاريخية لها، اذ يقول «سأل القائد: «معضاد» الحسين بن مفلح بن ابي صالح القلعي. «أنت من المنتظرة؟ – يعني موافاة الامام الحاكم بأمر الله – فقال: «معاذ الله»[١٩]. المنتظرة كان لقب الموحدين بعد محنة مصر أي انهم ينتظرون عودة الحاكم بأمر الله. هذا جل ما كتب عن الموحدين في هذا الجزء من كتاب تاريخ مصر بدلاً من ان يكون حافلاً باخبارهم.

---

(١٧) يحوي هذا الكتاب على ٢٩٢ صفحة من القياس الكبير وقد حققه وليم ج. ميلورد.

(١٨) المحنة الدرزية في مصر كانت من عام ٤١١ الى ٤١٧هـ. اي ست سنين وخمسة اشهر.

(١٩) كتاب تاريخ مصر سنة ٤١٤ و ٤١٥هـ، محمد عبيدالله المسبحي ص ٢٢٠.

من المعقول ان يكون المسبّحي[٢٠] تطرق الى عقيدة التوحيد في كتابه - «درك البغية في وصف الأديان والعبادات وذكر الملل والانبياء والمتنبئين، وذكر الفروض والآداب» - لأن هذا الكتاب هو عن الاديان، والفرق والملل التي كانت موجودة في ذلك التاريخ، ومنها ملة الموحدين.

وكما اشرنا سابقاً يقول المفكر الفرنسي سلفستر دي ساسي: «انهى الدروز دور الامامة عند ظهور صاحب «الكشف» اذ يقولون - اذا قام بالتوحيد آخر قائم من الائمة الطاهرين المهديين، وعرفنا ان صاحب «الكشف» هو صاحب القيامة، واليه انتهت ادوار الامامة»[٢١].

ويعتبر الموحدون الدروز ان «المهدي» يجب ان يكون علوياً من آل البيت وذلك حسب قول النبي «لو لم يبق في الدنيا الاّ يوم واحد، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث الله رجلاً مني، او من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي، واسم ابيه اسم ابي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً»[٢٢].

والمهدي يجب ان يظهر بعد اربعمائة سنة من ظهور النبي محمد، ولهذا يطابق هذا الوقت مع وقت ظهور الحاكم بأمر الله بدعوة التوحيد اي عام ٤٠٨ هـ، والحاكم بامر الله علوي من آل البيت، وامام اسماعيلي، ملأ الدنيا عدلاً واماناً. أمّا حمزة بن علي فهو المهدي المنتظر وصاحب الكشف وقائم الحق وله الولاية.

اما الاسماعيلية فيقولون، ان المهدي المنتظر، هو صاحب الكشف، قائم الحق وامام الزمان، هو الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق. ويقولون كذلك، انه

(٢٠) المسبّحي هو عز الملك ابو عبيدالله محمد بن عبيدالله بن احمد بن عبد العزيز المسبحي. ولد في مصر عام ٣٦٦ واصله من حرّان في سوريا. شغل منصب رئاسة ديوان الترتيب في عهد الحاكم بأمر الله وكان يحضر مجالس الحاكم واجتماعاته بصفة دائمة. وكذلك تمتع بمكانة كبيرة عند الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ابن الحاكم. امضى حياته في خدمة الدولة والتأليف فكتب ٣١ كتاباً في علوم الدين والتاريخ أتلف معظمها.

(٢١) كتاب دين الدروز. Exposé de la Religion des Druzes. Paris 1838

(٢٢) كتاب كشف الغمة في معرفة الأئمة. ابو الحسن فخر الدين ابو الفتح الاربلي، ص ٣١٢ .

يظهر دين الله، ويؤيد بنصر الله وملائكته فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً فهو المهدي المنتظر(*).

وفي كتاب «الشواهد والبيان» للمؤرخ الاسماعيلي جعفر بن منصور، ابن الداعي اليمني الكبير، ابن حوشب المعروف باسم منصور اليمن، وكتاب «افتتاح الدعوة» للقاضي النعمان بن محمد بن حيّون، توجد دراسة مستفيضة عن اهمية عقيدة الامام المهدي المنتظر، محمد بن اسماعيل بالنسبة للعقيدة الاسماعيلية.

ويطلق القاضي النعمان على الامام المهدي لقب «القائم بالحق والناطق بالصدق». ويقول ان الخلفاء الفاطميين، من أتى منهم سابقاً ومن سيأتي لاحقاً حتى يوم القيامة، هم خلفاء الامام الهادي محمد بن اسماعيل.

والشيعة الاثني عشرية تعتبر الامام الثاني عشر، محمد بن حسن العسكري، وهو الامام المحجوب يقيم في عالم فوق الوجود، لا يرى البشر حتى رجعته النهائية، فيختم المرحلة الحاضرة من عالمنا. لن يجيء بكتاب موحى جديد او شريعة جديدة، ولكنه سيكشف المعنى المستور لكل الايحاءات، فهو الباطن للحقيقة النبوية»[٢٣] .

تقول الاسماعيلية، ان المهدي المنتظر ينهي دور الامامة، ينسخ الشرائع ويأتي بشريعة جديدة تعم العالم. اما الشيعة الاثني عشرية فيقولون ان المهدي المنتظر لن يجيء بكتاب جديد وشريعة جديدة ولكنهم قالوا بانهاء دور الامامة.

بعد انهاء دور الامامة، استعاض الموحدون الدروز «بمشيخة العقل» التي تشكل امتداداً تاريخيا دينياً للامامة، وهي المرجع الروحاني لمشايخ الأجاويد.

ويقول المفكر كمال جنبلاط عن مشيخة العقل: «هي اشتقاق معنوي وامتداد تاريخي لفكرة الامامة، اي الرشاد والحكمة، وسلطة التوجيه والتقويم لمن تكون له. وهي نوعان؛ ولاية تنظيم ورعاية للمصالح الشرعية والروحية الظاهرة للجماعة،

(*) الامام الثاني عشر عند الشيعة الاثني عشرية هو محمد ابن الامام حسن العسكري وامه الأميرة البيزنطية «نرجس». توفي الامام حسن العسكري عام ٢٦٠هـ وفي اليوم بالذات دخل ابنه محمد وكان عمره خمس سنوات، سرداباً في سامراء واختفى. وهو يعتبر عند الشيعة الاثني عشرية المهدي المنتظر.

(٢٣) كتاب الشيعة الاثني عشرية. هنري كوربان، ص ٧٢ .

وولاية القسط فيما بينهم بالعدل، وولاية استرشاد بالمثل الأفضل والاهتداء بالولاء الأرفع واستئناس بالعرفان الأعلى وبالتوجيه الأصفى والأفضل»[٢٤].

الاّ ان السؤال الرئيسي الذي تتوقف عليه هذه الدراسة يبقى:

هل كانت دوافع محاولات السيطرة والاستئثار بالامامة من قبل حمزة بن علي دوافع محض شخصية، وتحديداً، السعي الى النفوذ والسيطرة والحكم، وبالتالي التفرد بالسلطة على مقدرات الأمة؟ ام كان الهدف كسب النفوذ لتسهيل انتشار الدعوة التوحيدية وحمايتها ودعمها من مركز قوة واستعمال السلطة المطلقة لنشرها وحمايتها؟

ويجوز التساؤل في هذا السياق ايضاً. هل كانت محاولة السيطرة والاستئثار بالأمامة موجهة لكسر الاحتكار العربي لها وللخلافة؟ وبالتالي محاولة فارسية للسيطرة على الحكم والتخلص من الهيمنة العربية واعادة مجد الفرس الغابر، وخصوصاً ان الذين قاموا بهذه المحاولة جلهم من الفرس والشعوب المسلمة غير العربية؟

من المعروف والمسلم به تاريخياً، ان الامام حمزة بن علي لم يتعاط او ينغمس في النزاعات السياسية فهو عالم كبير على اطلاع واسع في علوم الدين والفلسفة وكان جلّ همه وهدفه الوحيد نشر عقيدة التوحيد وهي عقيدة روحانية عقلانية لا علاقة لها بالسياسة او الممارسات الدنيوية وأسلوب الحكم.

من الصعب جداً الاجابة على هذه التساؤلات بالامانة التي تفرضها الموضوعية التاريخية وربما تكون خلاصة اي دراسة موضوعية في هذا السياق الابقاء على الغموض والاكتفاء بالواقع الذي نريده ان يبقى لدينا لأن الانسان قد ينغلق على نفسه احياناً ويرفض بعض الحقائق التاريخية اذا كانت مغايرة للمعتقدات الروحانية التي يعتنقها ولا تتفق مع الايمان الراسخ فيه، مع العلم ان التاريخ لا يبنى على التكهنات والافتراضات التي تفرضها عوامل نفسية غير مقيدة بالعقل.

---

(٢٤) مقدّمة كتاب «اضواء على مسلك التوحيد»، الدكتور سامي مكارم، ص ١٩ .

الاسماعيلية

- الاسماعيلية
- الفرق السبئية والخطابية واسرة القدّاح
- عودة الاسماعيلية للعمل السياسي
- الفرق الاسماعيلية
- العقائد الاسماعيلية والعقيدة الدرزية



الاسماعيلية

يقول المؤرخون ان الدعوة الاسماعيلية انطلقت في عهد جعفر الصادق وهو الامام الخامس[١] ووالد الامام اسماعيل التي عرفت الدعوة باسمه.

وكانت الدعوة سرية يعمل على نشرها الدعاة باشراف الامام اسماعيل وكانوا: ميمون القدّاح مولى الامام جعفر الصادق، المفضل بن عمر، وحمدان بن احمد. الاّ ان بعض غلاة الاسماعيلية يقول ان هذه الدعوة العقلانية التوحيدية التي انبثقت من داخل الانتماء الاسلامي الشيعي، ترجع جذورها الى عهد اسماعيل ابن النبي ابراهيم الخليل.

لما كان اصل الاسماعيلية من الشيعة، فان العودة الى تاريخ التشيع الاسلامي الذي بدأ بعد وفاة النبي الكريم وبعد اجتماع السقيفة حين بويع ابو بكر الصديق[٢] خليفة لرسول الله، من شأنها توضيح ظروف نشأة الدعوة الاسماعيلية ومبايعة ابي بكر الصديق في السقيفة، التي قال عنها عمر بن الخطاب[٣] «بانها كانت فلتة يجب قتل من يعيدها»، اثارت نفوراً واستياء عند بعض المسلمين، خصوصاً بني هاشم عائلة رسول الله وعلي بن ابي طالب. والجدير بالذكر في هذا السياق ان سادات الموحدين الأربعة هم: سلمان الفارسي، ابو ذر الغفاري، عمّار بن ياسر، المقداد بن الأسود

---

(١) جعفر الصادق هو الامام السادس عند الشيعة الاثني عشرية والامام الخامس عند الاسماعيلية اذ انهم لا يعترفون بالحسن بن علي بن ابي طالب اماما مستقراً بل اماما مستودعاً اي نائباً لأخيه الامام الحسين. الامام المستقر هو الثابت والمستودع هو المتجول.

(٢) اسمه عبدالله بن ابي قحافه واسم ابيه عثمان بن عامر وامه سلمى بنت صخر بن عامر. كان اول خليفة في الاسلام. تزوج النبي ابنته عائشة ام المؤمنين، هو من بطن تيم من قريش.

(٣) هو ابن الخطاب بن نفيل بن عبد العزّي بن عدي بن كعب وامه بنت هاشم بن المغيرة بن مخزوم. هو من بطن عدي من قريش.

ومعهم حذيفة بن اليمان المعروف بصاحب رسول الله(*) ومحمد بن ابي بكر. رفضوا مبايعة ابي بكر وشايعوا، من كانوا يؤمنون بأن الحق الشرعي بالخلافة لعلي بن ابي طالب فكانوا من اوائل الشيعة[٤].

اذن كان هذا التشيع حركة سياسية وحركة عربية تفصح عن مطامح شرعية، فعلي والعلويون لم يختلفوا عن سائر الأمة من حيث المعتقدات الدينية، بل بالعكس، كان علي بن ابي طالب مستشاراً لأبي بكر ولعمر بن الخطاب، وقد قيل «لولا علي بن ابي طالب لفشل عمر بن الخطاب في ادارة امور الخلافة». كذلك قيل ان الخليفة الفاطمي، الحاكم بأمر الله، عندما منع سبّ السلف قال: «كيف نسبّ أبا بكر وعمر بن الخطاب وقد كان جدي علي بن ابي طالب والعباس مستشارين لهما».

بعد عشرات السنين من استيطان المسلمين منطقة الشرق الأدنى، اخفق الشيعة، مع كل محاولاتهم التي نتج عنها اصطدامات دموية، من ان يحققوا ما يتطلعون اليه من الاستيلاء على الحكم، بسبب اضطهاد السنة لهم وتشبثهم في الحفاظ على السلطة، بالرغم من ان العلويين[٥] كانوا في ذلك الوقت، فرقة عربية اسلامية ولاؤهم الى آل البيت اقرب الناس الى الرسول الكريم وكان علي بن ابي طالب، الذي ينتمي اليه العلويون، اكثر من جاهد في سبيل الاسلام وابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة احب الناس الى الرسول.

في تلك الحقبة التاريخية التي شهدت التوسع الاسلامي الى خارج الجزيرة العربية، كان جمع غفير من شعوب العالم الاسلامي لم يصحّ اسلامهم بعد ولم يدخل الايمان الصحيح الى قلوبهم وجلهم كانوا من الفرس والأتراك والأرمن والسوريين، مما ساهم في زعزعة المعتقدات الاسلامية اذ اخذت موجة عارمة من

(*) حذيفة بن اليمان والده حسيل بن جابر العبسي وأمه رباب بنت عبد الأشهل الأنصاري. قتل ابوه في غزوة أحد، قتله احد المسلمين وهو يظنه من المشركين. ولاّه عمر بن الخطاب على المدائن ثم استدعاه الى المدينة وولى مكانه صديقه سلمان الفارسي. توفي عام ٣٦هـ وكان زاهداً متقشفاً من اتباع علي بن ابي طالب.

(٤) عند خلافته عيّن علي بن ابي طالب محمد بن ابي بكر الصديق والياً على مصر.

(٥) نقصد بالعلويين سلالة الامام علي بن ابي طالب وليس النصيرية الموجودين في جبال العلويين في سوريا الذين لقبوا كذلك بالعلويين لانتمائهم لعلي بن ابي طالب.

المعتقدات الغربية طريقها الى المذهب الشيعي تغذيها الأفكار المسيحية واليهودية والفارسية الى أن اصبحت الحركة الشيعية في يد الموالي والطبقات المضطهدة، ذريعة وحافزاً لثوراتهم الاجتماعية والدينية على السلطة الحاكمة.

ويقول المستشرق الانجليزي «برنارد لويس» «حينما اخذ التمايز العنصري بين العرب والموالي يزول شيئاً فشيئاً ويحل محله التمايز الاقتصادي بين اصحاب الامتيازات والمحرومين منها، اصبح الشيعة الثوريون لا يمثلون الموالي وحدهم بل اصبحوا لسان حال الطبقات المظلومة كلها. فصار «زرادشتيو» الطبقات الراقية من الفرس سنّة وبقوا على امتيازاتهم، واخذ فقراء عرب العراق وسورية والبحرين بالاراء الشيعية المتطرفة(٦)».

من المعروف أن الامامة، والأصح الزعامة، كانت في قريش قبل الاسلام، ولكنها انطلقت بقوة بعد اجتماع السقيفة ومبايعة ابي بكر الصديق، انذاك، كما قلنا، رفض بنو هاشم وبعض الصحابة هذه المبايعة، لايمانهم بأن الصاحب الشرعي للامامة ومستحقها بأعماله وجهاده وانجازاته في الاسلام هو علي بن ابي طالب، ولكي يثبتوا حقه في الامامة أوّلوا آيات من القرآن وبعض حديث النبي، ونادوا بعلي اماماً، وقالوا ان الامام أعظم من الخليفة لأن الخليفة ممثل الرسول والامام ممثل الله على الأرض(٧).

وقيل ان ردة فعل جماعة ابي بكر الصديق على ذلك ان نادوا بأبي بكر اماماً، وقالوا ان الخمسة من الصحابة الذين كانوا معه في اجتماع السقيفة، بايعوه بالامامة بقولهم «ان الرسول قال، ان الامامة تكون في قريش» وان الخليفة هو الذي يؤم الناس عند الصلاة. وقالت السنة، بما ان الذين بايعوا ابا بكر كانوا خمسة. اذن يجب ان تكون الامامة شورى بين الجماعة.

---

(٦) كتاب اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرامطة، ص ٦٠.

(٧) الامام عند الشيعة هو الملهم الهياً والمالك لعلم خاص وللتفسير التأويلي السري لفرائض الدين وهو القائد الشرعي الوحيد للبشرية.

نكرر ما قلناه في فصل الامامة عن الأئمة الشيعة وقد يبدو ذلك مملاً للقارئ ولكنه على قدر من الأهمية في تاريخ الاسماعيلية.

١ – ولد علي بن ابي طالب عام ٦٠٤ ميلادية الموافق لسنة ٣٠ من عام الفيل. والدته فاطمة بنت اسد بن هاشم بن عبد مناف. توفي ابوه وكان عمره ست سنوات فعاش في بيت ابن عمه النبي محمد بن عبدالله.

تزوج علي فاطمة ابنة رسول الله عام ٦٢٣ ميلادية وانجب منها الحسن والحسين ومحسن وابنتين، زينب وام كلثوم. وقيل انه عندما تزوج لم يكن يملك الاّ درعه وسيفه، فباع درعه بستين درهما ليدفع نفقات زواجه.

في ١٨ رمضان عام ٤٠ هجري قتل الامام علي بن ابي طالب في مسجد الكوفة على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم.

كان الامام علي الخليفة الوحيد بين الخلفاء الراشدين الذي ترك اثاراً فكرية وأدبية وفقهية ما زال يتداولها الناس حتى يومنا هذا، فله كتاب «نهج البلاغة» الذي قام بجمعه الشريف الرضي العلوي(٨).

٢ – الامام الحسن بن علي بن ابي طالب. ولد في المدينة في رمضان عام ٢ هجري. والدته فاطمة الزهراء ابنة الرسول. وقد اعتبرته الشيعة الأثنا عشرية والزيدية اماماً مستقراً، اما الاسماعيلية فاعتبرته اماماً مستودعاً(٩) اي وكيلا عن أخيه الامام المستقر الحسين.

تزوج الامام الحسن جعدة بنت قيس الكندي التي دست له السم في الطعام حسب طلب معاوية بن ابي سفيان، بعد ان وعدها بتزويجها من ابنه يزيد. توفي الامام الحسن في الخامس من ربيع اول عام ٥٠ هجري وكان عمره ٤٧ سنة.

٣ – الامام الحسين بن علي. ولد في الخامس من شهر شعبان عام ٤ هجري، والدته فاطمة الزهراء ابنة رسول الله، كنيته ابو عبدالله. استشهد الامام الحسين في كربلاء في العاشر من محرم عام ٦١ هجري وقتل من ابنائه في كربلاء علي الاكبر،

---

(٨) كتاب تاريخ الدعوة الاسماعيلية، ص ٧٨ .

(٩) الامام المستودع هو الامام الذي ينوب عن الامام الأصيل، اي، المستقر، في ظروف استثنائية ولا يستطيع توريث الامامة الى احد من اولاده.

ومحمد وعبدالله ولم يسلم منهم الاّ علي الاصغر المعروف باسم زين العابدين، الذي كان صغير السن ومريضاً. وكذلك قتل في كربلاء أربعة من اولاد الامام الحسن. اشتهر الامام الحسين بالشجاعة والاقدام والتقوى.

كان الامام الحسين يرمي الى استرجاع الخلافة من الأمويين وشجعته على ذلك الدعوات التي وصلته من اهل العراق، وبالرغم من نصح الناس للحسين بعدم المسير الى العراق وقولهم له. «ان قلوب اهل العراق معك ولكن سيوفهم مع بني أمية» لم يأبه وسار الى الكوفة وكانت معركة كربلاء ويذكره التاريخ بسيد الشهداء.

٤ - الامام علي «زين العابدين» بن الحسين. ولد في المدينة يوم الجمعة ٢٦ جمادى الآخرة عام ٣٨هـ. امه «جيهان شاه» بنت كسرى «يزردجرد» آخر ملوك الفرس.

توفي الامام زين العابدين عام ٩٥ هجري مسموماً بايعاز من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ودفن في البقيع. وفيه قال الشاعر الشيعي الفرزدق قصيدته الشهيرة، عندما أنكره هشام بن عبد الملك خلال حجه الى مكة.

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله بجده انبياء الله قد ختموا

ما قال لا قط الاّ في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

وليس قولك مَن هذا بضائره العرب تعرف من انكرتَ والعجمُ

ويقول ابن سعد في كتابه «الطبقات الكبرى» ان الامام علي زين العابدين كان ثقة، عالماً رفيعاً، ورعاً. وكان افقه الفقهاء صالحاً عابداً.

تزوج الامام علي زين العابدين فاطمة بنت الحسن بن علي فولدت له ابا جعفر الباقر وحسناً وحسيناً وعبدالله، ورزق من أم ولد تسعة اولاد آخرين.

٥ - الامام ابو جعفر محمد الباقر. ولد يوم الثلثاء من صفر عام ٥٧هـ. في المدينة وامه فاطمة بنت الحسن بن علي بن ابي طالب. كان عالماً وحجة وعرف بمدرسته العلمية حيث كان يدرس الدين والفقه، والتي درس فيها عدد من العلماء، واشتهر بكرمه الذي بلغ حدا الأسراف. تزوج ام فروة بنت القاسم بن محمد محمد

بن ابي بكر الصديق فولدت له جعفر الصادق وعبدالله وابراهيم وعبيدالله. مات في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عام ١١٧هـ.

٦ - الامام ابو عبدالله جعفر المعروف بالصادق. ولد في المدينة في السابع عشر من ربيع الأول عام ٨٣ هجري وامه كانت ام فروة بنت القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق. لقب بالصادق لصدقه في مقالته واعماله وهو صاحب مذهب الفقه الجعفري.

كان الامام جعفر الصادق بعيداً عن السياسة ومتاعبها مما جعله بعيداً عن اضطهادات الأمويين والعباسيين. وكان عالماً بالدين والفقه ومن تلامذته جابر بن حيان التوحيدي(١٠).

كان الامام جعفر الصادق من اعظم الشخصيات الاسلامية في عصره له مؤلفات عدّة منها: الجفر الأحمر، مصباح الشريعة، مفتاح الحقيقة وبحار الأنوار. تزوج الامام جعفر الصادق فاطمة ابنة الحسن بن علي بن أبي طالب فولدت له اسماعيل وعبدالله، ورزق من زوجته الثانية محمد واسحق وموسى وعلي والعباس.

ويقال ان جعفر الصادق مات مسموماً سنة ١٤٨هـ. عن عمر ٦٨ عاماً.

سبق وقلنا بعد موت الامام جعفر الصادق انقسم الشيعة بين الاثني عشرية التي قالت بأمامة موسى الكاظم، والاسماعيلية التي نادت بأمامة الابن الأكبر اسماعيل على أن الأمامة تصير بالنص من الأب الى الابن وليس من الأخ الى أخيه، وكان هذا الخلاف الذي سبب الانشقاق. الامام جعفر الصادق نص، بعد اختفاء ابنه اسماعيل، على ولده موسى الكاظم مع ان الامامة في المعتقد الشيعي تنحصر بالاعقاب ولا تنتقل من أخ الى أخيه ولا على رجوع النص القهقرى، وذلك تأويلاً للآية «وجعلها كلمة باقية في عقبة» اذن لا بد ان تكون في الأعقاب من دون غيرهم.

---

(١٠) من مشاهير المفكرين في القرن الثاني هجري، وخصوصاً في الكيمياء، وكان تلميذاً للامام جعفر الصادق وللعالم ابو سليمان السجستاني الذي تميز بالتضلع في علوم الفلسفة اليونانية وله كتاب «صوان الحكمة» في تاريخ فلسفة اليونان. لجابر بن حيان مؤلفات كثيرة يقال بلغت ثلاثة آلاف رسالة في الفلسفة والعلوم الطبيعية.

اما الأئمة الذين اسسوا العقيدة الاسماعيلية، التي هي محور هذه الدراسة فهم:[١١]

١ - الامام اسماعيل بن جعفر الصادق هو الابن الأكبر للامام جعفر الصادق، ولد في المدينة عام ١١٠هـ واليه ينتسب الاسماعيليون. والدته ووالدة شقيقه عبدالله كانت، كما اسلفنا، فاطمة ابنة الحسن بن علي بن ابي طالب. اما والدة اخوته موسى واسحق ومحمد وعلي والعباس فكانت جارية تدعى حميدة.

يقول مؤرخو السنة والشيعة الاثني عشرية ان سبب تحويل الامامة الى الابن الأصغر موسى الكاظم بدلاً من اسماعيل، يعود الى ان اسماعيل لم يكن يصلح للامامة لتناوله الخمر ولأنه كان من اصدقاء ابي الخطاب[١٢] الملحد الذي تبرأ منه الامام جعفر الصادق وكان رفيقاً لبسّام بن عبدالله الصيرفي، وهو من غلاة الخطابية وقد قتله الخليفة المنصور بحضور اسماعيل، تحذيراً وانذاراً.

بالاضافة الى علاقة اسماعيل بابن الخطاب، كان على علاقة قوية مع المعتزلة القائلين بعقيدة القدرية والذين يكرههم العباسيون وكانوا يعتبرون اقوالهم خطراً على الخلافة.

ويقول بعض المؤرخين ان سبب اختفاء اسماعيل يعود الى ان الامام جعفر الصادق، في احدى زياراته لبغداد، كان جالساً عند الخليفة جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ) عندما دخل اسماعيل ومعه شيخ المعتزلة، ابو الهذيل العلاّف العبيدي وكان الخليفة المنصور يخشى تعاليم المعتزلة ومن اشد المضطهدين لها، فصاح الامام جعفر الصادق بأبي الهذيل العلاّف: «قتلك الله، اتريد قتل ولدي!.» فانتبه جعفر المنصور لذلك وأمر عماله بقتل اسماعيل الذي فر الى البصرة التي كانت معقل المعتزلة. وكان هذا طبيعياً لأنه يقال ان اسماعيل كان منهم.

---

(١١) ان تاريخ هذه الحقبة من الزمن مبهم لأن كتب التاريخ الاسلامي عن الاسماعيلية كانت تهتم بالأمور الدينية ككتاب «الرشد والهداية» لابي حوشب منصور اليمن، كتب عام ٣٠٢هـ. اول كتاب ضم قليلا من التاريخ كان كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان عام ٣٤٦ .

(١٢) هو محمد بن ابي زينب الاسدي الذي كان يقول بالباطنية، وان الامامة في اولاد علي بن ابي طالب ثم قال بالوهية علي وثم قال ان الاله هو الامام جعفر الصادق وانه هو، ابو الخطاب، نبيّ مرسل. تبرأ منه الامام جعفر ولعنه. قتله عيسى بن موسى والي الكوفة.

وقد يتساءل القارئ، اذا كان الخليفة المنصور يخشى ويكره المعتزلة، فلماذا لم يلاحقهم ويقضي على نفوذهم؟.. الواقع كان هدف العباسيين تحجيم نفوذ العلويين لان كان لهم اتباع ومريدون بين عامة الشعب ويطالبون بالخلافة وبذلك يشكلون خطراً مباشراً على حكمهم. اما الاعتزال فكان مدرسة فكرية ينحصر نشاطها على بعض العلماء والمفكرين من الشعب. ولكن عندما شعر الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) بخطر المعتزلة اضطهدهم وقتل الكثير منهم.

وفي رواية أخرى عن سبب اختفاء الامام اسماعيل، ان الذي كان معه عند دخوله على الخليفة المنصور هو الفضل بن عمر الجعفي وان الامام جعفر الصادق صاح به. «يا كافر، يا مشرك ما تريد من ابني؟ تريد ان تقتله؟.»[١٣]

ويبدو ان اسماعيل شوهد في البصرة، بعد ان كان الامام جعفر الصادق أبلغ الخليفة المنصور بموته. لما سمع الخليفة المنصور خبر وجود اسماعيل في البصرة، أبلغ الامام جعفر ان اسماعيل لا يزال على قيد الحياة وانه يطلبه. فانفذ الامام جعفر سجل وفاة اسماعيل بعد ان أقام له مأتماً كبيراً في المدينة.

يعود المنحى العقلاني للدعوة الاسماعيلية الى تأثير المعتزلة عليها، فالامام اسماعيل كان يؤمن بتعاليم المعتزلة وكان له بينهم اصدقاء بارزون، كعمرو بن عبيد وابو الهذيل العلاّف العبيدي، كما انه عندما اراد الاختباء لجأ الى المعتزلة في البصرة حيث بقي سبع سنين عندهم حتى توفي.

٢ - الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق. ولد عام ١٣٢هـ في المدينة وكان له من العمر ستّ وعشرون سنة عندما تسلم شؤون الامامة واقبلت وفود الشيعة لمبايعته، مما لفت نظر العباسيين اليه. وكان في ذلك الوقت الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) يلاحق الشيعة، وخصوصاً «العلويين»، فأصدر امراً بالقبض على الامام محمد بن اسماعيل الذي فرّ الى الكوفة عام ١٥٩هـ ومنها سار الى الري حيث استقر عند احد انصاره، اسحق بن موسى، الذي كان حاكماً على الري من قبل العباسيين والذي قبض عمّالهم عليه فيما بعد وعذبوه ثم قتلوه.

---

(١٣) كان الفضل بن عمر الجعفي صرافاً في الكوفة ومعتزلياً وكان من اتباع الامام جعفر الصادق وكان يدعو الى امامة اسماعيل ثم عاد الى الشيعة الاثني عشرية وخدم موسى الكاظم.

سار الامام محمد الى نهاوند ومنها الى نيسابور ثم الى فرغانة حيث تزوج من ابنة الامير علي الهمذاني فولدت له عبدالله الرضى ومحمد واحمد والحسين واسماعيل وجعفر وعلي الليث. ومن فرغانة سار الى تدمر في بلاد الشام حيث توفي عام ١٩٣ هجري ودفن فيها ولا يزال ضريحه يعرف بضريح مولاي بن علي.

يعتبر الامام محمد بن اسماعيل اول الأئمة المستورين عند الاسماعيلية، وهو الناطق السابع ومتمم الدور، فامامته كانت دوراً جديداً في تاريخ الدعوة الاسماعيلية وقد رفع التكاليف الظاهرة للشريعة ونادى بالتأويل واهتم بالباطن، ويدعوه الاسماعيلية بالامام القائم بالحق وامام الزمان وصاحب الكشف.

ويقال انه عندما كان في تدمر اتخذ لنفسه اسم ميمون القدّاح الفارسي وانه من اتباع الامام محمد بن اسماعيل المستور، وان ابنه عبدالله (وفيّ احمد) هو عبدالله بن ميمون القدّاح.

٣ – الامام عبدالله بن الامام محمد بن اسماعيل (وفي احمد).

ولد الامام عبدالله بن محمد بن اسماعيل عام ١٥٩هـ في مدينة «محمود اباد» في فارس وتولى الامامة عام ١٩٣هـ بعد وفاة ابيه الامام محمد بن اسماعيل. ترك تدمر وذهب الى سلمية ثم الى نيسابور حيث اقام فترة قصيرة خرج بعدها الى الاهواز حيث تزوج فتاة علوية فولدت له احمد الذي أصبح ولياً للعهد وعرف (بتقي محمد).

في عهد الامام عبدالله بن محمد وقع خلاف بين الدعاة مما حمله على اغلاق الدعوة والاختفاء في دير «عصفورين» في ضواحي بلدة معرة النعمان حيث انقطع للعبادة والتأليف.

تناسى الدعاة خلافاتهم واوفدوا سبعة منهم للتفتيش عن الامام عبدالله، وعندما وجدوه في دير «عصفورين» طلبوا منه العفو والغفران فرجع معهم الى «سلمية» حيث نظم الدعوة وأرسل الدعاة الى جميع الأقطار الاسلامية.

في عهد الامام عبدالله بن محمد رتبت الدعوة ترتيباً منظماً دقيقاً واصبحت «سلمية» مركزاً رئيسياً للدعوة الاسماعيلية حيث انتشرت في بلاد الشام والعراق والبحرين واليمن.

توفي الامام عبدالله بن محمد بن اسماعيل (وفي احمد) في «سلمية» عام ٢١٢ هجري ودفن في مدينة مصياف.

يقول المؤرخون الاسماعيليون ان الامام عبدالله بن محمد أشرف على تأليف كتاب «رسائل اخوان الصفا» ولخص الرسائل برسالة واحدة سمّاها «الرسالة الجامعة»، وان الرسائل كتبت في مدينة «سلمية» في سوريا في بلاد الشام.

واما الدكتور فرهاد دفتري فيقول: «غير ان بعض المرجعيات المعاصرة الموثوقة في القرن الرابع ترى غير ذلك، ولا سيما الفيلسوف أبو حيان التوحيدي، اذ يسمي رجالاً بعينهم من أرباب القلم والادارة من عراق البويهيين المرتبطين بالحركة الاسماعيلية والمقيمين في البصرة على أنهم ينتمون الى المجموعة التي قامت بتصنيف الرسائل والتي لولاها لبقيت الرسائل مجهولة المؤلف». ثم يقول: «يسمي ابا سليمان محمد بن معشر البسطي، والمعروف ايضاً بالمقدسي، وابا الحسن علي بن هارون الزنجاني وابا احمد النهرجوزي والعوفي من بين اولئك المؤلفين. يضاف الى ذلك ان هؤلاء الأربعة كانوا مرتبطين بشكل ما بالحركة الاسماعيلية، ويبدو ان الزنجاني، وهو قاض واحد معارف ابي حيان كان زعيم المجموعة»[١٤].

وقد تأيدت عبارات ابي الحيان المهمّة بشكل اساسي من قاضي القضاة عبد الجبّار احمد الهمذاني الذي أضاف على القائمة اسم ابن ابي بغل وزيد بن رفاعة، ولهذا يمكن القول ان الرسائل ربما الفت في البصرة في القرن الرابع هجري وليس في «سلمية» في القرن الثاني.

ثم يناقض الدكتور «فرهاد دفتري» نفسه فيقول: «لقد صاغ اخوان الصفا تعاليمهم، بالفعل، تحت رعاية الامام المستور السابع للاسماعيلية، اي محمد بن اسماعيل نفسه الذين كان ظهوره متوقعاً في تلك الآونة عند قرامطة البحرين وعند جميع الاسماعيلين المنشقين الآخرين[١٥] .

---

(١٤) كتاب الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم، فرهاد دفتري، ترجمة سيف الدين القصير، ص ١٣١ .

(١٥) كتاب الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم، ص ١٣٢ يشير الدكتور دفتري الى رسائل بومباي مجلد ١، ص ١٥ ومجلد ٢، ص ١٨٩ .

٤ – الامام احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل (تقي محمد).

ولد الامام احمد بن عبدالله في مدينة سلمية عام ١٧٩ هجري التي اصبحت مركزاً لنشر الدعوة الاسماعيلية في الأقطار الاسلامية، وكان من الدعاة الذين عملوا معه أبو القاسم رستم بن فرج بن حوشب الذي عرف باسم «منصور اليمن»[١٦] لتحقيقه انتصاراً كبيراً للدعوة في اليمن، كما علّم ودرّب الداعي ابا عبدالله الشيعي وأرسله الى شمال افريقيا حيث مهّد لانشاء الدولة الفاطمية.

ترك الامام احمد بن عبدالله مؤلفات عديدة منها كتاب «تأويل الزكاة» وكتاب «الشواهد والبيان لمباحثة الاخوان» كما قيل انه كتب «الرسالة الجامعة» وليس الامام عبدالله بن محمد.

توفي الامام احمد بن عبدالله في مدينة مصياف ودفن على قبة الجبل المعروف بجبل مشهد، ويقع الى الجنوب الغربي من المدينة.

٥ – الامام الحسين بن احمد بن عبدالله الملقب بالاهوازي، او عبدالله الرضي (التقي).

عرف باسم حسين الاهوازي وكان غنياً يملك تجارة واسعة وقرى عديدة، وفي عهده تقدمت الدعوة الاسماعيلية تقدماً عظيماً. وكان كثير السفر، ويؤكد بعض المؤرخين[*] انه هو، وليس والده الامام احمد بن عبدالله، التقى قاسم بن حوشب الملقب بمنصور اليمن وعلي بن الفضل فأرسلهما الى اليمن، بعد ان احضرهما الى «سلمية» حيث درسا النظام الفكري الاسماعيلي، وذلك عام ٢٦٦هـ، كما وانه أرسل الداعي الكبير أبا عبدالله الحسين بن زكريا الشيعي، الذي كان في البصرة، الى اليمن، ليدرس على ابن حوشب. ومن اليمن خرج ابو عبدالله الشيعي الى مكة ومنها سار الى المغرب مع رجالات من قبيلة كتامة البربرية حيث نشر المذهب الاسماعيلي ومهّد الطريق الى اقامة الدولة الفاطمية.

---

(١٦) كتاب «السلوك». بهاء الدين الجنادي عن محمد مالك اليماني. كتاب القرامطة للمؤرخ الوالي، ص ٢٥٠ .

(*) منهم المؤرخ الاسماعيلي عارف تامر، كتاب تاريخ الاسماعيلية، مجلد ١، ص ١٣٣ .

واثناء تجول الامام حسين الاهوازي في سواد الكوفة التقى حمدان بن الأشعث، الملقب بقرمط، وكذلك التقى مهروية بن زكرويه السليماني فادخلهما بالدعوة الاسماعيلية واصبحا، فيما بعد، قادة القرامطة الذين لعبوا دوراً مهماً في تاريخ الاسماعيلية، وذلك في نشر الدعوة ثم محاربتها، خصوصاً بعد ان تحالفوا مع العباسيين.

توفي الامام حسين الاهوازي في «سلمية» عام٢٨٩هـ ودفن في قبر جده الامام عبدالله بن محمد.

٦ - الامام عبيدالله (عبدالله)[١٧] المهدي بن الحسين بن احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل، المعروف بالمهدي.

ولد عبيدالله المهدي في مدينة «سلمية» من بلاد الشام عام ٢٥٩ هجري، ومات ودفن في مدينة المهدية في تونس عام ٣٢٢ هجري ثم نقل الخليفة المعز لدين الله رفاته الى القاهرة عام ٣٦١ هجري، ودامت خلافته خمساً وعشرين سنة من ٢٩٧ الى سنة ٣٢٢هـ.

ولد عبيدالله المهدي في بيت علم وفلسفة وكان يمتلك قدرة كبيرة على الجدل والاقناع ومغرماً بالتزود بالعلم واقتناء الكتب النادرة. ويقال انه عندما سرق اللصوص متاعه في مكان يقال له الطاحونة كان فيها كتبه ومؤلفات لأبائه فحزن على ضياعها حزناً كبيراً.

ترك عبيدالله المهدي سلمية الى شمال افريقيا هرباً من هجوم قرمطي عليها بعد ان بلغه ان القائد القرمطي ابو الخال، وهو ابن مهرويه بن زكرويه في طريقه لقتله[١٨].

---

(١٧) يقول المؤرخون الاسماعيلية ان اسمه الصحيح هو عبدالله ولكن العباسيين اطلقوا عليه اسم عبيدالله تصغيراً لمقامه. التاريخ عرفه باسم عبيدالله وليس عبدالله.

(١٨) كتاب الاسماعيليون بالانجليزية ص ١٢٧ للدكتور فرهاد دفتري يقول: ان حمدان بن الأشعث، قرمط، وقف ولاء القرامطة لعبيدالله المهدي بعد أن أخبره «عبدان» بعد زيارته سلمية ان عبيدالله الغى حجة الامام محمد بن اسماعيل وادعاها لنفسه وبذلك تبدأ الامامة به فهو قائم الحق وامام الزمان وليس الامام محمد بن اسماعيل، فاعتبر حمدان بن الأشعث قرمط، الذي كان زعيم القرامطة، ان هذا العمل من عبيدالله الحاد ما أباح دمه.

ان وصف رحلة عبيدالله المهدي من سلمية الى شمال افريقيا هي بالتفصيل في فصل آخر من هذه الدراسة فلا لزوم لتكرارها هنا.

وصل عبيدالله المهدي الى مدينة القيروان وهناك بايعه الزعماء ورؤساء القبائل ورجال الدين بالخلافة وأعلنوا له الطاعة والولاء وكان ذلك عام ٢٩٦هـ.

وهكذا انتهى دور الستر والتخفي وبرز دور الكشف وأصبح الامام عبيدالله المهدي اول خليفة فاطمي وبه انتهى العهد الاسماعيلي وبدأ العهد الفاطمي تاريخياً، اما العقيدة الاسماعيلية فبقيت أساس الدولة الفاطمية الدينية والفكرية وهي باقية حتى اليوم.

الفرقة الخطابية وعلاقة بيت القداح في نسب الأئمة الاسماعيلية المستترين

بين القضايا التي احدثت جدلاً كبيراً في الحركة الاسماعيلية وتناولها مفكرون ومؤرخون مسلمون وبعض المستشرقين، كانت قضية الخطابيين وعلاقة بيت القداح في نسب الأئمة الاسماعيلية المستترين.

كما قلنا في مقدمة هذه الدراسة اني لست مؤرخاً او باحثاً في العلوم الفكرية التاريخية، فليس امامي الاّ ان أبسط امام القارئ ما قاله المؤرخون المسلمون والمستشرقون الضالعون في الفكر والتاريخ الاسماعيلي، من دون تفسير او تحليل، لأن ذلك يتطلب علماً ومعرفة فوق قدرتي وخبرتي. جلّ ما يمكن ان اعمل أن اضع امام القراء ما توصلت اليه من حقائق خلال مطالعاتي عن هذه الانحرافات العقائدية التي انتشرت في بدء الحركة الاسماعيلية. واشير الى ما قلته سابقاً، ان التاريخ هو تسجيل، بدقة وامانة، وقائع حدثت، تفسير اسبابها، وتحليل النتائج التي حصلت في وقوعها. الامانة والصدق في تسجيل الحادث والالتزام الجازم بما سجله أصحاب الخبرة والمعرفة، من دون زيادة او نقصان، هو واجبي، فلهم المعرفة وعلي ابرازها كما سجلوها.

كانت السبئية اول انتفاضة عقائدية سياسية اكتست نهجاً شيعياً قام بها اصحاب عبدالله بن سبأ ابن السوداء[1] وكان يهودياً من أهل صنعاء من اليمن. وقيل كان من الحيرة.

أسلم عبدالله بن سبأ في عهد خلافة عثمان بن عفان وتنقل في بلدان المسلمين يثير الفتن ويعمل جاهداً ليفسد على المسلمين دينهم. وقال سيف بن عمر التميمي في

(١) يقول بعض المؤرخين، منهم البغدادي في كتاب «الفرق بين الفرق» ص ٢٣٥ انه كان هناك صحابي جليل باسم عبدالله ابن السوداء. ولكن يقول البعض الآخر انهما كانا شخصاً واحداً وهو عبدالله بن سبأ ابن السوداء لقب بالسوداء لأن امه كانت سوداء حبشية.

الطبري «كان لابن سبأ دور حاسم ومدمر في الفتنة التي قامت ضد عثمان». ولكن المستشرق «ليوني كاتاني» ينفي ذلك ويقول: «ان المصادر الأقدم والموثوق بها عن خلافة عثمان تجهل عبدالله بن سبأ، كما تجهل هذا الاضطراب القائم على أساس ديني، لأن فتنة عثمان قامت على أساس سياسي واقتصادي». ثم يقول: «كاتاني» ان البغدادي (الفرق بين الفرق) والشهرستاني (الملل والنحل) لم يذكرا علاقة ابن سبأ في مقتل عثمان او حتى وجوده»[٢].

يقول الدكتور طه حسين: «ويخيل ان الذين يكبرون من أمر ابن سبأ يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ اسرافاً شديداً. وأول ما نلاحظه انا لا نجد لابن سبأ ذكراً في المصادر المهمة التي قصّت أمر الخلاف على عثمان، فلم يذكره ابن سعد حين قص ابن سعد ما كان من خلافة عثمان وانتفاض الناس عليه، ولم يذكره البلاذري في انساب الاشراف، وهو مما أرى أهم المصادر لهذه القصة واكثرها تفصيلاً»[٣].

ثم يقول الدكتور طه حسين: «لو قد اخذ عبدالله ابن عامر او معاوية هذا الطارئ، الذي كان يهودياً فلم يسلم الاّ كائداً للمسلمين، لكتب احدهما او كلاهما فيه الى عثمان، ولبطش به احدهما او كلاهما. ولو قد أخذه عبدالله بن سعد بن ابي سرح لما اعفاه من العقوبة التي كاد ينزلها بالمحمدين لولا خوفه من عثمان. والذي يكتب الى عثمان يستأذنه في البطش بابن ابي بكر وابن ابي حذيفة وعمّار بن ياسر[٤] خليق الاّ يعفي من عقوبته رجلاً من اهل الكتاب قد اتخذ الاسلام وسيلة لاثارة الفرقة بين المسلمين»[٥].

---

(٢) كتاب Annali deli Islam, Vol. 8, page 42. Leone Catani.

(٣) كتاب الفتنة الكبرى – عثمان، ص ١٣٢ .

(٤) محمد بن ابي حذيفة ابن عتبة بن ربيعة ابو هند زوجة ابي سفيان وام الخليفة معاوية وهي التي حرّضت «الوحشي» على قتل حمزة بن عبد المطلب عم النبي في معركة احد. ومحمد ابن ابي بكر الصديق أخو عائشة ام المؤمنين زوجة النبي المفضلة وابنة ابي بكر الصديق. قدما مصر واخذا بالنقد والتشهير بعثمان الذي أرسل الصحابي الجليل عمّار بن ياسر ينصح المحمدين ويردهما الى الهدوء ولكن عمّار انضم الى المحمدين بالتنديد والتشهير بأعمال عثمان. فكتب عبدالله بن سرح الى عثمان يستأذن بقتلهم.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٣٢ .

الواقع أنّ عبدالله بن سبأ استغل الفتنة لنشر دسائسه وفساده بين المسلمين ولكن لم يثرها ولم يكن ذا شأن، وجل ما فعله نشر الأكاذيب واذاعة الكيد بين المسلمين.

ويقول الطبري: «ان عبدالله ابن سبأ ورد الشام ولقي ابا ذر الغفاري فحرضه على الامويين وبث فكرة ان المال مال المسلمين والفقراء احق الناس بهذا المال».

ان هذه المقولة بعيدة عن الواقع ولا يقبلها العقل، فان ابا ذر لم يكن بحاجة لابن سبأ، اليهودي الذي يشك في اسلامه، ليعلمه ان المال مال المسلمين وان الفقراء اصحابه، فأبو ذر عاش حياته يندد بالامويين ويتهمهم بسلب وتبذير اموال المسلمين.

حين جاء ابن سبأ من اليمن الى الحجاز نادى بفكرة المهدي المنتظر وقال ان موت النبي محمد كان مجرد وهم من الناس وان غيبته موقتة وانه سيرجع الى الأرض ليملأها عدلاً بعد ان ملئت جوراً، وان النبي أحق من المسيح بالرجوع. ثم قال لكل نبي وصي وان علي بن ابي طالب وصي محمد وهو خاتم الأوصياء كما محمد خاتم الانبياء. ولكن بعد مقتل الامام علي، غيّر عبدالله بن سبأ مذهبه في العودة، وقال بان المهدي المنتظر هو الامام علي.

تمادى ابن سبأ في غلوه في الامام علي فأشاع ان الامام علي هو اله المسلمين. غضب الامام علي من هذا القول وأمر بقتل ابن سبأ، فأثناه ابن العباس بقوله: «ان قتلته اختلف عليك اصحابك، وانت عازم على قتال أهل الشام وتحتاج الى مداراة اصحابك». أمر الامام علي بنفي ابن سبأ الى المدائن.

لما قتل علي بن ابي طالب، زعم ابن سبأ ان المقتول لم يكن علياً بل شخصاً آخر وان علياً صعد الى السماء، كما صعد اليها المسيح، وانه في السحاب وان الرعد صوته والبرق سوطه.

وقال شرحبيل الشعبي (توفي عام ١٠٤هـ) ان عندما قيل لابن سبأ، ان علياً مات قال: «لو جئتمونا بدماغه في صرة لم نصدق بموته، لا يموت حتى ينزل من السماء ويملك الأرض بحذافيرها».

ويقول سعد بن خلف الأشعري القمي: «ان السبئية تقول – انا فنعلم انه لم يمت ولم يقتل ولا يموت، حتى يسوق العرب بسيفه وسوطه، كما قادهم بحجته وبرهانه،

وانه يلمع في الظلام كما يلمع السيف الصقيل الحسام»(٦).

قالت السبئية بأن علياً وابناءه آلهة وان روح القدس، وهي قديمة منذ الازل، كانت في النبي ومنه انتقلت، عند موته الى علي، فأصبح علي إلهاً، ثم اسرفوا في التأويل الباطني للقرآن. وقالوا ان علي هو ظاهر من باطن وهو الظاهر الباطن فروح القدس باطنة، وتجلى للناس لأن لا نطق معقول الاّ بظاهر معروف.

بعد مقتل امير المؤمنين الامام الأول علي بن أبي طالب عام ٤٠هـ، وتسلط الأمويين، الطلقاء، على الخلافة ونقلها الى دمشق، اضمحلت الفرقة السبئية، وقيل ان عبدالله بن سبأ رحل الى مصر حيث توفي وانقطعت اخباره.

قال المستشرق برنارد لويس: «ابتدأت الحركة الاسماعيلية بجماعة اسماعيل بن جعفر الصادق بمؤازرة فاعلة من اسماعيل وابنه محمد، وكان بين جماعة اسماعيل ومحمد، ومنظمي الفرقة الاوائل، ابو الخطاب وميمون القدّاح وعبدالله بن ميمون»(٧).

وبرزت الفرقة الخطابية، اصحاب محمد بن ابي زينب الأجدع الاسدي، وكنيته ابو اسماعيل ويلقب بمقلاص بن ابي الخطاب وهو من موالي بني اسد، وكان من المقربين للامامين محمد الباقر وجعفر الصادق، وظل احد أتباع جعفر الصادق حتى تبرأ منه لقوله بالوهته.

سنضع امام القراء اعمال وأفكار هذه الفرقة، وسنعتمد على اقوال المؤرخين المسلمين وبعض المستشرقين، فنكون بذلك اعتمدنا اقوال اصحاب المعرفة وعندهم الخبر اليقين، دون ان ننغمس في متاهات النزاع العقائدي السني والعلوي والمكر الفارسي الشعوبي، فما نطلبه هو معرفة الحقيقة كما حصلت وليس كما نريدها ان تكون، لأن لا قدرة او معرفة او خبرة او حق لنا في ذلك.

ويقول المؤرخ الحسن بن موسى النوبختي، وهو على مذهب الشيعة الاثني عشرية: «بدأ الخطّاب داعية لمحمد الباقر وجعفر الصادق، وغلا غلواً عظيماً، فزعم ان

---

(٦) كتاب المقالات والفرق، ص ٢١ .

(٧) كتاب اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرامطة، ص ٥٧ .

جعفر الصادق قيّمه ووصيه من بعده. ثم ترقى الى ان ادعى النبوة واحتل المحارم، واباح الشهوات وقال بالتقية وهي تجوّز الكذب والشهادة الباطلة في صالح الدين»[٨].

ويقول المؤرخ عبد القاهر البغدادي «والخطابية كلها حلولية لدعواها حلول روح الله في جعفر الصادق، وبعده في الخطّاب الأسدي. فهذه الطائفة كافرة من هذه الجهة، ومن جهة دعواها ان الحسن والحسين واولادهما ابناء الله واحباؤه، ومن ادعى منهم في نفسه انه من ابناء الله، فهو اكفر من سائر الخطابية»[٩].

ويقول المؤرخ الانجليزي: «برنارد لويس» وهذا يلقي بعض الشك في علاقة ابي الخطّاب بالاسماعيلية. ويحسن بنا في هذا المقام ان نتساءل عما يمكن ان نجده من الاشارات في كتابات الاسماعيلية الى ابي الخطّاب والخطابية، ولكن في تساؤلنا هذا غير موفقين، اذ ان جميع الوثائق الاسماعيلية المنتشرة لدينا تقريباً ترجع الى عصر نجاح الدعوة وتأسيس دولتها عندما كان المدافعون عن هذه الفرقة معنيون بافكار العلاقة بين رجال ساءت سمعتهم، كابي الخطّاب، لا نعثر على اشارات صريحة بيّنة الاّ قليلاً مبعثرة هنا وهناك[١٠].

واما الفتح الشهرستاني فيقول: «ابو الخطّاب محمد بن زينب الأسدي الأجدع مولى بني اسد، هو الذي عزا نفسه الى ابي عبدالله جعفر بن محمد الصادق، رضي الله عنه، فلما وقف الصادق على غلوه الباطل في حقه، تبرأ منه ولعنه وأمر اصحابه بالبراءة منه، وشدد القول في ذلك وبالغ في التبري منه واللعن عليه». ثم يقول: «ان الأئمة انبياء ثم آلهة، وقال بالهية جعفر بن محمد الصادق والهية ابائه، رضي الله عنهم، وهم ابناء الله واحباؤه. والالهية نور في النبوة، والنبوة نور في الامامة ولا يخلو العالم من هذه الآثار والانوار. وزعم ان جعفر هو الإله في زمانه وليس هو المحسوس الذي يرونه، ولكن الى هذا العالم لبس تلك الصورة فرآه الناس فيها»[١١].

(٨) كتاب فرق الشيعة، ص ٥٧ . طبع في اسطنبول عام ١٩٣١ ميلادي.

(٩) كتاب الفرق بين الفرق، ص ٢٥٥ .

(١٠) كتاب اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية، ص ٧٤ .

(١١) كتاب الملل والنحل، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

ويقول عبد القادر بن طاهر البغدادي: «الخطابية، اتباع ابي الخطّاب، يقولون ان الامامة كانت في اولاد علي الى ان انتهت الى جعفر الصادق ويزعمون ان الأئمة كانوا آلهة. وكان ابو الخطّاب يزعم اولاً ان الأئمة انبياء، ثم زعم أنهم آلهة، وان أولاد الحسن والحسين كانوا ابناء الله واحبّاءه: وكان يقول ان جعفر إله. فلما بلغ ذلك جعفر لعنه وطرده. وكان ابو الخطّاب يدعي بعد ذلك الالهية لنفسه. وزعم أتباعه ان جعفراً اله، غير ان ابا الخطاب افضل منه وافضل من علي»[١٢].

ويقول المستشرق «برنارد لويس» وتعتبر هذه المقولة دفاعاً عن ابي الخطّاب. «فان لدينا مجموعتين من التصانيف حفظت لنا اسم ابي الخطّاب وعقائده وفيها اشارة وافية الى الدور الحاسم الذي اضطلع به. اولاهما «ام الكتاب» الشهير وهي عبارة عن كتاب سري مقدس عند الاسماعيليين في آسيا الوسطى يمثل، كما يشير العلاّمة الذي اشرف على طبعه، مرحلة قديمة جداً لتطور أفكار الشيعة الثورية. هذا الكتاب يجعل لابي الخطّاب مقاماً خطيراً في هذه الحركة ويقرنه بسلمان[١٣] في عظيم اهميته وعبارته في ذلك صريحة اذ يقول: «ان المذهب الاسماعيلي هو ما اوجدته ذرية ابي الخطّاب الذين نشروا انفسهم بحب احفاد جعفر الصادق واسماعيل. وثانيهما، كتابات النصيرية التي درسها «ماسنيون»[١٤] ومنها فقرات وعقائد شبيهة بتلك، وهي ايضاً تعتبر ابا الخطّاب مؤسس الفرقة وميمون القداح تابعاً له، وتعزو اليه اكثر العقائد التي يختص بها المذهب الاسماعيلي»[١٥].

ويتفق مؤرخو الشيعة الاثني عشرية وغالبية المصادر السنية في رواية تبرؤ الامام جعفر الصادق من ابي الخطّاب ويعتبرونه كافراً في تأليهه الامام جعفر الصادق وان خلافات خطيرة وقعت بينهما من حيث العقيدة وكانت من اسباب هذه التبرؤ.

ويقول المؤرخ ابو عامر محمد الكشي: «اجتمع بعض الخطّابيين في الكوفة عام

---

(١٢) كتاب الفرق بين الفرق، ص ٢٤٧ .

(١٣) الصحابي سلمان الفارسي.

(١٤) ماسنيون، سلمان. مقالة عن النصيرية في دائرة المعارف الاسلامية.

(١٥) كتاب اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية، ص ٧٥ - ٧٦ .

١٣٨هـ بزعامة ابي الخطّاب، فبعث اليهم الخليفة المنصور[١٦] والي الكوفة عيسى بن موسى بجيش كثيف، فحاربهم وقتل منهم سبعين رجلاً في المسجد وقبض على ابي الخطاب وقتله وصلبه. ولما مات ابو الخطاب تحول أتباعه الى محمد بن اسماعيل، حفيد الامام جعفر الصادق، واعلنوا ولاءهم له، وكانت الفرقة الاسماعيلية هي الخطابية نفسها[١٧].

ويقول سعد بن عبدالله القمي ان من اقوال الخطابية: «ان المؤمن العارف منهم أُلبس سبعة ابدان، بمنزلة سبعة اقمصة تكون للانسان. فمتى تعرّى من قميص فيقمّص آخر. وزعموا ان الايمان سبع درجات: فيكشف الغطاء حتى تراه بالنورانية. وان المؤمن يلبس في كل دور قميصاً، وهو قالب غير القالب الأول. والدور عشرة آلاف سنة. وهي سبعة ادوار. والسبعة اذا دارهو كور. والكور سبعون الف سنة. ففي سبعين الف يصير عارفاً، فيكشف له الغطاء، ويرفع عنه التلبيس، فيدرك الله الذي هو محمد بذاته، بالنورانية لا بالبشرية اللحمّانية»[١٨].

هذا المعتقد اوردته الاسماعيلية في كتبهم، كما تشير اليه المندائية (الصابئة) في كتبها، والصابئة تعتمد الفكر الهرمسي في فلسفتها.

اما البزيغية، وهي فرع من الخطابية، نسبة الى بزيغ بن موسى قالوا: «ان جعفر بن محمد هو الله، وانه ليس بالذي يرون، وانه تشبه للناس بهذه الصورة، وزعموا ان كل ما يحدث في قلوبهم وحي، وان كل مؤمن يوحى اليه، وتأوّلوا في ذلك قول الله تعالى: «وما كان لنفسٍ ان تموت الاّ بأذن الله»[١٩].

وتقول الخطابية، «ان الله يتراءى لمن شاء، فيما شاء وكيف شاء ولا يتراءى لهم الاّ مثل ما يعرفونه، فيريهم في مرأى العين نفسه إنساناً وليس هو بانسان على ما ما اراه نفسه به».

---

(١٦) الخليفة العباسي المنصور ابو جعفر عبدالله بن محمد بن السفاح ابو العباس عبدالله بن محمد، خلافة المنصور من ١٣٦ الى ١٥٨هـ.

(١٧) كتاب الفرق بين الفرق، ص ٥٧ .

(١٨) كتاب المقالات والفرق، ص ٥٦ .

(١٩) سورة آل عمران، آية ١٤٥ .

وقالت الخطابية بالتناسخ وزعموا ان أرواح من يرفض امرهم تجري في الانسان وغير الانسان من دواب وجماد وفي كل رطب ويابس. اما المؤمن فتنتقل روحه في ادوار حتى تصل الى النورانية، اي معرفة الحق.

هذه هي اسطورة ابي الخطّاب محمد بن ابي زينب من موالي بني اسد، الذي نادى بالوهية الامام جعفر الصادق ودفع حياته ثمناً لها. تتهمه الشيعة الأثنا عشرية ومؤرخو السنّة بالالحاد والكفر، وتقول عنه الاسماعيلية في كتابهم، السري والمقدس، انه كان من اركان الحركة الاسماعيلية وأحد مؤسسيها[٢٠].

اما اسطورة ميمون القداح وولده عبدالله والنسب الفاطمي، فقد اخذت جدلاً كبيراً وجاداً بين المؤرخين المسلمين وحتى المستشرقين، لان الادعاء ان النسب الفاطمي يعود الى ميمون القداح يشكل خللاً اساسياً وطعنة قاضية في امامة الفاطميين اذ يلغيها ويبطل قدسيتها لأن اسرة القدّاح ليست من آل البيت والامامة لا تصح الاّ في اولاد واحفاد الامام علي بن ابي طالب وزوجته فاطمة الزهراء ابنة الرسول الكريم، وهم آل البيت.

ويقول المؤرخ الاسماعيلي، الدكتور عارف تامر: «انها قضية يتمثل فيها الظلم والتجني والاستهتار، اعتمدها بعض المؤرخين واتخذوا منها منطلقاً للطعن بأئمة الاسماعيلية والقول انهم من الفرس واحياناً من اليهود»[٢١].

اما اهمية نسب الفاطميين فتقرره الامامة الشيعية، اذ لا بد ان يكون الامام من آل البيت وينص عليه من الأب الى الابن، وهذا حق مقدس لهم وبدون هذه الصفة يغدو الامام غاصباً وغير شرعي.

ولذلك انقسم المؤرخون الى فئتين، فئة تؤيد الفاطميين في دعواهم ان نسبهم يرجع الى الامام علي بن ابي طالب وزوجته فاطمة بنت الرسول، وفئة ترى انهم

---

(٢٠) كتاب فرق الشيعة، ص ٥٧ .

(٢١) كتاب تاريخ الاسماعيلية، مجلد ١، ص ٢٦٨ .

ادعياء لا يمتون بصلة الى الامام علي وعقبه، بل يرجع نسبهم الى ميمون القدّاح وولده عبدالله وهم من الكفرة الديصانين[٢٢].

واقدم رواية عن نسب الفاطميين الى عبدالله بن ميمون القداح، وردت في كتاب عبدالله محمد بن علي بن رزّام التي نقلها ابن النديم في كتاب «الفهرست» ويقول: «ان عبدالله بن ميمون القداح ولد في «قوزح عباس» بالقرب من مدينة الاهواز وابوه ميمون، الذي تنسب اليه الفرقة الميمونية التي اظهرت اتباع ابي الخطاب الذي دعا الى ألهيّة علي بن ابي طالب. وكان ميمون وابنه ديصانيين.

ثم يقول علي بن رزّام: «ان عبدالله بن ميمون نزل عسكر مكرم ثم هرب منها الى البصرة، فنزل على قوم من اولاد عقيل بن ابي طالب ثم سار الى سلمية بقرب حمص واشترى ضياعاً وبث الدعاة الى سواد الكوفة[٢٣]، فاجابه في هذا الموضع، رجل يعرف بحمدان بن الأشعث ويلقب بقرمط الذي نصب لدعوته عبدان صاحب الكتب المصنفة، وفرّق عبدان الدعاة في سواد الكوفة، وذلك عام احدى وستين ومائتين».

ويتابع علي بن رزّام روايته: «ولما مات عبدالله خلفه ابنه محمد بن عبدالله، ثم مات محمد فخلفه ابنه الملقب بأبي الشلعلع، ويقال ان الذي خلفه أخوه احمد بن عبدالله. ثم قام بالدعوة بعد ذلك سعيد بن الحسين بن عبدالله بن ميمون، ولم يزل عبدالله ووالده يدعيان انهما من ولد عقيل، وكانا قد احكما النسب بالبصرة. فمن ولد عبدالله انتشرت الدعوة في الأرض، وقدم الدعاة الى الري وطبرستان وخراسان واليمن والاحساء والقطيف والقدس. ثم خرج سعيد الى مصر فادعى انه علوي

(٢٢) الديصانية مذهب فارسي مثنوي مشتق من الزرادشتيه يقولون ان العالم مصنوع من اصلين، النور والظلام وانهما اصل قديم، النور يفعل الخير والظلام يفعل الشر.

(٢٣) كان في سواد الكوفة بطن من ربيعة يقال لهم بنو تيم الله بن ثعلبة بن عكابة، اعتنقوا القرمطية ثم قدموا بلاد الشام فنزلوا في وادٍ سمّي على اثرهم «وادي التيم».

فاطمي ثم سار الى المغرب واظهر غلاماً حدثاً وزعم انه من ولد محمد بن اسماعيل وهو القائم بالامر بعد عبيدالله»[٢٤].

ويؤيد هذه الرواية، الشريف ابو حسين محمد بن علي العلوي، المعروف باسم «اخو محسن»، الذي توفي عام ٣٧٥هـ، في كتاب لم يصلنا ولكن كتب منه فقرات المؤرخ المصري النويري (توفي عام ٧٣٢هـ) والمقريزي ايضاً، الذي قال: «ان ما كتبه «اخو محسن» ومحمد بن علي بن رزّام بعيد عن الواقع ومناف للحقيقة التاريخية ولا يعتمد على صدقها، وخصوصاً ان ولاء «اخو محسن» كان للعباسيين رغم انه علوي.

ويقول المؤرخ احمد بن علي المقريزي: «كان ميمون القدّاح ابن رجل مثنوي يدعى «ديصان» وكان يعتقد بمبادئ غالية وقد سميت الفرقة «الميمونية» باسمه، وكان من اتباع ابي الخطّاب، وكان هو وابنه ديصانيين، وكان ابنه عبدالله شراً منه، واسع الاطلاع في جميع الأديان والمذاهب قوي المكر والاحتيال»[٢٥].

ويقول المؤرخ ابو منصور عبد القاهر البغدادي: «ان عبدالله بن ميمون ديصان، المعروف بالقدّاح، كان مولى لجعفر بن محمد الصادق وكان من الاهواز ومن أصحابه دندان[٢٦] لقيه في سجن العراق فأسسا مذهب الباطنية ونشراه بعد خلاصهما من السجن. رحل عبدالله الى المغرب وانتسب الى عقيل بن ابي طالب، ثم ادعى انه من سلالة محمد بن اسماعيل، وكان سعيد[٢٧] وهو اول الخلفاء الفاطميين من ذريته»[٢٨].

ويقول عبد الكريم بن محمد السمعاني: «ان عبد الله كان في معية محمد

---

(٢٤) كتاب الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية. محمد عبدالله عنان ص ٤٨ و ٤٩ مع بعض الاختصار وحذف بعض الفقرات غير المهمّة.

(٢٥) كتاب المقفى، ص ١١٧ .

(٢٦) دندان رجل فارسي ثري وعالم في امور الدين اسمه محمد بن الحسين، يقال انه كان فارسياً يكره العرب. ساعد كثيرا بماله وعلمه حمدان بن الأشعث القرمطي.

(٢٧) سعيد هو الامام عبيدالله المهدي، اول خليفة فاطمي.

(٢٨) كتاب مختصر الفرق بين الفرق، ص ١٧٠ .

وخدم اباه اسماعيل. ولما توفي اسماعيل ادعى انه ابنه، بيد انه كان في الحقيقة ابن ميمون القدّاح[٢٩].

ويصف الشاعر ابو العلاء المعري، عبدالله بن ميمون القدّاح بأنه باهلي وانه كان من علية اصحاب جعفر الصادق ثم ارتد عنه فيما بعد، والشيعة، رغم ذلك، يحترمونه محدثاً ويروون عنه الحديث قبل ارتداده»[٣٠].

ثم كان محضر بغداد الذي صدر عام ٤٠٢هـ في عهد الخليفة الفاطمي ابو منصور الحاكم بأمر الله، ووقعه من اشراف العلويين الشريف الرضي وأخيه الشريف مرتضى، ومن علماء وفقهاء الشيعة، القاضي ابي بكر الباقلاني، وابي حامد الاسفرايني، وابي الحسين القدوري، والابيوردي وغيرهم، يتضمن الطعن في نسب الفاطميين وشهادة بأنهم من سلالة ديصان بن سعيد القداح وانهم ليسوا من آل البيت وانهم كفّار، زنادقة وفسّاق ملاحدة. ثم في عام ٤٤٤هـ صدر محضر ثانٍ يتضمن الاتهام والذم نفسهما، وزيد فيه ان الفاطميين يرجعون الى اصل يهودي.

هذه مقطفات مختصرة وقليلة ممّا روته كتب المؤرخين السنة، ومعظمهم من العراق يدينون بالولاء للعباسيين ويكرهون الشيعة، وخصوصاً الفاطمية الاسماعيلية، ويبدو واضحاً من اقوالهم التجني السافر على الفاطميين، وذلك من حسدهم واستيائهم من نجاح الفاطميين في تشييد دولة شيعية مزدهرة في مصر.

ولكن مصادر الكتب التاريخية الشيعية، وخصوصاً الاسماعيلية، تجمع على ان عبدالله بن ميمون القدّاح كان محدثاً وعالماً في علوم الدين وكان معاصراً ومستشاراً للامام جعفر الصادق ومن اصحابه.

ويقول المؤرخ الاسماعيلي احمد بن مرتضى في كتاب «فلك الدوار»: «كان ميمون وابنه شيعيين محترمين من اصحاب جعفر الصادق، واتصل ميمون، في زمن ما، بالشيعة الغلاة، اتباع ابي الخطّاب واسماعيل بن جعفر ولعب دوراً هاماً في

(٢٩) كتاب الانسان، ص ٤٤٢ .

(٣٠) رسالة الغفران، ص ١٥٦ .

تكوين عقائد الفرقة وتنظيم دعايتها. ولمّا مات ابو الخطاب وتزعم الأمر وأصبح قيماً على محمد بن اسماعيل ومؤدبه، فلقنه مذهب الباطن. وقد نشأ ابنه عبدالله كما نشأ محمد فخلف اباه في الدعوة الى الامام»[٣١].

ومن الغريب في قضية نسبة الأئمة الاسماعيلية ما قاله المفكر الفرنسي سلفستر دي ساسي[٣٢] في كتابه «دين الدروز» ان الموحدين الدروز يعتبرون ائمة الستر الاسماعيليين من نسل ميمون القداح. ائمة الستر الاسماعيليين هم:

الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق - توفي عام ١٩٣هـ.

الامام عبدالله بن محمد بن اسماعيل (وفيّ احمد) - توفي عام ٢١٢هـ.

الامام احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل (تقي محمد) - توفي عام ٢٢٥هـ.

الامام الحسين بن احمد بن عبدالله الملقب بالاهوازي - توفي عام ٢٨٩هـ.

الامام محمد عبيدالله المهدي، الخليفة الفاطمي الاول مؤسس الدولة الفاطمية. توفي في مدينة المهدية عام ٣٢٢هـ.

ثم يقول سلفستر دي ساسي: «في كتب الدروز كان محمد بن اسماعيل

---

(٣١) كتاب اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية، ص ١١٦ .

(٣٢) المفكر الفرنسي سلفستر دي ساسي كان عميد كلية الدراسات الشرقية في جامعة «السوربون» في باريس ورئيس الجمعية Société Asiatique عام ١٨٢٢ . كتب كتاب Exposé de la Religion des Druzes وهو كتاب ضخم مؤلف من مجلدين الذي نشر في باريس عام ١٨٣٨ وترجم الى اللغة الالمانية في Leipzig عام ١٨٤٠ ويعتبر هذا الكتاب مرجعاً عن المذهب الدرزي. لم يترجم هذا الكتاب الى اللغة العربية او الانجليزية فكان انتشاره في البلاد محدوداً، الآن اصبح نادر الوجود. المخطوطة الأصلية لهذا الكتاب موجودة في مكتبة Leiden . ثمّ المستشرق الالماني Dr. Christian Seybold الذي كان استاذ اللغات الشرقية في جامعة «توبنغن» كتب كتاب Drusenschrift عن المذهب الدرزي ثم ترجم كتاب الشيخ زين الدين عبد الغفّار تقي الدين «النقط والدوائر» الى اللغة الالمانية. ثم المستشرق الافرنسي «هنري غيز » ترجم في عام ١٨٦٢ كتاب «مختصر البيان في مجرى الزمان» للشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين وكان يباع في المكتبات في باريس.

الناطق السابع، وكان ميمون القدّاح (ويدعى تأويلي) اساسه، وقد ذكر فيه، ان عبدالله هو ابن ميمون القدّاح وان ميمون هو جد سعيد، عبيدالله المهدي[٣٣].

بالاضافة للمفكر الفرنسي سلفستر دي ساسي يؤكد خبر نسب الأئمة الاسماعيلية في كتب الموحدين الدروز، المستشرق الانجليزي المعاصر «برنارد لويس» اذ يقول: «وتذكر الكتابات الدرزية سبعة أئمة من اسماعيل الى عبيدالله المهدي، وتصف بعضهم بأنهم من ولد ميمون القدّاح[*]. ومن هذا يبدو ان القائمة قد شملت الأئمة المستقرين – وهم الأئمة العلويون الدائمون – والأئمة القداحين او الحفاظين – وتبين الكتابات الدرزية بجلاء ان المهدي نفسه من الجماعة الثانية»[٣٤].

ان ارجاع نسب الأئمة المستترين الاسماعيلين الى ميمون القداح يثير التعجب والتساؤلات لأن الموحدين الدروز كانوا يعتبرون الخليفة الحاكم بأمر الله حاميهم وملاذهم الوحيد من تعدي واضطهاد غلاة الاسماعيلية، خصوصاً، ست الملك شقيقة الحاكم بأمر الله،[٣٥] وداعي الدعاة ختكين الضيف[٣٦] واحمد حميد الدين الكرماني[٣٧] الذين كانوا يكرهون الامام حمزة بن علي وكانوا المحرضين على اضطهاد وقتل الموحدين الدروز خلال محنة عام ٤١١هـ.

لا شك ان الموحدين الدروز كانوا يعلمون ان ارجاع نسب الأئمة الاسماعيلية المستورين الى نسل ميمون القدّاح يشكل تحقيراً واهانة للحاكم بأمر الله وتلغي امامته التي تصبح غير شرعية ومغتصبة. ثم كانوا على علم، كغيرهم من الناس، ان الحاكم غضب غضباً شديداً عند صدور السجل العباسي عام ٤٠٢هـ اذ اراد العباسيون

---

(٣٣) كتاب دين الدروز، ص ٤٨ مجلد ١ .

(*) الشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين يؤكد في كتابه «مختصر البيان في مجرى الزمان» ان الأئمة الاسماعيلية بما فيهم ائمة الستر هم من سلالة الامام علي بن ابي طالب.

(٣٤) كتاب اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية، ص ٩٧ .

(٣٥) كانت من غلاة الاسماعيلية وقيل انها تآمرت لقتل الحاكم بأمر الله.

(٣٦) هو الذي جلب، حسب طلب ستّ الملك، احمد محمد الدين الكرماني ليساعده على محاربة اصحاب البدع.

(٣٧) هو صاحب الرسالة الواعظة الذي يؤنّب ويهدد بها حسن الفرغاني (الاخرم) لقوله بتأليه الحاكم بأمر الله.

تحقيره وابطال امامته بارجاع نسبه الى ميمون القداح الديصاني ونفي صلته بآل البيت.

المعروف ان الامام حمزة بن علي كان عالماً كبيراً يزن الأمور بذكاء وحكمة، خبير بالتاريخ الاسماعيلي، حذراً في اقواله وافعاله(*) ويعرف من دون شك، ان اثارة غضب الحاكم يعني القضاء على دعوة التوحيد وعلى الموحدين، فالحاكم بأمر الله، عُرف بقسوته في طلب الحق والذود عن كرامته وحكمه.

الواضح ان هذه المقولة عن نسب الأئمة المستورين الى ميمون القداح كانت من دسائس نشتكين الدرزي او احد اتباعه لاثارة غضب الحاكم بامر الله على الامام حمزة والموحدين للقضاء على الدعوة التوحيدية.

ومما يلفت النظر، ان قضية نسب الأئمة المستورين الاسماعيليين الى ميمون القدّاح اثارها الحقد العباسي، بعد مضي ثلاثمائة سنة على علاقة ميمون القدّاح وابنه عبدالله بالاسماعيلية التي حدثت في زمن الامام جعفر الصادق في القرن الثاني من الهجرة(٣٨)، كما ان المؤرخين المسلمين، الاّ قلة من أهل السنة، لم تشر الى هذا الموضوع المهم في تاريخ الاسلام، حتى اثاره العباسيون عام ٤٠٢هـ. ثم إنّ سكوت الحاكم بأمر الله عن هذا التجني في عقر داره يعني عدم حدوثه بل دسّ على الكتب الدرزية في وقت لاحق.

ويقول المستشرق الروسي فلاديمير ايفانوف(٣٩) الذي يعتبر أكثر المؤرخين خبرة في التاريخ والعقائد اذ قضى معظم حياته مع الاسماعيلية البهرة في الهند واطلع على

(*) في مقدمة كتاب اضواء على مسلك التوحيد، سامي مكارم، صفحة ٥٠ يقول المفكّر كمال جنبلاط عن الامام حمزه بن علي: «بدون ريب سيد من اسياد المسلك الحكمي التالد والطريف ومن اغزر واخطر الشخصيات الفكرية والتنظيمية القيادية والروحية».

(٣٨) ولد الامام جعفر الصادق في المدينة عام ٨٠هـ وتوفي فيها عام ١٤٨هـ.

(٣٩) المؤرخ الروسي فلاديمير اللسيفيتش ايفانوف (١٨٨٦ - ١٩٧٠) كان ملماً باللغة العربية والفارسية. درس التاريخ في جامعة سان بيترسبورغ وقضى معظم حياته في الهند يدرس المخطوطات والكتب الاسماعيلية السرية، له العديد من المؤلفات تعتبر مراجع اساسية في المذهب الاسماعيلي.

كتبهم السرية التي كانت ممنوعة عن غير علماء الاسماعيلية. «ان ميمون القدّاح وولده عبدالله لم يكونا من اصل الفاطميين، ولم تجمع بينهما أية صلة او قربى، لا من بعيد ولا من قريب. وانهما لم يكونا ديصانيين او زنديقيين، بل بالعكس، فقيهين، ورعين، وان الدعوة السرية التي نسبت اليهما لم تكن الا من نسج الخيال»(٤٠).

ويقول المؤرخ الاسماعيلي مصطفى غالب عن ميمون القدّاح: «ان الامام جعفر الصادق جعله حجاباً وسرّاً على حفيده محمد بن اسماعيل اول الأئمة المستورين. وتذكر المصادر الاسماعيلية انه يرجع في نسبه الى سلمان الفارسي ويعرف لديهم بميمون بن غيلان بن بيدر بن مهران بن سلمان الفارسي»(٤١).

والمؤرخ المصري المعاصر محمد عبدالله عنان ينهي هذا الجدل التاريخي بقوله: «فإنّا لا نود ان نذهب في تقدير نسب الخلفاء الفاطميين الى هذا الحد في الاغراق، فان النسب مسألة تشريف ليس غير، وليس له كبير دخل في نشأة الدول العظيمة، وسواء كان الخلفاء الفاطميون حقاً من نسل اسماعيل بن جعفر الصادق، ومن ثم من نسل علي بن ابي طالب، او كانت نسبتهم ترجع الى عبدالله بن ميمون القدّاح، فان ذلك لا ينتقص ذرة من عظمتهم ومجد دولتهم، فقد انشأ الفاطميون بمصر دولة من اعظم الدول الاسلامية، وحضارة من أزهى الحضارات، وانشأوا القاهرة أعظم مدائن الاسلام في المشرق والمغرب، وجامعها الأزهر أعظم الجامعات الاسلامية واينعها غرساً، ولا يمكن ان ينتقص من هذه الحقائق التاريخية العظيمة، ان تكون نسبتهم موضعاً للجدل والريب»(٤٢).

---

(٤٠) كتاب نشوء الدعوة الفاطمية، ص ١٢٨ .

(٤١) كتاب تاريخ الدعوة الاسماعيلية، ص ١٣٩ .

(٤٢) كتاب الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية، ص ٧٥ .

العودة الاسماعيلية الى العمل السياسي

كما قلنا سابقاً، انتهى الدور السياسي الاسماعيلي ابتداء من خلافة الخليفة الفاطمي الأول، عبيد الله المهدي عام ٢٩٦هـ، وانحصر نشاطها كدعوة دينية ومدرسة فكرية اجتماعية. وبقيت خارج المسرح السياسي حتى وفاة الخليفة الفاطمي الثامن ابو تميم المستنصر بالله عام ٤٨٧هـ، حين اصبح الحكم بيد الوزراء الذين اصبحوا الأسياد الحقيقيين وصار الخليفة دمية بيدهم، له الامامة والقرار الديني، والوزراء، الذين لقّبوا، بوزراء التفويض، من وزراء التمثيل، لهم السلطات الكاملة والقرار السياسي.

خلال عهد الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧هـ) اصاب مصر القحط، لانحباس الأمطار وانخفاض ماء نهر النيل، لمدة سبع سنوات اي من سنة ٤٥٧هـ الى سنة ٤٦٤هـ، حدثت مجاعة واصبحت الناس في حالة كبيرة من البؤس. ثم انفجرت حرب علنية، اطلق عليها اسم الفتنة الكبرى، بين جنود الأتراك، يعاونهم المغاربة، والقوات السودانية عام ٤٥٤هـ، وتمت هزيمة السودانيين على يد الجنود الأتراك بقيادة نصير الدولة، الذي ترك المجال لجنوده بالنهب والتعدي على الناس، فانهار القانون وعمت الفوضى.

وفي عام ٤٦٦هـ. استنجد الخليفة المستنصر بالله بالقائد الأرمني بدر الجمالي[١] الذي كان مع جيشه في دمشق. وصل بدر الجمالي القاهرة في شهر جمادى الأولى عام ٤٦٦هـ. مع قواته الأرمنية، فأعاد النظام والهدوء في البلاد ونحّى جميع القواد الأتراك عن مناصبهم حتى انه قتل بعضهم.

---

(١) بدر الجمالي ارمني الاصل كان مولى للأمير جمال الدولة بن عمّار. عيّن اميراً على دمشق مرتين عام ٤٥٥هـ وعام ٤٥٨هـ. ثم لما ثار عليه اهل دمشق نقل الى عكا. اعتنق الاسلام في سبيل النفوذ والمناصب. توفي في القاهرة عام ٤٨٧هـ.

سلم الخليفة المستنصر بالله الى بدر الجمالي جميع السلطات من أمير الجيوش الى قاضي القضاة، كما استلم جميع المناصب الادارية والعسكرية حتى صار المرجع الأول بعد الخليفة بيده السلطة الكاملة.

تزوج الخليفة المستنصر بالله ابنة القائد الأرمني بدر الجمالي التي ولدت له غلاماً دعي احمد، وتولى الاشراف على تربيته خاله أبو القاسم الجمالي الذي تلقب «بالافضل» والذي، بعد وفاة ابيه القائد بدر الجمالي، اصبح قائد الجيوش ووزير الدولة وسيطر على جميع الأعمال الادارية والسياسية.

يعتبر الاسماعليون ان عهد الخليفة المستنصر بالله كان بداية النهاية للحكم الفاطمي الشرعي، لأن بعد وفاته استلم الخلافة ابنه احمد المستعلي غصباً بدون نص شرعي بل بطريقة التزوير والاغتصاب.

تقول الاسماعيلية ان المستنصر بالله، قبل وفاته، نص بالخلافة على ابنه المصطفى بالله نزار، وهو ابنه الأكبر من زوجته الاولى، اما المستعلي احمد فكان ابن ابنة القائد بدر الجمالي التي تزوجها المستنصر بالله بعد ان تقدم بالسن، والمستعلي يصغر أخاه نزار بسنين كثيرة، وكذلك يكبره سناً اخوته محمد وعبدالله وجعفر وداود.

عند وفاة الخليفة المستنصر بالله ابرز «الأفضل»، خال المستعلي، وكان رئيس الوزراء وقائد الجيوش، سجلاً ينص على الخلافة «للمستعلي». رفض الامام نزار هذا الادعاء وأذاع سجلاً على الناس اتهم فيه «الافضل» بالتزوير والاعتداء على التقاليد المقدسة الاسماعيلية الشيعية.

خوفاً على حياته من «الافضل» ترك الامام نزار القاهرة وذهب الى الاسكندرية، مع اخوته وعدد من اتباعه، حيث بايعه حاكمها نصير الدولة افتكين والقاضي الاسماعيلي جلال الدين بن عمّار الكتامي، واعلن لقبه الخليفة نزار المصطفى لدين الله.

هاجم «الافضل» مع جيش كبير الاسكندرية للقبض على الامام نزار وأتباعه، ولكن الامام نزار تمكن من هزيمته وتبعه حتى ضواحي القاهرة ولكن في نهاية عام ٤٨٨هـ تمكن «الافضل» من حصار الاسكندرية واعتقال الامام نزار واخوته

واقتيادهم الى القاهرة حيث سجنهم ثم قتلهم.

ترك هذا الصراع اثراً حاسماً في تاريخ الاسماعيلية اذ عادت الى الظهور، بعد غيبة ١٨١ سنة عن الحقل السياسي، كحركة سياسية حين انشقت الى فريقين متنافسين، بل الى عدوين لدودين؛ اذ اعترف معظم اسماعيلية مصر وبلاد الشام واليمن بامامة ابن المستنصر بالله ابي القاسم احمد الملقب بالمستعلي واعلنوا انه الامام التاسع عشر، اما اسماعيلية فارس فقد رفضوا امامة المستعلي وايدوا في دفاعهم عن النص الأصلي للخليفة المستنصر بالله، حق نزار بالامامة والخلافة.

لا بد من الاشارة الى ان الأحداث السياسية التي جرت في عهد الخليفة الظاهر لاعزاز الله وبعده (٤١١ - ٤٢٧هـ) لا علاقة لها او تأثير على دعوة التوحيد الدرزية التي كانت انتقلت في ذلك الوقت الى بلاد الشام، ولكن هذا الفصل في الدراسة، هو تكملة لتاريخ الاسماعيلية وسرد للحوادث التي وقعت حتى نهاية الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين الايوبي.

١ - الخليفة المستعلي بالله (٤٨٧ - ٤٩٥هـ)

يقول ابن القلانسي[٢]: «وفيها وردت، اي سنة ٤٩٥هـ ، الاخبار من ناحية مصر بوفاة المستعلي بالله امير المؤمنين صاحب مصر، في صفر منها، وعمره سبع وعشرون سنة، ومولده سنة ثمان وستين واربعماية وكانت مدة ايامه سبع سنين وشهرين ونقش خاتمه «الامام المستعلي بالله امير المؤمنين». وكان حسن الطريقة، جميل السيرة في كافة الاجناد والعسكرية وسائر الرعية، لازماً قصره، كعادة المستنصر بالله، منكفياً بالله «بالافضل» سيف الاسلام ابن امير الجيوش، فيما يريده بأصالة رأيه وصواب تقديره وامضائه»[٣].

كان اسم الخليفة المستعلي، ابو القاسم احمد بن المستنصر، وكان دمية في

---

(٢) يقول عنه ابو القاسم علي بن الحق بن عبدالله الشافعي، الملقب بابن عساكر، هو حمزة بن اسد ابن علي ابو يعلى التميمي المعروف بابن القلانسي. كان اديبا له خط حسن ونثر ونظم وصنف تاريخاً للحوادث بعد سنة اربعين واربعماية الى حين وفاته، تولى رئاسة ديوان دمشق مرتين.

(٣) كتاب تاريخ دمشق، ص ٢٢٨ .

يد خاله امير الجيوش ورئيس الوزارة «الافضل» خلال فترة حكمه القصيرة. وكان الخليفة المستعلي على علاقة جيدة مع اروى الصيليحي الملقبة بحجة اليمن. وكانت القائمة بأمر اليمن التي بايعته بالامامة. وكان الداعي في اليمن انذاك يحيى بن لمك.

توفي الخليفة أبو القاسم المستعلي في عام ٤٩٥هـ ودفن في القاهرة.

٢ - الخليفة الآمر بامر الله ابو علي المنصور ابن المستعلي بالله (٤٩٥ - ٥٢٥هـ)

كان الخليفة الآمر بالله كريماً، كثير العطاء، حتى الاسراف، وعالماً يروي تاريخ العرب واديباً وشاعراً.

اخذ، للآمر بامر الله البيعة، امير الجيوش القائد أبو القاسم «الافضل» واجلسه في منصب ابيه، ابن اخت «الافضل»، فكان كأبيه الخليفة المستعلي دمية في يد «الافضل» مات اغتيالاً في الثاني من شهر ذي القعدة عام ٥٢٤هـ وعمره أربع وثلاثون سنة وقيل ان الذين اغتالوه كانوا من الفدائيين النزاريين المعروفين بلقب الحشاشين.

وكانت زوجته عند وفاته حاملاً، فولدت طفلاً سمّوه «الطيب»، ويقال ان الوصي عليه، الامير عبد المجيد الحافظ، ابن عم الخليفة الآمر بامر الله، تمكن من تدبير أمر اخفاء وجود الطفل «الطيب» ولم يعرف عن مصيره بعد ذلك شيئاً. ولكن الفرقة المستعلية التي انشقت منها الفرقة الطيبية، تقول، ان الطيب دخل كهف السّتر على ان يعود للظهور عندما يحين الوقت.

ولا بد من الاشارة الى حادثة جرت في عهد الآمر باحكام الله اي عام ٥١٦هـ اذ اجتمع في القاهرة علماء واعيان من الاسماعيلين لتثبيت حقوق الخليفة المستعلي بالله بالامامة. وكان موجوداً في الاجتماع ولي الدولة ابن بركات بن عبد الحقيق داعي الدعاة، وأبو محمد بن آدم رئيس دار الحكمة، وأبو الثريا مختار احد كبار الفقهاء وأبو عقيل قاضي القضاة. جرى في هذا الاجتماع عرض الظروف التي بموجبها نص الخليفة المستنصر بالامامة على المستعلي وعبّر عن تفضيله المستعلي على ابنه نزار. عندها شهدت شقيقة نزار بأن والدها المستنصر نص، وهو على فراش الموت، على المستعلي.

كتب سجلاً بذلك وقرىء على منابر المساجد والجوامع في مصر وسمي هذا السجل «الهداية الآمرية»[٤].

٣ - الخليفة عبد المجيد الحافظ لدين الله، الامير العسقلاني وكنيته ابو الميمون (٢٢٥ - ٥٤٤هـ)

يقول ابن القلانسي: «وقام بعده (اي الآمر بأحكام الله) ابن عمه ابو الميمون عبد المجيد ابن الامير ابي القاسم بن الامام المستنصر بالله امير المؤمنين، واخذت له البيعة ونُعت بالحافظ لدين الله، أمير المؤمنين، فاستقام له الأمر واستتب برأيه التدبير وقلّد الأمر أبا علي، احمد بن الأفضل أمير الجيوش، وزارة الدولة وتدبير المملكة، فساس الكافة اعدل سياسة، ودبر الأعمال اجمل تدبير وجرى على منهاج ابيه «الافضل»[٥].

حكم عبد المجيد الحافظ في بداية الأمر ولياً للعهد، ولكن في ربيع الثاني عام ٥٢٦هـ، بعد خروجه من السجن حيث سجنه أمير الجيوش الأفضل ابن بدر الجمالي، بايع لنفسه بالامامة والخلافة. تسببت بيعته لنفسه بالخلافة انشقاقاً هاماً في المستعلية لأنه لم ينحدر من أمام سابق مباشرة ولم ينص عليه حسب التقاليد الشيعية التي تعتبر مقدسة.

بايع عبد المجيد الحافظ المستعلية الموجودون في مصر وديار الشام، فأصبحوا يعرفون بالفرقة الحافظية. اما مستعلية اليمن والهند فقد رفضت امامته ونادوا بأمامة «الطيب» الطفل المفقود الذي يعتبرونه اماماً مستتراً، فعرفوا «بالطيبية» فانقسمت المستعلية الى فرقتين، حافظية وطيبية.

مات الخليفة عبد المجيد الحافظ في شهر جمادى الآخرة عام ٥٤٤ هجري ودفن في القاهرة.

٤ - الخليفة الظافر بأمر الله واسمه ابو منصور اسماعيل (٥٤٤ - ٥٤٩هـ) ابن الخليفة عبد المجيد الحافظ، ولد في شهر ربيع الأول عام ٥٢٧هـ وقتله الوزير ابن

---

(٤) كتاب المرشد، فلاديمير اليانوف ص ٥٠، والرسالة الهداية الآمرية، مقدمة فيضي ص ١٦ .

(٥) كتاب تاريخ دمشق، ص ٣٦٣ .

السلار في آخر شهر محرم عام ٥٤٠هـ. ووضع على العرش ابن الخليفة عيسى وكان له من العمر خمس سنوات.

٥ - الخليفة الفائز بنصر الله ولقبه ابو القاسم (٥٤٥ - ٥٥٥هـ) وهو عيسى ابن الخليفة الظافر بأمر الله وبويع بعد مقتل والده على يد الوزير ابن السلار.

توفي الخليفة الفايز في شهر رجب عام ٥٥٥هـ من مرض الصرع وكان عمره احدى عشرة سنة.

٦ - الخليفة العاضد لدين الله (٥٥٥ - ٥٦٧هـ) هو ابن محمد عبدالله بن يوسف حفيد الخليفة عبد المجيد الحافظ وابن عم الخليفة الفايز لنصر الله.

بويع الخليفة العاضد لدين الله وعمره تسع سنوات وكان آخر الخلفاء الفاطميين اذ بعده استولى صلاح بن يوسف الأيوبي على مصر وأعاد الخطبة الى الخليفة العباسي المستضيء، فانتهت بذلك الخلافة الفاطمية التي لعبت دوراً هاما وقدمت الكثير الى الأمة الاسلامية.

استلم الوزارة السلطان صلاح الدين بن يوسف الأيوبي عام ٥٦٤هـ، بعد وفاة عمه «اسد الدين شاركوه» ووضع حداً نهائيا وبشكل رسمي في شهر محرم عام ٥٦٧هـ حين، كما قلنا سابقاً، جعل الخطبة تقرأ باسم الخليفة العباسي.

وفي العام نفسه أي ٥٦٧هـ توفي الخليفة العاضد لدين الله وكان في الحادية والعشرين من العمر فانتهت بذلك الخلافة الفاطمية التي تأسست عام ٢٩٧هـ وأعطت أعظم نجاح ديني، سياسياً وثقافياً للمذهب الشيعي. عاشت هذه الخلافة ٢٦٢ سنة.

بالنسبة للأحداث الخطيرة التي جرت وما خلفته من تطورات جذرية على الدعوة الاسماعيلية التي قدمت الكثير الى التاريخ الاسلامي، لا بد من القاء نظرة، ولو مقتضبة، على هذه الأحداث التاريخية المهمة التي قضت على الحكم الفاطمي الاسماعيلي الشيعي وانشأت الحكم الأيوبي السني.

بعد مقتل الخليفة ابي منصور اسماعيل، الذي تلقب بلقب الظافر لأمر الله أعلن

أمير الاسكندرية العادل ابن السلار الثورة على الدولة وسار الى القاهرة عام ٥٤٤ هجري واحتلها واجبر الخليفة الظافر على تعيينه وزيراً بلقب الملك العادل(٦).

وقتل الخليفة الظافر بأمر الله عام ٥٤٩ هـ على يد عباس ابن زوجة ابن السلار، وكان العباس قائداً لحامية عسقلان، واحتل القاهرة عام ٥٤٨ هـ، وكما قلنا سابقاً، وضع عيسى ابن الظافر بأمر الله ويبلغ من العمر خمس سنوات، على العرش الفاطمي وأطلق عليه لقب الفايز بنصر الله.

افزعت هذه الأحداث اعيان مصر وأفراد الأسرة الفاطمية، فاستنجدوا بالحاكم الأرمني في أسيوط طلائع بن رزيك، الذي قدم بجيشه الى القاهرة، ففر عباس الى دمشق حيث قتل في ربيع أول عام ٥٤٩ هـ. فأصبح طلائع بن رزيك سيداً مطلقاً لمصر بدون منازع.

توفي الخليفة الفايز بنصر الله في شهر رجب عام ٥٥٥ هـ. فقام طلائع بن زريك بوضع أبي محمود حفيد الخليفة عبد المجيد الحافظ على العرش الفاطمي بلقب العاضد لدين الله وكان آخر خليفة فاطمي.

اغتيل طلائع بن رزيك في شهر رمضان عام ٥٥٦ هـ فعيّن الخليفة العاضد لدين الله خلفاً له ابنه رزيك بن طلائع الذي امر بعزل حاكم الصعيد شاور بن مجير السعدي.

رفض شاور السعدي هذا العزل وحشد جيشاً وسار به الى القاهرة حيث احتلها في شهر محرم عام ٥٥٨ هـ. وقبض على الوزير رزيك بن طلائع وقتله واستولى على الوزارة.

لم يستقر شاور السعدي طويلاً في الوزارة، اذ اقاله «ضرغام» قائد الجيش ففر الى دمشق والتجأ الى اميرها نور الدين زنكي طالباً مساعدته لاحتلال مصر.

في ذلك الوقت كان الصليبيون ينظرون الى سيطرة الأمير نور الدين زنكي على حلب، ودمشق وحماه، وحمص التي تشكل سداً في وجههم وعائقاً لمواصلاتهم

---

(٦) كتاب «الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم»، الدكتور فرهاد الدفتري، ترجمة سيف الدين القصير، ص ١٦١ - ١٦٢.

التي كانت تمر في آسيا الصغرى، وكذلك تحول دون توسعهم في شمال بلاد الشام، فأصبح الطريق الطبيعي الذي بقي مفتوحاً امامهم، هو طريق مصر.

حاول الصليبيون قبل ذلك الوقت، الاستيلاء على مصر، فكان خروج الملك «بودوين» الأول عام ٥١٠هـ حيث تمكن من احتلال بلدة «ايلة» على شاطئ البحر الاحمر ثم استولى على «تنيس» حيث مات عام ٥١٢هـ[٧].

ثم قام ملك بيت المقدس «عموري الأول»، الذي عرف بالشجاعة والدهاء، فوصل الى «بلبيس» عام ٥٥٨هـ. حيث اشتبك مع الجيش الفاطمي بقيادة «ضرغام» فاضطر الى الانسحاب بعد ان تكبد جيشه خسارة كبيرة بالأرواح والعتاد. هذه المحاولة من «عموري» أفزعت الأمير نور الدين زنكي ولهذا قرر ارسال جيشه الى مصر ليس لمساعدة «شاور» بل لحماية مصر من السقوط بيد الصلبيين.

ساءت سيرة «شاور» وكثر فساده وأخذ في سلب الأموال وسفك الدماء وتنكر للقائد «شاركوه» وطلب منه مغادرة مصر، ولما رفض «شاركوه» ذلك استنجد «شاور» بالصليبيين فقدم «عموري» على رأس جيش كبير فاضطر شاركوه لمغادرة مصر وذلك عام ٥٥٩هـ.

ضاق صدر الخليفة الفاطمي من اعمال «شاور» وفساده واستبداده فاستنجد بالأمير نور الدين زنكي. الذي لم يكن في حاجة الى التحريض ضد «شاور» لغدره بشيركوه وعلاقاته بالصليبيين فأرسل حملة شيركوه الثانية عام ٥٦٢هـ وكان صلاح الدين يرافقها. طلب شاور المساعدة من «عموري» الذي قدم مصر في أواخر عام ٥٦٢هـ، ولكن هذه المرة طلب جزية أربعمائة ألف دينار واتفاقية تجعل من الصليبيين حماة الخلافة الفاطمية وبهذا صار للصليبيين مندوب في قصر الخليفة العاضد لدين الله (٥٥٥ - ٥٦٧هـ).

تنكر شاور لتعهداته والتزاماته مع الصليبيين فهاجم عام ٥٦٤هـ عموري مصر واحتل منطقة دلتا النيل، فهرع شاور يطلب مساعدة الأمير نور الدين زنكي. ولكن أعيان مصر مع الخليفة العاضد، طلبوا من شيركوه، وذلك بعد انسحاب الجيش

---

(٧) كتاب «الايوبيون والمماليك في مصر والشام»، الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ص ١٠ .

الصليبي عام ٥٦٤هـ، ان يقتل شاور، لأنه سبب فساد العباد وحليف الصليبيين، فقتل مع ولده الكامل في شهر كانون الثاني عام ١١٦٩م. أي ٥٦٤هـ.

عندما توفي القائد اسد الدين شيركوه عام ٥٦٤هـ خلفه في الوزارة وقيادة الجيش ابن اخيه صلاح الدين بن يوسف الأيوبي وأطلق عليه لقب الملك الناصر ولكن غلب عليه لقب «السلطان».

قضى صلاح الدين على الجيش الفاطمي، خصوصاً قوة الجند السودان الذين كان يعتمد عليهم الخليفة، ثم أخذ بتعيين السوريين والمصريين السنّة في المناصب المهمة، كالقضاء وقيادة الجيش والمراكز الادارية الحساسة وبذلك قضى على عناصر المعارضة وما بقي من نفوذ الخليفة.

وفي أول جمعة من عام ٥٦٧هـ اعلنت الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وابطل الأذان الشيعي وأمر صلاح الدين بنزع اسماء الخلفاء الفاطميين والأئمة الاسماعيلية عن جدران ومحارب المساجد في القاهرة ثم امر بانشاء مدرسة للشافعية وعيّن قاضي القضاة الفقيه الشافعي صدر الدين الهذباني، فاندرس مذهب الاسماعيلية في القاهرة وحل مكانه المذهب الشافعي. ولكن الاسماعيلية انتشرت فرق منها في سوريا وفارس واليمن والهند، تجمع على العقيدة الاسماعيلية وتفترق عن الممارسات في تطبيق التقاليد وتفسير العقائد التي هي واحدة.

اضطر الاسماعيليون للاختفاء هرباً من اضطهاد الأيوبيين فالتجأ العديد منهم الى صعيد مصر ونادوا بداؤد ابن الخليفة عبد المجيد اماماً فقبض عليه ومات في السجن عام ٦٠٤هـ .

دمّر صلاح الدين المكتبات الفاطمية في مصر بما فيها «دار لحكمة» وأتلف مجموعات هائلة من الكتب العلمية والدينية الاسماعيلية. ويقول المقريزي: «ان عدد المجلدات التي أتلفت في «دار الحكمة» يفوق السبعمائة ألف مجلد في علوم الدين والفلسفة، وخصوصاً، كتب علوم الاسماعيلية». ثم يقول: «ان النساء في القاهرة لم يلبسن، ولمدة طويلة، الاّ احذية مصنوعة من جلد كتب دار الحكمة».

ويقول احد المؤرخين: «حمل قسم كبير من المجلدات والقي في نهر النيل، وقيل ان مياهه اصطبغت باللون الأسود. كما ان مجموعات منها حملت الى مكان قرب

الأهرام حيث احرقت، وهذا المكان يطلق عليه، حتى اليوم، تل الكتب.

ويقول ابو الفرج ابن العبري: «انتابت صلاح الدين حمّى شديدة ومات في دمشق ليلة الاربعاء ٢٧ صفر عام ٥٨٩هـ وخلّف سبعة عشر ابناً وابنة صغيرة. ولم يكن في خزانته حين موته الاّ دينار واحد وستة وثلاثون فلساً لأنه كان كريما جواداً»(*).

(*) كتاب تاريخ الزمان، ص ٢٢٥ .

الفرق الاسماعيلية التي ظهرت بعد عهد الخليفة المستنصر بالله

٤٨٧هـ - ١٣٩٦هـ

حكام دولة قلعة الموت

بالاضافة الى الأئمة الاسماعيلية – النزارية – كان «لقلعة الموت» دولة يديرها حكام أطلق عليهم لقب «مقدمين».

اول هؤلاء الحكام كان، مؤسس دولة «قلعة الموت» النزارية الاسماعيلية، الحسن بن علي بن محمد ابن الصباح الحميري. كان أبوه من الكوفة من العراق، ويقال ان نسبه يرجع الى ملوك حمير. قدم الحسن الصباح الى «قلعة الموت» في شهر رجب عام ٤٨٣هـ. وتوفي في ربيع الثاني عام ٥١٨هـ.

بعد موت الحسن الصباح، تولى رئاسة الدولة في «قلعة الموت» «ركيا بزركت اميد» الذي تميّز عهده بالحروب مع السلاجقة.

بعد وفاة «بزركت اميد» في جمادى الأولى عام ٥٣٢هـ خلفه ابنه «محمد بن بزركث اميد» الذي تابع حروبه مع السلاجقة بالاضافة، الى صراع داخلي بين الاسماعيلية سببه اصراره على تأويل الاسماعيلية على قاعدة الفقه السني وادعاؤه انه المهدي المنتظر، امام الزمان وصاحب الكشف، ولقّب «بشيخ الجبل».

بعد موت «محمد بن بزركت» في ربيع الأول عام ٥٥٧هـ تولى زعامة الدولة ابنه الحسن الثاني الذي رفع عن الاسماعيلية تكاليف الشريعة ونسخ الفروض وادعى أنه خليفة الله على الأرض، ولم يعد مجرد داعٍ كأسلافه، وانه امام روحي وقائم القيامة، مما سبب نفوراً عند كثير من اتباعه وتركهم له ونزوحهم عن قلعة الموت الى بلاد الشام.

بعد مقتل الحسن الثاني خلفه ابنه محمد الثاني عام ٥٦١هـ الذي أرغم أتباعه

على الاعتراف به اماماً بالرغم من وجود أمام من أحفاد الامام نزار. حكم أربعة وأربعين عاماً.

بعد موت محمد الثاني تولى السلطة الحسن الثالث الذي أعاد الشريعة الاسلامية السنة واتخذ المذهب الشافعي وأحرق الكتب الدينية الاسماعيلية الذي خلفه عند موته علاء الدين بن جَلال الدين وهو محمد الثالث الذي قتله غلامه حسن المازنداني وذلك بتدبير ابنه خورشاه ثم قتل خورشاه حسن المازنداني انتقاماً لأبيه.

في عصر ركن الدين خورشاه هاجم هولاكو المغولي قلعة الموت ودمّرها وذلك بعد ان سلّمها اليه خورشاه. قرّب هولاكو خورشاه وزوّجه فتاة مغولية ثم قتله وبذلك انتهت الدولة السياسية الاسماعيلية في قلعة الموت.

اكرر ما قلناه سابقاً ان هدف هذه الدراسة المقتضبة تعريف القارئ على التيارات الفكرية التي سادت في البلاد الاسلامية خلال نشوء وانتشار العقيدة التوحيدية الدرزية، وثم مدى تأثير هذه التيارات على مفاهيم الدعوة العقائدية اذا تطرقنا الى بعض الحوادث التاريخية التي جرت خلال ذلك الوقت، يكون ذلك لابراز الأسباب التي أثرت على خلق هذه التيارات الفكرية فقط والنتائج التي حصلت عنها وليس درساً في التاريخ، لأني لست مؤرخاً والمامي في معرفة التاريخ محدود لا يسمح لي الخوض في هذا الموضوع الدقيق والواسع، وهذه معرفة لا املكها واختصاصٌ أجهله، ومن يعرف حدود قدراته ويلتزم بها، يكون الله، عز وجل، منّ عليه بنعمة اطمئنان النفس لأن الادعاء مرض نفساني لتغطية جهل المدعي بالمعرفة التي يدّعيها.

هذا الفصل عن الفرق الاسماعيلية المقتضب تكملة لما آلت اليه هذه الدعوة في آخر عهدها من الشتات والتفرقة والضياع.

بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله عام ٤٨٧هـ. ابرز قائد الجيوش، وفي الوقت نفسه كان وزير الدولة، «الأفضل» ابن القائد بدر الجمالي، سجلاً ادعى ان الخليفة المستنصر بالله أصدره قبل وفاته ينص بالخلافة على ابنه احمد، الذي لقّب بالمستعلي، وهو ابن أخت القائد «الأفضل».

ثار نزار، الابن الأكبر للمستنصر بالله، وهو صاحب النص الشرعي وأصدر سجلاً اذاعه على الناس اتهم «الأفضل» بالكذب والتزوير وانتهاك حرمة التقليد الشيعي المقدس في التزام النص على الامامة.

وفي عام ٤٨٨هـ جرت معركة الاسكندرية الثانية حيث كان الامام وأخوته وبعض أتباعه لاجئين خوفاً من غدر وبطش «الأفضل»، فأسر الامام نزار وأخوته وسيقوا الى سجن القاهرة حيث قتلهم «الأفضل» عام ٤٩٠هـ ، ولم يبق حيّاً الاّ ابن الامام نزار الصغير علي الهادي الذي انتقل الى «قلعة الموت» في بلاد فارس، بمساعدة الداعي الكبير حسن الصّباح، الذي نادى به اماماً، فكان علي الهادي مؤسس الدولة النزارية الاسماعيلية.

بايع اسماعيلية مصر وسوريا واليمن المستعلي بالله، وبايعت اسماعيلية فارس علي الهادي ابن الامام نزار فانشقت الاسماعيلية الى فرقتين:

١ - الفرقة المستعلية، يؤيدها اسماعيلية مصر وسوريا واليمن

٢ - الفرقة النزارية، يؤيدها اسماعيلية، فارس ثم انضم اليها اسماعيلية سورية

بعد وفاة الخليفة المستعلي في شهر صفر عام ٤٩٥هـ واغتيال الخليفة الآمر بأحكام الله عام ٥٢٤هـ الذي ولد له طفل قبل مماته بأشهر قليلة سمي «الطيب». تولى السلطة كوصي على العرش ووليا لعهد المسلمين، ابن عم الخليفة الآمر بأحكام الله، ابو الميمون الأمير مجيد الحافظ لدين الله بن محمد بن الخليفة المستنصر بالله وكان أكبر أفراد أسرة الفاطميين سناً. اما الطفل «الطيب»، ابن الآمر بأحكام الله، فقد اختفى ولم يعرف عن وجوده بعد ذلك شيء وقد اتهم الوصي حافظ بقتله.

وفي عام ٥٢٥هـ عندما تسلم الوزارة القائد احمد ابن الفضل الجمالي وهو ابن «الأفضل»، الملقب «كتفيات» قبض على ولي العهد الأمير عبد المجيد الحافظ، الذي كان يدعى «ابن عم مولانا»، واودعه السجن. ثم دعا الوزير احمد ابن الفضل الى التخلي عن الاسماعيلية واعتناق العقيدة الشيعية الاثني عشرية ديناً للدولة ودعا نفسه نائباً للامام «القائم المنتظر» وخليفته.

اثار هذا الحدث استياءً عارماً بين أوساط الاسماعيلية ومؤيدي الأسرة الفاطمية

لأن ادعاء احمد ابن الفضل بالخلافة ينهي الأمامة الشيعية فأحمد ليس من نسل آل البيت فهو من أصل أرمني.

تآمر الاسماعيلية مع بعض قادة المغاربة من الجيش فأطاحوا بالوزير احمد بن الفضل الذي لاقى حتفه في ١٦ من شهر محرّم عام ٥٢٦هـ.

وفي عام ٥٢٦هـ خرج من السجن ولي العهد والوصي على العرش الأمير عبد المجيد بن الحافظ لدين الله وأخذ البيعة لنفسه على أنه الامام والخليفة الشرعي ولكنه لاقى رفضاً من بعض الاسماعيلية المبايعة له لأنه ليس من نسل الأئمة الخلفاء ولا ينحدر من أمام سابق ولم ينص عليه كما تفرض التقاليد الشيعية.

عندما ادعى عبد المجيد الحافظ الامامة لنفسه نجم صراع في البلاط الصليحي في اليمن، فالملكة السيدة اروى بنت احمد الصليحي، القيمة على الدعوة الاسماعيلية والتي دعمت حقوق المستعلية لمدة ستّ وثلاثين سنة، نادت بأمامة «الطيب» ابن الخليفة الآمر بالله، الذي اختفى بعد ولادته[1] واتهم الوصي عبد المجيد الحافظ باخفاء «الطيب» او قتله. يعتبر الاسماعيليون «الطيب» الامام المستور وامام الزمان وقائم الحق.

ايدت الملكة اروى الصليحي حقوق «الطيب» ونادت بأمامته وأصبحت الزعيم الرسمي للفرقة الطيبية في اليمن.

اما الأمراء الزريعيون[2] حكّام عدن وضواحيها والأمراء الهمذانيون حكّام صنعاء، اعتمدوا عبد المجيد الحافظ اماماً لهم وتولوا قيادة الدعوة الحافظية، فنتج عن ذلك أزمة بينهم وبين الصليحيين ولكنها انتهت مع حكم الزريعيين والهمذانيين بالاحتلال الأيوبي الذي انهى الحافظية في اليمن.

---

(١) يقول ابن ميسر ان الخليفة الآمر بالله بعث الى الملكة السيدة الصليحية سجلاً يعلن ميلاد ابي القاسم الطيب في ربيع الثاني من عام ٥٢٤هـ.

(٢) ينتسبون الى الأمير زريع ابن العباس الذي حكم عدن في عهد الصليحيين. انتهى حكمهم بنتيجة الفتح الأيوبي لجنوبي الجزيرة العربية عام ٥٦٣هـ.

انشقت الاسماعيلية الى فرقتين:

١ - الحافظية، يؤيدها اسماعيلية مصر وسوريا وقلة من اليمنيين.

٢ - الطيبية، يؤيدها اسماعيلية اليمن والهند.

ويقول الدكتور فرهاد دفتري «ويبدو ان الاسماعيليين المستعلين الهنود، وهم الذين كانت لهم وشائج قربى وثيقة بالدولة الصليحية، قد وقفوا بشكل كامل الى جانب الدعوة الطيبية التي اعتنقها الصليحيون»[٣].

وفي عام ٩٩٩هـ انقسمت الفرقة الطيبية الى فرقتين:

١ - داؤدية، يؤيدها اسماعيلية الهند.

٢ - سليمانية، يؤيدها اسماعيلية اليمن.

كان سبب هذا الانقسام انه بعد وفاة الداعي المطلق «داؤد بن عجب» انتخبت طيبية «كجرات» في الهند الداعي داؤد بن قطب شاه خلفاً له، فرفض طيبية اليمن ذلك وانتخبوا داعياً آخر يدعى سليمان الحسن فلقبوا بالسليمانية.

والآن نقدم عن هذه الفرق الاسماعيلية شرحاً مقتضباً عن اعمالها وبعض اللمحات الموجزة عن تغيرات حصلت في عقائدها ومسراها التاريخي.

١ - الفرقة النزارية.

هي الأقوى والأكثر انتشاراً وعدداً بين الفرق الاسماعيلية وما زالت باقية معنا حتى اليوم. كان الذي انشأها، ويمكن القول خلقها، الداعي المشهور حسن الصّباح[٤].

بعد هزيمة الامام نزار ابن الخليفة المستنصر بالله في الاسكندرية وقتله وأخوته عام ٤٩٠هـ في القاهرة، على يد أمير الجيوش «الأفضل» ابن بدر الجمالي، أرسل الداعي حسن الصّباح اثنين من أتباعه الداعي «زاد أسد» والداعي حسن بن سعيد[٥]

---

(٣) كتاب الاسماعيلية ترجمة سيف الدين القصير، ص ١٧٥ .

(٤) في كتاب تاريخ الاسماعيلية، الدكتور عارف تامر، دراسة مستفيضة عن الداعي الكبير حسن الصباح، من صفحة ٧٧ الى صفحة ٩١ .

(٥) كتاب تاريخ الاسماعيلية، عارف تامر، ص ٨٩ .

الى مصر فتمكنا من جلب علي الهادي، ابن الامام نزار الى قلعة الموت(٦) في فارس حيث بايعه الداعي حسن الصّباح بالامامة، فكان الامام العشرون الاسماعيلي، وبذلك أعلنت الدولة الاسماعيلية النزارية في بلاد فارس وكان ذلك عام ٤٨٣ هجري.

١ - الامام علي الهادي ابن نزار.

كان اول امام من النزارية الاسماعيلية بويع في قلعة الموت عام ٤٩٠هـ. ولما كان الامام علي المهدي صغير السن، اي عشرين سنة، تولى حسن الصبّاح الولاية عنه يعاونه الداعي «كيا بزرك اميد»(٧) في تعليمه واعداده للخلافة. قضى الامام علي الهادي حياته في قلعة «لمسر»، وبقي أربعين سنة على عرش الامامة الاسماعيلية النزارية(٨) توفي عام ٥٣٠هـ ودفن في قلعة «لمسر».

في ذلك الوقت نظّم الداعي حسن الصبّاح الفرق الفدائية، التي عرفت باسم الحشاشين والتي قامت باعمال مدهشة في الشجاعة والاقدام، حتى قيل عنها انها كانت أخطر فرقة سرية فدائية شهدها العالم الاسلامي.

٢ - الامام محمد ابن الامام علي الهادي «المهتدي».

هو الابن الأكبر للامام علي الهادي. ولد عام ٥٠٣هـ وبويع بالامامة عام ٥٣٠هـ. كان الامام المهتدي زاهداً ورعاً وجه عناية خاصة لتنظيم الدعاة ونشر الدعوة في فارس. نقل مقر الدعوة من قلعة «لمسر» الى قلعة الموت. توفي عام ٥٥٢هـ. ودفن في قلعة «لمسر».

٣ - الامام القاهر.

ولد الامام القاهر عام ٥٣٢هـ وبويع بالامامة عام ٥٥٢هـ. يقول الدكتور

---

(٦) قلعة الموت واقعة في جبال «البُرز» شمال غرب قزوين في بلاد فارس.

(٧) عيّن حسن الصباح الداعي «كيا بزرك اميد» خلفاً له عام ٥١٧هـ الذي استمر في حكم القلاع الاسماعيلية بعد وفاة حسن الصبّاح عام ٥١٨هـ حتى عام ٥٣٢هـ. وفي عهده بلغت قلعة الموت الاسماعيلية اوجها في الاستقرار السياسي والاقتصادي.

(٨) كتاب تاريخ الاسماعيلية، عارف تامر، ص ٩٢ .

عارف تامر: «وفي عهده عمّ الاضطراب جميع النواحي، وسمي ذلك العهد «عهد الطوائف للملوك، بحيث قامت امارات عديدة في كل جهة من الجهات، كالسلجوقيين، والخوارزميين، والغوريين والأيوبيين في الشام وغيرهم»(٩).

توفي الامام القاهر عام ٥٥٧هـ، ودفن في قلعة الموت.

ونختصر دراستنا عن الأئمة النزارية عند هذا الحد. اذ يبلغ عددهم خمسة وأربعين اماماً ولم يقوموا بأعمال تهمنا، فكرية كانت او تاريخية(١٠).

قد يسأل القارئ عن أسباب وتاريخ انتقال الاسماعيلية من فارس الى الهند. هذا الانتقال حصل في عهد الامام شاه حسن علي «الذي ولد عام ١٢١٩هـ. في بلدة «محلاّت» وتسلم شؤون الامامة عام ١٢٣٢هـ بعد وفاة والده وكان لا يعرف الاّ باسم «آغا خان» وهذا اللقب الفارسي طغى على اسمه»(١١). وكان الآغا خان الأول.

في عهد الامام شاه حسن علي حصلت بعض الاشتباكات بين الجنود الفرس، جنود السلطان فتح علي شاه القاجاري، وأفراد من الاسماعيلية من اتباع الامام شاه حسن علي، مما سبب جواً من التوتر والنفور في علاقات السلطان الفارسي والامام الاسماعيلي، فغادر الامام شاه حسن علي مع أسرته واعداد كبيرة من اتباعه الى الهند حيث استقبلته السلطات البريطانية بحفاوة واغدقوا عليه لقب «صاحب السمو»(*) وخصّوه براتب ضخم لتقديمه مساعدات مهمة في حل الخلاف بينهم وبين زعماء الهنود بشأن مدينة «كراتشي» التي كان البريطانيون يريدون تحويلها الى قاعدة بحرية لاسطولهم. زعماء الهنود رفضوا ذلك على انه توطيد للحكم العسكري البريطاني. توفي عام ١٨٨١م ودفن في مدينة بومباي في الهند.

---

(٩) كتاب تاريخ الاسماعيلية، ص ٩٤ .

(١٠) الأئمة الاسماعيليون، النزارية خمسة وأربعون، المستعلية ستة وعشرون، السليمانية واحد وعشرون، الداؤدية البهرة أربعة وعشرون.

(١١) كتاب تاريخ الاسماعيلية، عارف تامر، ص ١١٣، مجلد ٤ .

(*) آغا خان – لقب اطلقه السلطان الايراني فتح علي شاه القاجاري على الامام شاه خليل الله الذي توفي عام ١٢٣٣هـ ومن بعده أطلق على الأئمة النزارية.

اما سورية، مهد الاسماعيلية ومركز انطلاقها الى البلاد الاسلامية، فقد التجأ اليها الامام محمد بن اسماعيل، المهدي المنتظر وأول الأئمة المستورين، حيث توفي ودفن في تدمر عام ١٩٢هـ.. وكذلك الامام الثاني المستور عبدالله بن محمد بن اسماعيل، الذي عاش في سلمية وتوفي عام ٢١٢هـ ودفن في مدينة «مصياف». والامام الثالث الحسين بن احمد الملقب بالاهوازي الذي ولد في «مصياف» وسكن سلمية حيث توفي عام ٢٨٩هـ. واخيراً الامام عبيدالله المهدي الذي ولد في سلمية عام ٢٥٩هـ وغادرها عام ٢٩٠هـ الى شمال افريقيا هرباً من القرامطة الذين ارادوا قتله لادعائه أنه الامام المهدي المنتظر وليس محمد بن اسماعيل. هؤلاء الأئمة المستورون، وهم أصل الاسماعيلية، ولد وتوفي معظمهم في سورية، اذن سورية هي مهد الاسماعيلية. ما يهمنا في هذه الدراسة هو تسرب الاسماعيلية النزارية من فارس الى سورية، حيث لعبت دوراً مهماً خلال العهد الأيوبي والعهد المملوكي وتمكنت من ارساء قواعد ما يمكن وصفه، بالدولة الاسماعيلية النزارية السورية، فقاتلت الأيوبيين ثم تحالفت معهم لقتال الصليبيين.

تقسم هذه الحقبة من تاريخ الاسماعيلية في سورية الى ثلاث مراحل:

١ - قدوم الدعاة النزارية الى سوريا قبل قدوم الداعي الكبير راشد الدين بن سنان عام ٥٥٧هـ.

٢ - عهد راشد الدين بن سنان (٥٥٧ - ٥٨٨هـ) وهو العهد الذهبي للاسماعيلية النزارية في سورية.

٣ - الحقبة بعد وفاة راشد الدين بن سنان حتى عام ٦٧١هـ عندما استولى السلطان «بيبرس» المملوكي على القلاع الاسماعيلية.

في اوائل القرن السادس هجري قدم الى حلب بعض الدعاة النزارية من قلعة الموت في فارس بقيادة الداعي «الحاكم المنجم» فتمكنوا، بمساعدة اسماعيلية سورية، من احتلال بعض القلاع في جبل بهره وجبل السمّاق. وكان بعض اسماعيلية سورية في ذلك الوقت من اتباع الامام المستعلي.

عند وفاة الداعي «الحاكم المنجم» استلم الدعوة ابو طاهر الصايغ الذي تمكن من ضم بلدتي «سرمين» «وافاميا» الى دعوته، ولكن القائد السلجوقي «بلك الغازي»

تمكن، بعد مذبحة قتل فيها العديد من الاسماعيلية، من طردهم من حلب وجوارها، فنزحوا الى دمشق وضواحيها.

في عام ٥٢٣هـ ، قتل احد الفدائيين الاسماعيليين في دمشق، الزعيم السني «المزدقاني»، فثار الأهالي على الاسماعيلية وقتلوا ما يزيد عن سبعة آلاف اسماعيلي ونهبوا بيوتهم وممتلكاتهم.. بعد نكبة دمشق، تمكن الاسماعيليون من جمع قواهم واتجهوا الى جبل البهرة حيث اشتروا قلعة «قدموس» من صاحبها سيف الملك بن عمرو الدمشقي، ثم استولوا على حصون «الكهف» «والخوابي» «ومصياف»، وقيل كان عددهم في ذلك الوقت سبعين ألف نسمة، كما انهم تمكنوا من القضاء على الدعوة المستعلية. اتخذ الداعي الاسماعيلي قلعة «مصياف» قاعدة لنشاطه ولشن بعض الغارات على جيرانه السنة والنصيرية.

وابتدأ عهد راشد الدين بن سنان (٥٥٧ - ٥٨٨هـ) منذ قدومه الى سورية، ففي ذلك الوقت، توفي الداعي ابو محمد، الذي نشب خلاف على خليفته، فعينت دولة الموت الداعي علي بن مسعود الذي بعد اغتياله، استلم الدعوة راشد الدين بن سنان[١٢].

كان راشد الدين قائداً شجاعاً على جانب كبير من الذكاء ومثلاً أعلى في التقوى. جمع راشد الدين الاسماعيلية تحت قيادته ورمّم القلاع وانشأ فرقة من الفدائيين، كما تقرّب من السلطان نور الدين زنكي وحسّن علاقته مع الصليبيين كي يأمن شرهم.

في ذلك الوقت، كانت علاقة السلطان نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي يسودها العداء والتناحر على السلطة في سورية. وراشد الدين الشيعي الاسماعيلي كان يخشى تعصب صلاح الدين ضد الشيعة، فتحالف مع نور الدين زنكي للحد

(١٢) راشد الدين بن سنان بن سلمان بن محمد ابو الحسن البصري ولد في قرية قرب البصرة حيث تلقى علومه في البصرة ثم قدم الى قلعة الموت حيث اعتنق العقيدة الاسماعيلية وتقرب من الحسن الثاني ابن حاكم قلعة الموت «بزركت اميد». وعندما استلم الحسن الثاني القيادة أرسل راشد الدين في عام ٥٥٧هـ الى سورية.

من خطر صلاح الدين.. يقول بعض المؤرخين، ان نور الدين زنكي طلب من راشد الدين اغتيال صلاح الدين. أرسل راشد الدين فدائيين في شهر جمادى الثانية عام ٥٧٠هـ لاغتيال صلاح الدين ولكن المحاولة فشلت. ثم كانت المحاولة الثانية في شهر ذي العقدة عام ٥٧١هـ، عندما كان صلاح الدين يحاصر بلدة «اعزاز»، فتمكن احد الفدائيين من الهجوم عليه ولكن لم يصب صلاح الدين الاّ بخدش في خده، ولهذا قرر صلاح الدين القضاء على الاسماعيلية فحاصر معقلهم بلدة «مصياف» وقتل الكثير منهم ولم يتركهم الاّ بعد ان شفع فيهم شهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين، بالاضافة اعجب صلاح الدين بشجاعة الاسماعيليين فأراد ضمهم الى جيشه لمساعدته في حربه مع الصليبين، فتحالف معهم فاشتركوا معه في معركة «حطين»، واحتلال القدس وحصار عكا[١٣].

توفي راشد الدين بن سنان في قلعة «الكهف» عام ٥٨٨هـ بعد ان انشأ دولة نزارية في سورية مستقلة عن حكومة الموت في فارس.

بعد وفاة راشد الدين بن سنان تعاقب ثلاثة دعاة اسماعيلية على نزارية سورية الذين تمكنوا من الحفاظ على علاقة تعاون وصداقة مع الأيوبيين دامت حتى الحكم المملوكي، اذ فرض السلطان «بيبرس» ضرائب باهظة عليهم ثم استولى على قلاعهم في عام ٦٧١هـ وبذلك انتهت الدولة النزارية في سوريا وتحجم الوجود الاسماعيلي.

وحدث انقسام للاسماعيلية النزارية بعد وفاة الامام شمس الدين محمد عام ٧١١هـ عندما تسلم الامامة ابنه قاسم شاه، الذي تعود اليه أسرة الأئمة الحاليين النزاريين، ولكن بعض النزاريين رفضوا ذلك وقالوا ان الامامة يجب ان تكون للابن الأكبر مؤمن شاه، فانقسمت الأسرة النزارية الى اسرتين.

١ – القاسم شاهية، ولد القاسم شاه عام ٧٠١هـ وتولى الامامة عام ٧١٠هـ.

٢ – المؤمن شاهية، ولد مؤمن شاه عام ٦٧٩هـ واتخذ مدينة تبريز مقراً للامامة.

(١٣) كان الداعي راشد الدين بن سنان قائداً شجاعاً على جانب كبير من الذكاء ومثلاً اعلى للفضيلة. درس علوم الدين في مدرسة «الموت». في عام ٥٥٨هـ اتى بلاد الشام حيث تسلم الدعوة ونظمها وجعل منها قوة كبيرة. حكم مدة ثلاثين سنة فكان مثال العدل والتقوى. في عهده انتقلت قيادة الدعوة الى مصياف، توفي عام ٥٨٨هـ.

يقول الدكتور عارف تامر المؤرخ الاسماعيلي المعروف: «فأن الأكثرية الساحقة من الاسماعيليين في سورية، يؤمنون بالقاسم شاه ويدينون بالولاء الى الآغا خان الحالي، كريم آغا خان ويعتبرونه الوريث الرسمي لأمامة جده سلطان محمد شاه الذي توفي في ١١ تموز عام ١٩٥٧»[١٤].

٢ - الفرقة المستعلية.

كما قلنا سابقاً، تمكن قائد الجيوش، وفي الوقت نفسه وزير الدولة[١٥]، ابو القاسم شاهنشاه، المعروف «بالأفضل» وهو ابن القائد بدر الجمالي وشقيق زوجة الخليفة المستنصر بالله، من القضاء على الامام نزار، الابن الأكبر للخليفة وعلى جميع اشقائه، وأخذ البيعة الى ابن شقيقته احمد المستعلي بالله الذي كان اصغر اولاد المستنصر بالله.

يقول ابو العباس شمس الدين احمد بن خلكان: «وكانت ولادة المستعلي لعشر ليال بقين من محرم سنة تسع وستين واربعمائة بالقاهرة، وبويع في تاريخ يوم «غدير خم» وهو الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وثمانين واربعماية، وتوفي بمصر يوم الثلثاء لثلاث عشرة ليلة بقين من صفر سنة خمس وتسعين واربعماية، رحمه الله، وله من العمر ثمان وعشرون سنة وايام، فكانت مدة ولايته سبع سنين وكسراً، وتولى بعده ولده ابو علي المنصور الملقب بالآمر وله من العمر خمس سنين وشهر وأربعة أيام»[١٦].

---

(١٤) كتاب تاريخ الاسماعيلية، مجلد ٤، ص ١١٦ .

- ان كتاب تاريخ الاسماعيلية، للدكتور عارف تامر، مجلد ٤ . هو من الكتب القيمة عن الاسماعيلية النزارية ويعطي فكرة واضحة مستفضية عن الامامة النزارية والأئمة النزاريين.

(١٥) قبل قدوم بدر الجمالي الى مصر، كان الخلفاء الفاطميون رؤوساء مطلقي الصلاحيات وقواداً للقوات المسلحة يديرون شخصياً أمور الدولة ويتخذون القرارات الرئيسية وكان الوزراء يعتبرون وسطاء لتنفيذ اوامر الخليفة بدون أية سلطة فعلية أي يتمتعون بسلطات تنفيذية ولكن عند قدوم بدر الجمالي الى مصر عام ٤٦٦هـ أصبح الوزير المطلق الصلاحيات فتقلصت سلطة الخليفة بشكل خطر وأصبح الخلفاء رؤساء صوريين ودمى في ايدي وزرائهم الذين اصبحوا الأسياد الحقيقيين للدولة الفاطمية.

(١٦) كتاب وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، ص ١٧٨ .

ويقول معظم المؤرخين المسلمين ان المستعلي بالله كان تقيا ورعاً ولكن دمية في يدي خاله وزير الدولة «الأفضل»، خلال مدة حكمه (٤٨٧ - ٤٩٥هـ).

يقول المؤرخ الاسماعيلي الدكتور عارف تامر: «قتل الامام نزار وصار اخوه المستعلي خليفة، خاض الى دست الخلافة في دم اخوته وأهله، وكان زاهداً بالحكم، برماً بالناس، ميّالاً للعزلة بادي الأسى والوجوم، فلقد كان ينظر الى «الأفضل» بن بدر وهو يصرّف أمور الدين والدنيا بدونه»[١٧].

انتقلت الدعوة المستعلية الى اليمن خلال حكم الملكة السيدة اروى الصليحي[١٨] التي نشرتها في جميع بلاد اليمن وبقيت تدعمها خلال ثلاثين سنة في عهد المستعلي بالله، وخلافة ابنه ابو علي المنصور الملقب الآمر بأحكام الله الذي اغتيل في شهر ذي القعيدة عام ٥٢٤هـ وادعى بعده الامامة والخلافة الوصي الأمير عبد المجيد الحافظ مما أثار غضب الملكة السيدة فنادت بأمامة الطفل «الطيب»،

---

(١٧) كتاب تاريخ الاسماعيلية، مجلد ٣، ص ٢٢٥ .

(١٨) اسس الأسرة الصليحية في اليمن الداعي علي بن محمد الصليحي عام ٤٢٩هـ. كان ابوه محمد قاضياً سني المذهب أخذ العلم عن الداعي عامر بن عبدالله الزواجي الذي اقنعه باعتناق المذهب الاسماعيلي. كان محمد الصليحي من زعماء قبيلة همذان. تحالف محمد الصليحي مع قبائل حمير واحتل جميع انحاء اليمن حتى حضرموت وجنوب الجزيرة وذلك عام ٤٥٥هـ. انعم بالامارة على عدن وصنعاء على شقيقين همذانيين هما العباس والمسعود ابن مكرم وهما اسسا الأسرة الزريعية عام ٤٧٦هـ. وفي عام ٤٧٣ ذهب الى الحج وفي الطريق تصدى له أولاد نجاح لثأر لهم لقتله احد زعمائهم في تهامة فقتلوه. خلفه في الحكم ابنه المكرم احمد عام ٤٧٧هـ ولكن السلطة كانت لزوجته اروى بنت احمد الصليحي وعرفت باسم الملكة السيدة وكانت شخصية قديرة ذكية ذات حزم وشجاعة. دانت أروى بالولاء للمستنصر ثم ابنه المستعلي وحفيده الآمر بالله وبوفاتها عام ٥٣٢هـ انتهت سلطة الأسرة الصليحية. بعد انتهاء سلطة الصليحي أصبح الملك لأسر الهمذانيين في صنعاء والزريعيين في عدن حتى اطاحها الايوبيون عام ٥٦٩هـ. كتاب «الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم» فرهاد دفتري، ص ٨٧ .

ابن الآمر بأحكام الله، واعتبرته اماماً مستوراً، وساعدها في ذلك رئيس الدعاة يحيى بن لمك[١٩].

ويقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان: «ان الاسماعيلية الشرقيين المستعلية يتبعون نهج السنة الفاطمية القديمة». ثم يقول ان الاسماعيلية المستعلية اليمنية تعتقد ان العقل الأول هو أول من انجز التوحيد ودعا الى الصور المنيرة الأخرى، ومن هنا أعطي له اسم السابق[٢٠]» ويقول: «ان العقل لا ينسب الالوهية لنفسه، وهنا يكمن السر كله للآله كما يظهر في التجلي. ان الاثبات «الاّ الله» تستدعي للوجود العقل الثاني، النفس الكلية المنبعث الأول المسمى «بالتالي» لأن العقل يتأمله من ذاته، ووجود العقل الثاني، النفس الكلية، يكون بعداً ايجابياً في وجود العقل الأول»[٢١].

ويقول الشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين التنوخي: «لأن الباري سبحانه أبدع من نوره الشعشعاني الكامل العقل الكلي وأبدع من نور العقل النفس الحقيقي وأبدع من نور النفس الكلمة السابق وأبدع من نور السابق التالي وأبدع من نور التالي الأرض وما عليها والافلاك الدايرات والبروج الاثني عشر والطبايع الأربعة والهيولى الذي هو الطابع الخامس»[٢٢].

ان هذا التحليل الفلسفي مأخوذ عن كتب المفكرين الاسماعيليين الأوائل، كرسائل اخوان الصفا، ورسالة «تحفة المستجيبين» لأبي يعقوب اسحق السجستاني،

---

(١٩) الداعي يحيى بن لمك بن مالك ينتمي الى فرع بني حماد من همذان، خلف والده لمك في رئاسة الدعوة اليمنية عام ٤٩١هـ. توفي يحيى بن لملك عام ٥٢٠هـ، وقبل وفاته قام بتعيين مساعده الذؤيب بن موسى الوادعي الهمذاني خليفة له. الذؤيب اعترف بحق «الطيب» فأصبح أول داعي دعاة يمني نشر الدعوة الطيبية.

(٢٠) كتاب الفلسفة الاسلامية، ص ١٤٣ وص ١٤٥ .

(٢١) كتاب النقط والدوائر، ص ١٣ . كما قلنا سابقاً ان هذا الكتاب ترجمه الى اللغة الالمانية المفكر الالماني «خرستيان فريدرخ سيبلد» عام ١٩٠٢م ويباع في المكاتب وأصبح في متناول الجميع فانتفت عنه السرية الدينية.

(٢٢) المرجع نفسه.

و كتاب «راحة العقل» للداعي احمد حميد الدين الكرماني، وهي مستقاة من فلسفة الفيض للفيلسوف اليوناني افلوطين المعروف عند المفكرين المسلمين باسم الشيخ الاسكنداراني.

اعترف بأمامة المستعلي بالله معظم اسماعيلية مصر وبعض اسماعيلية سورية وكامل الجماعة في اليمن وغربي الهند. ولكن، معظم اسماعيلية بلاد الشام، التي كانت في ذلك الوقت خارج نطاق السيطرة الفاطمية، انفصلوا عن المستعلية وانضموا الى نزارية فارس.

لا توجد مؤلفات كثيرة عن الدعوة المستعلية الاّ كتاب «عيون الأخبار» للمؤرخ ادريس عماد الدين، وهو نادر جداً من الصعب الحصول عليه. وكذلك يوجد كتاب «هماري اسماعيلي» للمؤرخ زاهد علي وهو موجود في مكتبة «سورات» في الهند ولكن لا يسمح الاّ للعلماء الاسماعيليين الاطلاع عليه.

كما قلنا سابقاً، بعد اغتيال ابن المستعلي بالله احمد، ابو علي المنصور المعروف بلقب الآمر بأحكام الله في ١٤ ذي القعدة عام ٥٢٤هـ، وادعاء الوصي الأمير عبد المجيد الحافظ بالامامة والخلافة، انشقت جماعة المستعلية الى الحافظية والطيبية.

١ - الفرقة الحافظية:

ادعى الأمير عبد المجيد الحافظ، وكان الوصي على العرش وابن عم الخليفة الآمر لدين الله، الأمامة والخلافة لنفسه وأيدت السلطة الفاطمية في القاهرة دعوته ونادى بتأييدها اسماعيلية مصر وسورية والزرعيون في عدن والهمذانيون في صنعاء، ولكن هذه الدعوة لم تعش طويلاً بعد سقوط الأسرة الفاطمية عام ٥٦٧هـ على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي.

٢ - الفرقة الطيبية:

عرفت باسم الآمرية. رفضت مزاعم الخليفة الحافظ ونادت بأمامة الطفل «الطيب» ابن الخليفة الآمر بأحكام الله ولقبته الامام المستور. تلقت الفرقة الطيبية، في بداية نشأتها دعماً من اسماعيلية اليمن اذ رعتها الملكة السيدة اروى الصليحي فأصبحت اليمن مقرها الدائم، ثم امتدت الى غرب الهند حيث كان يوجد اسماعيلية مستعلية قدموا من اليمن ولقبوا بالبهرة.

ازدهرت وانتشرت فرقة البهرة الهندية الطيبية، واسم البهرة مشتق من كلمة هندوسية «Vohoru» اي تاجر وكان مركزهم الاساسي مدينة «كجرات». حافظ البهرة على روابط وثيقة مع طيبية اليمن وكانوا يرسلون طلاباً الى اليمن لدرس العقائد الاسماعيلية كما ان اليمن زودتهم بمجموعات كبيرة ونادرة من كتب الأدب والفلسفة الاسماعيلية ما زالت في مكتباتهم في سورات وبومباي حتى يومنا هذا.

يرأس البهرة داع مطلق[٢٣] ويعتمد الشريعة الشيعية النص بالامامة من الأب الى الابن، وهو الرئيس الأعلى للدعوة له الحكم المطلق ويعتبر معصوماً عن الخطأ. وكان للداعي المطلق مساعدون يطلق عليهم لقب المأذونون او المكاسرون.

بقيت الدعوة الطيبية الهندية تحت سلطة القيادة المركزية والدعاة الطيبين في اليمن حتى منتصف القرن العاشر هجري عندما تحول مقر القيادة الى مدينة كجرات في الهند. قبل ذلك التاريخ، كان رئيس الدعوة البهارية الهندية يعيّن من قبل الداعي المطلق المقيم في اليمن. بقي هذا التنظيم حتى انشقاق الطيبيين اليمنيين والبهرة الهنود الى فرقتين، داؤدية وسليمانية حيث أصبح لكل واحد منهما دعاته وتنظيماته ومقر قيادته.

لم يتعرض طيبو «كجرات» للاضطهاد من حكام الهندوس المحلّيين، فنمت الجماعة الطيبية وتطورت من دون اي عائق حتى الغزو الاسلامي السني عام ٦٩٧هـ حيث اضطهدهم الحكام المسلمون السنة الذين كانوا تحت سلطة الحكم المركزي في «دلهي». في عام ٨١٤هـ، في عهد السلطان احمد الأول ابن ظفر خان، بدأ الاسماعيليون يتعرضون لاقسى انواع الاضطهاد مما اضطر العديد منهم الى التحول الى الاسلام السني.

في عام ٩٧٤هـ تحول مقر القيادة المركزي للدعوة الطيبية من اليمن الى مدينة كجرات على يد الداعي جلال بن حسن. وكان جماعة الطيبية في ذلك الوقت قد ازدادوا عدداً، بالرغم من التحول السني السابق، الى حد فاقوا طيبية اليمن الذين كانوا يعانون صعوبات كثيرة في أعقاب الاحتلال العثماني لليمن عام ٩٢٣هـ.

---

(٢٣) الداعي المطلق يعتبر نائب الامام الغائب المستور «الطيب».

وكان تحويل مقر القيادة الطيبية الى الهند مؤشراً على النهاية الفعلية القطعية للطور اليمني للاسماعيلية الطيبية[٢٤].

ويقول الدكتور «فرهاد دفتري»: «وقدم الاسماعيليون الهنود خدمة فريدة الى الاسماعيلية ايضاً عن طريق حفظهم لقسم جيد من التراث الأدبي الاسماعيلي، بما في ذلك الأعمال الكلاسيكية للفترة الفاطمية والرسائل التي كتبها الطيبون اليمنيون، وكانت هذه المخطوطات الاسماعيلية، وهي التي يطلق عليها مجتمعة اسم «الخزانة المكنونة» قد تحولت، ولا سيما بعد القرن العاشر - السادس عشر، من اليمن الى الهند حيث استمر نسخها هناك من قبل مثقفين اسماعيليين بهرة افضل في «كجرات» وفي أمكنة اخرى وتوجد في الوقت الحاضر مكتبات رئيسية لمثل هذه المخطوطات في سورات، وبومباي وبارودا». ثم يستطرد بالقول: «وكان الداعي المطلق للبهرة الداؤديين قد أسس قواعد صارمة في ما يتعلق باستخدام مكتبة سورات الضخمة من الكتب والمخطوطات»[٢٥].

وفي عام ٩٩٩هـ انقسمت الفرقة الطيبية الى فرقتين:

١ - داؤدية، تؤيدها اسماعيلية الهند

٢ - سليمانية، تؤيدها اسماعيلية اليمن

سبب هذا الانقسام وفاة الداعي المطلق «داؤد بن عجب شاه» فانتخبت جماعة طيبية كجرات في الهند «داؤد بن قطب شاه» خلفاً له. رفض طيبية اليمن ذلك وانتخبوا داعياً آخر يدعى سليمان الحسن فلقبوا بالسليمانية وهم من أصول عربية جلهم من قبيلة «يام» وهي فرع من قبيلة همذان في اليمن. السليمانيون يميلون الى العزلة ولا يختلطون بغيرهم من المذاهب الأخرى ويحتفظون بكتبهم في سرية تامة وينتشرون في نجران بالمملكة السعودية واليمن والباكستان والداعي المطلق في يومنا هذا هو علي بن الحسين ومقره في مدينة نجران.

اما الداؤدية فيسكنون الهند ويرأسهم داع مطلق يعتمد النص في الامامة من الأب الى الابن وله الحكم المطلق وتأويل القرآن وهو معصوم عن الخطأ.

---

(٢٤) كتاب «الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم»، فرهاد دفتري، ص ١٩٩ .

(٢٥) المرجع نفسه.

الداؤديون يعتمدون الاصول الاسماعيلية في مراتب الدعوة، فعندهم الداعي والحجة والمكاسر والمأذون، وعندهم مشايخ يعرفون بالحدود.

يؤمن الداؤديون بفلسفة الفيض الالهي، وهو ابداع الله للعقل والنفس والهيولى، ولديهم مدرسة كبيرة اسمها «دارسيفي» لتعليم الفقه الجعفري والفلسفة الاسماعيلية.

يؤدي كل داؤدي، يبلغ الخامسة عشرة من عمره، قسم الولاية المعروف عندهم «بالميثاق» يتعهد فيه الولاية للأئمة الاسماعيلية والطاعة العمياء للداعي المطلق.

ان عقيدة البهرة الداؤدية كعقيدة التوحيد الدرزية فهي تحرّم بصورة صارمة التبغ والمشروبات الروحية، ما يجعل بعض الموحدين يعتقد، خلافاً للواقع، وجود دروز في الهند.

يكتب الداؤديون بالخط العربي ولغتهم مزيج من اللغة الكجراتية واللغة العربية.

يميل الداؤديون الى الاعتزال والزهد، وكالموحّدين الدروز يحتفظون بكتبهم بسرية تامة ولا يتزوجون من غيرهم كالهندوس أو من فرق اسلامية اخرى.

الداعي المطلق للداؤديين في يومنا الحاضر هو «برهان الدين بن طاهر سيف الدين» ويقيم في مدينة بومباي في الهند.

اما الفرقة السليمانية في اليمن فيقدر عددها بستين الف نسمة يعيشون في المقاطعات الشمالية وفي المنطقة الحدودية بين اليمن والمملكة العربية السعودية ويعيشون بمعزل عن الزيديين وبقايا الداوديين كما يوجد منهم في بومباي والباكستان واحمد آباد.

يختلف السليمانيون عن الداوديين أنهم من أصل عربي والداؤديون بهرة من أصل هندي ولغة السليمانيين الأوردية وهي خليط عربي - سنسكريتي ولكنهم يستعملون العربية في المراسلات كما أنهم، كالداؤديين يحافظون على كتبهم بسرية تامة.

العقائد الاسماعيلية وتأثيرها على العقيدة التوحيدية الدرزية

ذكرنا سابقاً ان هذه الدراسة المقتضبة لا تتعدى البحث التاريخي على مدى الحركة الفكرية الفلسفية والعوامل السياسية والاجتماعية التي تسببت في نشوء ثم انتشار الدعوة التوحيدية الدرزية، كما اوضحنا بأن لا علاقة لهذه الدراسة بالمعتقدات المذهبية الدرزية.

ان المذهب التوحيدي أساسه الطاعة والخضوع لمشيئة الله تعالى والايمان المطلق بتوحيد المولى، عز وجل، وان ملاك المعرفة التوحيدية الالهية هو العقل، علة العلل وأقرب الحدود الروحانية الى الخالق وأسبقها الى توحيده ومعرفته. واما النفس، ثاني الحدود، فهي ملاك الوحي الالهي، واطمئنانها، هو الرضى والتسليم لمشيئته تعالى، والسعادة الكاملة التي سبغها على المؤمنين من عباده.

قبل الخوض في دراسة العقائد الاسماعيلية وتأثيرها على عقيدة التوحيد الدرزية، لا بد من الاشارة إلى ان قسماً كبيراً من الكتب الاسماعيلية أتلف، ومكتبات مصر، التي كانت تحتوي على مئات الألوف من المؤلفات العلمية والفلسفية دمرت عند انتقال سلطة الحكم من الفاطميين الى الأيوبيين عام ٥٧٥هـ عندما انهى السلطان صلاح الدين يوسف الأيوبي الخلافة الفاطمية وجعل الخطبة تقرأ في مساجد مصر باسم الخليفة العباسي المستضيء بالله[١].

---

(١) صلاح الدين اصدر اوامره الى الجند والى عامة الناس بأن يتصرفوا كما يشاؤون بالمكتبات الفاطمية. وهكذا امتدت الأيدي الأثيمة الى هذه الخزائن وأخذت تعبث بتلك النفائس فحمل قسم كبير منها والقي في نهر النيل حتى ان مياهه اصطبغت باللون الأسود.

قد يكون انه كان بين الكتب التي اتلفت مؤلفات عن عقيدة التوحيد الدرزية اذ بالاضافة الى مؤلفات الامام حمزة بن علي بن احمد، كان يوجد كتاب «الدستور» لمحمد بن اسماعيل الدرزي (نشتكين) وكتاب لأبي منصور البرذعي اشار اليه داعي الدعاة احمد عبد الحميد الكرماني في احد كتبه. قصر المدة التي انطلقت خلالها دعوة التوحيد لم يسمح بكتابة مؤلفات كثيرة ومهمة عنها =

والمعروف تاريخياً ان العديد من المصادر السنية والشيعة الاثني عشرية كان متحيزاً ضد الاسماعيلية الى حد تشويه الحقائق التاريخية وحتى طمس معالمها، هذا مع العلم ان الحركة السرية الاسماعيلية، من طبيعتها اخفاء عقائدها، لا على اعدائها فقط، بل حتى على قسم كبير من اتباعها الذين يحرمون فرصة الاطلاع على اسرارها العقائدية ومكنوناتها الروحانية.

وتعتبر الكتب التوحيدية الدرزية، التي منها يمكن الاطلاع على بعض التوافق بينها وبين العقائد الاسماعيلية، خصوصا فلسفة الفيض الأفلوطنية اليونانية المحدثة اشد تحفظاً من الكتب التي تركها لنا الفاطميون الاسماعيليون على اعتبارها كتابات فرقة باطنية تعتمد السرية التامة للحفاظ على معتقداتها الدينية لأنها وضعت لنخبة من المؤمنين، فهي تنطوي على معلومات حرّمت على من لا يكون أهلاً لها من الجماهير.

الجدير بالاشارة اليه ان معظم المفكرين الاسماعيليين كانوا من اصول فارسية، عدا القاضي النعمان بن محمد بن حيون (توفي عام ٣٦٣هـ) فقد كان مغربياً[٢] صحب الخليفة الامام المعز لدين الله من المغرب الى مصر.

من ابرز المفكرين الفرس الذين تركوا اثاراً كثيرة على المعتقدات الاسماعيلية هم: محمد بن زكريا الرازي، ابو يعقوب اسحق السجستاني، ابو رشيد احمد

= اذا استثنينا رسائل الحكمة والمصحف المنفرد بذاته نجد ان جل ما كتب عن عقيدة التوحيد كان في زمن لاحق بعد انتقال الدعوة الى لبنان. وبعد زمن الأمير السيد عبدالله التنوخي.

(٢) هو النعمان بن ابي عبدالله بن محمد بن منصور بن احمد بن حيون التميمي. أعظم فقيه اسماعيلي من بيت علم وفقه. ولد سنياً على مذهب مالك بن أنس ثم اعتنق الاسماعيلية عام ٣١١هـ ولد عام ٢٩٠هـ وتوفي في القاهرة عام ٣٦٣هـ. دخل في خدمة الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي عام ٣١٣هـ ونادم الخلفاء الفاطميين الأربعة الاوائل ثم رافق الخليفة المعز لدين الله الى القاهرة. اسس اسرة متميزة من القضاة وكان ابنه ابو الحسين علي اول شخص حمل لقب قاضي القضاة. صرف القسم الأعظم من حياته من تأليف الكتب في الشريعة والفقه والتاريخ والتأويل. من أهم مؤلفاته، «دعائم الاسلام» «الأيضاح» وغيرهما.

ابن ابراهيم النيسابوري، احمد حميد الدين الكرماني صاحب الكتاب المشهور «راحة العقل» المؤيد في الدين وهبة الله بن موسى الشيرازي، ناصر خسرو ومحمد بن سعد بن داؤد الرفتة.

وهولاء المفكرون الفرس كانوا نواة الرفض الفارسي لاحتكار العرب للأمامة والخلافة، اذ ان الأمامة عند السنة تنحصر في قريش، وعند الشيعة في آل البيت، والقرآن انزل بلغة عربية والنبي عربي، وهذه المعطيات جعلت الفرس يشعرون ان عهدهم انقضى في المنطقة، فهم اخوان في الدين ولكن الدين عربي.

واضافة الى التأثير الفكري الفارسي على العقائد الاسلامية، نرى الفكر اليوناني، وهو من الينابيع الأولى والاساسية للفلسفة في التاريخ، ينتشر في منطقة البحر المتوسط ويمتد حتى بلاد الهند.

تسللت الفلسفة اليونانية الى بلاد فارس من مدرسة «الرها» في بلاد الشام، والتي تأسست في اوائل القرن الخامس ميلادي. وفي عام ٤٨٩م اقفلها الامبراطور البيزنطي «زينون» بسبب نزعتها النسطورية، فالتجأ بعض الاساتذة والعلماء الى مدينة «نصيبين» حيث أسسوا مدرسة أصبحت مركزاً مهماً لدرس الفلسفة اليونانية واللاهوت المسيحي. وفي مدرسة نصيبين ظهر «بروبيس» الذي كان أول مترجم للفلسفة اليونانية الى اللغة السريانية.

وفي عام ٥٢١م أسس الملك الفارسي الشهير، كسرى انوشروان، معهد جنديسابور[٣] في فارس، الذي اشتهر كمؤسسة كبرى للعلوم اليونانية القديمة وكان أساتذة هذا المعهد جلّهم من السريان والفرس.

وفي عام ٥٢٩م، عندما أقفل الامبراطور جوستنيان معهد «اثينا» لجأ الى فارس، خصوصاً معهد جنديسابور، سبعة من الفلاسفة الافلوطنيين المتأخرين.

وفي بلاد الشام تأسست، في القرن السابع ميلادي، مدرسة في دير قنسرين، أسسها الراهب «يوحنا بارافتويا» وفيها نبغ «سويروس سيبوخت» (توفي عام ٦٦٧م)

(٣) تخرج من معهد جنديا سبور الامام حمزة بن علي بن احمد الزوزني.

والذي ترجم العديد من الكتب اليونانية الى اللغة السريانية كما وضع شروطاً لكتابين من كتب الفيلسوف اليوناني ارسطو طاليس، هما كتاب «العبادة» وكتاب «الشعر» كما الّف كتابا تفسيراً لكتاب «التحليلات الأولى» وهو عن الفلسفة اليونانية.

وكان من تلاميذ مدرسة دير قنسرين يعقوب الرهاوي الذي كتب في اللاهوت والفلسفة، وكذلك كان «جاورجيوس» الملقب بأسقف العرب، الذي ترجم كتاب «الاياغوجي» للفيلسوف اليوناني «فرفوريوس»(٤).

ومن المترجمين السريان في مدرسة نصيبين كان الراهب «سرجيوس الرأس عيني» (توفي عام ٥٣٦م) والذي ترجم كتب أرسطو طاليس وجالينوس الى السريانية.

وفي القرن السابع ميلادي تأسس معهد حرّان للعلوم اليونانية الذي ساعد كثيراً على انتشارها كما نشر فلسفة الفيلسوف البابلي هرمس(٥).

لم اشر الى المترجمين العرب الذين عملوا عند الخليفة المأمون ابو جعفر الرشيد (١٩٨ - ٢١٨هـ) في بيت الحكمة. في بغداد الحنين ابن اسحق وابنه اسحق، لأن مايهمنا في هذه الدراسة هو الانتشار الفلسفي قبل الاسلام، اي قبل الهجرة عام ٦٢٢م وليس خلال العهود الاسلامية.

وهذا البحث المقتضب عن انتشار الفلسفة اليونانية في بلاد المشرق، قبل انتشار الدعوة الاسلامية، هو لتعريف القارئ على مدى تأثير هذه الفلسفة في العقائد الاسماعيلية وعلىعقيدة التوحيد الدرزية بصورة خاصة.

ولا بد من الاشارة الى ان بعض المفكرين المسلمين، وخصوصاً الاسماعيليين، يقول بأن العقائد الاسماعيلية تأثرت كثيراً بالفلسفة اليونانية التي اقتبسوها من رسائل

---

(٤) اذا اراد القارئ معلومات مفصلة عن انتشار الفلسفة اليونانية في بلاد المشرق وعن الترجمة، عليه بكتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية لهنري كوربان، ص ٥٥ - ٦٥ وكتاب الدكتور ماجد فخري، تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ٢٧ - ٤١ .

(٥) في كتاب الصحف الموسومة بالشريعة الروحانية في علوم اللطيف والبسيط والكثيف توجد رسالة «هرمس»، «ذي امحت به» الى ابنه. هذه الرسالة الصوفية تبلغ مائة وسبع عشرة صفحة.

اخوان الصفا. ولكن هذا القول ينفيه الدكتور «فرهاد دفتري» اذ يقول ان المفكر محمد احمد النسفي هو الذي ادخل الفلسفة اليونانية الى العقائد الاسماعيلية وان كتابه «المحصول» خصص لعرض صنف من نظام «متافزيقي» افلاطوني يحتوي على «كوزمولوجية» اسماعيلية جديدة ويمثل اقدم شاهد على التوفيق والملائمة بين الاسماعيلية والافلاطونية الحديثة»(٦).

ويقول المستشرق الالماني: «ساموبل شترن» حيث انه، اي النسفي، اقدم مفكر اسماعيلي يدخل الفلسفة الافلاطونية المحدثة، وبدقة اكثر، في الفلسفة الاسلامية الوليدة في الفكر الاسماعيلي»(٧).

اما عن رسائل اخوان الصفا، فيقول الدكتور: «فرهارد دفتري». «ولم يكن للرسائل اي تأثير على الاسماعيلية المعاصرة لها بما فيها العقائد التي دعا اليها الاسماعيليون الفاطميون، كما لم يشر اليها مؤلفو الفترة الكلاسكية (٢٩٧ - ٤٨٧ هـ)(٨).

ويقول المفكر الشيعي اللبناني حسين مروه: «ويتبلور استنتاجنا هنا بأن الوجه الاسماعيلي الذي يظهر على «اخوان الصفا» لا يعطي العلاقة بينهم وبين الاسماعيلية اكثر من هذه الصفة للأفكار الموضوعية، فان لدينا اقتناعاً بأنه كان لاخوان الصفا وجود مستقل عن التنظيم الاسماعيلي، رغم ما نراه من نقاط الالتقاء الكثيرة بينهما. ولكن وجودها المستقل لا ينفي ان يكون لها نوع من الارتباط المبدئي او المذهبي بأصول الاسماعيلية. ومنشأ اقتناعنا بهذا الرأي هو انه ليس في المصادر التاريخية المعاصرة «لاخوان الصفا» ولا في المصادر القريبة العهد بعصرهم، وثائق تتحدث عن نشاطهم كجماعة منظمة ولا عن استخدام الاسماعيلية رسائل اخوان الصفا في نشاط الدعاة الاسماعيلين المنتشرين في كثير من بلدان العالم الاسلامي حينذاك»(٩).

(٦) كتاب «الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم»، ص ١٢٢ .

(٧) Samuel Stern Miklos, Studies in early Ismailism .

(٨) كتاب «الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم»، ص ١٢٣ .

(٩) كتاب النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، المجلد ٢، ص ٣٦٤ .

ويقول حسين مروه: «والاّ لماذا لم تظهر أثار لنشاطهم يتحدث عنها المؤرخون في عصرهم او العصور القريبة منه لو كان هذا النشاط موجوداً بالفعل، لماذا لم يتحدث عنهم الشهرستاني او ابن خلدون مثلاً؟»[١٠].

بعد هذه المقدمة المقتضبة عن الفلسفة اليونانية التي كان لها تأثير ملحوظ على الفكر الاسماعيلي، خصوصاً فلسفة الفيض، يمكننا الآن ان نبحث في العقائد الاسماعيلية ونرى هل ان العقيدة التوحيدية الدرزية، التي كذلك تأثرت بالفكر اليوناني، انطلقت من العقائد الاسماعيلية، كما يظن بعض الباحثين الدروز، او على الأقل، تأثرت بها، واذا كان ذلك صحيحاً فما مداه في تكوين العقيدة التوحيدية الدرزية.؟..

الدعوة الاسماعيلية هي المظهر الالهي في الامامة التي تشكل المحور الاساسي في التشيع الاسلامي وتنطلق من ان لكل ظاهر حقيقة باطنه يظهره التأويل المخول به الامام، وهو نائب الله على الأرض، وهذا المظهر الالهي الشيعي هو المنطلق العرفاني الأول في الاسلام[*].

الاسماعيليون، مثل كل المسلمين، قبلوا بالقرآن الكريم وسنة الرسول مصدراً رئيسياً لعقائدهم. غير انهم، وعلى وفاق مع الشيعة الاثني عشرية، تحولوا عن قواعد السنة باعترافهم وتقيدهم بالأحاديث التي رواها ائمتهم من آل البيت.

تقول الاسماعيلية عن أهمية أعمال الامام وصفاته. «يتمركز الاختلاف الاساسي بين انظمة الفقه الاسماعيلي وبين تلك الانظمة السنية، حول عقيدة الامام.

---

(١٠) كتاب النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، المجلد ٢، ص ٣٦٥ .

(*) يتردد كثيراً اسم الفيلسوف افلوطين، صاحب فلسفة الفيض في هذه الدراسة وهو المعروف عند العرب باسم الشيخ الاسكندراني او الشيخ اليوناني. كان مواطناً معرباً ولد في اسيوط عام ٢٠٥ ميلادي وتوفي ٢٧٠م. في عام ٢٤٢م التحق بالجيش الروماني بقيادة الامبراطور «غورديانوس» لمحاربة الفرس وتعلم حكمة الشرق من منابعها ثم رجع الى انطاكية ومنها الى روما حيث استقر بها وعكف على تعلم الفلسفة. كان زاهداً متقشفاً عاش حياة القديسين وسط ترف روما وتهتكها. جمع كتاباته تلميذه «فرفوريو» وجعلها في ستة كتب كل كتاب تسعة فصول فعرفت بالتاسوعات. فلسفته تمتاز بالعمق الصوفي ووحدة الوجود ويقول ان الوجود الحقيقي هو وجود الاول ويليه وجود العقل ثم وجود النفس ووجود العقل مقدم على وجود النفس ووجود الاول مقدم على وجود العقل اما المادة فلا ذكر لها.

فالامام بالنسبة للاسماعيلية، كذلك للشيعة الاثني عشرية، هو المرجع النهائي في تفسير كلام الله المنزل، والمستودع الوحيد بعد النبي للعبادات والسلوك الانساني. والامام له الحق المطلق في تفسير المعاني الباطنية ذات الأهمية الشاملة للقرآن وبذلك كانت له العصمة. والأئمة رفضوا القياس والاجماع، في حين انهم ساهموا فيما بعد بايجاد نوع من الاجماع والعقل، او العمل العقلي المنظم. ويقولون ان الأئمة هم المؤهلون لاصدار الأحكام الشرعية فهم فسروا الشريعة المعترف بها، وهولاء يعرفون باسم المجتهدين ويمارسون الاجتهاد في احكامهم على العقلية الشرعية».

ويختلف الموحدون الدروز عن الاسماعيلية، اذ لا امامة عندهم فقد انتهى دورها عند ظهور صاحب الكشف، وسبق وقلنا، يقولون بذلك: «اذ قام بالتوحيد آخر قائم من الأئمة الطاهرين المهديين وعرفنا ان صاحب الكشف وهو صاحب القيامة واليه انتهت ادوار الامامة». واستعاض الموحدون عن الامامة بمشيخة العقل ويعتبرون امتداداً تاريخياً فقط لفكرة الامامة. الموحدون الدروز لا يعتبرون شيخ العقل نائب الله على الأرض وان له العصمة وحق التأويل كما تعتبر الاسماعيلية الامام. ان هذا الاختلاف بين العقيدتين جذري واساسي فالموحدون الدروز كذلك يعتبرون ان الوقت انهى التمييز بين الباطن والظاهر وأصبح على الموحدين تحقيق ذواتهم عن طريق الاعتراف المطلق بوحدانية الله تعالى فهو حاكم الكون وخالقه.

ان تفسير كلمة التأويل التي تعتمدها الاسماعيلية والشيعة الاثني عشرية من دون سائر المذاهب، فيقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان «وتشكل كلمة «التأويل» مع كلمة «التنزيل» زوجاً من المصطلحات والمعاني المتضادة المتكاملة «فالتنزيل» يعني الدين الوضعي او الكلام الذي أملاه الملاك على النبي، انه انزال هذا الوحي من الملاء الاعلى، اما التأويل فهو على العكس، انه عودة ورجوع الى الأصل، وبالتالي الى المعنى الحقيقي الاصلي للكتاب، انه اعادة الشيء الى أصله، فالذي يمارس التأويل اذن هو شخص يحيد بالمقالة عن ظاهرها الخارجي ويعيدها الى حقيقتها»(١١).

(١١) كتاب «تاريخ الفلسفة الاسلامية»، ص ٥٢ .

لا بد من الاشارة الى الباطنية، وليدة التأويل، فهي تأويل النص الظاهر بالمعنى الباطن تأويلاً قد يصل التباين في الباطن والظاهر الى حد التناقض الخالص. الباطن يعني ان النصوص الدينية هي رموز واشارات الى حقائق خفية، والطقوس والشعائر هي رموز كذلك رموز واسرار، وان عامة الناس يقنعون بالظواهر ولا يفقهون المعاني الخفية التي هي من شأن علم الحق، اي، علم الباطن. ان لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً، والتأويل هو مزيد المعرفة ابتغاء مزيد من العمق من الآراء التي يحتويها التنزيل.

ان ترتيب مرتب الدعوة الاسماعيلية الهرمي هو كالآتي:

١ - الناطق - النبي، ينزل عليه الوحي من الله عز وجل، وهو النذير والبشير.

٢ - الاساس - او الوصي. هو الامام الاول علي بن ابي طالب.

٣ - الامام - له الامر والعصمة، يؤم الناس ويدلهم على عبادة الله. هو نائب الله على الأرض ومستودع سر رسول الله.

٤ - الباب - ان مصطلح الباب (احياناً باب الأبواب) يطلق على الرأس الاداري في الدعوة وهو الشخصية التي تلي الامام مباشرة وهو الناطق باسم الامام، عند النصيرية يعتبر نائب الامام، وهي مرتبة سلمان الفارسي.

٥ - الحجة - له رتبة الحكم في الحق والباطل. هونائب الامام عند غيابه فهو الظل الذي لا يفارقه.

٦ - داعي الدعاة - هو رئيس الدعاة والمسؤول امام الحجة عن توزيعهم في الجزر والاقاليم وعن اختيارهم وله رتبة تعريف الحدود.

٧ - داعي البلاغ - له مسؤولية تبليغ الأوامر والارشادات الى الدعاة في الجزر والاقاليم وهو المشرف على المراسلات والمسؤول عنها.

٨ - النقيب - له صلاحية نشر تعاليم الدعوة ويحق له السفر في كل مكان بدون الاستئذان من احد ويرتبط بداعي الدعاة مباشرة. يطلق عليه لقب «ذو مصة» لأنه يمتص العلم والمعرفة من داعي الدعاة الذي يمتصهما من الحجة والحجة من الامام.

٩ - الداعي المأذون - له رتبة اخذ العهد والميثاق ولكن لا يحق له السفر الى بلد ما الاّ باذن من داعي الدعاة.

١٠ – الداعي المحدود – لا يحق له ان يتكلم او يسافر الاّ في منطقة يحددها له داعي الدعاة.

١١ – الجناح الايمن – ملحق بالداعي النقيب يقوم بخدمته يزور البلد الذي يريد الداعي زيارته فيدرس اوضاعه السياسية والاجتماعية ويقدم بها تقريراً الى الداعي النقيب.

١٢ – الجناح الايسر – ملحق بالداعي النقيب وعليه الواجبات نفسها ويقوم بأعمال الجناح الايمن نفسها.

١٣ – المكاسر – له الحق مجادلة ومناقشة رؤساء المذاهب والعمل على نشر الدعوة في البلد الذي يزوره. يتلقى الأوامر من داعي الدعاة.

١٤ – المكالب – صلاحياته تنحصر في تحري الأخبار وكل ما يتحدث به الناس عن الدعوة.

١٥ – المستجيب – اول رتبة يصل اليها المنتسب للدعوة. وهذه تمثل القاب وصلاحيات الاشخاص الذين ينتسبون الى جهاز الدعوة الاسماعيلية.

الموحدون الدروز يشيرون الى هذه المراتب العقائدية الاسماعيلية، خصوصاً الناطق، الاساس، الامام، الحجة والداعي من دون توضيح عن اعمال او مسؤوليات الدعاة او اعمالهم ولا يعتمدونها في اعمالهم العقائدية الاساسية او ينظرون اليها كترتيب او قاعدة لمراتب الدعوة.

وتقول الاسماعيلية عن صفات ومسؤليات واعمال اصحاب المراتب العقائدية الروحانية ما يلي: ان الامام سمي الامام لأنه يؤم بهم ويدلهم على عبادة الله، وسمي السابق لأنه اول من سبق الى معرفة المولى سبحانه تعالى، وسمي الناطق لأنه ينطق في كل زمان بالحق، وسمي خليفته أساس لأن المؤمنين يستجيبون الى كلامه في الدين. وسمي التالي لأنه يتلو علوم الامام. وسمي بالجد، لأنه جدّ في طلب العلم من الامام. وسمي المأذون فتحاً لأنه يفتح باب العهد والميثاق. وسمي المكاسر الخيال لأنه يلوح بكلمة ومكاسرته مثل الخيال.

والاسماعيلية تقول: «ان النبي كان خاتم النبيين وبموته تنتهي النبوة ولكن يبدأ عهد الولاية، اي الامامة، (الامامة انتهى دورها عند الموحدين) ثم يقولون ان دعائم

الاسلام هي الصلاة، والزكاة، والطهارة، والصوم، والحج والجهاد والولاية، وهي أفضل الدعائم، فهي باطن النبوة، والولي يعقب النبي، لأن النبوة ليست غير ظاهر الولاية، اي دور الباطن يعقب الظاهر والحقيقة تتلو الشريعة، والاولياء هم اصدقاء الله تعالى».

ويقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان: «الشيعية الاثني عشرية، تجهد للحفاظ على توازن الظاهر والباطن، بينما الاسماعيلية، ترى ان كل ظهور ظاهري له معنى داخلي مستور وحقيقة باطنية، وهي اسمى من الحقيقة الظاهرة، اذ هي معرفة المؤمن للتقدم الروحي. والولي هو أساس التجلي الأول، اذاً، الظاهر صدفة لا بد من كسرها نهائياً، اذاً يتقدم الولي، وهو باطن النبوة، على النبي[١٢] والرسالة النبوية لانها وقتية[١٣]. نرى بكل وضوح، مما تقدم، ان الولاية، اي الامامة، مستمرة بعد النبوة التي انتهى دورها عند وفاة النبي وبعد ان سلّم الرسالة التي نزلت عليه الى المؤمنين، وهو خاتم النبيين ولا نبي بعده.

لا يمكن الخوض في شرح الفروض الدينية التوحيدية الدرزية فهي من أسس عقيدة التوحيد، والسرية الصارمة المفروضة على الكتب المذهبية الدرزية تمنع البحث في موضوع الفروض، ولكن يكفي ان نشير، فقط، للعلم وليس للتحليل او كشف اسرار المذهب التوحيدي، ان اول فرض عند الموحدين الدروز هو، صدق اللسان الذي يعتبر عندهم مرادفاً للتوحيد، وهو يعني التصديق باللسان والفؤاد، فمن يكذب فقد خرج من دين التوحيد. ويقول الأديب الكبير مارون عبود في قصيدته عن الدروز:

والصدق شرعتهم فان عاهدتهم
بـرّوا وان نطقوا بأمـر يصدقـوا

من الواضح، ان عدم وجود الامامة عند الموحدين الدروز واعتبارها عند

(١٢) ان تقدم الولي، اي الامام، على النبي هو من عقيدة النصيرية (العلويين) «عمس» وهو كذلك من معتقدات اسماعيلية «قلعة الموت» في فارس «عسم».

(١٣) مقتطفات من كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ١٦٠ و ١٦١ .

الاسماعيليين من صلب عقيدتهم، كما وجود الاختلاف الجذري بين الفروض الاسماعيلية والفروض التوحيدية الدرزية يجعل فجوة كبيرة اساسية بين العقيدتين.

يتفق الاسماعيليون والموحدون الدروز على عقيدة التوحيد وفلسفة الفيض الأفلوطينية اليونانية المحدثة. بالنسبة للتوحيد، بالرغم من اطلاق تسمية الموحدين بالدروز، وهم كارهون لها، فان التسمية المحببة لديهم ويتفاخرون بها فهي «اهل التوحيد»، اي الموحدون. وفي مآتمهم يردد مشايخ الأجاويد باستمرار: «قل هو الله احد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً احد»(١٤).

والموحدون الدروز، وكذلك الاسماعيلية يشيرون باستمرار الى توحيد الله تعالى والى تقديم الاجلال والتعظيم له. فالموحدون يقولون: «ان توحيد الله، عز وجل، أعظم المطلوبات، فبالتوحيد تصل انفس المؤمنين الى معرفة المولى». كما ان الفريقين يؤكدان التوحيد بنفي الصفات عن الله، وقد يكون اخذا ذلك عن المعتزلة.

يقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان في جدلية التوحيد عند الاسماعيلية: «لقد ذهب العرفانيون القدماء الى اشارات وتلميحات محض سلبية، وذلك لتنزيهه تعالى عن التشبيه بكل ما هو صادر او ناشيء عنه. فهو لا يعرف، ولا يوصف، ولا يسمى وان هو الاّ هوة بلا قرار. فالله هو المبدع، وغيب الغيوب، ولا تدركه الأبصار، ولا يمكن ان ينسب اليه، لا اسم ولا صفة ولا نعت ولا وجود ولا عدم وجود. فالمبدع هو فوق الكائنات، وليس بكائن ولا يكون، انه يمنح الكينونة وهو فعل الكينونة ذاته»(١٥).

ويقول المفكر الاسماعيلي الكبير، احمد حميد الدين الكرماني: «ان الله تعالى متنزه عن الصفات لا شريك له وانه ليس «ايساً وليس ليساً»(١٦) وليس من جنس

(١٤) سورة الاخلاص.

(١٥) كتاب «تاريخ الفلسفة الاسلامية»، ص ١٤٠ .

(١٦) «الأيس والليس» من المصطلحات الأسماعيلية، «الايس» يعني الموجود والوجود «والليس» دلالة على العدم والمعدوم اي لا موجود.

العقول حتى تدركه العقول، وليس حتى بجسم حتى تدركه الحواس، ولا يحل بجسد، ولا يعرّف عنه بقول ولا بعقد ضمير»[١٧].

ويقول المفكر الفرنسي، سلفستر دي ساسي[*]: «ان الدروز ينفون صفات الله فيقولون، ان المولى سبحانه لا يدخل تحت الاسماء والصفات وليس شخصاً ولا جسماً، ولا صورة، ولا جوهر ولا عرضاً، ولا هو قائم ولا جالس، وليس له شبه ولا ذاهب، ولا مار ولا لطيف ولا كثيف ولا قوي ولا ضعيف، فهو سبحانه منزه عن جميع الأسماء والصفات والأجناس والأشياء كلها»[١٨].

ويقول محمد عبد الكريم الشهرستاني: «اعتمد المعتزلة نفي الصفات القديمة اصلاً، فقالوا، هو عالم بذاته، حي بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة. هي صفات قديمة، ومعان قائمة به، لأنه لو شاركته الصفات من القدم، الذي هو اخص الوصف شاركته في الالهية»[١٩].

وجعل الموحدون الدروز التوحيد اساساً لعقيدتهم وسبيلاً الى معرفة الله، فالتوحيد حقيقة الديانات، فان أول الديانة معرفة الموحد بالله، وكمال معرفته نظام توحيده، ونظام توحيده نفي صفات المخلوقين عنه تعالى.

حضور الامام حمزة بن علي[٢٠]، الذي كان داعياً اسماعيلياً، في صفوف الدعاة الاسماعيليين، ومناقشة ارائهم والاشتراك في جدلهم في الندوات التي كانت تقام في «دار الحكمة» جعل بعض الفكر الاسماعيلي يتسرب الى عقيدة التوحيد الدرزية. ومما يسترعي الانتباه، ان العقيدة الاسماعيلية، التي استلهمت الكثير من أصولها من الفلسفة اليونانية المحدثة، اعتمدت، خلافاً عن العقيدة التوحيدية، فكرة

---

(١٧) كتاب راحة العقل. كان الكرماني مدير بيت الحكمة في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله. توفي عام ٤١١ .

(*) ملحق رقم ١ من آخر الكتاب عن سلفستر دي ساسي.

(١٨) كتاب «دين الدروز» طبع في باريس عام ١٩٣٨ .

(١٩) كتاب الملل والنحل، مجلد ١، ص ٤٤ .

(٢٠) .يقال ان الامام الحاكم بأمر الله تخلّى عن الامامة لحمزة بن علي في عام ٤٠٨هـ.

الابداع وطرحت جانباً النظريات القائلة بالفيض، وتعتبر ان وجود الموجدات عند الله، لم يحصل عن طريق الفيض بل عن طريق الابداع والخلق.

اسهب المفكر الاسماعيلي، احمد الكرماني في رفض نظرية الفيض فقال: «نقول ان اعتقدنا ان وجود الموجودات هي عن المتعالي عن الصفات، سبحانه، على سبيل الفيض لا على سبيل الابداع، كنّا قد صورناه أنفسنا من وجوده بما لا يطابق ما عليه وحقه لما يلزم ويجب به في وجود ما يعلل المتعالي عن الصفات، سبحانه وتعالى، ما وجوده محال. وذلك من شأن الفيض ان يكون عن جنس ما فيه يفيض ومشاركاً له ومناسباً، ويكون الفيض، من جهة ما هو فيض، كعين ما يفيض منه من طبيعة الفيض، مثلما في الفيض من طبيعته ولا فرق بينهما من هذه الجهة». ثم يقول: «فبعد نفي الصفات، يؤدي الفيض الى تناقض، اذ يفيض الشيء من لا شيء، اذ من شأن الفيض ان يكون من ما فيه يفيض»[٢١].

اما عن فلسفة الفيض، فتلتقي العقيدة التوحيدية مع العقيدة الاسماعيلية. تقول الاسماعيلية، وهذا القول معروف حتى لدى عامة الدروز: «ان الله، جل ذكره، ابدع من نوره الشعشعاني الكامل، العقل الكلي، وابدع من نور العقل الكلي النفس الكلية، السابق التالي وابدع من نور التالي الهيولى وهي الأرض وما عليها والافلاك والطبايع الأربعة»[٢٢].

وثم يزيد «الكلمة» على الحدود الأربعة، لعدم وجودها في فلسفة افلوطين، فيقول: «ومعنى اسم «الكلمة» الواقع على أمره.. لأن الكلمة ممّا تحمل على الاسم ليكون به قولاً مؤلفاً من اسم وكلمة... فلما وضعت الكلمة بمعنى أمر المبدع، جل جلاله، ان تلحق بأمره كلمته»[٢٣].

والفيلسوف اليوناني افلوطين لا يشير الى «الكلمة» في تعريف فلسفة الفيض اذ يقول: «هو الله يبدع العقل، والعقل يفيض على النفس والنفس تفيض على الهيولى».

---

(٢١) كتاب راحة العقل، ص ١٧١ .

(٢٢) رسالة تحفة المستجبين، ابو يعقوب السجستاني، ص ١٢ .

(٢٣) رسالة تحفة المستجبين، ابو يعقوب السجستاني، ص ١١ .

ومن العقائد الاسماعيلية، التي تتوافق مع عقيدة التوحيد وهي مستمدة من العقائد الاسلامية قولهم: «انه قبل الكائن كان هناك خضوع الكائن لفعل الأمر «كن» وهو تحويل العدم الى موجود، والموجود هو الذي يوجد جميع الوجدات، فالتوحيد يكون عندئذ علم الجوهر الفرد. والظهور الالهي أساس دين التوحيد لأن ما لا يظهر لا يوجد، ومن لا يوجد هو بحكم العدم اي «ليس» وليس «ايس»[٢٤].

وتحدث اخوان الصفا، وهم اسماعيليون، عن بدء الخليقة وعن حدوث الأمور الروحانية دفعة واحدة، وهذا ما يعتقده الموحدون اذ يستندون الى قوله تعالى: «اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون». قالت الاسماعيلية. «اما الأمور الالهية الروحانية، فحدوثها دفعة واحدة مرتبة منظمة، بلا زمان ولا مكان ولا هيولى ذات كيان، بل بقوله تعالى كن فيكون».

وتقول الاسماعيلية: «ان قائم الزمان كان حداً ابدعه الله «بالكلمة» القدسية «كن». الكاف منها دليلاً على السابق، والنون اشارة الى تاليه».

الكلمة مقدسة عند الموحدين الدروز فهي الحد الثالث ويقول احد الموحدين: «الكلمة صلة الله تعالى بالانسان وصلة الانسان بالانسان، هي أساس الكون، بها التاريخ ومنها التراث، وعليها التقدم ولها الفصل بين الحق والباطل. القلم والحبر والورق محدثون والكلمة أزلية. قالها الله تعالى في خلقه الكون وبها كلم موسى ربه وبها انزل كتابه الشريف. لها العقل يهديها للخير والحق ومنها يستمد الشر قوته. هي صلة الحاضر بالماضي ولحمة الحاضر بالحاضر وبناء المستقبل من الحاضر، فيها بلسم للجروح ومفتاح الشر كلمة. وفي انجيل النصارى. «في البدء كانت الكلمة والكلمة هي الله».

ويختلف الاسماعيليون والموحدون في تحديد سلطة «العقل». فالعقل عند الاسماعيلية هو ابداع الله واول قوة اوجدها تعالى لتدبير الكون. اما عند الموحدين الدروز فهو دين يقدسونه ويبنون جل عقائدهم عليه، فهو المخلوق الأول للقدرة

---

(٢٤) يستندون بذلك الى الآية ١١٧ سورة البقرة «واذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون». والآية ٨٢ سورة يس «انما أمره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون».

الالهية، علة العلل والمرجع الأول والوحيد في أعمالهم وتصرفهم الديني والدنيوي. وكما قلنا مراراً، ان الامام حمزة بن علي بن احمد، مطلق ومنشىء العقيدة التوحيدية الدرزية، يدعوه الموحدون «مولاي العقل» والمرجع الروحاني الأعلى لمشايخ الاجاويد الاتقياء والقيمين على دعوة التوحيد وحماة وكاتمي اسرارها هو «مشيخة العقل»، ورئيسهم الروحي يلقب «بشيخ العقل» ولقبهم العقّال[٢٥] اذن العقل هو المحور الاساسي في صلب مذهب التوحيد.

الخضوع الكامل والمطلق للموحدين الدروز للعقل يبرز، بكل وضوح وتأكيد، تأثير مذهب الاعتزال في العقائد التوحيدية. فالمعتزلة رفضوا الايمان اذا لم يقبله العقل، والايمان عند المسلمين هو التسليم الكامل لكلام الله كما انزل في القرآن الكريم وسيرة الرسول. كان تشدد المعتزلة على رفض الايمان اذا لم يقبل به العقل، احد اسباب صدامهم المرير مع اصحاب النص والحديث الممثّلين بالحنابلة والأشعرية وبعض الخوارج.

اذن «العقل» هو محور العقيدة الدرزية وبذلك يختلفون اختلافاً جذرياً عن الاسماعيلية الذين يرجعون في تفسير وتأويل عقائدهم الى الامام الذي يعتبرونه الأمين والقيم على ما نص الله بكتابه الكريم وهو نائبه على الأرض وحجته على خلقه، يعرف الحلال من الحرام، ويدعو الناس الى عبادة المولى، عز وجل. والموحدون الدروز، لا امام عندهم، بل يعتمدون العقل الصلة المباشرة مع الله تعالى، فالتوافق بين العقيدتين في هذا المجال، معدوم كلياً.

من العقائد التي لا توافق فيها بين عقيدة التوحيد الدرزية والعقيدة الاسماعيلية بل اختلافاً ملحوظاً، هي الباطنية. الاسماعيلية يعتبرون الباطنية من صلب عقائدهم ويقولون ان فلسفة الباطن هي اعتناق الحقيقة فيما وراء الظاهر والنصوص التي تمثل الظهور الاسلامي العلني. اما الموحدون الدروز، بالرغم من اعتقاد معظمهم بأن

---

(٢٥) هولاء العقال قال فيهم الأديب مارون عبود في قصيدته عن الدروز «فاذا مشت بيض العمائم للوغى، حُمّ القضاء فكل شيخ بيرق» وكذلك اولئك الاتقياء الورعون في معارك اللجاة عام ١٨٣٦ ضد جيش ابراهيم باشا المصري الذين سدوا افواه المدافع بعمائمهم البيضاء.

عقيدة التوحيد هي عقيدة باطنية، فيعتبرون، كما اشرنا سابقاً، «ان الوقت انتهى بين الباطن والظاهر، واصبح على الموحدين تحقيق ذواتهم عن طريق الاعتراف المطلق بوحدانية الله». ولهذا نجد في كتب الدروز الرفض الواضح للظاهر والباطن.

ثم الاختلاف الظاهر بين الأصول العرقية والأسباب التي أدت الى نشأة الاسماعيلية وانطلاقة الجماعات الدرزية. الاسماعيلية كانت حركة ثورية شيعية اجتماعية ضد ظلم الدولة السنية واستئثارها بالسلطة، فكانت هذه الثورة الجماعية مؤلفة من فقراء عرب العراق والبحرين واليمن وموالي الفرس والأرمن، ثم انضم اليها لاحقاً بربر شمال افريقيا.

يقول المستشرق برنارد لويس «صادفت الدعوة هوى في نفوس جماعات مختلفة في العنصر والدين، مزدكيين، مانونيين، صابئيين وشيعة وسنة ويهود من كل نوع، فانشأت بحكم الضرورة، نطاقاً قوياً من التداخل المعتقدي يقترب احياناً من مذهب عقلي خالص»(*).

اما الموحدون الدروز فهم تجمع بشري اعتنق عقيدة دينية عقلانية توخت الأفضل الآتي على عدم الركون للقائم الحاضر، الذي هو تكراراً لما هو قائم، فأرادوا الانعتاق من ربقة الحاضر وفتح مشارق مستقبلية على تقدم ديني وفكري، اذن الحركة التوحيدية لم تنبثق كالاسماعيلية نتيجة ظلم اجتماعي او تسلط سياسي او انتفاضة خليط من شعوب مختلفة بل كان جل من اعتنقها واسترشد بها من عرق عربي قبلي ترجع اصولهم الى قبائل عربية، كتنوخ وربيعة وتيم بن ثعلبة. وقال فيهم الشاعر:

يمشي الدم العربي في اعراقهم   صرفاً صراحاً والدليل المنطق

يتضح مما سبق ان العقيدة الاسماعيلية وعقيدة التوحيد الدرزية ينهلان من نبع واحد فقط، هو فلسفة افلوطين، الشيخ الاسكندراني، اي عقيدة الفيض وعقيدة الامام المهدي المنتظر كما اتفقا في تفسير بعض العقائد الدينية، ولكن افترقا في الكثير من الأصول العقائدية، خصوصاً في تحكيم العقل الكامل عند الموحدين، واعتناق الايمان المطلق عند الاسماعيلية.

(*) كتاب «اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية»، ص ١٥٢ .

قدمنا للقارئ براهين محدودة عن اختلاف او توافق بين العقيدة الاسماعيلية والعقيدة التوحيدية. ثم بالرغم من السرية التامة المفروضة على عقائد مذهب التوحيد، لجأنا بطريقة محدودة الى ما كتبه المفكران، الفرنسي «دي ساسي» والالماني «كرستيان زيبولد» عن دين الدروز، فأخذنا منهما بعض الحقائق التاريخية فقط، مع العلم ان «دي ساسي» نشر الكثير من رسائل الحكمة وقدم تفسيرات جمة عن المذهب التوحيدي في كتابه دين الدروز ولكننا لم نأت على ذكرها، لأنها خارجة عن موضوع هذه الدراسة وبالاضافة تحوطها السرية التامة.

الاّ ان السؤال الذي يطرح نفسه، وهو يقرر خلاصة هذه الدراسة. هل ان الامام حمزة بن علي، الذي كان داعياً اسماعيلياً، مطّلع على العقائد الاسماعيلية بصفته من كبار دعاتها، ومن المعروف ان كان له مناظرات في الندوات التي كانت تحصل في «دار الحكمة» ومجلس الخليفة الحاكم بأمر الله، اقتبس الفلسفة اليونانية من المصادر الاسماعيلية. او انه، وهو العالم الكبير وخريج جامعة «جنديسابور» في فارس، حيث كانت الفلسفة اليونانية تدرس من فلاسفة يونان وفرس، تخطى الفكر الاسماعيلي وما كتبه الفلاسفة والعلماء الاسماعيلية واتجه من دون وسيط الى الفلسفة اليونانية؟... اذا كان الجواب انه تخطى الاطار العقائدي الاسماعيلي، تكون العقيدة التوحيدية الدرزية غير منبثقة عن الدعوة الاسماعيلية. بالرغم من وجود بعض التوافق في بعض العقائد التاريخية الدينية كعقيدة الأدوار والأكوار واختلاف الزمان والدهور في عالم التكوين والنطقاء السبعة وأسسهم وظهور صاحب الكشف وقائم الحق وامام الزمان وهو الامام المهدي المنتظر.

علم الكلام

يقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان «ويعتبر المعتزلة اقدم من زاول علم الكلام. ولا شك في أنهم يؤلفون مدرسة ذات طابع ديني بعيدة الأثر»(1) وبما ان العقيدة التوحيدية الدرزية تأثرت بالأفكار الاعتزالية، وخصوصاً التوحيد والعقل، فنظرة مقتضبة على علم الكلام تكون مفيدة لتوضيح أسس هذه المعتقدات..

يقول الشيخ المولوي، محمد بن علي التهانوي: «علم الكلام، ويسمى بأصول الدين ايضاً، وسماه ابو حنيفة بالفقه الأكبر، وفي مجمع السلوك يسمى بعلم النظر والاستدلال ايضاً، ويسمى ايضاً بعلم التوحيد والصفات»(2).

ويقول سعد الدين التفتازاني، في كتاب شرح العقائد، «هو العلم المتعلق بالأحكام الفرعية، اي العملية، ويسمى علم الشرائع والأحكام، وبالاحكام الأصلية اي الاعتقادية، ويسمى علم التوحيد والصفات»(3).

ويقول محمد احمد اسماعيل النسفي: «انه سمي كلاماً لأنه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات والزام الخصوم كالمنطق والفلسفة»(4).

ويقول احد مفكري الأشعرية: «يتعلق في علم الكلام اثبات الايمان والعقائد الدينية تعلقاً عقليا، لأن هذا العلم هو اثبات عقائد اساسية، كأزلية الله تعالى، والتوحيد والصفات، وذلك لكون صفات الله متعددة وموجودة في ذاته. الكلام هو العلم الأعلى، اذ تنتهي فيه العلوم الشرعية كلها وفيه تثبت موضوعها وحيثياتها، فليس له مبادئ تبين في علم آخر».

---

(1) كتاب «تاريخ الفلسفة الاسلامية»، ص ١٧٠ .

(2) كتاب «كشاف اصطلاحات الفنون»، ص ٢٢ .

(3) كتاب «مذاهب الاسلاميين»، عبد الرحمن بدوي، ص ١ .

(4) كتاب «العقائد النسفية»، ص ١١ .

ذم الحنابلة علم الكلام ونهوا عن الخوض فيه. ففي المناظرة التي جرت بين ابن حنبل وبين ابي دؤاد في حضرة المعتصم قال ابن حنبل: «لست انا صاحب كلام وانما مذهبي، الحديث» وينسب اليه انه قال: «لا يفلح صاحب كلام ابداً، ولا يرى احد نظر في الكلام الا وفي قلبه دغل»(٥).

ويقول المستشرق هنري كوربان: «مارس الشيعة علم الكلام ولكن الأئمة حذروا من مغبة التشبث المتعصب بعلم الكلام ومشاكله المتعددة. فالعرفان عند الشيعة يطغى عليه الطابع الاجتهادي، اي التفسير الديني، اكثر من الطابع الجدلي المنطقي فينأون عن البرهان العقلي، على اعتبار ان الايمان هو الجواب على كل استفسار وليس العقل»(*).

اما المعتزلة، وهم اول من زاول علم الكلام، فكانت لهم مدرسة قوامها التأمل الديني، وجميع طروحاتها الفكرية كانت تتنبع من المعطيات العقلية الاساسية في الاسلام.

اخذ علم الكلام في الانتشار منذ عهد الخليفة المأمون، خصوصاً بعد تعريب المؤلفات الفلسفية اليونانية واتباع انتشارها بصورة خاصة وبفضل اسحق بن حنين، فكان علم اثبات العقائد الدينية على الغير بايراد الحجج المقنعة واعتماد المنطق الفلسفي، وذلك من منطلق، بأن العقائد يجب ان تؤخذ من الشرع ليقيَّد بها وان كانت تستقل عن العقل.

ويعتبر الدكتور عبد الرحمن بدوي «الكلام هو العلم الاعلى اذ تنتهي اليه العلوم الشرعية كلها وفيه تثبت موضوعاتها وحيثياتها، فليست له مبادئ تتبين من علم آخر شرعيا او غيره، مبادؤه، اما مبينة بنفسها او مبينة فيه»(٦).

ويقول ابو حيان التوحيدي: «اما علم الكلام فانه باب من الاعتبار في أصول الدين، يدور النظر فيه على محض العقل في التحسين والتقبيح والأصالة والتصحيح

(٥) كتاب تحريم النظر في كتب أهل الكلام. موفق الدين بن قدامة المقدسي.
(*) كتاب الفلسفة الاسلامية، ص ١٧٠ .
(٦) كتاب مذاهب الاسلاميين، ص ١١ .

والايجاب والتحوير والاقتدار والتعديل والتوحيد والتفكير والاعتبار فيه ينقسم بين دقيق فينفرد العقل به، وبين جليل يفزع الى كتاب الله تعالى. وعلم الكلام بابه مجاور لباب الفقه والكلام فيهما مشترك، وان كان بينهما انفصال وتباين فان الشراكة بينهما واقعة والأدلة متضارعة»[7].

روي عن ابي حنيفة قوله: «المتكلمون قوم يقولون في امور ليس تحتها عمل، فكلامهم نظري، لفظي لا يتعلق به فعل بخلاف الفقهاء والباحثين في الأحكام الشرعية العملية. علم الكلام رأي جهل وما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام الاّ فيما تحته عمل»..

عندما وقعت الفتن والنزاعات بين المسلمين وظهر اصحاب البدع وكثر الاختلاف في الآراء وفي عدد الفتاوى انبرى الفقهاء لتفسير المسائل والمذاهب وردع اصحاب البدع، فصار الفقه دعامة لعلم الكلام الذي أصبح تفسيراً لأحكام الشريعة لمعرفة أصول الأدلة والعقائد وتقديم الايمان على العقل لأن انتشار الفلسفة من دون تحديد أو تفسير أشاع أجواء فوضى في الفكر الاسلامي.

من الصعب جداً ان نبين التطور والتغيرات التي مر بها علم الكلام، حتى انتهى علماً للالهيات في الاسلام وأصبح المتكلمون من علماء اللاهوت. ويوصف علم الكلام: انه جدل عقلي يتناول الدين والعلوم اللاهوتية واستخدم للدفاع عن الدين والعقيدة الاسلامية كما اشار اليه الفيلسوف ابن سينا.

بما ان العقيدة التوحيدية الدرزية عقيدة لاهوتية عقلانية قوامها الفلسفة اليونانية، تعتمد التوحيد والعقل ولا تقر الاّ الايمان الذي يقبل به العقل باعتماد المنطق الفلسفي بايراد الحجج المقبولة عقليا فقط، فكان علم الكلام عند مفكري الدروز الأوائل ينطبق على الفكر المعتزلي الذي ينطلق من العقل المطلق ولا علاقة له بالفقه او الشريعة.

(٧) كتاب ثمرات العلوم، ص ١٩٢ .

المعتزلة

- نشأتها وتاريخها
- النزعات الدينية والجدل الفلسفي عند المعتزلة
- اعلام المعتزلة ومفكروهم الكبار

المعتزلة

قبل ان نخوض في بحث مذهب الاعتزال علينا ان نلقي نظرة، ولو مقتضبة، على نشوء «القدرية» التي ظهرت قبل حركة الاعتزال وأصبحت ركنا من اركانها والشرارة الأولى في انطلاقها.

انتقل العرب من محيط الصحراء الضيق وحياة الاكتفاء، وحتى العوز، الى حياة الترف والرفاهية حيث أصبح المال من مستلزمات حياتهم، فطلبه الناس وتزاحموا على الحصول عليه، فتسبب ذلك في انتشار المعاصي من التهافت عليه ومن انفاقه. كثر الجدل في أسباب ذلك واتجه الى علاقة الدين بهذه الأوضاع التي طرأت على مسيرة حياتهم، اسبابها ومصادرها.

قال بعضهم بنفيها عن الانسان لأنه مجبر من الله على افعاله، ورفض الآخرون ان يكون الانسان لا اختيار له في أفعاله وانما تسيره يد القضاء والقدرة، فأطلت القدرية برأسها، تدعمها بعض الآيات في الكتاب الكريم، فكان اول من قال بها معبد الجهني، ثم عمر بن مقصوص وغيلان الدمشقي[1] فأطلق عليهم لقب اصحاب القدرية وكانوا اول راوّد حركة الاعتزال والركن الأساسي التي بنيت عليه.

ذابت الجهمية وانقرضت حركة القدرية ولكن تعاليمها بقيت محصورة في فرقة المعتزلة ولهذا يمكن اعتبار المعتزلة ورثة القدرية والجهمية.

---

(١) كتاب الفرق الاسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي، الدكتور حسين عطوان، فيه دراسة كاملة عن غيلان الدمشقي.

قتل الأمويون هولاء المفكرين لقولهم بالقدرية

قتل جعد بن درهم خالد بن عبدالله القسري والي العراق.

قتل جهم بن صفوان، سلم بن احوز عام ١٢٨هـ. الطبري جزء ٩ ص ٦٩ .

قتل عمر بن مقصوص مروان بن الحكم عام ٨٠هـ. كتاب ابن العبري ص ١٩١ .

قتل غيلان الدمشقي الخليفة عبد الملك بن مروان، كتاب الخطط، المقريزي، جزء ٤، ص ١٨١ .

قتل مكحول الدمشقي، هشام بن عبد الملك، كتاب شرح العيون، ص ١٥٧ .

الاعتزال كان من اوائل المدارس الفلسفية في الفكر الاسلامي، وقد اعتمد العقل في تقديم ما انزله الله تعالى على عبده، ثم رفض الايمان المطلق ان يكون الطريق الى الدين حتى ينص العقل بذلك.

العبادة والرضا والتسليم بما انزله الله تعالى في كتابه الكريم هي الطريق الى الايمان. والايمان قوام المعرفة التي تنير طريق المؤمن الى معرفة الله تعالى، قوامها النص «لكم ما قيل لكم وهو ما أنزل عليكم وانتم عباد الله المؤمنين».

ولكن المعتزلة قدمت العقل على الايمان وحاولت دمجهما ولكنها أعطت السيادة الكاملة للعقل، فأطلقت بذلك حرية التصرف الحر في معتقدات الانسان مكرسة مسؤوليته الشخصية عن أفعاله وما ينجم عنها من خير او شر، بعد أن كان دعاة الايمان المطلق يعتبرونه مسلوب الارادة خاضعاً للقدر مسيراً في اعماله وذلك ايماناً منهم بأن تلك هي ارادة الله تعالى، فالانسان بالتالي، غير مسؤول عن نتائج أعماله لأنها فرضت عليه فرضاً جبرياً لا حكم له عليها.

في العهدين، الأموي والعباسي، أصبح القول بالقدر وحرية الانسان في أفعاله، جدلاً لقاعدة فكرية وسياسية، قاومتها بشدة وشراسة السلطة الحاكمة التي نادت بالجبرية التي تقول ان الانسان لا حرية له في التصرف بأعماله لأن المولى يفرضها عليه ويجبره القيام بها.

كان ذلك التشدد بالجبرية تبريراً للأمويين والعباسيين لاغتصابهم الحكم من آل البيت والتصرف باموال المسلمين لمآربهم الشخصية من دون رادع. قال معاوية بن أبي سفيان: «لو أراد الله غيرنا للخلافة لفعل ذلك». كما قال: «المال؛ مال الله ونحن خزّانه نتصرف به كما أمرنا الله». كما ان الخليفة العباسي المنصور ابو جعفر (١٣٦ - ١٥٨هـ) قال في خطبة في الكوفة «ايها الناس، انما انا سلطان الله في أرضه، اسوسكم لتوفيقه وتأييده، وحارسه على ماله اعمل فيه بمشيئته وأعطيه باذنه، فقد جعلني الله عليه قفلاً، ان شاء ان يفتحني فتحني لاعطائكم وقسّم ارزاقكم، وان شاء ان يقفلني عليها اقفلني».

تأخذ المدرسة المعتزلية بقوله تعالى: «فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً[٢]». وكذلك: «واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعوا ربي عسى الاّ اكون بدعاء ربي شقياً[٣]». ثم حديث الرسول الكريم: «من اعتزل في الشر سقط في الخير». ونقل سفيان الثوري عن ابن الزبير عن جابر بن عبدالله عن الرسول: «ستفترق امتي الى بضع وسبعين فرقة ابرّها واتقاها الفئة المعتزلة وهو تمام الخير».

يقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان[٤] : «ويعتبر المعتزلة اقدم من زاول علم الكلام. لا شك في أنهم يؤلفون مدرسة ذات طابع ديني تأملي بعيدة الأثر وان مساعيهم ومحاولاتهم نابعة من المعطيات الدينية الاساسية في الاسلام[٥].

يقول الدكتور محمد عبد الرحمن مرحباً: «المعتزلة هم رواد النزعة العقلية في الاسلام وطلائعها. فهم يمتازون عن سائر الفرق الاسلامية الأخرى بتعظيم للعقل تعظيماً لا حدود له وبايمانهم به وثقتهم بمقدرته ثقة لا تجد لها نظيراً بين الفرق الدينية الاسلامية وغير الأسلامية»[٦].

يقول الامام الزيدي، احمد بن يحيى بن المرتضى: «والذي اختصت به المعتزلة استنباط المسائل التي تفرض عند تطبيق العقل على الايمان وافادة تلك المسائل بالألفاظ، فكانت هي التي تعرضت لمسألة النسبة بين الدين والعقل لأول مرة وبقوة فكرية عجيبة وثبات عظيم»[٧].

ومما يلفت النظر ان المعتزلة والموحدين الدروز يلتقون حول أمور عدة منهجية وعقائدية، وخصوصاً العقل الذي يعتمدونه في بناء فلسفتهم الدينية، فالموحدون

---

(٢) سورة مريم، آية ٢٢ .

(٣) سورة مريم، آية ٤٨ .

(٤) هنري كوربان كان لمدة طويلة رئيس قسم العلوم الدينية في جامعة طهران ثم انتقل الى جامعة السوربون في باريس حيث عمل مديراً لكلية اللغات الشرقية، يعتبر خبيراً كبيراً في علوم الدين الاسلامي وخصوصاً المذهب الشيعي، له مؤلفات كثيرة منها تاريخ الفلسفة الاسلامية.

(٥) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ١٧٠ .

(٦) كتاب من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية، ص ٦٣١ .

(٧) كتاب طبقات المعتزلة ص (ز).

الدروز يقدسون العقل، فهو علة العلل والابداع الأول والمرتبة الثانية بعد الله عز وجل، وارادة الله على الأرض. اما المعتزلة فقد آمنوا بوجوب العقل قبل الشرع والايمان، وهو كذلك عندهم علة العلل والابداع الأول.

تعددت التأويلات حول اسم المعتزلة، فأبو محمد الحسن بن موسى النوبختي يقول: «ان الذين اعتزلوا عن علي بن ابي طالب وامتنعوا عن محاربته او المحاربة معه، بعد دخولهم في بيعته كانوا، سعد بن ابي وقّاص، وعبدالله بن عمر بن الخطّاب، ومحمد بن مسلّمة الانصاري وأسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، فسمّوا المعتزلة وصاروا اسلاف المعتزلة الى آخر الأبد»(٨).

اعتمد هولاء الصحابة في موقفهم مع الامام علي على الآية: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل»(٩). ولما لم يعرف هؤلاء الصحابة الباغي التزموا الاعتزال(١٠).

أشرنا الى أن بعض مؤرخي المعتزلة يرجع الى القرآن الكريم للدلالة على اطلاق هذا الاسم عليهم ويعتمدون الآية: «واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعوا ربي عسى ألاّ اكون بدعاء ربي شقياً(١١)».

ويقول الدكتور مصطفى الشكعة: «ان تسمية المعتزلة جاءت في تلك الصفة التي لازمت رجال الاعتزال في تقى وتقشّف وبعد عن ملاذ الحياة ومفاتنها فهم بذلك معتزلون الدنيا زاهدون فيها»(١٢).

ويمكن اطلاق الأوصاف نفسها على الموحدين الدروز، اذ يقول الدكتور مصطفى الشكعة: «والزهد عند مشايخ الدروز لا يعني التواكل، بل هو هدوء وعفة، وصدق ونزاهة وابتعاد عن الشبهات والمحرمات والشهوات، واعراض عن بهارج

---

(٨) كتاب فرق الشيعة، ص ٥ .

(٩) سورة الحجرات، آية ٩ .

(١٠) كتاب فجر الاسلام، احمد امين، ص ٢٩١ .

(١١) سورة مريم، آية ٤٨ .

(١٢) كتاب الاسلام بلا مذاهب، ص ٣٩٤ .

الدنيا وزخارفها وبعد عن الحكام والسلطان وتلاوة وعبادة مع توخي كسب الحلال من الرزق الذي يقيم الأود ويسد الرمق»[١٣].

والمتفق عليه بين القسم الأكبر من المؤرخين المسلمين، ان ابا حذيفة واصل بن عطاء، وهو مؤسس مدرسة الاعتزال، اعتزل مع عمرو بن عبيد بن باب، حلقة المفكر الكبير الفقيه حسن البصري[١٤] في مسجد البصرة، بعد جدل حول مسألة «المنزلة بين المنزلتين». ويروي المؤرخ الشهرستاني: «دخل احدهم على حسن البصري وقال: «يا امام، لقد ظهر في زماننا من يكفرون اصحاب الكبائر، والكبيرة[١٥] عندهم لا تضر مع الايمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة[١٦]. قبل ان يجيب حسن البصري، قال واصل بن عطاء: «انا لا أقول صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر بل فاسق»[١٧] وقام واعتزل الى ناحية في المسجد، فقال حسن البصري: «اعتزل عنا واصل»، فسمي اتباعه بالمعتزلة[١٨].

امّا المفكر اللبناني حسين مروه فيقول: «ان انتقال واصل من حلقة في مسجد البصرة الى حلقة اخرى في المسجد نفسه، هو الذي يحدد نشأة المعتزلة، بحيث يبدو على هذا انها وجدت بصورة عفوية ارتجالية فجائية بعمل جسدي انفعالي آني، وبتغير شخص معين مجلسه من مكان الى مكان آخر، ان فهم المسألة على هذه الصورة، لا

---

(١٣) كتاب اسلام بلا مذاهب، ص ٢٦٣ . سنرى في هذه الدراسة ان عقيدة التوحيد الدرزية تأثرت بأفكار المعتزلة منها، التوحيد، القدرية، وأهمية العقل وغيرها.

(١٤) هو ابو سعيد الحسن بن ابي حسن البصري، ولد في المدينة المنورة عام ٢١هـ. وكانت أمه مولاة لأم سلمة زوجة الرسول. ام سلمة هي التي وبخت الخليفة عثمان بن عفان امام جمع كبير من الناس، لضربه عمّار بن ياسر. حسن البصري هو صاحب الرسالة المشهورة عن القضاء والقدر التي ارسلها الى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.

(١٥) الكبائر نوعان، كبيرة وهي الشرك بالله، وصاحبها كافر مخلد بالنار، وكبيرة دون الشرك وهي تسعة، قتل النفس التي حرم الله قتلها الا بالحق. الزنى. التنكر لحقوق الوالدين. شهادة الزور. السحر. اكل مال اليتامى. الربا. قذف المحصنات والتوالي عن الزحف.

(١٦) المرجئة فئة من المسلمين قالت بعدم تكفير المسلم وتركوا الحكم في مصير صاحب الكبيرة، في العالم الآخر، لله وحده.

(١٧) الفسق هو عدم طاعة الله ويشمل الكافر والمؤمن العاصي.

(١٨) كتاب الملل والنحل، جزء ١، ص ٤٨ .

يكفي ان نصفه بأنه تبسيط مبتذل لمفهوم حركة تاريخية فكرية من هذا النوع، لا شك ان الشهرستاني، وغيره من المؤرخين، لم يقصدوا هذا التبسيط المبتذل ولا هذا التشويه الغريب. ان نسب هذه الحركة تعبيراً عن موقف فكري، يمثل تياراً لا انفراداً ولا انشغالاً جسدياً في المكان الى شخص بعينه». ثم يقول: «فحركة المعتزلة بجملتها اذن، نشأت تعبيراً عن تيار فكري يتجه اتجاهاً معينا في فهم العقائد، ولم تنشأ حركة فردية عفوية. ومن هنا نقول ان البحث العلمي يرفض ما قد يستفاد من رؤية الشهرستاني السابقة ومن الروايات المماثلة لها بشأن نشأة المعتزلة ونشأة اسمها»[١٩].

الاّ ان المفكر زهدي جار الله يقول: «ان ما اورده ابو الحسن المسعودي[٢٠] في ان كلمة اعتزال في اصطلاح مذهب المعتزلة هو القول: «بالمنزلة بين المنزلتين» اي باعتزال صاحب الكبيرة من المؤمنين والكافرين، هو أقرب الى الصواب وادعى الى الأنصاف»[٢١].

وفي رأي المستشرق «جولد زهير» انهم سموا معتزلة لأن رؤساءهم الأولين، كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وعبدو بن صبيح المردار وجعفر بن بشر وجعفر بن حرب، كانوا يعتزلون العالم ويحيون حياة التقشف والزهد»[٢٢].

ويروى عن أبي اسحق بن عياش انه قال عن نشوء مذهب الاعتزال: «لقد اخذ واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد المذهب عن ابي هاشم عبدالله، واخذه هذا عن ابيه محمد ابن الحنفية وهذا عن والده علي بن ابي طالب وأخذه علي عن النبي، صلى الله عليه وسلم»[٢٣].

قسّم احمد بن يحيى بن المرتضى المعتزلة الى اثنتي عشرة طبقة ابتداء من الخليفة ابي بكر الصديق وعمر بن الخطّاب حتى آخر الخلافة العباسية واهم هذه الطبقات، السادسة، لأنها تضم جميع مفكري المعتزلة. ولكن الواقع الأصح تقسيمهم الى معتزلة البصرة ومعتزلة بغداد.

---

(١٩) كتاب النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، ص ٦٣٩ .

(٢٠) كتاب مروج الذهب جزء ٦، ص ٢٢ ، وجزء ٧، ص ٢٣١ .

(٢١) كتاب المعتزلة، ص ١١ .

(٢٢) كتاب شرح مختصر الفرق بين الفرق، فيليب حتّي، ص ٩٨ .

(٢٣) كتاب المنية والأمل، ابن مرتضى، ص ٥٠٤ .

معتزلة بغداد كانوا:

١ – ابو سهل بشر بن المعتمر الهلالي، توفي عام ٢١٠هـ وهو مؤسس فرع بغداد.
٢ – ثمامة ابن الاشرس، توفي عام ٢٣٤هـ
٣ – ابو موسى المردار، توفي عام ٢٢٦هـ
٤ – جعفر بن مبشر، توفي عام ٢٣٤هـ
٥ – جعفر بن حرب، توفي عام ٢٣٦هـ
٦ – ابو عبدالله احمد بن ابي دؤاد توفي عام ٢٤٠هـ
٧ – ابو جعفر محمد بن عبدالله الاسكافي، توفي عام ٢٤٠هـ
٨ – ابو الحسين الخيّاط، توفي عام ٢٩٠هـ
٩ – ابو القاسم عبدالله بن احمد بن محمود البلخي الكعبي، توفي عام ٣١٩هـ

اما معتزلة البصرة فكانوا:

١ – واصل بن عطاء، توفي عام ١٣١هـ
٢ – عمرو بن عبيد بن باب، توفي عام ١٤٣هـ
٣ – خالد بن صفوان، توفي عام ١٣٣هـ
٤ – ابو عمرو معمّر بن عباد السلمي، توفي عام ٢٢٠
٥ – ابو الهذيل محمد بن الهذيل العلاّف، توفي عام ٢٣٥
٦ – ابو سهل بشر بن المعتمر الهلالي، توفي عام ٢١٠هـ (مؤسس فرع بغداد)
٧ – هشام القوطي، توفي عام ٢١٨هـ
٨ – موسى الاسواري، توفي عام ٢٠٠هـ
٩ – ابو اسحاق ابراهيم بن سيّار النظّام، توفي عام ٢٣١
١٠ – معمّر بن عباد، توفي عام ٢٣٠
١١ – عمرو بن بحر الجاحظ، توفي عام ٢٥٦هـ
١٢ – ابو يعقوب يوسف بن عبدالله بن اسحق الشحام، توفي عام ٢٣٣
١٣ – ابو علي محمد بن عبدالله الوهاب الجبائي توفي عام ٣٠٣هـ
١٤ – ابو هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي توفي عام ٣٢١هـ

بدأ النشاط السياسي لمعتزلة بغداد في عهد الخليفة العباسي الرشيد ابو جعفر هارون بن المهدي (١٧٠ - ١٩٣هـ) اذ كان واصل بن عطاء ورفاقه يعملون بنشاط في خدمة القضية العباسية وكان بنو العباس يعطفون عليهم.

عند استلام الخليفة الرشيد الحكم - وكان له نزوات عنيفة في دفاعه عن الدين - رفض بعض مقالات المعتزلة، خصوصاً قولهم بالقدرية، ثم بالولاء لآل البيت العلوي، واضطهدهم واخرجهم، مع قلة عددهم، من بغداد. ثم ابنه الخليفة الأمين، ابو موسى محمد بن الرشيد (١٩٣ - ١٩٨هـ) اصدر امراً بملاحقة المعتزلة وانزال الموت بهم[٢٤] وقد سبب هذا الاضطهاد، والتشريد والاعتقالات صدامات مباشرة مع السلطة[٢٥]. ولكن ابان خلافة المأمون، ابو جعفر عبدالله بن الرشيد، (١٩٨ - ٢١٨هـ) بلغت المعتزلة اوج ازدهارها الذي استمر الى عهد شقيقه المعتصم بالله ابو اسحاق بن الرشيد (٢١٨ - ٢٢٧هـ) كما امتد الى أيام الخليفة الواثق بالله ابو جعفر ابن المعتصم.

يقول الدكتور ماجد فخري: «كان المأمون أعظم راع للفلسفة والعلم في تاريخ الاسلام على اختلاف حقبه واحواله. فأخبار المناقشات الكلامية والفلسفية التي جرت في مجالسه بجرأة نادرة، تلقي ضوءاً ساطعاً على المشاكل العقلية والمناخ الفكري العام الذي ساد في ذلك العصر[٢٦].

انشأ الخليفة المأمون «بيت الحكمة» في بغداد عام ٢٠١هـ وأرسل وفوداً الى بلاد الروم وجلب الكتب العلمية والفلسفية اليونانية وتولى نقلها الى العربية مترجمون لامعون منهم يوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحاق وابنه اسحق بن حنين وعيسى بن بيحيا.

اعلن الخليفة المأمون عام ٨٢٧ ميلادية، ان عقيدة المعتزلة في خلق القرآن هي المذهب الرسمي للدولة، وأصدر بذلك منشوراً أجبر به القضاة وكبار موظفي الدولة، «على القول بخلق القرآن»، «ومن لا يوافق بذلك يطرد من منصبه ويعاقب لعدم الثقة

---

(٢٤) كتاب الصواعق المرسلة، ابن قيّم الجوزية، ص ١٣١ .

(٢٥) كتاب الوزراء (الجهشتاري)، ص ٢٣٣ .

(٢٦) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ٣٣ .

بايمانه وبدينه». وقال «حتى لا تنفذ أحكام الله تعالى الاّ بشهادة أهل البصائر في الدين والاخلاص للتوحيد».

يقول بعض المؤرخين، ان عمل الخليفة المأمون والقاضي ابي دؤاد واصرارهما على تثبيت خلق القرآن وجعله قانوناً للدولة آثار غضب غلاة السنة كالاشاعرة والحنبليين وسبّب الفتنة المؤلمة التي ذهب ضحيتها الكثيرون من المعتزلة.

تبنى الخليفة المعتصم بالله وابنه الخليفة الواثق بالله فكرة جعل خلق القرآن في صلب سياسة الدولة العباسية والعمل بها كقانون شرعي، كما فعل الخليفة المأمون قبله، ولقيت هذه السياسة قبولاً من الجهات المختصة والقابضة على السلطة.

استمرت هذه السياسة حتى تولى الخلافة المتوكل على الله ابو الفضل جعفر بن المعتصم (٢٣٢ - ٢٤٧هـ)، وكان شديداً في مسألة الدين يؤمن بأن جميع المذاهب التي لا تؤمن بالنص، بدع ملحدة، فعزل جميع من كان يقول بالاعتزال من السلطة وقرّب اليه الامام ابن حنبل وأهل الحديث الذين كانوا يكرهون المعتزلة، فاضطهدوا المعتزلة وطاردوهم حتى قتلوا منهم اعداداً كثيرة، قيل أنها تخطت الألوف، تحت شعار «ان كل مخلوق يموت وكلام الله ازلي لا يموت». ولم تلبث ان انفجرت الفتنة في بغداد وانتشرت العامة في الأسواق يقتلون المعتزلة وينشدون:

لا والذي رفع السماء بلا عماد للنظر

ما قال قائل في القرآن بخلقه الاّ كفر

لكن كلام الله منزل من عند خلاّق البشر

واصبح اسم المعتزلة مقروناً بالتشيع والكفر حتى رفض الناس الصلاة خلف ائمتهم.

وجد المعتزلة أنفسهم، بعد عام ٢٣٧هـ، في أوقات عصيبة اذ اصبحت الدولة تلاحقهم وعامة الشعب تكرههم وتكيل لهم ضربات قاسية شديدة وأصبحوا جماعات مختلفة متنافرة ينهشها الانشقاق والتباغض حتى بلغوا درجة من الانحلال والانهيار فصار من الطبيعي بعدها ان يلجأوا الى الخفاء يمارسون نشاطهم بالسر بعيدين عن السلطة الحاكمة. ودراسة فلسفة الاعتزال واصحابها تثبت بأن الفلسفة اليونانية لعبت دوراً رئيسياً في تكوين الفكر واللاهوت الاسلامي، بالرغم من قربه من

فارس، لأن اليونان يؤمنون بالعقل مصدراً للمعرفة الدينية وفاصلاً بين الايمان المطلق المتعنت والانفتاح العلمي العقلاني.

والتراث الفكري العربي، قبل الاسلام وقبل تغلغل الفلسفة اليونانية في الفكر الاسلامي، كان يقتصر على تدوين أحداث تاريخية، جلها قصص وأساطير عن الحروب والغزوات وعلوم طبيعية بدائية تكونت عن خلفية من الأفكار المسيحية واليهودية والزرادشتية التي كانت تنتشر بين القبائل، كأناشيد عن بطولات وأخلاقيات. وكان الشعر الأكثر انتشاراً ولكن مواضيعه كانت محصورة في الغزل والفخر وتدوين وقائع الحروب.

امّا الذي نقل الاعتزال من البصرة الى بغداد فقد كان المعتزلي ابو سهل بشر بن المعتمر الهلالي المتوفى عام ٢١٠هـ، وهو من اهل الكوفة. وعندما قدم البصرة، التقى مع بن سعيد وأبو عثمان الزعفراني، فأخذ عنهما الاعتزال «والأصول الخمسة» الى بغداد[٢٧].

بعد سنوات عديدة من الخفاء والاستتار عادت المعتزلة في بغداد الى الانتشار بفضل الصاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥هـ) الذي استلم الوزارة في عهد الأمير فخر الدولة البويهي، الذي حضن المعتزلة وقدم لهم التسهيلات والحماية كافة بعد عصر من الاضطهاد والقهر، وسلّم لهم مراكز قيادية في الادارة والقضاء فحقق لهم نجاحات وامتيازات كبرى، خصوصاً في عهد الأمير عضد الدولة الذي كان اكثر امراء بني بويه حماسةً وقرباً للاعتزال ومؤمناً بعقائدهم[٢٨].

بعد موت الوزير الصاحب بن عباد عام ٣٨٥هـ، الذي كان وجوده على رأس السلطة التنفيذية حماية للمعتزلة، تعرضت المعتزلة لمحنة قاسية أعادت للأذهان اضطهاد وظلم الخليفة المتوكل على الله، اذ تنكر الأمير فخر الدولة البويهي لهم وأمر بملاحقتهم وتشريدهم، وشاركه في الاضطهاد الخليفة القادر بالله الذي أمر بتصنيف كتاب في الأصول الدينية ذكر فيه كفر المعتزلة لقولهم: «بخلق القرآن». وفي الوقت

(٢٧) كتاب التنبيه والرد على اهل الاهواء والبدع، ابو الحسين محمد بن احمد المالطي، ص ٤٣ .
(٢٨) كتاب احسن التقاسيم، القدسي، ص ٤٢٩ .

نفسه طلب من السلطان سبكتكين الغزنوي، حاكم خراسان، التشدد بنشر مذهب السنة، بالرغم من تشيع البويهيين، ومطاردة المعتزلة والبطش بهم.

نجح سبكتكين الغزنوي في تشتيت المعتزلة في خراسان وحرق جميع كتبهم الدينية، والفلسفية، كما دمّر مكتبة «الري» الكبرى، التي كانت مرجعاً مهماً لطلاّب العلم والمعرفة.

كانت نتيجة هذه المحنة الشرسة القضاء نهائياً على النشاط السياسي الاعتزالي وغياب معتزلة بغداد عن المسرح العلمي والفكري.

اما معتزلة البصرة فلم ينغمسوا في الممارسات السياسية، بل اقتصر نشاطهم على نشر عقائدهم الفلسفية وتفسيراتهم العرفانية وجدلهم الديني مع الاشاعرة والحنابلة، ومحاربة اصحاب البدع والعقائد الثنوية، كالمانوية والديصانية وغيرهم، ولهذا لم يتعرضوا لاضطهاد السلطة والمحن التي واجهها معتزلة بغداد.

النزعات الدينية والجدل الفلسفي عند المعتزلة

«ويعتبر المعتزلة اقدم من زاول علم الكلام، ولا شك في أنهم يؤلفون مدرسة ذات طابع ديني تأملي بعيدة الاتزان وان مساعيهم ومحاولاتهم نابعة من المعطيات الدينية الاساسية في الاسلام»(٢٩) في وقت كان فيه معظم الفلاسفة الاسلام يهملون حقائق الفلسفة الانسانية ويوجهون الفلسفة وجدلهم اللاهوتي للدفاع عن المبادئ الاسلامية التي يقوم عليها الدين الحنيف.

يتلخص مذهب الاعتزال في خمسة اصول هي:

١ - العدل
٢ - التوحيد
٣ - الوعد والوعيد
٤ - المنزلة بين المنزلتين
٥ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الف كتاب «الاصول الخمسة» المفكر المعتزلي الكبير ابو الهذيل العلاّف معياراً مبدئياً لكل معتزلي ومقياساً لولائه العقائدي، ولا يعتبر اي شخص معتزلياً، الاّ بعد اقرار هذه الأصول الخمسة.

وهذه الاصول الخمسة، ميّز الايمان بها المعتزلة كمدرسة فلسفية عن غيرهم من الفرق والمذاهب التي اعتمدت بعض هذه الأصول. فالخوارج قالت بالعدل والتوحيد، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورفضوا المنزلة بين المنزلتين، لأنهم يعتبرون صاحب الكبيرة كافر. والشيعة الامامية لم يقبلوا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لاختلافهم مع المعتزلة حول الامامة، لقول الامامة بعصمة الامام. اما الشيعة الزيدية، فيضعون بدل المنزلة بين المنزلتين، الكتاب والسنة والنبوة.

(٢٩) كتاب «تاريخ الفلسفة الاسلامية»، هنري كوربان، ص ١٧٠ .

على ان الاصلين الرئيسيين هما، العدل والتوحيد. الاّ ان المعتزلي، قاضي القضاة عبد الجبّار الهمذاني، في كتابه «المغني في ابواب التوحيد والعدل»[٣٠] جعلهما أصول الدين. ولكنه في كتابه «مختصر الحسن» قال: «ان اصول الدين أربعة، التوحيد والعدل والنبوات والشرائع» وجعل ما عدا ذلك من الوعد والوعيد، والأسماء والأحكام، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، داخلاً في الشرائع[٣١].

وترى المعتزلة ان المخالف في الأصول الخمسة، اما كافر او فاسق او مخطىء. فمن خالف في التوحيد ونفى عن الله ما يجب اثباته، واثبت ما يجب نفيه عنه، فانه يكون كافرا، وكذلك في الوعد والوعيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المفكر.

ويقول المعتزلة في: «الأصول الخمسة»، ان اثنين منها يتعلقان بالله، والثالث في مصير الانسان، اما الرابع والخامس فيبحثان في الالهيات الاخلاقية.

ابتدأت الحركة الاعتزالية مرحلتها الأولى لصياغة عقيدتها المذهبية في العدل والتوحيد. والواقع ان المعتزلة لقّبوا على مر السنين باسم «اصحاب العدل التوحيد».

والعدل الالهي عند المعتزلة، هو تنزيه الله تعالى عن أي ظلم، وعن انه لا يفعل قبيحاً وافعاله كلها حسنة. ويقول القاضي عبد الجبّار الهمذاني. «ان الله عدل وأفعاله كلها حسنة ولا يخل بما هو واجب عليه، وانه لم يخلق أفعال العباد، بل يفعلون ما أمروا به ويمتنعون عمّا نهوا عنه من خلال القدرة التي جعلها فيهم»[٣٢].

ومن الآيات التي تفسر الالهي على نحو يؤكد مسؤولية العقل الانساني «ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة واحسنوا ان الله يحب المحسنين»[٣٣] فقد قال الله: «وما

---

(٣٠) توفي قاضي القضاة عبد الجبّار الهمذاني عام ٤١٥ هجري.

(٣١) كتاب شرح الأصول الخمسة، ص ١٢٢ .

(٣٢) كتاب شرح الاصول الخمسة، ص ١٣٢ .

(٣٣) سورة البقرة، آية ١٩٥ .

يبدل القول لدي وما انا بظلّم العبيد»[٣٤] ولأنه لا يظلم مثقال ذرة تأكيداً لنفي الظلم عنه، ولأنه تعالى لا يتوجه الى فعل القبيح بأي حال»[٣٥].

ويقول قاضي القضاة عبد الجبّار الهمذاني: «ارجع النبوات والشرائع الى اصل العدل لأنه كلام من اللّه تعالى، اذا علم ان صلاحنا في بعثة الرسل، وان نتعبد بالشريعة، يجب ان يبعث ونتعبد. ومن العدل ان لا يبخل بما هو واجب عليه، ولذلك الوعد والوعيد داخل في العدل، لأنه كلام في انه اذا وعد المطيعين بالثواب، وتوعد العصاة بالعقاب، فلا بد من ان يفعل، ولا يخلف في وعده ولا في وعيده»[٣٦].

امّا الدكتور عبد الرحمن بدوي فيقول: «ومن قول المعتزلة لا يكلف العباد ما لا يطيقون ولا يعلمون، بل يقدرهم على ما كلفهم، ويعلمهم صفة ما كلفهم ويدلهم على ذلك ويبين لهم: «ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيٰ من حيّ عن بينة»[٣٧].

وانه اذا كلف المكلف، واتى بما كلف على الوجه الذي كلف به، فانه يثبه لا محالة. وثم يقول: «ومن علوم العدل ان نعلم ان جميع ما بنا من النعم فمن الله تعالى، سواء كان من جهة الله تعالى او من جهة غيره»[٣٨].

ويقول المستشرق هنري كوربان: «من معرض كلامهم عن العدل الالهي، يتعرض المعتزلة للمسؤولية وحرية الاختيار وهم يعنون بذلك، ان مبدأ العدل الالهي يوجب القول بحرية الانسان ومسؤوليته الناجمتين عن مبدأ العدل الالهي، والاّ فان فكرة العقاب والثواب في الآخرة تصبح مجردة من كل معنى، هذا الى جانب انعدام الثقة بالعدل الالهي»[٣٩].

---

(٣٤) سورة (ق)، آية ٢٩ .

(٣٥) كتاب تنزيه القرآن من المطاعن ومسائل العدل الالهي، القاضي عبد الجبّار الهمذاني، ص ٧٢ و ٧٧ .

(٣٦) كتاب «مختصر الحسن»، ص ١٢٣ .

(٣٧) سورة الانفال، آية ٤٢ .

(٣٨) كتاب مذاهب الاسلاميين، فصل العدل في الاصول الخمسة، ص ٦١ .

(٣٩) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ١٧٦ و ١٧٧ .

علاقة الموحدين الدروز بالفكر المعتزلي تظهر في العدل الالهي والتوحيد بنفي الصفات عن الله، وان العقل هو الكائن الأول بعد المولى، عز وجل، ويعتقد الموحدون ان عدل الله بديهي لا يقبل الجدل والبرهان. ويسأل هؤلاء القوم: «هل الباري عادل أم جائر؟ لا بد من قولهم، هو عدل لا يجور».

والعدل عند المعتزلة لا يقتصر على تجنب الظلم الذي يصيب الانسان الفرد، بل هو عمل الجماعة ككل في سبيل العدالة والمساواة في المجتمع بكامله.

اما التوحيد، فيقول الله تعالى في كتابه الكريم: «قل هو الله احد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا احد»[٤٠].

التوحيد يعني «الله واحد». اذن هو كون ذاته لا كثرة فيها مطلقاً، لا من حيث الكم ولا من حيث الماهية. وهذا يعني نفي كل عرض من اعراض الأجسام الطبيعية البشرية عن ذات الله، اي نفي صفات التشخيص والعضوية، وصفات اللون والرائحة، والأبعاد والجهات التي هي جميعاً بطبيعتها تقتضي الجسمية اي التركيب».

اجمعت المعتزلة على «ان الله تعالى واحد ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير[٤١] وليس بجسم ولا جثة ولا صورة ولا شخص ولا جوهر ولا بذي لون ولا رائحة، لا يتحرك ولا يسكن ولا بذي جهات وغيرها من نفي الصفات، لا تحاط به أقطار السماوات والأرض، هو المحيط بهن وبما فيهن من المخلوقين، فكينونته منهن ككينونته قبل ايجاد ما اوجد من سماواته وأرضه، فهو الأول الموجود من قبل كل وجود، الخالق غير المخلوق والقديم الأزلي الذي لا غاية له ولا نهاية، الذي لم يحدث بعد العدم ولم يكن لأزليته غاية في العدم»[٤٢].

ويقول الامام القاسم الراسي: «هو الواحد الاحد، الذي لا من شيء كان ولا من شيء خلق، خالق الأشياء لا من شيء خلقها ولا على مثال صورها، بل انشأها

(٤٠) سورة الاخلاص.

(٤١) كتاب النزعات المادية، حسين مروه ص ٦٥٠، المسعودي مروج الذهب مجلد ٢، ص ٣٥٠ .

(٤٢) كتاب العدل والتوحيد ونفي التشبيه، ص ١٠٣ .

انشاء وابتدأها ابتداء. فهو جل ثنائه، لا يشبه الخلق ولا يشبهه الخلق لأنه الخالق الذي ليس كمثله شيء»(*).

يرجع المعتزلة في التوحيد الى القرآن الكريم. يقول الله تعالى: «... لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا فسبحٰن الله رب العرش عما يصفون»(٤٣) ثم يقول سبحانه وتعالى: «قل مَنْ ربُّ السموات والأرض قل الله، قل أفاتخذتم من دونه اولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا، قل هل يستوي الأعمى والبصير ام هل تستوي الظلمات والنور، ام جعلوا لله شركاء، خلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، قل الله خلق كل شيء وهو الواحد القهّار»(٤٤).

المعتزلة آمنوا بوجوب العقل قبل الشرع، والموحدون الدروز قدّسوا العقل واطلقوا عليه اسم «الابداع الأول»، ثاني الله، علة العلل والارادة الالهية على الأرض.

نلمس تطابقاً واضحاً بين ما قال به المعتزلة وبين المعتقدات التوحيدية الدرزية، فان الموحدين اخذوا عنهم اسلوبهم العقلاني وشاركوهم بنفي الصفات عن الله وبالقول ان الانسان مخيّر باعماله وانه قادر على تصرفاته. واكد ذلك المستشرق سلفستر دي ساسي اذ يقول: «من السهل ان تعرف ان الدروز لم يكونوا بعيدين عن عقائدهم المعتزلة بالنسبة الى توحيد الله والى ان الانسان مخيّر في أعماله ومسؤول عنها»(٤٥).

الاعتقاد الشائع بين عامة الموحدين الدروز اليوم، هو ان كل شيء «مكتوب» وان الانسان مجبر على أعماله وليس له خيار بها بقولهم: «امشي على ما قدّر الله والكاتبه ربك بيصير» وكذلك قولهم: «ابن عشرة لا يموت ابن تسعة» هو انحراف بالتداول عن المعتقد الديني التوحيدي.

اما نفي الصفات عن الله، وهو أساس التوحيد، للمعتزلة اراء واضحة تماماً نبدأها بقول المعتزلي ابو الهذيل العلاّف: «ان الصفات تقسم الى صفات ذات

(*) المصدر نفسه، ص ١٠٤ .

(٤٣) سورة الانبياء، آية ٢٢ .

(٤٤) سورة الرعد، آية ١٦ .

(٤٥) كتاب Exposé de la Religion des Druzes, p. 13 - 14

وصفات امثال. الاولى تتضمن القدرة والعلم والحياة والحواس، فلا يجوز ان يوصف الله باضدادها. اما الثانية، فيجوز ان يوصف الله باضدادها وبالقدرة على اضدادها، كالارادة، فان الله يوصف بضدها في الكراهة». ثم قال: «ان ذات الله واحدة فعلمه هو ذاته وقدرته»[٤٦].

اما مؤسس المعتزلة، واصل بن عطاء، فينفي صفات الله، «وان الله تعالى قديم بذاته، عليم بذاته، وان صفات الارادة والسمع والبصر ليست من صفاته، وليست معاني قائمة بذاتها، وان الله لا رؤية له بالأبصار ولا تشبيه، وهذا النفي هو من صفات التوحيد»[٤٧].

يتبين لنا من هذه الدراسة المقتضبة، ان التوحيد هو مبدأ الاساس الأول في الاسلام، فشهادة المسلم، وهي اول الفروض والتي لا يصح اسلامه بدونها هي الشهادة: «لا اله الاّ الله». والدروز لقبوا بالموحدين وذلك لتوحيدهم المولى، عز وجل، وكما نسمع مشايخ الأجاويد الاتقياء يرددون في المأتم، باستمرار وخشوع: «قل هو الله احد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُوّاً احد»[٤٨]. ثم نداء الصوفي المؤمن: «وحّدوه... لا اله الاّ هو...». والمشرك الكافر، صاحب الكبيرة، هو من يقول ان لله شريكاً، فالله، تمجد اسمه، لا شريك له، فهو «الله احد».

التوحيد ليس من استنباط المعتزلة، ولكن تميزوا به دون غيرهم وقالوا به وفسّروه تفسيراً شاملاً. التوحيد هو العلم والايمان بان الله لا يشاركه احد في الصفات لأن لا صفات له، فهو «موحداً» كما هو عليه في ذاته وهذا هو التوحيد عند عامة المؤمنين، وهو ان يكون الشيء واحدا دون البحث في صفاته نفيها او اقرارها. اما عند المعتزلة، او معظمهم، فهو العلم والاقرار والايمان بأن الله لا يشاركه غيره في الصفات، اذ لا صفات له كي يشارك بها. الله، عز وجل، ليس جسماً تحل به الصفات، ولا عنصراً،

---

(٤٦) كتاب مذاهب الاسلاميين، عبد الرحمن بدوي، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٤٧) كتاب مذاهب الاسلاميين، عبد الرحمن بدوي، ص ٨٤ - ٨٦ .

(٤٨) سورة الاخلاص.

ولا جوهراً، بل هو تعالى، الخالق لهذه الأعراض كلها ومبدع الكون، قال له: «كن فيكون»[٤٩].

«الوعد ايصال الخير الى الغير او دفع ضرر عنه في المستقبل، والوعيد يتضمن ايصال ضرر الى الغير او تفويت نفع عنه في المستقبل». ان العدل الالهي يقضي بأن لا يعامل المؤمن والكافر على حد سواء. ويقول الله تعالى في كتابه الكريم: «ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصّلحات كالمفسدين في الأرض، ام نجعل المتقين كالفجّار»[٥٠]. فطبيعة القول الالهي يتضمن وعيداً للكافر ووعداً للمؤمن. اذا تساوى الكافر بالمؤمن سيؤدي ذلك الى انتفاء الثواب والعقاب.

رفض القاضي عبد الجبّار رأي المرجئة بمساواة الكافر بالتقي طالما كانا مؤمنين ويعتبر الآية «أم حسبَ الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون»[٥١]. وفي كتابه الكريم ايضاً: «ان الله لا يغفر ان يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً»[٥٢].

ويقول المستشرق الفرنسي، هنري كوربان: «ان يكون الله قد وعد المؤمنين من خلقه بالثواب وتوعد الكافرين منهم بالعقاب، فهذا أمر تقرّ به الفرق والمذاهب الاسلامية على اختلافها. ولكن المعتزلة، يربطون بين هذه العقيدة وبين مفهومهم للعدل الالهي، فالعدل الالهي ان لا يعامل الكافر والمؤمن على حد سواء، كما ان الحرية الانسانية تتضمن ان يكون الانسان مسؤولاً عن أفعاله سواء في الخير أم في الشر. وهكذا فان فكرة اللطف الالهي ليس لها الاّ مكان ثانوي في التعليم المعتزلي، اما العدل فهو الذي يحتل المكانة العليا»[٥٣].

---

(٤٩) سورة يس، آية ٨٢ . «انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون».

(٥٠) سورة ص، آية ٢٨ .

(٥١) سورة الجاثية، آية ٢١ .

(٥٢) سورة النساء، آية ١١٦ .

(٥٣) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ١٧٨ .

وتقول المعتزلة، ان وعد الله بالثواب ووعيده بالعقاب ووعده بقبول التائب، امور لا بد من الايمان بها، فلذلك لا يكون العفو بغير توبة. بذلك يرد المعتزلة على المرجئة الذين يقولون: «لا تضر مع الايمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة».

اما المنزلة بين المنزلتين فكان غلاة الخوارج يعتقدون، خصوصاً الازارقة[٥٤] والنجدات[٥٥] والاباضية[٥٦] ان الذين كفّروا عائشة ام المؤمنين، والزبير ابن العوّام وطلحة بن عبيدالله، وهما من كبار الصحابة، لقتالهم الخليفة الامام الأول علي بن ابي طالب في معركة «الجمل»، من مرتكبي الكبيرة، ومرتكب الكبيرة كافر وخالد في النار. واعتمدوا في ذلك قول الله تعالى: «إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً»[٥٧] اما المرجئة فقالت، ان مرتكب الكبيرة مؤمن حتى يحكم الله بأمره، وعند الله العدل المطلق»[٥٨].

وقال العالم الكبير حسن البصري: «ان مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً وليس كافراً بل منافقاً». وايده بذلك ابو عثمان عمرو بن عبيد ثم غيّر رأيه عندما قال واصل بن عطاء. «ان صاحب الكبيرة ليس مؤمناً او كافراً او منافقاً، بل بين المنزلتين، اي فاسق».

بعد جدل ونقاش بين حسن البصري وواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، ترك واصل حلقة حسن البصري وانتحى جانباً من المسجد مع جماعته، فقال حسن البصري: «لقد اعتزل واصل عناً، فسمي معتزلاً».

ان الكبيرة عند المعتزلة هي: الشرك بالله تعالى، قتل النفس التي حرّم الله قتلها الاّ بالحق، الزنى، عقوق الوالدين، شهادة الزور، السحر، أكل مال اليتامى، الربا، التواني عن الزحف، وقذف المحصنات.

---

(٥٤) اصحاب ابي راشد نافع بن الازرق. كانوا يعتبرون كل من يخالفهم مشركين، توفي عام ٦٠هـ.

(٥٥) اصحاب نجدة بن عامر الحنفي قالوا: ان الدين امران احدهما، معرفة الله ورسله، والثاني تحريم دماء المسلمين.

(٥٦) اصحاب عبدالله بن اباض من بني مرة، قالوا افعال العباد مخلوقة من الله ومرتكب الكبيرة كافر خالد بالنار.

(٥٧) سورة الانسان، آية ٣ .

(٥٨) المرجئة اعمدت قول الله تعالى «قالوا أرجه وأخاه وارسل في المدائن حاشرين» سورة الاعراف، آية ١١١ . اي امهله واخره.

الشرك بالله تعالى هي الكبيرة المطلقة والله لا يغفر لمرتكبها وانه، عز وجل، لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال جلّ ذكره: «من يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً»[٥٩].

واصل بن عطاء يثبت الفسق على صاحب الكبيرة في مناظرته مع أبي عثمان عمرو بن عبيد اذ يقول: «وليس تجد اهل الفرق يسمّون صاحب الكبيرة فاسقاً ويختلفون فيما عداه من اسمائه. فالخوارج تسميه كافراً وفاسقاً، والمرجئة تسميه مؤمناً فاسقاً، والشيعة تسميه كافر نعمة فاسقاً، والحسن البصري يسميه منافقاً فاسقاً، واجمعوا على تسميته الفسق، فنأخذ بالمتفق عليه، ولا نسمّيه بالمختلف فيه، فهو اشبه بأهل الدين»[٦٠].

يقول ابن قيم الجوزية: «كل ما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة، وما نهى النبي فهو صغيرة. كذلك كل ما ثبت عليه في الدنيا او وعيد في الآخرة فهو كبيرة، وما يترتب عليه، لا هذا ولا هذا، فهو صغيرة»[٦١].

اذن عند المعتزلة، ان مرتكب الكبيرة لا كافر، كما قالت الخوارج، ولا مؤمن كما ادعت المرجئة، انه بين المنزلتين فاسق. والفسق هو عدم طاعة الله تعالى.

اما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد قالت المعتزلة، ان الله قال في كتابه الكريم: «ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واؤلئك هم المفلحون»[٦٢]. ثم قال« عز وجل، «كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو أمن اهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون»[٦٢].

المعروف، هو كل فعل عرف فاعله حسنه او دل عليه واحسن به للغير، والنهي عن المنكر، هو النهي عن القبيح اذا عرف فاعله قبّحه او دل عليه.

ويقول قاضي القضاة عبد الجبّار الهمذاني: «يتأكد التمايز الاساسي بين الأمر

---

(٥٩) سورة النساء، آية ١١٦ .

(٦٠) كتاب المنية والأمل، احمد بن محيي المرتضى، ص ٣٦ و ٣٩ .

(٦١) كتاب الجواب الكافي، ص ١١١ .

(٦٢) سورة آل عمران، آية ١١٠ .

بالمعروف والنهي عن المنكر، ان الأمر بالمعروف يكفي - مجرد الأمر به - ولا يلزم حمل من ضيعه عليه. مثلاً، لا يوجب علينا ان نحمل تارك الصلاة الى الصلاة حملاً، بينما لا يكفي من النهي مجرد النهي، علينا ان نمنعه منعاً، فلو ظفرنا بشارب الخمر فان الواجب علينا ان ننهاه بالتدرج، بالقول اللّين، فان لم ينته، خشّنا له القول، وان لم ينته ضربناه، وان لم ينته قاتلناه. الأمر، فهو القول لمن دونه رتبة «افعل»، والنهي قول القائل لمن دونه لا تفعل»(٦٣).

المطلوب من الانسان ان يعلم أنّ المأمور به معروف والمنهي عنه منكر، وهذا الشرط لتجنب الخلط بين طرفي المعني في أمره والنهي عن فعله.

يقول المستشرق هنري كوربان: «ان مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتعلق بحياة الجماعة، انه يهدف الى التطبيق العملي لمبادئ العدالة والحرية في السلوك الاجتماعي. فالعدالة عند المعتزلة لا تنحصر في تجنب الأذى والظلم اللذين للفرد، بل هي ايضاً عمل الجماعة كلها في سبيل خلق جو من المساواة الاجتماعي»(٦٤).

يعتقد البعض ان لقب «بني معروف» الذي يطلق على الموحدين الدروز، يرجع الى عقيدة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، ولكن كتب التاريخ الاسلامية وكتب التوحيد الدرزية، لا تشير الى هذه المقولة، مع ان الأخلاق والمعاملة عند الموحدين الدروز تشير الى تمسكهم بهذه العقيدة. الاّ ان البعض الآخر يعتقد ان لقب «بني معروف» يعود الى معرفتهم بعقيدة التوحيد.

وقد يتساءَل البعض، ما سبب قصر اهتمام المعتزلة على «الأصول الخمسة»، اي التوحيد، العدل، المنزلة بين المنزلتين، الوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. القاضي عبد الجبّار الهمذاني، فسّر هذا الاهتمام في جمع جميع الاهتمامات والعقائد الفكرية ضمن الأصول الخمسة بقوله: «الا ترى ان خلاف الملحدة والمعطلة والدهرية والمشبهة قد دخل بالتوحيد، وخلاف المجبرة بأسرهم داخل في باب العدل،

(٦٣) كتاب شرح الأصول الخمسة، ص ١٤١ .

(٦٤) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ١٧٩ .

وخلاف المرجئة داخل في باب الوعد والوعيد، وخلاف الخوارج داخل تحت المنزلة بين المنزلتين وخلاف الامامية داخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٦٥].

ولكن من الواضح في تاريخ الحركة المعتزلية ان العقل والقدرية وخلق القرآن كانت لهم اهمية كبرى ونتائج حاسمة فاقت «الأصول الخمسة»، ويكفي قولهم بخلق القرآن الذي تسبب في انهيار واندثار حركة الاعتزال.

من اهم العقائد التي قال بها المعتزلة واخذت حجماً كبيراً سياسياً كانت القدرية التي تقول ان الانسان خالق لأفعاله وله على ما يفعل ثوابٌ وعقابٌ في الدار الآخرة، وهو حر التصرف والفاعل للخير والشر ومنبع الايمان والكفر. اما الجبرية فتقول: ان الانسان مسيّر لا مخيّر، وان كل ما يحدث له قد قدّر عليه، وبذلك تنفي الفعل عن العبد وتضيفه الى الله تعالى.

ويقول الشهرستاني: «ان المعتزلة تقول «ان الانسان مسؤول عن اعماله وهو قادر عليها، ويقول واصل بن عطاء، ان الباري تعالى حليم عادل لا يجوز ان يضاف اليه شر ولا ظلم، ولا يجوز ان يريد من العباد خلاف ما يأمر، ويحتم عليهم ثم يجزيهم عليه. فالعبد هو الفاعل للخير والشر، الايمان، والكفر، والطاعة، والمعصية، هو المجازى على فعله، والرب تعالى اقدره على ذلك»[٦٦].

ترى الجبرية ان الفعل الانساني هو فعل خلقه الله في الانسان ولا تعلق للانسان به، لا تعلقاً ولا اكتساباً، وان الانسان وعاء له فقط. ويرد القاضي عبد الجبّار بقوله: «فلو كانت الأفعال الانسانية من خلق الله، لبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وينتهي الثواب والعقاب لأنه لا يجوز ان يأمر الله بما لا يفعله وينهى عما خلقه». ثم يسأل القاضي عبد الجبّار. «وكيف يحسن من الله المساءلة والمحاسبة والعقاب، وجميع ما وقع من الأفعال وهو الذين خلقها؟»[٦٧].

ويقول القاضي عبد الجبّار: «والانسان يشاء الفعل فيفعل، وقد يشاء فلا يفعل،

---

(٦٥) كتاب شرح الاصول الخمسة، ص ١٢٤ .
(٦٦) كتاب الملل والنحل، جزء ١، ص ٤٧ .
(٦٧) كتاب المختصر في اصول الدين، ص ٢٠٩ .

بمعنى ان المشيئة الانسانية هي حرية الفعل في تنفيذه او العدول عنه بالكيفية ذاتها»[٦٨].

ويقول الامام يحيى الزيدي: «لو شاء الله ان يهدي الجميع «جبراً» لفعله ولكنه لم يشأه الاّ بالاختيار، لأنه لو اجبرهم على ذلك وادخلهم غصباً - قهراً وجبراً - كان من المستوجب للثواب دونهم ألم يقل «ثم قيل للّذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الاّ بما كنتم تكسبون»[٦٩] ألم يقل بمشيئتي لكم ولا بقضائي عليكم ولا بارادتي فيكم»[٧٠].

«واكدت المعتزلة بان الفعل الانساني فعلٌ اراديّ ذاتيّ للانسان لا يتعلق بخلق الله تعالى، ولكن الذي يخلق القدرة على العقل في الانسان هو الله، اذاً، الله خالق القدرة على الفعل وليس الفعل».

يلتقي الموحدون الدروز مع المعتزلة في ايمانهم بالقدرية اذ يعتبرون الخلق مخيّرين وموقوفين للعرض والحساب والجزاء وهم يؤمنون انه لو كان أمر الله تعالى حتماً ونهيه جبراً لما شك احد واطاع الخلق بأسرهم لله، لأن أمره تخيير ونهيه تحذير والعدل يقوم بالتخير في الحقيقة.

يقول بعض المؤرخين: «فالموحدون يعتمدون منحى واسلوباً خاصاً في شأن القدرية يقوم على المنطق الفلسفي وعقلانية المتكلمين المعتزلة. ثم يقولون انما وردت هذه التعابير القرآنية والفلسفة الاعتزالية في كتبهم لكون من قام بالدعوة التوحيدية هم من العلماء الذين اطلعوا على القرآن وامضوا سنين عديدة يتلون آياته ويبحثون عن معانيها وتأويلاتها، كغيرهم من العلماء والمفكرين المسلمين، ثم انهم نشأوا في بيئة اسلامية، يستعمل افرادها آيات القرآن الكريم.

ويتفق الموحدون الدروز مع المعتزلة في القدرية ورفضهم الجبرية، اذ يقولون ان على الانسان ان يقدم، يوم القيامة، الحساب على افعاله. كما رفضوا الجبرية لأن القبول بها كان يعني نسبة الظلم الى الله، والله يحكم بالعدل.

---

(٦٨) كتاب فصل الاعتزال، ص ١٧٢ .

(٦٩) سورة يونس، آية ٥٢ .

(٧٠) كتاب رسائل العدل والتوحيد، جزء ٢، ص ٤٠ .

يقول بعض المؤرخين ان أول من تكلم في القدر من المسلمين كان معبد الجهني[٧١] وقد اخذه عن رجل من اهل العراق يقال له «سوسن» كان نصرانياً فأسلم. ثم أخذ غيلان الدمشقي[*] الفكرة عن معبد الجهني ولهذا شاع القول ان أول من تكلم بالقدر كان معبد الجهني[٧٢].

اما القول بالجبرية فيرده بعض المؤرخين الى مقولة معاوية ابن ابي سفيان المعروفة: «لو لم يرني ربي اهلاً لهذا الأمر ما تركني واياه، ولو كره الله تعالى ما نحن فيه لغيّره». ثم قوله كذلك: «انا خازن من خزّان الله تعالى، اعطي من اعطاه وامنع من منعه، ولو كره الله امراً لغيّره».

كانت هذه المقولات الجبرية تبريراً لاغتصاب الامويين الحكم من آل البيت وهدرهم اموال المسلمين على مصالحهم الخاصة واهوائهم، ثم خوفهم ان مذهب القدرية قد يفتح امام المظلومين باب الأمل بالخلاص من الظلم ما دام قد ظهر هذا الظلم ليس قضاء الهياً مفروضاً عليهم قبوله، شاءوا ذلك ام ابوا. ثم رفع هذا الغطاء الالهي عن أعمالهم يفتح المجال للناس لمحاسبتهم على ما يقترفونه من اعمال لا يقرها الشرع او الدين.

ويقول القاضي عبد الجبّار الهمذاني عن شيخه ابي علي الجبائي قوله: «ان اول من قال بالجبر واظهره معاوية، وانه أظهر ان ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه، ليجعله عذراً فيما يأتيه ويوهم أنه مصيب فيه، وان الله جعله اماماً وولاّه الأمر وفشي ذلك في ملوك بني أمية»[٧٣].

---

(٧١) هو معبد بن خالد الجهني البصري. قال ابن الأثير، «الكامل في التاريخ» ان الحجاج قتله عام ٨٠هـ، قيل عنه «حديثه صالح ومذهبه رديء». نهى حسن البصري الناس عن مجالسته. قيل انه اول من تكلم بالقدر.

(*) الدمشقي. هو ابن مسلم الدمشقي وكنيته ابو مروان. قتله الخليفة هشام بن عبد الملك لقوله بالقدرية. كان مستشار وصديق الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز.

(٧٢) كتاب العبر. للذهبي، ص ٩٢ . وكتاب تهذيب التهذيب، ابن حجر، ص ٢٢٥ .

(٧٣) كتاب المغني في ابواب العدل والتوحيد، جزء ٨، ص ٤ .

قال المفكر طاش كبرى زاده: «كان الخلاف - اي الخلاف في مشكلة القدر - يتدرج شيئاً شيئاً الى آخر أيام الصحابة، حتى ظهر معبد الجهني وغيلان الدمشقي وواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد ويونس الأسواري، وخالفوا في القدر واسناد جميع الأمور الى تقدير الله، وهلم جرا، الى ان ظهرت قواعد الاعتزال»[٧٤].

ان البحث في مشكلة القدر، كما نرى من هذه الدراسة، ظهر قبل معبد الجهني وغيلان الدمشقي، حتى ان بعض المؤرخين، يرجعون به الى وقت الرسول الكريم. وقيل ان الامام علي بن ابي طالب، كان من اوائل المتكلمين بالقدر وانه ناظر القدرية في المشيئة وحرية الانسان في أفعاله. يقول الدكتور علي سامي النشار، ان علي بن ابي طالب «رأى قدرياً مشهوراً، في عهد عمر بن الخطّاب، هو عبدالله بن صبيغ ورأى كيف منعه عمر في الخوض في القدر»[٧٥]. اذَن ان مسألة القدر اثيرت حتى في أيام الخليفة عمر بن الخطّاب.

يقول محمد الأسفرانيني، ان علي ابن ابي طالب قال: «لو وجدت رجلاً من أهل القدر لأخذت بعنقه واضربه حتى اكسر عنقه فانهم يهود هذه الأمة»[٧٦].

الاّ ان احمد بن يحيى بن المرتضى، يقول: «انصرف علي بن ابي طالب من صفين، فقام احد اتباعه وسأله: «اخبرنا عن مسيرنا في الشام، اكان بقضاء وقدر؟. قال علي، و«الذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما هبطنا وادياً ولا علونا قلعة الاّ بقضاء وقدر». وقال الشيخ الشامي: «ما لي من الأجر شيء» (اي تعبه راح هدراً). قال علي: «لم تكونوا من شيء من حالاتكم مكرهين ولا اليها مضطرين». ثم قال علي: «لعلك تظن قضاء واجباً وقدراً حتماً، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد»[٧٧].

ويقال، ان مسألة القدر اثيرت حتى في ايام النبي، اذ يقول محمد مرتضى

---

(٧٤) كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة جزء ٢ ص ٢٤ . توفي طاش كبرى زاده عام ٩٦٨هـ.

(٧٥) كتاب نشأة الفكر في الاسلام، جزء ١، ص ٢٢٥ .

(٧٦) كتاب التبصر في الدين، ص ٥٨ .

(٧٧) كتاب المنية والأمل، ص ٧ و ٨ .

الزبيدي، ان النبي كان يغضب أشد الغضب اذا سمع المجادلة في القدر حتى انه قال: «ما ضلّ قوم بعد هدي كانوا عليه الاّ اوتوا الجدل. وان القدرية هم مجوس هذه الأمة»(٧٨).

يقول بعض المفكرين الغربيين(٧٩) ان الفلاسفة المسلمين الأولين، الذين قالوا بالقدر، تأثر تفكيرهم بتفكير المفكرين النصارى الشرقيين الذين قالوا بفلسفة الاختيار، وان القول بالقدر، اثناء العهد الأموي، كان من تأثير الآراء المسيحية، ولا سيما كتابات الأسقف يوحنا الدمشقي الذي يقول فيها ان مسألة الجبر وحرية ارادة الانسان هما من مسائل الخلاف بين الاسلام والمسيحية.

يقول المفكر الالماني «جولد زهير» «ان علماء المسلمين القدامى اخذوا من علماء اللاهوت المسيحيي ما احدث عندهم الشك فيما اعتقدوه في أمر القدر الأزلي المطلق»(٨٠).

وكان الأسقف يوحنا الدمشقي(٨١) عالماً كبيراً ومعاصراً لغيلان الدمشقي ومعبد الجهني، وله رسالة «نقاش بين مسيحي ومسلم» وكتاب «الايمان الصحيح» وكانت له محاولات وجدل صريح بينه وبين علماء مسلمين عن القدرية والجبرية.

يقول الأسقف يوحنا الدمشقي: «الأشياء التي تحدث؛ سببها، اما الله، او الضرورة، او القدر، او الطبيعة، او البحث او العرض. فتحت اي واحدة من هذه تدرج ما يحدث بفعل الانسان، اذ ليس من الصواب ان ننسب الى الله افعالاً تكون

(٧٨) كتاب تيسير الوصول الى جامع الأصول في احاديث الرسول، جزء١، ص ٢٤٨ .

(٧٩) الفرد فون كريمر (كتاب مباحث حضارية في ميدان الاسلام). كارلو الفونسو نلينو (كتاب التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية) موريس سيل (اللاهوت الاسلامي) ادم متز (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع هجري). مكدونلد (مصدر اللاهوتية الاسلامية).

(٨٠) كتاب العقيدة والشريعة في الاسلام، ص ٩٤ .

(٨١) ولد الاسقف يوحنا الدمشقي في دمشق عام ٦٧٥ ميلادي، وهو حفيد الأسقف ابن سرجون الذي فتح باب دمشق الشرقي للمسلمين عند حصارها من ابو عبيدة بن الجرّاح وخالد بن الوليد. وكان ابن سرجون يلقب بالمنصور النصراني. حفيده يوحنا الدمشقي عاش في دمشق في عهد خلافة معاوية بن ابي سفيان. توفي عام ٧٤٩ ميلادي.

خسيسة وظالمة. فلم يبق إلاّ ان نقول، ان الانسان الذي يفعل ويصنع هو منشئ افعاله وانه مخلوق مزوّد بحرية الارادة»(٨٢).

وقد يكون ممكناً ان اللاهوتيين المسيحيين في بلاد الشام اثروا على بعض المتكلمين في العقائد الدينية الاسلامية، ولكن لم يرد في كتب التاريخ الاسلامي اي اشارة لذلك، ولهذا يمكن القول، ان بحث العقيدة القدرية من الجانب المسيحي، بقي محصوراً، ولمدة قصيرة، في دمشق ابان وجود الأسقف يوحنا الدمشقي. ثم كانت رسالة حسن البصري(٨٣) الشهيرة في القدرية والجبرية الى الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ). يقول احمد بن يحيى بن المرتضى: «ان الحجاج بن يوسف الثقفي، بطلب من الخليفة، كتب الى حسن البصري - بلغنا عنك في القدر شيء، فاكتب الينا بقولك»(٨٤).

كان هدف الخليفة عبد الملك بن مروان، ان ينتزع من حسن البصري، وهو شخصية دينية وعلمية، نافذة الرأي في اوساط المفكرين والعلماء في البصرة، وكبير معلمي المذهب القدري، فتوى علمية دينية اسلامية تكون شجباً للقدرية، التي كان يتشدد الأمويون في محاربتها، ويتخذ منها سلاحاً دينياً يضرب به مذهب القدرية.

اعتمد الخليفة عبد الملك بن مروان على عقدة الخوف عند حسن البصري من اضطهاد السلطة له، اذا صرح برأيه الى جانب القدرية، وهو يعرف ما فعل الأمويون بعمرو المقصوص ومعبد الجهني وغيلان الدمشقي وغيرهم، ولهذا كان يأمل الخليفة عبد الملك بن مروان ان تكون الفتوى كما يشتهي فيستعملها سلاحاً ضد القدرية.

ولكن حسن البصري لم يخف في اعلان رأيه بدعم القدرية، فتعرض الى غضب الخليفة بقوله: «ان كل شيء لقضاء الله وقدره الاّ المعاصي». وبذلك اشار الى معاصي الحكّام الأمويين لسفكهم دماء المسلمين واغتصاب اموالهم.

---

(٨٢) كتاب Die Fide orthodox, p 25

(٨٣) كان لحسن البصري، العالم الكبير، مجلس في البصرة يؤمه طلاب العالم والمعرفة، وكان حسن البصري من التقليديين المعروفيين «بطلائع التصوف» ومن مجلسه انبثقت حركة الاعتزال والعقيدة القدرية، ولد عام ٢١هـ وتوفي عام ١٠٩هـ.

(٨٤) كتاب طبقات المعتزلة، ص ١٩ .

ويقول حسن البصري في رسالته دعماً للقدرية: «فان ما ينهى الله عنه فليس منه، لأنه لا يرضى لعباده الكفر، فلو كان الأمر كما قال المخطئون، لما كان لمتقدم حمد فيما عمل ولا على متأخر لوم»(٨٥).

وابو الفتح محمد الشهرستاني، كان الوحيد بين المؤرخين الاسلام الذي قال ان هذه الرسالة كتبها واصل بن عطاء وليس حسن البصري(*)، واستدل على ذلك، من ورود دلائل العقل الذي اشتهر بعلمه واصل بن عطاء(٨٦).

كان تشدد الأمويين في عقيدة الجبرية، كما سبق ان ذكرنا، ذريعة لاضفاء غطاء الهي على تصرفاتهم على اعتبار أنهم فقط اداة لتنفيذ رغبة الله، كي يرضخ الشعب المظلوم على ان ما يحصل من الظلم والتعدي على حقوقه، هو رغبة الله تعالى وليس من فعل الحكّام الأمويين.

ومن المسائل التي ثار حولها جدل عنيف بين المفكرين المسلمين هي مسألة، هل القرآن بما فيه من آيات متشابهة او متعارضة يقول بحرية الاختيار او بالقضاء والقدر.

ونزلت في القرآن الكريم آيات تقول بالجبرية وأخرى تقول بالقدرية. وقال الامام الأول علي بن ابي طالب لمنع الجدل في هذه الآيات. «اذ لم تعرف الحقيقة التي نزلت عليك، فعليك بالايمان فهو طاعة الله تعالى».

اعتمد المعتزلة التفسير عبر حياتهم المذهبية، فناضلوا من أجل التفسير التأويلي العقلي العقائدي وتجاوزا الظاهرية التي اعتبروها تهديداً مباشراً للعقيدة المعتزلية لتمسكها بآيات التشبيه بمعناها الظاهري. وقد فسّر ذلك الدكتور عبد الستار الراوي: «وقد حاولوا اعتماد التأويل من خلال الالتزام بالعقل لكي لا يخرج النص عن معناه الظاهري، الاّ اذا اخذ الكلام عن ظاهره يصطدم بموجبات العقل»(٨٧).

---

(٨٥) كتاب طبقات الاعتزال، احمد بن يحيى المرتضى، ص ١٩ و ٢٠ .

(*) رسالة الخليفة عبد الملك بن مروان مصورة رقم ١٢١٥ (ورقة ٢٠ - ٤) في مكتبة دار الكتب المصرية وجواب حسن البصري (ورقة ٥ - ٢٣).

(٨٦) كتاب الملل والنحل، مجلد ١، ص ٤٧ .

(٨٧) كتاب العقل والحرية، ص ٧٥ .

ويقول الدكتور محمد عماره: «تقول المعتزلة، ان التأويل لن يكون مطلقاً في عموم الآيات، انما في المتشابه فقط. ان المنهج الذي يعتمد على الحجج القرآنية يعتمد بالضرورة على الحجج العقلية، ويتخذ موقفاً من الآيات التي توحي ظاهرها بوجود تناقض بينها وبين ظواهر آيات اخرى تناولت ذات القضايا والمواضيع نفسها، وهو الموقف الذي جعل المشتغلين بالدراسات القرآنية يقسمون الآيات الى محكمة ومتشابهة، وواضحة وخفية وأصول وفروع»(٨٨). امّا الآيات المحكمات، فلا تأويل لها غير تنزيلها.

وفي القرآن الكريم، آيات تؤذن بأن لا فاعل الاّ الله، وان الانسان مقدرة عليه أفعاله. والى جانبها آيات اخرى تقرر ان الانسان حر في أفعاله ومسؤول عنها.

من الآيات التي تقول بالجبرية هي:

١ - وما تشاءون الاّ ان يشاء الله رب العالمين، (سورة التكوير، آية ٢٩)

٢ - كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جند ربك الاّ هو، (سورة المدثر، آية ٣١)

٣ - وما كان مؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم، (سورة الاحزاب، آية ٣٦)

٤ - قل لن يصيبنا الاّ ما كتب الله لنا وهو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون، (سورة التوبة، آية ٥١)

٥ - قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً الاّ ما شاء الله»، (سورة يونس، آية ٤٩)

وكذلك نجد عدداً وفيراً من الآيات تقرر حرية الانسان في اعماله واختيار افعاله وهو مسؤول عنها وعن نتائجها.

١ - قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، (سورة الكهف، آية ٢٩)

٢ - ان الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، (سورة الرعد، آية ١١)

٤ - ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك، (سورة النساء، آية ٧٩)

---

(٨٨) كتاب مقدمة رسائل العدل والتوحيد، مجلد ١، ص ٣٣ .

٥ – من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها، (سورة الاسراء، آية ١٥)

٦ – كل نفس بما كسبت رهينة، (سورة المدثر، آية ٣٨)

٧ – قل ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما انا عليكم بوكيل، (سورة يونس، آية ١٠٨)

٨ – قد جاءكم بصائر من ربكم فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما انا عليكم بحفيظ، (سورة الانعام، آية ١٠٤)

٩ – ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن اساء فعليها وماربك بظلاّمٍ للعبيد، (سورة فُصّلت، آية ٤٦)

هذه بعض من الآيات الجبرية والقدرية كما جاءت في القرآن الكريم وخلقت بين المفكرين المسلمين جدلاً كبيراً. فمن كان يؤمن بالايمان المطلق قبلها كما هي، وكما قال الامام الأول علي: «فعليك بالايمان فهو طاعة الله تعالى». اما المعتزلة فحاولت دمج الايمان بالعقل في التفسير التأويلي ولكنها اصطدمت بأهل النص، كالاشاعرة والحنابلة فلم يكن النجاح من نصيبها.

ذكرت سابقاً، في فصل الأشعرية، فكرة «الكسب» التي قال بها ابو الحسن الأشعري، رداً على المعتزلة التي قالت بقدرة الانسان على فعله ارادة واختياراً والجبرية التي رفضت فاعلية الانسان وقالت انه مسيّر لا مخيّر، فأراد ابو الحسن التوفيق بين الاتجاهين المتعارضين فقال: «ان الانسان يريد الفعل الذي يختاره، ولكن التنفيذ من الله، اذن الله خالق لكل شيء وحرية الاختيار يخلقها الله في الانسان، وكذلك العقل الذي تنفذ بمقتضاه هذه الحرية، وهذا يعرف باسم – الكسب – اي ما يكسبه الله في الانسان»(٨٩). ثم يقول ابو الحسن الأشعري: «ان أفعال العباد مخلوقة لله، وليس للانسان فيها غير اكتسابها، اي ان الفاعل الحقيقي هو الله، وما الانسان الاّ مكتسب للفعل الذي احدثه الله على يدي هذا الانسان. والكسب هو تعلق قدرة الله وارادته بالفعل المقدور المحدث من الله الحقيقة»(٩٠).

---

(٨٩) كتاب اللمع في التصوف، ابو نصر السرّاج الطوسي، ص ٣٨ .

(٩٠) كتاب مذاهب الاسلاميين الدكتور عبد الرحمن بدوي، مجلد ١، ص ٥٥٥ .

ثم كانت محنة «خلق القرآن» التي نتج عنها مقتل آلاف من المعتزلة وسببت اندثار عقيدة الاعتزال. وقد وصفها الدكتور مصطفى الشكعة «كانت هذه المحنة ضرباً من الهوس المذهبي، الذي لا يستحق كل هذا الغلو الذي لا يقدم ولا يؤخر في صلب عقيدة الاسلام»(٩١).

مما زاد في اسباب حدة هذه المحنة، ان الخليفة المأمون عبدالله ابن الرشيد (١٩٨ - ٢١٨هـ) وكان معتزلياً، أمر نائبه في بغداد، اسحق بن ابراهيم، ان يجمع القضاة والفقهاء وكبار موظفي الدولة وينذرهم بالعقوبة والطرد من وظائفهم ان لم يستجيبوا للقول بخلق القرآن، «وان من لم يؤمن بذلك يصبح غير موثوق بدينه، حتى لا تنفذ احكام الله تعالى الاّ بشهادة أهل البصائر في الدين والاخلاص للتوحيد»(٩٢).

الأسلوب المثير الذي جاهر به الخليفة المأمون وفرضه عقيدة «خلق القرآن» المذهب الرسمي للدولة آثار غضب ونقمة واستنكار أهل السنة والحديث، خصوصاً ان موقفه، وهو المعتزلي تلميذ ابو الهذيل العلاّف، كان دوماً موقفاً للريبة والقلق.

توفي الخليفة المأمون عام ٢٠٨هـ وظن الناس ان الفتنة انتهت بموته، ولكن خلفه شقيقه المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧هـ) الذي كان قوي الشكيمة واعتنق الاعتزال عن أخيه المأمون، تابع في اضطهاد أهل السنة، وخصوصاً زعيمهم الروحي احمد بن حنبل، صاحب المذهب الحنبلي، الذي ناله الكثير من ظلم وتعسف المعتصم(*).

---

(٩١) كتاب اسلام بلا مذاهب، ص ٣٩٩ .

(٩٢) المصدر نفسه، ص ٣٩٨ .

(*) هو احمد بن هلال بن اسد من بني شيبان، صاحب الفقه الحنبلي. ولد في بغداد عام ١٦٤هـ وكان والده قائداً في الجيش العباسي. كان يعتمد النص في القرآن وسنة الرسول والحديث وكان يعتبر فقيه «أثر» أي، فقيه سنة وحديث وليس فقيه «رأي» اي، الفقه المبني على القرآن والسنة والحديث والقياس والاجماع والعرف. كان يرفض القياس والاجماع ويقول: اصحاب «الرأي» اصحاب بدع وضلال. ويقول الأصل في العقيدة، هو الايمان المطلق، وينفي بشدة، نفي الصفات عن الله. وكان يقول: «الرحمن علّم القرآن» ولم يقل «الرحمن خلق القرآن». وكان يقول كل مخلوق يموت وكلام الله ازلي لا يموت. كان لا يفتي بقضية بغير نص من القرآن والسنة.

توفي الخليفة المعتصم بالله عام ٢٢٧هـ واستلم الخلافة ابنه الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٣٢هـ)، وكان ورعاً تقياً يتحلى بالعلم في الفقه والدين ولكنه كان متمسكاً بعقيدة الاعتزال.

عند وفاة الخليفة الواثق بالله عام ٢٣٢هـ لم يترك للدولة ولياً للعهد فعيّن الاتراك، الذين كانوا قابضين على زمام الحكم، شقيقه المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) الذي انتصر لأهل السنة وقرّب اليه الامام احمد بن حنبل وعزل عن السلطة اصحاب الاعتزال الذين اصبحوا عرضة للاضطهاد والتنكيل والانتقام.

يقول ابو الحسن الاشعري: «مهما يكن من أمر، فان المعتزلة لم تكن من بين الفرق الكلامية الاولى، هي وحدها التي قالت بخلق القرآن، بل ان الخوارج والشيعة والجهمية، قد ذهبوا، على ما يبدو، هذا المذهب في خلق القرآن»[٩٣].

اول من قال «بخلق القرآن» كان الجعد بن درهم، وكان معلم الخليفة مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٤هـ) آخر خلفاء بني أمية. سكن جعد بن درهم دمشق واخذ علمه عن بيان بن سمعان الذي اخذها عن طالوت ابن اخت الرافضي لبيد بن اعصم. بعد قول الجعد بن درهم بخلق القرآن طلبه الخليفة الأموي لقتله لأنه اعتبر هذا القول بدعة والحادا، فهرب جعد الى الكوفة حيث قتله اميرها خالد بن عبدالله القسري لقوله: أن الله ما كلّم موسى تكليماً». ثم قال بخلق القرآن الجهم بن صفوان فقتله الوالي نصر بن سياد عام ١٢٨هـ.

اعتمد المعتزلة على نصوص في القرآن الكريم تقول على ان صفة الكلام منسوبة الى الله تعالى، كما جاء في الآية «وكلّم موسى تكليماً»[٩٤]. والقرآن موصوف انه كلام الله تعالى والكلام محدث والمحدث مخلوق. ثم قالوا بالآية «إنّا انزلناه في ليلة مباركة وإنّا كنا منذرين»[٩٥]. وقوله تعالى «انزلناه»، والانزال فعل حادث غير ازلي. ويقول المعتزلة ان كلام الله اذن حادث وهو مخلوق، لأن كلام الله ليس من الصفات المعادلة للذات وهو القرآن، فالقرآن اذن مخلوق.

---

(٩٣) كتاب مقالات الاسلاميين، ص ٥٨٢ . كتاب الانتصار ابو الحسن الخياط، ص ٩٢ .

(٩٤) سورة النساء، آية ١٦٤ .

(٩٥) سورة الدخان، آية ٣ .

ويشير المعتزلة، ان كلمة «جعل» هي لافعال محدثة، اي «فعل» يعني «خلق». وقول الله تعالى في كتابه الكريم «إنّا جعلنٰه قرأناً عربياً لعلكم تعقلون»[٩٦]. اذن ان الجعل هو الخلق. ثم الآية «الحمدلله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمٰت والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون»[٩٧] فالجعل هو فعل الخلق، والقرآن الكريم، هو فعل من افعال الله تعالى، اي الخلق، اذاً هو مخلوق.

وقالت المعتزلة، ان الكلام صفة قديمة لله، والقرآن باعتباره كلاماً الهياً فهو قديم ولكنه ليس بأزلي، فالأزلي هو الله تعالى وحده. أما أصحاب النص، الأشاعرة والحنابلة وبعض المرجئة فقالوا: «كل مخلوق يموت، وكلام الله أزلي لا يموت، وخلق القرآن بدعة كفر»[*].

كانت مجابهة اهل النص للمعتزلة في مسألة «خلق القرآن» شديدة وصارمة وقالوا حتى في منع الجدل والمناظرة في هذا الموضوع. «اذ على المؤمن الايمان بما جاء في القرآن وحديث الرسول والوقوف عنده، لأن لا يجوز البحث في صفات الله تعالى وكيف تصدر الأشياء عنه لأن ذلك يتجاوز قدرة العقل الانساني»[٩٨].

ويقول ابو محمد علي الظاهري المعروف باسم ابن حزم ما مختصره – «ان

(٩٦) سورة الزخرف، آية ٣ .

(٩٧) سورة الانعام، آية ١ .

(*) وتحدث الناس فقالوا: طلب الخليفة المعتصم بالله ان يأتوه بأحمد بن حنبل. فجيء به من السجن القيد في رجله. فقال له المعتصم: «كيف كنت في محبسك البارحة؟ فقال ابن حنبل: «يا أمير المؤمنين، قمت في آخر الليل للصلاة فلم اقدر ولم اتمكن من الكلام، فنظرت في زاوية المحبس فاذا القرآن ميتاً، فغسلته وكفنته وصليت عليه ودفنته. فصاح به المعتصم «ويلك يا كافر، القرآن يموت؟!» فقال ابن حنبل: «انت يا أمير المؤمنين تقول ذلك عند قولك القرآن مخلوق، وكل مخلوق يموت».

بقي احمد بن حنبل في السجن ثمانية وعشرين شهراً. ابتدأت محنة خلق القرآن عام ٢١٢هـ وانتهت عام٢٣٢هـ.

(٩٨) كتاب النزعات المادية، حسين مروه، ص ٦٧٧ .

القرآن كمادة وهو مؤلف من ورق وجلود الحيوان وعفص وماء وصمغ فهو مخلوق اما كلامه، فهو علم الله تعالى، فأزلي، اذن القرآن غير مخلوق»[٩٩].

يأتي موقف ابو الحسن الأشعري كحلٍ وسط بين هذين الموقفين المتطرفين، فهو يرى ان طبيعة الكلام، سواء بشرية او الهية، لا تعود فقط، كما ترى المعتزلة الى اصوات وكلمات تلفظ وتحكى، بل انها ايضاً «حديث نفسي» وهي بهذا مستقلة بذاتها عن «الحديث اللفظي». ثم يقول ان القرآن مؤلف من كلمات وهو مكتوب فلهذا فهو فعل زمني مخلوق، على عكس ما يعتقده أهل النص، واذا سأل سائل، وكيف تقول انه مخلوق وغير مخلوق في آن واحد؟ يجيب الأشعري: «عليك ان تؤمن بذلك، فالايمان طاعة الله تعالى»[١٠٠].

بما ان قضية خلق القرآن، خلقت جدلاً كبيراً ووقع بسببها الكثير من الأحداث العنيفة والدامية، وكان ذلك فقط في تفسير اعتقادات واراء لا علاقة لها بالأصول الدينية، ويرفضها المنطق العقلاني كونها انفعالات نفسية انبثقت من تعصب مذهبي. وبما ان هذه المقولات والجدل لا علاقة لها او تأثير على المعتقدات التوحيدية الدرزية، التي هي موضوع هذه الدراسة، فقد اختصرنا البحث فيها وحصرناه في تفسيرات مقتضبة لتوضيح هذا الحدث الذي كان من الأسباب الرئيسية لانهيار حركة الاعتزال.

ان حرية الفرد في اعماله والعدالة والتوحيد اخذت من الفكر اليوناني العقلاني، الذي ظهرت بوادره قبل انتشار الاسلام وكان ذلك بواسطة المترجمين السريان النصارى الذين عملوا بنشاط في مدارس الرها، والاسكندرية، ونصيبين وحرّان ودير قنسيرين، ثم في مدرسة جندياسبور التي انشأها كسرى انوشروان. ولكن هذا النشاط العلمي، لم يبدأ بطريقة جدية علمية، الاّ في العهد العباسي الأول، وخصوصاً عهد الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) الذي قيل عنه انه كان: «أعظم راع للفلسفة والعلم».

---

(٩٩) كتاب الفصل في الملل والنحل، مجلد ٣، ص ٩ .

(١٠٠) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان، ص ١٨٥ .

انشأ الخليفة المأمون «بيت الحكمة» في بغداد عام ٢١٥هـ وأرسل وفوداً الى بلاد الروم في طلب كتب اليونان العلمية والفلسفية، حيث تولى نقلها الى العربية فريق من خيرة علماء المسلمين والنصارى. وقيل ان هذه المكتبة، التي دمرها المغول عام ٦٥٦هـ، كانت تحتوي على اكثر من ثلاثمائة الف كتاب، معظمها في الفلسفة اليونانية.

من أهم علوم الفلسفة اليونانية التي اخذها وتداولها مفكرو المعتزلة، كانت فلسفة العقل، وخصوصاً محاولة دمجه مع الايمان المطلق، او الأصح المغلق، الذي كان يستحوذ على فكر أهل النص، كالأشاعرة والحنابلة وأصحاب الحديث.

وقال ابو الحسن الأشعري في دحض محاولات المعتزلة ما يلي: «ان اعطاء الأهمية المطلقة للعقل لا يفضي الى دعم الدين، كما زعم المعتزلة، بل ان ذلك على العكس، يفضي الى نفي الدين والى استبدال الايمان بالعقل. اذ ما هي قيمة الايمان بالله اذن وبالكتاب المنزل، ما دام العقل بحد ذاته اسمى وأرفع من المعطيات الدينية»[(١٠١)] ثم ينكر ابو الحسن الاشعري استخدام الادلة العقلية بحجة «ان النبي والصحابة ما استعملوا مثل هذه الادلة».

اما قاضي القضاة عبد الجبّار الهمذاني المعتزلي فيقول: «ان معرفة الله لا تنال الاّ بحجة العقل، لأن العقل هو الطريق الذي يصل بالانسان الى معرفة الغير، وان معرفة الله لا تنال الاّ بهذه الحجة. اما ما عدا العقل، فليس الاّ فرعاً على معرفة الله في توعيده وعدله، هو شأن المصادر الثلاثة، كتاباً وسنة واجماعاً. العقل المقياس الشرطي للحقيقة وهو الطريق الوحيد الى المعرفة[(١٠٢)].

اما الدكتور عبد الستار الراوي فيقول: «ان المنهجية التي يعتمدها المعتزلة في معرفة الله والعلم بتوحيده وعدله، معرفة قوامها العقل عبر النظر والاستدلال، لهذا رتب المعتزلة ادلتهم على النحو الذي جعل العقل على رأس حججهم ثم جعلوا

---

(١٠١) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان، ص ١٨٣ .

(١٠٢) كتاب فصل الاعتزال، ص ٨٣٨ .

الكتاب والسنة والاجماع حججاً مكملة لحجة العقل ومثبتة لها على ان تكون مطابقة للعلم، اي ما يدركه العقل بالبداهة»[١٠٣].

تركت المسيحية اثراً كبيراً في الاعتزال واسندت الخلافة الأموية مناصب عالية للمسيحيين، فمعاوية ابن ابي سفيان ولّى سرجون بن منصور الروحي امانة مكتبه وأطلق يده في اعمال الدولة الادارية[١٠٤] ثم كان الأسقف يحيى الدمشقي الذي اعتزل عمله في ادارة الدولة عام ١١٢ هـ والتحق بأحد الأديرة في مدينة القدس، ومن بعده أسقف حرّان ثيودور ابو قرة الذي قال عن العقل: «هو من خير الله الفياض وفضله لا يناهي بتعظيمه العقل البشري، وان الانسان بالعقل قادر على ان يعرف الخالق، وان الله تعالى انما وهب الانسان العقل ليتمكن به من معرفة الله، وان الانسان اذا كان يستطيع بالعقل ان يعرف الخالق ويبصر صفاته، فهو لذلك ان يدرك به الحسن والقبيح ويفرق بين الخير والشر[١٠٥].

ويقول الشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين التنوخي: «فلذلك استودعت الأشكال الكرّية جميعها بالقوة بل بروزها الى العقل، واختصت في المبدع تعالى وتقدس بالخصائص الربانية، والعطايا الالهية والقوات الفيضية، والكمالات الكلية، والأمثال الحكيمة، وهو المسمى بالعقل الكلي»[١٠٦].

لأعلام المعتزلة ومفكريهم، وهم كثيرون، أفكار متميزة عن أفكار معاصريهم، لأن الاعتزال كان مدرسة فلسفية قامت على قواعد فكرية عقلانية لم تتفق مع تزمت أهل النص في اعتمادهم على الايمان المطلق. وكان بعض مفكري المعتزلة يقول – من عرف العقل عرف الطريق الى الله، والعلم بالله اولى واجبات الانسان، لأن سائر الشرائع من قول وفعل لا قيمة لها الاّ بعد معرفة الله.

---

(١٠٣) كتاب العقل والحرية، ص ٢٤٨ .

(١٠٤) كتاب تاريخ الرسل والملوك، محمد الطبري، مجلد ٤، ص ١٨٣ .

(١٠٥) كتاب تاريخ الرسل والملوك، محمد الطبري، مجلد ٤، ص ١٨٣ .

(١٠٦) كتاب الخالق والدين القويم، ص ٩ .

يلتقي مفكرو المعتزلة والموحدون الدروز على أهمية العقل، حتى تقديسه عند الموحدين. فالعقل نور محض، علة العلل، ثاني الله، اوكل اليه تعالى مهمة تدبير العالم وجعله خالق الموجودات واجرى فيه ينابيع الحكمة والمعرفة، وهو ابداع نور الله الشعشعاني.

اعلام المعتزلة

ان لاعلام المعتزلة ومفكريهم الكبار افكاراً متميزة عن افكار معاصريهم، لأن الاعتزال كان مدرسة فلسفية ذات طابع ديني تأملي قامت على قواعد خاصة فكرية تعارضت مع تزمت اهل النص، خصوصاً، اعتمادهم المطلق على العقل ومحاولتهم دمجه مع الايمان المغلق.

١ - واصل بن عطاء.

صاحب المدرسة الواصلية. كان عالماً مجتهداً انتشرت اعماله في كل بلاد الشام، والعراق وفارس، حتى شمال افريقيا، وكانت اقواله حجة في الاعتزال.
لقب بالغزّال لأنه كان يلزم ابا عبدالله مولى قطن الهلالي الغزّال في سوق الغزّالين ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن[١].
ولد واصل بن عطاء في المدينة عام ٨١هـ. وتوفي في البصرة عام ١٣١هـ، وكان مولى لبني مخزوم[٢] العائلة الاولى في قريش، وكان لهم القيادة والحرب في الجاهلية، ومنهم القائد الكبير خالد بن الوليد والشاعر عمر بن ابي ربيعة.
كان واصل بن عطاء طويل العنق، يلثغ بحرف الراء وكان يتجنبها في كلامه، حملت الجاحظ، الكاتب المعروف، على وصفها في كتاب البيان والتبيين، وقال فيها الشاعر بشار بن برد.

فقام مرتجلاً تغلي مراجله ... كمرجل القين لمّا حق باللهب
وجانبَ الرّاءَ، لم يشعر بها أحدٌ ... قبل التصفّح والاغراق بالطلب

ثم قال بشّار بن برد عن طول عنقه.

---

(١) كتاب طبقات المعتزلة، احمد بن يحيى بن المرتضى، ص ٢٩ .
(٢) كتاب وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، ابن خلكان، مجلد ٥، ص ٦٠.

مـالـي اشايـع غـزّالاً لـه عـنـــق كنقنق الـدوّ، وان ولّى وان مـثـلا
عنـق الـزرافـة، مـا بـالـي وبـالـكـم تكفرون رجـالاً كـفّـروا رجـلا[٣]

ارتحل واصل بن عطاء من المدينة الى البصرة، مدينة اهل العلم والمعرفة، حيث انضم الى حلقة العالم الكبير حسن البصري وتعرف الى الشاعر بشّار بن برد، وتزوج اخت المعتزلي عمرو بن عبيد.

واصل بن عطاء هو الذي تجادل مع حسن البصري وقال ان صاحب الكبيرة ليس بكافر كما تقول غلاة الخوارج، وليس بمؤمن كما تقول المرجئة، ولكن في منزلة بين المنزلتين، اي فاسق[٤]، وكان هذا الجدل سبب انفصال واصل عن حلقة حسن البصري في مسجد البصرة وأخذ له حلقة، فقال حسن البصري: «لقد اعتزل عنا واصل» فكان هذا القول، عند بعض المؤرخين، اساس تسمية المعتزلة.

بعث واصل بن عطاء الدعاة الى البلاد الاسلامية لنشر مذهب الاعتزال ومجادلة المذاهب الأخرى. وقال احمد بن يحيى المرتضى: «قال ابو الهذيل العلاّف، بعث واصل عبدالله بن الحارث الى المغرب، والى خراسان بعث حفص بن سالم، والقاسم بن السعدي الى اليمن، والحسن بن ذكوان الىالكوفة، وعثمان الطويل الى أرمينة وأيوب الى الجزيرة»[٥].

وكان واصل بن عطاء واضع عقيدة: «الأصول الخمسة: العدل – التوحيد – الوعد والوعيد – المنزلة بين المنزلتين – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، التي ترتكز عليها مبدأ الاعتزال[٦].

قال واصل بن عطاء بخطأ الامام علي لحربه في موقعة الجمل والنهروان. استنكر الشيعة هذا القول لأنهم يقولون بعصمة الامام وعلي الامام الأول فلا يجوز تخطئته. لواصل بن عطاء مؤلفات عديدة ذكرها ابن النديم في «الفهرست» وكذلك ذكرها

(٣) النقنق ويقال له الظليم هو ذكر النعام، الدوّ الفلاة الواسعة.

(٤) المنزلتان هما الكفر والايمان، والفاسق هو الذي يعصى أوامر الله.

(٥) كتاب المنية والأمل، ص ٣٢ – كتاب مذاهب الاسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٨١ .

(٦) كتاب الأصول الخمسة كتبه ابو الهذيل العلاّف.

العباس احمد بن خلكان في كتاب «وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان». ومن مؤلفاته: اصناف المرجئة - التوبة - المنزلة بين المنزلتين - الخطبة - معاني القرآن - السبيل الى معرفة الحق - الخطب في التوحيد - والدعوة.

واصل بن عطاء من معتزلة البصرة.

٢ - عمرو بن عبيد بن باب.

هو عمرو بن عبيد بن باب، وباب من سبي كابل من ثغور بلخ. وهو مولى لآل عرّادة من يربوع بن مالك، وكنيته ابو عثمان[٧]. ولد عمرو بن عبيد في البصرة عام ٨٠هـ وتوفي عام ١٤٤هـ. وهو شقيق ام يوسف زوجة واصل بن عطاء.

كان عمرو بن عبيد من اعلم الناس بأمر الدين ومن رواة الحديث، اشتهر بالزهد والتقشف والورع. قال عنه الجاحظ «صلى عمرو بن عبيد اربعين عاماً صلوة الفجر بوضوء المغرب وحج اربعين مرة حجة ماشياً». وكان يقول بالقدر وينكر صفات الله، ويقول ذلك هو التوحيد.

بعد المناظرة مع واصل بن عطاء في عقيدة «المنزلة بين المنزلتين» قال عمرو بن عبيد لواصل «ما بيني وبين الحق عداوة والقول قولك واشهد من حضر اني تارك ما كنت عليه من المذهب»[٨].

مات عمرو بن عبيد في موضع يقال له: «مران» في طريق مكة من البصرة وصلى عليه الفقيه سليمان بن علي، وقيل لما مرّ الخليفة المنصور بن جعفر ١٣٦ - ١٥٨هـ.) بقبره وكان يقدره ويحبه، رثاه بالأبيات التالية:

صلى الله عليك من متوسد	قبراً مررت به على «مران»
قبراً تضمن مؤمنا متخشعاً	عبد الاله ودان بالقرآن
واذا الرجال تنازعوا في شبهةٍ	فصل الحديث بحجة وبيان
لو ان هذا الدهرَ ابقى صالحاً	ابقى لنا عَمْرواً ابا عثمان[٩]

(٧) كتاب طبقات المعتزلة، احمد يحيى بن المرتضى، ص ٣٥ .

(٨) كتاب الغرر والدّرر، احمد بن يحيى بن المرتضى، ص ١٦٧ .

(٩) كتاب طبقات المعتزلة، احمد يحيى بن المرتضى، ص ٤٠ .

عمرو بن عبيد من معتزلة البصرة.

٣ – ابو الهذيل محمد بن الهذيل العلاّف العبيدي.

هو ابو الهذيل محمد بن الهذيل العلاّف العبيدي، وكان مولى لعبد قيس[١٠]. ولد في البصرة عام ١٣٥هـ في مكان يسمى بالعلاّفين فكانت كنيته بالعلاّف. اخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل وعن واصل بن عطاء. توفي في البصرة عام ٢٣٥هـ وحضر مأتمه الخليفة العباسي المعتزل الواثق بالله تكريماً له[١١].

كان ابو الهذيل العلاّف شيخ المعتزلة ومقرر طريقتهم والذاب عنها والقوة والدافع وراء تغلغل الفلسفة اليونانية، التي كان ملماً بها، في الفكر المعتزلي.

وكان لأبي الهذيل تأثير كبير على علم الكلام، وشدد على القياس، وهو علم الشيء على ما قبله من الأفعال والحوادث. كما وانه اعتمد على قياس ما اخرج من القرآن والسنة وأصر على انه ما آتى من القرآن، على ما هو الآن في ما يحدث، وان حرية الفكر والتعبير هما المعرفة الصادقة للمعرفة الدينية.

وفي خلافة المتوكل على الله العباسي، وكان يضطهد وينكل بالمعتزلة، الف ابو الهذيل كتاباً اسماه «الاصول الخمسة»، فكان اذا التقى معتزلي برجل يقول له: «هل قرأت الأصول الخمسة»؟ فاذا قال نعم، عرف انه على مذهبهم[١٢].

اخذ ابو الهذيل فلسفة الذرة عن الفلاسفة اليونان «ليوقيس» «وكديموقريطس». وقال: «من صفات جوهر الفرد انه لا طول له ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع فيه، ولا افتراق، وكذلك ان يكون الجوهر الفرد جسماً لأن هذه الصفات التي نفيناها عنه هي صفات الاجسام»[١٣].

---

(١٠) كتاب تاريخ بغداد، احمد بن علي الخطيب البغدادي، مجلد ٣، ص ٣٦٦ .

(١١) كتاب طبقات المعتزلة، احمد بن يحيى بن المرتضى، ص ٤٨ .

(١٢) كتاب نشأة التفكير الفلسفي في الاسلام، علي سامي النشّار، مجلد ١، ص ٤٨٥ . نقلاً عن مخطوط لأبي معين النسفي، موجود في مكتبة التيمورية في القاهرة رقم ٥١٤ .

(١٣) كتاب مقالات الاسلاميين، الاشعري، مجلد ٢، ص ٣٠٧ .

اعترض بعض مفكري المعتزلة على ما قال به ابو الهذيل منهم، عيسى بن صبيح ابو موسى المردار في كتاب «تفكير ابي الهذيل». وجعفر ابن حرب في كتاب «توبيخ ابي الهذيل». وسبب ذلك موقفه في كثير من الأفكار تختلف عن موقفهم. العقل عند ابي الهذيل لمعرفة الحقيقة كاملة وليس الدين بمفرده.

كان ابو الهذيل يقول: «ان الانسان ان لم يقتل مات في ذلك الوقت، ولا يجوز ان يزاد العمر او ينقص» ويتفق هذا القول مع ما يعتقده عامة الموحدون الدروز من ان عمر الانسان مكتوب عندالله وان ابن العشرة لا يموت ابن تسعة».

قال ابو الحسين عبد الرحمن الخياط ان ابا الهذيل الف كتاب «الحجج» في الفقه وكتاب «القوالب» في الرد على الدهرية وان له ما يزيد عن الستين كتاباً في الرد على المخالفين في علم الكلام(١٤). ويذكر له ابن خلكان في كتابه «وفيات الاعيان» كتاباً اسمه «ميلاس»(١٥).

ابو الهذيل من معتزلة البصرة.

٤ - ابو اسحاق ابراهيم بن سيار بن هاني البلخي، المعروف بالنظّام.

هو ابو اسحاق ابراهيم النظّام، تنتسب اليه الفرقة النظّامية وهو تلميذ ابي الهذيل العلاّف. ولد في البصرة عام ١٨٥هـ. وتوفي عام ٢٣١هـ. عاش ٤٦ سنة. كان النظّام مولى بني بجير بن الحارث بن عباد الضبعي.

عرف عن ابو اسحاق النظّام معاشرته للثنويين وملحدة الفلاسفة، وكان صديقاً لهشام ابن الحكم الرافضي الذي اخذ عنه قوله: «بابطال الجزء الذي لا يتجزأ». كما انه كان مقرباً من الوزير يحيى بن خالد البرمكي وصديقاً لعمرو بن بحر الجاحظ الذي خلّده في كتبه.

ابو اسحاق النظّام هو ابن اخت ابي الهذيل العلاّف الذي اخذ عنه علم الاعتزال، كما انه اطلع على الكثير من كتب فلسفة اليونانيين، وخصوصاً الالهيين

---

(١٤) كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ١٢٤ .

(١٥) ميلاس رجل مجوسي اسلم بعد اجتماعه مع ابي الهذيل وجماعة من الثنوية ومجادلتهم في علم المذهب المزدكي واسكتهم ابو الهذيل فأسلم «ميلاس».

والطبيعيين، كما نادى بالبدع الشبه ملحدة في دين الاسلام. قال النظّام، كالبراهمة، بيطل النبوات وانكر معجزات النبي، حتى انه انكر نبوته وطعن في فتاوى اعلام الصحابة.

وقال الدكتور مصطفى الشكعة: «وكان عنيفاً في تعبيره عما يعتقد، لا يتوخى الصيغ المهذبة عندما يتحدث عن الذات الالهية، كقوله: «ان الله لا يقدر على فعل الشر ولا يقدر ان يفعل الاّ ما يعلم انه الأصلح لعباده، وانه لا يقدر على ان يخلق اكثر مما خلق بالفعل، والاّ فما الذي يمنعه من ان يظهر كل ما عنده من القدرة على خلق اشياء جديدة»[١٦].

وقال قولته التي اثارت جماعة السنة وحتى بعض المعتزلة: «ان نظم القرآن وحسن تأليف كلماته، ليس بمعجزة للنبي، عليه السلام، ولا دلالة على صدقه في دعواه، وما فيه من الأخبار على الغيوب. اما نظم القرآن وحسن تأليف آياته، فان العباد قادرون على مثله وعلى احسن منه في النظم والتأليف»[١٧].

اثار هذا القول غضب وسخط اهل السنة لأنه ضد قول الله تعالى: «قل لئن اجتمعت الأنس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»[١٨].

كان ابو اسحاق النظّام من اعظم شيوخ المعتزلة واقدرهم على الكلام واكثرهم تعمقاً في الفلسفة ولكنه كان يعتمد النفي والسلبية كبرهان لايجابياته.

هاجم النظّام الكثير من المعتزلة واتهموه بالكفر والالحاد ومنهم ابو هشام الجبائي والقاضي ابو بكر محمد الباقلاني في كتابه «كفار المتأولين»، ولأبي حسن الأشعري ثلاثة كتب في تكفير اسحاق النظّام.

الاّ ان الجاحظ مجّد النظّام وقال فيه احسن الاقوال منها: «الاوائل يقولون، في كل الف سنة رجل لا نظير له، فان هذا صحيح، فهو ابو اسحق النظّام» ثم اردف

---

(١٦) كتاب اسلام بلا مذاهب، ص ٤٠١ .

(١٧) كتاب مذهب الاسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٢١٣ .

(١٨) سورة الاسراء، آية ٨٨ .

قائلاً: «كان ابراهيم مأمون اللسان، قليل الزلل والزيغ في باب الصدق والكذب»[١٩].

كان ابراهيم النظّام على مذهب الشيعة وقال: «لا امامة الاّ بالنص والتعيين ظاهراً مكشوفاً. وقد نص النبي، صلى الله عليه وسلم، على علي رضي الله عنه، في مواضع وأظهره اظهاراً لم يشتبه على الجماعة الاّ ان عمر كتم ذلك»[٢٠].

وقال النظّام: «ان الاجماع ليس بحجة في الشرع، وكذلك القياس في الأحكام الشرعية لا يجوز ان يكون حجة، انما الحجة في قول الامام المعصوم».

ولأبي اسحاق النظّام مؤلفات قليلة، هي كتاب «الجزء» وهو عرض لأقوال المسلمين في مسألة الذرة. وكتاب حركة الاجسام وفيه يقول: «الحركات هي الكون لا غير ذلك. وكتاب «العلم» وفيه ما قاله الملحدون في العالم. وكتاب «التوحيد» ذكره الخياط في كتابه «الانتصار»[*].

ابو اسحاق ابراهيم النظّام من معتزلة البصرة.

٥ – ابو سهل بشر بن المعتمر الهلالي.

ولد في الكوفة ثم انتقل الى بغداد حيث صار رئيس المعتزلة. قال القاضي عبد الجبّار الهمذاني: «كان بشر بن المعتمر زاهداً، عابداً ورعاً داعياً الى الله تعالى وكان شاعراً مشهوراً قال الكثير من الشعر، ومن شعره»[٢١].

ان كنت تعلم ما اقول وما تقول فأنت عالم
وان كنت تجهل ذا وذاك فكن لأهل العلم لازم
لا تطلبن رئاسة بالجهل انت لها مخاصم

كان ابن المعتمر يقول: «ان الله قادر على ان يظلم ولو ظلم لكان بذلك عادلاً».

---

(١٩) كتاب الحيوان، مجلد ٤، ص ٢٠٦ .

(٢٠) كتاب الملل والنحل، الشهرستاني، ص ٥٧ .

(*) هو ابو الحسين بن ابي عمرو الخياط استاذ ابي القاسم بن محمد الكعبي.

(٢١) كتاب طبقات المعتزلة، احمد بن يحيى المرتضى، ص ٥٣ .

من تلامذة ابن المعتمر كان بشر ثمامة بن الاشرس النميري. توفي ابن المعتمر عام ٢١٠هـ.
ابن المعتمر من معتزلة بغداد.

٦ - بشر ثمامة بن الأشرس النميري.

ويكنّى ابا معن النميري، كان وراء اقناع الخليفة عبدالله المأمون بالفكر المعتزلي عندما كان والياً على خراسان. لعب دوراً مؤثراً في الانقلاب الفكري الذي سيطر في عهد المأمون والمعتصم والواثق عندما أصبح الاعتزال عقيدة الدولة العباسية.
ولد الأشرس في البصرة التي فارقها الى خراسان حيث عمل والياً، ثم اتى بغداد والتحق بخدمة الخليفة المأمون الذي كان يعود اليه بالاستشارة في تعيين او عزل الوزراء والوالاة.
وصفه الشهرستاني في كتاب الملل والنحل انه كان خليعاً ماجناً. وقال عنه العسقلاني انه كان ملحداً وينتقص من الاسلام. اما ابن النديم فيقول عنه انه كان من جلة المتكلمين في المعتزلة فصيحاً بليغاً عالماً في أمور الدين.
اتهم بالبدع والالحاد ومن قوله: «ان الأفعال المتولدة افعال لا فاعل لها، وهذا يعني، ان لا صانع لحدوث العالم». وقال، ان المعرفة متولدة من النظر، والنظر فعل لا فاعل له كسائر المتولدات». توفي عام ٢١٣هـ.
الأشرس من معتزلة بغداد.

٧ - ابو موسى بن مراد عيسى بن صبيح الكوفيّ.

قال عنه ابن الأخشيد[٢٢]: «ابو موسى الكوفي من علماء المعتزلة، ومن المقدمين فيهم، وكان من احسن عباد الله قصصاً وافصحهم منطقاً واثبتهم كلاماً. وكان يسمى راهب المعتزلة لاختلاطه بالمسيحيين في البصرة والقول بعقيدتهم». ساعد

(٢٢) ابن الاخشيد هو ابو بكر احمد بن علي الاخشيد معتزلي، من مؤلفاته كتاب «ابي علي في النفي والاثبات، واختصار تفسير الطبري» توفي عام ٣٢٦هـ وهو من معتزلة بغداد.

استاذه بشر بن المعتمر في نشر مذهب الاعتزال في بغداد. ومن تلامذته جعفر بن حرب الثقفي وجعفر بن بشر الهمذاني.

اتهم بالالحاد وقال في القرآن: «ان الناس قادرون على مثل القرآن، فصاحة ونظماً وبلاغة». وقال في خلق القرآن – كفر من قال انه ازلي(٢٣).

وقال الشهرستاني: «ان ابا موسى بن مراد قال – ان العقل يوجب معرفة الله تعالى بجميع احكامه وصفاته قبل ورود الشرع، وعليه يعلم انه وان قصر ولم يعرفه ولم يشكره، عاقبه عقوبة دائمة، فاثبتنا التخليد واجباً للعقل»(٢٤). توفي ابن مراد الكوفي عام ٢١٣هـ.

الكوفي من معتزلة بغداد.

٨ – خالد بن صفوان.

كان من اتباع عمرو بن عبيد، قال في خلق القرآن ونفي الصفات عن الله والقدر. اعتزل مع عمرو بن عبيد عند الجدل مع حسن البصري في مسألة المنزلة بين المنزلتين ولكنه حذا حذو الخوارج الازارقة في تكفير جميع من قاتل في معركة الجمل.

قال خالد بن صفوان: «ان علي بن ابي طالب وقومه قاتلوا ام المؤمنين عائشة والزبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله وجموعاً من المسلمين، جلهم من الصحابة». وانا اقول: «لا يحق لمسلم ان يقتل أخاه المسلم الاّ على الحق. فأين الحق في مقتل آلاف من حفظة القرآن!». توفي عام ١٣٣هـ.

خالد بن صفوان من معتزلة البصرة.

٩ – ابو عمرو محمد بن عبّاد السلمي.

قال احمد بن يحيى بن المرتضى: «كان السلمي عالماً عدلاً وتفرد بمذاهب،

---

(٢٣) كتاب الملل والنحل، ص ٦٩ .

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٧٠ .

سنذكرها انشاءالله. وكان بشر بن المعتمر، وهشام عمرو وابو الحسن المدائني من تلامذته. ثم حكي ان الرشيد وجه به الى ملك السند ليناظره، وان ملك السند دس له من سمّه في الطريق فمات»[٢٥].

وقال ابو الحسن الأشعري: «وقال معمر بالتعجيز لله وانه لا يوصف بالقديم، وانه قادر الاّ على الجوهر، وان الاعراض فلا يجوز ان يوصف بالقدرة عليها، وانه ما خلق حياة ولا موتاً، ولا صحة ولا سقماً، ولا قوة ولا عجزاً»[٢٦]. توفي عام ٢٢٠هـ.

ابو عمر بن عباد السلمي من معتزلة البصرة.

١٠ - هشام بن عمرو الفوطي.

ولد في البصرة وينتسب الى «شيبان» قال فيه القاضي عبد الجبّار الهمذاني: «كان عظيم القدر عند الخاصة والعامة». حكي عن يحيى بن الأكثم: «كان اذا دخل على المأمون، يتحرك حتى يكاد يقوم»[٢٧].

ومن اقواله، التي اعتبرت بدعاً وكفراً: «ان الله لا يؤلف بين قلوب المؤمنين بل هم المؤتلفون باختيارهم[٢٨]. ويرد عليه عبد القادر البغدادي بالآية «والّفَ بين قلوبهم لو انفقت ما في الأرض جميعاً ما أَلفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم، انه عزيز حكيم»[٢٩].

ثم يقول: «ان الله لا يحبّب الايمان الى المؤمنين ولا يزينه في قلوبهم» فيرد عليه الشهرستاني بالآية: «حبب اليكم الأيمن وزيّنه في قلوبكم»[٣٠].

وحرّم هشام الفوطي على الناس ان يقولوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل» لأن

(٢٥) كتاب طبقات المعتزلة، ص ٥٤ . كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ١٥١ .

(٢٦) كتاب مقالات الاسلاميين، مجلد ٢، ص ٥٤٨ .

(٢٧) كتاب طبقات المعتزلة، ص ٦٠ .

(٢٨) كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ١٦٠ .

(٢٩) سورة الانفال، آية ٦٣ .

(٣٠) سورة الحجرات، آية ٧ .

الوكيل يقتضي موكلاً فوقه وهذا لا يجوز على الله، لأن لا شيء فوقه تعالى. واستبدل هذا القول: «حسبنا الله ونعم المتوكل عليه»[٣١].

توفي عام ٢١٨ هجري وهو من معتزلة البصرة.

١١ - ابو محمد جعفر بن مبشر الثقفي.

قال محمد بن يزداد: «ولقد بلغ في العلم والعمل هو، وجعفر بن حرب، حتى كان يضرب بهما المثل فكان يقال: «علم الجعفرين وزهدهما كما يضرب المثل في حسن السيرة بالعمرين»[٣٢].

كان فقيراً زاهداً وكان يرفض المساعدة، حتى من اقرب الناس اليه. قيل ان الخليفة المأمون قال لوزيره، احمد بن دؤاد، «لمَ لا تولي اصحابي (المعتزلة) القضاء كما تولي غيرهم؟ فقال بن دؤاد أرسلت الى جعفر الثقفي مالاً، فأرجعه، فذهبت بنفسي، فهددني بالقتل وقال: «لا أريد أكثر مما يسد رمقي. فكيف اولي القضاء مثله[٣٣].

قال: «ان لا يوجد من المعاصي كبائر وصغائر، كل المعاصي كبائر». بهذا اتفق في رأيه مع الخوارج الازارقة والنجدات واختلف مع جماعة الاعتزال وهو من كبار مفكريهم.

توفي عام ٢٣٤هـ وهو من معتزلة بغداد.

١٢ - جعفر بن حرب ويكنّى ابا الفضل.

كان عالماً ورعاً زاهداً. وقيل ان في آخر عمره ترك ضياعه وما يملك واعتزل الناس واقبل على التأليف. كان يبيع كتبه في السوق لسد حاجاته من ثمنها، وينفق ما يدخله من ضياعه على الفقراء والمحتاجين.

---

(٣١) كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ١٥٩ .

(٣٢) العُمَران هما عمر بن الخطّاب والخليفة الأموي الثامن عمر بن عبد العزيز الملقب بالخليفة الزاهد، امه ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

(٣٣) كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، حاشية ٣، ص ١٦٧ (تفصيل كامل للقصة).

كان يحضر مجلس الخليفة الواثق بالله ويشترك في المناظرات والجدل الديني. ولما انقطع عن الحضور قيل للخليفة انه مريض والواقع انه انقطع عن حضور مجلس الواثق بالله لأنه لم يتفق مع بعض العلماء في كثير من الآراء الفقهية.

اما احمد بن يحيى بن المرتضى فيقول: «انه امتنع عن حضور مجلس الواثق بالله لأنه تنحى عن مجلسه في الصلاة وصلى منفرداً. فقال له الوزير احمد بن ابي دؤاد: «ان هذا لا يحتملك على هذا الفعل، فان عزمت عليه فلا تحضر مجلسه». فقال «ما اريد الحضور لولا انك تحملني عليه» ولم يحضر مجلس الواثق بالله بعد ذلك»(٣٤).

ومن مؤلفاته كتاب «الايضاح والنصيحة العامة». وكتاب شرح «الأصول الخمسة». وفي مقالات ابو القاسم البلخي الكعبي: ان جعفر بن حرب كان يقول: «ان الممنوع من العقل قادر على الفعل، وليس يقدر على شيء، وان العالم بشيء ليس غير العالم به»(٣٥).

وقال البغدادي: «كتبنا كتاب – الحرب على ابن حرب – كي ننقض ما قاله في مؤلفاته».

توفي عام ٢٣٦هـ وهو من معتزلة بغداد.

١٣ – موسى بن سيار الاسواري.

قال عنه الجاحظ: «كان من اعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية من وزن فصاحته في العربية. وكان يجلس في مجلسه، المشهور به، فيقعد العرب على يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدري بأي لسان هو ابين. واللغتان اذا التقتا في اللسان الواحد، ادخل كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها. الاّ ما ذكرنا من لسان موسى بن سيّار الاسواري»(٣٦).

---

(٣٤) كتاب طبقات المعتزلة، ص ٧٤ . كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي. حاشية، ص ١٦٧ .

(٣٥) كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ١٦٩ .

(٣٦) كتاب «البيان والتبيين» مجلد ١، ص ٣٦٨ .

قيل انه فسّر القرآن ثلاثين سنة ولم يتم تفسيره(٣٧).
توفي عام ٢٠٠هـ وهو من معتزلة البصرة.

١٤ - ابو القاسم عبدالله بن احمد بن محمود البلخي الكعبي.

قال ان الله تعالى لا يرى نفسه كما انكروا ان يراه غيره الاّ على معنى علمه بنفسه وبغيره. وتبع قول ابراهيم النظّام: «ان الله تعالى لا يرى شيئاً من الحقيقة»(٣٨).
كان تلميذ ابو الحسين الخيّاط، وكان زعيماً لطائفة «الكعبية». توفي عام ٣١٩هـ. وهو من معتزلة بغداد.

١٥ - ابو مضر بن ابي الوليد احمد بن ابي دؤاد الايادي.

كان قاضي القضاة في عهد الخليفة الواثق بالله المعتزلي (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) وقيل ان القاضي ابن دؤاد كان من غلاة الجهمية وهو الذي حرّض على امام اهل النص، احمد بن حنبل، وافتى بقتله. غضب عليه الخليفة المتوكل على الله عام ٢٣٧هـ فصادر امواله وحبسه. توفي عام ٢٤٠هـ، وهو من معتزله بغداد.

١٦ - ابو الحسين الخيّاط عبد الرحيم بن محمد بن عثمان.

استاذ عبدالله بن ابي قاسم البلخي الكعبي. كان عالماً فاضلاً فقيهاً ورعاً، وكان من غلاة الشيعة. ومن قوله في الامام علي بن ابي طالب: «انه من افضل الصحابة، لأن الخصال التي فضل الناس بها متفرقة في الناس وهي مجتمعة فيه. وقال: الصديقون ثلاثة، حزقيل مؤمن آل فرعون، وحبيب النجّار مؤمن آل يس، وعلي بن ابي طالب وهو افضل الثلاثة. وقال: ان الرسول قال، «اشتاقت الجنة الى ثلاثة، علي وعمّار وسلمان»(٣٩).

(٣٧) كتاب طبقات المعتزلة، ابن المرتضى، ص ٦٠ .
(٣٨) كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ١٨١ .
(٣٩) كتاب طبقات المعتزلة، احمد بن يحيى بن المرتضى، ص ٨٦ و ٨٧ .

اختلف المعتزلة في تسمية المعدوم شيئاً. فيهم من قال، لا يصح ان يكون المعدوم معلوماً ومذكوزاً، ولا يصح ان يكون شيئاً ولا ذاتاً ولا جوهراً ولا عرضاً. فقال ابو الحسين الخيّاط، وغالى بذلك، في اثبات المعدوم. «الشيء ما يعلم ويخبر عنه، والجوهر جوهر من العدم والعرض عرض من العدم ولم يبق الاّ صفة الوجود او الصفات التي تلزم الوجود والحدوث والمعدوم هو لفظ الصفات»[٤٠].

وقال عبد القادر البغدادي: «وكان هولاء الخيّاطية يقال لهم «المعدومية»[*] لافراطهم بوصفهم المعدوم بأكثر اوصاف الموجودات»[٤١].

الّف ابو الحسين الخيّاط كتاب: «الانتصار والرد على ابن الروندي» دافع فيه عن المعتزلة وبرأهم مما قال فيهم ابن الروندي.

توفي عام ٣٠٠هـ. وهو من معتزلة بغداد.

١٧ - عمرو ابن بحر الجاحظ.

كنيته ابو عثمان ولقّب بالجاحظ لجحوظ عينيه وقيل انه كان مولى لبني «كنان» او كناني النسب. اما ابو القاسم محمود البلخي الكعبي فيقول: «انه كناني من بني كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر»[٤٢].

عاش في عهد الخلفاء العباسيين، المأمون والمعتصم بالله. وكان ذلك العصر من ازهى عصور الحضارة الاسلامية اذ كانت حركة الترجمة تنقل الى المسلمين تراث الشعوب المتحضرة في ذلك الوقت، كما ان العقل الاسلامي احتك بحضارات البلاد التي انتشر فيها الاسلام.

ولد ابو عثمان الجاحظ في مدينة البصرة، وكان فقيراً يعتمد على أمه في نفقته وكانت أمه أرملة تخدم في بيوت الاغنياء.

---

(٤٠) كتاب الملل والنحل، الشهرستاني، ص ٧٨ .

(*) الموحدون الدروز يقولون: «ان العاقل لا يعبد المعدوم».

(٤١) كتاب الفرق بين الفرق، ص ١٦٤ .

(٤٢) كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ١٧٧ .

التحق الجاحظ بالوزير محمد بن عبد الملك بن الزيّات، الذي كان على عداء مع القاضي المعتزلي المشهور احمد بن دؤاد، فلما قتل صديق الجاحظ، محمد بن عبد الملك بن الزيّات، اعتقل القاضي بن دؤاد الجاحظ وسجنه ثم اخلى سبيله، لكون ابي دؤاد من رجال الاعتزال المرموقين، ولكن بعد ان قال للجاحظ امام جمع من الناس: «ما علمتك الاّ متناسيا للنعمة، كفوراً للصنيعة، معدناً للمساوئ وما فُتّني باستصلاحي لك، ولكن الأيام لا تصلح فيك لفساد طويتك ورداءة طبيعتك»(٤٣).

نفى الجاحظ العصمة عن الانبياء وقال: «ان الانبياء اعتمدوا المعاصي ووافقوها على غير تأويل مع العلم ان الله قد نهى عنها».

ووافق ابو بشر ثمامة ابن الأشرس النميري الجاحظ على «ان لا فعل للعباد الاّ الارادة، وان سائر الأفعال تنسب الى العباد على معنى أنها وقعت منهم طباعاً، وانها وجبت بارادتهم»(٤٤). كما قال ابو القاسم عبدالله البلخي الكعبي، ان الجاحظ قال: «ان المعارف كلها طباع، وهي مع ذلك فعل للعباد وليست باختيار لهم»(٤٥).

كان ابو عثمان الجاحظ، منذ حداثته، ميّالاً الى علوم الفلسفة وخصوصاً العقل. وقال عنه الشهرستاني: «انه طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط وروّج لعبارته البليغة وبراعته اللطيفة، وكان اكثر ميله الى الفلاسفة الطبيعيين، فجاءت اقواله مصبوغة بفلسفتهم»(٤٦).

اعتنق الجاحظ مذهب الاعتزال وكان تلميذاً لابراهيم النّظام، وكما قلنا سابقاً، قال فيه: «الاوائل يقولون في كل الف سنة رجل لا نظير له، فان كان ذلك صحيحاً، فهو ابو اسحق النظام»(٤٧).

---

(٤٣) كتاب طبقات الاعتزال، ابن المرتضى، ص ٦٩ . بعد هذا التأنيب القاسي اهدى الجاحظ كتابه «البيان والتبيين» الى القاضي ابن دؤاد.

(٤٤) كتاب الملل والنحل، الشهرستاني، مجلد ١، ص ٨٠ .

(٤٥) كتاب الحيوان، مجلد ٤، ص ٢٠٦ .

(٤٦) كتاب وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، ابن خلكان، مجلد ٣، ص ٣٩٨ .

(٤٧) كان ابو يعقوب يوسف بن اسحق السحّام من اصحاب ابي الهذيل العلاّف، وكان من احذق الناس في تفسير القرآن وقد اختاره القاضي بن ابي دؤاد ناظراً في مكتب الانشاء. وهو من معتزلة البصرة.

اخذ الجاحظ علم اللغة عن الاصمعي، والأدب والتاريخ عن ابي زيد الانصاري والفلسفة والاعتزال عن ابراهيم النظام.

قيل انه كتب ما ينوف عن مائة وسبعين كتاباً، ولكن لسوء الحظ، اتلف قسم كبيراً منها ولم يصل الينا الاّ كتاب الحيوان وكتاب البخلاء وكتاب البيان والتبين ورسالة التربيع والتدوير. توفي عام ٢٥٥هـ بعد ان اصيب بالفالج.

ابو عثمان الجاحظ من معتزلة البصرة.

١٨ - ابو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي.

هو ابو علي محمد بن الوهاب بن سلام بن خالد بن حمران بن ابان الجبائي، مولى عثمان بن عفان. جبائي نسبة الى بلدة «جباء» وهي من اعمال خراسان[٤٨].

كان ابو علي الجبائي شيخ المعتزلة في البصرة، وكان فقيهاً ورعاً زاهداً. واذعنت له شيوخ المعتزلة بالرياسة بعد موت ابي الهذيل العلاّف. «اخذ الاعتزال عن مدرسة ابي الهذيل العلاّف استاذ ابي يعقوب السحّام[٤٩].

ولد ابو علي الجبائي عام ٢٣٥هـ[٥٠] وتوفي عام ٣٠٣هـ ودفن في مسقط رأسه «جباء»[٥١].

كان ابو علي الجبائي معروفاً بقوة الجدل وحسن المناظرة وله مناظرة مع تلميذه ابو الحسن الأشعري سجلتها كتب التاريخ الاسلامية ويقال ان الأشعري ربح المناظرة.

اشتهر ابو علي الجبائي بقوله: «ان الاشياء تُعلم اشياء قبل كونها، وتسمى اشياء قبل كونها، وان الجواهر تسمى جواهر قبل كونها، وكذلك الحركات والسكون والألوان والطعوم والأراييح والارادات وكذلك ان الطاعة تسمى طاعة قبل كونها،

---

(٤٨) كتاب الفهرست ابن النديم، ص ٢٥٦ وكتاب ياقوت، مجلد ٢، ص ١٣ .

(٤٩) كتاب وفيات الأعيان، ابن خلكان، مجلد ٣، ص ٣٩٩ .

(٥٠) المصدر نفسه.

(٥١) المصدر نفسه.

وكذلك المعصية تسمى معصية قبل كونها»(٥٢). المسألة التي اثارها ابو علي الجبائي هي «هل معلومات الله معلومات قبل كونها، وكذلك مقدوراته هل هي مقدورات قبل كونها، وكذلك هل الاشياء اشياء قبل كونها؟ تصدى لأبي علي الجبائي بعض المتكلمين وقالوا «بأن علم الله بالشيء هو كونه ومعنى هذا ان الشيء موجود منذ الأزل، لأن علم الله قديم ورفض ذلك يتنافى مع فكرة الخلق والايجاد»(٥٣).

اختلف ابو علي الجبائي مع ابنه ابو هشام بن محمد الجبائي في جملة من المسائل، وكتب في ذلك الخلاف القاضي عبد الجبّار الهمذاني كتابه «الخلاف بين الشيخين».

كان ابو علي الجبائي على مذهب الشيعة وهو الذي قال: «روي عن النبي، صلى الله عليه وسلم، انه قال لعلي والحسن والحسين وفاطمة: «انا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم»، ويقول ابو علي: «العجب من هؤلاء النوابت يروون هذا الحديث ثم يقولون بمعاوية»(٥٤).

وكان يقول ابو علي الجبائي: «حقيقة الطاعة عندي موافقة الارادة، وكل من فعل مراد غيره فقد اطاعه» فتصدى له ابو الحسن الأشعري. «يلزمك على هذا الأصل ان يكون الله مطيعاً لعبده اذا فعل مراده. خالفت اجماع المسلمين وكفرت برب العالمين. لو جاز ان يكون الله تعالى مطيعاً لعبده، لجاز ان يكون خاضعاً له، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»(٥٥).

---

(٥٢) كتاب مذاهب الاسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٢٨٧ .

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٨ .

(٥٤) كتاب طبقات المعتزلة، ابن المرتضى، ص ٨٢ .

(٥٥) كتاب الملل والنحل، الشهرستاني ص ٧٨ (الحاشية).

١٩ - ابو هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي.

هو ابن المعتزلي الكبير ابو علي الجبائي ولد عام ٢٧٧هـ في مدينة البصرة، التي كانت منارة العلم والمعرفة في ذلك الزمن. ثم قدم بغداد عام ٣١٤هـ(٥٦) حيث اقام فيها حتى توفي عام ٣٢١هـ ودفن في مقبرة البستان.

درس علم النحو واللغة على يد ابن العباس المبرّد، وعندما قيل له: «ان في المبرّد سخفاً»، قال: «رأيت احتماله اولى من الجهل بالعربية»(٥٧). وأخذ علم الكلام والاعتزال عن ابيه ابي علي الجبائي. «كان ملحاً في السؤال حتى كان ابوه يتضايق منه ويتأذى به وكان يسأل، حتى في الليل»(٥٨).

اختلف مع ابيه، ابو علي الجبائي، في مسائل كثيرة ولكنه وافقه في قضية «الفناء» وقضية «المعدوم»(٥٩) وغيرها في مسائل الفقه وتفسير القرآن.

كان من احذق العلماء في الجدل والمناظرة، ورعاً، زاهداً عالماً في أمور الدين والفقه، له مؤلفات عديدة. قال عنه القاضي عبد الجبّار الهمذاني: «كان ابو هاشم من احسن الناس اخلاقاً واطلقهم وجهاً. وقد استنكر بعض الناس خلافه على ابيه، وليس مخالفة التابع للمتبوع في دقيق الفروع بمستنكر، فقد خالف اصحاب ابي حنيفة ابا حنيفة»(٦٠).

(٥٦) كتاب الفهرست، ابن النديم، ص ٢١٦ .

(٥٧) كتاب طبقات المعتزلة، ابن المرتضى، ص ٩٦ .

(٥٨) كتاب مذاهب الاسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٣٣١ .

(٥٩) كتاب المعتزلة، زهدي يكن، ص ١٦٠ .

(٦٠) كتاب طبقات المعتزلة، ابن مرتضى، ص ٩٥ .

وفي القرن الرابع، اي في عهد الوزير الصاحب بن عبّاد كان المعتزلة على مذهب ابي هاشم الجبائي، الذي انتشر وازدهر بفضل مساعدة ورعاية الصاحب بن عباد الذي كان من غلاة المعتزلة، فاغدق عليهم الصلات وولّاهم المناصب المهمة في القضاء والادارة(٦١).

كان لأبي هشام الجبائي الكثير من التلاميذ اللامعين، منهم، أبو علي بن خلاد صاحب كتاب «شرح الأصول». وابو عبدالله الحسين بن علي البصري، وابو اسحق العياش، ابو الحسين الأزرق وابو الحسين الطوائفي البغدادي.

ترك ابو هاشم مؤلفات عديدة ولكن لسوء الحظ اتلف القسم الأكبر منها عندما دمّر المغول عام ٦٥٦هـ مكتبة بغداد، كما دمّر الأمير الغزنوي سبستكين عام ٤٢٠هـ مكتبة «الري» كما كان للاشاعرة والحنابلة اليد الطولي في اتلاف كتب الاعتزال في عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله وغيره من الخلفاء العباسيين.

ابو هاشم الجبائي من معتزلة البصرة.

٢٠ – قاضي القضاة عبد الجبّار احمد بن الجبّار بن احمد بن الخليل بن عبدالله ابو الحسن الهمذاني الأسد اباذي(٦٢).

وعن مولده قال ابن الأثير، ان القاضي عبد الجبّار توفي عن عمر جاوز التسعين سنة، فيكون مولده حوالي عام ٣٢٠هـ(٦٣) وتوفي في مدينة «الري» عام ٤١٥هـ(٦٤).

– ابن الراوندي، هو ابو الحسين احمد بن يحيى وكنيته ابن الراوندي. كان من المعتزلة ولكنه اظهر الالحاد والزندقة فطردته المعتزلة. كتب كتاب «التاج في الرد على الموحدين» وكتاب الدافع في الرد على القرآن. وكتاب الطبائع والزمرد والامامة وكتاب فضائح المعتزلة. كتب لليهود واهل الثنوية. رد عليه ابو علي الجبائي وابو الحسين الخياط في كتاب «الانتصار والرد على الراوندي».

(٦١) كتاب مذاهب الاسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٣٣٧ . الفرق بين الفرق، البغدادي ص ١٨٥ .

(٦٢) كتاب العقل والحرية، الدكتور عبد الستار الراوي، ص ٣٦ .

(٦٣) كتاب الكامل في التاريخ، مجلد ٩، ص ٦٣٨ .

(٦٤) كتاب تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، مجلد ١١، ص ١١٥ .

ابتدأ القاضي عبد الجبّار دراسته في مدينة «قزوين»[٦٥] على يد الفقيه الزبير بن عبد الواحد الأسد اباذي وعلى يد ابي الحسن بن سلمة القطّان. وفي عام ٣٤٠هـ توجه الى همذان فدرس الحديث على يد ابن محمد بن حمدان الجلاّب ثم سار عام ٣٤٥هـ الى اصفهان فقرأ على ابي محمد عبدالله الاصفهاني ومحمد عمرو البصري واحمد بن ابراهيم التميمي ومحمد الرامهرمزي[٦٦].

ومن اصفهان توجه القاضي عبد الجبّار الى البصرة حيث اعتنق الاشعرية والمذهب الشافعي وكذلك اتصل برجال المعتزلة وحضر ندواتهم ودرس فكر الاعتزال «حتى عرف الحق وانقاد له»[٦٧]. اخذ القاضي مذهب الاعتزال عن ابي اسحق بن عياش[٦٨].

ومن البصرة توجه القاضي عبد الجبّار الى بغداد، منارة العلم والفكر والثقافة، حيث انضم الى حلقة الحسين بن علي عبدالله البصري الذي اخذ عنه علم الفقه والدين واقام عنده مدة طويلة يرعاه كابنه.

استدعاه الصاحب بن عباد الذي كان معتزلياً ووزير الأمير البويهي مؤيد الدولة وعينه قاضياً على اقليم «الري» وقزوين «وزنجان» وعرف بعد ذلك بلقب قاضي القضاة، ولا يطلق المعتزلة هذا اللقب على احد غيره. استخدم الصاحب بن عباد نفوذه في نصرة الاعتزال فأسند الى المعتزلة المناصب العالية واعاد لهم الكثير من مجدهم وهيبتهم بعد المحنة التي انزلها بهم الخليفة المتوكل على الله.

كان القاضي عبد الجبّار مفكراً، عالماً، واديباً بليغاً، واسع الاطلاع عميق التفكير والتحليل وكان موسوعة كاملة في علوم الدين وفلسفة مذهب الاعتزال. اتجهت معارفه نحو التدقيق في معرفة أصول المذهب وجميع ما قالته شيوخ المعتزلة من واصل بن عطاء الى ابي هشام الجبائي.

---

(٦٥) قزوين احدى مدن فارس الجبلية ولد فيها الامام «ابن باجه» صاحب كتاب السنن وزكريا ابن محمد القزويني صاحب كتاب عجائب المخلوقات.

(٦٦) كتاب طبقات الشافعية الكبرى عبد الوهاب السبكي، مجلد ٣، ص ٢٢٠ .

(٦٧) كتاب شرح عيون المسائل، ابو السعد البهيقي، ص ٣٦٦ .

(٦٨) هو ابراهيم بن عياش البصري، معتزلي عرف بالعلم والتقوى والزهد.

المؤلفات التي تركها القاضي عبد الجبّار كانت وفيرة جداً وتبحث في مختلف المواضيع الدينية والفلسفية وتزخر بالشروح والتعليقات الوفيرة المتداخلة من الأبحاث الفكرية والدنيوية، مما يجعل هذه الدراسة المقتضبة تضيق حتى بقسم منها مهما حاولنا الاختصار. ولهذا السبب نكتفي بطريقة الدكتور عبد الستار الراوي(٦٩) في حصر الشرح في المواضيع الاساسية فقط.

١ - العلوم القرآنية(٧٠).

وجه القاضي عبد الجبّار عناية خاصة الى علوم القرآن الكريم للتوصل الى بيان أوجه التوافق بين اصولياته الاعتزالية.

وللقاضي في علوم القرآن كتاب «المتشابه في القرآن»، وكتاب «تنزيه القرآن عن المطاعن»، والتفسير المعروف «بالمحيط»(٧١) ثم كتاب «الأدلة» «وشهادات القرآن» وكتاب «دلائل نبوة سيدنا محمد».

٢ - الاعمال الاصولية(٧٢).

حتى يتمكن القاضي عبد الجبّار من تخليص الاعتزال من مقولات غلاة المعتزلة في التفسير الضيق المنطلق من التعصب الديني، فكان عليه ان يبسط المذهب على الأسس التي قام عليها، اي العدل والتوحيد والعقل.

(٦٩) كتاب العقل والحرية، من ص ٤٢ - ٥١ .

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٤٢ .

(٧١) يقول المؤرخ ابو السعد الحمشي البهيقي. «شرح عيون المسائل» ان اجزاء هذا التفسير تقع في مائة مجلد.

(٧٢) كتاب العقل والحرية، ص ٤٣ .

٣ - القضايا المذهبية[٧٣].

احتوت كتب القاضي عبد الجبّار شرحاً وافياً لمفهوم عقائد الاعتزال المذهبية. كتاب «الخاطر» وكتاب «الفعل والفاعل» وكتاب «الجمل».

٤ - الشروح[٧٤].

ابرز شروح القاضي عبد الجبّار هي: كتاب «شرح المحيط»، كتاب كشف الاغراض عن الاعراض، «تهذيب الشرح» وكتاب «شرح المقالات» «ونقض المعرفة».

٥ - الجدليات[٧٥].

من اخص تقاليد المعتزلة في الجدل كان كتاب «ما يجوز فيه التزايد وما لا يجوز» ثم كتاب «أدب الجدل» وكتاب «الخلاف بين الشيخين» وكتاب «الخلاف والوفاق».

٦ - النقوض[٧٦].

يقول الدكتور عبد الستار الراوي «بقدر عناية القاضي بالدفاع عن مذهبه ويقظته ازاء تحديات فرق الخصوم والمعترضة في كافة الفصائل والاتجاهات، فانه وجد ان مهمته النقدية الأولى لا بد ان تتوجه الى الاعتزال ذاته في طرح كل الآراء المخالفة لأصوله واقصاء تطرقاتها[٧٧].

وفي شرحه للنقض كتب «البدل» «واللمع» «والآراء والرد على النصارى».

---

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٤٧ .

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٤٧ .

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٤٩ .

(٧٦) المصدر نفسه، ص ٥٠ .

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٥٠ .

٧ - المسائل والجوابات[٧٨].

حدد في كتاب «المقدمات» ان المسائل هي في الموجبات المؤثرات في القضايا التي اثارها أبو الحسين الخيّاط والجبائيون والنيسابوري وقال: «ان المشايخ اجابوا بصحيح وفاسد ويجب اصلاح اخطائها».

والجوابات كانت عن المسائل التي اثيرت معه في رحلاته وخلال مناقشاته وجدلياته فكتب كتاب اجوبة «المرازيات» «والنيسابوريات» «والطرمايات» «والمصريات» «والكوفيات» «والمكيات» «والخوارزميات» «والعسكريات».

٨ - تاريخ الاعتزال وطبقاته[٧٩].

فصل الاعتزال وطبقاته هو احتواء ما قام به الحاكم الجمشي البهيقي في كتابه «شرح عيون المسائل»، واحمد بن يحيى بن المرتضى في كتابه «طبقات المعتزلة».

من اهم كتب القاضي عبد الجبّار هو كتاب «المغني في ابواب التوحيد والعدل» التي استغرقت كتابته مدة عشرين سنة، ابتداء من سنة ٣٦٠هـ في مجلد «رامهرمزي» وكتب آخر اجزائه «الاقامة» عام ٣٨٠هـ في مدينة «الري».

كتاب المغني «موسوعة كاملة في عقيدة التوحيد والعدل» ويغطي مذهب الاعتزال بكل مبادئه المبدئية والهامشية.

اثار الجزء الأخير، اي العشرين (الامامة) حملة استياء في اوساط الشيعة، وكان رد الشريف المرتضى، وهو تلميذ القاضي عبد الجبّار، في كتابه «الشافي» قاسياً وشديد اللهجة.

---

(٧٨) المصدر نفسه، ص ٥١ .

(٧٩) المصدر نفسه، ص ٥٣ .

اعتبر القاضي عبد الجبار مسألة الامامة «فرعية لا ترمي الى الفكر الديني الأصولي» وابطل قضية «الغيبة» وهي عقيدة الشيعة الاثني عشرية وكذلك الاسماعيلية، بأن المهدي المنتظر، امام الزمان وقايم الحق، سيظهر في الوقت المناسب، وهو الآن في غيبة.

ثم كتب القاضي عبد الجبّار كتاب «شرح الأصول الخمسة». «والقضاء والقدر». «ومختصر الحسنى». «الدواعي والصوارف». «الحكمة والحكيم» وغيرهم من الكتب التي لا مجال لتعدادها في هذه الدراسة القصيرة.

كانت مدرسة القاضي عبد الجبّار تضم، اضافة الى تلامذته من المعتزلة، العديد من مفكري الزيدية، والشيعة الامامية، درسوا عليه واخذوا علم الدين والفقه عنه.

من تلاميذ القاضي عبد الجبّار المرموقين الذين تركوا اثراً في الفكر الاسلامي:

١ – ابو رشيد سعيد بن محمد النيسابوري. كتب «الأصول في التوحيد» وكتاب «المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين».

٢ – الشريف المرتضى ابو القاسم علي بن الحسين الموسوي. كان نقيب الاشراف الطالبيين في بغداد. له كتاب «الشافي» رد فيه على كتاب «المغني»[*]. وكتاب غرر الفوائد ودرر القلائد. والشريف المرتضى جمع كتاب «نهج البلاغة» الذي يحوي أقوال وحكم الامام الأول علي بن ابي طالب.

٣ – ابو محمد عبدالله بن سعيد اللّباد. كان يدير حلقات الجدل وله كتاب «النكث».

٤ – محمد بن علي الطيب ابو الحسن البصري. اعتمد على الفلسفة اليونانية في ابحاثه، الف كتاب المعتمد في اصول الفقه».

(*) كتاب المغني عشرون جزءاً لم يعثر الاّ على اربعة عشر جزءاً. ٤ – رؤية الباري. ٥ الفرق غير الأسلامية ٦ – التعديل والتحوير. ٦ – الارادة. ٧ – خلق القرآن. ٨ – المخلوق. ٩ – التوليد. ١١ – التكليف. ١٢ – النظر والمعارف. ١٣ – اللطف. ١٤ – الاصلح واستحقاق الذم. ١٥ – النبوءات والمعجزات. ١٦ – اعجاز القرآن. ٢٠ – الامامة. حقق هذا الكتاب مجموعة من المفكرين المصريين على رأسهم أمين الخولي. عبد المنعم محمود. توفيق الطويل وغيرهم باشراف الدكتور طه حسين.

٥ - ابو يوسف عبد السلام محمد القزويني. كان عالماً وثقة في العلوم القرآنية وجريئاً في القول في عقيدة الاعتزال.

٦ - ابو محمد الحسن بن احمد ابن مثويه. شرح كتاب القاضي عبد الجبّار «في احكام الجواهر والاعراض» «والمجموع في المحيط والتكليف».

كان لا بد من اعطاء هذا الشرح المستفيض لاعمال القاضي عبد الجبّار الهمذاني، لأنه المفكر المسلم الوحيد الذي ترك للقارئ العربي دراسة شاملة عن الاعتزال، وذلك بالنسبة لضآلة المصادر الأصلية لهذه الفلسفة، اذ بالاضافة الى حرق مكتبة «الري» عام ٤٢٠هـ وتدمير مكتبة المأمون عام ٦٥٦هـ، اشترك الاشاعرة والحنابلة وبعض الخلفاء العباسيين، كالمتوكل على الله، في اتلاف كتب الاعتزال حتى غابت عن المكتبة العربية معظم مصادر الفكر المعتزلي.

يلتقي الموحدون الدروز وأصحاب الاعتزال في ركنين اساسيين هما من صلب معتقداتهم الدينية ومنارة معرفتهم، وايمانهم الالهي ومسلكهم في عباداتهم لله تعالى. وهذان الركنان هما العقل والتوحيد. فلسفة الاعتزال تزخر في تمجيد العقل وتنادي بالتوحيد، والموحدون الدروز، ايمانهم الأعلى هو التوحيد، ولقبهم الموحدون ويقدسون العقل وهو لهم ثاني الخالق، الارادة الالهية على الأرض ومدبر الكون.

الاشعرية

بعد الاعتزال لا بد من لمحة موجزة عن الأشعرية التي كانت خصمها الفكري الأول والتي سعى أربابها لتعطيل دور الاعتزال في الفكر الاسلامي، وبالاشتراك مع الحنابلة ونجحوا بذلك.

عندما لم يتمكن المعتزلة من دمج العقل بالايمان في المعتقدات الدينية، تغلب التشبث بالايمان، كأساس للعرفان، وتقلص الاعتماد على العقل عند المسلمين واستمر على مرّ القرون، فتوطد منحى الايمان المطلق الى حد سبب في منع البحث او الجدل في كل العقائد التي لا تتوافق مع الايمان الذي فرضه النص.

مؤسس الأشعرية ابو الحسن الأشعري، هو علي بن اسماعيل بن اسحق بن سالم بن عبدالله بن موسى بن بلال ابي يبردة بن ابي موسى الأشعري(١).

وابو موسى الأشعري الذي ينتسب اليه ابو الحسن، صحابي جليل وقائد اشتهر بشجاعته واقدامه. ولد ابو موسى الأشعري عام ٦١٤ ميلادية في اليمن التي غادرها مع بني الأشعر ولحق بالرسول الكريم اثناء غزوة خيبر عام ٧هـ. ثم شارك في غزوة حنين عام ٨هـ، وبعدها أرسله رسول الله الى اليمن لنشر الدعوة هناك. ولاّه أمير المؤمنين، عمر بن الخطّاب على الكوفة عام ٢٢هـ ثم نقله والياً على البصرة.

اشترك ابو موسى الأشعري في فتوح فارس والعراق، ولما حدثت الفتنة وقتل الخليفة عثمان بن عفان، كان ابو موسى والياً على الكوفة فأخذ من أهلها البيعة للامام علي بن ابي طالب، ولكن لما وقعت حرب الجمل دعا رعاياه لاتخاذ موقف الحياد مثل العديد من الصحابة، كعبدالله بن عمر بن الخطّاب، واسامة بن زيد بن حارثة وعبدالله بن العباس وغيرهم، اغضب حياد ابي موسى الامام علي بن ابي طالب فبعث اليه كتاب عزله، وكان شديد اللهجة.

(١) كتاب مذاهب الاسلاميين، عبد الرحمن بدوي، ص ٤٨٧ .

حين وقع التحكيم في معركة صفين أجبر بعض الصحابة وبعض زعماء القبائل، ولا سيما كندة، الامام علي بن ابي طالب على اختيار ابو موسى الأشعري حكماً، بوصفه صحابياً محترماً ورجلاً محايداً، ولكن عمرو بن العاص، مندوب معاوية، خدعه وكانت نتيجة تلك الخدعة، ان استولى معاوية بن ابي سفيان على الخلافة وقامت الدولة الأموية العربية التي استمرت حوالي القرن من الزمن وانتهت بخلافة مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢هـ) بعد معركة الزاب مع العباسيين التي جرت في شهر جمادى الآخرة عام ١٣٢هـ.

ولد ابو الحسن الأشعري عام ٢٦٠هـ[٢] في البصرة ثم انتقل الى بغداد عام ٣٠٣هـ وتوفي فيها عام ٣٢٤هـ ودفن في مكان يقال له «مشرعة الروايا»[٣].

درس ابو الحسن الأشعري الاعتزال على المعتزلي ابو علي الجبائي، واخذ الفقه عن ابراهيم بن احمد المعروف بابن اسحق المروزي وهو من الأئمة الشافعيين.

وحين بلغ ابو الحسن الأشعري الأربعين من العمر ترك الاعتزال بسبب اختلاف المسلمين وانقسامهم الى فئتين متخاصمتين:

الفئة الأولى: المعتزلة اصحاب العقل المطلق الى حد تبني التعطيل وتحويل الألوهية الى مجرد فكرة لا رابط لها بالانسان، والى الدعوة الى سيطرة العقل على الايمان.

الفئة الثانية: اهل النص الكامل على القرآن، وهم الذين قاوموا المعتزلة ونزعتها العقلية الى حد الوقوع في تزمت فكري.

ويقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان: «لقد اشفق ابو الحسن على دين الله وسنة رسوله من ان يذهبا ضحية الآراء المتطرفة، نفي المعتزلة بها من جهة ونظرتهم التجريدية الى صفات الله، واهل النص من جهة اخرى، وهم الذين قاوموا النزعة العقلية المعتزلة فأفضى بهم موقفهم هذا الى حالة تحجر وجمود»[٤].

---

(٢) كتاب تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، جزء ١١، ص ٣٤٧هـ.

(٣) كتاب التبيين، ابو بكر بن فورك، ص ٥٦ .

(٤) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ١٨١ .

خاف ابو الحسن الأشعري ان يؤثر الاعتزال على الدين ويُفرق الايمان بالتحليل العقلي ويستولي الشك على الفكر الديني فيزعزع يقين المسلمين بمعتقداتهم الدينية.

ترك ابو الحسن الأشعري الاعتزال بطريقة مسرحية، اذ يقول احد المؤرخين(٥) «لم نشعر يوم الجمعة واذ بالأشعري قد طلع على منبر الجامع ونادى في الناس باعلى صوته «من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، انا ابو الحسن الأشعري، كنت اؤمن بمذهب الاعتزال، وكنت اقول بخلق القرآن وان الله لا تراه الأبصار منكراً ان تكون لله صفات ايجابية، انا تائب مقلع الرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعايبهم».

بالرغم من ان أبا الحسن الأشعري جاهر برفضه لأقوال أهل الاعتزال الاّ انه لم يقبل الايمان المطلق كما يدعو اليه اهل النص، بل اخذ حلاً وسطاً فقال في حرية الانسان عن افعاله وان للانسان قدرة على كسب الأفعال لا على خلقها، كما تقول المعتزلة، فعل الخلق من الله وفعل الكسب من عند الانسان. حرية الانسان تقوم اذن على هذا التوافق بين الاله الخالق والانسان الكاسب.

«الكسب» عند الأشعرية اذن، هو عملية الاقتران بين فعل الله تعالى وبين العبد الذي يظهر عليه ومنه فعل الله. ويقول محمد بن علي التهانوي: «فعندهم ان أفعال العباد واقعة بقدرة الله تعالى وحدها، وليس لقدرتهم تأثير فيها، بل سبحانه اجرى العادة بأنه يوجد في العبد قدرة واختيارا، فاذا لم يكن هناك مانع، اوجد فيه فعله المقدور مقارناً لهما، فيكون فعل العبد مخلوقاً لله تعالى ابداعاً واحداثاً، ومكسوباً للعبد، والمراد بكسبه اياه مقارنته بقدرته وارادته من غير ان يكون هناك منه تأثير ومدخل في وجوده سوى كونه محلا له»(٦).

اما الدكتور محمد عمارة فيقول: «ولقد فند المعتزلة فكرة «الكسب» هذه، وحكموا بأنها اكثر تهافتاً من فكر الجبر الخالص عند المجبرة الجهمية في هذا الباب،

(٥) يقال انه ابو عبدالله الحمراني، يعلق ابن عساكر على هذه الرواية فيقول: الحمراني مجهول ولعل هذه الرواية تكلف وزيغ، لانها فضلاً عن افتعالها انما تقرر أن الاعتزال كفر وان المعتزلي كافر، ومن غير المعقول ان يكون الأشعري قد قال مثل هذا الكلام واصدر هذا الحكم بهذه الحدة.

(٦) كتاب كشاف الفنون، ص ١٢٤٣ .

ذلك لأن هذا «الكسب» لا يحدد وجوده او عدم وجوده الانسان «المكتسب» ولا يتوقف على «الفاعل» له الوجود الحقيقي له او عدم الوجود، لأنه ثمرة ايجاد الله للفعل وخلقه له، وهو ما لا يستطيع الانسان، حتى على رأي الأشعرية توقيت حدوثه او التحكم فيه، فضلاً عن خلقه او الامتناع عن هذا الخلق وذلك الايجاد، ومن ثم فانه لا يمكن ان يكون مصدراً لمدح او ذم يلحق بالانسان «المكتسب» بسبب هذا «الكسب»، ومن باب اولى لا يمكن ان يكون سبباً لثواب او عقاب يقع لهذا الانسان»[٧].

ويقول سامي النشار: «يقول ابن تيمية، ان «الكسب» وسط بين الجبر والاختيار وبين المجبرة وبين المعتزلة. ان المذهب «الكسبي» يقرر ان الله خالق الفعل وان الانسان يكتسب فعله من هذا الخلق، وكان لا بد من هذا الحل الوسط لانقاذ قدم العالم الالهي، الله يعلم بصيغة الفعل لا بصيغة الأمر»[٨].

لم يتخل ابو الحسن الأشعري عن العقل في تفسير ودعم العقيدة كغيره من اهل النص، ولكنه كان يعتقد ان اعطاء العقل الأهمية المطلقة لا يفضي الى دعم الدين بل الي استبدال الايمان بالعقل وكان يقول: «ما هي قيمة الايمان بالله اذن وبالكتاب المنزل، ما دام العقل بحد ذاته اسمى وارفع من المعطيات الدينية»[٩].

اذن كان جوهر الخلاف بين المعتزلة واصحاب النص، والنص هو ما جاء به القرآن الكريم، والمعتزلة لم يقبلوا الاّ بالعقل المطلق، وكذلك الموحّدون الدروز لا يقبلون الا بما هو عقلي محض، والعقل عندهم مقدس، اما الأشعرية فقد رفضوا العقل مقياساً للايمان وتمسكوا بحرفية النص لأنه كلام الله المنزل. وكان ابو الحسن الأشعري يؤمن. «ان الايمان حقيقة روحية والعقل قد يبعث على الشك، والشك يزعزع الايمان والايمان حقيقة لا يمكن ادراكه عن طريق العقل[١٠].

---

(٧) كتاب المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية، ص ٣٨/٣٩ .

(٨) كتاب الفكر الفلسفي في الاسلام، مجلد ١، ص ٢٨٥ .

(٩) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان، ص ١٨٣ .

(١٠) كتاب مقالات الاسلاميين، ابو الحسن الأشعري، تحقيق محمد الدين عبد الحميد.

كان ابو الحسن الأشعري ملمًّا الماماً شاملاً بجميع مذاهب السنة وكان يقول باتفاق جميع المذاهب على انها واحدة في الأصل، نختلف فقط في الفروع، واليه يعزى القول الذي رواه عنه ابن عساكر: «كل مجتهد مصيب، وكلهم على حق، وانهم لا يختلفون في الأصول انما اختلافهم في الفروع»[١١].

انشأ الأشاعرة، اي اتباع ابو الحسن الأشعري، في القرن الرابع هجري، المدرسة الأشعرية، التي بقيت قروناً عديدة المرجع الأول للعقيدة الاسلامية السنية، ولكنها تعرضت لهجوم المعتزلة والحنابلة وعلى رأسهم اهل الحديث الذين ارادوا الرجوع الى النص المنزل دون تأويل او تحريف وأخذوا على الأشعرية الانحراف عن النص الحرفي كما ورد في القرآن الكريم. وكان من المتشددين في الهجوم عليها، تقي الدين ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية.

وكان لأبي حسن الأشعري مناظرات عديدة مع استاذه ابي علي الجبائي، اهمها مناظرة في «الأصلح والتعديل» ومناظرة في «اسماء الله هل هي توفيقية» ويقال ان ابا الحسن تفوق على ابي علي الجبائي، لأن الجبائي كان قوياً في التصنيف والكتابة وابو الحسن متفوقاً في الجدل.

الف ابو الحسن الأشعري كتباً كثيرة بقي منها كتابان فقط، هما «مقالات الاسلاميين» وفيه شرح لمختلف المذاهب الكلامية والفقه الاسلامي، وكتاب «اللمع» في الرد على الزيغ والبدع واهل التشبيه والدهريين».

وكان من تلاميذ ابو الحسن الأشعري كل من، ابو الحسن الباهلي، والقاضي ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني صاحب كتاب «التوحيد» وابو جعفر محمد السمعاني صاحب كتاب «الارشاد» ومحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، صاحب كتاب «الملل والنحل» وفخر الدين الرازي، والجرجاني، وابن اسحق الأسفراني وغيرهم..

الجدير بالاشارة اليه ان الأشعرية ساهمت في القضاء على المعتزلة بالاشتراك مع الحنابلة وأهل الحديث ولكن لم يكن لها تأثير يذكر على العقائد التوحيدية الدرزية،

(١١) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان، ص ١٨٣ .

وقد ذكرناها في هذه الدراسة لأنها كانت مدرسة فكرية تركت اثراً كبيراً في الدفاع عن العقائد الاسلامية التي كانت تقول بالتشبث بالنص على ما أنزله الله تعالى في القرآن الكريم.

الصوفية

- نشوء وتاريخ التصوف الاسلامي
- اهل الزهد التقليدي الاسلامي وطلائع التصوف الاسلامي
- الصوفية بعد القرن الثاني الهجري
- شرح المناحي الفكرية والمصطلحات والاحوال والمقامات ومدارج التصوف الاسلامي
- الموحدون الدروز والتصوف
- اقوال بعض مشايخ الصوفية

الصوفية

يقول الصوفي أبو القاسم عبد الكريم القشيري:[*] التصوف، هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال: رجل صوفي وللجماعة صوفية، ومن يتوصل الى ذلك يقال متصوف وللجماعة، المتصوفة، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والا ظهر فيه انه كاللقب[1].

ويروي المتصوف معروف الكرخي: «التصوف هو الأخذ بالحقائق والأعراض مما في يد الخلائق، وقلب مليء بحب الله تعالى»[2].

«الصوفية الاسلامية، فكر فلسفي وممارسة دينية وسلوك روحاني ترتكز على تقربها من الله تعالى، عز وجل، ومحاولة المشاهدة بالتجلي او الحلول او الاتحاد بالمولى الكريم، وفي اعتقادها ان الوجود الكلي الكامل واحد، وان الخالق والمخلوق يتحدان بصفاء الروح والاشراق اي، نور الله تعالى في الانسان، وان العقل يستمد علمه من مصدر آخر غير الحس، وان النفس من السهل ان تتصل بالعالم العقلي عن طريق تصفيتها من الشهوات والنزوات الجسدية والتجرد من المادة والتوجه الروحي الى المولى، جل شأنه، يتجلى سبحانه للانسان الطاهر التقي الذي يخضع لمشيئته ويفنى في عبادته فيصير التصوف بالعبادة»[3].

(*) القشيري هو ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري. لقب قشيري نسبة الى قشير وهي بطن من سعد العشيرة القحطانية ولد عام ٣٧٦هـ في بلدة «اسوا» في فارس وتوفّي عام ٤٦٥هـ في نيسابور التي كانت عاصمة خراسان. اخذ العلم عن محمد بن علي الطوسي، وعن الدقاق حسن بن علي والتميمي الأسفرانيني.

(١) كتاب الرسالة القشيرية، ص ١٢٦ .

(٢) معروف الكرخي بن فيروز ولد في الكرخ، حي من بغداد وتوفي عام عام ٢٠٠هـ وكان استاذ سري السقطي. ولد نصرانيا ثم اسلم وكان حنفياً.

(٣) كتاب اللمع في التصوف، ابو نصر الطوسي، ص ٢٠ .

وكما قلنا، التصوف بالتعبد، وهو اخماد الشهوات والأعراض عن المغريات الجسدية، والرضا والتسليم لمشيئته تعالى والخضوع لأمره، والانقياد الى الحق والتأمل في اسرار الوجود، والانقياد المطلق للعقل، والعقل ثاني الله تعالى، علة العلل، والقدرة الالهية على الارض، ومدبر الكون، وهذه صفات يعتمد ويلتزم بها الصوفي ويعتنقها مشايخ الأجاويد الموحدين فهم، بدون شك او جدل، متصوفة مذهب التوحيد.

من المعروف، ان الخليفة الامام الحاكم بأمر الله، كان متقشفاً زاهداً، نهى عن الزينة والشهوات ولبسَ الصوف ومنع التعظيم وتأليه الانسان، كما رفض ان يقبل الناس يده او ينادونه الاّ بلقب أمير المؤمنين، غرق في بحر التأمل والسعي الى الحقيقة والاتصال بها، لأن الحقيقة الالهية هي تجسيد الحق، والحق ارادة الله تعالى، او الله(*).

تختلف الروايات في اصل تسمية الصوفية وهي مشكلة تناولتها معظم كتب التصوف، مثل كتاب، «اللمع في التصوف»، لأبي نصر السّراج الطوسي، والرسالة «القشيرية في علم التصوف»، لعبد الكريم القشيري النيسابوري.

يقول ابو نصر السراج الطوسي: «ان اسم الصوفية محدث ولم يوصف به احد من اصحاب رسول الله ولا من بعدهم، ولا يعرف الناس الاّ العباد والزهاد والسيّاحين والفقراء. وما قيل لأحد من اصحاب رسول الله صوفي. لأنّ السبب في ذلك انهم نسبوا الى الصحبة، صحبة رسول الله، وهي اشرف من النسبة الى الصوف»(٤).

والدكتور عبد الرحمن بدوي يقول: «ولعل اقدم ما وصلنا من مؤلفات ذكرت اسم الصوفي والصوفية هو كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٠هـ أو ٢٥٥هـ، اذ يذكر «الصوفية من النسّاك ويورد اسماء من عرف بالفصاحة منهم»(٥).

(*) ابتدأ التقشف مع الحاكم عام ٤٠٤هـ حيث لبس الصوف الأبيض وتخلى عن ركوب الجياد واستعاض عنها بالحمير ونزع العمامة ولبس فوطة بيضاء.

(٤) كتاب اللمع في التصوف، ص ٢٠ .

(٥) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، ص ٨ . كتاب الجاحظ «البيان والتبيين»، مجلد ١، ص ١٣٨ .

ويقول بعض المؤرخين، ان الصوفية تعني الصفة وهي زاوية اقامها رسول الله خارج مسجد الصفا في المدينة، وكان بعض المهاجرين مثل، ابو ذر الغفاري، سلمان الفارسي، عمّار بن ياسر، صهيب الرومي، بلال بن رباح الحبشي، عبدالله بن الأسد المخزومي، حذيفة بن اليمان، عكاشة بن محسن الأسدي، خباب بن الأرث وابو لبابة الانصاري، يأوون اليها اتقاء للبرد والحر»(٦). ويقال ان هؤلاء نزلت بهم الآية الكريمة. «للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل اغنياء، من التعفف تعرفهم بسيماهم، لا يسألون الناس الحافاً وما تنفقوا من خير فان الله به عليم»(٧).

يقول المفكر سميح عاطف الزين: «التصوف لا يمكن ارجاع اصله الى «الصّفة»، وابسط الأمور الدالة على ذلك هو الدليل اللغوي، ان النسبة الى «الصفة» صفي وليس صوفي»(٨).

شطحت مخيلة بعض المؤرخين في نشأة التصوف حتى تجاوزت المعقول. هذا الزبير بن بكار وعبد الرحمن بن الجوزي ومحمد بن اسحق بن يسار يرجعون بالتصوف الى العصر الجاهلي. ويقول ابن اسحق: «انه قبل الاسلام قد خلت مكة، في وقت من الأوقات، حتى كان لا يطوف بالبيت احد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف»(٩).

اما الزبير بن بكار وعبد الرحمن بن الجوزي فيقولان: «كانت الاجازة بالحج للناس من عرفة الى منى الى الغوث بن مرة، ثم صارت له في ولده ويقال له «صوفة»، لأن امه علقت برأسه صوفة لأنها لم تلد الاّ بناتٍ، فهولاء انقطعوا الى الله تعالى وقطنوا الكعبة، فمن تشبه بهم، فهم الصوفية وهم من ولد الغوث بن مرة أخي تميم بن مرة»(١٠).

---

(٦) كتاب الصوفية في نظر الاسلام سميح عاطف الزين، ص ١٤ .

(٧) سورة البقرة، آية ٢٧٣ .

(٨) كتاب الصوفية بنظر الاسلام، ص ١٧ . وكتاب التصوف الدكتور اسعد السحمراني، ص ١٧٠ .

(٩) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٦ .

(١٠) كتاب الصوفية بنظر الاسلام، سميع عاطف الزين، ص ١٨ .

اما ابو نصر السرّاج في كتابه «اللمع في التصوف» فيطلق عليهم اسم الصوفية، نسبة الى لبس الصوف لأن لبس الصوف هو الغالب عليهم، وهو لبس الأنبياء والاولياء والاصفياء والصديقين وشعار المساكين المتنسكين. ولكن الصوفي عبد الكريم القشيري طعن في هذا القول على أساس ان «المتصوفة لم يختصوا بلباس الصوف دون غيره من الأقمشة، بل معظم لبسهم كان من أقمشة مختلفة الأشكال والانواع والالوان».

وقيل ان الصوفية منسوبة الى كلمة «صوفيا» اليونانية ومعناها «الحكمة»، وذلك لأن الصوفية يطلبون الحكمة الالهية[١١].

ويزعم بعض المفكرين ان الصوفية منسوبة الى «الصفاء» لأن المتصوفة يطهرون نفوسهم حتى تصفو وتنقى. قال في ذلك ابو الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا
فيه وظنوه مأخوذاً من الصوف
ولست انحل هذا الاسم غير فتى
صافي فصفي، حتى سمي الصوفي[١٢]

ويقول احمد بن تيمية في كتاب التصوف: «لا تصح النسبة الى اهل الصفة، لأنه لو كان كذلك لقيل «صفيّ»، لا تصح النسبة الى «الصف المقدم بين يدي الله» لأنه لو كان ذلك لقيل «صَفي»، ولا تصح الى «الصفوة من خلق الله»، لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند اكثر النسّاك، ولأنه لو نسب النسّاك الى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة وتابعيهم اولى»[١٣].

وينهي ابن خلدون هذا الخلاف في مقدمته بقوله: «ان الأظهر اشتقاق كلمة التصوف من «الصوف» لأن الصوفية مختصون بلبسه في الغالب».

---

(١١) كتاب الغزالي والتصوف الاسلامي، احمد الشرباصي، ص ١٤٨ .

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٤٨ .

(١٣) المصدر نفسه، ص ١٤٩ .

اما عن نشأة التصوف، فيقول المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون[١٤] الذي قال عنه الدكتور عبد الرحمن بدوي، انه اعظم باحث في التصوف الاسلامي على الاطلاق. «ان التصوف الاسلامي نشأ من اصول اسلامية خالصة مستمدة من القرآن الكريم وسنة الرسول وحياته وحياة اصحابه ذوي النزعات الزاهدة»[١٥].

ويقول بعض المفكرين المسلمين، ان التصوف الصحيح المستقيم هو مرتبة «الاحسان» التي تلي مرتبة «الاسلام». والايمان والاحسان من أصول التصوف ومن الحديث النبوي. «الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه، فان لم تكن تراه فانه يراك؛»[١٦]. وهذه الأحوال الثلاثة، الاسلام والاحسان والايمان مراتب للسلوك الصوفي للتقرب من الله تعالى.

اذن ان الوصول الى الله تعالى يكون اسلام وايمان واحسان. فمن اعتمد العبادة وحدها فهو في مقام الاسلام، او مقام الشريعة، والشريعة هي الدين، واذا انتقلت العبادة الى القلب وتحققت باليقين والاخلاص فهو في مقام الايمان، واذا وصل العابد مرتبة الشعور بوجود الله، اي المشاهدة الروحية، فهو في مقام الاحسان. ولذلك يقولون، «الشريعة ان تعبده، والطريقة ان تقصده والحقيقة ان تشهده»[١٧].

لا تعني المشاهدة عند المتصوفة النظر الحسي الفعلي بالعين بل ما يكون حاضراً في قلب الانسان فيقولون فلان يشاهد الحال او يشهد الوجد او الحب، وهو ما كان الغالب ذكره وان كان غائباً عنه، اي ما يستولي على قلب صاحبه. وعندما يقول

---

(١٤) ولد المستشرق لويس ماسينيون عام ١٨٨٣ في بلدة Nogent Sur Marne في ضواحي باريس ودرس في المدرسة الوطنية للغات الشرقية ثم درس في جامعة «السوربون» ثم ذهب الى القاهرة عام ١٩٠٦ حيث التحق بالمعهد الفرنسي ثم،توجه الى العراق. وخلال الحرب العالمية الاولى التحق بجيش اللنبي في فلسطين وبعد الحرب انضم الى المجتمع العربي في باريس وتوفي عام ١٩٦٢ . تخصص في الصوفية الاسلامية.

(١٥) كتاب التصوف الاسلامي، الدكتور محمد الشرقاوي، ص ١٦٩ .

(١٦) كتاب الغزالي في التصوف الاسلامي، احمد الشرباصي، ص ١٥٥ .

(١٧) مقتطفات من كتاب الغزالي، احمد الشرباصي، ص ١٦٤ - ١٦٦ .

المتصوفة بمشاهدة الله تعالى، يعنون معرفته في قلبهم والشعور بوجوده. اما المشاهدة الحسية البصرية فهي غير ممكنة بعد نفي الصفات عن الله، عز وجل.

ان المعرفة في القلب، اي المشاهدة، هي معرفة مباشرة بدون مقدمات او براهين، وهي تدرك بالعقل ليس بالحس وتسمى عند المتصوفة «كشفا». وهي ما يعرف عند المسيحيين «بالغنوص» اي رؤية الحق مباشرة عن طريق القلب لا عن طريق البحث والبرهان.

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «والغنوص يقوم على اساس ان الانسان لا يستطيع بقواه العادية الوصول الى المعرفة العليا، ولهذا يحتاج الى مصدر عال لايصالها اليه. ولا يستطيع المرء تحصيل الاستعداد للاتصال بهذا المصدر الاّ اذا تطهر قلبه. يقول «فالنتيوس»، وهو اكبر الغنوصيين - من له قلب مطهر يشع بالنور، هو الذي يظفر برؤية الله»[١٨].

ويقول الصوفي ابو القاسم الجنيد: «مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة» ثم يقول: «من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة»[١٩].

وحجة الاسلام، ابو حامد محمد الغزالي، الذي يعتبر الدين وسنة الرسول، من أسس التصوف يقول في كتابه «ميزان العمل»: «اعلم ان سالك سبيل الله تعالى قليل والمدعي فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين له العلامة الاولى، ان تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة على حد توقيفاته، ايراداً واصداراً، اقداماً واحجاماً، اذ لا يمكن سلوك هذا السبيل الا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها، ولا يصل فيه الاّ من واظب على جملة النوافل، فكيف يصل اليه من اهمل الفرائض؟.. والسالك لسبيل الله يعرض عن الدنيا اعراضاً، ولو ساواه الناس كلهم لخرب العالم»[٢٠].

---

(١٨) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، ص ٢١/٢٢ .

(١٩) كتاب الغزالي في التصوف الاسلامي، احمد الشرباصي، ص ١٦٣ .

(٢٠) كتاب الغزالي والتصوف الاسلامي، ص ١٦٦ .

وقال بعض المؤرخين المسلمين: «ان من لبس صوفاً وكان زاهداً تقياً متعبداً كان صوفياً، وهذا عمر بن الخطاب لبس الصوف وهو متقشف زاهد ورع، اذن هو صوفي». وقال المؤرخ المصري الكبير محمد حسين هيكل «ان امير المؤمنين عمر بن الخطاب اتى القدس وعليه مرقعة من الصوف فيها أربع عشرة رقعة بعضها من اديم»[٢١].

قيل للقائد الكبير والصحابي الجليل، ابي عبيدة عامر بن الجرّاح عند وصوله الى دمشق، ان يستبدل ملابسه الصوفية بما هو ارق وافخم، لقربه من الأعداء الذين تؤثر بهم المظاهر فقال: «ما كنت بالذي اترك ما كنت عليه في عصر الرسول»[٢٢].

قيل الكثير عن لبس الصحابة واوائل المسلمين الصوف. وبالرغم من ان لبس الصوف، يحمل معنى التقشف والبعد عن الزهو، ولكنه ليس الصفة التي من أجلها فقط أطلق اسم الصوفية على مذهب التصوف. في دائرة المعارف الاسلامية قيل: «ان لفظ صوفي مشتق من الصفاء او الصفو، والمراد صفو قلوب المتصوفة وانشراح صدورهم ورضاهم بما يجزيه الله عليهم، ثم انهم مع الله في صفاء لا يشوبه شاغل».

«ولكن مهما اختلفت الآراء في تسمية الصوفية، منشأها او تاريخها، او الصفات التي تجعل الانسان ينتمي الى هذه الفئة من المؤمنين، فالصوفية، كما قلنا سابقاً، ليست لبس الصوف، والزهد والتقشف والعبادة فقط بل هي - قوم صفت قلوبهم من كدرات البشرية، وافات النفس، وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا في الصف الأول والدرجة العليا مع الحق، فلما تركوا كل شيء، ما سوى الله، صاروا، لا مالكين ولا مملوكين. الصوفية كراهية الدنيا ومحبة المولى»[٢٣].

ويقول الدكتور مصطفى الشكعة: «ان الصوفية هي العزوف عن لذائذ الحياة ونشدان صفاء النفس والسعي الى الحب الالهي في نطاق السمو الروحي والمجاهدة النفسية»[٢٤].

---

(٢١) كتاب الفاروق عمر حاشية رقم ١، ص ٢٣٥ .

(٢٢) كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين المسعودي، مجلد ١، ص ٤١٨ .

(٢٣) كتاب التصوف الاسلامي وتاريخه، رينولد نكلسون ترجمة ابي العلاء عفيفي، ص ٣٢ .

(٢٤) كتاب اسلام بلا مذاهب، ص ٥٠٣ .

وقال بعض الرواة: «ان الصحابة ابو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعمّار بن ياسر وحذيفة بن اليمان كانوا يلبسون الصوف، اتقياء وزاهدين في الدنيا وهم من اوائل الصوفية ورواد التصوف». الواقع ان هؤلاء الاتقياء لم يكونوا الوحيدين الزاهدين في الدنيا ويلبسون الصوف بين اصحاب الرسول الكريم. فقد قال حسن البصري: «ادركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف»(*). البدريون هم المسلمون الذين حاربوا مع النبي في موقعة بدر، وجلهم يمثلون، «الصفوة الماجدة الرائدة من صحابة الرسول».

الزاهدون المتقشفون لابسو الصوف الأوائل في الاسلام، الذين أطلق عليهم اسم الصحابة، اختلفوا عن المتصوفة في أمور كثيرة منها، حبهم لله تعالى الذي كان مرتبطاً مع حبهم للرسول الكريم وليس كحب المتصوفة المباشر دون مرشد او وسيط. وهذا السعي الصوفي للعلاقة المباشرة مع المولى، جعل الشيعة يتحاشون الانخراط في سلك الصوفية لايمانهم ان الاتصال بالله تعالى يتم بواسطة الامام. ثم كان السعي عند بعض المتصوفة الى المشاهدة والحلول والاتحاد بالله بدعة اعتبرت كفراً والحاداً.

وقاضي القضاة المعتزلي الكبير عبد الجبّار الهمذاني قال: «ان من حج على طريق الله من الحقب السالفة وفي الأجيال الاولى، فلم يعرفوا باسم المتصوفين، فالتصوف كلمة لم تنتشر الاّ في القرن الثالث، وكان اول من عرف بهذا الاسم في بغداد رجل اسمه «عبدك الصوفي» توفي عام ٢١٠هـ، وقد كان شيخاً كبيراً»[٢٥].

ويقول الدكتور قاسم غني: «لا شك ان هذا التصوف قد بلغ مرحلة النضوج ومقاربة الكمال في القرن الثالث وما بعد، وازداد تكامله»[٢٦].

يمكن تقسيم الزمن الذي انتشر فيه الزهد التقليدي الاسلامي والتصوف الفلسفي الى ثلاث مراحل، مع الأخذ بين الاعتبار التداخل بين هذه المراحل الزمنية

(*) كان لبس الصوف شائعاً في ذلك الزمن لكثرة الغنم عند قبائل العرب وكان الصوف مورداً اساسيا لهم. اما الحرير والقطن فكانا يستوردان من بلاد الشام بأسعار كبيرة بالنسبة لأسعار الصوف.

(٢٥) كتاب طبقات الصوفية، ابو عبد الرحمن السلمي، ص ٢٨ .

(٢٦) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي للدكتور عبد الرحمن بدوي.

لعدم وجود حد واضح يفصلها، لأن انتشار الفكر لا يحده وقت، ولان العوامل الاجتماعية والمعتقدات الدينية وحتى الاقتصادية، تتحكم في نشوئه وانتشاره.

هذا التقسيم التاريخي يعطينا فكرة واضحة وحقيقية عن التطور الفكري الذي حصل بين الزهد التقليدي الاسلامي، الذي كان مقدمة للتصوف، التصوف الفلسفي حسب ما عرفه المفكرون المسلمون وغيرهم من المستشرقين.

١ - مرحلة الزهد الاسلامي التقليدي في عهد الرسول الكريم.

بدأت حركة الزهد الاسلامي خلال القرن الاول الهجري. سلكت مسالك الزهد والتقشف، اي اعتزال مجالات النشاط الاجتماعي وحصره في عبادة الله تعالى والجهاد لأجل الاسلام. بعض كبار الصحابة الذين اتسم سلوكهم بالتزام اسلوب العيش اليومي المتواضع والتخلي عن الترف، ولكن دون التعرض للشعائر الاسلامية، فالايمان كان مطلقاً، وما أنزل الله تعالى هو الحق الذي لا جدل به.

من هؤلاء الصحابة الكبار كان: ابو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عبدالله بن مسعود، عبدالله بن عمر بن الخطاب، عبد الرحمن بن عوف، ابو الدرداء عويمر الانصاري، سلمان الفارسي، عمّار بن ياسر، صهيب الرومي، حذيفة بن اليمان، ابو ذر الغفاري، واويس القرني اليمني، وعبيدة عامر بن الجرّاح وغيرهم ممن تخلّى عن الترف ومباهج الحياة الدنيوية وانصرف الى الجهاد لأجل الاسلام وعبادة الله، عز وجل. روى بعض المؤرخين: «لم يطلق لقب التصوف على هؤلاء الزّهاد، لأن لقب الصحابة، اي صحبة الرسول، كان اشرف لهم».

ووصف هؤلاء الصحابة الزهّاد ابو نعيم الاصفهاني: «وهم قوم أخلاهم الحق في الركون الى شيء من العروض، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض. وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء، كما جعل من تقدم ذكرهم أسوة للعارفين من الحكماء. لا يأوون الى اهل ولا مال. ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا مال. لم يحزنوا على ما يأتيهم من الدنيا، ولا يفرحون الاّ بما ايّدوا من العقبى»(٢٧).

(٢٧) كتاب حلية الاولياء، مجلد ١، ص ٣٣٨ .

يقول المفكر حسين مروه: «ان اطلاق لقب صوفي على شخصيات من امثال جابر بن حيّان، ابي هاشم الكوفي[٢٨] وعبدك الصوفي وعبد الواحد بن زير، وهم الذين، لا نجد في سيرة احدهم ما ينبئ بأنه أضاف الى خصائص الزهد التقليدي اضافة تشير في هذا الزهد نحو التصوف الحقيقي»[٢٩].

ان اطلاق اسم التصوف على زهّاد القرن الثاني هجري، لا يعني تحولاً جذرياً او اساسياً عن الزهد التقليدي الاسلامي، بالرغم من ان هؤلاء الزهاد ابتعدوا عن مظاهر الترف والملذات الدنيوية واتخذوا الصوف لباساً لهم. يقول المؤرخ ابو نصر السرّاج الطوسي: «نسبوا الى ظاهر اللباس ولم ينسبوا الى نوع من انواع العلوم والأحوال التي هم بها متمرّسون، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء، عليهم السلام، والصديقين وشعار المساكين المتنسكين»[٣٠].

اذن خلال القرن الثاني هجري بقي الزهد التقليدي الاسلامي مسيطراً على انتشار التصوف الفلسفي بمفهومه الحقيقي، ولكن بوادر الرفض الصريح للواقع الحياتي، ومجرى الاوضاع الاجتماعية والتبرم من ظلم السلطة الاموية العربية لاستبدادهم بالحكم وتبذير اموال المسلمين على ملذاتهم. وثم انتشار الفكر المعتزلي الذي سلط العقل على الايمان وتبني عقيدة، رفض الايمان اذا لم يقبله العقل، التي اثارت جدلاً كبيراً مع اصحاب النص، من الحنابلة والاشاعرة وبعض الخوارج، مما جعل بعض الزهّاد المخضرمين الواقفين على تخوم التصوف والشك العقائدي حول الشريعة والامامة والايمان المغلق، ينطلقون في ترويج أفكار وغعقائد روحانية لا تتفق مع عقيدة الاسلام، مما أثار قلق السلطة الحاكمة فكان اضطهاد اهل الاعتزال وثم ملاحقة اصحاب البدع والعقائد الغريبة ومنهم بعض المتصوفة.

وخلال هذه المرحلة، اي قبل القرن الثالث هجري، برز البحث والتساؤل الصوفي عن فكرة الوصول الى «المعرفة» بطريق الكشف او المشاهدة او المجاهدة عن

---

(٢٨) هو ابو هاشم الكوفي عاش في تكية الرملة في فلسطين.

(٢٩) كتاب النزعات المادّية في الفلسفة الاسلامية، ص ١٦٧ .

(٣٠) كتاب اللمع في التصوف، ص ٤٢ .

طريق احتمال الآلام وكبح شهوات النفس، فأطلت الصوفية بمعناها الجديد، الذي تجاوز الزهد التقليدي الاسلامي الذي تراجع حتى اصبح من جملة المقامات الصوفية المتبعة، وليس اساس التصوف، او ركناً تقليدياً يتبعه المتصوفة لقهر النفس ودفعها الى التخلي عن ملذات الجسد.

من الزهّاد المرموقين في هذه المرحلة، حيوة بن شريح التجيبي وفضل بن فضالة من مصر، وابو مسلم عبدالله بن ثواب الخولاني ويزيد بن مراد الهمذاني من الشام والعالم عامر بن عبد قيس البصري من البصرة»[٣١]، ثم العالم الكبير الحسن البصري الذي قال عنه ابن سعد، «كان الحسن جامعاً، عالماً، عالياً، رفيعاً، فقيهاً، مأموناً عابداً ناسكاً، كبير العلم، فصيحاً جميلاً، وسيماً»[٣٢].

ومن تلاميذ الحسن البصري الذين اخذوا عنه الزهد التقليدي الاسلامي المشبع بفلسفة التصوف، فكانوا المقدمة لانتقال التصوف الى مراحله الفلسفية المتقدمة الأخيرة التي اشتهر بها.

١ - ايوب بن ابي تميمة السختياني الذي ولد عام ٦٨هـ، ومات عام ١٣١هـ[٣٣] وكان مولى لقبيلة عنزة. كان ايوب عالماً ورعاً كثير العلم. قال عنه الحسن البصري، «هذا سيد الفتيان»[٣٤].

٢ - ابو يعقوب فرقد السبخي، توفي في البصرة عام ١٣١هـ روى عنه السمعاني في كتاب «الانساب». «السبخي من الثقات التابعين وحسبه شرفاً ان يروي عنه مالك بن أنس وحفص بن عاصم».

٣ - ابو يحيى مالك بن دينار. توفي عام ١٣٠ هـ قبل عام «الطاعون». كان مولى لامرأة من بني لؤي. تأثر مالك كثيراً بالمسيحية حتى كانت معظم اقواله تنسب الى التوراة، وكان يغشى الأديرة ويقيم مع النسّاك النصارى ويأخذ عنهم علوم الدين

(٣١) كتاب صفوة الصفوة، ابن الجذري، ص ١٨٧ و ٢٨٢ .
(٣٢) كتاب «طبقات الصّوفية»، مجلد ٧، ص ١٥٧ .
(٣٣) المصدر نفسه، مجلد ١، ص ٢٥١ .
(٣٤) المصدر نفسه.

المسيحي. كان زهد مالك بن دينار قريباً من التصوف حتى قيل عنه: «يمكن ان يعد حلقة وسطى بين الزهد، كما يمثله الحسن البصري، وبين التصوف كما يظهر عند رابعة العدوية ومعروف الكرخي»(٣٥).

كان مالك بن دينار يدعو الى عدم الزواج، ولما قيل له، «الا تتزوج؟. فقال: «لو استطعت لطلقت نفسي»(٣٦).

ويروي الدكتور عبد الرحمن بدوي: «ان شخصية مالك بن دينار من الشخصيات الخطيرة في تطور التصوف الاسلامي. وهو يمثل حلقة الانتقال من مرحلة الزهد، التي بلغت اوجها عند الحسن البصري، الى مرحلة التصوف بالمعنى الدقيق التي ستبدأها رابعة العدوية»(٣٧).

٤ - عبد الواحد بن زيد. توفي عام ١٧٧هـ في عبادان من بلاد فارس. تأثر كثيراً بفلسفة مالك بن دينار، وكان مثله يتردد على الأديرة ويدرس الكتاب المقدس ويستشهد بما ورد فيه حتى قيل «كانت التوراة اقرب اليه من القرآن».

كان عبد الواحد بن زيد اول من قال بالمحبة بين الله والانسان ومن قوله: «ما احسب شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر الاّ الرضا،ولا اعلم درجة ارفع ولا اشرف من الرضا، وهي رأس المحبة.

٥ - محمد بن واسع. كان من المتصوفة المخضرمين، اي بين الزهد التقليدي والصوفية، وكان من افضل قراء القرآن حتى قال عنه الحسن البصري «زين القراء».

كان من البكائين، تسيل دموعه على خده معظم الأوقات ويأخذ على البكائين تقصيرهم في البكاء، لأن البكاء يجب ان يكون متواصلاً دون توقف. وكان يكره نفسه على انها سبب ابتعاد الله منه وكان يقول من مقت نفسه في ذات الله، أمنه الله من مقته»(٣٨).

(٣٥) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ١٩٨ .
(٣٦) كتاب حلية الاولياء، ابو نعيم الاصفهاني، ص ٢٦٠ .
(٣٧) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، ص ٢٠٦ .
(٣٨) كتاب حلية الاولياء، ابو نعيم الاصفهاني، مجلد ٢، ص ٣٥٠ .

٢ – نشوء حركة جديدة من التصوّف.

في منتصف القرن الثاني، برزت حركة جديدة من الزهد التقليدي تسببت في دفعه الى التصوف الفلسفي، فكان رواد هذه الحركة داود الطائي (توفي عام ١٦٥هـ) والفضل بن عياض (توفي عام ١٨٧هـ) اللذان اخذا يبتعدان عن الزهد بسلوكه وأفكاره التقليدية ويتجهان الى التصوف الفلسفي في اظهار الشك في الشريعة والتحول الى عبادة الله مباشرة من دون وسيط فنسخا الامامة وقالا برفض الايمان غير المنفتح على الجدل والبحث.

ثم انضم الى هؤلاء المتصوفة زهّاد آخرون من خراسان، منهم ابراهيم بن ادهم البلخي، وعبدالله بن مبارك اللذان نادا بفكرة الابتعاد عن العبادة الدينية التي محورها الايمان المطلق، اي بما انزله الله تعالى او ما قيل عن سيرة النبي، مما ادخل مسألة «المعرفة» الى مفهوم الزهد، اي التخلي عن التزمت في المعتقدات ورفض كل ما لا يقبله العقل مما ساعد على انتشار هذا التمرد على الايمان المغلق ثم المناداة بالعقيدة القدرية، اي ان الانسان مخير في اقواله وافعاله، كون خراسان الفارسية كانت في صراع دائم ضد العرب الفاتحين والعمل على تقويض ما يدعيه او يطلبه العرب، للقضاء على العصبية العربية التي تجسّدت في أعمال الخلافة الأموية العربية، وثم التأثير المعتزلي.

من الواضح ان هذه المرحلة من الفكر الاسلامي التقليدي كانت مرحلة تمهيدية انتقالية لنشوء وانتشار التصوف الفلسفي المتحرر اذ بدأ التساؤل والبحث عن «المعرفة» العقائدية بواسطة الكشف والمشاهدة واصبحت العلاقة بين الزهد والتصوف لا تقتصر على السلوك الزهدي وعبادة الله تعالى، بل أخذت في تفسير بعض نصوص الشريعة الاسلامية كي تتفق مع الاجتهادات التفسيرية لنظرتهم في الحياة الدينية والدنيوية حسب منهجهم الفكري.

٣ – المرحلة الثالثة التصوف الفلسفي.

لكي يبلغ الحضور الصوفي القدر البارز ويصبح طائفة، اذ يتحول الزهد التقليدي من مفهومه البسيط الى التصوف بمفهومه الفلسفي، يجب ان يتخطى القرن الثاني هجري حيث يصبح قوة فاعلة وينتشر في البلاد الاسلامية من الاندلس حتى الهند.

برزت الصوفية الفلسفية بكل قوتها في اواخر القرن الثاني هجري حيث انعزل الزهد التقليدي عن المجتمع الاسلامي حتى صار مسلكاً دينياً منقطع الصلة بالواقع الاجتماعي. يقول ابو نعيم الاصفهاني «وبلغ من عزلة هؤلاء الزهّاد عن مجتمعهم ان احدهم لا يخرج من بيته، او كان يتخذ لنفسه سرداباً ينعزل به عن أهل بيته»(٣٩).

يقوم التصوف الفلسفي على اساسين:

١ - التجربة الباطنية المباشرة للاتصال بين العبد والرب

٢ - امكان الاتحاد بين الصوفي وبين الله(٤٠)

التجربة الباطنية هي التجربة الصوفية، اذ يحس الصوفي بقوى تضطرم فيه كفيض من نور، وينغمس بها كأن قوى إلهية غزته. فينطلق من المنطق العقلي ليغوص في تصورات وخواطر وأصوات، فيصاب بنوبات يحسها كأمواج تغمره لا يتمكن من مقاومتها، وقد ينتج عنها تحريك اطراف ورجفة بدن ورقص.

اما امكان الاتحاد بين الصوفي والله فيصفه الدكتور عبد الرحمن بدوي بقوله: «اما الاساس الثاني فضروري جداً في مفهوم التصوف، والاّ كان مجرد اخلاق دينية. ويقوم في توكيد المطلق، او الوجود الحق، او الموجود الواحد الاحد الذي يضم في حضنه كل الموجودات، وفي الامكان الاتصال به اتصالاً متفاوتاً في المراتب حتى يصل المرء الى الاتحاد التام، بحيث لا يبقى ثم الاّ هو. ومن هنا كان طريق التصوف سُلّماً صاعداً ذا درجات نهايتها عند الذات العليّة، وكان سفراً يرقى في معارج حتى ذروة الاتحاد»(٤١).

روى الدكتور عبد الرحمن بدوي: «ذلك ان التصوف الاسلامي، منذ رابعة العدوية في الثلث الثاني من القرن الثاني للهجرة، قد قام على اساس منهج استقطاب كامل للنفس في علاقتها مع الله وعلى اساس محاولة اتحاد بالمطلق او، على الاقل،

---

(٣٩) كتاب حلية الاولياء، مجلد ٦، ص ٣٤٥ .

(٤٠) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ١٨ .

(٤١) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، ص ١٩ .

اتحاد صلة خلّة به، وعشق له تسمح، اذا ما تعالت، بالاتحاد مع الذات»[٤٢]. نجد هذا الاتجاه الروحي عند رابعة العدوية، المحاسبي، البسطامي والجنيد والحلاج وقد طغى هذا الاتجاه حتى اصبح من الأسس الأولية في التصوف الفلسفي.

لما قلنا سابقاً، انتشرت الصوفية في القرن الثالث هجري في عهد الخلافة العباسية، حين سيطرت حياة البذخ والترف وانتشار العلوم، خصوصاً الفلسفية، التي ابرزتها الترجمة ووضعتها في متناول الجميع، على الفكر الاسلامي، ولكن في الوقت نفسه، فتحت الباب على مصراعيه امام تدفق معتقدات وفلسفات ومذاهب لاهوتية غريبة عن الاسلام، كالزرادشتية[٤٣] والمانوية[٤٤] والمزدكية[٤٥] والديصانية[٤٦] والمرقونية[٤٧] وغيرها. وكان المجتمع الفكري مزيجاً من فلسفة اليونان، وزهد الهنود، وزندقة الفرس، والشك المسيحي. كما انتشر المفسّرون والمتحدثون الفقهاء

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٩ .

(٤٣) اصحاب الحكيم زرادشت بن يورشب وكان مقره في اصطخر في فارس. لهم كتاب «زنداوستا» ويقال لهم الدين الاكبر. يعتقدون ان للعالم اصلين، النور والظلمة. يقال لهم كهنة النار واصحاب بيوت النار. يقولون بالعقل الكلي ومنهم سلمان الفارسي.

(٤٤) اصحاب ماني بن فاتك الحكيم، يقولون ان العالم مصنوع من أصلين أزليين، النور والظلمة يقتسمان الخير والشر والصلاح والفساد هما «برذان وأهرمن»، ظهر ماني من عهد الملك سابور الاول (٢٤١ - ٢٧٣م) وديانته تأثرت بالمسيحية وعلوم بابل. امتدت ديانة ماني حتى بلاد الشام والترك. قتل ماني الملك بهرام الذي خلف سابور عام ٢٧٣م.

(٤٥) المزدكية في عام ٤٨٤م ظهر مزدك الذي واصل تعاليم «ماني» ولكنه اباح الاشتراكية في الزوجات والاموال. اعتنق الملك «قباذ الاول» ديانة مزدك عام ٤٨٨ ولكن تمكن زعماء البلاد من خلعه وخلفه ابنه كسرى الاول (باني مدرسة جند ياسبور). جعل كسرى دين الدولة الزرادشتية فأطلق عليه كهنتها لقب «انوشروان» أي «الروح الخالدة» تقول المزدكية ان اركان الكون ثلاثة. الماء والأرض والنار ولها مدبر الخير والشر.

(٤٦) اصحاب ديصان قالوا كذلك باصلين، النور يفعل الخير قصداً واختباراً والظلام يفعل الشر طبعاً واضطراراً. النور حي عالم وقادر فيه الخير والحسن والظلام ميت وعاجز.

(٤٧) المرقونيه، كذلك اثبتوا اصلين النور والظلمة ثم ثالثاً المعدل الجامع وهو دون النور في الرتبة وفوق الظلمة. النور هو الله تعالى، قالوا ان الزواج هو فقط لانتاج الأولاد اي الذرية وعدا ذلك يكون حراماً.

والمتكلمون والفلاسفة والملاحدة. ثم كان هناك شك واسراف وبلبلة في التفكير الديني سببته الحرية العقلية التي اثارتها المعتزلة فأتاحت المجال لانتشار المجادلات العقلية والخلافات الفقهية والعصبيات المذهبية والنزعات الالحادية.

الذين شجعوا على انتشار المذاهب الدينية والخلافات الفقهية ودفعوا رجال الدين الى الواجهة السياسية كان السلاجقة والفرس الذين لم يكونوا عرباً فاعتمدوا على الدين، كالرابط الذي يشدهم الى السلطة ويؤيد سلطتهم في الحكم، وبواسطته احكموا قبضتهم على ادارة الدولة وتركوا للعنصرية العربية عظمة الاسم من دون سلطة الحكم.

في هذا الخضم من البلبلة الفكرية والخلافات الفقهية والاهواء السياسية والتعصب المذهبي والعنصري لجأ بعض الناس الى الصوفية هرباً من هذه الفوضى الفكرية والشك العقائدي يلوذون بالله تعالى كالأمل الوحيد لانتشالهم من قلق روحي وعقائدي وشك مذهبي، ويسبغ عليهم سكينة الايمان وهدوء الروح.

ويقول الشاعر ابو محمد طاهر بن الحسين المخزومي في التصوف:

ليس التصوف ان يلاقيك الفتى   وعليه من نسج النحوس مرقّع
طرائف سود وبيض لفقت   وكأنه فيها غراب ابقع
ان التصوف ملبس متعارف   يخشى الفتى فيه الاله ويخشع

ان الله، سبحانه وتعالى، لا يحبذ المغالاة والخروج من المألوف في التقشف والزهد. ويقول في كتابه الكريم «يا أيّها الذين آمنوا كلوا من طيبت ما رزقناكم واشكروا الله ان كنتم اياه تعبدون»[٤٨]. ثم يقول: «قل من حرّم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبت من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحيوة الدنيا خالصة يوم القيمة»[٤٩]. ويقول، عز وجل، «يا أيّها الذين آمنوا انفقوا من طيبت ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الأرض»[٥٠]. ثم يقول، سبحانه تعالى في المغالاة في الأمور

(٤٨) سورة البقرة، آية ١٧٢ .
(٤٩) سورة الاعراف، آية ٣٢ .
(٥٠) سورة البقرة، آية ٢٦٧ .

والخروج عن الحدود التي يرسمها الله: «تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون»[٥١]. كما قلنا سابقاً ان شيعة الامام علي بن ابي طالب الأوائل، أي سلمان الفارسي، وابو ذر الغفاري، وعمّار بن ياسر، والمقداد بن الأسود الكندي، وحذيفة بن اليمان، وابو الدرداء عويمر بن ثعلبة، فقد عرفوا بزهدهم وتقشفهم ورفضهم الانغماس في ملذات الحياة. ومن هذا المنظار يمكن اعتبارهم من الصحابة الزاهدين الورعين ولكن ليس من الصوفيين، لأن للصوفية صفات وفروضاً تتعدى الزهد والتقشف والعبادة. وكذلك قلنا سابقاً، الصوفية الاسلامية لم تعرف في بلاد الاسلام قبل القرن الثالث هجري.

من الواضح الذي لا يقبل الجدل، ان التصوف ليس لبس الصوف والتقشف والعبادة، بل هو فكر فلسفي وممارسة دينية في تقربها من الله تعالى. ان الوجود الكامل الكلي واحد، وان الخالق والمخلوق يتحدان بصفاء الروح، وان العقل يستمد علمه من مصدر آخر غير الحس وهو الارادة الالهية على الأرض، وان النفس تتصل بالعالم العقلي عن طريق تصفيتها من الشهوات والنزوات والتجرد عن المادة والتوجه الروحي الى المولى تعالى[٥٢].

بالنسبة للاسلام، المحبة الالهية هي الايمان الصادق بقدسية الخالق. العطاء محبة، والله تعالى هو المعطي الكريم والغفور الرحيم، ومن آمن بربه كان لعيال الله محباً، والسبيل لمحبة الله هو الذكر الدائم لاسم الله والتأمل المتصل بالله، عز وجل.

التصوف كان، في بعض جوانبه المحدودة، محاولة لمعارضة كل نزعة تحاول حصر الاسلام بالشريعة (عقيدة الظاهر) اعتمدوا الحقيقة (عقيدة الباطن) وحاولوا حصرها بخضوع الانسان للقدرة الآلهية على منحى الرضا والتسليم، لأن الظاهر قد يقود الى رؤية الأمور على غير حقيقتها، لأنه يعتمد على النظر والسمع والحس للاطلاع على المعرفة.

ان علم الظاهر هو الفقه واصحابه هم الفقهاء، والفقه هو تحديد اصول علاقة الانسان بالانسان، والفقهاء يسعون الى المعرفة بالمداومة على الدراسة التي، تعتمد

(٥١) سورة البقرة، آية ٢٢٩ .

(٥٢) يتضح التأثير الهندي كثيراً في هذا الوصف، خصوصاً وحدة الوجود.

كما قلنا، على الحواس الانسانية الظاهرة. اما الصوفية، ارباب الباطن، فهم يستندون على المجاهدة لتحصيل المعرفة والاقبال على معرفة الله بواسطة صفاء الروح لا الحواس، ويعتمدون العلاقة الروحانية في معاملة الانسان لأخيه الانسان.

اما حجة الاسلام، ابو حامد محمد الغزالي، فقد سعى الى التوفيق بين التصوف وتعليم الشريعة، اي الظاهر، وقال بحتمية الربط بين الظاهر والباطن، فقال: «ان الحقيقة الصوفية تخالف الشريعة، والباطن يخالف الظاهر، فهو الى الكفر أقرب. كل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصولة، الشريعة جاءت بتكليف الخلق، والحقيقة انباء عن تعريف الحق، والشريعة تعبده والحقيقة ان تشهده، الشريعة قيام بما هو أمر، والحقيقة شهود لما قدر واخفى واظهر»[٥٣].

ويقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان: «والتصوف باعتباره شاهداً للدين الصوفي في الاسلام، هو ظاهرة روحية لا تقدر. فهو اولاً وقبل كل شيء، إثمار لرسالة النبي الروحية وجهد مستمر لعيش انماط الوحي القرآني عيشاً شخصياً عن طريق الاستيطان. فالمعراج النبوي، الذي تعرف به الرسول على الأسرار الآلهية، يظل النموذج الأول الذي حاول بلوغه جميع المتصوفين واحداً بعد الآخر. فالتصوف هو شهادة لا تنكر، واعتراض ساطع من الاسلام الروحاني ضد كل نزعة حاولت حصر الاسلام بالشريعة وظاهر النص»[٥٤].

وكان الصوفيون الاوائل على مذهب السنة، منهم محدّثون وفقهاء اخذوا بمذهب احد الأئمة. مالك بن دينار والمحاسبي كانا عالمين بأصول الدين. ابو يزيد البسطامي كان من اهل النص ومغالياً فيه. ابو القاسم عبد الكريم القشيري كان اشعرياً، وعبد القادر جيلاني كان فقيهاً على المذهب الحنفي، وابو حامد محمد الغزالي كان شافعياً وهاجم الشيعة والباطنية والمعتزلة وحتى الفلاسفة. وقد قلنا سابقاً، ان الشيعة ينكرون التصوف، لأنهم يستندون في عقيدتهم الى تعاليم الأئمة المعصومين الذين يربطونهم بالعالم الروحاني. والامام عند الشيعة، هو نائب الله على

(٥٣) كتاب اسلام بلا مذاهب مصطفى الشكعة، ص ٥١١ .

(٥٤) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ٢٨٣ .

الأرض، هو المولج بالتفسير والتأويل ويهدي المؤمنين الى الحق، فلا يحتاجون لغيره ولا يخرجون عن سلطته التي وهبها له المولى. وبالنسبة الى الشيعة، الحلول والاتحاد والمشاهدة والتجلي بدع كفر، والتقشف والزهد والعبادة فريضة وحكم الله على المؤمن ولا مرد لحكمه تعالى(٥٥).

وهناك اشارات في بعض كتب التاريخ الاسلامي الى ان بعض الاسماعيلية تمرست بالصوفية ولو قليلاً، وخلال عهد المماليك، اعتنق بعض الشيعة المذهب الصوفي، وكذلك في العهد الفاطمي. ويقال ان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، كان اذا رأى المتصوفة يقف. «فيسمع اناشيدهم ويراقب رقصهم». مما يدل على وجودهم في مصر في ذلك الزمن. وسبق ان قلنا، كان الحاكم بامر الله يميل الى الصوفية في تصرّفه بالرغم من كونه اماماً اسماعيلياً شيعياً وهو من سلالة الامام الأول علي بن ابي طالب.

ويرجع بعض المؤرخين بالصوفية الى الصين ايام الفيلسوف «كونفوشيوس»، اذ يقولون ان في القرن السابع قبل الميلاد، عاش المفكر الصوفي الصيني «لاؤتسه» وكان زاهداً متقشفاً يرفض متع البشر ويريد الاصلاح لقومه، فكتب كتاباً اودع به تعاليم الصوفية التي تقوم على ترك العمل وشؤون الحياة والتخلي عن الشهوات وحاجات الجسد المادية كي يستطيع الانسان الاتصال «بالتآوي» (القدرة الغيبية) والاتحاد بها»(٥٦).

ويؤكد هذا القول الدكتور عمر فروخ فيقول: «ان هنالك صلة وثيقة بين التصوف الاسلامي وبين فلسفة الحياة الصينية، وقد اشترك العرب والصينيون في تسمية هذا المذهب طريقاً او طريقة، ونظروا جميعهم الى الحياة على انها سفر. ويرى متصوفة الاسلام، ان الله علة للوجود واليه يتوق الوجود، وانه يتجلى للمتصوف في ما خلق. وهكذا رأى الصينيون في «تآوي» واتفقوا جميعهم على ان العلة الاولى لا

---

(٥٥) اول زاوية صوفية بنيت في القاهرة كانت «خانقاه سعد السعداء» اطلق عليها هذا الاسم بالنسبة لأول شيخ سكنها الصوفي سعد السعداء. بناها الايوبيون في شمال القصر الفاطمي الكبير - المقريزي كتاب اتعاظ الحنفاء، مجلد ٣، ص ٣١٩ . كان هذا العمل طبيعياً لأن الايوبيين كانوا على مذهب السنة يحبذون الصوفية وليس كالفاطميين الشيعة الذين يرفضونها.

(٥٦) كتاب الصوفية في نظر الاسلام، سميح عاطف الزين، ص ٣٤ - ٣٥ .

تدرك بالحواس ولا توصف بالتشبيه. والطرفان وضعا لبلوغ الاتحاد بالعلة الأولى رياضة خاصة ذات مراتب هي عبارة عن المقامات والأحوال، فتزكية النفس وتطهيرها عند الصينيين يشبه مقام التوبة والورع عند المسلمين، الاشراق الصيني يشبه الكشف عند صوفية المسلمين والاتصال والاتحاد يشبه الفناء»(٥٧).

التوافق بين التعاليم الصوفية الاسلامية ومذهب التآوي الصيني هو تطهير النفس من شهوات الدنيا ثم اتحادها «بالتآوي» حيث يدرك الانسان الموجودات بمفهومها الروحي، فيتحرر من القوانين الطبيعية ومن تسلط النفس الشهوانية التي تدفعه الى الانغماس في ملذات الجسد.

اما التصوف الهندي، بكل اتجاهاته، فبرز في معتقدات فرق البراهمة والبوذية الهندية، وذلك ان عدم استقرار الأحوال السياسية في الهند والمتاعب الاقتصادية ما جعل الهنود يميلون الى حياة التقشف والزهد والى الابتعاد عن اللذات الجسدية مما جعلهم يتوافقون مع التصوف الصوفي الاسلامي.

تدعو عقيدة البراهمة الهندية الى تخليص النفس من سيطرة الجسد ثم السعي للاتحاد بالروح الكلية اي، «براهما» وهو اللّه. وتتفق عقيدة البراهمة والصوفية الاسلامية في وحدة الوجود وفي تخليص النفس من ملذات الجسد ثم الترقي بها الى المولى، عز وجل، للمشاهدة او الاتحاد او الكشف. ويقول ابو الريحان محمد بن احمد البيروني: «ان عقيدة البراهمة تذهب في الوجود وطريق الهداية الى انهما شيء واحد»(٥٨).

ويقول المفكر محمد الهلبي النيال: «ان مذهب «اليوغا» تصوف هندي، واتباعه يعذبون أنفسهم في ان يظفروا بسكينة المعرفة ولطريقتهم مقامات منها:

- موت الشهوة وتحرير النفس من رغباتها وتمني الخير للكائنات جميعاً.
- القناعة والنظافة والتقوى.

---

(٥٧) كتاب التصوف الاسلامي عمر فروخ وكتاب الصوفية في نظر الاسلام، ص ٣٥ .

(٥٨) يعتقد الموحدون الدروز، ان الحياة ووحدة الوجود هي: الفكر والقوة والمادة جميعها انبثقت من اصل واحد شامل لا يدركه العقل ولا يحيط به الوصف. وان كل خير او شر او نقص او صواب او خطأ لا يرد الى شخص واحد فهو الكل للكل في الكل. سلفستر دي ساسي. كتاب دين الدروز.

- ايقاف كل حس لدى الانسان عن طريق تعويد الجسد على وضع معيّن كي يتفرغ العقل للتأمل.
- تأمل الغيبوبة بحيث يمحى من الذهن كل تفكير.
- تكرار المقطع «اوم» وهو مثل الذكر عند الصوفية»[٥٩].

اما البوذية، فهي مذهب ديني نشأ في الهند على يد «بوذا» احد ابناء الملوك الذي تخلى عن العرش، واعتزل زخارف الدنيا حتى يتحقق له الفناء الروحي المطلق، اي، «النرڤانا». ولذلك يجب على الانسان ان يطهر نفسه من دنس البدن حتى ترقى في الكمال وصولاً الى انفصالها عن عالم الابدان واتحادها بالروح الكلية، والروح الكلية هي «النرڤانا»[٦٠].

يعتقد البوذي ان هذا الوجود هو عذاب وشقاء وان النعيم النفساني هو الأمل بالتخلص من الشقاء الحاضر والشقاء المقبل في دخوله بعد موته في «النرڤانا» فلا يعود بعدها الى عذاب الحياة.

ويقول الفيلسوف ابو الريحان محمد البيروني[٦١]: «ان المذهب البوذي الهندي، قوامه الخلوة والانفراد عن كل شيء، والزهد في كل شيء والرياضة الروحية فيستشعر من هذا كله سعادة لا تجاوزها سعادة وطمأنينة لا تعادلها طمأنينة»[٦٢].

يختلف المفكرون، خصوصاً المستشرقون، في مدى تأثير الفلسفة الهندية على التصوف الاسلامي. فالمستشرقون «هورتن»، «بلوشيه»، جولدزيهر» «وبرون» يقولون ان التصوف الاسلامي تأثر كثيراً بالفلسفة الهندية. ويخالفهم بهذا الرأي «ماسينيون» «واوليري». والواقع ان الاتصال المؤثر للهنود على الفكر الاسلامي، لم ينشأ الا بعد كتاب ابو الريحان محمد البيروني الذي لم يقف عند حد الوصف ونقل النصوص،

---

(٥٩) كتاب الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي.

(٦٠) كتاب التصوف، الدكتور اسعد السحمراني، ص ٤٨ .

(٦١) الفيلسوف ابو الريحان محمد بن احمد البيروني ولد عام ٣٥١هـ في خوزستان وتوفي عام ٤٤٠ ذهب مع السلطان محمود القزنوي الى الهند حيث تعلم اللغة السنسكريتية وكتب كتاب. «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل ومرذولة». عرض لعقائد ومذاهب الهند.

(٦٢) كان المفكر كمال جنبلاط يقول «السعادة هي اطمئنان النفس فقط وليس المال».

بل تجاوزهما الى تحليل وتفسير الفلسفة الهندية وعلاقتها مع الفلسفة اليونانية، ثم الاختلاف بينها وبين فلسفة التصوف الاسلامية. المعروف ان البيروني وضع كتابه في الربع الأول من القرن الخامس هجري، بعد ان كان التصوف الاسلامي نشأ وانتشر في البلاد الاسلامية لمدة تزيد عن مائتي سنة وبعد موت معظم المتصوفة الأوائل. توفي ابو الريحان محمد البيروني عام ٤٤٠هـ اما ابو يزيد البسطامي فقد توفي عام ٢٣٤هـ، وابو القاسم الجنيد عام ٢٩٧هـ، ابو عبدالله الحلاّج عام ٢٤٤هـ، واحمد الغزالي، شقيق ابو حامد ٢٩٧هـ الوحيد الذي عاش بعد ابو الريحان البيروني كان شهاب الدين السهروردي الذي توفي عام ٥٨٧هـ. اذن جميع هؤلاء الصوفيين، عدا السهروردي، لم يطلعوا على كتاب ابو الريحان البيروني.

والمؤرخ الدكتور مصطفى حلمي يقول بوجود تشابهات بين بعض مظاهر التصوف النظرية والعملية في الاسلام وفي ديانات الهند، مثل طرائق الزهد والعبادة والتفكر والذكر والمعرفة والفناء ووحدة الوجود(٦٣).

واما المفكر «الفرد فون كريمر» فيقول: «ان فكرة وحدة الوجود هي في الأصل من العقائد الهندية، وقد ظهرت في أقوال ذي النون المصري(٦٤) وابي يزيد البسطامي، وابي القاسم الجنيد، وابرزها في القرن الثالث، الحسين بن منصور الحلاّج، وانها حلت في التصوف محل الزهد في العصر القديم»(٦٥).

---

(٦٣) كتاب الحياة الروحية في الاسلام، ص ٢٠ .

(٦٤) من الاعلام البارزين في تاريخ التصوف، هو مصري قبطي توفي عام ٨٥٩م. ويقال انه كان تلميذ العالم الشيعي جابر بن حيان. كان مثالاً للصوفي المعتدل، وكان يقول ان هدف الصوفي الاتصال بالله. اما المشاهدة فهي سماع اصوات الأرواح الملائكية، وان المقامات تتم بالجهد الانساني والاحوال هبة من الله تعالى وقال ان الدعاء وقهرالنفس هما من باب التطهر من الآثام كي تعود النفس الى الوجود في الذات الالهية.

(٦٥) كتاب فصول من التصوف، الدكتور حسن الشافعي، ص ٦٠ .

اما الفيلسوف «وليم جونز» فقد قارن بين مذهب وحدة الوجود في التصوف الاسلامي المتأخر وبين مذهب «ڤيدانتا» الهندي (Vedanta)(٦٦) الذي يقول بوحدة الوجود وان المعرفة هي طريق السعادة والخلاص وان براهما (Brahma) هو الذات الآلهية المطلقة من كل شيء وكل شيء فيه»(٦٧).

ويقول المستشرق «اوليري» ان التشابه الذي يوجد بين «النرڤانا» البوذية والفناء الصوفي الاسلامي تشابه سطحي يجب ان لا يؤخذ به، فالمذهب البوذي في «النرڤانا» هو الذي يصور النفس الانسانية وقد فقدت فرديتها في طمأنينتها المطلقة التي لا تشوبها شائبة من حس او شهوة. اما المذهب الصوفي الاسلامي في الفناء، وان كان يدعو كذلك الى فقدان الفردية، الاّ انه ينظر الى البقاء الدائم على انه يوجد في المشاهدة الذوقية للجمال الالهي»(٦٨).

وكشف البيروني عن وجود توافق بين المذاهب الهندية وبين التصوف الاسلامي بقوله: «ان المنصرف بكليته الى العلة الاولى متشبهاً بها على غاية امكانه، يتحد بها عند ترك الوسائط وخلع العوائق والعلائق، ثم القول بالتناسخ الذي هو أخص خصائص الهنود وعلم نحلتهم»(٦٩).

كما ان البيروني استشهد كثيراً بكتاب «باتنجل» (Patajali) الشهير فنراه يقول: «ان النفس مرتبطة في العالم، وان لرباطها سبباً، وسبب الوثاق هو الجهل، وخلاص النفس هو اذاً بالعلم». ثم يقول: «افراد الفكرة من وحدانية الله يشغل المرء

---

(٦٦) «انفيدانتا» هو النص الاساسي لمذهب Sutra-Brahma ويطلق عليه اسم «الڤيدانتا سارا»، وهي مدرسة فكرية قديمة اشتق اسمها من «الڤيدا» وهو كتاب مقدس مكتوب باللغة السنسكريتية. معنى «الڤيدا» هو معرفة المجهول عن طريق الدين و «الڤيدانتا». هو تكميل الڤيدا يرجع تاريخ كتاب «الڤيدا» الى القرن الخامس بعد الميلاد وهو اكثر الكتب تصويرا «للبرهمية» ويشمل عَلى تفسير ديني واناشيد روحية.

(٦٧) كتاب Lewis M. Hogfe, religions of the World, p. 344

(٦٨) كتاب اضواء على التصوف، الدكتور طلعت غنّام، ص ٧٤ .

(٦٩) كتاب تحقيق ما للهند من مقولة في العقل مقبولة ومرذولة، ص ١٦ و ٢٢ .

بالشعور بشيء غير ما اشتغل به. ومن اراد الله اراد الخير، ومن بلغ هذه الغاية علت قوته النفسية على قوته البدنية»[٧٠].

ثم يستطرد ابو الريحان بالقول: «والى طريق «باتنجل» ذهبت الصوفية في الاشتغال بالحق فقالوا: «ما دمت تشير فلست بموحد حتى يستولي الحق على اشارتك بافنائها عنك فلا يبقى مشير ولا اشارة، او يوجد في كلامهم ما يدل على القول بالاتحاد، لجواب احدهم عن الحق».

ويقول الدكتور مصطفى حلمي: «واخص خصائص طريق «باتنجل» هذا هو ان صاحبه لم يكن يرى ان اقامة الشعائر الدينية واداء فرائض العبادة هما سبيل الانسان الى السعادة؛ بل سبيل السعادة عنده هو الذكر الدائم لاسم الله والتأمل المتصل في الله، فان الذكر والتأمل ينتهيان عن من يأخذ بهما ويروض نفسه عليهما الى اتحاده بالله وبالكون اللذين ليسا الاّ حقيقة واحدة. انه مذهب تصوفي خالص قوامه الخلوة والانفراد عن كل شيء والرياضة الروحية التي يفنى فيها الانسان عن كل شيء حتى عن نفسه، وهو يستشعر من هذا كله سعادة لا تجاوزها سعادة وطمأنينة لا تعدلها طمأنينة»[٧١].

ويعتقد الهنود ان اصل كل الأشياء هو «Brahman» وهو نفسه الذي يحفظها وهي تنتهي اليه في النهاية، وان Hiranya Garbhs هو الروح العالمية و Logos التي جاءت كل الأشياء بواسطته. وان «براهما» هو ايضاً Atman ، اي، النفس التي في داخل كل حي واذا عرف الانسان حقيقتها يجد السعادة ويتوحد مع المطلق»[٧٢].

اما في عقيدة التناسخ الموجودة في المذاهب الهندية، اي ان الأرواح لا تموت بل تنتقل من كائن حي الى كائن حي آخر. فالأرواح الخيرة تنتقل من الحسن الى الأحسن، والأرواح الشريرة تنتقل من بدن الانسان الى الحيوان او الهوام او النبات. هذه العقيدة الهندية مرفوضة جملة وتفصيلاً بالشريعة الاسلامية والمذهب الصوفي لا يعترف بها مطلقاً.

---

(٧٠) كتاب تحقيق ما للهند من مقولة في العقل مقبولة ومرذولة، ص ٢٤ .

(٧١) كتاب محاضرات في الفلسفة العامة والشرقية، ص ١٤٩ . وكتابه الحياة الروحية، ص ٤٣ .

(٧٢) كتاب التصوف الاسلامي، الدكتور محمد عبدالله الشرقاوي، ص ٩٥ .

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «فمنذ عهد هارون الرشيد لجأ الاسماعيلية الى اقليم السند وقاموا بنشر الاسلام في اقليم «ملتان» حوالى سنة ٢٠٠هـ[٧٣].
مدينة «ملتان» كانت عاصمة السند في عهد الامارة الغزنوية.

اما ابو عبدالله النسفي في كتابه «عيون الأخبار»، ويؤيده المؤرخ رشيد الدين في كتابه «جامع التواريخ»، فيقولان ان الداعي الاسماعيلي في اليمن، ابن حوشب الملقب بمنصور اليمن «أرسل أخاه «الهيثم» الى ملتان في السند ليقوم برئاسة الدعوة الاسماعيلية فيها.

وبعد وفاة «الهيثم» أرسل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، الداعي الاسماعيلي «حليم بن شيبان» وفوضه في المدينة وضواحيها. نجح حليم بن شيبان وكتب للخليفة المعز لدين الله – ان اكثرية الناس هنا على مذهب الشيعة، والخطبة تقرأ باسم الخليفة الفاطمي، والناس في شوق لاستطلاع طلعته وسماع اوامره.

في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ – ٤١١ هـ) ارسل المقتنى بهاء الدين السموقي – احد حدود الموحدين – داعيا الى «ملتان» الذي تمكن، بمساعدة الزعيم «ابن سومر رجبال» من نشر مذهب التوحيد[٧٤].

بقيت هذه الفئة من الموحدين في «ملتان»[*] التي كانت ترتدي الخرقة الصوفية الزرقاء وتنادي بمذهب التوحيد، حتى بعد الاجتياح الغزنوي في اوائل القرن الخامس هجري، حيث رحل بعضهم الى بلاد فارس والتحقوا باسماعيلية «قلعة الموت» التي كانت تحت حكم الداعي الاسماعيلي الكبير حسن الصباح[**].

اما تأثير الفلسفة اليونانية على مذهب الصوفية فيقول المستشرق الانجليزي

(٧٣) كتاب تاريخ التصوف، ص ٣٩ .

(٧٤) احدى الرسائل التي بعث بها المقتنى بهاء الدين الى ابن سومر رجبال تشير الى وجود الموحدين في «ملتان» مؤرخة عام ٤٢٦هـ، مما يدل على ان الدعوة التوحيدية انشأت وانتشرت قبل ذلك التاريخ، اي في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله.

(*) ملتان مدينة كانت معروفة باسم مدينة (الصنم الأعظم).

(**) كان الاجتياح الغزنوي الاول بقيادة السلطان محمود عام ٤٠١ ثم الاجتياح الثاني عام ٤١٦هـ.

«رينولد نيكلسون» «ان كتاب «اثولوجيا» وهو ملخص لمذهب الافلاطونية الحديثة التي انتشرت انتشاراً واسعاً في بلاد الشام ومصر، التي كانت مركزاً مهماً من مراكز التصوف والقول بوحدة الوجود. كما ان المذهب الافلاطوني الحديث وصل الى الاسلام عن طريق «حرّان» في بلاد ما بين النهرين التي كانت مركزاً مهماً للوثنيين السريان المعروفين باسم الصابئة»[٧٥].

ويقول الدكتور مصطفى حلمي: «يبين لنا كتاب «اثولوجيا» ارسطوطاليس، وهو كتاب الافلاطونية المحدثة، ان الحقيقة العليا لا تدرك بالفكر، انما تدرك بالمشاهدة في حال الغيبة عن النفس من جهة، وعن العالم المحسوس من جهة اخرى، وهذا بعينه ما ذهبت اليه الصوفية من ان المعرفة الحقيقية لا تحصل عن طريق الحس والعقل، بل تحصل بنور يقدمه الله في قلب العبد بعد ان يكون قد خلص من شوائب نفسه. ومن عرف ربه واستغرق في الذات الالهية استغراقاً تزول معه التفرقة ويحصل فيه الاتحاد والجمع، فالتشابه واضح في طريق المعرفة بينهما»[٧٦].

وكذلك يقول الدكتور مصطفى حلمي: «تناولت الصوفية من الفلسفة اليونانية، وخصوصاً من افلاطون وأرسطو (الأفلاطونية المحدثة) معاني الأزلية والحقيقة، وحقيقة الحقائق، والكلمة، والعلة والمعلول، والفيض، والوحدة والوجود، والكثرة، والعقل الأول والعقل الكلي والمعرفة وعبّرت عنها بلسان الذوق عن الذات الالهية ومعرفة العالم بالله، وصدور الموجودات فيه عن ذات واحدة هي عينه وهو محييها»[٧٧].

وكتاب اثولوجيا ارسطوطاليس يحوي، بالاضافة الى مقتطفات من التاسوعات الافلوطينية، نظرية الفيض التي اعتمدتها الاسماعيلية، وهي صلب دعوة التوحيد

---

(٧٥) كتاب نيكلسون Studies in Islamic Mysticism Cambridge 1921

(٧٦) كتاب ابن الفارض والحب الالهي، ص ٧١ .

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٨٥ .

الدرزية. فلسفة الفيض هي ابداع الله تعالى للعقل من نوره الشعشعاني، والعقل يفيض على النفس، والنفس على الكلمة، والكلمة على الهيولى وهي المادة والصورة اي جميع ما اوجده المولى، عز وجل، في الكون.

والمفكر اللبناني سميح عاطف الزين يقول: «ان التصوف الذي استقى من مصادر يونانية انما يعود، بشكل اساسي الى الافلاطونية الحديثة، وهي مزيج من مذهب افلاطون والنصرانية. بدأ بها (فيلون الاسكندري) وجدّدها بعد ذلك افلوطين، فوجد فيها الصوفية منهلاً لنظرياتهم في الذوق، والمواجد، والمكاشفة وما الى ذلك»[٧٨].

اما التأثير المسيحي على التصوف الاسلامي فقد كان محدوداً وانحصر في علاقة النسّاك والرهبان النصارى بالاسلام، ولكن هذه العلاقة لم تترك اثراً ملحوظاً في الفكر الصوفي الاسلامي، لانزواء النسّاك في صوامعهم والرهبان في اديرتهم وانقطاعهم عن الحياة العامة والفكرية.

كانت المسيحية منتشرة بصورة واسعة في البلاد الاسلامية، وكانت قبائل عربية عدة تعتنقها، مثل غسان وطي وتنوخ، وفي العراق تغلب، وبكر واللخميين وقبائل نجران في الجزيرة العربية، ولكن تأثيرها على الفكر الاسلامي بقي محدوداً، فيما خلا ترجمة كتب الفلسفة اليونانية في مدارس حرّان وانطاكية، ودير قنسرين وجندياسبور الفارسية التي انشأها كسرى نوشروان، وثم الاسكندرية. وهذه الترجمة كان لها اثر كبير في ادخال الفلسفة اليونانية الى الفكر الاسلامي.

ولكن بعض المستشرقين مثل «فون كريمر»، «نولدكه» «غبّ»، «غولدزهير» و«جوليان بالدك» اجتهدوا في التدليل واثبات نظرية المصدر المسيحي وتغلغله في نشأة التصوف الاسلامي. ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «ان هؤلاء المستشرقين استمدوا الدلائل التي يستندون اليها من:

١ – التشابه في بعض المظاهر، مثل استعمال الخرقة في مقابل ما تستعمله رهبان النصارى.

٢ – التشابه في بعض الأفكار والمواضيع مثل، محاسبة النفس.

(٧٨) كتاب الصوفية في نظر الاسلام، ص ٤٠ .

٣ – التشابه في استعمال بعض الكلمات السريانية والارامية مثل: لاهوت، ناسوت، رحموت، رهبوت، رباني وروحاني ونحوها.
٤ – اختلاط المسلمين بالنصارى العرب في مناطق عديدة قبل الاسلام، في الحيرة، الكوفة، دمشق ونجران. وبعد الدعوة الاسلامية في مناطق عديدة.
٥ – ما يرويه الصوفية الاوائل من اقوال ينسبونها الى المسيح عليه السلام»[٧٩].

اما المستشرق «جولدزهير» فيقول: «لا رهبانية في الاسلام بالمعنى المسيحي، وان النبي نهى عن المبالغة والتجاوز في الزهد وترك الدنيا بالكلية». ثم يقول: «ومن الحق ان كثيراً ما يصادفنا في وثائق الفكر الديني دلائل الاستنكار الصريح غير الخفي للزهد المتجاوز للحد المألوف لما تتطلبه أحكام الشريعة». ثم أشار الى الحديث الشريف. «لكل نبي رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله»[٨٠] يجب الاّ يغرب عن بالنا ان «جولدزهير» ينتقد الزهد والرهبانية في المسيحية كونه يهودياً.

والمستشرق الانجليزي «رينولد نيكلسون» يقول عن الرهبان المسيحيين: «والرهبان المسيحيون كثيراً ما يظهرون في مقام المعلمين ويولون النصح والتسديد لزهاد المسلمين المتنقلين، وقد رأينا ان ثوب الصوف – الذي منه جاء الصوفي – مسيحي الأصل، ونذور الصوم عن الكلام، والذكر، ورياضات الزهد، لعلها ترد الى هذا الأصل نفسه، وكذلك فيما يتصل بمذهب الحب الالهي». وثم يقول: «من الجلي ان ميول الزهد والتأمل التي أشرت اليها، كانت على وفاق مع الفكرة المسيحية ومنها استمدت اسباب قوتها. فكثير من نصوص الانجيل، ومن الأقوال المنسوبة للمسيح مقتبس في أقدم تراجم الصوفية»[٨١].

اما المستشرق «ديلاسي اوليري» فينهي هذا الجدل بقوله انه مليء بأوهام ملفقة وادعاءات لا تمت الى الحقيقة بصلة. وان احد الأمور الذي يبرهن على التحيز في

(٧٩) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، ص ٣٣ و ٣٤ .
(٨٠) كتاب العقيدة والشريعة في الاسلام، ص ١٢٩ .
(٨١) كتاب The Mystics of Islam, p. 12 ترجمة مشربية.

دراسة المستشرقين، والذي اخشى ان يكون قد فعله عدد غير قليل منهم، هو ان كل ما يتصورونه امراً حسناً في الاسلام يرجعونه الى مصدر أجنبي، ويجب عندهم ان يلتمسوا له اصلاً، او آخر غير اسلامي. وليست توجد صورة غير امينة للبحث العلمي اكثر سوءاً من هذا التعصب الطائفي الاعمى»[٨٢].

ومن المسلم به ان الصوفيين اطلعوا على احوال الرهبان وتقاليدهم وطرق معيشتهم وافكارهم اللاهوتية وتصرفهم الحياتي في الصوامع والأديرة ولكن «لا رهبانية في الاسلام» لأن الرهبانية تعد من البدع اليهودية، وقد نزل في القرآن الكريم: «يا أيها الذين آمنوا ان كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالبطل ويصدون عن سبيل الله، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم»[٨٣].

وقد ورد في القرآن الكريم آيات عن الرهبان والرهبانية لم يعن الله بها الذم والتقريع، بل انتقاداً للذين ابتدعوا الرهبانية على أنهم ما رعوها حق رعايتها، بل اضافوا لها الاتحاد والحلول والتثليث، وهذه احدثوها من عند انفسهم وقالوا بها ونذروها على اصحاب المذهب حتى انهم فرضوها عليهم بفعل الايمان المغلق.

- سورة المائدة، آية ٨٢ . «لتجدن اشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا، قالوا إنّا نصارى ذلك بانَّ منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون».
- سورة الحديد، آية ٢٧ . «ثم قفّينا على أثرهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتينٰه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها وما كتبناها عليهم الاّ ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم وكثير منهم فسقون».

ثم كان اجتماع «المباهلة» عام ١٠ هجري. وبعد ان تراجع عن «المباهلة» وفد

(٨٢) كتاب الفكر العربي ومكانه في التاريخ (مقدمة) ص ٣٣ ترجمة الدكتور تمام حسان.
(٨٣) سورة التوبة، آية ٣٤ .

نصارى نجران، عقد اتفاق برضا الفريقين على ان يدفع النصارى جزية سنوية ويكون لهم الحق في ممارسة جميع طقوسهم الدينية كما يشاءون دون تدخل المسلمين في شؤونهم[٨٤].

ويقول ابو علي الفارسي المعتزلي: «وهم يقولون ما كان مخلوقاً لله لا يكون مخلوقاً للعبد. فالرأفة والرحمة من خلق الله والرهبانية من ابتداع الانسان فهي مخلوقة له».

اما قول الرسول الكريم: «لا رهبانية في الاسلام عليكم بالجهاد» فقد اورد هذه الصفة المشهورة ابن الأثير فيقول: «هي من رهبنة النصارى، واصلها من الرهبة، الخوف. كانوا يترهبون بالتخلي من أشغال الدنيا وترك ملاذها والزهد فيها والعزلة عن أهلها وتعمد مشاقها. فنفاها النبي عن الاسلام ونهى المسلمين عنها، حين قال: «عليكم بالجهاد فانه رهبانية امتي»[٨٥].

الواقع ان المسلمين استعملوا لقب راهب على من اشتهر بشدة التقوى «وأويس القرني» الصحابي الكبير كان يطلق عليه لقب «راهب الأمة» والمردار احد كبار شيوخ المعتزلة، كان يسمى «راهب المعتزلة» وابو بكر المخزومي (المتوفى عام ٩٤هـ) كان يلقب «راهب قريش» والدارامي «المتوفى عام ٢٤٣» كان يلقب «راهب الكوفة»[٨٦].

(٨٤) ثم كان التشريع الذي اصدره عمر بن الخطاب وهو اول تشريع من نوعه، يحظر عليهم بناء الكنائس والبيع الجديدة، وان لا يرفعوا الصلبان فوق الكنائس او يظهروا كتبهم المقدسة في الطرق العامة او يرفعوا اصواتهم بالترتيل في الكنائس والا يحاولوا تنصير مسلم ويحولوا دون اسلام نصراني والا يحملوا السلاح او يستعملوا السروج او يسترقوا مسلما وان يتخذوا لأنفسهم ازياء خاصة. بيد ان هذا التشريع لم يكن يحمل طابع المطاردة الدينية انما كان يقصد به تنظيم الحقوق والواجبات وتحديدها في حدود سياسة التسامح العامة، كتاب الحاكم بامر الله، محمد عبدالله عنان، ص ١٤٥ . ان هذا التشريع لم يطبق الا في حالة الحرب او الفتن. ثم يجب ان لا ننسى ان عمر بن الخطاب هو الذي اعاد بناء كنيسة القيامة في القدس وجلب لها افخم الأثاث واقطع لها املاكاً كثيرة.

(٨٥) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ١٠٥ .

(٨٦) المصدر نفسه، ص ١٠٤ .

التأثير المسيحي على التصوف الاسلامي برز في الدعوة الى المحبة التي اخذها الصوفيون عن المسيحية فقد كانت ابرز التعاليم التي نادى بها السيد المسيح، الحب الالهي، وهو مذهب رابعة العدوية وابو يزيد البسطامي.

تاثير الفكر الفارسي على الفلسفة الاسلامية، وخاصة الصوفية، كان قليل الأهمية، ولكن لم يمنع بعض المستشرقين مثل الألماني «ثورلك» والهولندي «دوزي» «وفردريك داتش»، «ورينان» «وبول دلاجارد» من القول ان التصوف ظهر في فارس منذ احقاب بعيدة، وان فكرة – صدور كل شيء عن الله، ورجوع كل شيء الى الله، وان الموجود بحق هو الله – هي فلسفة فارسية ترجع الى زمن ما قبل الاسلام.

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «نظرة هؤلاء الى العقلية السامية عموماً – والعربية خصوصاً – على انها فقيرة في الخيال وادراك الحقائق والدقائق الروحية، ومن ثم كانت عاجزة عن ابداع فكر روحي ومنهج تنسكي مثل هذا التصوف، فقاموا بارجاع التصوف الاسلامي الى رد فعل عنصري ولغوي وقومي من جانب الشعوب الآرية المقهورة التي غلب عليها سلطان العرب المسلمين، وكلهم يعتنقون فكرة سمو الآرية على السامية ويفسرون بالعقلية الآرية كما تصوروها، كثيراً من الظواهر الحضارية والفكرية والعقائدية في تاريخ الاسلام»[٨٧].

والدكتور طلعت غنام يقول: «على ان هناك شبها» قوياً بين بعض العقائد والنزعات الفارسية القديمة وبعض التعاليم والمذاهب الصوفية الاسلامية، يشبه الى حد كبير، الزهد والرهبنة في الديانة «المانوية»، كما يشبه الزهد والقناعة والنهي عن ذبح الحيوان في الديانة «المزدكية»، ويشبه عقائد الشيعة في حق الملك الالهي وفي حلول الله في الامام»[٨٨].

شاعت هذه العقائد فيما شاع بين المسلمين من تراث الفرس القديم على يد من أسلم من الفرس بعد ان تفتحت الدولة الاسلامية وامتدت اطرافها في كل مكان وكان من اهم اطرافها تلك البلاد الفارسية[٨٩].

(٨٧) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، ص ٢١ و ٣٢ .

(٨٨) كتاب اضواء على التصوف، ص ٧٩ .

(٨٩) كتاب القيم الروحية، مصطفى حلمي، ص ٤٣ .

يقول بعض المستشرقين ان معظم مشايخ التصوف الكبار كانوا من الفرس، كابراهيم بن ادهم، معروف الكرخي، شقيق البلخي، حاتم الأصم، سهل التستري ابو يزيد البسطامي، ابو القاسم الجنيد، الحكيم الترمذي، ابو عبدالله الحلاّج، ابو حامد محمد الغزالي وشهاب الدين السهرودي، ولم يكن من العرب الاّ ذو النون المصري، رابعة العدوية، محي الدين العربي، ابو سليمان الداراني الدمشقي وابن الفارض والفضل بن عيّاض بن بشر التميمي. بالرغم من ان معظم مشايخ المتصوفة كان من اصل فارسي فان تأثير الفكر الفارسي لم يتعدّ النهج المسلكي الحياتي للمتصوف.

والمؤرخ احمد الشرباصي يقول: «كما ان هناك من يقول ان البيئة الفارسية كان لها تاثير في التصوف الاسلامي، ويستدل على ذلك بوجود الفاظ فارسية في المصطلحات الصوفية مثل: «قلندر» بمعنى الفاني في الله تعالى او غير المهتم بالدنيا و«صاحبذان» بمعنى المتدين المتيقن و «خرق يوشان» بمعنى لابس الثوب الخاص بالدراويش و «الكشكول» بمعنى المتسول»(٩٠).

بالنسبة لما يعانيه بعض اصحاب المذاهب الاسلامية من ورود الرموز والايحاءات والتفسير الباطني الذي يستوجب التفسير من مراجع مطلعة على خفايا العقيدة، كالنصيرية (العلويين) وغلاة الاسماعيلية، خصوصاً البهرة الهنود، يصبح من المستحسن الاشارة الى ما قاله العالم والمفكر الصوفي المشهور العارف ابو القاسم عبد الكريم القشيري النيسابوري في كتابه «الرسالة القشيرية في علم التصوف» الذي يعتبر من اهم المراجع عن الفكر الصوفي. يقول القشيري: «لا حاجة للصوفي في ان يستعمل اساليب الثورية في تعابيره او ان يستر معانيه عن احد، لأنه اذا كان يتكلم حقاً فهذا ما لا يعترض عليه احد من اهل العرفان او الفقه، لذلك لا يحق لنا ان نقول ان كلامنا هذا موقوف فهمه على اهل ملتنا وممنوع سماعه الاّ على أهل ملتنا. اذن العلم والمعرفة يجب ان يكونا للجميع وغير محصور بفئة دون اخرى، فالبشر جميعهم من مخلوقات الله تعالى، والمولى، عز وجل، يسبغ حكمته على جميع خلقه ولا يجوز لفئة ان تغمط حق فئة اخرى من حكمة الله تعالى.

(٩٠) كتاب الغزالي في التصوف الاسلامي، ص ١٥١ .

اهل الزهد التقليدي الاسلامي وطلائع التصوف

يقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان: «فاول من اطلق عليهم اسم الصوفية، كانوا جماعة من الشيعة الروحانيين من اهل الكوفة في اوائل القرنين الثاني والثالث للهجرة[1]. واما ابو القاسم عبد الكريم القشيري النيسابوري فيقول: «اول من حمل اسم «صوفي» كان ابو هاشم الكوفي الذي عاش في القرن الثاني للهجرة[2]. وقاضي القضاة عبد الجبّار الهمذاني يروي: «اول من لقّب بالصوفي كان عبدك الصوفي (توفي في بغداد عام ٢١٠هـ). ولُقب اهل الكوفة بالصوفية.

واما الدكتور عبد الرحمن بدوي فقال: «لكن هذه كلها اقوال المتأخرين عن القرن الثاني، وليست لدينا روايات كتابية وثيقة من القرنين الأول والثاني ورد فيها اسم «الصوفي»، ولعل اقدم ما وصلنا من مؤلفات ذكرت: اسم «الصوفي» والصوفية هو كتاب «البيان والتبيين للجاحظ»[3] (المتوفى عام ٢٥٠هـ) اذ يذكر الصوفية من النّساك ويورد اسماء من عرف بالفصاحة منهم[4].

ان الاوائل الذين استمدوا القيم الروحية والخلقية في الاسلام، ولكن لم ينخرطوا في عالم التصوف بآفاقه الروحية ومعانيه الذوقية وسلوكه، بل غلب عليهم الزهد التقليدي الاسلامي والتقشف الصادق والعبادة فكانوا متصوفة في مسلكهم الحياتي ولكن خارج التصوف الفلسفي الاسلامي، منهم ابو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عبيدة عامر بن الجرّاح، عبدالله بن مسعود، ابو الدرداء عويمر الانصاري، عبدالله بن عمر بن الخطّاب، سلمان الفارسي، عمّار بن ياسر، حذيفة بن اليمان، صهيب الرومي وغيرهم من صحابة الرسول الكريم.

(١) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ٢٨٤ .
(٢) كتاب الرسالة القشيرية، طبع القاهرة، ص ١٩ .
(٣) كتاب البيان والتبيين، القاهرة، مجلد ١، ص ١٣٨ .
(٤) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، ص ٨ .

يختلف الزهد عن التصوف، فالزهد هو الرضى بالقليل وزجر الرغبة عن اقتناء ما تطلبه النفس من تبهرج الحياة واغرائها، والقناعة والرضى بالقليل وتحريم النفس عمّا حرّمه الله عز وجل. اما التصوف فهو الانصراف الكلي الى عبادة الله تعالى والانقطاع عن الدنيا والاستغراق والذوبان في العالم الروحاني والطلب الدائم لرضى المولى والفناء في حبه.

اما في المرحلة التي امتدت بين الزهد التقليدي الاسلامي والتصوف، فقد يبرز فيها العالم الحسن البصري ومالك بن دينار ومحمد بن سيرين بن محمد، ابراهيم النخعي، سعيد بن جبير، فرقد السبخي، عبد الواحد بن زيد ومحمد بن واسع(٥) وغيرهم، فهولاء كانوا من الزّهاد الورعين الصادقين ولكن لم يتعدّ سلوكهم هذه المرحلة من العبادة والتقشف.

١ - الحسن البصري.

قال عنه المؤرخ احمد بن يحيى بن المرتضى: «هو سيد التابعين ومحله من الفضل والعلم ودعاء الناس الى الدين مشهور»(٦) اما ابن سعد فيقول: «كان الحسن جامعاً عالماً عالياً رفيعاً فقيها ثقة مأمونا عابداً ناسكاً. كبير العلم، فصيحاً جميلاً وسيماً»(٧).

كان لحسن البصري حلقة في مسجد البصرة يؤمها المريدون من طلاّب العلم والمعرفة منهم: واصل بن عطاء منشئ الاعتزال، وعمر بن عبيد، ايوب السختياني وفرقد السبخي وغيرهم.

ولد الحسن البصري في المدينة عام ٢١ هجري وابوه فارسي من بلدة «ميسان» وكان مولى لعمة الامام مالك بن انس التي اعتقته. اما امه، وكان اسمها «خيّرة»،

(٥) راجع كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، الدكتور عبد الرحمن بدوي.

(٦) كتاب طبقات المعتزلة، ص ١٨ .

(٧) المصدر نفسه، مجلد ٧، ص ١٥٧ .

فكانت مولاة لأم سلمة زوجة النبي[8]. توفي الحسن عام ١٠٨هـ وكان عمره سبعاً وثمانين سنة.

كان الحسن البصري يقول: «كل شيء بقضاء الله وقدره الاّ المعاصي». وكان يحدد خصائص اهل التقوى فيقول: «ان لأهل التقوى علامات يعرفون بها: صدق الحديث. والوفاء للعهد، وصلة الرّحم، ورحمة الضعفاء وقلة الفخر والخيلاء، وبذل المعروف، وقلة المباهاة للناس وحسن الخلق، وسعة الخلق مما يقرّب الى الله عز وجل»[9].

والحسن البصري، صاحب الرسالة المشهورة في الجبرية والقدرية اي الاختيار بعثها الى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان يقول بها عن الجبرية، العقيدة التي كان ينادي بها الأمويون لتبرير اغتصابهم الحكم من آل البيت وتبذيرهم أموال المسلمين والتي تنص على ان الانسان لا خيار له في أعماله فهو مجبر عليها من الله تعالى: «لما كان لمتقدم حمد فيما عمل، ولا متأخر لوم، ولقال تعالى، جزاء بما عملت بهم، ولم يقل جزاء بما كانوا يعملون»[10]. ومن قوله: «يا ابن آدم بع الدنيا بآخرتك تربحها جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرها جميعاً، الثواء هنا قليل والبقاء هناك طويل»[11].

واشتهر الحسن البصري بالرسائل العديدة، التي كانت تعد نموذجاً عالياً في البلاغة والحكم، التي كتبها الىالخليفة الأموي الزاهد عمر بن عبد العزيز، وقد اورد قسماً كبيراً منها ابن الجوزي في كتابه – سيرة عمر بن عبد العزيز.

---

(٨) ام سلمة زوجة الرسول هي ابنة ابي امية بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم. بعد مقتل زوجها ابي سلمة بن عبد الأسد تزوجها النبي محمد. يقال ان عندما ضرب عبيد الخليفة عثمان ابن عفان عمّار بن ياسر اخذت عمار الى بيتها واهتمت به ثم قدمت الى عثمان وانبته واسمعته قوارص الكلام امام جمع كثير من الناس حتى اضطر عثمان ان ينكر معرفته بالحادث ليعتذر من عمار ابن ياسر.

(٩) كتاب تاريخ التصوّف الاسلامي، عبد الرحمن بدوي.

(١٠) من الآيات الجبرية في القرآن الكريم.

(١١) كتاب البيان والتبيين، الجاحظ، مجلد ١، ص ٣٠٤ .

٢ - اويس بن عامر القرني. (اويس القرني).

زاهد تقليدي عاش في عهد الرسول الكريم (توفي عام ٣٧هـ) وتحوك سيرته وأخبار زهده الأساطير. كتب عنه ابن سعد[١٢] وابو نعيم الاصفهاني[١٣] كان ينتسب الى بني مراد من اليمن. كان شديد الفقر والزهد عاش معظم حياته في الكوفة، كان يتصدق بثيابه وما يتصدق عليه الناس من الأموال، وهو قليل جداً، الى الفقراء والمحتاجين وكان يردد «اللهم اني اعتذر اليك من كل كبد جائعة فانه ليس في بيتي من الطعام الا ما في جوفي». ومن اقواله: «طلبت الرفعة فوجدتها في التواضع، وطلبت الفخر فوجدته في الفقر، وطلبت اطمئنان النفس والسكينة فوجدتهما في التقوى، وطلبت الشرف فوجدته في القناعة، وطلبت الراحة فوجدتها في الزهد». قتل في معركة «صفين» وكان يحارب مع الامام علي بن ابي طالب، وقيل انه كان من اصدقاء الصحابي عمّار بن ياسر.

٣ - مالك بن دينار.

«كان مولى لامرأة من بني سامة بن لؤي، يكنى بأبي يحيى. كان ثقة قليل الحديث وكان يكتب المصاحف. مات قبل الطاعون بيسير، وكان الطاعون سنة احدى وثلاثين ومائة»[١٤].

كان مالك بن دينار واسع الاطلاع بالكتاب المقدس بقسميه العهد القديم والعهد الجديد. وكان زهد مالك قريبا من التصوف، ولهذا يمكن ان يعد حلقة وسطى بين الزهد التقليدي الاسلامي، لما يمثله استاذه حسن البصري، وبين التصوف، كما يظهر عند رابعة العدوية ومعروف الكرخي[١٥].

---

(١٢) كتاب طبقات المعتزلة، مجلد ٦، ص ١٦١ .

(١٣) كتاب حلية الاولياء، مجلد ١، ص ٧٩ .

(١٤) كتاب «طبقات» ابن سعد، مجلد ٧، ص ٢٤٣ .

(١٥) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، عبد الرحمن بدوي، ص ١٩٨ .

كان مالك يدعو الى عدم الزواج والابتعاد عن النساء. ولما قيل له: «الا تتزوج؟» فقال: «لو استطعت لطلقت نفسي»[١٦]. يمثل مالك بن دينار مرحلة الزهد التقليدي التي بلغت اوجها عند استاذه الحسن البصري ومرحلة التصوف التي ستبدأها رابعة العدوية. ومن الأقوال التي نسبت اليه: «الزهد في الدنيا ثلاثة اشياء. احبها الى الله، واعلاها عند الله واعظمها ثواباً عند الله تعالى. «الزهد في عبادة من عبد دون الله من صنم ووثن، ثم الزهد فيما حرّم الله تعالى من الأخذ والاعطاء، والزهد في حلال الله عز وجل».

٤ - ابو هاشم الكوفي.

يقول عبد الكريم القشيري (الرسالة القشيرية ص ١٩) والمستشرق الانجليزي نيكلسون (التصوف الاسلامي) كان ابو هاشم الكوفي اول من لقب بالصوفي واول شخصية صوفية في بغداد. انتقل ابو هاشم الكوفي من الكوفة الى بغداد عند ازدهار التصوف في الفترة الكلاسكية التي شهدت انتقال التصوف الى مذهب متكامل يعززه العلم والمعرفة وليس تقشفا وانفعالات نفسية فرضتها عوامل اقتصادية واجتماعية في اول حقبة من بناء بغداد[١٧] حين اصبحت بغداد مركزاً لجذب العديد من العلماء والشعراء والفلاسفة الذين رأوا في بغداد كعبة العلم. وهذه الشهرة في العلوم كانت الاغراء الكبير للمتصوفة في القدوم الى بغداد عاصمة الدولة الاسلامية الناشئة حيث كان الدين المنفتح على الجميع مسيطراً، وليست العنصرية العربية كما كانت في عهد الخلافة العربية الدموية في ذلك الوقت.

(١٦) كتاب حلية الاولياء، ابو نعيم الاصفهاني، ص ٣٦٥ .

(١٧) عندما استلم العباسيون الخلافة الاسلامية عام ١٣٢هـ، بعد معركة الزاب، جعل الخليفة الاول السفاح ابو العباس عبدالله بن محمد (١٣٢ - ١٣٦هـ) مدينة الكوفة مركزاً للخلافة وبنى مدينة «الهاشمية» عاصمة له في مكان يقابل قصر بن هبيرة (يزيد بن هبيرة إخذ الولاة الامويين من العراق فبنى هذا القصر) فكانت الهاشمية العاصمة الادارية للعباسيين. ولكن الخليفة الثاني العباسي المنصور عبدالله بن محمد (١٣٦ - ١٥٨هـ) لم يمكث طويلاً في الهاشمية حتى بنى بغداد عام ١٤٥هـ.

قدم الزاهد ابو هاشم الى بغداد. ان غموض المعلومات التاريخية من ذلك الوقت لم يسمح بالحصول على تاريخ ولادته ولكن يقال انه توفي في النصف الأول من القرن الثاني الهجري.

٥ - ايوب السختياني.

هو ايوب بن ابي تميمة السختياني ويكنّى بأبي بكر، وكان مولى لعثرة، احدى القبائل التي لا تزال قوية حتى اليوم في نجد. وولد ايوب سنة ٦٨هـ ومات بالطاعون سنة احدى وثلاثين ومائة، وهو يومئذ ابن ثلاث وستين سنة. كان ايوب ثقة في الحديث، جامعاً، عدلاً، ورعاً، كثير العلم، حجةً[١٨]. قال عنه الحسن البصري: «هذا سيد الفتيان»[١٩].

٦ - فرقد السبخي.

ابو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخي، تلميذ الحسن البصري. قال عنه السمعاني: «السبخي من ثقات التابعين، يروى عن حفص بن عاصم، روى عنه مالك بن أنس وحسبه شرفاً ان يروى عنه مالك، اذ كان لا يروى الا عن الثقات العلماء الحفاظ»[٢٠]. توفي في أيام الطاعون عام ١٣١هـ.
كان فرقد على صلة بالرهبان ورجال الدين النصارى واليهود وكان يسند اليهم معظم حديثه ويعتمد على اقوالهم اللاهوتية حتى قيل ان كان له صلة وثيقة بالتراث المسيحي واليهودي.

٧ - عبد الواحد بن زيد.

من تلاميذ الحسن البصري عرف بالافراط في البكاء وكثرة التنقل والسفر. قال

(١٨) كتاب طبقات ابن سعد، مجلد ٧، ص ٢٥١ و ٢٤٦ .
(١٩) المصدر نفسه، ص ٢٤٧ .
(٢٠) كتاب الانساب، ص ٣١٣ .

الحارث بن عبيد: «كان عبد الواحد بن زيد يجلس الى جنبي عند مالك بن دينار، فكنت لا أفهم كثيراً من موعظة مالك لكثرة بكاء عبد الواحد»[٢١].

كان عبد الواحد اول من قال عن فكرة المحبة بين العبد والله تعالى ومن ذلك قوله: «ما احب شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر الاّ الرضا، ولا اعلم درجة ارفع ولا اشرف من الرضا، وهي رأس المحبة».

٨ – محمد بن واسع.

ابو بكر محمد بن واسع بن جابر الازدي (توفي عام ١٢٣هـ) وكان تلميذ الحسن البصري. كان عالماً فقيها وكان يبكي لدى سماعه القرآن وكلما تفكر في الآخرة، كان يقول: «من زهد في الدنيا فهو مالك الدنيا والآخرة». عندما سئل، لماذا يلبس الصوف، قال: «اكره ان اقول «زاهد» فازكي نفسي، او اقول فقير فأشكو ربي عز وجل».

٩ – ابراهيم بن ادهم.

ابراهيم بن ادهم بن منصور بن يزيد بن جابر التميمي العجلي وكنيته ابو اسحق، عربي من بني عجل بن بكر بن وائل وكانت اسرته تسكن الكوفة ثم انتقلت الى بلخ في خراسان واستقرت هناك[٢٢].

قيل عن حياة ابراهيم بن ادهم روايات كثيرة بمختلف اللغات في بلاد الاسلام، وحيكت عن سيرته اساطير عديدة فقيل، كان ابن ابناء ملوك خراسان وان حياته تشبه حياة «جوتاما بوذا» مؤسس الديانة البوذية الهندية، وانه اشترك في غزوات المسلمين ضد البيزنطيين[٢٣] ثم كانت اسفاره العديدة في بلاد الشام حيث أقام في

(٢١) كتاب حلية الاولياء، ابو نعيم الاصفهاني، مجلد ٦، ص ١٥٩ .

(٢٢) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، عبد الرحمن بدوي، ص ٣٢١ .

(٢٣) قال المؤرخ احمد بن بكار: «غزا معنا ابراهيم بن ادهم غزوتين، كل واحدة اشد من الاخرى. غزوة «عباس الانطاكي» وغزوة «محكاف»، فلم يأخذ سهما ولا نفلاً وكان لا يأكل من متاع الروم.

الشام اربعاً وعشرين سنة. ثم الاسطورة الغريبة عن ارتحاله للصيد حيث جاءه نذير من الله تعالى فترك حياة الترف والعز واللهو واتبع التقشف والزهد والمجاهدة وهجر الراحة الى الجهاد في سبيل الله عز وجل[٢٤].

كتب بعض المستشرقين عن سيرة ابراهيم ابن آدم، منهم: «جولد زهير»، «ت. دوكا»، نيكلسون ولويس ماسينيون الفرنسي، الذي اطلق عليه لقب «الامير الشحاذ من بلخ» كما كتب عنه العديد من مفكري الفرس والترك. قال ابراهيم ابن ادهم في الزهد. «الزهد ثلاثة اصناف. فزهد فرض، وزهد فضل وزهد سلامة. فالفرض، الزهد في الحرام، والفضل، الزهد في الحلال والسلامة الزهد في الشبهات»[٢٥].

ثم من قوله: «اللهم انك تعلم ان الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة اذ انت انستني بذكرك ورزقتني حبك وسهلت علي طاعتك، فاعط الجنة لمن شئت»[٢٦].

ومن قوله: «اللهم اني ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي، انه لا يغفر الذنوب الاّ انت، واهدني لأحسن الأخلاق، فانه لا يهدي لأحسنها الاّ انت، واصرف عني سيئها فانه لا يعرف سيئها الاّ انت[٢٧].

قال ابن عساكر: «مات ابراهيم ابن ادهم سنة اثنتين وستين ومائة ومات في احدى الغزوات ضد الروم ودفن في حصن يدعى «سواكين». وفي اشهر الروايات انتشاراً انه دفن في بلدة «جبلة» بالقرب من اللاذقية في بلاد الشام.

١٠ - شقيق البلخي.

هو شقيق بن ابراهيم البلخي من اهل بلخ من خراسان، تلقى الزهد والتقشف عن ابراهيم ابن ادهم.

---

(٢٤) يقول المؤرخ السلّمي: «هذا النذير كان من «الخضر» عليه السلام».

(٢٥) كتاب حلية الاولياء، ابو نعيم الاصفهاني، مجلد ٨، ص ٢٠٦ .

(٢٦) كتاب حلية الاولياء، ابو نعيم الاصفهاني، مجلد ٨، ص ٢٥ .

(٢٧) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، عبد الرحمن بدوي، ص ٢٣٨ .

كانت طريقة شقيق البلخي تقوم اولاً على التوحيد ثم التوكل على الله تعالى. ومن قوله: «ان توحد الله تعالى بقلبك ولسانك وعملك، فاذا وحدته بقلبك من لا اله غيره ولا نافع ولا ضار غيره، فليس لك يد من ان تجعل عملك كله لله لا لغيره». ثم التوكل على الله هو ثاني اركان طريقة شقيق البلخي «ومعنى التوكل هو من يطمئن قلبك بموعود الله، ومعناه ان ترضى بما قضى الله تعالى فهو القادر والرازق وهو كل شيء»: من تلاميذ شقيق البلخي كان حاتم الاصم.

قتل شقيق البلخي في معركة «كولان» في بلاد الترك عام ١٩٤هـ[٢٨].

١١ - بشر الحافي.

يقول ابو نعيم الاصفهاني: «ومنهم من حباه الحق بجزيل الفوائح، وحماه عن بديل الفوائح، ابو نصر بشر بن الحارث الحافي، المكتفي بكفاية الكافي، اكتفى فاشتفى»[٢٩].

ابو نصر بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي، وكنيته «الحافي». ولد ابو نصر عام ١٥٠هـ في بلدة «مرو» من فارس وتوفي عام ٢٢٧هـ في بغداد حيث عاش معظم حياته فأعتبر من الزهاد التقليديين العراقيين.

كان بشر الحافي ينادي بالابتعاد عن الزواج ويكتفي بعبادة الله تعالى وايمانه المطلق به وتوكله التام عليه عز وجل.

وفي رسالته المشهورة الى ابي الحسن علي بن خشرام، تأكيد واضح لزهده وتقواه، وهي مشبعة بالحكمة الصوفية وبها يقول: «ان محور الايمان والتضرع لله وعدم الاستيلاء بالشهرة وباغرار الدنيا التي قد تنسي النور الالهي. وارى الفضل اليوم ما هو الاّ في العزلة»[٣٠].

---

(٢٨) كتاب الكامل في التاريخ، ابن الاثير، مجلد ٦، ص ٩٥ .

(٢٩) كتاب حلية الاولياء، مجلد ٨ .

(٣٠) توجد نسخة كاملة من هذه الرسالة في حاشية كتاب «متصوفة بغداد». عزيز السيد جاسم، ص١٠٠ - ١٠٢ .

وكان بشر الحافي يؤمن «ان العلم اساس المعرفة، والمعرفة العقلانية نعمة المولى على عباده فنجده يقول العلم اذا لم يعمل به فتركه افضل، العلم هو العمل، واذا اطعت الله علمك، واذا عصيته لم يعلمك، والعلم اداة الأنبياء الى احتجابهم، وهو امكانات الانسان في التقوى والاتقاء من الشر والباطل. ولا يجوز استخدام العلم لغرض الدنيا وارضاء الملوك ونيل الجاه والثروة» ومن اقواله: «يأتي على الناس زمان لا تقر فيه عين حكيم، يأتي زمان يكون الأمر فيه للحمقى على الأكياس».

١٢ - الفضل بن عيّاض.

الفضل بن عيّاض بن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي، وكنيته ابو علي. قيل ولد في مدينة سمرقند عام ١٠٥هـ وتوفي في مكة عام ١٨٧هـ وكان عمره اثنين وثمانين سنة.

كان الفضل من اصحاب المجون واللهو ولكن، كما حصل لابراهيم ابن ادهم، سمع نذيراً «الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله؟.» فتاب الفضل الى ربه حتى قيل عنه «ما بقي على ظهر الارض افضل من الفضل بن عيّاض».

كان الفضل بن عياض يميل الى آل البيت، وقال عنه الذهبي: «يقال فيه يسير تشيع»(٣١).

الواضح من سيرة هؤلاء الزهّاد التقليديين المسلمين الذين عاشوا في القرن الثاني الهجري، والمعروفين باسم «طلائع المتصوفة» ان التصوف لم يبرز كفكرة فلسفية، او نظريات عميقة في علاقة الله مع الانسان، الاّ بعد نهاية هذا القرن. قبل ذلك الوقت، لا نجد عند أهل الزهد التقليدي مذاهب كاملة، ولا مراتب منتظمة للعالم الروحي بل نظريات عميقة ومسالك حياتية، وتقوى خالية من التهاويل اللفظية التي انتشرت وسادت في القرن الثالث والرابع بعد انتشار التصوف الاسلامي الفلسفي.

انتشر الزهد التقليدي الاسلامي في القرن الثاني في الثالوث العراقي. البصرة التي تأثرت بنظريات المعتزلة، الكوفة التي كانت مصدر انتفاضات سياسية ودينية

---

(٣١) كتاب الشذرات، مجلد ١، ص ١٨٩ .

ومعقل آل البيت ومركز المعارضة الاساسي للأمويين وثم العباسيين، وبغداد التي كانت المحج والمحط لكل عالم، واديب وفقيه وسياسي، حتى اصبحت مؤهلة لان تكون العاصمة بالمنظور العربي والاسلامي.

عند نهاية القرن الثاني الهجري، اصبح الزهد التقليدي الاسلامي على تخوم التصوف واصبح اطلاق لقب «طلائع المتصوفة» على اهل الزهد حقيقة ظاهرة، اذ اخذ شكلها الديني ينحسر عن مضمونها الفلسفي العلمي، فبرز «الحب الالهي» «المشاهدة»، والمعرفة المباشرة، ثم وحدة الوجود والاتحاد والحلول فقال بهم اهل التصوف وقبلت بهم العامة.

الصوفيّة بعد القرن الثاني هجري

قامت الدولة العباسية نتيجة لثورة قام بها بعض العناصر العلوية (اتباع آل البيت) بمساندة عناصر سياسية فارسية، وكان سبب الثورة، الصراع العباسي / العلوي الأموي والحقد العنصري الفارسي على التعصب العربي العنصري الأموي.

فتحت الدولة العباسية الاسلامية الباب امام التيارات الفكرية والعقائدية، ولا سيما الفارسية منها، فكانت الحصيلة المحتومة مواجهة بين الثقافة العربية التي نمت وتطورت مع الاسلام وبنيت على أساس تعاليمه في الشريعة والعقيدة، وبين الثقافة الفارسية القديمة بمالها من عقائد ومذاهب وفلسفات.

اما الحركة الصوفية في ذلك الوقت، اي نهاية القرن الثاني والقرنين الثالث والرابع، فيقول المؤرخ المصري المعروف الدكتور عبد الرحمن بدوي: «ذلك ان التصوف الاسلامي منذ رابعة العدوية في الثلث الثاني من القرن الثاني للهجرة قد قام على أساس منهج استبطان كامل للنفس في علاقتها بالله، وعلى أساس محاولة اتحاد بالمطلق او على الاقل ايجاد صلة خُلة به وعشق له تسمح، اذا ما تعالت، بالاتحاد بالذات»[1].

وفي ذلك الوقت انطلقت الصوفية الى الاتحاد والحلول ووحدة الوجود والمشاهدة وفكرة العشق الالهي وكانت المعرفة عندهم تسمى الوجدان او الذوق او العيان وهي مباشرة بغير وسائط او براهين، انها معرفة فوق عقلية، لا يحوزها الاّ من سلك سبيل التصوف وألهم المعرفة المباشرة. ورفضوا ربط علاقة الانسان بالله بالشريعة كما رفضوا وساطة الوحي وحتى النبوة، وقالوا انها الكشف بطريق المشاهدة الباطنية القلبية وبذلك الغيت فكرة الانفصال المطلق بين الله والانسان.

---

(١) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، ص ١٩ .

١ - رابعة العدوية.

الاّ ان من ترك بصمات بارزة في الصوفية الاسلامية كانت رابعة العدوية، وان لم تكن من المفكرين او الفلاسفة، الا ان تفانيها في محبة الله وزهدها، اكسبها موقعاً بارزاً مرموقاً بين المتصوفة على صعيد المسلك الحياتي اكثر منه على الصعيد الفكري.

«هي بنت اسماعيل العدوية وكنيتها ام الخير، من آل عتبك من بطون قيس. ولدت في القرن الثاني هجري وتوفيت في البصرة عام ١٨٥ هجري، سميت رابعة لأنها ولدت بعد ثلاث بنات لابيها. ولدت رابعة في بيت فقير وتوفي ابوها وهي طفلة فذاقت مرارة اليتم ومرارة الحاجة لا معيل لها ولا نصير فوقعت بين يدي تاجر رقيق غليظ القلب فباعها الى تاجر اثقل عليها العمل وسامها الواناً من القهر والعذاب ثم اشتراها تاجر ثري واغدق عليها المال والحب حتى بات مرتجى احلامها»[٢].

اشتهرت رابعة بحبها الأزلي وكانت اول من قال: «بالعشق الالهي» وكانت ناسكة متقشفة افنت حياتها في محبة الله تعالى.

ومن اقوالها بالله تعالى:

احبك حبين، حب الهوى — وحباً لأنك اهل لذاكا

فاما الذي هو حب الهوى — فشغلي بذكراك عمن سواك

واما الذي انت اهل له — فكشفك للحجب حتى اراك

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي — ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وقيل انها كانت تناجي ربّها وتقول: «الهي ان عبدتك من خوف النار فاحرقني بها، او طمعاً بالجنة فحرّمها علي، وان كنت اعبدك من اجلك، فلا تحرمني مشاهدة وجهك». انتقد هذا القول بعض المفكرين المسلمين اعتباراً ان العبادة التي لا تقوم على الخوف من نار الله ولا على الطمع في جنته هي عبادة فاسدة لأنها تنفي الثواب والعقاب بحيث يكون الكافر والمؤمن على نفس المستوى في الآخرة.

وحين ابتدعت رابعة العدوية فكرة «العشق الالهي» صار طابعها المميز ورائدها في تفكيرها الصوفي ونهج حياتها هو العشق الالهي الذي عرفت به.

---

(٢) كتاب تذكرة الاولياء فريد الدين العطار.

كتب كثير من المؤرخين المسلمين أساطير عن «كرامات» رابعة العدوية ونسبوا اليها اقوالاً ومواقف لا تتفق مع ظروف العصر الذي عاشت فيه ولهذا من الصعب على الباحث تفسير المؤرخين والصوفيين لها ولكن يكفي انها ادخلت «العشق الالهي» الى التصوف.

٢ - معروف الكرخي.

هو معروف بن محفوظ بن فيروز الكرخي، نسبة الى قرية كرخ في العراق، وهو من موالي علي بن موسى الرضا واستاذ الصوفي سري السقطي. يقال انه كان نصرانيا ثم أسلم.

كان معروف من مشايخ متصوفة بغداد الذين عرفوا بالورع والتقوى ومن اقواله المعروفة. «ما اكثر الصالحين وأقل الصادقين في الصالحين». توفي عام ٢٠٠هـ وقبره في بغداد.

اشتهر معروف بكلامه في الوجود والمعرفة العقلية المعتمدة أسلوب المنطق كما هي عند أصحاب الاعتزال، كما نادى بالقدرية[٣] يقول بعض المؤرخين، ان معروف الكرخي كان من اصحاب الزهد التقليدي الاسلامي الأوائل ولكن من طلائع اهل التصوف.

٣ - حاتم الأصم.

هو حاتم بن علوان بن يوسف الأصم، وكنيته ابو عبد الرحمن. كان مولى للمثنّى بن يحيى المحاربي ومن قدماء متصوفة خراسان وابرز تلاميذ شقيق البلخي.

ولد حاتم الأصم في بلدة بلخ من خراسان ثم قدم، كغيره من طلاب العلم، بغداد حيث رافق الامام احمد بن حنبل مؤسس المذهب الحنبلي وعدو المعتزلة.

---

(٣) كان العباسيون كالأمويين يقولون بالعقيدة الجبرية بقوة وصرامة. قال ابو جعفر المنصور ١٣٦ - ١٥٨ وفي مكة: «ايها الناس، انما انا سلطان الله على أرضه، اسوسكم لتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله، اعمل فيه بمشيئته وارادته وأعطيه بأذنه» (هذا ما قاله الخليفة الأموي الأول معاوية ابن ابي سفيان). كتاب العقد الفريد ابن عبد ربه، مجلد ١، ص ١٧٩ .

كان لحاتم كلام كثير في الموت وكان يقول: «الموت انواع، منه موت ابيض هو الجوع، وموت اسود هو احتمال أذى الناس، وموت احمر هو مخالفة النفس، وموت اخضر هو طرح الرقاع بعضها على بعض، وليس من يدعي حب الله من غير ردع عن محارمه او حب الجنة من غير انفاق ماله».

توفي حاتم الأصم عام ٢٣٧هـ. في مكان يقال له سروند في قرية تدعى «واشجرد»[٤].

٤ — سهل التستري.

هو سهل بن عبدالله التستري نسبة الى مدينة تستر من خوزستان من بلاد فارس. قدم البصرة بحيث تعلم على يد خاله الصوفي محمد بن سوار، ثم سار الى عبادان من فارس حيث اخذ علم الدين عن ابي حبيب بن عبدالله العباداني، ثم رجع الى تستر حتى وفاته عام ٢٨٣هـ هجري. ولد التستري عام ٢٠٠هـ.

ومن اقواله: «لا معين الا الله، ولا دليل الاّ رسول الله، ولا زاد الاّ التقوى، ولا عمل الاّ الصبر، وعلى الصوفي حفظ سره وملازمة التوبة واداء فرضه، وصيانة فقره وعليه التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسوله واكل الحلال، وكف الأذى واجتناب الآثام والتوبة واداء الحقوق.

٥ — الحارث بن اسد المحاسبي.

هو الحارث بن اسد المحاسبي من اصل عربي وكنيته ابو عبدالله. يقال انه ولد في المهدية من المغرب في اوائل القرن الثالث هجري ولكن الأرجح، انه من مواليد البصرة. قدم بغداد، التي اصبحت موطن نشأته وتعلمه، ولهذا يعتبر من متصوفة بغداد. لقّب بالمحاسبي لشدة محاسبته نفسه.

تلقى الحارث المحاسبي علومه في البصرة ثم في بغداد التي كانت في ذلك الوقت، منارة العلم والثقافة فيها الكثير من الفقهاء واصحاب الفكر لهم حلقات للدراسة ورواية الاحاديث، فاختلط بهم وأخذ عنهم علوم الدين والفقه والفلسفة.

---

(٤) كتاب الطبقات الصوفية، ابو عبد الرحمن السلمي، ص ٩١ .

كان المحاسبي يدين التطرف، ان كان في العقل لدين المعتزلة وكان والده اسد العنزي منهم، ام في الزهد لدى بعض اهل التصوف، فكان يجمع بين العلم والتصوف مع ايمانه بالعقل والقدرية كمعتزلة.

للحارث المحاسبي مؤلفات عديدة، قيل بلغت مئتي كتاب، ولكن لسوء الحظ، ما زال اكثرها مخطوطات في متاحف ومكتبات اسطمبول والقاهرة لم تنشر او تحقق بعد[٥].

كان المحاسبي استاذ الصوفي ابي القاسم الجنيد، كما ان ابا حامد الغزالي تأثر به كثيراً، ويظهر ذلك في كتاب ابي حامد الغزالي «المنقذ من الضلال» الذي اعتمد كثيراً على كتاب «الوصايا» للمحاسبي. توفي ابو عبدالله الحارث المحاسبي في بغداد عام ٢٤٣ هجري.

٦ - سرّي السقطي.

هو سرّي بن المغلس السقطي، وكنيته ابو الحسن. خال واستاذ الصوفي المشهور ابي القاسم الجنيد واستاذ ابراهيم بن محمد النصر اباذي شيخ متصوفة خراسان. كان سرّي السقطي تلميذ معروف الكرخي وشيخ متصوفة بغداد في وقته.

كان تاجراً له حانوت في سوق بغداد، هجره من تصرف الناس وغشهم وفسادهم والذي اشمأزت نفسه من العلاقة معهم. ومن اقواله: «من اراد ان يسلم له دينه ويستريح بدنه ويقل غمه من سماع الكلام الذي يغمه، فليعتزل الناس لأن هذا زمان عزلة ووحدة[٦]. لزم السقطي بيته وكان لا يخرج الا الى المسجد للصلاة.

كان السقطي اقرب الى علماء الشريعة والفقهاء من الصوفية، وقيل انه لمدة قصيرة، اعتنق الاعتزال وجاهر به، ولكنه تخلى عنه خوفاً من اضطهاد السلطة العباسية، وذلك في عهد خلافة الخليفة المتوكل ابن الخليفة المعتصم بالله (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) الذي كان عدو المعتزلة.

---

(٥) هناك لائحة بهذه المخطوطات، صفحة ١٣٢ - ١٣٣ من كتاب «متصوفه بغداد» عزيز السيد جاسم.

(٦) كتاب الطبقات الكبرى، عبد الوهاب الشعراني.

عرف السقطي بنقده الشديد للفقهاء والعلماء وبلومهم على فتنة «خلق القرآن» وكان يقول: «فيا غمّاه من فتنة العلماء واكرباه من حيلة الأولياء»[7].

قال المؤرخ الصوفي عبد الرحمن السلّمي: «كان سرّي السقطي يؤمن بخمسة اشياء: الخوف من الله وحده، والرجاء من الله وحده، والحق لله وحده والحياء من الله وحده. وهذه الأشياء الخمسة هي برهان الايمان وحجة العبادة وصدق الطريقة».

توفي سرّي السقطي في بغداد عام ٢٥١هـ ودفن في قبر محاذ لقبر ابن اخته ابي القاسم الجنيد.

١ - الجنيد بن محمد.

هو الجنيد بن محمد الخزار وكانت كنيته ابو القاسم، فهو فارسي، اصله من مدينة «نهاوند» ولكن ولد في بغداد وعاش فيها حتى توفي عام ٢٩٧ هجري. ويقول ابن الجذري «كتاب صفة الصفوة» «ان من حضر مأتم الجنيد كانوا اكثر من ستين الف».

تلقى الجنيد العلم الديني على اكبر علماء بغداد فأخذ الفقه عن ابي ثور الكلبي كما أخذ الصوفية عن خاله سرّي السقطي وعن يد محمد بن علي القصّاب وصحب الصوفي الكبير الحارث المحاسبي كما سمع الحديث من الحسين بن عرقه. كان الجنيد على المذهب الشافعي.

قال عن الجنيد المؤرخ السبكي - كتاب طبقات الشافعية - «هو سيد الطائفة ومقدم الجماعة، وامام اهل الخرقة، وشيخ طريقة التصوف، وعلم الأولياء في زمانه وبهلوان العارفين». اما عزيز السيد جاسم فيقول: «وقد كان شيخ الطريقة، وامام مدرسة بغداد واستاذها بجدارة، المتصوف، الزاهد، العابد، الحليم المطّلع، العالم. فكان تصوفه رياضة العقل، والروح والجسد واياساً من كل شيء خلا الله[8].

وقال عنه الدكتور محمد جلال شرف: «اصبح اسم الجنيد عنواناً لمدرسة بغداد، فلم تحظ شخصية صوفية باهتمام المؤرخين كما حظيت شخصية الجنيد، فهو

---

(٧) المصدر نفسه.

(٨) كتاب متصوفة بغداد، ص ٢٠١ .

الجامع بين الحقيقة والشريعة والواضع للمريدين أصول الطريقة ومعيار صدق هذا كله، اذا قيل مدرسة بغداد فانما يقصد بها مدرسة الجنيد»[٩].

كان ابو القاسم الجنيد شيخ المدرسة الصوفية في بغداد وترك تراثاً كبيراً من مؤلفات ورسائل كانت تشمل تفاسير وتحاليل للحياة الروحية في ذلك الوقت، منها كتاب «التوحيد» وكتاب «الفناء» وكتاب «آداب المفتقر الى الله» وغيرها. ولكن لسوء الحظ، فقد معظمها في الاجتياح المغولي للعراق عام ٦٥٦هـ حيث احرقوا المكتبات، بما فيها، مكتبة الخليفة المأمون المشهورة التي كانت مليئة بكتب علوم الدين والفلسفة اليونانية.

ابرز نظريات ابي القاسم الجنيد هي عقيدة التوحيد الروحاني باعتبارها اساس الاتحاد الصوفي، فالتوحيد، بالنسبة للجنيد، ليس برهاناً على وحدة الموجود الالهي بواسطة الجدل العقلي، كما يفهمه اصحاب فلسفة الكلام، انما هو احياء لوحدة الله التي هي روحانية صادقة.

عاش ابو القاسم الجنيد في اواخر عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله جعفر بن المعتصم (٢٢٢ - ٢٤٧هـ) اي في اواخر الفتنة «بخلق القرآن» واضطهاد المعتزلة، فواجه اقطاب الفتنة بالحكمة والروية فتمكن من حماية الصوفيين من التنكيل ومضايقات الحنابلة والأشعرية واهل الحديث بما اوتي من الرصانة والحلم واحترام العامة له، ان يصمت ثائرة المستنكرين والغوغاء للتصوف، وكذلك تمكن ان يدفع الصوفية الى صفوف الشعب واصبحت المساجد، لأول مرة منابر للدعوة الصوفية وصار للتصوف حضوره البارز في الحلقات والتجمعات في البيوت والشوارع.

كان الجنيد يتمسك بالقرآن والسنة روحاً ونصاً فنراه يقول: «ان من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة. وقال: «الطريق الى الله مسدود على خلق الله، عز وجل، الاّ على المقتفين اثار رسول الله والتابعين لسنته»، كما قال عز وجل، «لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة».

(٩) كتاب دراسات في التصوف الاسلامي.

بدأ الجنيد حياته عابداً تقيا وفارق الحياة وهو غارق بالعبادة والزهد وقد توفي في شهر شوال عام ٤٩٨هـ.

٨ - ذو النون المصري.

هو ذو النون ثوبان بن ابراهيم المصري وكنيته ابو الفيض. كان ابوه من «النوبة» وهي بلاد في شرقي شمالي افريقيا.

قال عنه المستشرق نيكلسون: «هو احق رجال الصوفية على الاطلاق ان ينسب اليه انه واضع أسس التصوف». يقول الدكتور عبد المنعم الحنفي: «كان اول من تكلم في مصر في الاحوال ومقامات اهل الولاية، واول من عرّف التوحيد المعنى الصوفي، وكان له اكبر الأثر في تشكيل الفكرة الصوفية، واخذ علم الدين والتصوف عن اسرافيل المغربي»[١٠].

يقول الدكتور عبد المنعم الحنفي: «وينفرد ذو النون بغرامه بالطبيعة ودعوته لله فيها ارق الاوصاف من مثل «الهي ما اصغي الى صوت حيوان ولا حفيف شجر ولا خرير مياه ولا ترنم طائر ولا تنعم ظل ولا دوي ريح ولا قعقعة رعد، الاّ وجدتها شاهدة بواحدانيتك دالة على انه ليس لمثلك شيء»[١١].

توفي ذو النون المصري عام ٢٤٥ هجري.

٩ - ابو يزيد البسطامي.

هو طيفور بن عيسى بن سروشان البسطامي من مواليد مدينة «بسطام» غربي خراسان من بلاد فارس، وينحدر من سلالة «مزدكية» فارسية، وكنيته ابو يزيد او «بيازيد».

اخذ ابو يزيد علوم الدين والفلسفة عن يد رجل مسلم هندي اسمه «ابو علي السندي» وكذلك اخذ عنه التصوف ومذهب الفناء في التوحيد ووحدة الوجود.

---

(١٠) كتاب الموسوعة الصوفية، ص ١٦٥ .

(١١) المرجع نفسه، ص ١٦٦ .

ويقول الدكتور ماجد فخري: «فهنالك حلقة واضحة تصله بالڤدنتا[١٢]، ليس في ما تعلمه البسطامي من استاذه السندي في «الحقائق الكبرى» فحسب، بل وفي تركيب نظامه الفكري، وما انطوى عليه من المعاني «العدمية». فقد عاش البسطامي في زمن كان فيه «شنكرا»[١٣] ومدرسته يعملون جاهدين على احياء الفكر «الڤدنتي» وفي تنظيمه. ثم ان شطحاته الصوفية نظير قوله: «سبحاني ما اعظم شأني» او «انا انت» او «انا هوانا» لها نظائر كثيرة في «الاوبانيشاد» والڤدنتا»[١٤].

لم يترك ابو يزيد البسطامي كتباً او رسائل تتضمن افكاره، وجل ما تركه، كان حكماً جمعها تلامذته عرفت باسم الشطحات، وهي تعني الاتحاد بالله والحلول الى حد ادعاء الالوهية.

واغرب شطحات البسطامي، والغريب فيها ان يتلفظ بها مسلم في القرن الثالث هجري وينجو من العقاب لكفره، وهي قوله: «لقد غصت في بحر الملكوت (عالم المثل) وفي حجب اللاهوت حتى بلغت الى العرش، فاذا هو خال. وهكذا القيت بنفسي عليه وقلت: «ربي اين اجدك؟». فارتفعت الحجب، «فاذا انا هو انا» نعم «انا هو انا» وعدت الى ما كنت انشد، فاذا هو انا الذي كنت انشد وليس آخر سواي»[١٥].

---

(١٢) كلمة «Vedanta» كلمة سنسكريتية وتعني كتب Vedas المقدسة عند الهندوس وكلمة «ڤيدا» تعني المعرفة المقدسة. اما «الڤدنتا» فهي واحدة من ستة مذاهب فلسفية تعني الخلاص. والمذهب «الڤيدانتي» نوع من وحدة الوجود وهو يرى ان المعرفة هي طريق الخلاص والسعادة ومعرفة ان «براهما» او الذات الآلهية المطلقة في كل شيء وكل شيء فيه. كتاب Lewis M. Hopfe, Religions of the World, London 1983, page 91 .

(١٣) شنكرا مصلح ديني وصوفي، ولد في الوقت الذي تمكن المسلمون من اقناع ملك الاقليم الجنوبي من الهند بالدخول في الاسلام. نشأ شنكرا على مقربة من المينا حيث ترسو السفن القادمة من بلاد الاسلام، نادى بالتوحيد ووحدة الوجود، توفي عام ٨٢٠م.

(١٤) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ٣٣٣ .

(١٥) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، الدكتور ماجد فخري، ص ٣٣٤ . وكتاب مناقب البسطامي، ابو علي السهلي، ص ١١٦ .

ومن شطحات البسطامي، ان احد الناس طرق باب ابي يزيد. فقال ابو يزيد: «من تريد؟». فقال: «اريد ان اكلم ابا يزيد البسطامي» فأجاب ابو يزيد: «اذهب ليس في البيت الاّ الله».

الواقع ان الحلول والفناء المطلق اللّذين يؤديان الى وحدة الوجود، هي عقيدة «براهمية» هندية احياها ونشرها الفيلسوف الهندي «شنكرا» الذي قال، «ان الله هو الوجود، والكون الحقيقي كله والله شيء واحد وان «براهما» الذي يمثل، يوجد في كل الأشياء وهو جوهر العالم الخفي الذي لا تحده قيود الزمان».

وهكذا نجد في فلسفة البراهمية فكرة الاندماج في «براهما» وهو الله، وعنها اخذ الصوفية فلسفة الفناء المطلق الذي به تتحقق وحدة الوجود. وهذا الفناء المطلق صبغ صوفية البسطامي وثم الحلاّج بفكرة الحلول والفناء بالله تعالى.

وفي الأحوال التي قال بها المتصوفة، ومنهم ابو يزيد، اثناء مقالتهم في الله تعالى ما يدعونه بالكشف ويعتبرونها الطريق الصحيح الى المعرفة عن طريق القلب وبذلك يدعون معرفة الله مباشرة بدون وسائط لأن المولى، عز وجل، عرّفهم ذاته فهم يعرفون الله بالله وليس بالعقل.

ومن الأوائل الذين قالوا بالفناء والبقاء الصوفي ابو سعيد الخرّاز(١٦) الذي يقول: «على الفاني ان يتخلى عن كل شيء سوى الله فيتحد فيه ويصير واياه شيئاً واحداً فيصح ان يدّعي بعده ان وجوده قد احتوى كل وجود وانه اتحد بكل شيء ولهذا يستوي عنده كل شيء في الوجود، وان الله هو الكل في الكل وهو كل شيء.

ومن شعر ابي يزيد:

بعدك عني هو قرباك ... اخذتني عنك بمعناك

لا تفرق الاوصاف ما بيننا ... ان قيل لي: يا!.. كنت اياك

توفي ابو يزيد البسطامي في بغداد عام ٢٦١ هجري.

---

(١٦) هو ابو سعيد احمد بن عيسى الخرّاز من اهل بغداد توفي عام ٢٧٧هـ، صحب ذا النون المصري وسري السقطي وبشر بن الحارث.

١٠ - الحسين بن منصور الحلاّج.

هو ابو مغيث الحسين بن منصور، الملقب بالحلاّج. لقّب بالحلاّج لأنه عمل في حلخ الصوف عند صاحب حانوت في مدينة «واسط».

ولد الحلاّج عام ٢٤٤هـ في بلدة «الطور» في شمال مدينة «البيضاء»[١٧] ثم انتقل الى «واسط» وهي مدينة عربية معظم اهلها من السنة على مذهب احمد بن حنبل مع وجود اقلية من غلاة الشيعة.

كان الحسين بن منصور الحلاّج من اصل فارسي وكان جده زرادشتياً اعتنق الاسلام.

درس الحلاّج علوم الدين واللغة في مدرسة «واسط» ويقال انه حفظ القرآن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ثم التحق بالصوفي سهل التستري واخذ عنه علم الاعتزال. ومن «واسط» سار الى البصرة حيث تلقى علم التصوف على يد الصوفي عمرو بن عثمان مكي[١٨] وابو بكر الشبلي وابو القاسم الجنيد وسهل التستري، اربعة من اشهر الاعلام اطلاقاً في تاريخ التصوف. بقي الحلاّج مرافقاً أبا القاسم الجنيد مرة عشرين عاماً ثم انفصل الجنيد عنه خائفاً من غلوه وغرابة اطواره.

وفي البصرة تزوج من ام الحسين بنت ابي يعقوب الأقطع البصري، ولم يتزوج غيرها واستمر زواجهما موفقاً حتى النهاية، فأثمر ثلاثة ابناء، سليمان، حمد ومنصور وبنتاً واحدة، وكان يكفل لهؤلاء معاشهم بفضل صهره وهو «كرنبائي»[١٩]. كان زواجه من ابنة ابي يعقوب الاقطع سبب نفور وعداء استاذه عمر بن عثمان مكي.

وكان الحلاّج، لسبب لم يعرف، يقيم في مدينة البصرة في حي تميم من قبيلة بني مجامع وكانوا من غلاة الشيعة، بالرغم من ان الحلاّج كان على مذهب السنة، اتهم بالتشيع لآل البيت وسجن، ولكن لمدة قصيرة.

---

(١٧) ولد في مدينة «البيضاء» النحوي الكبير عمر بن عثمان الملقب بسيبويه.

(١٨) هو ابو عبدالله عمرو بن عثمان مكي، توفي عام ٢٩١هـ كان شيخ القوم وامام الطائفة في بغداد.

(١٩) كتاب «دراسة عن المنحى الشخصي لحياة الحلاّج، لويس ماسينيون، كتاب شخصيات قلقة في الاسلام، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٦٥ .

من البصرة سار الى مكة في حجته الاولى، حيث بقي سنة في حالة صوم وصمت دائمين، مثلما فعلت مريم بنت عمران، (فقولي اني نذرت للرحمن صوماً فلن اكلم اليوم انسياً)[20] جالساً في صحن المسجد لا يبالي بالشمس والمطر وزاده اليومي كان كوز من الماء وقرص من الخبز يسد به رمقه[21].

يقول المستشرق لويس ماسينيون: «كان الحلاّج يحرك الجماهير وينادي بالاصلاح ويبشر بفكرة الحكومة المثالية التي تقيم الشريعة على نغمات المحبة الخالصة لله»[22].

عندما رجع الحلاّج من مكة نبذ الخرقة الصوفية وارتدى لبس الفقهاء كيما يتكلم بحرية مع المفكرين وعامة الشعب واتبع خطة الوعظ والارشاد واختلط بشتى طبقات الناس وصار له اتباع ومريدون كثيرون مما آثار حسد وكراهية بعض شيوخ الصوفية والفقهاء.

عاد الى مكة مرة ثانية مع جمع كبير من تلاميذه، قيل اربعمائة تلميذ، ثم عاد الى الاهواز ومنها سافر الى الهند وبركستان وملتان[23] ثم كشمير مع قوافل من تجار الاهواز كانوا يحملون بضائع من النسيج «التستري» المشهور.

رجع من الهند وسار، للمرة الثالثة الى مكة عام ٢٩٠هـ. ومنها عاد الى بغداد حيث اقام في منزله مسجداً صغيراً دعاه «الكعبة» واخذ يذهب في الليل الى مدافن بغداد ويصلي عند قبر الامام احمد بن حنبل، وفي النهار يجوب في طرقات بغداد اما واعظاً او منادياً باعلى صوته «يا أهل الاسلام، اغيثوني فليس يتركني (اي الله) ونفسي فآنس بها، وليس يأخذني من نفسي فاستريح منها، وهذا دلال لا اطيقه».. وكان كذلك ينادي، عندما يزور جامع المنصور. «اعلموا ان الله تعالى اباح لكم دمي فاقتلوني تؤجروا واسترح، فتكونوا انتم مجاهدين وانا شهيد».

---

(٢٠) سورة مريم، آية ٢٦ .

(٢١) كتاب الصوفية في نظر الاسلام: سميح عاطف الذين، ص ٣١٠ .

(٢٢) كتاب اخبار الحلاج، لويس ماسينيون وپاول كروس.

(٢٣) «ملتان» مدينة في السند كان للموحدين الدروز حضور في ملتان وكان رئيسهم الداعي ابن سومر رجبال.

الآراء التي اعتنقها ابو الحسين الحلاّج كانت، العشق الالهي، عقيدة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود. المعروف ان هذه الآراء كان يقول بها ابو يزيد البسطامي الذي استقاها من استاذه ابو علي السندي الذي اخذها عن البراهمة الهنود.

وفي بغداد اختلط الحلاّج بشتى انواع البشر، فكان رفيق الفيلسوف محمد زكريا الرازي، والامام الاسماعيلي المستتر حسين بن عبدالله، الملقب بالأهوازي (توفي عام ٢٨٩هـ) وهو والد الخليفة الفاطمي الأول، عبيدالله المهدي، وقيل انه عرف القرمطي ابا طاهر سليمان الجنابي الذي هاجم مكة وقتل الآلاف من الناس. ويقول المستشرق ماسينيون: «ان الحلاّج انضم، في بعض مراحل نشاطه، الى الدعوة الشيعية او العلوية»[٢٤]. مما اثار عليه نقمة غلاة السنة واصحاب السلطة العباسيين.

كان الحلاّج يقول ان غاية التصوف الروحي انما هي الفناء في أنفسهم والبقاء في الله، واتحاد العبد بالمعبود وان الحقيقة الالهية هي الأصل وكل طرق الوصول اليها مشروعة وواجبة، وان فكر الصوفي ينطوي على سعة روحانية واحتضان لظواهر الايمان.

وشطحات ابو الحسين الحلاّج كانت تعبيراً عن الاتصال المطلق بالله والارتماء في الأبدية وكانت روحه مليئة بفيض العشق الالهي، ومن شطحاته قوله: «انا الحق وانا الخلق»، «وما في الجبة الاّ الله، اي، انا الله» ومن قوله:

لي حبيب حبه وسط الحشا   لويشا يمشي على قلبي مشا

روحه روحي وروحي روحه   ان يشا شئت وان شئت يشا

ثم يقول:

انا من اهوى ومن اهوى انا   نحن روحان حللنا بدنا

فاذا ابصرتني ابصرته   واذا ابصرته ابصرتنا

كذلك يقول:

(٢٤) لويس ماسينيون كتاب La passion d'al-Halaj, p. 76 .

عجبت منك ومنّي يا منية المتمني
ادنيتني منك حتى ظننت انك اني

ويقول في كتاب الطواسين: «رأيت ربي بعين قلب، فقلت من أنت؟ فقال، انت»[٢٥].

اثارت اقوال ابو الحسين الحلاّج غضب فقهاء وغلاة السنة، حتى المتصوفة منهم.

كان الفقيه القاضي محمد بن داود الاصفهاني يكره الحلاّج لادعائه الاتحاد بالله ونبذه الفروض الاسلامية وانتقاده القاسي للفقهاء ورجال الدين وقوله: «انا الحق الخالق» الذي يعتبر كفراً، فرفع امر الحلاّج الى المحكمة طالباً الحكم عليه بالقتل. ولكن القاضي الشافعي، ابن سريح، عارض ذلك بقوله: «ان الاتهام الصوفي لا يدخل في اختصاص المحاكم الشرعية، مما انقذ الحلاّج»[٢٦].

وفي عام ٢٩٦هـ قامت بين العلماء والفقهاء فكرة اقامة حكومة اسلامية تعتمد الشريعة للحكم بالعدل بين الناس واشتراك الحلاّج بهذه الحركة الاصلاحية بالرغم من غضب السلطة عليه واتهامه بالالحاد.

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «انفجرت المؤامرات الاصلاحية، التي دبرها اهل السنة الداعون الى الاصلاح اقاموا خلافة «حنبلية بربهارية» استمرت يوماً واحداً، هي خلافة ابن المعتز، لكنها اخفقت لأنها لم تستطع الحصول على الأموال من الممولين اليهود في القصر وقد كانوا متواطئين مع عمّال الخراج الشيعة من خصوم

---

(٢٥) الطواسين هو لقب اهل البيت، كتاب السهروردي المقتول الدكتور يوسف ابش، حاشية رقم ٢ ص ٢١.

(٢٦) كتاب شخصيات قلقة في الاسلام، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٧٠ - (من كتاب لويس ماسينيون، دراسة عن المنحى الشخصي لحياة الحلاّج.

الحكم الوراثي، فأعيدت الخلافة الى المقتدر[٢٧] وكان غلاماً صغيراً، مع وزير جديد ماهر في الخراج ومن الشيعة هو ابن الفرات»[٢٨].

هرب ابو الحسين الحلاّج الى بلدة «سوس» في الاهواز، وبعد ثلاث سنوات قبض عليه حامد، عامل واسط، وأرسله الى بغداد حيث سجن لمدة تسع سنوات قبل اعدامه. الاّ ان الوزير ابن الفرات اجل محاكمة الحلاّج خوفاً من الأميرة «شغب» والدة الخليفة التي كانت تكن المودة للحلاّج وتحميه من اعدائه وكانت صاحبة نفوذ واسع في القصر.

كانت التهمة المساقة للحلاّج، ادعاء الألوهية، الحلول والاتحاد بالله، المناداة باعفاء المسلمين من الفرائض التي نص عليها القرآن والتحريض على العصيان على السلطة الحاكمة.

خلال سجنه في بغداد كتب «الطواسين» الذي نشره المستشرق «لويس ماسينيون». وهذا الكتاب عن الصوفية والمعرفة الدينية. ويقول الحلاّج في كتابه معاني القرآن واستنباط جوهر الحقيقة الذي يوافق المنطق والعقل السليم.

الطواسين أربعة كتب: طاسين الدائرة، طاسين النقطة، طاسين السراج وطاسين التوحيد وكلها رموز واشارات وتفسيرات عن حقائق الايمان وحقيقة وجود الله[٢٩].

يقول المؤرخ الاسماعيلي مصطفى غالب ان عدد الطواسين كان سبعة.

تمكن الفقهاء ورجال الدين من حمل فقيه بغداد الكبير ابن داود الاصفهاني على اباحة دم الحلاّج ثم حصلوا على فتوى اعدامه من القاضي ابو عمر بن يوسف. فاعدم أبو الحسين الحلاّج في الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة عام ٣٠٩هـ. بعد ان قطعت اوصاله وعلق على الصليب ثم احرقت جثته ورمي رمادها في نهر دجلة.

١١ - ابو بكر الشبلي.

هو دلف بن جحدر الشبلي ويقال كان اسمه جعفر الشبلي نسبة الى قرية

---

(٢٧) المقتدر بالله ابو الفضل جعفر بن المعتضد (٢٩٥ - ٣٢٠هـ).

(٢٨) كتاب شخصيات قلقة في الاسلام، ص ٧١ الدكتور عبد الرحمن البدوي.

(٢٩) في كتاب النقط والدوائر للشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين اشارات الى كتاب الطواسين.

«شبلة» من خراسان وكنيته ابو بكر. ولد في بلدة «سر من رأى» الفارسية من خراسان عام ٢٤٧هـ وتوفي في بغداد عام ٣٣٤هـ ودفن في مقبرة الخيزران.

كان على مذهب مالك وكان استاذ ابو الحسين الحلاّج وصحب لمدة طويلة ابا القاسم الجنيد.

لابي بكر الشبلي شطحات كشطحات ابي يزيد البسطامي والحلاّج، وكان شاعراً له شعر جمعه الدكتور كامل مصطفى في ديوان «ديوان ابي بكر شبلي».

كان مركز الدائرة في تفكيره التوحيد، وكان يقول: «التصوف بدؤه معرفة الله ونهايته توحيده. التصوف ترويح للقلوب بمراوح الصفا وتجليل الخواطر باردنة الوفا والتحلق بالسخاء والبشر في اللقا»(٣٠).

ومن شطحات الشبلي: «انا الوقت ووقتي عزيز وليس في الوقت غيري وانا محق». والمعنى الذي يقصده، «انه الدهر والدهر هو الله، فليس يوجد سواه، وهو الباقي يفنى فيه»(٣١).

لقّب بالسكران لأنه كان يحث الناس على السكرة الروحية التي رأى فيها الخلاص من ربقة الدنيا والصعود الى سموات الانتماء(٣٢).

دخل المارستان عدة مرات وكان يقول لزائريه: «قوم اصحاء جئتم الى مجنون، اي فائدة لكم؟ ادخلت المارستان واسقيت من الدواء فلم ازدد الاّ جنوناً». كان الشبلي يردد انه والحلاّج شيء واحد، فانقذه جنونه واهلك الحلاّج عقله. يرى بعض المؤرخين ان اصحاب ابو بكر الشبلي ادعوا بجنونه وادخاله المارستان لانقاذه من الاعدام مصير صاحبه الحلاّج.

١٢ – احمد بن محمد الغزالي.

هو احمد بن محمد الغزالي، الأخ الاصغر للفيلسوف والصوفي واللاهوتي

(٣٠) كتاب تاريخ بغداد، البغدادي، مجلد ٤ . كتاب متصوفة بغداد، عزيز السيد جاسم، ص ٢٧٨ .

(٣١) كتاب الموسوعة الصوفية، الدكتور عبد المنعم حنفي، ص ٢٤٠ .

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٩ .

الكبير ابو حامد محمد الغزالي. ولد في بلدة «غزالة» من ضواحي مدينة «طوس» من خراسان وهو من اصل فارسي وتوفي عام ٥٢٠هـ في قزوين من فارس.

ولد احمد الغزالي (غير معروف تاريخ مولده) في عهد انحلال السلطنة السلجوقية، حين استشرى الفساد وعمّت الفتن وكثرت الفرق المذهبية وكثر النفور والتناحر بين اصحاب المذاهب والعلماء. في هذا العصر المضطرب ولد الصوفي احمد الغزالي من اب فقير كان يعمل في غزل الصوف الذي، عند وفاته، طلب من صديق له صوفي العناية بولديه احمد ومحمد المعروف بأبي حامد.

الّف احمد الغزالي كتاب «سوانح العشاق» باللغة الفارسية، الذي كتب عنه المستشرق «هلموت ريتر»، انه من الصعوبة بمكان ان نجد كتاباً يبلغ فيه التحليل النفساني مثل هذه الغزارة»[٣٣].

ويقول احمد الغزالي في كتابه «سوانح العشاق». حينما يوجد العشق، يصبح العاشق قوتاً لمعشوقه، لا المعشوق لعاشقه. اذ يمكن ان يحتوي العاشق وجود المعشوق. ثم يقول: «العشق له همة عالية لأنه يطلب المعشوق ذا الصفات المتعالية، فكل معشوق يمكن الوصول اليه لايختاره العشق[٣٤].

كان لاحمد الغزالي تلميذ تفوق بالعلم والمعرفة الفقهية والفلسفة وعلوم الصوفية، هو القاضي، عين القضاة الهمذاني الذي قتل وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة (عام ٥٢٥هـ) وكتابه التمهيدات غني بالمعلومات عن العشق الصوفي وشروحات كاملة عن مذهب احمد الغزالي.

١٣ - محمد بن محمد الغزالي.

هو محمد بن محمد بن احمد الطوسي الملقب بالغزالي وكنيته ابو حامد[٣٥]

---

(٣٣) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان، ص ٣٠٠ حاشية رقم ١ .

(٣٤) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان ص ٣٠٠ حاشية رقم ١ .

(٣٥) كتاب الغزالي، احمد الشرباصي، ص ٢٣ .

ولد عام ٤٥٠ هجري في بلدة «غزالة» في جوار مدينة طوس واطلق عليه لقب «حجة الاسلام» وكذلك كان يعرف بالطوسي[٣٦].

كان يشار الى ابي حامد الغزالي، كرائد في علم الكلام ويعتبر احد اصوله، بعد ابي الحسن الاشعري وابو بكر الباقلاني امام الحرمين ابي المعالي عبد الملك الجويني رئيس مذهب الشافعية في نيسابور، الذين قالوا عن ابعاد العقل عن ادراك أصول المعرفة الدينية وكانوا من اشد خصوم الاعتزال.

وكما قلنا سابقاً، عندما مات ابوه اوصى به وبأخيه احمد صديقاً له متصوفاً. ولكن لما عجز هذا الصديق على المضي في الانفاق عليهما، دفع بهما الى المدرسة النظامية في نيسابور ليتابعا علومهما دون دفع مقابل، كما كان الحال في الأزهر الشريف في القاهرة واتبعته المدارس النظامية في العراق وفارس.

بعد مدرسة نيسابور، التحق ابو حامد بالفقيه الكبير احمد الرادكاني في «طوس» واخذ عنه علم الدين والفقه، ثم رحل الى مدينة «جرجان» طلباً للعلم على يد الامام ابي نصر الاسماعيلي[٣٧].

وفي عام ٤٧٣هـ[٣٨] سار ابو حامد الى نيسابور، احدى مدن العلم والثقافة وفيها المدرسة النظامية، حيث التحق بامام الحرمين عبد الملك الجويني، مؤسس المدارس النظامية، وامام المدرسة الاشعرية من نيسابور عالم عصره في علم التوحيد والفقه وأصول الكلام فأخذ ابو حامد عنه علوم الدين ومبادئ الفلسفة. وقيل ان الامام الجويني كان يظهر اعتزازه بأبي حامد ويتبجح لتلمذته عليه[٣٩]. في ذلك الوقت كتب ابو حامد الغزالي كتابه «المنخول في علم الأصول» ولما اطلع عليه الامام الجويني قال الغزالي. «دفنتني وانا حي، هلاّ صبرت حتى اموت»[٤٠].

---

(٣٦) كتاب كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة جزء ذ، ص ٥٠٩ .

(٣٧) كتاب طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، جزء ٤، ص ١٠٢ .

(٣٨) كتاب الفيلسوف الغزالي، الدكتور عبد الكريم الاعسم، ص ٣٣ ، كتاب معجم البلدان ياقوت الحموي جزء ٤، ص ٨٥٧ .

(٣٩) كتاب طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، جزء ٤، ص ١٠٣ .

(٤٠) كتاب الفيلسوف الغزالي، الدكتور عبد الامير الاعسم، ص ٣٤ .

بعد ان تخرج ابو حامد الغزالي من مدرسة نيسابور عمل مساعداً للامام الجويني وكان ملازماً له دائم الحضور بين يديه، ولكن في الوقت نفسه، اخذ يدرس أصول التصوف على يد الامام الزاهد الصوفي ابي الفضل بن علي الفارمذي[٤١].

وفي عام ٤٧٨هـ توفي الامام أبو المعالي الجويني، وبوفاته خسر ابو حامد الغزالي أستاذاً لامعاً وصديقاً مخلصاً وعطوفاً كان يلازمه لأعوام ويحميه من بعض الفقهاء الذين كانوا يحسدونه على المركز المرموق الذي احتله بالرغم من حداثة سنه.

سار الغزالي الى «عسكر نيسابور» واتصل بالوزير نظام الملك، مؤسس المدارس النظامية فاكرم الوزير نظام الملك مثواه وخصّه بعنايته وعيّنه مدرساً في مدرسة بغداد النظامية.

كان الوزير نظام الملك اشعرياً على المذهب الشافعي، ووزير الامير السلجوقي «الب ارسلان» وكان همه الاول وهدفه القضاء على جميع المذاهب المنتشرة في ذلك الوقت في العراق وفارس، وتقوية المذهب الشافعي، ولهذا عيّن عام ٤٨٤هـ أبا حامد الغزالي في المدرسة النظامية في بغداد[٤٢] الذي كان على المذهب الشافعي ومن غلاة الاشعرية[٤٣]. في هذا الوقت كتب كتابه الشهير «مقاصد الفلاسفة» الذي عرفه به فلاسفة الغرب، ثم بعد ذلك، كتب كتابه «تهافت الفلاسفة» هاجم فيه بقسوة شديدة الفلاسفة وأصحاب الفكر الفلسفي، وهذا الكتاب رد عليه الفيلسوف الاندلسي ابن رشد بكتاب «تهافت التهافت»، ينتقد مسعى الغزالي للقضاء على الفلسفة وخص اقوال الغزالي مبيناً وقوع ابي حامد في تناقض فاضح وذلك مستشهداً بأقواله في كتب أخرى له عن الفلسفة.

كان الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله عبدالله بن محمد (٤٦٧ - ٤٨٧هـ) متديناً فاضلاً على المذهب الشافعي، فقدم للغزالي المساعدة الكاملة وساعده على عمله ولقبه بأمام بغداد ثم امام العراق.. مما يلفت النظر، ان الغزالي رفض لقب الفقيه، الذي عرضه عليه الخليفة، لأنه كان يقول: «ان علم الفقه علم دنيوي لا ديني».

---

(٤١) كتاب الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص عبد الكريم عثمان، ص ٣٣ .

(٤٢) دائرة المعارف الاسلامية، محمد فريد وجدي، جزء ٧، ص ٦٥ .

(٤٣) في ذلك الوقت كان ابو حامد الغزالي يبلغ من العمر اربعاً وثلاثين سنة.

وفي المدرسة النظامية في بغداد بلغ الغزالي اوج ذروته في النجاح والشهرة والّف كتبا عديدة في شرح علم الكلام والفلسفة والدين، ودافع عن الدين من آفة الفلسفة وجنوح اهل الاعتزال وهاجم الباطنية، على اشكالها مذاهبها وتغلغلها الخطر في الحياة الفكرية، وكتب كتابه «فضائح الباطنية» وكتاب «المنقذ من الضلال والموصل الى ذي العزة والجلال» وكتاب «المستظهري»، وكان ذلك بعد موت الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله عام ٤٨٧هـ وخلافة المستظهر بالله، الخليفة الذي كان يكره الباطنية والذي شن عليهم حرباً قاسية.

في ذلك الوقت وجد ابو حامد نفسه في خضم الصراعات المذهبية والعقائد المختلفة وتباين الملل والنحل وتعدد الأديان. ثم كان يخاف الباطنية الذين كانوا يترصدونه، بعد ظهور كتابه «المستظهري»، وقتلهم الوزير نظام الملك(٤٤) ومحاولتهم اغتيال الخليفة المستظهر بالله.

ويقول الحارث بن اسد المحاسبي واصفاً ذلك الوقت «رأيت زمانا مستصعباً قد تبدلت فيه شرائع الايمان انتقضت فيه عرى الاسلام وتغيرت فيه معالم الدين واندرست منه الحدود وذهب الحق وباد أهله وعلا الباطل وكثر اتباعه ورأيت فتناً متراكمة يحار فيها اللبيب ورأيت القوى غالباً وعدواً متمكناً وانفساً وآلهة عن التفكير محجوبة وحللها الرياء فعميت عن الآخرة»(٤٥).

امام هذا الخضم الهائل من الاضطراب السياسي، العقائدي، والفكري اصيب ابو حامد الغزالي بشك رهيب في مسلكه الفكري واضطراب نفسي ثم اصيب بمرض، فسّره المفكر «ديوارنت»(٤٦)، على انه انهيار عصبي أصاب قواه العقلية، فوقع

(٤٤) كتاب حركة الحشاشين، محمد عثمان الخشب، ص ٧٧ . يقول «في سنة ٤٨٥هـ من العاشر من رمضان، كان الوزير والسلطان بالقرب من نهاوند. وبعد ان فرغ الوزير من طعام افطاره خرج في محفته الى خيمة حرمه، فأتاه صبي ديلمي من الحشاشين في صورة مستغيث، فضربه بسكين كانت معه فقتله.

(٤٥) كتاب الوصايا والنصائح، الحارث بن اسد المحاسبي، ص ٢٧ .

(٤٦) كتاب قصة الحضارة، جزء ٤، ص ٣٦٣ .

الغزالي في قلق وشك من وضعه العقلي والصحي خصوصاً خوفه على حياته من تهديد الباطنية الاسماعيلية فقرر اعتزال العمل والحج الى مكة ثم زيارة البلاد الاسلامية.

ويقول المستشرق اللفرنسي هنري كوربان: «فاعتزل التدريس عام ٤٨٨هـ وترك عائلته مضحّياً بكل شيء في سبيل البحث عن الاطمئنان الداخلي الذي هو ضمان للحقيقة. ويمكننا ان نتصور الى اي حدّ اذهل هذا القرار الحاسم، الذي اتخذه الغزالي، اهل الفكر في عصره، وهو رئيس المدرسة النظامية والناطق بلسان المذهب الأشعري، المذهب الرسمي للدين الاسلامي الحنيف في ذلك الوقت، هذا الموقف يكشف عما يتمتع به الغزالي من شخصية خارقة»(٤٧).

ترك بغداد في شهر ذي القعدة عام ٤٨٨هـ(٤٨) سار الى مكة ثم انتقل الى دمشق ومنها سافر الى بيت المقدس ثم عاد الى دمشق فاعتكف في الجامع الأموي، ولا تزال، حتى يومنا هذا، في الجامع الأموي زاوية يقال لها الزاوية الغزالية. وفي دمشق كتب كتابه الشهير «احياء علوم الدين».

يقول محي الدين بن عربي(٤٩) ان ابا حامد الغزالي عاد الى بغداد عام ٤٩٠هـ فتكون رحلته استغرقت سنتين، ويؤكد ذلك ابن الأثير(٥٠) اما تاج الدين السبكي وعبد القادر الفارسي، المعاصر للغزالي، فيقولان ان مدة الرحلة كانت عشر سنين، ويذكران انه ذهب من مصر ومنها سار الى المغرب لأجل ملاقاة علي بن يوسف تاشفين أمير المرابطين في المغرب(٥١).

جاب هذه البلاد على طريقة اهل التصوف، وشوهد بيده عكازة وعليه ثياب رثة والخرقة الصوفية(٥٢) صامتاً متأملاً لا يأكل الا ما يسد رمقه.

---

(٤٧) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ٢٧٣ .

(٤٨) كتاب طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، جزء ٤ ص ١٠٥ .

(٤٩) كتاب نفح الطيب، ص ٣٤٣ .

(٥٠) كتاب الكامل في التاريخ، جزء ١، ص ٨٧ .

(٥١) كتاب الطبقات الشافعية الكبرى، جزء ٤، ص ١٠٥ .

(٥٢) الخرقة الصوفية هي رداء من الصوف الخشن ازرق اللون.

رجع من دمشق الى بلده «طوس» حيث جعل فيها مدرسة لتعليم الدين والأصول الصوفية كما بنى زاوية صوفية كان يجتمع فيها مع زائريه ومريديه.

كان لا بد من هذه المقدمة عن هذا الفيلسوف الصوفي الكبير الذي كان من انبغ المفكرين في الاسلام.

في بداية انغماسه في الطريقة الصوفية اعلن اللجوء الى الزهد والتنسك بدلاً من الصوفية المتطرفة وكان يقول انه يجب معرفة الحقيقة والشرعية بهذه الثنائية تقود الى الطريقة الصوفية الصحيحة وهذا من صلب روحانية الاسلام وكان يدعو بالعودة الى القرآن لأنه العمود الهادي الى التوحيد.

ويقول المستشرق كارل بروكلمان: «ان اعتراف الغزالي بأصالة العلم الصوفي واعتناقه اياه كمشرب جديد، لم يكن يعني انه يعترف بكل حقوق الصوفية، على مختلف اشكالهم ومسالكهم، بل اعترف بالحقوق الصوفية المعتدلة لاعطاء أصول الدين وفروعه وفق الفقه، شكلها الرسمي[٥٣].

كان الغزالي يعتبر لبس الصوف الخشن تمسكاً بالزيف والظاهر بالقشور، وهذا لا يعني ان من يلبس الصوف الخشن لنتصوره صوفياً بحق»[٥٤].

رفض الغزالي الاتحاد والحلول، ا ي حلول الله في الصوفي واتحادهما او فناء احدهما بالآخر (ابو يزيد البسطامي وابو الحسين الحلاّج) واعتبرهما هوساً وهذياناً وبدعة الحادية يرفضها العقل والايمان بوحدانية الله تعالى وقال: «ان هذا الادعاء الباطل يرمي الى الخروج عن الشريعة وتعاليم الدين» ثم يقول: «ان من تخيل فيه بالقرب واحس بوجود المولى لا يقبل بالحلول والاتحاد او الوصول، فهو مخطئ لأن الوجود هو درجة من القرب وكفى».

ويقول ابو الفرج ابن العبري: «وفي هذه السنة (٢٧٧هـ) مات الغزالي العلاّمة العربي الكبير، ودفن في طرسوس قيليقية. وطالما قرّع في تصانيعه العرب لسبب اهتمامهم بالغسل وتطهر الجسد فقط واغماضهم عن تنقية القلب حيث تنفجر

(٥٣) كتاب تاريخ الشعوب الاسلامية، جزء ٢، ص ١٩١ .

(٥٤) كتاب مناهج المتعبدين.

الخطايا. فكان يحثهم على الزهد والعفاف ويورد لهم البراهين الجمة في سير الاباء السياح في مؤلفه الضخم ولذا ذكرناه»[*].

١٤ - ابن عربي.

هو محمد بن علي بن حمد بن احمد بن عبدالله الحاتمي، من ولد عبدالله بن حاتم اخي عدي بن حاتم طي[٥٥]. ويقول عبدالله الرومي البوسني: «اسمه الشيخ محيي الملة والدين العربي الطائي، وهو من سلالة حاتم طي»[٥٦].

ويصف الصوفي عبدالله الرومي البوسني: «الشيخ الكامل والخير الفاضل، خاتم الولاية الخاصة المحمدية، كاشف الحجب العزّية عن وجه الاحدية مرتب صفوف الأرواح في العوالم الروحية، مكمل جسوم الأولياء في العوالم الخلقية اعني، الشيخ محيي الملة والدين العربي الطائي الحاتمي الاندلسي، رضي الله عنه[٥٧].

ويقول الدكتور ماجد فخري: «الاّ ان اجرأ واوفى محاولة للتعبير عن الرؤيا الصوفية للحقيقة بعبارات افلاطونية محدثة، هي لا شك، محاولة محي الدين بن عربي»[٥٨].

ولد محيي الدين ابن عربي في بلدة «المرسية» في الاندلس في شهر رمضان عام ٥٦٠ هجري ثم انتقل مع والديه الى مدينة اشبيلية حيث درس علوم الدين والفقه على يد الشيخ ابو محمد عبد الحق عبد الرحمن بن عبدالله الاشبيلي.

(*) كتاب تاريخ الرفات، ص ١٣٣ . ابن العبري كان مؤرخاً معروفا نصرانياً.

(٥٥) كتاب التصوف في الاسلام، سميح عاطف الزين، ص ٤٤٥ . وكتاب اضواء على التصوف الدكتور طلعت غنام، ص ٢٠٤ .

(٥٦) مخطوط كتب عام ١٠٣٣ وهو شرح لقصيدة بن عربي ومطلعها.

شرفت عن اوصاف كون بنظرة — فتى لمحت عين الحبيب بطرفة

مشاهد في الحق ووحدته التي — تعالت وضلت ان تقاس بوحدة

في هذا المخطوط، الموجود لدى الكاتب، شرح مستفيض عن فلسفة محيي الدين بن عربي عن الصوفية.

(٥٧) المخطوط السابق.

(٥٨) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ٣٤١ .

بقي ابن عربي في اشبيلية مدة طويلة زار خلالها مدناً اندلسية عدّة حيث التقى علماء ومتصوفين أخذ عنهم علوم التصوف والفلسفة والدين. وفي عام ٥٩٠هـ سار الى بلاد المغرب حيث مكث بعض الوقت في مدينة «فاس» مدينة العلم والمدارس والرباط الصوفية(٥٩). ثم سار الى تونس حيث التقى ولد احمد بن قيس واخذ منه كتاب والده «خلع النعلين»(٦٠). وكذلك في تونس، تعرف الى الشيخ عبد العزيز المهدوي الذي نال اعجابه، كما ذكر في رسالته: «مشاهدة الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الآلهية» التي أرسلها له عام ٦٠٠هـ من مكة(٦١).

وفي عام ٥٩٨هـ سار الى مكة حاجاً حيث اقام سنتين ثم انتقل منها الى بغداد عام ٦٠١هـ، ومن بغداد سار الى القاهرة عام ٦٠٣هـ ومنها انتقل مرة ثانية الى مكة عام ٦١١هـ حيث كتب كتابه المشهور «الفتوحات المكية» والتقى بفتاة صوفية فارسية الأصل فتزوجها، ثم زار مدن الموصل وبغداد وقونية وانتهى الى دمشق وبقي فيها الى ان توفي عام ٦٣٨ هجري. وله من العمر تسع وسبعون سنة.

تبرز فلسفة محي الدين بن عربي الصوفية الروحانية من خلال نظرته الى المعرفة (المكاشفة، التجلي والمشاهدة) ووحدة الوجود ووحدة الأديان والحقيقة المحمدية.

ويشدد ابن عربي على تفرقة العلم بالله والمعرفة بالله اذ يقول: «ان المعرفة سبيلها التجربة واداتها البصيرة او الوجدان والحدس وهي طريق الصوفي بما يتضمنه من مجاهدات وتجارب، وتحليلات فكرية. اما العلم، فيدل على كسب المعلومات، وسبيله الى الانسان يكون بواسطة الدراية او النقل او العقل»(٦٢).

ويقول ابو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، ان ابن عربي كان يقول لأهل النص: «اخذتم معرفتكم ميتاً عن ميت، اي من رواة مختلفين قد ماتوا، ونحن اخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، الذي يفيض علينا بما تجود به افضاله»(٦٣).

---

(٥٩) الرباط في شمال افريقيا هو ما يسمى في المشرق «الزاوية الصوفية» حيث يجتمع اهل التصوف.
(٦٠) كتاب الصوفية في نظر الاسلام، سميح عاطف الزين، ص ٤٤٦ .
(٦١) كتاب الصوفية في نظر الاسلام، سميح عاطف الزين، ص ٤٤٦ .
(٦٢) كتاب اضواء على التصوف، الدكتور طلعت غنّام، ص ١٥٦ - ١٥٨ .
(٦٣) كتاب الاصول في الكافي.

ويقسم ابن عربي المعرفة فيقول: «هي كرامة من الله ليست من اكتساب العبد، فهي، المكاشفة والتجلي والمشاهدة، وهذا ما يعتمده الصوفيون لمعرفة الله تعالى».

ويقول ابن عربي: «ان هذه الاشكال، المكاشفة والتجلي والمشاهدة، بالرغم من تميزها من ناحية الكيف، الاّ انها تختلط مع بعضها البعض. المشاهدة تكون مع التجلي وتكون مع غير التجلي، والتجلي يكون مع المشاهدة ومع غير المشاهدة، وهما لا يكونان الاّ مع المكاشفة والمكاشفة توجد بدونهما»(٦٤).

المكاشفة، يقول ابن عربي: «ان هنالك حجاباً ما بين النفس البشرية والجلال الالهي، وهذا الحجاب يتمثل بالمخلوقات، سواء وجدت في العالم المادي او العالم الروحاني، اي ان المخلوقات هي التي تحجب عن حقيقة الله تعالى. الاّ ان النفس عندما تقوم بالمجاهدات والرياضة، وفقاً للطرق الصوفية، فانها تتخلى عن المخلوقات التي تحول بينها وبين الله تعالى فيما يؤدي الى تبديد الحجب والوصول الى الكشف عن الأسرار الالهية والطبيعة النفسانية لهذه الظاهرة من النوع المثالي»(٦٥).

اما التجلي فيراه ابن عربي بأنه عبارة عن ظهور نور رباني للذات الالهية، وان الله سبحانه، هو مركز النور، اي نور الأنوار، وكل ما يصدر عن المخلوقات يجب ان تكون منيرة. وبما ان النفس الانسانية هي مخلوقة الله فانها اذاً من نور الله. ثم يقول: «ويبقى النور الالهي متصلاً بالنفس، تاماً او ناقصاً بمقدار درجة ذلك النور ويتم التجلي اما عن طريق الروح او مباشرة من الله عز وجل»(٦٦).

ويقول ابن عربي: «ان اسمى التجليات الالهية فهو الذات البشرية، اي الكلمة الأدمية او الانسان الكامل. والحق ان وجود هذا الانسان الكامل هو علة بقاء العالم

---

(٦٤) كتاب اضواء على التصوف، الدكتور طلعت غنّام، ص ١٥٥ .

(٦٥) كتاب اضواء على التصوف، الدكتور طلعت غنّام، ص ١٥٥ . اخذ ابن عربي هذه الفكرة عن الافلاطونية المحدثة.

(٦٦) كتاب الفتوحات المكية، جزء ٥، ص ٣٨ .

ووجوده معاً. الانسان الكامل الحق هو العقل الاول او العقل الكلي عند الأفلاطونيين الحدثين، وما مجموع الأناس الكاملين او الأنبياء، الاّ تجليات مباشرة لهذا العقل»[٦٧].

اما المذهب الذي اثار الفلاسفة على ابن عربي، فكان وحدة الوجود، وهو مؤسسه بشكله الكامل ومن جاء بعده من المفكرين تأثر به او نقل عنه»[٦٨].

يقول ابن عربي: «ان الوجود كله واحد، وان وجود المخلوقات عين وجود الخالق ولا فرق بينهما من حيث الحقيقة اما الفرق الظاهر بين الوجودين فلا يعود كونه امراً يقضي به الحس الظاهر والعقل القاصر عن ادراك الحقيقة على ما هي عليه من وحدة ذاتية تجتمع فيها الأشياء جميعاً. ويقول سبحان الله من خلق الأشياء وهو عينها»[٦٩].

ويقول في وحدة الوجود شعراً.

يا خالق الاشياء في نفسه   انت لما تخلقه جامع

تخلق ما لا ينتهي كونه   فيك، انت الضيق الواسع[٧٠]

ويقول ابن عربي، كتاب الفتوحات المكية، «ما في الوجود الاّ الله، ونحن فان كنّا موجودين فانما وجودنا به، فمن كان وجوده بغيره فهو في حكم العدم».

اما عن وحدة الأديان، فقد قال عنها متصوفون كثيرون، منهم ابو الحسين الحلاّج، الذي قال: «ان الاختلاف في العقائد الدينية واحدة وهي حب الله الذي يجب اتخاذه مذهباً وبه تتوحد المعتقدات ولا يعود هناك من فرق بين عقيدة واخرى»[٧١].

---

(٦٧) كتاب فصوص الحكم، ص ٧٦ .

(٦٨) كتاب اضواء على التصوف.، الدكتور طلعت غنّام، ص ٢٠٥ . الفلاسفة الذين اتهموا ابن عربي بالكفر والضلال يسبب مذهب وحدة الوجود هم: ابن تيمية (توفي عام ٧٢٨) ابن خلدون (توفي عام ٥٨٠٨) ابن حجر العسقلاني (توفي عام ٨٥٢هـ) ابراهيم البقاعي (توفي عام ٨٥٨هـ).

(٦٩) كتاب فصوص الحكم، ص ١٢٩ وكتاب الفتوحات المكية جزء ٢، ص ٦٠٤ .

(٧٠) كتاب فصوص الحكم، ص ١٢٨ .

(٧١) كتاب الصوفية في نظر الاسلام، سميح عاطف الزين، ص ٣٢٦ .

ويقول ابن عربي في كتاب «فصوص الحكم»: «بالاّ يتقيد الانسان بدين معيّن، لأن ذلك يجعله يكفر بالأديان الأخرى ويقول: «فاياك ان تتقيد بعقد مخصوص تكفر بما سواه فيفوتك خير كثير، فكن لنفسك هيولى لصور المعتقدات كلها فان الله تعالى اوسع واعظم من ان يحصر عقد دون عقد»، فسبحانه تعالى يقول: «ولله المشرق والمغرب فاينما تُوَّلوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم»[٧٢].

ويقول ابن عربي شعراً:

عقد الخلائق من الاله عقائداً   وانا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

وكذلك يقول:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة   فمرعًى لغزلانٍ ودير لرهبان

وبيت لاوثان وكعبة طائف   والواح توراة ومصحف قرآن

ادين بدين الحب اين توجهت   سكائبه فالحب ديني وايماني

ويقول ابن عربي عن «النور المحمدي»: «هو النور الالهي السابق عن كل ما خلق الله من فيض نوره، وهو العقل الالهي الذي تجلى الحق فيه لنفسه وهو التمهيد لوجود النبي محمد وهو العقل الاول»: ويكون بهذا القول قد وافق ابو الحسين الحلاّج الذي قال: «النور المحمدي اشرق قبل ان يكون الخلق، ومنه استمد الانبياء هديهم، والاولياء معارفهم لتجليه على مرّ الأيام فيهم، وهذا النور القديم، كما هو مصدر هداية هو مصدر خلق، فمنه كانت الاكوان ولولاه لما كان وجود»[٧٣].

ويرى بعض الصوفية، وخصوصاً بعض غلاة الامامية، عند نظرتهم الى «الحقيقة المحمدية» ان الاولياء اعلى مرتبة من الانبياء – النصيرية واسماعيلية «قلعة الموت» يضعون مرتبة الامام علي بن ابي طالب قبل مرتبة النبي محمد[٧٤]. ولكن بعض

---

(٧٢) سورة البقرة، آية ١١٥ .

(٧٣) كتاب التصوف في نظر الاسلام، سميح عاطف الزين، ص ٣٢٤ .

(٧٤) الثالوث المقدس عند النصيرية «عمس» اي علي، محمد وسلمان وعند اسماعيلية قلعة الموت، «عسم» اي علي سلمان ومحمد.

الشيعة، ومجمل اهل السنة، يعتبرون انه لم يتعين لاحد منهم بما عيّن الله تعالى للنبي محمد من الكمال والفضل والحكمة انفرد الرسول بها. وقال الله، عز وجل، في كتابه الكريم: «يا ايها النبي انّا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيا الى الله بأذنه وسراجاً منيرا»(٧٥).

١٢ - شهاب الدين السهروردي.

الفيلسوف الصوفي الكبير، شهاب الدين بن عيسى بن حبش بن اميرك السهروردي الملقّب «بالشيخ المقتول».

ولد شهاب الدين السهروردي عام ٥٤٩هـ في مدينة «ميديا» المعروفة باسم «سهرورد» من اعمال «زنجان» من فارس، ثم انتقل الى مدينة «مراوغة» حيث درس علوم الدين على يد الفيلسوف الصوفي عبد الكريم الجيلي(٧٦) استاذ الفيلسوف فخر الدين الرازي.

ومن مدينة «مراوغة» ذهب الى اصفهان حيث اطلع على كتب ورسائل الفيلسوف ابن سينا، ومنها رسالة «النصر» الصوفية. ومن اصفهان سار الى بلاد الترك حيث عاش مع اهل التصوف واعتنق مذهبهم. ومن الاناضول سار الى حيث تقرب من الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين الايوبي وصار ملازماً له يحضر جميع مجالسه. ولكن هذه الصداقة والتقارب لم ينقذاه من تعصب صلاح الدين ضد الشيعة وهو الذي انهى حكمهم في مصر وفرض المذهب السني دين الدولة الايوبية.

اختلف الفقهاء ورجال الدين مع السهروردي خصوصاً بقوله: «ان الله قادر ان يخلق نبياً بعد النبي محمد» فاعتبروا هذا القول كفراً لأن سبحانه تعالى قال: «ان محمداً هو خاتمة النبيين». امر السلطان صلاح ابنه الملك الظاهر ان يقتل السهروردي وكان ذلك عام ٥٨٧ هجري.

---

(٧٥) سورة الاحزاب، آية ٤٥ وآية ٤٦ .

(٧٦) عبد الكريم الجيلي، يلقب بالجيلاني، وجيلان قرية من فارس اشتهرت برجال العلم والدين وكانوا يلقبون «بالجيلاني» منهم الشيخ عبد القادر، صاحب المدرسة الجيلانية او الكيلانية، ولد الجيلاني في بغداد ومات في «بزبيد» من اليمن عام ٨٢٦هـ.

ويروي عنه تلميذه شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري في كتابه «نزهة الأرواح وروضة الافراح» انه «كان مستوي القامة يميل الى سماع الموسيقى، ويبدي احتقاراً لكل من يتقرب من السلطان او الأبهة الدنيوية، سليط اللسان، متعجرفاً لا يحترم الفقهاء او شيوخ الدين. وكان، في بعض الأحيان يلبس الثياب المهلهلة ويرتدي الخرقة الصوفية».

الواقع ان السهروردي كان فيلسوفاً تأثر بالصوفية لأن الصوفية كانت منتشرة في ذلك الوقت، في جميع البلاد الاسلامية، فمن الطبيعي ان يحتك بها السهروردي ويدرس فلسفتها ومسالك اصحابها ويصف طرقها في كتبه ورسائله. كان وصف السهروردي للصوفية توضيح معانيها واهدافها. وتوضيح الشيء لا يعني الاقرار او الانتماء اليه.

اما في اليمن فجلّ ما يهمنا انتشار التصوف في القرنين السابع والثامن في بلدة «بزبيد» التي تقع في واد في الجانب الغربي من اليمن. وكانت «بزبيد» مركزاً هاماً للصوفية وعلوم الدين، حتى قيل ان كتب الصوفي ابن عربي كانت تباع في اسواق «بزبيد» اكثر ما كانت تباع في اسواق دمشق.

ومما زاد في شهرة «بزبيد» كونها كانت مقراً لشيخ صوفية اليمن العالم الشيخ اسماعيل بن ابراهيم الجبرتي. لقب «بالجبرتي» نسبة الى «جبرت» بلدة باطراف اليمن.

قيل ان الشيخ اسماعيل الجبرتي صور مجالس السماع الصوفية التي كان يحضرها الحكّام واهل الفقه وكانت جلسة السماع تستغرق الليلة بكاملها، كما انه، انشأ مدرسة، كان يؤمها الطلاب من جميع انحاء اليمن، حيث يدرسون افكار ابن عربي.

وفي عام ٤٠٢هـ، اي قبل وفاة الشيخ اسماعيل الجبرتي بأربع سنوات، (توفي الجبرتي عام ٤٠٦هـ) نصب مكانه تلميذه احمد بن ابي بكر الرداد (توفي عام ٨٢١هـ) الذي، بالاضافة الى كونه قاضي القضاة، كان من كبار صوفية اليمن. وفي ذلك الوقت يبرز في «بزبيد» العالم الصوفي الرحّالة الكبير عبد الكريم بن ابراهيم بن عبد الكريم الجيلي، ويلقبه البعض بالجيلاني نسبة الى جيلان وهي بلد في جنوب

فارس تحدها من الشرق طبرستان. ينسب بعض المؤرخين عبد الكريم الجيلي الى المتصوّف الكبير عبد القادر الجيلاني صاحب الفرقة القادرية.

درس عبد الكريم الجيلي على يد المتصوف ابي محمد الحكاك كما انه تأثر بأقوال المتصوف ابي الغيث بن جميل.

لعبد الكريم الجيلي مؤلفات عديدة، منها «الانسان الكامل في معرفة الاواخر والاوائل» الذي يعتبر من اشهر الكتب الصوفية، ثم كتاب «شرح مشكلات الفتوحات ثم كتاب «المناظر الالهية» وغيرها من المؤلفات في التصوف وعلوم الدين. كما ان القاضي احمد بن ابي بكر الرداد ترك لنا كتاب «تلخيص القواعد في اصل حكم خرقة الصوفية» وكتاب «عدة المسترشدين وعصمة اولي الالباب عن الزيغ والزلل والشك والارتياب».

تميّز التصوف في اليمن بالتزام الأسلوب الرمزي كما غلبت عليه النزعة الفلسفية التي تظهر بوضوح في مؤلفات احمد بن ابي بكر الرداد.

من خلال مؤلفات عبد الكريم الجيلي يبرز «حساب الجمّل» وذلك في كتابه «حقيقة الحقائق». ويقول بعض المؤرخين، ان هذا العلم، اي «حساب الجمّل» الذي وضع ابو العباس احمد بن علي البوني (توفي عام ٦٢٢هـ) اصوله في موسوعته «شمس المعارف الكبرى» اتى من الهند وهو من العلوم القريبة من الحروف والارقام وعلم الفلك».

المناحي الفكرية والمصطلحات والاحوال والمقامات ومدارج التصوف الاسلامي

١ - الحقيقة المحمدية.

قلة من اهل التصوف، منهم الحلاّج وابن عربي ذكرت «الحقيقة المحمدية»، اذ معظمهم نسخ النبي والامام وعمد الى الاتصال المباشر بالله تعالى من دون وسيط.

«الحقيقة المحمدية» تعني ان النور المحمدي اشرق قبل ان يكون الخلق، ومنه استمد الانبياء هديهم والاولياء معارفهم، ومنه خلق الكون وما يحوي الكون.

انزل الله تعالى حقائق القرآن الروحية في قلب النبي، قبل ان يتكون شكلها المرئي للنص من حروف وكلمات، وهي نور الكلام انزلها «نور الانوار». يقول ابن عربي: «كل نبي جاء ومعه نور من الكتاب الذي يحمله، ولكن محمد جاء وهو بذاته نور هو الانسان الكامل الحق. ولما كان «الانسان الكامل» التجلي الاكمل للذات الالهية، كان عبارة عن الكلمة النبوية التي تتجلى من «الحقيقة المحمدية». ليست «الحقيقة المحمدية»، الكلمة التي يفصح الله من خلالها عن ارادته وحسب، بل هي مبدأ الخلق او الابداع الذي بواسطته اوجد الله العالم»[١].

٢ - المعرفة عند الصوفية.

يقول اهل التصوف ان الموضوع الاساسي للمعرفة هو الله، وان الموضوع الاول هو وحدانية الله، وان الانسان يدرك حقيقة وحدانية الله بأنه موجود وواحد، وانه بوحدانيته منزه عن المثيل والشبيه تنزيها «مطلقاً»[٢].

---

(١) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، الدكتور ماجد فخري، ص ٣٤٣ .

(٢) كتاب النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، حسين مروه، ص ٢٠٥ .

وروى الصوفي ذو النون المصري: «المعرفة على ثلاثة وجوه: الاوّل معرفة التوحيد الخاصة بعامة المؤمنين المخلصين. والثاني معرفة الحجة والبيان، وتلك خاصة بالحكماء والبلغاء والعلماء المخلصين. والثالث معرفة صفات الوحدانية، وتلك خاصة بأهل ولاية الله المخلصين الذين يشاهدون الله بقلوبهم حتى يظهر الحق لهم ما لم يظهره لاحد من العالمين».

والمعرفة عند الصوفية هي معرفة بغير وسائط او براهين لا يملكها الاّ من انتهج سبل التصوف وتسمى «كشفاً» وهي من نعم الله تعالى وفضله، ولا تأتي الاّ بعد الايمان الصادق وطهارة القلب.

٣ - التأويل والظاهر والباطن.

يقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان «وتشكل كلمة التأويل مع كلمة التنزيل زوجاً من المصطلحات والمعاني المتضادة المتكاملة. فالتنزيل يعني الدين الوضعي او الكلام الذي املاه الملاك على النبي، انه انزل هذا الوحي من الملأ الاعلى. اما التأويل فهو على العكس، انه عودة ورجوع الى الاصل، وبالتالي الى المعنى الحقيقي الأصلي للكتاب، انه اعادة الشيء الى اصله. فمن يمارس اذن، هو شخص يجيد بالمقالة عن ظاهرها الخارجي ويعيدها الى حقيقتها، وذلك هو التأويل الذي هو كالتفسير الروحاني الداخلي او قل، كالتأويل الرمزي الباطني[٣].

ويعتبر الاسماعيلية، ان الاحوال التي ينبغي التأويل فيها هي: حيث يتعذر الاجماع حول المدلول الشرعي والعقائدي في بعض الآيات، او حيث يبدو ان الآيات تتعارض منطقياً إحداها مع الاخرى.

ويبرز السؤال، من يحق لهم التأويل؟. يقول الله تعالى في كتابه الكريم «فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الاّ الله والراسخون في العلم»[٤].

---

(٣) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ٥٢ .

(٤) سورة آل عمران، آية ٧ .

من هم الراسخون بالعلم الذين يحق لهم التأويل؟ ويقول سبحانه تعالى: «يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا أولي الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردّوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وذلك خير واحسن تأويلاً»[٥].

تحصر هذه الآية حق التأويل في الله تعالى والرسول واولي الامر، فيختلف الناس على اولي الامر فيقول اهل السنة، ان اولياء الامر هم الخلفاء القائمون على رأس السلطة الدينية والدنيوية ويمثلون الشرعية كممثلين لرسول الله. اما الشيعة، فتقول: «اولي الامر، هم الائمة من اهل البيت فهم احفاد الرسول الموعودون بالجنة، وصفية الخلق واصحاب العلم». اما اهل التصوف فقالوا بأهل الولاية اي، الأئمة، اسوة بما قال الشيعة، كما انهم، اي المتصوفة، يعتبرون انهم من الراسخين بالعلم، اي العلم القلبي الذي يصلون اليه بالمجاهدة.

ومن التأويل ولد علم الظاهر وعلم الباطن[٦] الظاهر هو الاعتراف بنصوص الشريعة وما تدركه الحواس ويتعلق بالاعمال الظاهرة وهي العبادات والاحكام الشرعية. والباطن، هو اعمال القلوب وما يسمى بالمقامات – سنأتي على شرحها لاحقاً – مثل اليقين، والمعرفة، والتوكل، والرضا والتقوى وغيرها من الأحوال الروحية والقلبية عند الانسان.

---

(٥) سورة النساء، آية ٥٩ .

(٦) الباطن لقب اطلق على الاسماعيلية بالنسبة الى أئمة الستر اذ كان يطلق على امام الستر اسم الامام الباطن. يقول الشهرستاني – كتاب الملل والنحل، صفحة ١٩٢ «واشهر القابهم الباطنية وانما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً. الحروب بين الموحدين الدروز والاسماعيلية في بلاد الشام سميت «حروب الدروز والباطنية». وكتاب ابي حامد الغزالي عن الاسماعيلية اسمه «فضائح الباطنية». في كتاب «الفرق بين الفرق» لعبد القادر البغدادي ص ٢٨١ – ٣١٢ يهاجم الباطنية بقسوة وعنف ويتهمهم بالكفر والالحاد ويضم اليهم القرامطة والمزدكية. يخطئ من يظن ان الباطن هو تفسير بعض الحوادث والصفات والمقولات كما يريدها المفسر ان تكون، كي يخدم اغراضه ومراميه، وليس كما هي الحقيقة كما حصلت. الباطن هو التزام الصفات الحميدة القلبية والمقامات، ومعرفة الواقع الصادق دون البوح بحقيقته.

وروي عن الامام الأول علي بن ابي طالب قوله: «وما من آية قرآنية، الاّ ولها اربعة معانٍ. ظاهر وباطن وحد ومطّلع. الظاهر التلاوة والباطن الفهم، والحد هو احكام الحلال والحرام والمطّلع - المشروع الالهي - هو مراد الله من العبد»[7].

كان كل امام شيعي، الواحد تلو الآخر، قيماً على القرآن يفسره ويبلغ تلاميذه المعنى الباطني للوحي، وهذا التعليم، هو ينبوع الباطنية في الاسلام.

يقول الامام جعفر الصادق: «قضيتنا حق بل هي حق الحق، انها الظاهر وباطن الظاهر وباطن الباطن»[8].

ويقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان[9]: «ولقد اعطت الفكرة الباطنية، التي هي أساس التشيع واصل بنيانه، اعطت كلها واثمرت خارج الوسط الشيعي الخالص، لقد اثمرت لدى الصوفية كما اثمرت لدى الفلاسفة، فالتبطن الصوفي ينزع الى عيش السر الاساسي لنطق القرآن بين ثنايا النص القرآني. فالامام ولي ملهم، والتعليم يرجع الى الحقائق، نعني الى الباطن»[10].

توسعنا في تفسير عقيدة الباطن واعتمدنا على شرح المفكر «هنري كوربان» الذي يعتبر بحق، حجة في علم العقائد الشيعية، والسبب في هذه الافاضة، ان الكثير من الناس يعتقدون ان الطائفة الدرزية هي فرقة باطنية اسماعيلية.

ان السبب في ربط اسم الدروز بالاسماعيلية هو، بالاضافة الى ان الدعوة التوحيدية الدرزية نشأت وانتشرت خلال العهد الفاطمي الاسماعيلي وفي بيئة اسماعيلية وكان معظم قادتها، كحمزة بن علي والمقتنى بهاء الدين دعاة اسماعيلية، ولكن بعد محنة عام ٤١١هـ في مصر وانتقال الدعوة التوحيدية الى بلاد الشام

---

(٧) هذا الحديث موجود في المقدمة التي كتبها الملا محسن الفيض الكاشاني في تفسيره «الصافي».

(٨) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان، ص ٨٤ .

(٩) لقد اعتمدنا كثيراً على تفسير المستشرق هنري كوربان في موضوع الباطنية، لأن لا شك، في أن هنري كوربان اعظم من كتب عن المذهب الشيعي، فقد عمل استاذاً في جامعة طهران وجامعة «قم» وخبير باللغتين الفارسية والعربية وله مؤلفات عديدة وقيمة عن المذهب الشيعي.

(١٠) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ٤٦ و ٤٧ .

انتسب الموحدون الى الاسماعيلية خوفاً من اضطهاد الفاطميين وحلفائهم بني مرداس، وعرفوا، في ذلك الوقت، باسم غلاة الاسماعيلية. ولهذا نجد ان بعض المؤرخين يشيرون الى انتفاضة جبل السمّاق عام ٤٢٣هـ كفتنة «غلاة الاسماعيلية».

المؤرخ ابن العديم يشير في كتابه - بغية الطلب في تاريخ حلب - الذي كتب في القرن السادس هجري - الى سكان جبل السّماق باسم «غلاة الاسماعيلية».

٤ - الشريعة.

يعتبر اهل التصوف ان طريقة المشاهدة الباطنية القلبية اي، «الكشف» تلغي كل واسطة لمعرفة الله تعالى ما دام بامكانهم ان يعرفوه، عز وجل، مباشرة، وبذلك الغوا الامامة، وحتى النبوة، لأن النبي والامام هما الواسطة بين الله والانسان. ولذلك نسخوا الشريعة واعتبروا النبي وسيلة الوحي الالهي الى الناس والامام لتفسير الآيات القرآنية وكان هدفهم الاول استقطاب كامل في علاقة النفس مع الله تعالى في محاولة الاتحاد والحلول بدون وسيط او مرشد. وقال ابو يزيد البسطامي: «كيف يمكن ان اصلي لله وهو في قلبي».

٥ - القطب.

القطب عند الصوفية بديل النبي، فهو الانسان الكامل وامام الزمان يوجه الصوفي الى الكمالات الانسانية وعمل الصالحات ووحدة الوجود ولكن لا يوحى اليه ولا شفعة له.

٦ - وحدة الوجود.

يختلف اهل التصوف مع الفلاسفة الالهيين في مبدأ وحدة الوجود، ويفسر هذا الاختلاف الدكتور عبد الرحمن بدوي فيقول: «المهم عند الصوفي في القول بوحدة الوجود، الاتحاد بالذات الالهية او بالواحد. اما عند الفيلسوف الالهي القائل بوحدة الوجود، فان المهم معرفة ترتيب الكون وكيفية تركيبه بصدوره عن الواحد في صدورات متوالية يتدفق بعضها من بعض في مراتب. فوحدة الوجود عند الفيلسوف

الالهي، نظرية في الكون، وعندالصوفي، اساس يستند اليه في تجربة الاتحاد. الاول يعني لادراك الوحدة والثاني يفترضها مقدماً ويسلك الطريق لتحقيقها بنفسه في تجربته الذاتية. الاول يضع النظرية، والثاني يعيشها في تجربة حية»(١١).

ويقول المستشرق William Studdart «ان وحدة الوجود هي المبدأ الاساسي للتصوف الاسلامي، لأنه مستنبط مباشرة من الشهادة التي فهمت على انها، لا حق الاّ الحق، ولا حقيقة وجودية الاّ حقيقته تعالى، وان الموجود النسبي لا حقيقة له الاّ بالمطلق»(١٢).

لقد تردد مصطلح «وحدة الوجود» قبل ابن عربي، ولكنه لم يبرز كمعتقد صوفي واضح الاّ بعد ان اطلقه محيي الدين بن عربي كتفسير للتوحيد الصوفي، بالرغم من الحذر الشديد من بعض اوائل المتصوفة والمؤرخين، كابي نصر السرّاج الطوسي، صاحب كتاب «اللمع الصوفيّة» الذي حاول نفي وحدة الوجود على انها تتنافى مع التأثيرات اللاهوتية التوحيدية التي تعتمد على الاتجاه الفكري العقلاني.

وفي كتاب «الفتوحات المكية» يقول ابن عربي عن: «وحدة الوجود». «ان لكل نبي من الانبياء حقيقة خاصة به يدعوها «الكلمة»، وهي مظهر الذات الالهية، ولولا تجليات هذه الذات في تلك الكلمات، او التجليات النبوية، لبقيت طبيعة الوجود الحق مستترة الى الابد. وتلك الذات هي مصدر كل وجود، ولذا كانت ازلية وغير متجزئة وغير متحولة»(١٣).

٧ - حكمة الاشراق.

السهروردي، الشيخ المقتول هو مبتدع فلسفة الاشراق وارتبطت باسمه وصار صاحبها وشرحها في كتابه «حكمة الاشراق» على انها حكمة لدنية، اي فلسفة

(١١) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، ص ٢٢ .

(١٢) كتاب The mystical Doctrines and method of Islam, p. 43 .

(١٣) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، الدكتور ماجد فخري، ص ٣٤٢ .

النبوة، مشرقية سيتابعها بتصميم واضح لحكمة فارس القديمة، والوجوه الكبيرة التي تتحكم في سير المذهب هي: هرمس، وافلاطون وزرادشت[١٤].

يقول السهروردي: «ان فكرة الاشراق – وهو اسم يعني السنى والبهاء واشراق الشمس عند طلوعها – ويشكل الاشراق الحكمة اللدنية باعتبار انه يمثل ظهور واشراق الكائن معاً وفعل الوجدان الذي يكشف هذا الكائن، وعندما يكشفه يقوده للظهور ويجعل منه ظاهرة. كما ان هذا المصطلح يعني في العالم، الحسن، وسناء وبهاء الصباح واول بريق النجم، وكذلك يتبيّن في سماء الروح المثالية لحظة تجلي المعرفة»[١٥]. وثم يقول السهروردي: «ونستطيع ان نفهم بفلسفة الاشراق، فلسفة تشير الى حكمة الاشراقيين او المشرقيين اللدنية، اي، حكمة حكماء فارس القديمة، لأن معرفتهم نفسها كانت مشرقية مبنية على الكشف والمشاهدة الصوفية»[١٦].

ويروي السهروردي، «نور الانوار» هو اصل الأنوار ومصدرها، هو واجب الوجود والنور العالم بذاته، والنور القدس، هو الله الذي ينبثق منه كل شيء».

رفض بعض المتصوفة «حكمة الاشراق» اذ كانوا يقولون بعلاقة الله تعالى مباشرة مع الانسان بدون وسطاء على أساس الكشف. ولكن عقيدة حكمة الاشراق تؤكد بأنها تربط العلاقة مع الله تعالى بوسائط من الأشراقات ترتقي بالعارفين الى المعرفة من خلال وسيط. هذا الربط، الذي ينفي الاتصال المباشر، هو من الابعاد والعقائد الاسماعيلية الذين يرفضون الاتصال بالمولى الاّ بواسطة الامام. ويقال ان السهروردي كان اسماعيلي المذهب.

كان السهروردي متمسكاً بالقرآن والسنة وبهذا يقول: «احفظ شريعته فانها سوط الله سبحانه وتعالى، بها يسوق عباده الى رضوانه. كل دعوة لم تشهد بها شواهد الكتاب والسنة، فهو في تفاريع العبث وشغب الرفث. من لم يعتصم بحبل القرآن، غوى وهوى من غيابة حب الهوى. الم تعلم انه كما قصرت قوى الخلائق

(١٤) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان، ص ٣٠٤ .

(١٥) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان، ص ٣٠٩ .

(١٦) المصدر نفسه، ص ٣١٠ .

عن ايجادك، قصرت عن اعطاء حق ارشادك». «قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى»[١٧].

تمسك السهروردي بالفلسفة عند بحثه الصوفية فجعل اتحاد الفلسفي العقلي والمعتقد الصوفي القلبي يؤلفان معاً الفلسفة الاشراقية التي يعتبرها التلاقي بين العقل والقلب.

الاحوال والمقامات الصوفية.

في دراستنا للاحوال والمقامات الصوفية اعتمدنا كتاب «مقامات الصوفية للسهروردي» تحقيق الدكتور اميل معلوف، فأخذنا بعض ما قاله السهروردي لضيق المجال في هذه الدراسة، واضفنا بعض الشروحات من كتاب «الرسالة القشيرية» لأبي القاسم عبد الكريم القشيري النيسابوري.

١ - الحال.

السهروردي: «هو عبارة عن كمال سريع الزوال غير محسوس».

المعلوف: الحال هو امر روحي يرد على المتصوف من غير تعمد منه ولا اجتلاب، اي نعمة يخصها الحق ببعض السالكين ويحجبها عن بعضهم الآخر. ولما كان «المقام» يحصل ببذل المجهود، و «الحال» من غير جهد ولا مقامات اعتبر «المقام» كسباً «والحال» موهبة.

اهم الاحوال التي تعرض للسالك في توجهه الى الله. الطرب، الحزن، القبض، الشوق والانزعاج والهيبة والاحتياج.

الرسالة القشيرية: الحال عند القوم معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب. الاحوال مواهب والمقامات مكاسب. الاحوال تأتي من الوجود نفسه والمقامات تحصل ببذل المجهود.

---

(١٧) سورة طه، آية ٥٠ .

٢ - المقام.

السهروردي: المقام عندهم هو الملكة وهو القدرة على الشيء متى اريد من غير احتياج الى تفكر وكسب واستصعاب.
معلوف: المقام هو جزء من الطريق الذي يسلكه المتصوف الى ربه ويكون بمنازلة عدد من الآداب اهمها، التوبة، الورع، الزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل.
الرسالة القشيرية: وشرطه ان لا يرتقي من مقام الى مقام آخر ما لم يستوف احكام ذلك المقام. فان من لا قناعة له لا يصح له التوكل. ومن لا توكل له لا يصح له التسليم ومن لا ورع له لا يصح له الزهد.

٣ - التوبة.

السهروردي: عبارة عن تألم النفس على ما ارتكبت من الرذائل مع حزم القصد الى تركها وتدارك الفائت بحسب الطاقة.
معلوف: التوبة لغة معناها الرجوع. والرجوع هنا يكون عن الاقوال والافعال المذمومة الى ما هو محمود منها.
الرسالة القشيرية: قال الله تعالى: «وتوبوا الى الله جميعاً ايها المؤمنون لعلكم تفلحون». وقيل يا رسول الله. ما علامة التوبة؟ قال الندامة: التوبة اول منزل من منازل السالكين واول مقام من مقامات الطالبين.

٤ - الارادة.

السهروردي: هي اول حركة للنفس الى استكمال بالفضائل.
معلوف: الارادة هي بدء طريق السالكين الى الله. هي مقدمة لكل امر، وقصداً يتجه به المريد الى غاية وتفرد النفس من كل قصد ذاتي.
الرسالة القشيرية: الارادة هي التجرد لله في السلوك الى كمال التوحيد، وهي ممدوحة ومطلوبة. الارادة بدء طريق السالكين وهي اسم اول منزلة القاصدين الى الله تعالى.

٥ - الزهد.

السهروردي: هو الامساك عن الاشتغال بملاذ البدن وقواه الاّ بحسب ضرورة تامة، وهو يزيد على القناعة بترك كثير من الكفاية العرفية.

معلوف: التخلي عن الكثير مما اباحه الله وانعم به على عبده بالحلال. الزهد في الحرام واجب، ولكنه في الحلال مباح.

الرسالة القشيرية: قال الصوفي المعروف ابو علي الدقاق: «اختلف الناس في الزهد، فمنهم من قال: الزهد في الحرام لان الحلال مباح من قبل الله تعالى. ومن قال، الزهد في الحرام واجب وفي الحلال فضيلة». فان الاقلال اقلال المال، والعبد صابر في حاله، راض بما قسم الله تعالى له، قانع بما يعطيه، اتم من توسعه وتبسطه في الدنيا. قال الله سبحانه وتعالى: «قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى»(١٨).

٦ - التوكل.

السهروردي: على اصطلاحهم، هو دوام حسن ملاحظة القضاء والقدر في جميع الحوادث دون اقتصار النظر على الاسباب الطبيعية.

معلوف: ان التوكل بما هو علم وحال وعمل يفترض اصلاً القول بالتوحيد، لأن اعتماد القلب على الوكيل وحده، وهو الله، يجعل جميع الوسائط والاسباب مسخرات. فالمنفرد بابداعه واختراعه هو الباري تعالى وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والارض.

الرسالة القشيرية: قال الله عز وجل: «من يتوكل على الله فهو حسبه»(١٩). ثم قال سبحانه وتعالى: «وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين»(٢٠). قال ابو علي الدقاق: التوكيل ثلاث درجات، التوكل ثم التسليم ثم التفويض. فالمتوكل يسكن الى وعده،

---

(١٨) سورة النساء، آية ٧٧ .

(١٩) سورة الطلاق، آية ٣ .

(٢٠) سورة المائدة، آية ٢٣ .

وصاحب التسليم يكتفي بقلمه، وصاحب التفويض، يرضى بحكمه. التوكل بداية، والتسليم واسطة والتفويض نهاية[٢١].

٧ - المعرفة.

السهروردي: هو ارتسام الحقائق في النفس بمقدار ما ترتقي اليه طاقة البشر من ذات واجب الوجود سبحانه وتعالى. وما يليق بصفاته وافعاله ونظام صنعه.

معلوف: يقصد السهروردي من المعرفة، العلم والادراك الفلسفي لا العرفان الصوفي Gnose . الفرق بين العلم والعرفان. العلم ادراك للمحسوسات الجزئية بالحس ادراكاً مباشراً وتحصل الاوليات العقلية بالنظر العقلي تحصيلا واضحاً. والعرفان ادراك للحق بالاشراق والاسهام. المعرفة ادراك للالوهية وصفاتها وافعالها بنور يقذفه الله في قلب. «من صار في الخلق اجنبياً، ومن آفات نفسه برياً ومن المساكنات والملاحظات نقياً[٢٢].

الرسالة القشيرية: المعرفة هي العلم، فكل علم معرفة وكل معرفة علم، وكل عالم بالله تعالى عارف، وكل عارف عالم. وعند هؤلاء القول: المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه باسمائه وصفاته ثم صدق الله تعالى في معاملاته ودام بالقلب اعتكافه فحظي من الله تعالى بجميل اقباله.

٨ - المحبة.

السهروردي: هي الابتهاج بتصور حضرة ذات ما.

معلوف: يذهب الاشراقيون الى ان لكلمة محبة مترادفات عديدة اهمها. السرور والابتهاج والرضا والارادة والعشق والاغتباط.

الرسالة القشيرية: قال الله عز وجل: «يا ايها الذين آمنوا. من يرتد منكم عن دينه، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه»[٢٣]. الحق سبحانه يوصف بأنه يحب العبد، والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه. المحبة على لسان العلماء هي الارادة.

(٢١) الرسالة القشيرية، ص ١٦٢ .

(٢٢) كتاب المقامات الصوفية، ص ١٨ .

(٢٣) سورة المائدة، آية ٥٤ .

٩ – التوحيد.

السهروردي: ليس هو عبارة عما هو مشهور في معرفة الله تعالى بالوحدانية والقيومية، بل هنا عبارة عن افراد الكلمة عن علائق الاجرام بحسب الامكان على وجه ينطوي ملاحظة المبادئ والترتيب في العظمة القومية.

معلوف: المقصود «بعما هو مشهور في معرفة الله تعالى بالوحدانية والقيومية» هو الموقف الكلامي والفلسفي في مسألة التوحيد. هو موقف يتوسل النظر العقلي والحجاج المنطقي طريقاً الى توضيح معنى الشهادة وشرح آيات التنزيه وتأويل صفات الله الذاتية والارتفاع بما يدل ظاهراً من آيات القرآن على كون الله، في جهة من الجهات، وفي مكان من الأمكنة عن معنى الحدوث.

الرسالة القشيرية: قال عز وجل: «والهكم إله واحد لا اله الاّ هو الرحمن الرحيم»[٢٤]. التوحيد ثلاثة: الأول، توحيد الحق للحق وهو علمه بأنه واحد. الثاني توحيد الحق سبحانه للخلق، وهو حكمه سبحانه بأن العبد موحد وخلقه توحيد العبد. والثالث، توحيد الخلق للحق سبحانه، وهو علم الله بأن الله، عز وجل، واحد، وحكمه واخباره عنه بأنه واحد، فهذه الجملة في معنى التوحيد على شرط الايجاز والتحديد.

١٠ – المكاشفة.

السهروردي: هي حصول علم للنفس، اما بفكر او حدس او بسانح غيبي متعلق بأمر جزئي واقع في الماضي او المستقبل.

معلوف: هي مطالعة القلب لتجليات الاسماء الالهية والقوى النفسانية المؤيدة بمعاني هذه الاسماء، او بواسطة الفكر او الحدس او سانح غيبيّ لا يتم لمن اراد بلوغ انوار التجلي عن طريق البحث وحده. انه وقف على الاشراقيين الذين لا ينتظم امرهم دون سوانح نورية. والكشف مرادف لمعنى الاشراق.

(٢٤) سورة البقرة، آية ١٦٣ .

الرسالة القشيرية: قال الجنيد: «صاحب المحاضرة مربوط بآياته، وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته، وصاحب المشاهدة ملقى بذاته، وصاحب المحاضرة يهديه عقله وصاحب المكاشفة يدنيه علمه، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته»[٢٥].

١١ – المشاهدة.

السهروردي: هي شروق الانوار على النفس بحيث تنقطع منازعة الوهم. وهو بما يرسم من الصور الغيبية في الحس المشترك فيرى ظاهراً محسوساً.
معلوف: يقول عمرو بن عثمان المكي: «المشاهدة توالي انوار التجلي على قلب المؤمن من غير ان يتخللها شر وانقطاع. ومشاهدة الحق تفترض الرؤية اصلاً، الاّ انها ليست رؤية بالعين بل ببصر القلب من غير شبهة ولا وهم».
الرسالة القشيرية: يقول ابن عربي: «المشاهدة هي رؤية الاشياء بدلائل التوحيد، اي رؤية الواحد من خلال الموجود المتكثر، فأشياء الوجود متكثرة في الظاهر واحدة في الباطن ولو لم تكن في الحقيقة واحدة لما ثبتت الواحدية لله. فالله ما اثبت لموجوداته الاّ صفة ما هو عليه من واحدية».

١٢ – الفناء.

السهروردي: الفناء هو سقوط ملاحظة النفس للذاتها من شدة استغراقها في ملاحظة ذات ما تلتذ به. الفناء هو المحو والطمس.
معلوف: الفناء موهبة تنزل على العبد من ربه فتصرفه عن شعوره بذاته البشرية وتبعده عن ملاحظة حاجات نفسه والسعي الى منافعها، وبهذا المعنى يصبح الفناء عن النفس بقاء في الحق وجمعاً وتوحيداً للعبد في ذات الخلق.
الرسالة القشيرية: اشار قوم بالفناء الى سقوط الاوصاف الذميمة، واشاروا بالبقاء الى بروز الاوصاف المحمودة. فمن فني عن اوصافه الذميمة ظهرت عليه الصفات المحمودة. ومن زهد في دنياه بقلبه فقد فني عن رغبته، فاذا فني عن رغبته فيها بقي بصدق انابته.

---

(٢٥) الرسالة القشيرية، النيسابوري، ص ٧٥ .

ان شرح بعض: «الاحوال والمقامات الصوفية» التي اوردها السهروردي في رسالة «مقامات الصوفية» التي تتضمن الندامة والتقوى وخوف الله وتحوي عدداً وافراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تشارك فيها الفكر الفلسفي والعرفان الصوفي ليكونا ثنائية تميزت بها فلسفة شيخ الاشراق.

اما المقامات التي شرحها السهروردي في رسالته «مقامات الصوفية» ولم نشر اليها في هذه الدراسة المقتضبة لضيق المكان هي: الخاطر، خاطر الشيطان، خاطر النفس، خاطر الملك، خاطر الحق، الخواطر الرديئة، المريد، الرجاء، الخوف، العبر، الشكر، الرضا، الشوق، الوجد، التواجد، البسط، القبض، التفتحات واللوائح، السكينة، الجمع، التفرقة، الغيبة، السكر، الصحو، الهيبة، الانس، الوقت، العارف، المجذوب، والاتصال والامتزاج.

الموحدون الدروز والصوفية

الصوفية عند الموحدين الدروز، تحديداً عند مشايخ الاجاويد، هي ممارسة حياتية روحانية مرتكزة على التقوى والورع والايمان الخالص والمطلق بالله تعالى. فهم صوفيون في ملبسهم، زاهدون عن دنياهم، متقشفون في حياتهم، يتمسكون بقوة واصرار بما هو حلال ويرفضون بعناد الحرام، ولا يقربون ملذات الجسد، ويمارسون العبادة والصلاة والتخشع المتواصل الدائم. لهم التقوى والورع والصدق، والصدق عندهم اول الفروض، في اعمالهم ومسراهم، ويعاملون الناس بالحسن واللطف ودماثة الخلق والاحترام والتسامح. وهذه جميعها ممارسات اخلاقية صوفية ظاهرة لا يمكن انكارها او الجدل بها.

تتفق تعاليم الصوفية مع مسلك التوحيد الدرزي في الايمان بقهر النفس بالتقشف والحرمان والعبادة، ثم احتواء ما يقهر الانسان بالابتعاد عن الملذات الجسمانية بحيث ينسلخ عن دنيا الارض، التي يعتبرونها فانية، حتى تتطهر روحه فيصل الى المراتب السماوية، ولكن يختلفون عن بعض غلاة التصوف من ان الانسان عند بلوغه المراتب السماوية، يرى الله تعالى بام العين او يتحد به، عز وجل.

فرض الحلول والاتحاد بالمولى سبحانه وتعالى، يرفضه الموحدون الدروز، اذ يؤمنون ان اللاهوت عند اتحاده بالناسوت، يتجلى للمؤمن بالعالم المعلوم وليس المعدوم، فهم يرفضون عبادة العدم لايمانهم بالجوهر الظاهر الموجود دون الفرض المجهول، المعدوم هو تعطيل الوجود. والانسان لا يعبد ما قد يكون بل يعبد الكائن نفسه جل ذكره.

قبل ان نخوض في علاقة عقيدة التوحيد الدرزية مع مسالك الصوفية، وهي علاقة اساسية ومهمة جداً، علينا ان نظهر الخلفيات التاريخية للصوفية ولعقيدة التوحيد الدرزية بعد التشتت التي اصابها بعد المحنة عام ٤١١هـ.

من اقوال بعض المفكرين، ان الصوفية تبدأ في الأربعة الاوائل الذين شايعوا الامام علي بن ابي طالب بعد اجتماع السقيفة وبيعة ابي بكر الصديق بالخلافة وهم:

سلمان الفارسي، ابو ذر الغفاري، عمّار بن ياسر والمقداد بن الاسود الكندي. ويقول المؤرخ كامل مصطفى الشيبي: «وسوف نرى ان هؤلاء الشيعة الاوائل، هم انفسهم اوائل الزّهاد في الاسلام. وان الزهد قد اخذ عنهم حتى بلغ التصوف. ثم يقولون ان لقبهم بالصوفية لأنهم كانوا يسكنون «الصفة» التي بناها النبي محمد في مسجد المدينة. فهؤلاء الاربعة هم حدود اهل الحق»[1].

ويقول احد المؤرخين الدروز: «وتقدير الموحدين لهؤلاء الصحابة، يتجاوز حدود الشعور بالمحبة والاجلال الى اعتبار هؤلاء المصدر الاول للسلوك الصوفي الاسلامي الرامي الى زرع الفضائل التوحيدية في نفس المريد». ثم يستطرد بقوله: «لقد كان هؤلاء الصحابة بداية الطريق للمسلك الصوفي الذي سيتجذّر ويتعمق مع الزمن عند الموحدين»[2].

سبق وقلنا حاول الكثيرون من المؤرخين المسلمين اضفاء لقب التصوف على زهّاد القرن الأول الهجري، كعمر بن الخطّاب، ابو عبيدة عامر بن الجرّاح، حذيفة بن اليمان، سلمان الفارسي، ابو ذر الغفاري، عمّار بن ياسر وابو الدرداء عويمر الانصاري وغيرهم، ولكن هؤلاء الزهّاد المتقشفين، يطلق عليهم لقب الزهّاد المسلمين التقليديين وليس المتصوفة، لأن حبهم كان للرسول الكريم وبواسطته سعوا الى الاتصال بالله تعالى. واما الصوفية، فكانوا يقولون بالاتصال المباشر بالله من دون وسيط. ويقولون ان رابعة العدوية حلمت بالرسول الكريم يقول لها: «اتحبينني يا رابعة؟ فقالت: من لا يحبك يا رسول الله، ولكن قلبي مليء بحب الله فلا مكان لك فيه».

والشيعة الاوائل تنكروا للصوفية، حتى اتهموهم بالالحاد، لقولهم بالاتصال المباشر من دون وسيط مع الله، لأن بالنسبة للشيعة لا يقوم اتصال بالله الاّ بواسطة الامام، اذن لا اتصال من دون الامام، نائب الله على الأرض.

وكما قلنا سابقاً يقول معظم المؤرخين المسلمين، ان كلمة تصوف لم تعرف في كتب التاريخ، الاّ في القرن الثالث هجري واول من ذكرها كان الجاحظ في

---

(١) كتاب الصلة بين التشيع والتصوف، مجلد ١، ص ٢٣ .

(٢) كتاب اسلام الموحدين، الدكتور انور ابي خزام، ص ٢٣ .

كتابه «البيان والتبيين». اذن يمكن القول ان الزهّاد المسلمين في القرن الاول هجري لم يكونوا من اهل التصوف بل زهّاداً تقليديين مسلمين.

قدم حمزة بن علي بن احمد القاهرة عام ٤٠٥هـ، واعلن دعوة التوحيد عام ٤١٠-هـ فلقي معارضة قوية، فاختفى عام ٤١١هـ تاركاً اتباعه، وكانوا من المغاربة الاسماعيلية وقلة من اهل مصر السنة، وهؤلاء لم يكن لهم علاقة بالتصوف لتنكر الفاطميين الشيعة لهذا المسلك ولكن كان يغشى شوارع القاهرة بعض الراقصين والمنشدين في حلقات اقرب الى الشعوذة منها الى عقيدة التصوف.

عند انتقال الدعوة التوحيدية الى بلاد الشام، انقسم الموحدون الى ثلاث فئات. فئة التحقت بالاسماعيلية. وفئة قالت بالاسماعيلية «تقية» هرباً من اضطهاد الفاطميين وحلفائهم بني مرداس. والفئة الثالثة التجأت الى اهل السنة وانضوت تحت عقيدة التصوف، فنالت بذلك حماية اهل السنة، والجدير بالذكر، ان جل قبائل بلاد الشام، عدا الحمدانيين، كانوا على مذهب السنة.

ان انتماء الموحدين الدروز الى المسلك الصوفي في بلاد الشام، بالاضافة الى ابتغاء الحماية من الفاطميين، كان نتيجة تشردهم وتشتتهم وعدم وجود مركز يرجعون اليه لارشادهم ومعونتهم وجمعهم تحت مظلة التوحيد. ثم الاهم من ذلك، عدم وجود كتاب لديهم يهديهم سبيل المعرفة الدينية، بل كان جل ما يملكونه رسائل افرادية متفرقة موجودة عند قلة من الموحدين.

جمع رسائل الحكمة، الأمير عيسى التنوخي، اول شيخ عقل للطائفة الدرزية، ثم انتقلت الى حفيده، واسمه كذلك الأمير عيسى، وهو معاصر للولي الامير السيد عبدالله. والأمير السيد عبدالله رتبها ونظمها في ستة كتب، فكانت اول كتب الحكمة كما نعرفها اليوم. مما يلفت للنظر، ان هذه الكتب المقدسة هي نفسها التي يعتمدها جميع الموحدين الدروز في لبنان وسوريا وفلسطين، مما يثبت عدم وجودها قبل ان جمعها الولي الأمير السيد عبدالله، بل كانت رسائل منفردة ومتفرقة عند بعض الموحدين.

اذن يمكن القول، ان منذ وقت المحنة عام ٤١١هـ وتشتت الموحدين، حتى زمن الولي، الامير السيد عبدالله، (٨٢٠ - ٨٨٤هـ) اي خلال مدة اربعمائة سنة، تأثر

الموحدون الدروز بالمسلك الصوفي، وما زالوا يعتمدونه في مسلك حياتهم الدنيوية، من زهد وتقشف وعبادة ومحبة الخير، والعمل بالمعروف والنهي عن المنكر، والرضا والتسليم لمشيئة المولى عز وجل وعبادته المباشرة من دون واسطة اذ ليس لدى الموحدين الدروز كهنة أو أئمة أو أحبار.

والوالي الامير السيد عبدالله، كان من كبار اهل التصوف، فكان زاهداً متقشفاً وكانت ممارسته الحياتية الروحانية مرتكزة على التقوى والعبادة والايمان والصلاة. تقول الدكتورة نجلا ابو عز الدين: «ان كتابات السيد مفعمة بروح صوفية، فقد اتبع خطى الصوفية الى معرفة الله. وبعد ان تغلب على شهوات الجسد بلغ درجة القربى من الله»[٣].

ومن اقوال الولي الأمير السيد عبدالله: «خلقت النفس للعبادة والتوحيد. وقبل ان يتسنى لها بلوغ هذه الغاية عليها ان تتخلص من الظلمة التي فيها والتي هي بمنزلة السباع الضارية اذا هاجت اهلكتها، وعليها ان تعلم ان الشر لا يأتيها الاّ من ذاتها وفي النفس الجامعة للقوى الحيوانية قال النبي: «اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك». ينبغي على الانسان ان يبقى في كفاح مستمر معها يوبخها ويعاقبها، ولا يرمي سوط التأديب من يده ساعة واحدة. فمتى قهرت النفس الشهوات اصبحت خاشعة لله، مراقبة لباريها، سائرة الى معرفته، فيمنّ عليها الصفاء والاشراق»[٤].

ويقول الولي الامير السيد عبدالله: «وقاعدة السعادة في الدين والدنيا ان يستشعر العبد حضور خالقه في سرّه وطويته وظاهره وباطنه. فلا يقرع الباب بخالص سريرته الاّ فتح له وشاهد العظمات. وتأتي المشاهدة بعد الانصراف عن كل ما هو سوى الله»[٥].

يوافق الموحدون الدروز اهل التصوف، اذ تقول الصوفية في ان التوحيد هو نفي الصفات عن الله تعالى ويتفقون بالقول: «سبحانه لا يظلّه فوق ولا يقلّه تحت ولا يقابله حد، ولا يزاحمه عند، ولا يأخذه خلق ولا يحده امام، ولا يظهر قبل ولا

(٣) كتاب الدروز في التاريخ، ص ٢٣٦ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٦ .

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٣٧ .

يجمعه كل، ولم يوجده كان، ولم يفقده ليس، وصفه لا صفة له، وفعله لا علة له، وكونه لا امد له، تنزه عن احوال خلقه. ان قلت مضى فقد سبق الوقت كونه، وان قلت «هو» فالهاء والواو خلقه، وان قلت اين؟ فقد تقدم المكان وجوده، هو الأول والآخر، الظاهر والباطن، والقريب والبعيد الذي ليس كمثله شيء»[٦].

ويلتقي الموحدون الدروز والصوفية في المقامات والأحوال. فالمقامات عند الموحدين الدروز تبدأ بالتوبة فهي المرحلة الاولى لطالب المريد الانضمام الى سلك الشيوخ، اصحاب الزهد والعبادة والمعرفة والخير، الذين يؤمنون ان لا يوجد ذنب كبير، الاّ والتوبة اكبر منه. ويقول الله في كتابه الكريم: «... عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم»[٧]. وثم يقول سبحانه وتعالى: «ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقت وان الله هو التّواب الرحيم»[٨]. امّا الصوفي القشيري فيقول: «التوبة اول منزل من منازل السالكين واول مقام من مقامات الطالبين»[٩]. ويقول الفقيه الكبير مالك بن أنس، ان النبي قال: «ما من شيء احب الى الله من شابّ تائب».

اما التوكل، وهو الاسترسال مع الله على ما يريد، فيقول الولي الامير السيد عبدالله: «توكل كل التوكل ولا عذر في التواني. اتوق كل التوق ولا حارس من الاجل، واطلب كل الطلب لا تسخط لما جلب القدر». اما من اهل التصوف، فيقول الشيخ الدقاق: «التوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الاولياء والتفويض صفة الموحدين». ويقول اهل التصوف التوكيل الاكتفاء بالله تعالى مع الاعتماد عليه».

اما مقام الزهد فهو سلوك مقدس واساس العرفان عند الموحدين الدروز ويعتبرونه الايمان الذي يقود المريد الى معرفة التوحيد. اما اهل التصوف فيقولون، «الزهد في الحرام واجب وفي الحلال فضيلة» امّا الصوفي الطوسي فيصف الزهد «الزهد اختيار الفقر على الغنى اختياراً». والموحدون الدروز، كأهل التصوف،

---

(٦) الرسالة القشيرية، ابو القاسم النيسابوري، ص ٤٢ و ٤٣ .

(٧) سورة التوبة، آية ١٠٢ .

(٨) سورة التوبة، آية ١٠٤ .

(٩) كتاب الرسالة القشيرية، ص ٤٥ .

يعتمدون مسلك التصوف في عبادة الله تعالى المباشر من دون وسيط، فلا كهنة او أئمة او احبار لديهم، وعبادتهم في خلوات خالية من الزخارف وبهارج الدنيا، يسودها التقشف والزهد ويعمّها الورع والتقوى وصفاء التوحيد، وهذه قوام مسلك التصوف.

الواقع الذي لا يقبل الجدل ان المقامات التوحيدية والمقامات الصوفية هي مقامات متشابهة تنبع من فلسفة عقائدية واحدة هي الفلسفة اليونانية العقلانية.

وفي كتاب: «المصحف المنفرد بذاته» الذي اكتشفه المفكر كمال جنبلاط ولكن رفضه مشايخ الاجاويد لشكهم في مصدره، واعتبروه ليس من كتب «الحكمة» وبذلك انتفت عنه السرية واصبح في متناول الجميع، بالاضافة ان المقولات والايحاءات الصوفية الموجودة فيه هي وصف حالات نفسية لا علاقة لها بالدين او المعتقدات المذهبية.

الايحاءات الصوفية الموجودة في كتاب «المصحف المنفرد بذاته» جلها عن «الحب الالهي» كما عرفته رابعة العدوية، وساورد بعضاً منها، بدافع الفضول الفكري، فقط للمعرفة العلمية.

صفحة ٤٩: مولاي؛ ان كنت ادعي لك حباً، فانت الفرد اعلم بما ادعيه، وهذا القلب الذي بين اصبعيك يناديك لأنك أنت الصلاة. مولاي؛ لقد انعمت علي فاذقتني رشفة من ثمالة كأس كأس حبك، لقد طاب لي مذاقها. سبقنا يا مولانا، احباب اخلصوا لك الحب فنعموا برضوانك الأبدي، فالحقنا بهم وادخلنا في جنة عشاق جمالك.

مولاي؛ لقلوبنا في حبك لهفات وحسرات وتوسلات اناء الليل واطراف النهار، في تلك الآناء تخلو قلوبنا فيها لك.

صفحة ٥١: مولانا اجعلنا نسير بقدم الروح حتى تطوي بوادي البعد والهجر النائية.

صفحة ٥٩: مولاي؛ انت الذي احببتني بأنت، واسعدتني بك لكونك قريباً من قلبي دون المناجاة فهو السعيد كلما شاقني الوجد اليك.

صفحة ٦٠: مولاي؛ لا استطيع جحود ما بي من اشواق تحن في الى تقديسك

والقربى اليك، وهل استطيع يا مولاي، ان اخفي ما اذقتني من شعوري بأنسك.

صفحة ٦١: سبحانك، انك تتنزه ان اعيش معذباً اطلب القربى منك وانت القريب الرحمن الرحيم. مولاي؛ ما ذقت وما ذاق محب نعيم حبك الاّ تملكته النشوة من نسمات علوية واشواق قدسية.

صفحة ٦٢: مولاي؛ حبك، يا حبيب الارواح، يكمن فيها كمون ضيائك في عيون المستهدين بك.

مولاي؛ انك تسمع وانا احاور نفسي في هواك، يا راح روحي وانت سماع تلك القالة.

صفحة ٨٨: مولاي، امتني في منابع كوثر قربك، ثم أحييتني بتلك النسمات، نسمات فجر ليلة الوصول.

صفحة ٩٣: فمن اين له هذا الضوء، فهل هو اقباس جذوة، ام هو العشق الدائم في اشراقه.

ايه يا مولاي، زدني فما اسعد هذا القلب بحب من احبك، وهو أليف لمن رام وجهك.

صفحة ١١٦: يا روح روحي، يا مبدعي فجر خلقتني، ويا مراشدي، ويا حبيبي.

صفحة ٢٤٦: يا حبيبي ومولاي المعبود، بعزة هواي الذي هوى من لدنك، وبعزة ذلي في مقامي هذا، وبهذه الخدود التي تمرغت رقة وصبابة.

صفحة ٢٥٢: يا حبيبي ومولاي المعبود، اما آن لهذه النفس ان تمن عليها مرة اخرى فتحيط عينها بذواتها.

هذا «الحب الالهي» الكمال الروحاني عند رابعة العدوية، دليل ساطع على تغلغل وانتشار الايمان الروحي الصوفي في القرن الخامس هجري وقت انتشار عقيدة التوحيد الدرزية.

اما بالنسبة الى رداء الصوف الازرق، اي الخرقة الصوفية، فان مفكرين ومؤرخين، مسلمين واجانب، قالوا ان الخرقة الصوفية، التي عرف بها المتصوفة، وكانت لباسهم الموحّد، هي رداء من الصوف الخشن لونه ازرق.

المؤرخ المصري المعروف، الدكتور عبد الرحمن بدوي يقول: «ان ابو الفضل بن محمد الفارمذي، وهو عالم كبير وشيخ صوفي قال «إنَّ خرقة الصوفية كانت من الصوف الخشن ولونها ازرق»[١٠].

كما وان المستشرق الالماني Pretzel يقول: «ان الخرقة الصوفية هي من الصوف وكان لونها ازرق»[١١]. والمؤرخ المسلم الهجوري قال: «اذن ان الخرقة الصوفية وهي رداء كان يلبسه اهل التصوف وهو من الصوف الخشن ولونه ازرق»[١٢].

من المعروف ان العديد من الاجاويد الدروز الاتقياء يلبسون رداء من الصوف لونه ازرق.

---

(١٠) كتاب شخصيات قلقة في الاسلام، ص ١٤٠ .

(١١) كتاب Die Streitschift des Gazalie gegen die Ibahya

(١٢) كتاب المحجوب، ص ٢١١ .

الصوفية بعد القرن الخامس هجري

قبل العهد الايوبي كان التصوف يمثل اتجاهاً فردياً او حلقات صغيرة محدودة من المتصوفة، ولكن عندما استلم صلاح الدين الايوبي الحكم في مصر، عمل جاهداً لتحجيم التشيّع حتى القضاء، عليه، فأعلن المذهب الشافعي السني دينا للدولة، وبنى المدرسة الشافعية، وأمر بنزع جميع اسماء الخلفاء الفاطميين والأئمة الاسماعيلية والأقوال التي تمت الى مذهب التشيع عن جدران المساجد والأماكن العامة، وفوض القضاء بالديار المصرية الى القاضي صدر الدين الهذياني الشافعي وبذلك فتح الباب وشجّع اهل التصوف ان ياتوا الى مصر، اذ كان الفاطميون الشيعة ينكرون التصوف الذي يقول بالاتصال المباشر مع الله تعالى، وبذلك يلغي الامامة التي هي الوسيط بين الله والمؤمنين من خلقه.

في عام ٥٦٩هـ انشأ صلاح الدين اول «خانقاه» صوفية في مصر وهي «سعيد السعداء» وولى عليها شيخاً لأدارتها ووقف عليها الأوقاف ثم بنى دوراً ومنازل لأهل التصوف. ويقول المقريزي: «ان لهم في يوم الجمعة هيئة فاضلة، فتخرج صوفية خانقاه سعيد السعداء في موكب جميل، على رأسهم شيخ الخانقاه وبين يديه خدّام الربعة الشريفة وقد حملت على رأس اكبرهم، والصوفية مشاة بسكون وخفر، الى باب الجامع الكبير، وبعد الصلاة يعودون بنظام الى الخانقاه والناس مصطفّون لمشاهدتهم»[1].

يقول الدكتور نقولا زيادة - كتاب دمشق في عهد المماليك ص ١٢٦ - كان في دمشق ثمان وسبعون زاوية للصوفية الرجال وزاويتان للنساء، وكانت أشهر الطرق الصوفية، القادرية، الوفائية، القلندرية والنبوية. وكان لقب اكبرهم شيخ المشايخ.

اما ابن جبير - رحلة ابن جبير ص ٢٣١ - فيقول: «اما الرباطات التي يسمونها

---

(١) كتاب المواعظ والاعتبار، مجلد ص، ٢ ٤١٥ .

الخوانق فكثيرة وهي برسم الصوفية وهي قصور مزخرفة. وهذه الطائفة من الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها وفراغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في اسباب المعايش واسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان واحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشاً طيباً هنيئاً والدولة تقوم بجميع مصاريفهم وتقدم لهم ما يحتاجونه».

ويقول المؤرخ كامل الغزي البالي الحلبي عن مدينة حلب. «والخانقاه الناصرية، محلها تجاه المحلة الزينية، وهي خانقاه عظيمة واسعة مشتملة على بضع حجرة يسكنها العتقاء السود، نسبتها الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب، لأنه هو الذي عمّرها - بنيت عام ٦٥٣هـ - كما يوجد خانقاه، تكية بابا بيرام لأهل الطريقة القلندرية. وخانقاه زين الدين الصوفي، والتكية الصالحية وشيخ ابي بكر». كما يشير في كتابه الى العديد من الخوانق - تكيات وزوايا صوفية - «كانت منتشرة في مدينة حلب»[٢].

المعروف تاريخياً ان المماليك شجّعوا التصوف، وعمّروا الخوانق واجروا لها ما تحتاجه من الأموال، ولهذا عندما قدم السلطان المملوكي قانصوا الغوري عام ٩٢٢هـ. (١٥١٦هـ) الى حلب لقتال العثمانيين، تقدم منه المتصوفة وطلبوا الانضمام الى جيشه. رفض السلطان الغوري طلبهم ولكن اشار عليهم بتحريض العامة على العثمانيين.

بعد معركة مرج دابق عام ٩٢٢هـ، وانتصار العثمانيين، اضطهد السلطان سليم العثماني المتصوفة لمساعدتهم المماليك، فنزح معظمهم الى قرى جبل السمّاق، وقرى قنسرين وضواحي معرة النعمان، خوفاً من تنكيل العثمانيين.

بعد محنة مصر عام ٤١١هـ، انتقلت دعوة التوحيد الى بلاد الشام التي كانت تحت الحكم الفاطمي. وخوفاً من اضطهاد الفاطميين وغلاة الاسماعيلية، اعتنق قسم منهم الاسماعيلية، والقسم الآخر التجأ، طلباً للحماية، الى القبائل السنية القاطنة شمال البلاد، كبني كلاب، ونمير وعقيل، وعند انتشار التصوف في العهدين الأيوبي

(٢) كتاب نهر الذهب في تاريخ حلب، مجلد ، ص ١١٥ .

والمملوكي، اعتنق معظم الموحدين المسلك الصوفي وبذلك كانوا يشكلون قسماً من متصوفة مدينة حلب.

بعد تشجيع صلاح الدين للصوفية قدم من المغرب والاندلس الى مصر وبلاد الشام كثير من مشايخ الصوفية واسسوا الطرق الصوفية على النسق الذي كان قائماً في المغرب. من ابرز هذه الطرق، الشاذلية اسسها علي بن عبدالله بن الجبّار (٥٩٣ - ٦٥٦هـ) والبكتاشية اسسها الحاج بكتاش الصوفي توفي عام ٧٣٨هـ. القادرية، نسبة للشيخ عبد القادر الجيلاني (٤٧٠ - ٥٦١هـ). القلندرية نسبة الى قلندرة يوسف عرفت عام ٦١٠هـ في دمشق. والعيسيوية اسسها الشيخ محمد بن عيسى وغيرهم[٣].

انتشرت الدور الصوفية، اي الخوانق، الزوايا الرباطات والتكيات في البلدان الاسلامية، ولكن بمرور الزمن، اصبحت هذه الدور، بالاضافة الى التجمّع الصوفي، بيوتاً للضيافة، ولهذا نجد ابن بطوطة في رحلته الشهيرة التي استغرقت تسعاً وعشرين سنة، من عام ٧٢٥هـ الى عام ٧٥٤هـ التي زار خلالها البلدان الاسلامية حتى الهند والسند، ينتقل من قرية الى الى اخرى ويسكن الزوايا الصوفية التي كانت منتشرة في جميع البلاد الاسلامية. في جبل الدروز في سورية، كان يوجد في كل قرية مضافة، يمكن القول زاوية، يأتيها الغريب حيث يقدّم له كل ما يحتاجه من الطعام والمسكن ولا يسأل حتى عن اسمه.

في هذا الوقت انتقل التصوف الى افراد متفرقة، يعمل كل حسب طريقته ومسلكه، الى تجمعات لها مكانتها الاجتماعية والدينية وتحولت الى فرق، قيل ان في القرن التاسع هجري، بلغت اكثر من ثلاثمائة فرقة[*].

في العهدين الأيوبي، وخاصة المملوكي، انتشرت وازدهرت الصوفية واتسعت تنظيمات الصوفية في الخوانق والزوايا. ولكن في أواخر العصر العثماني انحرفت

---

(٣) هناك لائحة بهذه الطرق وغيرها في كتاب «الصوفية في نظر الاسلام»، سميح عاطف الزين، من ص ٥٤٩ الى ص ٥٦٦ مع تفاصيل وشروحات وافية.

(*) يقول المتصوف الهوجري: «في عهد اوائل المسلمين كانت الصوفية حقيقة بدون اسم، ثم صارت في العصور اللاحقة اسماً بدون حقيقة».

الطرق الصوفية وسيطرت عليها الرسوم والعقائد وانتشرت المواكب في الشوارع مع طبولها واناشيدها ورقصها، كما طرأت عليها عوامل ومؤثرات سلبية خلقتها عقائد دخيلة على الاسلام وبعيدة عن العرب مشبعة بالبدع والانحرافات تتعلق بمظاهر اللبس والشعوذة بعيدة عن الدين والمعتقدات الاسلامية.

اطلقوا لقب الاولياء على بعض كبار اهل التصوف وبنوا لهم المقامات والمقاصير والمزارات وصار يطوف حولها العامة السُذّج يقبّلون احجارها[٤] ويحملون النذور والهدايا والقرابين الى ولي، لا ينفع ولا يضر ولا له حق الشفعة أو الكرامات. وفي الوقت نفسه، جماعات من المشعوذين هائمون على وجوههم في الطرق والشوارع يقرعون الطبول ينشدون الاناشيد ويرقصون، ويلبسون الثياب الممزقة، تفوح منها رائحة العفن يحملون «كشكولهم» الى من يتصدق عليهم. عالة على المجتمع لا يمتّون الى الدين بصلة، ظاهرة استغلها اصحاب الغايات اللئيمة للنيل من الاسلام.

وكان الشاعر ابو العلاء المعري من الاوائل الذين استنكروا هذه المظاهر القبيحة فقال:

ارى جيل التصوف، شرَّجيل ... فقل لهم - وأهوَن بالحلول
اقال الله حين عبدتموه ... كلوا اكل البهائم، وارقصوا لي

وقال شاعر آخر:

يا عصبة، ما ضرّ امة احمد ... وسعى على افسادها الاّ هي!
طار، ومزمار ونغمة شادن ... اتكون قطّ عبادةٌ بملاهي؟

وقيل كذلك:

اقال الله، صفق لي وغن ... وقل هُجرا وسمّ الهجر ذكرا؟

(٤) قال امير المؤمنين عمر بن الخطّاب عن الحجر الاسود الموجود في الكعبة «اني اعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع، والله لو ما رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك».

اقوال بعض مشايخ الصوفية الأوائل

المعرفة هي تجلي الله تعالى بالعقل
الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس عن كل طرفة
الورع ملاك الدين والطمع آفة الدين
نعوذ بالله من صرعة الغافل وكبوة الجاهل. (الغزالي).
المشاهدة هي توالي انوار التجلي على قلب المؤمن من غير ان يتخللها ستر وانقطاع. (عمرو بن عثمان المكي)
احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم. (معروف الكرخي)
الزهد في الحرام واجب وفي الحلال فضيلة. (ابو حفص)
الزهد في الحرام لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى.
الزهد اختيار الفقر على الغنى اختيارا. (الطوسي)
الخشوع الانقياد للحق والتواضع استسلام للحق.
الخشوع بذل القلوب لعلاّم الغيوب.
الشوق يسكن باللقاء والرؤية والاشتياق لا يزول باللقاء. (الدقاق)
التواضع نعمة لا يحسد عليها والكبر محنة لا يرحم عليها.
العز في التواضع فمن طلبه في الكبر لم يجده.
الله هو المعروف قبل الحدوذ وقبل الحروف. (الشبلي)
العقل يدل، والحكمة تشير، والمعرفة تشهد ان صفاء العبادات لا ينال الاّ بصفاء التوحيد. (المرائمي)
العقل لم يوجده كان ولم يفقده ليس. (الجنيد)
القرب بالوجد جمع والغيبة بالبشرية تفرقة. (الجنيد)
التصوف ان تكون مع الله بلا علاقة. (الجنيد)
القلوب شواهد الحق
المعرفة تنير السبيل الى الحقيقة التي هي برهان العقل.

الاحوال تأتي من الوجود نفسه والرضا من جملة الأحوال.
اصل التقوى اتقاء الشرك والمعاصي.
السفر توجه القلب الى الله تعالى.
الفناء عدم رؤية العبد لفعله.
التجلي ما ينكشف للقلب من انوار الغيوب. (الغزالي)
الرمز معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به الاّ اهله.
التسليم الرضا بقضاء الله تعالى والصبر على دوام المجاهدة. (الغزالي)
الورع ان يتورع الانسان عن كل ما سوى الله تعالى. (الشبلي)
الورع اول الزهد كما ان القناعة طرف الرضا. (الداراني)
القناعة بمنزلة الورع من الزهد، هذا اول الرضا وهذا اول الزهد. (عبد الواحد بن زيد)
القناعة ترك التشوق الى المفقود والاستغناء بالموجود.
القناعة رضا النفس بما قسم لها من الرزق.
اذا اراد الله بك شراً سلبك القناعة وابتلاك بالطمع.
من تابعت عيناه ما في ايدي الناس طال حزنه.
التوكل الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد.
التوكل هو الاعتصام بالله تعالى.
التوكل الاكتفاء بالله تعالى مع الاعتماد عليه.
المتوكل يسكن الى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، والتفويض يرضى بحكمه. التوكيل بداية، والتسليم واسطة والتفويض نهاية. (الدقاق.)
الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة. (الشبلي)
الشكر الكامل يكون بالقلب واللسان والافعال.
التوكيل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الاولياء، والتفويض صفة الموحدين. (الدقاق)
شكر العينين ان تستر عيباً تراه وشكر الاذنين ان تستر عيبا سمعته. (التستري)
اليقين اذا وصل الى القلب يملأ القلب نوراً وينفي عنه كل ريب ويمتلئ القلب به

شكراً ومن الله تعالى خوفاً. (الانطاكي)

اول مقامات اليقين المعرفة ثم التصديق ثم الاخلاص ثم الطاعة للمولى تعالى.

اول واجبات المؤمن المعرفة بالله تعالى ثم نفسه، والمعرفة هي النظر الصائب في الادلة وفي البرهان والايمان بالتوحيد.

اليقين النظر الى الله تعالى في كل شيء والرجوع اليه في كل شيء والأستعانة به في كل حال. (ذو النون المصري)

اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يتجول ولا يتغير في قلب المؤمن. (الجنيد)

على قدر مفارقة المؤمن للنفس يصل الى اليقين. (ابن عطا)

اليقين رؤية العيان بقوة الايمان. (التستري)

اليقين هو العلم بأنه لا فاعل الاّ الله ولا معين الاّ الله تعالى.

الصبر هو الفناء في البلوى بلا ظهور شكوى.

الصبر لله تعالى عناء والصبر بالله تعالى بقاء.

الرجاء يحركك الى الطاعات والخوف يبعدك عن المعاصي والعقل يؤدي بك الى طرق الحقائق.

الرضا هو نهاية التوكيل.

الراضي بالله تعالى هو الذي لا يعترض على تقديره.

الرضا ان لا تعترض على الحكم والقضاء.

الفرض الدائم هو الصدق.

التصوف ان لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء. (سحنون).

التصوف هو الاخذ بالحقائق والاعراض مما في يد الخلائق. (الكرخي)

التصوف كف فارغ وقلب مليء بحب الله تعالى.

التصوف ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع وعمل مع اتباع. (الجنيد)

الصوفي منقطع عن الخلق متصل بالحق. (شبلي)

الصوفي لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب. (ذو النون)

الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء.

الصوفية حال تضمحل معها متطلبات الجسد. (المزابلي)

التصوف الاعراض عن الاعتراض. (الصعلوكي)

الصوفي قوته ما وجده، ولباسه ما ستره، ومسكنه حيث نزل وفناؤه في الله تعالى.

التصوف ترك ما لا يعني. (الطوسي)

التصوف ترك العلو والترفع وبذل الجاه. (الطوسي)

ألا يريد الصوفي الا ما يريده الله.

التصوف القناعة بقليل الدنيا بكثيرها.

الصوفي لا يضطره الله التكوين الى الكلام، وكلامه اليه كيف شاءَ كان، خزائنه من كلمته. (المكي)

الموحد يأخذ اعلى التوحيد من ادنى الخطاب وايسره. (الجنيد)

الصوفي يختار الشكر على الصبر لأن الصبر حال اهل البلاء.

الصوفي لا يسأل من احد شيئاً ولا يأخذ من احد شيئاً.

النعمة العظمى هي الخروج من النفس والنفس اعظم حجاب بينك وبين الله تعالى.

احسن لباس العبد التواضع والانكسار، واحسن الناس العارفين التقوى ولباس التقوى ذلك الخير.

الرضا هو محبة الله الله تعالى والتسليم والخضوع لمشيئته.

شجرة المعرفة تسقى بماء الفكر، وشجرة الغفلة تسقى بماء الجهل، وشجرة التوبة بماء الندامة، وشجرة المحبة تسقى بماء الاتفاق والاخلاص.

التقوى هي الوقوف على الحدود لا يقصر فيها ولا يتعداها.

الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر وانقطع الى الله دون البشر واستوى عنده المال والمدر. (تستري)

الصوفي من يملك الأشياء اقتداراً ولا يملكه شيء اقتهاراً. (المغربي)

الصوفية عبيد الظواهر احرار البواطن. (الكتاني)

الصدق صحة التوحيد مع القصد. (الواسطي)

الصدق عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه وهو ثاني النبوة. (الدقاق)
انا لا اعمل ولكنني اسمع فافعل والله يأمر بالفعل. (الغزالي)
لا تعلقوا الجواهر في اعناق الخنازير، (الغزالي)
ان من الفساد ان يسارع احد الى تكفير احد لأنه يخالفه في مذهبه.
الوقت ما بين، الماضي والمستقبل. (الغزالي)
التوحيد هو اقرار الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال احديته. (الجنيد)
كل وقت يمر يأخذ بعضي ويورث قلبي حسرة ثم يمضي. (الغزالي)
ان الله مع كل شيء وقبل كل شيء وفوق كل شيء ومظهر كل شيء.
ليس هناك في الوجود موجود حقيقي الاّ الله تعالى وكل ما سواه مستمد منه. (الغزالي)
الارادة هي التجرد لله في السلوك الى كمال التوحيد وهي ممدوحة ومطلوبة. (القشيري)

رسائل اخوان الصفا وخلّان الوفا

تمثل رسائل اخوان الصفا وخلاّن الوفا منعطفاً فلسفياً مؤثراً في تاريخ الفكر الاسلامي. فقد كانت وما زالت مثاراً للجدل والبحث، رغم ان طابعاً من السرية كان، ولا يزال يلفها، اضافة الى حذر اسماعيلي من ترويجها في ظل الاضطهاد العباسي للمفكرين الخارجين عن مذهب السنة وملاحقتهم لكل من ينتمي او يشايع آل البيت.

رسائل اخوان الصفا كنز فكري ثمين موسوعة علمية وتراث فلسفي يجمع بمجمله الفلسفة اليونانية والعلوم الفكرية الاسماعيلية. تضاربت الاقوال عن هدف هذا التطور الفكري الاسلامي ومراميه. وبالنظر لسرية وحرص اربابه عليه لم يتمكن المفكرون من تفسير اسسه، وتوضيح تاريخ كتابته، فقد اخفيت اسماء كتبته خوفاً على حياتهم انذاك وضمانا لسلامتهم من الاضطهاد العباسي وخصوصاً كقولهم بالقدرية[1].

الفيلسوف البارز ابو حيان التوحيدي، وهو تلميذ الامام جعفر الصادق، يقول (ويوافقه على ذلك ابو سليمان المنطقي السجستاني) ان هذه الرسائل كتبت في البصرة في القرن الثاني هجري. ولكن مفكرين اسماعيليين آخرين يؤكدون ان الذي أشرف على كتابة هذه الرسائل، وكتب الرسالة الجامعة، هو الامام الثالث المستور احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل وذلك في مدينة «سلمية» في بلاد الشام. ولما كان الامام احمد في مصياف عام ١٧٩هـ يرجح ان تكون الرسائل كتبت في القرن الثاني للهجرة.

---

(١) يقول ابو سليمان المنطقي السجستاني، وقد عاصر جابر بن حيان التوحيدي ان مؤلفي رسائل اخوان الصفا هم: زيد بن رفاعه، ابو الحسن علي بن هارون الزنجاني، ابو احمد المهرجاني، ابو الحسن العوفي، ابو سليمان عمر بن معشر البستي المعروف بالمقدسي وذلك في البصرة ابان القرن الثاني هجري، كتاب «صوان الحكمة».

الدكتور ماجد فخري يقول: «ان نشأة هذه الجمعية واغراضها السياسية – الدينية بالامكان استخلاصها من الرسالة الرابعة والاربعين في اعتقاد اخوان الصفا «في بيان اعتقاد اخوان الصفا» حيث ورد ان الاخوان جماعة من الساعين في طلب الحق، يؤلف بينهم احتقار الدنيا، ونبذ بهارجها، وتفانيهم في سبيل الحق مهما كان مصدره، وان «العلم الالهي» هو غرضهم الاول»[٢].

ويقول اخوان الصفا: «وبالجملة ينبغي لاخواننا، ايّدهم الله تعالى، ان لا يعادوا علماً من العلوم، او يهجروا كتابا من الكتب، لا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم جميعها، وذلك انه هو النظر في جميع الموجودات واسرها الحسية والعقلية من اولها الى أخرها، ظاهرها وباطنها، جليها وخفيها، بعين الحقيقة من حيث هي كلها مبدأ واحد، وعلة واحدة، وعالم واحد ونفس واحدة»[٣].

رغم ان رسائل اخوان الصفا تشكل موسوعة فلسفية اسلامية مشبعة بالفكر اليوناني، فقد تأثرت بفلسفة مذاهب المسيحية واليهودية والحكمة الهندية والعلوم الفارسية وتناولت المواضيع العلمية، كالكيمياء والحساب والطب والفلك، وهي علوم درسها وطورها كبار العلماء الأولين في وقت كانت الفلسفة تعتبر علوماً الحادية وكفرا.

بين المفكرين والفلاسفة الاوائل في الاسماعيلية كان احمد ابو عبدالله النسفي، وابو يعقوب اسحق السجستاني وابو حاتم الرازي وداعي الدعاة المفكر الكبير احمد حميد الدين الكرماني وعبدالله بن حسين بن علي والد الفيلسوف ابن سينا.

يقول المؤرخ ادريس عماد الدين[٤] ان الدافع لكتابة هذه الرسائل كان ظن المأمون[٥] ان امر الله قد انقطع وان صحبته ارتفعت، فحين ظن المأمون ذلك ووهم

---

(٢) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ٢٢٧ .

(٣) رسائل اخوان الصفا، المجلد الرابع الرسالة الرابعة، ص ٤١ و ٤٢ .

(٤) مؤرخ يمني كتب «عيون الاخبار».

(٥) الخليفة المأمون عبدالله بن هارون الرشيد (١٩٨ – ٢١٨هـ) كان معتزلياً وتأثر كثيراً بالفلسفة اليونانية جلب كتبها من بيزنطية وكان عنده مكتبة لكتب الفلسفة اليونانية تعدّ من اكبر مكتبات العالم. احرقها المغول عند احتلالهم بغداد.

سعى الى تبديل شريعة محمد وحاول التلاعب بجوهرها وان يرد الناس الى الفلسفة وعلم اليونان فخشي الامام احمد[٦] ان يميل الناس الى زخرف المأمون بدلاً من أحكام شريعة جده، فألف رسائل اخوان الصفا»[٧].

بينما قال السيد غلام احمد القادياني في رسالة «عسل المصفى» «ولما خشي السيد الامام احمد بن عبدالله، ان يزيغ المسلمون عن الشريعة المحمدية الى علوم اخرى ألف رسائل اخوان الصفا». يؤكد المستشرق «كازانوفا» ان الفكر الاسماعيلي كله موجود في رسائل اخوان الصفا. ويقول الدكتور عبد اللطيف الطيباوي، «ان فلسفة الاسماعيلية جميعها مبثوثة في رسائل اخوان الصفا اما المفكر «ديفروفري» فيقول إن زعيم الاسماعيلين السوريين «سنان بن سليمان» الملقب براشد الدين تناول علوم الفلسفة واطال نظره في كتب الجدل والخلاق، وأكبَّ على مطالعة رسائل اخوان الصفا»[٨].

تناول العديد من المستشرقين رسائل اخوان الصفا في بحوثهم الفكرية، منهم «طومسون» في كتاب «تحفة اخوان الصفا» عام ١٨٢٧م. ثم المستشرق الالماني «نوورك» في نشر رسالة في برلين عام ١٨٣٧م. ثم «ديتريش» الالماني في كتاب «العلوم الفلسفية عند العرب» عام ١٨٨٦م. ثم كتب في ما بعد «خلاصة الوفاء في اختصار رسائل اخوان الصفا». كتب عنهم «جولد تزهير» صدر عام ١٨٨٨م. وكذلك كتب المستشرق «باربيت دي مينار» «وويمر ثم «مكدونالد»، «ولويس ماسينيون» الفرنسي، وسيلفستر دي ساسي، الذي كتب كتاب «دين الدروز» والمستشرق الروسي المعروف «ايفانوف» «وستانيسلاس غويارد» وغيرهم[٩]. ان معظم هؤلاء المستشرقين اعتبر رسائل اخوان الصفا من القواعد الاساسية للفلسفة الاسلامية ومنطلق تغلغل الفكر اليوناني اليها.

---

(٦) هو الامام المستتر احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل «تقي محمد».

(٧) كتاب عيون الأخبار، ص ٢٢٩ .

(٨) ابن سينا في مرابع اخوان الصفا، ص ٩٥ .

(٩) المصدر نفسه عارف تامر، ص ٩٢ و ٩٣ .

اما ابرز الباحثين العرب المحدثين، الذين ناقشوا رسائل اخوان الصفا، احمد زكي باشا ومحمد كرد علي والدكتور عمر فروخ والدكتور عبد اللطيف الطيباوي، الدكتور جميل صليبا وعادل العوا وغيرهم من المفكرين العرب الذين عاشوا في القرن العشرين وكتبوا دراسات عن هذه الرسائل.

ويقول المؤرخ السوري المعاصر، الدكتور سهيل زكار: «لقد شكل القوم الذين تبعوا اسماعيل بن جعفر الصادق، بعد عمل سري طويل، فرقة فاقت في اعدادها المحكم، وتنظيمها الدقيق المتقن في مجال الفكر الفلسفي والثقافي العالي مع الاثارة العاطفية والانفعال، فاقت كل الفرق التي سبقتها وناقشتها. ففي مكان العمل المشوش للفرق السابقة، والايمان البدائي والاعتماد على الفورات العاطفية، احكم عدد من العلماء ذوي القدرات الخارقة والعقول الجبارة نظاماً دقيقاً للعقيدة الاسماعيلية على مستوى فلسفي في غاية الرقي، وانتجوا ادباً رفيعاً بدأ الآن رجال عصرنا بالاعتراف بقيمته وأثره»[١٠].

دعا اخوان الصفا في رسائلهم الى اقامة الخير دون تحديد الجنسية او العقيدة والى الالتفاف حول دولتهم التي سموها بدولة «اهل الخير» التي اقاموا بنيانها على التحرر واقامة العدالة والمساواة بين الناس دون تميز العرق، وعلى الانسان ان يزيح عن عيونه ومن قلبه الحقد والتعصب اللذين يغطيان الحقيقة ويحجبانها عن الأنظار.

اما المفكر «دي بوير» فيقول ان اراء اخوان الصفا ظهرت في جملتها من جديد عند فرق كثيرة في العالم الاسلامي، كالباطنية، والاسماعيلية، الحشاشين والدروز، وقد افلحت الحكمة اليونانية في ان تستوطن الشرق وذلك عن اخوان الصفا[١١].

بعض المفكرين يقول ان رسائل اخوان الصفا كانت الاساس الفلسفي للعقيدتين، الاسماعيلية، وفي وقت لاحق، التوحيدية الدرزية، وخصوصاً في عمقها الفلسفي اليوناني، وبالتحديد نظرياتها التي روجها الفيلسوف افلوطين، المعروف عند العرب بالشيخ الاسكندراني، عن فلسفة الفيض.

---

(١٠) كتاب عصر ابن سينا السياسي، ابن سينا في مرابع اخوان الصفا، ص ٢٣٠ .

(١١) كتاب تاريخ الفلسفة في الاسلام، ص ١١٢ .

الدكتور «فرهاد دفتري»[١٢] الذي يعتبر، من دون منازع، الخبير والمرجع الاول في تاريخ الاسماعيلية، يقول في كتابه القيم، «الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم» الذي يحتوي على ادق المعلومات والتفاصيل والمراجع المهمة. «لم يكن للرسائل اي تأثير على الاسماعيلية المعاصرة لها، بما فيها العقائد التي دعا اليها الاسماعيليون الفاطميون، كما لم يشر اليها مؤلفو الفترة الكلاسكية[١٣]. وكان يجب مرور قرنين على تصنيف الرسائل لتبدأ فتحتل مكاناً مهمًا في ادب الدعوة الاسماعيلية «الطيبة»[١٤] وواضح ان الداعي ابراهيم بن الحسن الحامدي (توفي عام ٥٥٧هـ) كان اول من ادخل الرسائل الى ادب الجماعة «الطيبة» في اليمن وأصبحت الرسائل، منذ تلك الفترة فصاعداً، تدرس على نطاق واسع وجرى التعليق عليها من قبل دعاة اليمن ومن قبل حلفائهم الهنود من جماعة «البهرة» الداؤدية فيما بعد»[١٥].

اذن بالنسبة للدكتور «فرهارد دفتري» لم يكن تأثير ملحوظ لرسائل اخوان الصفا على العقيدة الاسماعيلية، الاّ في زمن انتشار الفرقة الطيبة، اي ابتداً من عام ٥٢٤هـ وهذا ينقض جميع المقولات عن تأثير الرسائل على العقيدتين، الاسماعيلية وثم لاحقاً الدعوة التوحيدية الدرزية.

مما يلفت النظر ان اخوان الصفا كانوا على اختلاف جذري مع الاسماعيلية اذ هاجموا عقيدة «الامام المهدي المنتظر»، وهي ركن اساسي في مذهب الاسماعيلية،

---

(١٢) الدكتور فرهاد دفتري ولد في ايران عام ١٩٣٨ ودرس في جامعات ايران، ايطاليا بريطانيا والولايات المتحدة ونال شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة «باركلي». في كاليفورنيا.

(١٣) الفترة الكلاسيكية الاسماعيلية الفكرية تبدأ في عهد الامام اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق توفي عام ١٣٨هـ. وتقول بعض المصادر الاسماعيلية عام ١٥٨هـ وتنتهي عند اعلان عبيدالله المهدي الخلافة الفاطمية عام ٢٩٦هـ. عندها انتهى الدور الكلاسيكي الاسماعيلي.

(١٤) الفرقة «الطيبة» الاسماعيلية ظهرت في مصر عام ٥٢٤هـ بعد اغتيال الخليفة الامر باحكام الله ابن المستعلي بالله وادعاء الوصي الامير عبد المجيد الحافظ الامامة والخلافة، انشقت الاسماعيلية الى «طيبة» وهم اتباع الطفل «الطيب» ابن الخليفة الامر باحكام الله وانتقلت الى اليمن ومنها الى الهند ولقبوا اتباعها الهنود «بالبهرة» والفرقة الحافظية، اتباع الوصيّ الحافظ التي انتشرت في مصر.

(١٥) كتاب الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم، ترجمة سيف الدين القصير، ص ١٣٢ .

فيقولون «وهكذا حكم من يرى ويعتقد ان الامام الفاضل الهادي مختفٍ لا يظهر من خوف مخالفيه. واعلم ان صاحب هذا الرأي يبقى طول حياته منتظراً لخروج امامه متمنياً لمجيئه مستعجلاً لظهوره، ثم يموت بحسرة وغصة لا يرى امامه، ثم اعلم ان امثال هذه الآراء الفاسدة كثيرة»(*).

تتألف كتب رسائل اخوان الصفا من اربع مجموعات تحوي مزيجاً من الفلسفة الفيثاغورية. والافلاطونية وفلسفة ارسطوطاليس. وهذه المجلدات الأربعة هي رسائل الرياضة الجسمانية والطبيعية والنفسانية العقلية والناموسية الآلهية والمنطقية الارسطوطاليسية.

«المجموعة الاولى تتألف من اربع عشرة رسالة عن تفسير علم الرياضيات.

المجموعة الثانية تتألف من سبع عشرة رسالة تشرح مؤلفات ارسطوطاليس في المنطق والطبيعة.

المجموعة الثالثة تتألف من عشر رسائل تبحث في الفيض والتجلي والتوحيد وفي العقل ونشوء الانفس الجزئية وطاقة الانسان من المعارف والعقل والمعقول والعلل والمعلولات.

المجموعة الرابعة تتألف من احدى عشرة رسالة تبحث في التصوف والشرائع والديانات والله، عز وجل، والناموس الالهي والنبوة»[١٦].

اما «الرسالة الجامعة» التي يرجح ان يكون الفها الامام المستتر احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل، فتشمل حقائق جميع الرسائل وهي عبارة عن مقدمات مع تفسير لها والادلة عليها.

ما يهمنا من هذه الرسائل ما يتعلق منها بالفلسفة اليونانية، وخصوصاً فلسفة الفيض، كما يهمنا، ولوجزئياً فلسفة فيثاغوروس[١٧] في العدد لانها تقول بالتوحيد، والدروز لقبهم الموحدون.

(*) رسائل اخوان الصفا، ج ٤، ص ٥٨ .

(١٦) رسائل اخوان الصفا، الجزء الاول ص ١٣ - ١٨ مقدمة بطرس البستاني.

(١٧) فيثاغوروس فيلسوف يوناني عاش في مدينة «حرّان» في بلاد الشام. وحرّان كانت المنطلق الاول للفلسفة اليونانية الى الفكر الاسلامي، وقيل ان فلسفة «هرمس» الفيلسوف البابلي وجدت في «حران».

وللعدد اهمية كبرى في رسائل اخوان الصفا. فالعدد هو واحد لا ينقسم ولا جزء له البتة. والكثرة تنشأ في اضافة الواحد الى الواحد، «ولهذا يعتبر فيثاغوروس ان الواحد هو اصل العدد ومنشأه والرياضيات تؤدي الى معرفة النفس ومعرفة النفس الطريق الى معرفة الله عز وجل»(١٨).

ويقول اخوان الصفا ان فيثاغوروس قال: «ان معرفة العدد وكيفية نشوئه من الواحد الذي قبل الاثنين، معرفة وحدانية الله، عز وجل، وفي معرفة خواص الأعداد، وكيفية ترتيبها ونظامها، معرفة موجودات الباري تعالى وعلم مخترعاته وكيفية نظامها وترتيبها»(١٩).

ويقولون، «واعلم يا اخي الباري، جل ثناؤه «اول شيء اخترعه وابدعه من نور وحدانيته جوهر بسيط يقال له العقل الفعّال. كما انشأ الاثنين من الواحد بالتكرار. ثم انشأ النفس الكلية الفلكية من نور العقل، كما انشأ الثلاثة بزيادة الواحد على الاثنين. ثم أنشأ الهيولى الاولى من حركة النفس، كما انشأ الاربعة بزيادة الواحد على الثلاثة. ثم انشأ سائر الخلائق من الهيولى ورتبها بتوسط العقل والنفس، كما انشأ سائر العدد من الاربعة، باضافة ما قبلها اليها كما مثّلنا قبل»(٢٠) ثم يقولون «فقد انبأناك بما ذكرنا من ان نسبة الباري، جل ثناؤه، من الموجودات كنسبة الواحـ من العدد، كما ان الواحد اصل العدد ومنشأه واوله وآخره، كذلك الله، عز وجـ هو علة الاشياء وخالقها اولها وآخرها، وكما ان الواحد لا جزء له ولا مثل له العدد، فكذلك الله، جل ثناؤه، لا مثل له في خلقه، ولا شبه»(٢١).

ويقولون: «وكما ان الباري، جل ثناؤه، لا شريك له ولا شبه ومثل، وكـ الواحد موجود في الجميع ومحيط بها، كذلك الباري، جل ثناؤه، شاهد عل موجود به. وكما ان الواحد يعطي اسمه لكل عدد ومقدار، كذلك البار

(١٨) كتاب الفلسفة الاسلامية، الدكتور ماجد فخري، ص ٢٣٤ .

(١٩) مجلد رقم ١، ص ٢٠٠ . رسائل اخوان الصفا .

(٢٠) مجلد رقم ١، ص ٥٤ .

(٢١) رسائل اخوان الصفا، مجلد ١، ص ٥٤ .

ثناؤه، اعطى الوجود لكل موجود، كما انه ببقاء الواحد بقاء العدد، كذلك ببقاء الباري، جل ثناؤه، بقاء الموجودات ودوامها، وكما ان بالواحد بعد كل عدد ومقدار، كذلك علم الباري تعالى محيط بكل شيء شاهد وغائب»[٢٢] «وقالوا: «كما ان من تكرار الواحد نشوء العدد وتزايده، كذلك من فيض الباري وجوده نشأة الخلائق وتمامها وكمالها»[٢٣].

ما يهم الموحدين الدروز من فلسفة اخوان الصفا، هو شرحهم وتفسيراتهم لفلسفة الفيض، هي فلسفة الفيلسوف اليوناني افلوطين. الشيخ الاسكندراني. هذه الفلسفة اليونانية هي ايضاً في أساس المعتقدات الاسماعيلية ثم لاحقاً جعلها الامام حمزة بن علي في اساس العقائد التوحيدية. هي فيض الله على العقل والعقل على النفس والنفس على الكلمة ثم الكلمة على السابق ثم السابق على التالي.

ومن الطبيعي ان لا يعتبر البحث في فلسفة الفيض اليونانية افشاء لأسرار الدعوة التوحيدية، لأن معظم المفكرين الاسلام، ابو يوسف الكندي، ابو علي حسين بن سينا، ابو نصر محمد الفارابي، احمد بن محمد بن مسكويه، ابو الوليد محمد بن رشد، ابو حامد محمد الغزالي، هبة الله علي ابو البركات البغدادي، المعروفين باسم الفلاسفة الهلّينيين وغيرهم، كتبوا عن فلسفة الفيض. ويكفي ترويجاً لفلسفة الفيض اليونانية كتب رسائل اخوان الصفا، التي اشبعت هذا الموضوع درساً، وهي في متناول الجميع في كل المكتبات العربية.

تعتبر فلسفة الفيض الافلوطينية مرتكزاً اساسياً في المعتقدات التوحيدية وتصفها رسائل اخوان الصفا بوضوح تام بقولهم: «واعلم يا اخي ان العقل انما قبل فيض الباري وفضائله التي هي البقاء والتمام والكمال، دفعة واحدة بلا زمان ولا حركة ولا نصب لقربه من الباري، عز وجل، وشدة روحانيته. فاما النفس فانه، لما كان وجودها من الباري، جل ثناؤه، بتوسط العقل صارت رتبتها دون العقل، وصارت ناقصة في

(٢٢) رسائل اخوان الصفا، مجلد ٢، ص ١٨١ .

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٨١ .

قبول الفضائل، ولأنها ايضاً تارة تتوجه نحو العقل لتستمد منه الخير والفضائل، وتارة تقبل على الهيولى لتمدها بذلك الخير والفضائل. فاذا هي توجهت نحو العقل لتستمد منه الخير، اشتغلت عن افادتها الهيولى ذلك الخير. واذا هي اقبلت على الهيولى لتمدها اشتغلت عن العقل وقبول فضائله»(٢٤).

ثم يقولون: «وفي وجه آخر نسبة النفس من العقل كنسبة ضوء القمر من نور الشمس. ونسبة العقل من الباري كنسبة نور الشمس من الشمس. وكما ان القمر اذا امتلأ من نور الشمس حاكى نوره نورها، كذلك النفس اذا قبلت فيض العقل، فاستتمت فضائلها، حاكت افعالها افعال العقل، وانما تستتم فضائلها اذا هي عرفت ذاتها وحقيقة جوهرها، وانما تستبين لها فضائل جوهرها اذا هي عرفت احوال عالمها الذي هو صورة الانسانية. لأن الباري تعالى خلق الانسان في احسن تقويم، وصوره اكمل صورة، وجعل صورته مرآة لنفسه، ليتراءى فيها صورة العالم الكبير»(٢٥).

اما فلسفة التجلي الافلوطينية عند مفكري اخوان الصفا، فلها نزعة صوفية واضحة اذ يقولون: «لا تلبث نفسه ان تكتشف ماهيتها الحقيقية كجوهر روحاني، وتسعى لأن تعود الى موطنها السماوي وذلك بالسلوك في المذاهب الروحانية الربانية، والتعبير عن الأمور الشريفة من الحكمة على مذهب السقراطي والتصوف، والزهد والترهب على المنهج المسيحي والتعلق بالدين الحنفي، وهو التشبه بجوهرها الكلي ولحوقها بعالمها العلوي والتوصل الى علتها الاولى. وبهذه الطريقة يتم تطهير النفس من الرواسب المادية التي علقت به في غضون احتباسها في الجسد. وعند ذلك ترى تلك الصور الروحانية وتعاين تلك الجواهر النورانية، وتشاهد تلك الأمور الخفية والأسرار المكنونة التي لا يمكن ادراكها بالحواس الجسمانية والمشاعر الجرمانية ولا يشاهدها الاّ من تخلصت نفسه لتهذيب خلقه، ما دامت مثقلة باعباء الجسد

---

(٢٤) رسائل اخوان الصفا، مجلد ٣، ص ١٨٥ .

(٢٥) رسالة تحفة المستجيبين للداعي الاسماعيلي ابو يعقوب اسحق السجستاني المتوفى عام ٣٣١هـ، اي قبل افتتاح الدعوة التوحيدية الدرزية بثمانين سنة، بها شرح مستفيض وكامل عن فلسفة الفيض اليونانية كما يعرفها الموحدون الدروز.

منغمسة برغباته ولذاته، فهي غير قادرة على الصعود الى الفلك والنظر الى ما هنالك معانيه، ولا تنال تلك النعمة التي نالها هرمس بالحكمة والتي شهد لها ارسطوطاليس، وفيثاغوروس والمسيح ومحمد»[٢٦].

ونرى بوضوح الافكار الصوفية في فلسفة التجلي عند اخوان الصفا اذ يقولون: «اذ ترتفع نفس الانسان من المادة الى المشاهدة الربانية. ثم ان فارقته على البصيرة فيها من امرها وقد عرفت جوهرها، وتصورت ذاتها وتبينت امر عالمها، ومبدأها، وميعادها كارهة الكون مع الجسد، بقيت عند ذلك مفارقة للهيولى واستقلت بذاتها واستغنت بجوهرها عن التعلق بالاجسام، فعند ذلك ترتقي الى الملا وتدخل في زهرة الملائكة وتشاهد تلك الأمور الروحانية، وتتعالى من تلك الصور النورانية التي لا تدركها بالحواس الخمس ولا تتصورها الاوهام البشرية»[٢٧].

اما نفي صفات الله، وهي من صلب فلسفة التوحيد، اطلقتها المعتزلة وقال بها الاسماعيلية ونادت بها عقيدة التوحيد الدرزية، فيرد لها شرح كامل في «الرسالة الجامعة» وهي الرسالة المنسوبة الى الامام احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل، وفيها يسترسل في نفي الصفات عن الله، فلا يترك شاردة او واردة الاّ ويأتي على ذكرها.

ويقول الامام احمد بن عبدالله بن اسماعيل «ان الخالق الباري المبدع – قديم – وقبل الازل، وان عالم الموجودات والمبدعات محدث، لأنه اذا كان غير محدث فيجب ان يكون شيء سابق قد احدثه. واذا كان العالم قديم قبل الخالق، استحال اطلاق صيرورته بالقدم ووجوده بالعدم، واقتضى موجوداً اوجده، فهو المتعالي عن درك الصفات، فلا ينال بحس، ولا يقع تحت نظر، ولا تدركه الابصار، ولا ينعت بجنس، ولا يخطر في الظنون، ولا تراه العيون، ولا يوصف بالحواس. ولا يدرك بالقياس، ولا يشبه بالناس، وهو المنزه عن ضد مناف او ند مكاف، او شبه شيء،

(٢٦) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ماجد فخري، ص ٢٤١ . ورسائل اخوان الصفا مجلد ٢ رسالة ٢١، ص ٧ وما بعد.

(٢٧) رسائل اخوان الصفا، مجلد ٢، ص ٧٩ ، ص ١٣٧ .

تعالى عن شبه المحدودين، وتحيرت الاوهام في نعت جبروته، وقصرت الافهام عن صفة ملكوته وكلت الابصار عن ادراك عظمته. ليس له مثل، ولا شبه، ولا اسم، لأن الاسماء من موجوداته، ولا صفات، لأن الصفات من «ايسياته»[٢٨]، فالاسماء من مبدعاته اوجدها للدلالة عليهم. هو قديم وصاحب الاولية، فالحد الاول انبثق منه، والموجود الاول فاض عنه، وهو «ليس وايس»، وهو موجود لأنه لا يصح ان يكون غير موجود، ولا ان يكون موجوداً من نوع الموجودات التي وجدت عنه، وذلك بأن لا معلول بدون علة، ولا موجود الاّ بما يوجب وجوده، وان الموجودات يستند بعضها في وجوده الى بعض، وان بعض الذي يستند اليه البعض الآخر من الموجودات غير ثابت في الوجود وليس له وجود»[٢٩].

اما العقل وهو مقدس عند الموحدين الدروز، يقول اخوان الصفا عنه «انه الموجود الاول وانه العقل الفعّال». ثم يقولون: «العلم الذي به الوصول الى الاقرار بالله سبحانه انه واحد، وان العقل منه بدأ، وان الأمر عنه صدر، وان العقل محدث، مخلوق مبدع، وان له خالقاً وانه محتاج الى وجود مبدعه، وانه قابل للأمر مطيع لباريه، خائف منه، مجتهد في عبادته، وان النفس دون العقل بالرتبة المنزلة، وان الكلمة متحدة بالعقل الاول، وانه يفيض لجود على النفس»[٣٠].

ويقولون في الرسالة الجامعة: «العقل جسم واحد متهيئ بقبول الفيض الكلي من باريه سبحانه وتعالى ذكره، وان الكلمة متصلة به، يمده بالافاضة والجود ليتم ويبقى في الوجود، ان اول فيضها واتحادها بالمبدع الاول الذي هو العقل الفعّال، ثم بواسطته الى النفس الكلية، ثم بواسطة النفس الكلية الى الهيولى»[٣١].

(٢٨) «ايس وليس» اصطلاحات اسماعيلية. «ايس» تعني الوجود «وليس» تعني العدم.

(٢٩) ابن سينا في مرابع اخوان الصفا. عارف تامر، ص ١١٨ . كتاب رسائل اخوان الصفا،مجلد ٤، ص ٢٠٩ (فصل من فعل الله تعالى الذي فعله بذاته وما يليق به من صفاته).

(٣٠) كتاب الرسالة الجامعة، اخوان الصفا، ص ٢٧٩ - ٢٩٠ .

(٣١) كتاب الرسالة الجامعة، اخوان الصفا، ص ٢٨٧ .

ثم يقولون: «فالبرهان ان العقل يجب ان ينزه بصفات هي اعلى من صفات النفس واجل، لعلو منزلته وعظم مرتبته، فالبرهان لذلك، تنزيه الباري سبحانه عما يوصف به العقل والنفس، لكونهما من مخلوقاته ومخترعاته وانه سبحانه علتهما وسبب وجودهما، لا اله الا هو كل له عابدون»(٣٢).

وايد اخوان الصفا بذلك، داعي الدعاة المؤيد في الدين الشيرازي في كتابه «المؤيدية». اما احمد حميد الدين الكرماني فأطلق عليه في كتابه «راحة العقل» اسم العقل الاول. وابو يعقوب اسحق السجستاني، في كتاب «الينابيع» سمّاه السابق. وقالوا انه يقال «للعقل الاول» ومعناه انه الاولية التي ظهرت فيها المخلوقات، السابق، لانه كان اسبق لقبول آثار الحكمة قبل الحدود القريبة منه. ويقال له القضاء، لأن بالعقل تقضي النفس ادراك المعلومات والظفر بالمطلوبات(٣٣).

مما سبق يمكن الاستنتاج، بالرغم من نفي الدكتور «فرهاد دفتري» تأثير رسائل اخوان الصفا على العقائد الاسماعيلية حتى القرن السادس هجري عند انتشار الفرقة الاسماعيلية «الطيبة» في اليمن، ان العقيدة الاسماعيلية نهلت من فلسفة وفكر اخوان الصفا، وهذا طبيعي لأن كتبة الرسائل اسماعيليون. ومن الطبيعي ايضاً، ان العقيدة التوحيدية الدرزية تأثرت، ولو بدرجة محدودة، بالفكر الاسماعيلي، فالامام حمزة بن علي بن احمد كان عالماً كبيراً في علوم الدين، مطلعاً ومتضلعاً بالأفكار العقائدية الاسماعيلية، فقد كان من الدعاة الذين كانوا يشتركون في الندوات والمحاضرات الدينية والفلسفية التي كانت تقام في دار الحكمة في القاهرة، وكان ايضاً، خريج جامعة جنديسابور في فارس حيث كانت تدرس جميع العلوم الدينية والفلسفية الاسلامية.

لا بد من الاشارة الى موضوع خارج عن رسائل اخوان الصفا ولكن يخلق بعض الابهام عند بعض الموحدين، وهو القول ان عقيدة التوحيد الدرزية هي مدرسة فلسفية يونانية. هذا الاعتقاد بعيد عن الواقع، لأن ذكر الفكر اليوناني في كتب

(٣٢) كتاب الرسالة الجامعة، اخوان الصفا، ص ٩٤ .
(٣٣) ابن سينا في مرابع اخوان الصفا، ص ١١٩ .

ورسائل الموحدين الدروز يرد بصورة مختصرة وعابرة وينحصر في فلسفة افلوطين في عقيدة الفيض. ثم ترد بعض الاشارات الى فلاسفة يونانيين في رسائل المقتنى بهاء الدين التي كتبها بعد المحنة التي اصابت الموحدين بين عام ٤١١هـ وعام ٤١٧ على يد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله، وعمّته ست الملك وداعي الدعاة ختكين الضيف.
ومن الفلاسفة اليونانيين الذين ورد ذكرهم في كتب التوحيد فيثاغورس، الذي اشير اليه مرة واحدة كفيلسوف اهتم في فلسفة التوحيد. اما الفيلسوف افلاطون، فقد ورد ذكره في رسالتين للمقتنى بهاء الدين، حيث نسبت اليه فلسفة الفيض وقيل انه من اكابر الحكماء الذين قالوا بتوحيد الباري تعالى، كما وانه له فخر كونه معلم ارسطوطاليس.
وفي مصحف «المنفرد بذاته»[٣٤] يشير الامام حمزة بن علي بلمحات مقتضبة الى بعض فلاسفة اليونان دون الخوض في فلسفتهم، فيقول باختصار، وهو يشير الى فلسفة كل منهم بكلمة واحدة. فيثا (فيثاغوروس) الرقيم. وبرمين (برمنيدس) الابدي. وديموق (ديمقرطيس) المطمئن. وسقر (سقراط) قرية الدهر. وافلا افلاطون) الظل. وارس (ارسطوطاليس). واايامبلي (يمبلخيوس) الغيظ[٣٥].
هذه الاشارات المختصرة الى الفلاسفة اليونانيين لا تشكل قاعدة متكاملة للقول انها فلسفة او حتى فكرة فلسفية، فمن هذا المنظار لا يمكن القول بأن الدعوة التوحيدية الدرزية دعوة فكرية متأثرة بالفلسفة اليونانية الا بمقدار ما يمكن اعتبار ما اقتبسه الموحدون الاوائل من فلسفة افلوطين في الفيض ممثلاً للفكر اليوناني، علماً بأن صلة الفكر التوحيدي بمدرسة افلوطين قد تكون عبر الفلاسفة المسلمين المعروفين باسم الفلاسفة «الهلينيون» الذين تعرضوا لهذه الفلسفة منهم: ابو يوسف بن اسحق الكندي (ولد في الكوفة عام ١٨٥هـ) وتلميذ الكندي احمد بن الطيب السرخسي. وابو النصر الفارابي (توفي عام ٣٣٩هـ). وابو الحسن العامري (توفي عام ٣٨١هـ).

(٣٤) يقال ان مشايخ الاجاويد لا يعترفون بكتاب المصحف المنفرد بذاته لشكهم في مصدره.
(٣٥) الاسماء التي بين الهلالين من وضع الكاتب لأن الامام حمزة استعمل فقط الاسماء المختصرة. اي، ارس.... افلا.... وفيثا الخ.

والحسين بن عبدالله بن سينا (توفي عام ٤٢٨هـ). واحمد بن يعقوب بن مسكويه (توفي عام ٤٢١هـ) واحمد حميد الدين الكرماني (توفي عام ٤١١هـ) وابو يعقوب اسحق السجستاني (توفي عام ٣٣١هـ) وغيرهم كتبوا عن فلسفة الفيض والتوحيد والتجلي بدقة ووضوح، ومما لا شك فيه، ان كتبهم كانت تدرس في جامعة جنديسابور حيث تلقى علومه حمزة بن علي بن احمد.

والجدير بالاشارة اليه انه قبل القرن الثاني، اي قبل فترة انتشار رسائل اخوان الصفا، لم يكن للعرب تراث علمي أو ثقافي يعتد به خلا رسالة الاسلام الحنيف وما انزل في القرآن الكريم وما ورد في السيرة والحديث. وفي غياب البحث الثقافي والعلمي والفكري سيطرت تعاليم الدين على كل مناهل المعرفة والايمان، فانحصر اعتماد العرب في الدين مدخلاً لكل مسالك المعرفة والايمان واعتبروا الشريعة وحدها دستوراً لهم وتقيدوا بها.

في القرن الثاني هجري انتشرت رسائل اخوان الصفا، التي استمدت افكارها من الفلسفة اليونانية والحكمة الهندية والأدب الفارسي وجُمعت كأساس علمي وفكري لفلسفة اسلامية ناشئة، الاّ انه كان للفلسفة اليونانية التأثير الأكبر على هذه الرسائل. ويقول المفكر الاسماعيلي ابو يعقوب السجستاني: «متى اجتمعت الفلسفة اليونانية والشريعة الاسلامية حصل الكمال».

الخلافات الدرزية التي نتج عنها تخليهم عن حكم جبل لبنان[1]

الدروز تجمع قبلي، هكذا ابتدأ، وهذا هو اليوم، وسيبقى حتى يوم القيامة. الكرم والشجاعة والنخوة والوفاء، صفات سجّلها لهم التاريخ وما زالوا يعيشونها. مصيرهم تصونه كرامتهم، وكرامتهم يصونونها بعز واباء. فخرهم بأمجادهم، وامجادهم هم صانعوها. يقبلون بما تجود به الحياة برضى وتسليم ومنة. فالجحود ممقوت والتنكر لعمل المعروف حقارة.

الدروز يقبلون بالرضا والتسليم بما يصيبهم من المولى، عز وجل، حسناً كان ام قبيحاً. الصغير يحترم الكبير، والكبير يرضخ لمن هو اكبر منه. عادات قبلية موروثة لم تفارقهم ولن تفارقهم، بل هي كيان وجودهم. عاشها اباؤهم وسيعيشها ابناؤهم. قد يخفف الزمن وتطورات الحياة من غلوائها. وهذا ما نلمسه اليوم، وان بنسبة ضئيلة.

يظن بعض المؤرخين ان الدروز خرجوا من الشيعة الاسماعيلية وانهم قدموا لبنان من مصر. والحقيقة ان الوثائق التاريخية تظهر ان العقيدة التوحيدية نشأت في العهد الفاطمي وفي كنف الخلافة الفاطمية. اما عن الأصل العرقي او العنصري، فالوثائق تؤكد ان معظم الدروز يتحدّرون من العشائر التنوخية[2] العربية الاصل

---

(١) كان لبنان يدعى جبل الدروز حتى حكم الامير بشير قاسم شهاب الثاني الكبير (١٧٨٨ - ١٨٤٠م) وكان الامراء الشهابيون يلقبون باسم امير الدروز.

(٢) كلمة تنوخ تعني العرب المستقرة واصل الكلمة من المكان الذي تنوخ به الابل ولذا في التاريخ العربي، حتى قبل الاسلام ترد الكلمة لتعني احلافاً من العرب المستقرة وجل تنوخ التي ارتبط بها الدروز من تنوخ لخم وبهراء وهم حي من اليمن والاحساء والعراق واصلهم من القحطانية.

والمحتد، الاّ قلة كانوا من بني ربيعة[٣] كالمعنيين وبنو جندل[٤] وقرامطة وادي التيم وقرامطة جبل السمّاق قرب مدينة حلب.

استغل الامويون ابان فترة حكمهم لبلاد الشام الصراع القبلي واستفادوا منه لاضعاف بعض القبائل العربية والسيطرة عليها. وفي ذلك الزمن كانت معظم الصراعات بين القبائل تعود الى خلاف على المراعي او مصادر المياه او التنافس الشخصي او الغزو الذي كان يعتبر ضرباً من ضروب الفروسية انذاك، في حين لم يكن للدين والسياسة العامة، بمفهومهما بعد الاسلام، كبير تأثير على الناس.

الاّ ان العداوات القبلية اشتدت كثيراً في العهد الأموي وتحولت الى نزاع سياسي وعقائدي، خصوصاً عندما اعتمد الأمويون العقيدة الجبرية[٥] في حكمهم لأنها كانت تبرر مطامعهم في حكم المسلمين حسب اهوائهم ومطامعهم.

من الصراعات القبلية التي احتدمت في ذلك الوقت، كان الصراع القيسي اليمني، وهذا الصراع خلف تأثيراً كبيراً ومدمراً على مسار تاريخ الدروز فقد نتج عنه التخلي عن حكم جبل لبنان (جبل الدروز) وتسليمه الى الشهابيين، وهم من السنة، بدلاً من اليمنيين الدروز، لأن معظم الدروز الذين اجتمعوا في السمقانية، بعد وفاة الامير احمد المعني عام ١٦٩٧ من دون عاقبة، لانتخاب امير عليهم، كانوا من

---

(٣) ربيعة بطن من قبيلة وائل من العدنانية ومن نسلهم اسد وجديلة. يقول القلقشندي في كتاب نهاية الارب في انساب العرب ص ٢٦٠، وكان لربيعة بن نزار اولاد منهم كلاب وكعب وكليب وعامر.

(٤) بنو جندل بطن من هوازن من العدنانية. كانوا في وادي التيم ثم بعد هزيمتهم على يد المماليك انتقلوا الى الشوف قبل قدوم المعنيين وبقي من اثارهم قرية «حارة جندل» قرب بلدة عماطور.

(٥) العقيدة الجبرية هي القول بأن الانسان مسيّر ومجبر في اعماله من الله تعالى ولا خيار له بذلك. اعتمد الامويون هذه العقيدة كي يبرروا اغتصابهم الخلافة من آل البيت وحرية تبذيرهم اموال المسلمين. قال معاوية ابن ابي سفيان: «لو اراد الله أن يعهد لغيرنا بالخلافة لفعل ذلك» ثم قال: «نحن خزان بيت مال المسلمين والمال مال الله نعطي بما يأمر الله به، ولو اراد غير ذلك لأمرنا به». اما عقيدة القدرية التي نادى بها المعتزلة، بأن الانسان حر في اعماله وغير مجبر، يحاسبه الله عليها ولهذا كان الثواب والعقاب.

القيسيين فرفضوا امارة الامراء الارسلانيين لأنهم من اليمنية، فكان ذلك اول مسمار دق في نعش الحكم الدرزي، فقد اعطى الدروز الحكم، باختيارهم ورضاهم، الى الشهابيين السنة لأنهم قيسيون حزبياً.

لا بد من الرجوع الى التاريخ لفهم حقيقة الصراع القيسي اليمني.

تقول الدكتورة نجلا ابو عز الدين «القيسيون واليمنيون(*) حزبان يعودان في الاصل الى انقسام القبائل العربية الى عرب شمال وعرب جنوب، وكانا يعرفان يعدنان وقحطان، ولم يكن بين الفريقين في الجاهلية تمييز حاد، كما لم يكن بينهما تنافس على اساس هذا الانقسام وقد ظهر التنافس في اوائل عهد الأمويين بين قبيلة كلب الجنوبية(٦) التي كانت تربطها صلة قرابة بالمصاهرة مع الأمويين وبين قبيلة قيس(٧) الشمالية التي كانت تغار منها»(٨).

ويقول الدكتور سيد القمني: «واذا كنا ذهبنا الى ان العدنانيين ليسو عرباً اصلاً، وانما قدموا من اور الكاسين» او انهم احدى القبائل «الكاسية»، فاننا نجد كتب التراث لم تزل تحفظ بين طياتها قولاً رائع الدلالة والتوافق والتناغم مع مذهبنا. فتقول السيرة

(*) المعروف تاريخيا ان من اسباب نداء النبي صلى الله عليه وسلم بالمؤآخاة بين المهاجرين المضريين العدنانيين (القيسية) والانصار القحطانيين (اليمنية) وهم الأوس والخزرج احفاد الأزد القبيلة اليمنية التي، بعد كارثة سد مأرب، نزحت من اليمن واستقر بعضها في يثرب (المدينة). عندما شعر الرسول بالنفور يدب بين المهاجرين والانصار خصوصاً مباهاة المهاجرين العدنانيين بان الرسول منهم، اقترح المؤآخاة فاتخذ كل مهاجر اخاً من الانصار. كما ان العصبية القحطانية - العدنانية كانت سبب خلق الحلف التنوخي اذ عندما قوي نفوذ المضريين العدنانيين، وذلك في القرن الاول قبل الاسلام، خافت القبائل القحطانية اليمنية فاجتمعت عشر قبائل في البحرين بقيادة الأزد وانشأوا الحلف التنوخي للتصدي لخطر العدنانيين.

الجدير بالذكر ان بعض قبائل تنوخ، ومنها لخم، نزحت لاحقاً الى مدينة الحيرة وسوادها كان تحت الحكم الفارسي. واول من أسس مملكة الحيرة كان جذيمة الأبرش ثم خلفه ابن اخته عمرو بن عدي وكان من آل نصر اللخميين الذين يرجع نسبهم الى الأزد اكبر قبائل اليمن. ومن احفاد اللخميين الامراء الارسلانيون الذين اتوا بلاد الشام مع القبائل التنوخية في القرن الثاني الهجري.

(٦) قبيلة كلب هي من قضاعة وكانت مساكنهم في اليمن وجنوب الحجاز.

(٧) قبيلة كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وكانت مساكنهم في جهات المدينة.

(٨) كتاب الدروز في التاريخ، ص ٢٦٧ .

الحلبية «وولد عدنان يقال لهم «قيس» وولد قحطان يقال لهم «يمن» ولسنا بحاجة الى ايضاح ان «كاسي» هو «قيسي»(٩).

اراد معاوية ابن ابي سفيان تمتين صلاته بالقبائل العربية كي تكون سنداً له، وهو الغريب عن المنطقة، فتزوج ميسون، اخت زعيم بني كلب حسّان بن بحدل، التي ولدت له ولي عهده يزيد والذي اصبح الخليفة الاموي الثاني عام ٩هـ(*).

تمكن الخليفة معاوية بن ابي سفيان ان يوافق بين القيسيين واليمنيين فأوجد توازناً بينهما، وذلك باسناد مناصب رفيعة بالدولة كتولية زعيمهم الضحّاك بن قيس الفهري على دمشق الى زعماء القيسية. وبهذه السياسة الحكيمة، تمكن معاوية على اقامة استقرار داخلي في البلاد وكبح النزاع القيسي اليمني(*).

بعد موت معاوية عام ٦٠ هجري ومبايعة ابنه يزيد بالخلافة، اعتمد يزيد على اخواله الكلبيين اليمنيين لمساعدته على السيطرة على القبائل العربية الاخرى. ولكن اعتناق الكلبيين لعقيدة القدرية، التي كان الامويون يحاربونها، وانتقادهم الامويين لاغتصابهم الحكم من آل البيت وثم تبذيرهم اموال المسلمين لاغراضهم السياسية، والحياة الماجنة التي يعيشها بعضهم، كل ذلك خلق نفوراً وتباعداً بين بني كلب اليمنيين والامويين اصحاب السلطة، بقي حتى معركة مرج راهط عام ٦٤هـ.

توفي يزيد بن معاوية عام ٦٤هـ واستلم الخلافة ابنه معاوية الثاني ولكنه تخلى عنها بعد أربعين يوماً واعتكف حتى مات بعد شهرين من اعتكافه، واتهم مروان بن الحكم بقتله ليخلو له الجو لتبوّء الخلافة.

---

(٩) كتاب النبي ابراهيم والتاريخ المجهول، ص ٧٩ .

(*) كان للخليفة عثمان بن عفان زوجة من بني كلب، القبيلة اليمنية، اسمها نائلة بنت القرافصة الكلبية.

(*) عن عداء القيسي اليمني في اوائل الاسلام يقول الدكتور طه حسين: كتاب «الفتنة الكبرى»، ص ١١٠ و ١١٤ «في خلافة عمر بن الخطاب كان الوالي على الكوفة سعيد ابن العاص الذي قال ذات يوم: «ان سواد الكوفة بستان قريش» فغضب القوم وكانت كثرتهم من اليمنيين وردوا عليه رداً غليظاً وقالوا له ان السواد افاءه الله علينا وما نصيب قريش الاّ نصيب غيرها من المسلمين. اذ كان معظم اهل الكوفة من اليمنيين. ثم يقول اراد عمر بن الخطاب ان يولي على البصرة أبا موسى الاشعري، رفضه اهل البصرة لأنه يمني وهم مصريون اي قيسيون.

بعد موت معاوية الثاني تفاقم الوضع الداخلي فدبت الفوضى وأعمال الشغب في دمشق والويلات اذ ادعى بعض الامويين، وغيرهم من بني هاشم بحقّهم في الخلافة، عوضاً عن مروان بن الحكم وهو من الطلقاء وله سمعة سيئة نتيجة الأعمال المريبة التي اقترفها ابان خلافة عثمان بن عفان حين كان مستشاره ومدير اعماله.

تدخل اليمنيون، ومعظمهم كان من بني كلب، لقمع هذا الشغب وحفظ الخلافة في البيت السفياني لأنهم من اولاد ميسون، والدة يزيد بن معاوية وشقيقة الأمير حسّان بن بحدل الكلبي، وكانوا يعتبرون ان صاحب الحق في الخلافة خالد بن يزيد بن معاوية وليس مروان بن الحكم(١٠).

خاف القيسيون، ومعظمهم من بني كلاب، وكانت ديارهم في شمال بلاد الشام، ان يتمكن اليمنيون من تنفيذ رغبتهم في قمع الشغب فيطغى نفوذهم على السلطة ويشكلوا خطراً عليهم، فكان ان فجّر الوضع زفر بن الحارث الكلابي، زعيم القيسية في قنسرين وبايع لعبدالله بن الزبير الذي كان قد اعلن الثورة على الأمويين في الجزيرة العربية مطالباً بالخلافة.

كانت مبايعة عبدالله بن الزبير بموافقة أمير القيسية الضحّاك بن قيس الفهري امير دمشق، الذي انضم اليه الزعماء القيسيون، النعمان ابن البشير امير حمص، وناتل بن قيس امير فلسطين.

اضافة الى السبب الرئيسي لهذه الانتفاضة، كان السبب الآخر لمبايعة القيسيين عبدالله بن الزبير، هو ميلهم الى بيت هاشم، فالقيسيون، بنو كلاب بطن من ربيعة بن عامر وكانت ديارهم، قبل نزوحهم الى بلاد الشام، في جهات المدينة وفدك، فلهذا يكنون الولاء لبني هاشم اهل البيت وعبدالله بن الزبير ابن الصحابي الكبير الزبير بن العوّام ابن صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله. وكان لعبدالله بن الزبير

---

(١٠) كانت قبيلة بني كلب اليمنية، وهي بطن من قضاعة، من اقوى قبائل بلاد الشام واكثرها عدداً وينتشرون في تدمر وجنوب الشام. كان من بني كلب الامير رافع ابي الليل الذي يعتبره الدروز موحداً لمساعدته لهم خلال محنتهم عند اضطهاد صالح بن مرداس وعبد الرحيم بن الياس لهم. قدمت هذه القبيلة الى لبنان خلال القرن الحادي عشر.

جهاد في الاسلام في خلافة ابي بكر الصديق وعمر بن الخطّاب وكان من رفقاء خالد بن الوليد في حروب الردة. كما اشترك في حملة موسى بن نصير في فتح الاندلس. ويقول الدكتور عبد العزيز سالم عن فتح مدينة «سبيطلة». «اذ ان ذلك تم بفضل بطولة عبدالله بن الزبير»(*).

تأزم الوضع في دمشق، خصوصاً بعد التحاق بعض المعارضين لمروان بن الحكم من الامويين والقيسيين بعبداللّه بن الزبير، فاجتمع مؤيدو الأمويين لمروان وقرروا الذهاب الى الأمير حسّان بن بحدل، زعيم بني كلب، للتداول في الموضوع والاتفاق على خطة جامعة لمواجهة القيسيين .عقد مؤتمر «الجابية» قرب بلدة «نوى» في حوران حيث اتخذ القرار لمبايعة مروان بن الحكم بالخلافة والتصدي بالسلاح للقيسيين.

تمكن مروان بن الحكم في مؤتمر الجابية من كسب أمير بني كلب حسّان بن مالك بن بحدل لجانبه بعد ان وعده، بأن الخلافة من بعده، تكون لخالد بن يزيد بن معاوية، وهو ابن ميسون الكلبية اخت حسّان بن بحدل، وان امارة بني كلب تكون لابن حسّان من بعده. قبل مروان بن الحكم هذه الشروط، التي نقضها فيما بعد، لأن مصلحته في ذلك الوقت قضت بذلك.

تكلم حسّان بن بحدل بالناس حيث قال: «رأي لرأيكم، انما كرهت ان تعدل الخلافة الى ابن الزبير وتخرج من اهل هذا البيت»[11]. وبذلك تحول بنو كلب اليمنيين الى مروانيين.

سار مروان بن الحكم الى مرج راهط على رأس جيش مؤلف من بني كلب وغسّان والسّكاسك وكان يساعده في ذلك مجموعة رجال امتازوا بالدهاء والحنكة

(*) كتاب تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس، ص ٨٥ .

(١١) كتاب تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، مجلد ٥، ص ٥٣٧ . وكتاب انساب الاشراف. احمد يحيى البلاذري، مجلد ٥، ص ١٢٨ .

منهم: عبيدالله بن زياد والحصين بن نمير وروح بن زنباع الحزامي وغيرهم»[١٢].

استمرت معركة مرج راهط، التي وقعت عام ٦٤هـ، عدة أيام كان النصر لمروان بن الحكم وقبيلة كلب اليمنية.

بعد معركة مرج راهط عام ٦٤هـ اصبح لليمانيين، خصوصاً بني كلب، نفوذ كبير، اما القيسيون ففقدوا نفوذهم، حتى قيل فيهم المثل المعروف: «مسكين كقيسي في حمص»، ولكن تشبث اليمانيين بالعقيدة القدرية ونفورهم من الامويين اصحاب السلطة، اضعفهم وافسح المجال للقيسيين ان يستعيدوا بعض نفوذهم وينتشروا حتى بلاد الاندلس.

خفت حدة النزاع القيسي اليمني حتى وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز، الملقب بالخليفة الزاهد، عام ١٠١هـ، فتولى الخلافة بعده يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ) فعاد الصراع القبلي ليطل رأسه من جديد اذ كان يزيد ينتصر للقيسية فعيّن على العراق عمر بن هبيرة الفزاري، احد المقربين الى الحجاج بن يوسف الثقفي القيسي: وكان الفزاري من غلاة القيسية فلم يأل جهداً في الاساءة الى اليمنيين مما اثارهم. وكادت تحدث فتنة لو لم يتداركها الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) باقالة ابن هبيرة الفزاري عن العراق وتولية خالد بن عبدالله القسري، وكان من اليمنية[*].

نسمع عن اليمنية بعد مقتل الزعيم اليمني خالد بن عبدالله القسري اذ اعتبروا مقتله اهانة لهم فثاروا على الخليفة الوليد بن يزيد، وكان اشدهم نقمة بنو كلب في بلاد الشام لأن خالد بن عبدالله القسري عاش معهم لمدة طويلة. انضم اليمنيون الى الجماعة التي قتلت الخليفة وليد بن يزيد عام ١٢٦هـ.

(١٢) كتاب نقائض جرير والاخطل، ابو تمام حبيب ابن اوس الطائي، ص ١٦ . ابن الاثير، الكامل.

(*) يقول رياض عيسى، كتاب النزاع بين افراد البيت الاموي «ان القيسية في معركة مرج راهط كانوا جموع، الضحاك بن قيس، النعمان بن البشير امير حمص، وناتل بن قيس امير فلسطين، وزفر بن الحارث الكلابي امير قنسرين».

ثم نسمع عن اليمنية في عهد الخليفة يزيد الثالث (١٢٦ - ١٢٧هـ): «ان الخليفة كان يعتمد على اليمانية وخصوصاً بني كلب اعتماداً كلياً»[١٣].

انتقل الصراع القيسي اليمني الى لبنان والاندلس، مع استمرار التناحر بينهم في البصرة، حيث كان ولاء القيسيين الى بني امية، والكوفة وخراسان، حيث كان اليمنيون يناصرون آل البيت. وفي خراسان انضم اليمنيون الى جيش ابي مسلم الخراساني في ثورته ضد بني امية[*].

وفي دراسة مقتضبة عن النزاع اليمني القيسي في الاندلس، يقول الدكتور السيد عبد العزيز سالم عن قدوم اليمنيين والقيسيين الى الاندلس: «واول هذه الطوالع، طالعة موسى بن نصير في رجب عام ٩٣، ثم طالعة الحر بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة عام ٩٧، وكان اغلب عرب هاتين الطالعتين من اليمنيين. ثم تأتي طالعة الأبلج بن عياض القشيري في سنة ١٢٤هـ واغلبهم من القيسيين. ثم يقول: «ثم بدأ النزاع ينشب بين الشاميين والبلديين (اليمنية) عندما اتم الشاميون مهمتهم في الاندلس وارادوا الاستقرار بها، ثم تحول هذا النزاع الى صراع بين العصبية اليمنية والعصبية القيسية»[١٤].

عند قدوم عبد الرحمن بن معاوية، صقر قريش الى الاندلس، انضم اليه اليمنيون كما انحاز القيسيون الى الوالي يوسف عبد الرحمن النهدي، حفيد القائد عقبة بن نافع.

كان اول اصطدام قيسي - يمني في بلدة «شقندة» جنوبي قرطبة، وكانت معركة ضارية سميت «الفتنة الكبرى» حيث مُني اليمنيون بهزيمة قاسية وقتل العديد منهم.

بعد انتصارات عبد الرحمن بن معاوية، صقر قريش، على يوسف عبد الرحمن الفهري، قويت شوكة اليمنية وفكروا في التخلص من عبد الرحمن بن معاوية لمنعه

---

(١٣) كتاب تاريخ الخلفاء، كاتب مجهول، ص ٣٣٩ .

(*) اليمنيون الذين كانوا في خراسان كانوا من اهل الكوفة الذين نزحوا الى خراسان هرباً من اضطهاد الوالي الأموي عبيدالله بن زياد وابيه زياد بن ابيه، وكانوا من اتباع آل البيت.

(١٤) كتاب تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس، ص ١٢١ .

لهم من الاسترسال في اضطهاد القيسية، وقالوا آزرناه لمساعدته في قتال القيسية، والآن نجعلها «امارة قحطانية»، ولكن عدلوا عن خطتهم لقلة عددهم وقوة جيش عبد الرحمن.

كان آخر ثورة لليمانية على عبد الرحمن بن معاوية، قام بها سعيد بن الحسين بن يحيى الانصاري في اقليم «طرطوشة» وكان نصيبها الفشل وبها انتهى النزاع القيسي اليمني اذ توقف النشاط اليمني في الاندلس.

والى لبنان من بلاد الشام انتقل الصراع القيسي اليمني، ومما زاد في حدته قدوم جماعة من بني كلب، وهي اساس اليمانية ومن غلاتها[١٥]. ثم كان قدوم المعنيين الى لبنان عام ١١٢٠م واستلامهم الحكم مما سبب تفوق القيسية على اليمنية عدداً ونفوذاً وخلق صدامات دموية بينهم بقيت حتى معركة عين داره عام ١٧١١م عندما مني اليمنيون بهزيمة ساحقة وانتهى بذلك دور اليمنية في لبنان وسيطر الحزب القيسي، الذي انقسم بعد ذلك الى ثلاث فئات سياسية، الجنبلاطية، واليزبكية والنكدية الذين لقّبوا «بيضة القبّان».

خلال غياب الامير فخر الدين في ايطاليا وبعد اجتياح الجيش العثماني، بقيادة والي دمشق حافظ احمد باشا عام ١٦١٣ جبل لبنان، وتدميره بعض قرى الشوف وبيوت المعنيين في بلدة دير القمر بمساعدة آل سيفا اليمنيين واشتراك الشيخ مظفر علم الدين، الذي ولاّه حافظ احمد باشا على الغرب والجرد والمتن، قرّر مظفر علم الدين مع حليفه الامير حسين بن سيفا احتلال الشوف وطرد المعنيين القيسيين من جبل لبنان، فجمعا جيشاً من الفي مقاتل في بلدة الناعمة لهذا الغرض.

---

(١٥) مما يؤكد قدوم بني كلب الى لبنان قول الشاعر ابو الفتح منصور المعروف «بالبيني». كتاب اخبار مصر في سنتي ٤١٤ و ٤١٥ . محمد عبيدالله المسبحّي، ص ٦٨ .

سقى الله قوماً حول لبنان مثلما	ترشفت فيه من رضاب ظبائه
قبائل من كلب اذا نزلت به	فقد نزلت فيه نجوم سمائه
نزول على الوادي الذي حرُّ مهجتي	وحر الحشا شوقاً الى برد مائه
ترى كل عين فيه ما في ضميرها	كذلك لون الماء لون انائه

عرف بالأمر الأمير علي المعني، ابن الامير فخر الدين، وكان في مدينة صيدا، فأرسل الى عمه الامير يونس ان يأتي مع اهالي الشوف حيث يلتقيان في الدامور للهجوم على جيش الشيخ مظفر علم الدين الموجود في بلدة الناعمة[١٦].

تجمعت القيسية في بلدة الدامور وكان مع الامير يونس اهالي الشوف ومع الامير علي اهالي صيدا وجمع من الشهابيين وكان عدد الجيش ثلاثة آلاف مقاتل.

وفي صباح يوم الاثنين من شهر شعبان عام ١٠٢٥هـ (١٦١٦م) وقعت المعركة في عين الناعمة فانهزم اليمنيون وتفرق جيشهم في قرى الشوف والغرب والمتن، اما الشيخ مظفر علم الدين فسار الى «الضنية» وتوطن شدرا[١٧].

بعد معركة الناعمة، وهي الاولى بين القيسيين واليمنيين في لبنان، انتقاماً من الشيخ مظفر علم الدين، لمساعدته والي دمشق حافظ احمد باشا، في حرقه قرى الشوف عام ١٦١٣م هاجم دروز الشوف قرى الغرب والجرد والمتن فنهبوها ثم دمّروها، كذلك احرقوا قصر الامير جمال الدين في الشويفات، والامير محمد جمال الدين، هو خال الامير علي المعني، ثم هدموا قرية عرمون عن بكرة ابيها[*].

ويقول احمد بن محمد الخالدي الصفدي: «وكان قد صار في هذا النهار، الذي وقعت فيه هذه الحرب، اربعة حروب بأربعة مواضع، حرب في قرية عبيه، بلد الامير منذر والامير نصر الدين، اميري الشحار، وحرب في اغميد، وحرب في عين

---

(١٦) كانت غيبة الامير فخر الدين في ايطاليا من شهر ايلول عام ١٦١٢م الى شهر تشرين اول عام ١٦١٨م.

(١٧) كتاب «اخبار الأعيان في جبل لبنان». طنوس الشدياق، ص ٦٥ .

(*) يقول احمد بن محمد الخالدي الصفدي: كتاب، «لبنان في عهد الامير فخر الدين الثاني» (ص ٨٨) وكرر هذا القول طنوس الشدياق في كتابه «اخبار الاعيان في جبل لبنان»! «ان الامير فخر الدين راسل الشيخ مظفر علم الدين، الذي كان نازحاً عند ابن سيفا واعطاه قولاً واماناً وأتى به الى عنده واعطاه حكم بلاد الجرد لأن اصله منها واجداده من قديم حكام بها. ثم حارب الشيخ مظفر مع فخر الدين في معركة عنجر». ان الشيخ مظفر علم الدين قطن مدينة طرابلس وعائلة علم الدين الطرابلسية هي من احفاده.

داره بين المساعدة والمطاوعة والحرب الكبيرة في عين الناعمة، وفي جميع هذه الحروب صارت النصرة لجانب بيت معن»(١٨) (*) (**) (***).

وفي عام ١٦٣٣ اعتقل الامير فخر الدين واولاده منصور وحيدر وبلك في قلعة نيحا في الشوف وارسلوا الى دمشق ومنها الى اسطنبول وعيّن الامير علي علم الدين اليمني اميراً على جبل الدروز (جبل لبنان) فاضطهد المعنيين وسلب اموالهم ودمّر قلاعهم، ثم في العام نفسه سار الى بلدة عبيه، حيث اقاربه امراء بحتر القيسيون، وخلال مأدبة اقيمت تكريماً له، قتل امراءهم غيلة، وكان منهم الامراء، يحيي العاقل، محمود، ناصر الدين وسيف الدين وانتهت بذلك سلالة عائلة بحتر القيسية العريقة(١٩).

خلال وجود الامير علي علم الدين في دمشق تمكن عام ١٦٥٣ من اقناع الوالي بشير باشا من ان يوليه الشوف(٢٠) مقابل مبلغ كبير من المال، على ان يصحبه بعسكر لقتال الامير ملحم المعني. وافق الوالي بشير باشا على ذلك فانعم على الامير

(١٨) كتاب في عهد الامير فخر الدين المعني الثاني، ص ٥٢ .

(*) في التاريخ الوسيط والمعاصر للشرق الادنى نلاحظ مرونة في تعريف القيسية اليمنية. ففي جبل لبنان مثلاً، ادت ظروف السياسة المتقلبة الى انقسام البيوت الواحدة الى قسمين قيسي ويمني. وفي ابناء تنوخ انقسم البيت التنوخي الى يمنيين ارسلانيين وعلم الدين والى قيسيين بحتريين. وفي فلسطين نجد الانقسام نفسه فانقسم بيت الجرّاح الى يمنيين ومنهم انسلخ بيت عبد الهادي الى قيسيين.

(**) في عام ١٣٠١ تبرأ الامير علي علم الدين من التنوخيين واصبح في ذلك الحين زعيم اليمنيين.

(***) يقول بعض المؤرخين ان الامير فخر الدين وعائلته تركوا قلعة نيحا، بعد ان لوث الاتراك ماءها، والتجأوا الى مغارة جزين حيث هددهم الاتراك نسفها اذا لم يستسلموا وهذا ما حصل.

(١٩) كان آل علم الدين كالبحتريين، من القيسية وتنوخيين، ولكن الامير علي علم الدين، تبرأ عام ١٣٠١ من التنوخين واصبح من ذلك الوقت زعيم اليمنيين وقد انضم اليه الامراء الارسلانيون. الحزبية القيسية - اليمنية عربية في الاصل ولكن لم تنحصر بهم فآل سيفا الاكراد كانوا يمنيين وكذلك اسرة علي الصغير وآل منكر والصعبية في جبل عامل.

(٢٠) كان سكان بلدة مجدل المعوش دروزاً ولكن عام ١٦٠٩ وقع خلاف بينهم فكثرت القتلى منهم فاتفقوا على بيع القرية والخروج منها فاشتراها منهم الامير علي المعني واعطاها للنصارى.

علي بولاية الشوف وارسل معه جيشاً من خمسماية جندي. لما علم الامير ملحم المعني بقدوم الامير علي علم الدين وجموع اليمنية جمع رجال الشوف من القيسية وطلب نجدة من الاميرين الشهابيين قاسم وحسين. التقى الجيشان في وادي القرن وكانت معركة ضارية انهزم بها الامير علي علم الدين واليمنية ورجع الى دمشق. وقيل ان الوالي بشير باشا غضب على الامير علي علم الدين الذي انزوى في منزله حتى مات عام ١٦٦٠ بمرض الطاعون.

وجرت معارك عديدة، بالاصح مناوشات، بين المعنيين القيسيين وآل علم الدين اليمنيين، عندما ولّى محمد باشا والي صيدا عام ١٦٦٤ الامير محمد بن علي علم الدين[٢١] مع احد مشايخ آل علوان على جبل لبنان. ولكن الامير احمد بن الامير ملحم ثار على هذه الولاية فحصلت مناوشات لمدة سنتين ثم كانت تولية الامير موسى علم الدين ولكن لمدة قصيرة حتى كانت معركة الغلغول في بيروت عام ١٦٦٧.

يقول طنوس الشدياق عن معركة الغلغول: «وسنة ١٦٦٦ كانت واقعة عظيمة في الغلغول عند برج بيروت بين القيسية واليمنية فقتل فيها عبدالله بن قائد بيه ابن الصواف، مقدم اليمنية، وانكسرت عزائمهم وانهزموا الى بلاد الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان، وفرت امراؤهم آل علم الدين الى دمشق وتوطنوا هناك»[٢٢].

وقعت معركة عين داره عام ١٧١١م بين القيسيين واليمنيين، كانت هذه المعركة فاصلة على الصعيد السياسي وتقليص دور الدروز في الحكم، وفي الوقت

(٢١) لم تكن امارة الجبل دائمة بل تجدد كل عام فاصبحت مصدراً كبيراً للوالي العثماني الذي كان يأخذ مبالغ ضخمة رشوة لاقرار الامارة.

(٢٢) كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان، ص ١١٧ – ١١٨ .

نفسه، تثبيت الحكم الشهابي الغريب(**) عن المنطقة[٢٣] وعن دينهم وثم انقطاع دور آل علم الدين اليمنيين السياسي وهجرتهم الى بلاد الشام، وكذلك انهت الحزب

(**) الاسرة الشهابية. يرجع نسب الشهابيين الى مالك الملقب بشهاب، نسبة الى امه التي كانت من ذرية شهاب بن عبدالله بن الحارث بن زهرة القرشي. وزهرة عائلة ام النبي آمنة، بنت وهب والصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف والقائد الكبير سعد بن ابي وقّاص. ومالك هو ابن الامير الحارث بن هشام القرشي وبه ترجع سلالة الشهابيين الى مرة بن كعب بن لؤي بن فهر بن مضر العدنانيين مما يضفي عليهم العصبية القيسية التي كانت السبب الاساسي لتوليهم امارة جبل لبنان، بالاضافة الى علاقتهم العائلية مع المعنيين.

كان اول من لقّب منهم اميراً، الحارث بن هشام بن مغيرة وذلك في عهد الخليفة ابي بكر الصديق. انضم الحارث بن هشام، مع عشيرته من بني مخزوم، الى جيش ابي عبيدة عامر بن الجرّاح واشترك معه في معركة اجنادين ومرج الصفر وحصار دمشق حيث قتل تحت اسوارها. تولى الامارة، بعد الحارث بن هشام، ابنه مالك، الذي اسند اليه الخليفة عمر بن الخطّاب امارة حوران في بلاد الشام، فسكن وعشيرته بلدة شهباء، وهي بلدة بناها الروم على حدود الصحراء ولا تزال خرائبها باقية حتى يومنا هذا.

في عهد الامير منقذ الشهابي، وذلك في اواخر القرن الثاني عشر، اي خلال عهد الامير نور الدين زنكي، قرر الشهابيون النزوح من شهباء لكثرة غزوات البدو وتعدياتهم، اذ كان الدفاع عن شهباء صعباً لعدم وجود اسوار وابراج تحميها، بالاضافة الى ذلك وقعت النفرة بين صديقهم صلاح الدين الايوبي، وبين حليفهم الامير نور الدين زنكي حاكم بلاد الشام، فقرروا عدم الخوض في قتال بين صديقين.

اتجه الشهابيون، بقيادة الامير منقذ، الى وادي التيم حيث اشتبكوا بمعركة ضارية مع الصليبيين في سهل مرج عيون فكان النصر للشهابيين الذين طاردوا الصليبيين الى حاصبيا فتملكوها، بعد حصار دام عشرة ايام، وقتلوا من كان فيها من الصليبيين.

ارسل المعنيون، حكّام جبل لبنان، وفداً ليهنئ الامير منقذ على انتصاره على الصليبيين ويدعوه الى زيارة بلاده. وافق الامير منقذ على هذا التقارب فقدم مع اتباعه الى بلدة الباروك حيث جرت احتفالات كبيرة.

خلال هذه الزيارة خطب الامير منقذ شهاب «طيبة» ابنة الامير يونس لابنه محمد، كما خطب الامير يوسف المعني «سعدى» ابنة الامير منقذ، وبذلك تم التقارب العائلي بين الاسرتين الأمر الذي ساعد لاحقاً على اسناد امارة جبل لبنان الى الشهابيين، بعد وفاة الامير احمد المعني، من دون عقب، عام ١٦٩٦ .

(٢٣) اصل الشهابيين ومركزهم، حتى اليوم، في وادي التيم.

اليمني واستأثر القيسيون بالسلطة دون منازع في امارة جبل لبنان وحصروا لقب الامارة، عن طريق الوراثة، بهم وبالارسلانيين.

ومن نتائج هذه المعركة الفاصلة كان تثبيت الحكم الشهابي الذي لم يكن لمصلحة القيسيين بقدر ما كان لمصلحة حصر السلطة بيد الشهابيين الذين خلقوا من بعض العائلات الدرزية، التي لم تكن ذات نفوذ ومكانة بين الدروز، اتباعاً يناصرونهم دون تطاولهم او مزاحمتهم على السلطة. هذا الحلف الجديد من المقاطعجية كان دون رتبة الشهابيين قوة ومنزلة يدين لهم ببقائهم في سلطة محدودة لتحصيل الضرائب وحماية الحكم الشهابي فكانوا اتباعاً للشهابيين لا انداداً لهم.

في عام ١٧٠٦م حدثت معركة بين جيش الامير حيدر الشهابي وبنو علي الصغير[٢٤] في بلاد بشارة جنوب لبنان فانهزم بنو علي الصغير واستولى الامير حيدر على بلادهم التي ضمت الى ولايته بموافقة بشير باشا والي صيدا.

ارسل الامير حيدر الشهابي الشيخ محمود ابو هرموش نائباً عنه كي يجبي المال المرتب على بلاد بشارة ولكن خلافا وقع بين الامير حيدر ونائبه الشيخ محمود ابي هرموش بسبب ظلم الشيخ محمود للرعية في بلاد بشارة ومن جهة ثانية، اتهامه بعدم ارسال الاموال الاميرية الى الامير حيدر. أطلق هذا الافتراء طنوس الشدياق المعروف بعدم الدقّة في اقواله.

«وفي عام ١٧١٠م اتى الشيخ محمود ابي هرموش الى والي صيدا بشير باشا وطلب ان يولّى امارة الجبل وان يساعده مع السلطان كي يمنحه لقب باشا[٢٥] لان عائلة ابي هرموش لم تكن، من حيث المرتبة الاجتماعية، بمنزلة اسرة الامراء الحاكمين وان مشايخ الدروز يرفضون الخضوع لامره لأنهم مثله في الرتبة والحسب».

كتب بشير باشا الى الدولة في اسطنبول بشأن ذلك فأجيب طلبه وأرسل الى الشيخ محمود فرمان سلطاني فأطلق عليه لقب باشا.

لم يلجأ بشير باشا، بادئ الامر الى تعين الشيخ محمود ابي هرموش مكان الامير حيدر الشهابي، لانه اراد تقوية الحزب اليمني رغبة منه في اقصاء الامير حيدر

---

(٢٤) عائلة الاسعد المعروفة اليوم هم احفاد بنو علي الصغير وبنو منكر وبنو صعب.

(٢٥) كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان، طنوس الشدياق، ص ١٣٠ .

والقيسيين عن الحكم، فعيّن الامير يوسف علم الدين حاكماً جديداً، ولكن ذلك لم يدم طويلاً لضعف الامير يوسف وعدم تمكنه من جباية الأموال المطلوبة، ثم ان رجوع اليمنيين الى السلطة ادى الى نفور القيسيين وهم كانوا يشكلون اكثرية السكان، عندها نحّى الامير يوسف علم الدين عن الحكم وعيّن محمود باشا ابي هرموش حاكماً على جبل الدروز.

سار محمود باشا ابي هرموش على رأس القوات التي امده بها والي صيدا، بشير باشا، يرافقه الامير يوسف علم الدين الى دير القمر التي اخلاها الامير حيدر الشهابي وذهب الى غزير مع بعض انصاره من المقاطعجية الدروز من آل ابي اللمع ونكد وتلحوق والقاضي وعبد الملك، فدهمهم محمود باشا في غزير «وبعد قتال شديد، فر الامير حيدر الى جهة الهرمل واختبأ في مغار فاطمة تعرف باسم «مغار عزرائيل» الكائن في سفح جبلها»[٢٦].

وفي عام ١٧١١م قدم الامير حيدر الشهابي من الهرمل الى بلدة رأس المتن حيث نزل عند المقدم حسين اللمعي وأرسل بطلب زعماء القيسية لانهاء حكم محمود باشا ابي هرموش[*]. اول من التحق بالامير حيدر المقدمان مراد ابن المقدم محمد والمقدم عبدالله اللمعيان.

اما المشايخ الدروز القيسيون الذين التحقوا بالأمير حيدر الشهابي وحاربوا معه في معركة عين داره فهم:

١ – المقدم حسين والمقدم مراد والمقدم عبدالله اللمعيون. كان اللمعيون في ذلك الوقت دروزاً.

٢ – الشيخان سيد احمد ابو عذرا وسرحال العماد.

٣ – الشيخ قبلان القاضي.

٤ – الشيخ علي مع اخويه نجم ويوسف النكدي.

---

(٢٦) ولد حيدر ابي اللمع عام ١٧٨٧م وكانت امه نصرانية فعمدته عام ١٧٨٩ فصار مسيحياً، اذن في معركة عين داره كان اللمعيون دروزاً.

(*) مما يلفت النظر، ان محمود ابو هرموش لم يطلب لقب امير بل طلب لقب باشا، لأن لقب امير ولقب شيخ القاب وراثية لا يحق للدولة منحها كما كانت تمنح لقب باشا ولقب بك. امير لقب رئيس القبيلة، وشيخ لقب رئيس فخذ او بطن من القبيلة.

٥ – الشيخ محمد تلحوق وابنه شاهين.
٦ – الشيخ جنبلاط عبد الملك.

بعد ان تزوج محمود باشا ابي هرموش من امرأة من امراء آل علم الدين، استدعى بعض امرائهم من دمشق كي تلتحق به اليمنية ويسبغ رداء الامارة على حركته. كما طلب مساعدة والي صيدا، الذي حضر مع جيشه الى حرش بيروت، ووالي دمشق الذي قدم بعسكره الى قب الياس، جرى الاتفاق على ان تهاجم هذه القوات، مع القوات اليمنية التي تجمعت في عين داره، القوات القيسية المحتشدة في بلدة رأس المتن.

قبل ان تتحرك هذه الجيوش شنت القوات القيسية هجوماً مفاجئاً على اليمنيين في عين داره، حيث حصلت معركة ضارية، فانهزمت القوات اليمنية وقتل منها عدد كبير بينهم ثلاثة امراء من آل علم الدين واسر اربعة منهم شنقوا في بلدة الباروك واسر محمود باشا ابي هرموش.

يقول طنوس الشدياق «ثمّ توجه الامير الى الباروك ومعه الامراء الأربعة اليمنية الأسرى فأمر بقطع رؤوسهم وهم الامير يوسف والامير علي والامير منصور والامير احمد، وانقطعت بهم سلالة آل علم الدين»[٢٧]. هذا القول غير صحيح لأن امراء آل علم الدين شنقوا في الباروك ولم تقطع رؤوسهم.

---

(٢٧) لا شك ان طنوس الشدياق عنى بقوله: «وانقطعت بهم سلالة آل علم الدين» سلالة علم الدين في لبنان فقط، لأنه من غير المعقول ولم يذكره التاريخ ان امراء علم الدين الذين قدموا الى «عين داره» من دمشق جلبوا معهم جميع افراد العائلة من رجال ونساء واطفال كي يقتلوا في عين داره وبذلك تنقطع سلالة العائلة، وخصوصاً توجد في يومنا هذا عائلة كبيرة من آل علم الدين في السويداء في جبل الدروز. قال احد افراد هذه العائلة للكاتب انه لا يزال لديهم العلم اليمني الذي حملوه في معركة «عين داره» ولونه احمر وعليه اربعة ازهار من القرنفل الابيض. يقول سلامة عبيد في كتابه «ثورة الدروز عام ١٩٢٥» انه قتل سبعة من رجال عائلة علم الدين في معركة المزرعة وهم يدافعون عن علمهم، وقيل ان هذا العلم هو العلم اليمني والشدياق نفسه يقول في كتاب «اخبار الاعيان في جبل لبنان» «بعد معركة الغلغول عام ١٦٦٦ هرب امراؤهم آل علم الدين الى دمشق وتوطنوا هناك». وكذلك نسي الشدياق عائلة علم الدين الموجودة، حتى اليوم في طرابلس وهم احفاد الامير مظفر علم الدين الذي قدم طرابلس بعد معركة الناعمة عام ١٦١٦م، كما غاب عن باله =

اما محمود باشا ابي هرموش فقد امر الامير حيدر الشهابي بقطع رأس لسانه وإبهاميه ولم يأمر بقتله، وذلك حسب التقاليد المعمول بها، لأنه كان من صلاحيات الامير الحاكم جمع الضرائب، تعيين القضاة والسهر على حفظ الامن ومنع النزاع بين المقاطعجيي ولكن لا يحق له ان يقتل او يسجن او يغير القابهم بل جل ما يمكنه ان يعمله ان يصادر املاكهم او تغريمهم. كما كان واجب المقاطعجيي تحصيل الضرائب وتقديم المقاتلين اذا طلبهم الامير، فلهذا كان جيش الامير الشهابي دائماً من الدروز.

بعد معركة عين داره منح الامير حيدر الشهابي اللمعيين لقب الامارة(٢٨). «واقطع الامير حسين اللمعي بيت شباب وبكفيا، اقطع الامير مراد نصف المتن ثم اقطع قبلان القاضي جزين واقطع علي النكدي الناعمة وما يليها واستخلص من الامير يوسف ارسلان مقاطعة الغرب الاعلى، لأنه كان يميل الى اليمنية واقطعها محمد تلحوق واخاه بشير واقامهما ضداً للأمير يوسف. واقطع الشيخ جنبلاط عبد الملك مقاطعة الجرد ورفع مراتب هؤلاء بكتابته لهم «الأخ العزيز» وخص لذاته خمس قرى وهي بعقلين، ونيحا، وعين ماطور، وبتلون وعين داره»(٢٩).

خلقت معركة عين داره انقساماً، لا يزال قائماً حتى اليوم، في عائلتي، عبد الملك وتلحوق وهما من المشايخ الثانويين، فاصبحا عائلتين: المشايخ الكبار وعائلة المشايخ الصغار، وسبب ذلك ان الذين اشتركوا مع الامير حيدر في معركة عين داره

= عائلة علم الدين الموجودة في بلدة «أبل السقي». الشدياق ومؤرخ معاصر الوحيدان بين المؤرخين قالا ان عائلة آل علم الدين انقطع نسلها بعد معركة عين داره.

(٢٨) سبق وقلنا ان لقب الامارة ولقب المشيخة وراثيان ولا يمنحان حتى من السلطان ولهذا لا يحق للأمير حيدر، ولقبه فقط امير، ان يمنح هذه الالقاب الوراثية التي احترمها العرب كتقاليد لا تمس، منذ ايام الجاهلية. فامارة اللمعين غير موثوق بها.

(٢٩) كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان. طنوس الشدياق، ص ١٣٧ .

مما يلفت النظر ان موزع هذه الاملاك لم تكن من املاك الشهابيين الذين لم تكن لهم املاك في الشوف بل كانت املاك خصومهم من الاعيان ومن املاك اليمنيين. فوزع الامير حيدر املاك الدروز على الدروز واخذ لنفسه القسم الأكبر.

اعطاهم الاقطاعات وكتب لهم «الأخ العزيز» فأصبحوا مشايخَ كباراً، ومن رفض الاشتراك معه في قتال اهل ملتهم لتثبيت الحكم الشهابي الغريب عن المنطقة والدين، صادر املاكهم وافقرهم واضطهدهم فصاروا من المشايخ الصغار بالرغم من انهم من عائلة واحدة. ثم صادر الامير حيدر املاك اليمنيين، آل عساف من نيحا وابو حمزة من الخريبة وآل عطاالله من عين داره ودمج من الفريديس فأصبحوا مشايخ ثانويين، بالرغم من ان اصلهم من التنوخيين، اتوا منطقة الشوف من الغرب، قبل قدوم المعنيين، لحفظ الامن وجباية الضرائب.

تقول الدكتورة نجلا ابو عز الدين، وكتابها، «الدروز في التاريخ» مرجع هام: «وكان لمعركة عين داره عواقب بعيدة المدى، فقد قضت على اليمنية كقوة سياسية في لبنان وادت الى هجرة عدد كبير من الدروز اليمنية الى حوران حيث وضعوا اساس مجتمع ما لبث ان نما سريعاً في العدد والعدة حتى اصبح قوة تحسب حسابها قبائل البدو وحكومة دمشق وقد انقصت الهجرة الى حوران حجم المجتمع الدرزي في لبنان، وحل مكان المهاجرين، الموارنة النازحون من شمالي لبنان فازدادت بذلك نسبتهم العددية في بلاد الدروز»[٣٠].

كانت معركة عين داره الحادثة الثانية والفاصلة[٣١] في تخلي الدروز عن حكم جبل لبنان وتثبيت حكم الشهابيين. فمن قاتل في معركة عين داره كانوا، في الجهتين، دروزاً قاتلوا لاجل مصلحة غيرهم وبذلك سلّموا حكمهم ومصيرهم الى اجانب عن ملتهم ووطنهم، فاصبحوا المحكومين وليس الحاكمين، يدفعون الضرائب للشهابيين ويذودون عن سلامة حكمهم[٣٢].

---

(٣٠) كتابها «الدروز في التاريخ».

(٣١) المصدر نفسه، ص ٢٧٤ .

(٣٢) كاتب الحادثة الاولى عند اجتماع مرج السمقانية عام ١٦٩٧ واختيارهم اميراً شهابيا، كان على مذهب السنة ومن وادي التيم، وهي خارج منطقتهم، بدلا من امير درزي.

خلال ولاية محمود باشا ابي هرموش امارة جبل لبنان، وكانت امارة شرعية اصدرها بشير باشا والي صيدا، بعد موافقة الوزير نائب السلطان احمد الثالث، الذي منح محمود ابي هرموش لقب باشا، كان من السهل اتهام الأمير حيدر شهاب بالعصيان على الدولة ومحاولة اغتصاب الحكم. والامير حيدر شهاب، في ذلك الوقت، لم يكن لديه جيش يقاتل معه ولا مال يستعين به للاستيلاء على امارة الجبل، بل كان يعتمد اعتماداً كلياً على مناصرة الدروز له.

يقول الكولونيل الانجليزي شارل تشرشل، بعد ان يؤكد ان انتصار وتثبيت سلطة الامير حيدر شهاب في موقعة عين داره، كان بفضل شجاعة ومساندة الدروز:

«The Emir on his part, was in no way in a position to reject, or even to modify, such measures as his imperious supporters might choose to impose on him»(*).

لو تخلى الدروز، وهم اهل البلاد، عن العصبية القيسية – اليمنية، وكانوا يداً واحدة، بالاضافة الى عطف والي صيدا بشير باشا، الذي كان الغطاء الشرعي لحكم محمود ابي هرموش، لكان من السهل اقناع الامير حيدر بالرجوع الى موطنه في وادي التيم، واسترجع الدروز حكم بلدهم.

قبل ان ننتقل الى الانقسام اليزبكي – الجنبلاطي يجب ان نشير الى ان عند وفاة الشيخ قبلان القاضي عام ١٧١٢م استولى الأمير حيدر الشهابي على ثروة الشيخ قبلان مدعياً ان من يموت بدون عقب ذكر تعود ثروته الى السلطة. اما المؤرخ حيدر الشهابي فيقول: «اوصى بجميع متروكاته وعقاراته للأمير حيدر فاستولى الامير حيدر على جميع ما تركه بالوصاية»(٣٣).

(*) Mount Lebanon from 1842 - 1852 vol. 3, page 29 .

– قدم الكولونيل شارل تشرشل المعروف باسم «شرشر بك» الى لبنان مع الحملة الانجليزية التي قدمت لقتال ابراهيم باشا المصري. في عام ١٨٤١ التحق تشرسل بالقنصلية الانجليزية في دمشق ثم استقال من منصبه وقدم لبنان حيث سكن في قرية «بحواره» في قضاء عاليه. زوج ابنته الى احد امراء بيت شهاب. توفي عام ١٨٦٧ ودفن في بيروت. بالاضافة الى كتاب «جبل لبنان» له كتاب عن حوادث عام ١٨٦٠ بعنوان الموارنة والدروز.

(٣٣) كتاب الغرر الحسان من تواريخ حوادث الازمان، مجلد ١، ص ١٥ .

احتج اعيان الدروز على ذلك وطالبوا بالثروة على ان الشيخ قبلان اوصى بها الى ابنته زوجة الشيخ علي ابن رباح جنبلاط، ولما رفض الامير طلبهم دفعوا له خمسين الف غرش، وقيل انه اخذ نصف المبلغ فقط.

بعد معركة عين داره انتهت الحزبية القيسية – اليمنية واصبح الدروز تحت مظلة سياسية واحدة ملتفة حول الحزب القيسي الذي اصبح، بدون منازع يتمتع بالنفوذ السياسي والعسكري، الامر الذي اقلق الشهابيين من خطر تكتل درزي يهدد نفوذهم في الجبل. ثم حصلت مشادة بين الشيخ علي جنبلاط زعيم الجنبلاطية وزعيم العمادية الشيخ يزبك ابن عبد العفيف العماد استغلها الامير ملحم الشهابي، ابن الامير حيدر، وهو البارع والخبير في استغلال واثارة الصراعات الجانبية بين القوى التي يحكمها حتى لا تشكل خطراً على حكمه. وقال عنه المؤرخ حيدر الشهابي. «كان الامير ملحم صارماً لا يعفو عن ذنب الاّ بقصاص يساويه، ولا يقبل دية ولا فداء، والقى بالفتنة في ايامه بين مشايخ البلاد فاختلفوا وتشعبت اراؤهم وبذلك تملكهم وتغلب عليهم»(٣٤).

انقسمت القيسية الى حزبين، جنبلاطية ويزبكية، وكما قلنا سابقاً، بقيت النكدية خارج هذا الصراع فأطلق عليها لقب «بيضة القبّان».

من المؤلم والمؤسف ان هذا الانقسام البغيض لا يزال حتى اليوم يشكل عقبة في وحدة صف الطائفة الدرزية وسلاحاً في يد اعدائها وعامل ضعف في بنيتها السياسية.

ذكر عائلة العماد يجلب الى الذاكرة قصة يتداولها بعض الناس، قد تكون من نسيج مخيلة بعض الرواة، اذ لم تذكرها كتب التاريخ ولكن الاشارة اليها تعطي فكرة عن تعلق الدروز في بلدهم.

خلال حملة ابراهيم باشا، ابن محمّد علي باشا حاكم مصر، على لبنان كان بعض طلاب الدروز يحصلون علمهم في مصر ومعظمهم من ابناء العائلات الدرزية الكبيرة. فبعد معاناة ابراهيم باشا في حروبه مع الدروز، خصوصاً في منطقة «اللجاة»، والخسائر الكبيرة التي مني بها عن يدهم، عمد محمد علي باشا الى سجن

---

(٣٤) كتاب تاريخ الامير حيدر الشهابي، لبنان في ظل الامارة الشهابية، ص ١٠٦٦ .

هؤلاء الطلاب، فكان ان ذهب وفد من عائلات نكد، عماد وعطاالله الى مصر ليطلب اخلاء سبيلهم. عند اجتماعهم مع محمد علي باشا قال لهم: «اولادكم عندي وانتم قاتلتم ابني ابراهيم في سوريا والحقتم به خسائر كبيرة، الم تخافوا على سلامة اولادكم؟ فأجابه الشيخ خطّار العماد: «في ولادنا وليس في بلادنا يا باشا».

اما الحادثة التالية، وكانت القاضية على حكم الدروز، اذ سببت تخليهم النهائي عن سلطتهم في جبل لبنان، كانت الصراع بين الامير بشير الشهابي والشيخ بشير جنبلاط الذي انتهى بمقتل الشيخ بشير وتدمير بيته وتشريد عائلته والاستيلاء على املاكه.

بنى الشيخ بشير جنبلاط قصراً كبيراً في بلدة المختارة وجرّ اليه المياه من نبع الباروك وبنى بجانبه عام ١٨١٧م جامعاً على طراز الجوامع العثمانية مما اثار غضب الامير بشير وشكه في نوايا الشيخ اذ اعتقد ان الشيخ بشير يريد التقرب من السلطة بالاعلان عن اسلامه ليكون له حظوة عندهم كي يستولي على الامارة.

وتقول الدكتورة نجلا ابو عز الدين، نقلاً عن القس حنانيا المنيّر: «وحرص بشير الثاني ان لا يجابه المقاطعجية مجتمعين، فأخذ يحرض بعضهم على بعض ويثير حسدهم وجشعهم لأملاك الآخرين. فان المقاطعجية مجتمعين كانوا اقوى من الأمير ولكن انقسامهم من جرّاء منافستهم المدمرة مكنته من سلب املاكهم وتحطيم قوتهم»[٣٥].

لم يترك الامير بشير فرصة تمر لاضعاف الدروز وتحجيم نفوذهم، وحتى القضاء عليهم، الاّ انتهزها. زرع الشقاق والتنافر بين الزعماء واستعان بفئة على الاخرى. استعان بالعماديين والجنبلاطيين للقضاء على النكديين اصحاب النفوذ، حتى داخل دير القمر عاصمة امارته، ثم حرّض الجنبلاطيين على العماديين وشدد الخناق على التلاحقة وآل عبد الملك، ففي عام ١٨١٨ كفّ يد آل عبد الملك عن قرى الجرد وجرّد التلاحقة من اقطاع منطقة الغرب.

بالرغم من ان هذه الدراسة لا تتطرق الى تاريخ الدروز ولكن يجب ان نعي نتائج اعمال الامير بشير شهاب ضدّ الطائفة الدرزية من تحطيم العائلات الكبيرة،

(٣٥) كتاب الدروز في التاريخ، ص ٢٨٨ .

واثارة الحقد والضغينة بين الدروز والموارنة، وما زلنا ندفع ثمنها حتى يومنا هذا، ثم زج اللبنانيين، من دروز ونصارى، في صراع شرس هدّام بين العثمانيين والمصريين ترك دماراً وكوارث عليهم، وكان جلّ ما يتوخاه، ليس تحرير لبنان، بل نقله من حكم العثمانيين الفاسد الى حكم المصريين الجائر واستبدال السرج العثماني بالمهماز المصري ويصبح اللبنانيون عبيد القاهرة بدلاً من اسطمبول.

في عام ١٧٩٧، اتفق الامير بشير مع العماديين والجنبلاطيين على ابادة الاسرة النكدية، فاستدعى اولاد الشيخ كليب نكد الى دير القمر وكانوا، واكد، والسيد احمد، وقاسم ومراد، فلما دخلوا مجلسه خرج فأسرع مشايخ الجنبلاطيين والعمادية وقتلوهم. ثم ارسل جماعته الى وادي الناعمة حيث كان يختبئ اولاد الشيخ بشير نكد، علي، وجهجاه وسعد الدين وكليب، فأتوا بهم الى دير القمر حيث قتلهم العماديون. اما النساء والاطفال فهربوا مع الشيخ سلمان نكد الى دمشق.

بعد ان نهب الامير بشير بيوت النكديين في عبيه، استولى على املاكهم فأخذ معظمها واعطى جزءاً منها الى الجنبلاطيين والعماديين ومستشاره الشيخ نجم العقيلي.

بعد القضاء على النكديين، ومنذ عام ١٧٩٩، اخذ الامير بشير، بمعاونة بيت جنبلاط ومشايخ بيت علوان، يضطهد العماديين ويفرض عليهم دفع مبالغ طائلة حتى افقرهم واجبرهم على النزوح الى وادي التيم وحوران ومصر.

ابتدأ النزاع يذر قرنه بين البشيرين بعد انزلاق الامير بشير الشهابي في الصراع بين والي عكا عبدالله باشا، ووالي دمشق درويش باشا اذ كان عبدالله باشا يرغب في الاستيلاء على ولاية دمشق لكثرة مداخيلها ومركزها السياسي المميز بين الولايات العثمانية: في هذا النزاع لم يتمكن الامير بشير الاّ من الانحياز الى جانب حليفه وولي نعمته الوالي عبدالله باشا.

بعد معركة المزة، التي انتصر فيها المير بشير بمساعدة الشيخ بشير جنبلاط عام ١٨١٢ وقواته، ووصلا بقواتهما حتى ابواب دمشق، استنجد درويش باشا باصدقائه من اصحاب النفوذ في اسطنبول فصدرت اوامر الباب العالي بعزل عبدالله باشا والي عكا من منصبه واسناد ولايتي صيدا ودمشق الى درويش باشا، كما أمر والي حلب

مصطفى باشا ووالي «أضنه» حلمي ابراهيم باشا ان يسيرا الى الشام ويطردا عبدالله باشا من عكا.

اتصل مصطفى باشا بالأمير بشير الشهابي وخيّره بين أن يؤدي الطاعة لدرويش باشا ويكون تحت امرته أو يستقيل من منصبه. اعتزل الامير بشير منصبه وسار الى بيروت ليسكن فيها حتى تنجلي الأمور، ولكن لم يلق ترحيبا من اعيانها لأن بيروت كانت تابعة لولاية دمشق ووالي دمشق درويش باشا كان عدو الامير بشير.

استقل الامير بشير الشهابي وعائلته احد المراكب الفرنسية وذهب الى مصر لاجئاً عند الوالي محمد علي باشا الذي كان معروفاً «بالعزيز».

اما الشيخ بشير جنبلاط واعيان البلاد وزعمائها، بما فيهم الامير عباس الشهابي، الذي كان مقرباً من الشيخ بشير ويعتبر من مؤيدي الحزب الجنبلاطي، ذهبوا الى البقاع لملاقاة الوالي درويش باشا الذي عيّن، حسب رغبة الشيخ بشير، الامير عباس الشهابي اميراً على جبل الدروز على ان يدفع مئة الف غرش فدفعها الشيخ بشير جنبلاط.

اجبر الشيخ بشير على التعاون مع درويش باشا، لأن هذا الموقف كان ينسجم مع الاعراف المتبعة في ذلك الزمن وهي مسايرة الوالي الذي يؤيده الباب العالي، وبما ان السلطة العثمانية كانت بجانب والي دمشق درويش باشا فكان من الصعب على الشيخ بشير التنكر لهذا الوضع القائم والتنكر لأوامر الباب العالي.

كان والي مصر محمد علي باشا يخطط لاحتلال بلاد الشام وضمها الى مصر ثم الاستقلال عن الدولة العثمانية، وكان يساعده لتحقيق هذا المشروع الفرنسيون ليوجدوا عقبة في وجه الانجليز على طريق الهند فلمّا قدم الامير بشير الى مصر، فكر محمد علي باشا ان اعادة الامير بشير الى منصبه في لبنان يجعل منه حليفاً يساعده على تحقيق المشروع الذي يخطط له، وذلك احتلال بلاد الشام.

ويقول طنوس الشدياق «وبعد ايام حضر العزيز من شبرا الى القلعة واستدعى جميع العلماء وبعض رؤساء العساكر وأمر باحضار الامير فحضر فاستقبله العزيز بالترحاب وأمر له بالجلوس وشرب القهوة واخذ يحادثه بالطف حديث، ثم صرفهم

العزيز وامر ابقاء الامير وحده واسرَّ اليه جميع ما يرغبه منه في جبل لبنان من الخدمة عند الحاجة لأنه كان مزمعاً ان يتملك بلاد الشام بالسيف»(٣٦).

سعى محمد علي باشا لدى الباب العالي، بمساعدة سفير فرنسا في اسطنبول، للعفو عن عبدالله باشا والامير بشير وارجاعهما الى مناصبهما، فأجيب طلبه وعاد الامير بشير الى لبنان عام١٨٢٢م.

وصل الامير بشير الى صيدا فاستقبلته اعيان البلاد وعلى رأسها الشيخ بشير جنبلاط للترحيب بعودته الى السلطة ولكن الشيخ بشير لمس جفاءً وبوادر اهمال ونفورا من الامير مما جعله يشعر بقلق من هذه المعاملة غير الودّية.

ويقول رستم باز: «ولما وصل موكب الامير بشير الى مربع بعقلين نادى الامير بشير «يا شيخ بشير درب بيتك من هون». رجع الشيخ بشير الى المختارة حزيناً»(٣٧).

ثم كان الاستقبال الجاف وغير اللائق في بيت الدين عندما قدم الشيخ بشير مع عدد من اتباعه فكان جلوسه لمدة قصيرة ولم يدعه الامير بشير، حسب العادة، الى تناول الغداء معه.

كان الاستنزاف المالي خطة الامير بشير للقضاء على خصومه السياسيين، فلهذا توالت مطالبه ومطالب الوالي عبدالله باشا على الشيخ بشير حتى بلغت مئات الألوف من الغروش فكانت نذيراً الى ان الاصطدام لا مفر منه.

تمادى الامير بشير في تعسفه واظهار العداء فاضطر الشيخ للتصدي، فألب حوله جميع معارضي الامير من الشهابيين على رأسهم سلمان وحسن وعباس وفارس، وبعض الامراء من اللمعيين والارسلانيين بقيادة الامير امين عباس ارسلان، ومشايخ العماديين بقيادة الشيخ علي العماد، وبعض العائلات الدرزية اهمها عائلة ابي شقرا من عماطور ومشايخ ابي حمزة وعطاالله، وبنو ابو الحسن، وبنو هلال، ومعضاد من المتن(*).

---

(٣٦) كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان، ص ٢٦٦ .

(٣٧) مذكرات رستم باز، ص ٢٤ .

(*) الامراء اللمعيون الذي انضموا الى الشيخ بشير جنبلاط هم: الامير سلمان واخوه الامير موسى، والامير يوسف نصر وابن عمهم الامير منصور.

اما الامير بشير فالتف حوله مشايخ النكدية[٣٨] والتلاحقة وآل عبد الملك وانضمت اليهم عائلة حمادة من بعقلين وعبد الصمد من عماطور.

كانت الاكثرية الساحقة من المقاتلين من الدروز الاّ قلة من النصارى، ارسلهم البطريرك يوسف حبيش الذي وجد ان مصلحة الطائفة المارونية الوقوف الى جانب الامير بشير الماروني بينما الشيخ بشير زعيم درزي.

بالاضافة الى الزعماء الدروز الذين التفوا حوله، استنجد الامير بشير بحليفه الوالي عبدالله الذي ارسل له ثلاثة آلاف من الجنود الانكشارية مع عدد من المدافع وكمية كبيرة من الذخائر فكانت المدافع السلاح الذي حسم مصير المعركة.

انتصر الشيخ بشير جنبلاط في اليوم الاول من المعركة حتى وصلت قواته، بقيادة الشيخ علي العماد، على مشارف قصر الامير بشير في بيت الدين، ولكن قدوم عساكر الوالي عبدالله باشا واستعمالهم المدافع قلب المعادلة فتراجعت قوات الشيخ بشير الى السمقانية ثم الى المختارة[٣٩].

فرّ الشيخ بشير جنبلاط مع بعض اتباعه الى جزين ثم سار الى حوران، فبعث الوالي عبدالله باشا الى والي دمشق أن يقبض على الشيخ بشير واتباعه، فقبض عليهم وعند وصولهم الى دمشق امر الوالي بقتل الشيخ علي العماد وارسل الباقين الى عكا حيث اعدم الشيخ بشير والشيخ امين العماد بطلب من محمد علي باشا، لأن الوالي تردد في قتلهم حسب رغبة الامير بشير، فلهذا تدخل محمد علي باشا في تنفيذ امر قتل الشيخ بشير.

خلا الجو للأمير بشير بعد القضاء على الشيخ بشير جنبلاط، بالرغم انه مدين له بوصوله الى السلطة وبقائه فيها، فهو الذي اعطاه الأموال لمساعدته على شراء الامارة

---

(٣٨) انضم النكديون الى الامير بشير للانتقام من الجنبلاطيين والعماديين لقتلهم زعماءهم عام ١٧٩٧ .

(٣٩) بما ان هذا الفصل من الدراسة هي عن الاختلافات الدرزية التي نتج عنها تخلّي الدروز عن حكم جبل لبنان ولهذا انحصرت في الوقائع التي اثرت على الموضوع فقط فاذا اراد القارئ التوسع في تفاصيل ما حدث بين الامير بشير والشيخ بشير فاشير عليه بقراءة كتاب «التاريخ السياسي في الامارة الشهابية في جبل لبنان» للمؤلف الدكتور عباس ابو صالح. وكتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان، للمؤلف طنوس الشدياق. وكتاب «تاريخ الامير حيدر الشهابي» وكتاب «الدروز في التاريخ» للدكتورة نجلا ابو عز الدين وغيرها من الكتب الموجودة في المكتبات.

من والي عكا احمد الجزّار عام ١٧٨٩ ثم ساعده في حروبه وكان الجيش الذي يقاتل مع الامير بشير يشكل من المقاتلين الدروز ومعظم افراده كانوا من جماعة الشيخ بشير جنبلاط، وكان تأييد الشيخ بشير أساس استقرار حكم الامير بشير. بعد انتصار الأمير بشير اجلى جميع العائلة الجنبلاطية عن الشوف وهدم ابنيتهم. ويقول ميخائيل الدمشقي: «من بعد حصل الامير بغاية الراحة وضبط رزق الشيخ بشير جنبلاط ثم هدم بيته المعتبر ونقل جميع الرخام والبلاط والاخشاب وكل الآلات الموجودة بالعمار وصار البيت خراب»(٤٠).

تمكن الامير بشير الشهابي بدسائسه ومؤامراته ومساعدة الغرباء من تصفية زعماء الدروز، فكان النكديون، ثم العماديون، والارسلانيون والملكيون والتلاحقة والجنبلاطيون واصبح صاحب السلطة المطلقة، ولا شك ان نجاحه في تحطيم الزعامات الدرزية، بمساعدة الدروز انفسهم، ساهم في تقويض تفوق الدروز السياسي والاقتصادي والعددي في جبل لبنان وأفسح المجال أمام الموارنة ليحلّوا محل الدروز.

يقول المؤرخ عادل اسماعيل: «في عام ١٨٤٠م لم يبق من اصل ١٤ مقاطعة في الشوف، التي كان يحكمها الدروز جميعاً سوى مقاطعتين فقط بيد الدروز، فقد جردهم بشير الثاني من هذه المقاطعات موزعاً اياها على افراد عائلته وابناء طائفته من النصارى، وغايته من هذا، محو الدروز من جبل لبنان لابقاء العنصر النصراني فيه، لانه العنصر الذي اصبح اكثر ثروة واكثر انتشاراً»(٤١).

ومن الاعمال الهدّامة التي اقترفها الامير بشير كانت ارسال اربعة آلاف متطوع من الموارنة ليقاتلوا مع جيش ابراهيم باشا المصري اخوانهم الدروز في الحروب التي وقعت في حوران، فكان هذا العمل البغيض سبباً في كوارث عديدة وقتال طائفي، لخلقه الحقد والكراهية بين النصارى والدروز. دفع ثمن هذا العمل المتهور المبني على الضغينة والتعصب المذهبي اللبنانيون من ارواحهم وتدمير ممتلكاتهم. هذا التنافر

(٤٠) كتاب تاريخ حوادث الشام ولبنان، ص ١٤٥ .

(٤١) كتاب Redressment et declin du Feodalisme pp. 128 - 130

والكراهية بين الطائفتين، اللّذان اوجدها الامير بشير الشهابي، ما زالا، لسوء حظ وتعاسة اللبنانيين، معهم حتى اليوم. وبغية تعويض خسارته لقاعدته الدرزية، التي قضى على زعمائها، شجّع الامير بشير الكنيسة المارونية على الدخول الفعلي في اللعبة السياسية في جبل لبنان وما زالت حتى اليوم تعتبر نفسها، كما يعتبرها الموارنة، لاعباً اساسياً على ساحتها.

بدأ قدوم المسيحيين الى جبل الدروز[٤٢] بتشجيع الامير فخر الدين المعني الثاني الذي منحهم الحرية التامة في ممارسة عقيدتهم الدينية، وذلك لخبرتهم في الزراعة وانتاج الحرير الذي كان مطلوباً من المعامل الفرنسية، كما شجعهم على الانخراط في الجيش. ولمدة طويلة كان قائد الجيش الشيخ نادر الخازن، كما اعطاهم مناصبَ رفيعة في الادارة لتفوقهم العلمي واخلاصهم واستقامتهم في تأدية اعمالهم. اذن، اول من شجع المسيحيين على القدوم الى جبل الدروز كان امير درزي فلم يأتوا كغزاة انذاك ومحتلين، بل قدموا بتشجيع من الدروز وبرضاهم.

وبغية تشجيع النصارى على القدوم والسكن في جبل لبنان، قدّم الدروز لهم الاملاك الشاسعة، خصوصاً لبناء الاديرة والكنائس فيها: تسليم امراء بيت فارس ابي اللمع الدروز، دير مار ساسين عام ١٧٥٤م للرهبانية المسيحية[٤٣] ثم اعطاء الشيخ كنعان النكدي أرض واسعة في قرية الناعمة لتشييد دير للرهبان[٤٤] ووهب الشيخ قبلان القاضي التنوخي ارضاً لبناء دير مشموشة، كما اعطى آل ابي هرموش ارضاً للسبب نفسه في «بتدين اللقش».

وكانت الهبة الكبرى من الاراضي الواسعة للرهبانية المسيحية، قدمها عام ١٧٠٩م الشيخ قبلان القاضي لبناء دير المخلص المشهور. ثم اضاف الشيخ علي جنبلاط مساحات شاسعة على هذه الهبة.

---

(٤٢) يوجد التباس في تسمية جبل لبنان وتسمية جبل الدروز. ان اسم جبل لبنان كان يطلق على المناطق التي يسكنها الموارنة في اقصى الشمال وهي جبة بشري، اهدن، وبلاد البترون وكسروان. وكان يقابله في تسمية جبل الدروز، الذي كان يطلق على الشوف والغرب والجرد. لم تكن تسمية جبل لبنان تشمل الجبلين فيما قبل عهد المتصرفية.

(٤٣) كتاب قضية الملكية في الرهبانية اللبنانية، مارون كرم. ص ٢١٢ .

(٤٤) المرجع السابق نفسه.

هذه الهبات تدل بوضوح على ان المسيحيين قدموا الى جبل الدروز بتشجيع وترحيب من الدروز، فتهمة الاغتصاب او التسلط من المسيحيين على جبل لبنان مغايرة للحقيقة وتجنٍ على المسيحيين.

الواقع الذي لا يحتاج الى اثبات، بل اظهرته الوقائع والاحداث، ان خلال الفتن والاصطدامات الدموية المؤسفة التي حصلت بين المسيحيين والدروز، لم يتعرض الدروز للاديرة او الكنائس او رجال الدين النصارى بسوء، بل حافظوا عليهم واظهروا لهم كل احترام بما يليق بمقامهم ومكانتهم الروحية. ولكن لسوء الحظ، خلال الحرب الاهلية المشؤومة الاخيرة (عام ١٩٧٥ - ١٩٩٠) هدمت بعض الكنائس، ولكن حصل ذلك كردة فعل على تدمير القوات اللبنانية لمقام الأمير السيد عبدالله في بلدة عبيه الذي يقدسه الدروز، والمقولة المعروفة. «من يزرع الريح يحصد العاصفة».

وبعد هذه الدراسة الواضحة عن الاسباب والعوامل التي كانت نتائجها تخلي الدروز عن حكم جبل الدروز يستنتج من ان هذا التخلي بدأ منذ وفاة الامير احمد المعني عام ١٦٩٧ بلا عقب، واجتماع زعماء الدروز في مرج السمقانية في منطقة الشوف لاختيار امير على الجبل. طرح اولا اسم الشيخ قبلان القاضي التنوخي، وكان اشار بذلك الامير احمد المعني قبل وفاته. رفض هذا الاقتراح لأن الشيخ قبلان لا يحمل لقب امير. ثم كذلك رفض اقتراح تعيين امير من الارسلانيين لأنه يمنيّ ومعظم الحضور كانوا من القيسية. ويقول الدكتور عباس ابو صالح: «فالقيسيون الدروز فضّلوا ان يحكمهم امير قيسي من خارج الامارة على ان يحكمهم امير يمني من داخل الامارة كالارسلانيين»[٤٥].

(٤٥) كتاب التاريخ السياسي للامارة الشهابية، ص ٣٥ .

تولى الشهابيون امارة جبل لبنان من دون جيش يساندهم او مال يساعدهم في حكم الامارة، ولولا الدروز لما تمكن الشهابيون من وضع قدمهم في لبنان(*).

ثم كانت معركة عين داره عام ١٧١١م، اي بعد اربع عشرة سنة من تولي الشهابيين الامارة، فهرع زعماء الدروز مع رجالهم يتقاتلون بضراوة لتوطيد حكم الشهابيين في امارة الجبل.. وفي ذلك الوقت، وحتى بعد ذلك، لم يكن عند الامير الشهابي جيش يقاتل به للدفاع عن حكمه، فالجيوش الشهابية كان معظمها، وحتى جميعها الاّ ما ندر، من المقاتلين الدروز. فبدلاً من استعمال هؤلاء المقاتلين الدروز لاجلاء الشهابيين الغرباء عن جبلهم وملتهم، استعملوا لتوطيد حكم الشهابيين عليهم.

ثم كانت معركة السمقانية التي قام بها الدروز بمساعدة جيش الوالي عبدالله، للقضاء على الزعيم الكبير الشيخ بشير جنبلاط فانتهت بذلك الزعامات الدرزية واندثرت سلطة الدروز فاصبحوا رعايا عند الشهابيين محكومين ولا حاكمين.

وقد يصح في دروز لبنان قول الشاعر عمر ابو ريشة:

لا يــلام الــذئب فــي عـدوانــه ان يــك الــراعـي عـدو الغــنــم.

(*) لولا اختلاف وطمع وتكالب العائلات الدرزية الكبيرة على السلطة المحلية، لما تمكن الامير بشير شهاب من تحطيم نفوذها وسلب اموالها. كان التآمر والتخطيط للامير بشير والتنفيذ الفعلي للدروز.

الحاكم بامر الله

وضع الدكتور عبد المنعم ماجد[1] كتاباً بعنوان «الحاكم بامر الله الخليفة المفترى عليه». ان نعت الحاكم بالخليفة المفترى عليه نعت صحيح لكثرة اعدائه من المسلمين السنّة، النصارى، والعباسيين. ومن هؤلاء كان المؤرخون الذين كتبوا عن الحاكم بامر الله.

الصقوا بالحاكم كبار التهم، كالالحاد والتأليه والظلم وسفك الدماء والبطش بالابرياء، حتى ان احدهم اتهمه بأنه كان مصاباً «بلوثه عقلية».

سبق وقلنا تسجيل التاريخ يرتكز على ثلاث مراحل. اولاً تسجيل الحدث بدقة وصدق، ثانياً توضيح العوامل التي ادت الى الحدث، بنزاهة واحاطة كاملة به، وثالثاً شرح النتائج التي نتجت عنه بموضوعية متجردة عن الاهواء النفسية والمصلحة الشخصية والقومية.

لسوء الحظ ان القسم الأعظم من المؤرخين العرب تتحكم فيهم اهواء نفسية، كالتعصب او الحقد او الانتقام. فاذا كان المؤرخ على مذهب السنة كال للشيعي التهم والتجني. وان كان شيعياً، قذف السني بجميع ما يملك من النعوت الجائرة. وان كان نصرانياً شتم الاثنين. فتصبح الحقيقة المتوخاة انفعالات نفسية تسيطر بها النفس الغضبية الجامحة على العقل، فبدلاً من تسجيل الحدث كما وقع، يصوره المؤرخ كما يريده ان يكون.

وهكذا كان المؤرخون النصارى يضمرون البغض والحقد على الحاكم بامر الله لاضطهاده وتنكيله ابناء ملتهم. والمسلمون السنة لم ينظروا بعين الرضى الى نجاح الفاطميين الشيعة، ولاول مرة في التاريخ، خلق خلافة مزدهرة وقوية. واما العباسيون، مع عدائهم التاريخي لآل البيت، فقد خشوا من احتلال الفاطميين لبلاد الشام، مما يهدد الخلافة العباسية في عقر دارهم، وهذا الخوف كان في محله، لأن هدف الفاطميين كان ازالة الخلافة العباسية.

(١) استاذ بكلية الآداب في جامعة عين شمس.

ومما زاد في كره الفاطميين للعباسيين صدور محضر رسمي من بلاط بغداد، في عهد الخليفة العباسي، القادر بالله ابو العباس احمد بن اسحق المقتدر (٣٨١ - ٤٢٢هـ) عام ٤٠٢هـ، اي، في عهد الحاكم بامر الله، يطعن في نسب الفاطميين ويدّعي انهم ليسوا من آل البيت، بل احفاد ميمون القدّاح الديصاني اليهودي وانهم «كفّار» «وفسّاق» «وملاحدة»، سبوا الانبياء وادعوا الربوبية واحلّوا شرب الخمر والفسق، وهذا المحضر حمل تواقيع شخصيات من الشيعة لها مكانتها الرفيعة مثل القاضي ابي بكر الباقلاني والشريف الرضي واخوه المرتضى، ابو قاسم الجزري، ابو حامد الاسفرانيني، ابو الحسن القدوري وغيرهم[٢].

ولد الحاكم بامر الله في القاهرة مساء يوم ٢٣ ربيع اول عام ٣٧٥هـ واسمه المنصور وكنيته ابو علي، وكان اول خليفة فاطمي يولد في مصر، والده الخليفة العزيز بالله، الذي توفي في «بلبيس» وكان على رأس جيش كبير، في طريقه الى بلاد الشام لمحاربة البيزنطيين، ولكن الموت ادركه فتوفي في ٢٨ رمضان عام ٣٨٦هـ فخلفه ابنه الحاكم بامر الله وهو في الحادية عشرة من العمر.

منح العزيز بالله ابنه، الحاكم بامر الله، ولاية العهد وكان عمر الحاكم يومذاك ثماني سنوات وذلك في شعبان عام ٣٨٣هـ، ثم ولي الخلافة عند بلوغه الحادية عشرة من عمره.

تقول المصادر الكنسية، ان ام الحاكم بامر الله كانت جارية رومية نصرانية من الطائفة الملكية. وهؤلاء اقباط كاثوليك انشقوا عن الكنيسة الشرقية بعد مؤتمر خلقيدونية عام ٤٥١ مسيحية.

الرواية الكنسية وحدها تقول ان ام الحاكم بامر الله كانت نصرانية تزوجها الخليفة العزيز بالله، عندما كان ولي العهد في «المهدية» بشمال افريقيا (تونس) وانها ولدت له «ست الملك»[٣]. اما المؤرخ النصراني، المكين ابن العميد[٤] فيقول ان العزيز

---

(٢) وفي سنة ٤٤٤هـ صدر في بغداد محضر آخر يتضمن المطاعن نفسها.

(٣) كتاب تاريخ المسلمين، ص ٢٤٧ .

(٤) كتاب سير البيعة المقدسة ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونيين.

بالله تزوج جارية نصرانية ورزق منها بنتاً هي ست الملك، ولا يأتي على ذكر الحاكم بامر الله الذي ولد في القاهرة بعد ستّ عشرة سنة من مغادرة العزيز بالله المهدية مع والده الخليفة المعز لدين الله.

الاّ ان المؤرخين المسلمين يلزمون الصمت الكامل حيال ذكر ام الحاكم بامر الله باستثناء المقريزي(٥) الذي يشير الى زوجة الخليفة العزيز بالله باسم «السيدة العزيزية»(*). ثم احد المؤرخين قال، ان العزيز بالله، عندما قدم القاهرة، تزوج امرأة من الفاطميين وقد تكون هي ام الحاكم بامر الله.

اوصى الخليفة العزيز بالله ثلاثة من اكابر رجال الدولة، وكانوا مقربين اليه، الاهتمام بالحاكم بامر الله وكانوا؛ ابو الفتوح برجوان الصقلبي، والقائد الحسن بن عمّار الكتامي، زعيم قبيلة كتامة المغربية وقاضي القضاة محمد بن النعمان المغربي.

وكان اول سجل اصدره الحاكم بامر الله، عقب توليه الخلافة، تعيين محمد بن النعمان قاضي القضاة وتوليته القضاء والصلاة بالناس نيابة عن امير المؤمنين(٦).

ومنح ابو الفتوح برجوان الصقلبي امارة القصر وكان المسؤول عن خزائن المال وكان قوياً وافر الذكاء وزعيم الصقالبة وذلك في شهر رمضان عام ٣٨٧ .

وكان الحسن بن عمّار الكتامي، زعيم كتامة، وهي اكبر قبيلة مغربية، قائد الجيش واول من قام بتدبير شؤون الدولة ولقّب بأمين الدولة.

سبق للخليفة العزيز بالله ان قلّص نفوذ الكتاميين لفسادهم وخوفاً من تكتلهم ضده وعمل على تشجيع المشرقيين من الترك وتقوية نفوذهم، فعندما استلم الحسن

---

(٥) كتاب الخطط، ص ٢٠٧ .

(*) يقول المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، حققه الدكتور ايمن فؤاد السيد، ص ٤٥ «وتوفي جوهر (الصقلبي) لسبع بقين من ذي القعدة سنة.احدى وثمانين وثلاثمائة، فأرسل اليه العزيز الكفن والحنوط وارسل اليه الامير ابن العزيز الكفن، وارسلت اليه السيدة العزيزية الكفن، فكفن في سبعين ثوباً «مثقل موشّى مذهب».

(٦) هو ابو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور المعروف بابن حيون التميمي وكان من اكابر الفقهاء الشيعة. خدم الخليفة عبيدالله المهدي وابناءه ثم قدم مصر مع المعز لدين الله وله مؤلفات كثيرة في الدين والفقه.

ابن عمّار قيادة الجيش عمل على اعادة نفوذ المغاربة الكتاميين وولاّهم المناصب الرفيعة في الدولة واغدق عليهم المال.

استلم الحاكم بامر الله الحكم وهو صبي يافع، وكانت الدولة في ذلك الوقت تضم خليطاً من الاجناس البشرية والعقائد غير المتناسقة. فقد كان الحاكم بامر الله عربياً ينتسب الى قريش، اعرق قبائل العرب ولكنها كانت بعيدة عنه كي يستعين بها وقسم كبيراً منها، اي العباسيون كانوا من اعدائه، ولا اقرباء له من العائلة الفاطمية في مراكز السلطة يعتمد عليهم. كان جيشه جلّه من المغاربة البربر وقادته مغاربة واتراك وصقالبة. اما رعاياه من اهالي مصر، فكان ثلثاهم على مذهب السنة والثلث الباقي من النصارى واليهود، في حين كان الحاكم شيعياً اسماعيليا.

اما قضاة الدولة، وهم عماد الحكم، فكان معظمهم مغاربة من البربر. ودعاة الاسماعيلية المسؤولون عن نشر الدعوة وتوطيد الحكم كانوا من الفرس كما وان المفكرين والفلاسفة حماة العقائد كذلك كانوا فرساً وليسوا عرباً يركن اليهم[٧].

في حين اعتمد الخليفة المعز لدين الله وولده العزيز، جد الحاكم وابوه، المال لشراء النفوذ والولاء، فقد اعتمد الحاكم الصرامة والقسوة لتوطيد الامن ونزاهة القضاء لنشر العدل وقطع العدوان وذلك لبسط نفوذه وسلطته.

استلم الحسن بن عمّار شؤون الدولة، وكان مستبداً ومستهتراً بالحاكم، فكان يدخل القصر راكباً مع حرسه ويلزم جميع الناس بالترجل عند قدومه، واقفل باب منزله الاّ لأكابر من كتامة الذين ولاّهم وظائف الدولة فعاثوا فساداً واستولوا على مرافقها حتى ضج الناس منهم وابن عمّار يغضي عن تصرفهم العابث وبلغ به الاستهتار بالحاكم حتى انه فكر بقتله[٨] ولكنه خاف من العواقب وانقسام الجيش لوجود الصقالبة وولائهم واخلاصهم الشديد للحاكم.

---

(٧) في عهد الحاكم بامر الله كان داعي الدعاة ختكين الضيف والداعي الكبير ومدير دار الحكمة احمد عبد الحميد الكرماني من الفرس. احمد بن اسماعيل الدرزي (نشتكين) كان مدير بيت المال وهو من الفرس.

(٨) كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان، مجلد ٢، ص ٢٠١ .

سيطر ابن عمّار على السلطة المدنية ولكن السلطة الدينية، التي كانت بيد الغلاة الاسماعيلية، بقيت للحاكم بحكم انه الامام.

اخذ ابن عمّار ينقش اسمه على الملابس الرسمية مع عبارة «عبد المؤمنين»، ثم عزل المصريين من الدواوين وتوقف عن صرف العطاء للمشارقة الترك واساءَ معاملتهم، فأصبح ابن عمّار الحاكم المطلق في مصر واستبد بأمور الدولة.

وكان الخليفة العزيز بالله قد عهد الى ابو الفتوح برجوان بالوصاية على الحاكم بامر الله وكانت له امارة القصر والمسؤول عن خزائن المال، لم يكن برجوان زعيماً لقبيلة كزعامة ابن عمّار لقبيلة كتامة الاّ انه كان شديد الذكاء فاستفاد من عداوة المشارقة الترك للمغاربة فجعل منهم قوة تقف في وجه ابن عمّار[٩].

ادرك برجوان ان تصرف ابن عمّار يشكل خطراً عليه حتى على الحاكم بامر الله، فاستدعى القائد التركي «منجوتكين» الذي كان العزيز بالله ولاّه امارة دمشق وقيادة الجيش الفاطمي في بلاد الشام، وطلب منه القضاء على ابن عمّار وتسلطه على الدولة. قبل «منجوتكين» المهمة، وخصوصاً انه كان على عداء مع ابن عمّار.

جهز ابن عمّار جيشاً من المغاربة بقيادة الكتامي ابي تميم سليمان بن جعفر بن فلاح، وذلك عام ٣٨٦هـ وارسله الى الرملة[١٠] حيث اشتبك مع جيش «منجوتكين» عند بلدة رفح فانهزم «منجوتكين» ومحالفوه بنو الجرّاح.

ثم كانت المعركة الثانية في عسقلان حيث انهزم منجوتكين مرة اخرى والتجأ الى حليفه ابن الجرّاح. ارسل القائد الكتامي ابو تميم ابن فلاح الى ابن الجرّاح يطلب تسليم منجوتكين ووعد بمعاملته باكرام وانه لن يلقى سوءاً. ارسل منجوتكين الى القاهرة، حيث عاش مكرماً تحت رعاية الحاكم بامر الله، وشقيقته ست الملك حتى توفي عام ٣٩٧هـ.

---

(٩) كان برجوان من الصقالبة الذين قدموا القاهرة في عهد الخليفة العزيز بالله وعمل في مرتبة كبير الخدم في القصر.

(١٠) كانت الرملة في ذلك الوقت اكبر مدينة في فلسطين.

اشتد طغيان المغاربة بعد هذا الانتصار وكثر فسادهم حتى لاح ان نفوذ برجوان والمشارقة سيقضى عليه. ولكن الداهية برجوان تمكن من ان يستقطب قادة الجيش وتمكن من اثارة الناس الذين كانوا ناقمين من طغيان وفساد المغاربة فوثبت جماعة كبيرة من الجند والناس وهاجمت المغاربة، وذلك في شهر شعبان عام ٣٨٧هـ، فتوارى ابن عمّار واستلم برجوان السلطة.

كان القائد حسن بن عمّار من غلاة الاسماعيلية، وهي الدعوة التي سادت المغرب في ذلك الزمن، وكذلك قريباً من ست الملك شقيقة الحاكم بامر الله، التي كانت لاتركن الى المشرقيين لانهم قبل قدومهم الى مصر، كانوا على مذهب السنة وهو مذهب العباسيين. كما انها كانت تنظر بعين الحذر والخوف الى تسلط الاتراك، ثم من بعدهم البويهيين الفرس، على الخلافة العباسية في بغداد، بحيث لم يكن للخليفة العباسي الاّ المظهر، فارادت بقاء بعض النفوذ المغربي في مصر كعامل امان ضد المشرقيين الترك الذين لا تثق بولائهم.

اقنعت ست الملك الحاكم بامر الله ان يرد لحسن بن عمّار جميع امتيازاته ويغدق عليه الصلات وان يزور القصر ساعة يريد، ولكن في ١٤ شوال عام ٣٩٠هـ انقضّ عليه جماعة من جنود الترك فقتلوه ولم يعرف بواعث مقتله، الاّ انه قيل ان برجوان اراد التخلص منه لاضعاف النفوذ الكتامي المغربي.

كان عمر الحاكم بامر الله في ذلك الوقت خمس عشرة سنة، واما شقيقته ست الملك، فكانت تخطت الثلاثين سنة من عمرها. يقول عنها المؤرخ النويري[١١] وكذلك ابن تغري بردي[١٢] «وكانت عند وفاة ابيها في السادسة والعشرين من عمرها، وكانت حازمة عاقلة، قوية العزم بصيرة بالامور، وكان والدها العزيز يحبها ويستمع الى نصحها في كثير من الامور، وكان لها أثر ظاهر في توجيه سياسته نحو النصارى واستخدامهم في الدولة.

(١١) كتاب نهاية الارب في فنون الادب، مجلد ٢٦، ص ٦١ .

(١٢) كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مجلد ٤، ص ١٩٥ .

استلم برجوان الحكم وقبض على زمام الامور بقوة واستأثر بكل السلطات في مصر وكان الترك والصقالبة يساندونه، وخصوصاً في تحطيم نفوذ وسيطرة الزعماء المغاربة، وبذلك تمكنوا من الاستيلاء على مراكز السلطة.

استمر برجوان مدة سنتين يتبوأ ذروة النفوذ وصار صاحب السلطة المطلقة وبذل جهده بدفع الحاكم بامر الله، الذي كان لا زال يافعاً، الى اللهو والمجون، فكان الحاكم، كأمير المؤمنين، يشرف، من دون تدخل فعلي على سير امور الدولة، وكامام يقوم باعباء السلطة الدينية التي لم يتعرض لها برجوان خوفاً من اثارة غلاة الاسماعيلية.

اعتقد برجوان ان الجو خلا له فكان يقضي معظم وقته في مجالسة اهل الطرب واقتنى عدداً كبيراً من الجواري والعبيد ولا يشرف، في الوقت نفسه، على سير أمور الدولة ولا يقضي من الاعمال الاّ ما يحلو له من دون رقيب او مشاورة حتى ضج الناس من عبثه ومجونه.

يقول المقريزي: «بلغ تصرفه واستهتاره حد الاهانة وان الحاكم استدعاه ذات يوم، وهو راكب معه، فسار اليه وقد ثنى رجله على عنق فرسه، وصار باطن قدمه، وفيه الخّف قبالة وجه الحاكم»[١٣].

اثار تصرف برجوان النفور والاشمئزاز في نفس الحاكم الذي كان بلغ الخامسة عشرة من العمر وكان شديد اليقظة والانتباه، فأخذ ينظر الى تصرف وافعال برجوان بامتعاض وغضب. وفي كتاب السيرة المقدسة، انه نقل الى الحاكم ان برجوان يسميه «الوزغة» اي الافعى الصغيرة، فأرسل الى برجوان من يبلغه ان الوزغة صارت تنيناً كبيراً، ومع ان ذلك كان لبرجوان تحذيراً ونذيراً بالخطر فانه لم يعِ هذا التحذير بل بقي على استهتاره واستبداده.

عندئذ، قرر الحاكم بامر الله التخلص من برجوان ومن طغيانه واستهتاره فعهد الى قائد الجيش حسين بن جوهر الصقلبي بقتله.

في مساء يوم ١٦ ربيع الثاني عام ٣٩٠هـ عندما كان برجوان مع الحاكم في

---

(١٣) كتاب الخطط، مجلد ٣، ص ٥٠ .

بستان قصر اللؤلؤة وثب عليه ريدان الصقلبي، حامل المظلة وخصم برجوان القوي، فقتله.

وفي اليوم التالي، شعر الحاكم، على اثر مقتل برجوان، ان عليه ايضاحاً يقدمه الى الناس يبرر به تصرفه، فدعا القادة والزعماء الى قصره وقال لهم: «ان برجوان عبدي، استخدمته فنصح فاحسنت اليه، ثم اساء في اشياء فقتلته. والآن انتم شيوخ دولتي – وأشار الى كتامة – انتم عندي الآن افضل فيه مما تقدم. ثم التفت الى الاتراك وقال لهم: «انتم تربية العزيز بالله ومقام الاولاد، وما لكل احد عندي الاّ ما يؤثر ويحبه، فكونوا على رسومكم وامضوا الى منازلكم واضربوا على ايدي سفهائكم»[14].

ثم اصدر سجلاً، كتبه كاتب الانشاء أبو منصور بن سورين، في ٢٧ ربيع الثاني يشرح فيه بواعث قتله برجوان ويدعو الناس الى الهدوء ورفع مظالمهم اليه مباشرة قُرئ هذا السجل في جميع المساجد وارسلت منه نسخٌ الى سائر النواحي»[15].

كان اهتمام الحاكم بامر الله بتبرير قتله برجوان خشية حدوث شغب بين الصقالبة وفي الجيش الذي كان ولاؤه لبرجوان.

انتهى الحاكم من مرحلة الحداثة واستلم السلطة وبدأ عهد الحاكم بامر الله الحقيقي. كان وافر الذكاء والفطنة والجرأة، وقد حكم فعلياً من عام ٣٩٠هـ، اي عام مقتل برجوان حتى غيبته عام ٤١١هـ.

عندما استلم الحاكم الخلافة، كانت مصر مأهولة باجناس متعددة من البشر قدمتها طلباً للرزق بالنسبة لازدهارها الاقتصادي وكونها منارة العلم في ذلك الزمن.

كان المغاربة من قبيلة كتامة وبنو قرة قدموا مع المعز لدين الله، ثم الترك من بقايا الاخشيد، وبعض العرب من الجزيرة العربية، قدموا مع عمرو بن العاص في وقت الفتوحات الاسلامية، ثم الزنج من الحبشة والسودان، وثم بعض الخوارج الاباضية.

اما المذاهب والملل، فقد كانت من النصارى الذين اعتنق قسم كبير منهم

---

(١٤) كتاب الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية، محمد عبدالله عنان، ص ٩٩ .

(١٥) مخطوطة للمقريزي لوحة، ٥٤ و ٥٥ .

الاسلام في عهد الامويين. وفي عهد الطولونيين، كان اهل مصر سنة على مذهب العباسيين ثم ساد مذهب مالك بن أنس (المتوفى عام ١٧٩هـ). ولما قدم الامام الشافعي عام ١٩٨هـ تحولت غالبية اهل مصر الى مذهبه وكانت توجد قلة من اتباع المذهب الحنفي والحنبلي.

اما المذهب الشيعي فقد انتشر قليلاً في مصر في عهد خلافة علي بن ابي طالب الذي أرسل والياً على مصر محمد بن ابي بكر الصديق، الذي كان متشيعاً للامام علي، حتى في عهد خلافة ابيه ابي بكر الصديق، ولكن هذا التشيع بقي ضعيفاً اذ لم يسمح العباسيون، عند استلامهم الحكم، بوجود فقهاء من غير السنة في مصر.

اما اهالي مصر فان اتفاقهم مع القائد جوهر الصقلبي عند احتلاله مصر، سمح لهم ان يقوا على معتقداتهم فكان ثلثاهم على مذهب السنة والثلث الباقي من النصارى واليهود، ولما كان تسامح الخلفاء الفاطمي على ان لا اكراه في الدين بقيت هذه المذاهب المتعددة على حالها من دون تبديل.

وانتشرت البدع والدعوات الالحادية في مصر من دون رادع أو رقيب، مما اثار خوف ست الملك التي خشيت على تأثيرها على العقيدة الاسماعيلية، وهي من غلاة الاسماعيلية، «فاستدعت، بواسطة داعي الدعاة «ختكين الضيف» العالم المعروف الداعي احمد حميد الدين الكرماني من بغداد، لمحاربة هذه البدع. وعند قدوم الكرماني الى القاهرة عام ٤٠٨هـ قال «ذهبت مع داعي الدعاة ختكين الضيف، الى الخليفة الحاكم بامر الله فوجدته محاطاً باصحاب البدع والمذاهب الغريبة وجلّهم من المنافقين».

استلم الحاكم بامر الله دولة مترامية الاطراف تمتد من اطراف المغرب حتى بلاد الشام وتضم الجزيرة العربية واليمن وتصل الى «ملتان» في بلاد السند[١٦].

(١٦) كتاب عيون الاخبار – ادريس عماد الدين، ص ٦٨ و ٦٩ يقول ان الداعي الاسماعيلي من اليمن «ابن حوشب» المعروف «بمنصور اليمن» ارسل اخاه «الهيثم» الى اقليم «ملتان» ليقوم بمهمة رئاسة الدعوة الاسماعيلية فاصبحت «ملتان» ولاية اسماعيلية.

وكان هذا الخليط غير المتناسق، بل المتنافر، من البشر والمذاهب يحوط بالخليفة وكان عليه ان يوفق بينهم ويحكم بالعدل ويرسي الامن ويدفع الاعداء الى خارج حدود دولته ويرعى ازدهار الدولة ويحافظ على العقائد الاسماعيلية فهو امام اسماعيلي.

تناول الحاكم ادارة الدولة بيديه وقبض على شؤون الحكم واشرف على سير الامور، فكان عادلاً كريماً رؤوفاً مع الناس، يدخلون اليه من دون وسيط فيقضي حاجاتهم ويعطي المحتاجين ويرفع الظلم عن المظلومين.

واصدر سجلاً قال فيه: «معاشر من يسمع هذا النداء من الناس اجمعين، ان الله، وله الكبرياء والعظمة أوجب اختصاص الأئمة بما لا يشركها فيه من الأمة. فمن اقدم، بعد قراءة هذا المنشور، على مخاطبة او مكاتبة لغير الحضرة المقدسة، سيدنا ومولانا، فقد حلّ امير المؤمنين دمه، فليبلغ الشاهد الغائب ان شاء الله»[١٧].

وفي الوقت نفسه، كان من دون رحمة على المفسدين، فمن عاد عن طريق الحق والصواب وعبث بحقوق الناس فله السيف.

عيّن الحاكم بامر الله الحسين بن جوهر الصقلبي مديراً للدولة وقائداً للجيش الفاطمي ولقّبه «بقائد القواد» وقلده النظر في جميع امور الدولة حتى ديوان البريد والانشاء الذي كان ابو منصور بن سيرين يشرف عليه ثم نظّم مجلساً ليلياً يحضره اكابر الناس ورجال الدولة وتبحث فيه الشؤون الادارية والسياسية. ولكن هذا المجلس، وكان مجلس شورى، لم يدم طويلا اذ بدأ الحاكم يتجه الى التسلط على الحكم بمفرده دون اشراك مستشارين بالأمر.

اما القائد حسين بن جوهر[١٨] فعكف على تدبير شؤون الدولة وامر ان تبلغ اليه الخلافات في مكانه بالقصر ولا يقصد احد داره لقضاء امر ولا يخاطب بغير لقب «القائد» دون تعظيم او تبجيل ولم يمضِ وقت طويل حتى غدا الحسين بن جوهر

---

(١٧) اتعاظ الحنفاء، المقريزي، ص ٥٦ . وكتاب الحاكم بامر الله، محمد عبدالله عنان، ص ١٠١ .

(١٨) هو ابن القائد جوهر الصقلبي الذي فتح مصر وبنى القاهرة ايام الخليفة.

وصهره، قاضي القضاة، عبد العزيز محمد بن النعمان اعظم رجلين في الدولة الفاطمية.

وفي شهر شعبان عام ٣٩٨هـ ولسبب غير معروف، عزل القائد حسين بن جوهر وعين مكانه ابو الفضل صالح بن علي الروذباري ولقب بثقة ثقات السيف والقلم، ليقوم باعمال حسين بن جوهر الذي امر الحاكم بان يلزم داره ثم صدر الامر بالقبض عليه وعلى صهره قاضي القضاة عبد العزيز بن النعمان. فر حسين بن جوهر وقبض على عبد العزيز بن النعمان ولكن عندما اضطربت القاهرة واغلقت اسواقها لمكانة الرجلين عفا الحاكم عنهما، ولكن في شهر ذي القعدة عام ٣٩٩هـ، لعدم اطمئنانهم للحاكم عمدا الى الفرار مع اولادهما والتجآ الى قبيلة بني قرّة.

كتب لهما الحاكم كتب الامان ووعدهما بالعفو وارجاعهما الى منصبهما من دون ان يلحقهم سوء.

عاد الحسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان الى القاهرة، بعد ان استوثقا من الحاكم بالامان، والعفو، وذلك في شهر محرم عام ٤٠١هـ. ولكن في ١٢ جمادى الآخرة عام ٤٠١هـ قبض عليهما وقتلا. كان لمقتلهما وقع سيء وعميق في الشعب فالحسين بن جوهر، ابن مؤسس الدولة الفاطمية في مصر والقاضي عبد العزيز حفيد القاضي الكبير النعمان بن حيون الذي نظّم القضاء في الدولة الفاطمية.

اما ابن الاثير فيقول: «ان الذي اثار غضب ونقمة الحاكم على القائد حسين بن جوهر انه علم بأن حسين اتصل بالثائر «ابو ركوة» وشجعه على القدوم الى مصر لاحتلالها»[١٩].

اما مقتل قاضي القضاة عبد العزيز ابن النعمان فكان لتورطه في فضيحة تتعلق بشرب المسكرات وارتياده ملاهي وحانات لا يليق به ارتيادها، نسبةً الى مركزه كقاضي القضاة حامي الفضيلة والأخلاق. اذن لم تكن هذه الحادثة بسبب حبه سفك الدماء كما ادّعى بعض المؤرخين.

(١٩) كتاب الكامل في التاريخ، ص ٢٣٥ .

نسجت حول تصرفات الحاكم بامر الله الاساطير وتهجم عليه العديد من المؤرخين[٢٠] وكانوا يكنون له البغضاء والحقد، ولكنهم لم يستطيعوا الاّ قول الحقيقة، عن زهده وعفة نفسه وكرمه وعدله واهتمامه برعيته ومصالحها ورفع الظلم عنهم فكان ينزل الى الاسواق لمراقبة الاسعار والاوزان وسماع ظلامة الناس من دون حرس او مواكب.

ويصفه بعض المؤرخين انه كان ذا بنية قوية وكان منذ حداثته يتمتع بمظهر الجبابرة. مبسوط الجسم مهيب الطلعة، له عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما زرقة ونظرات حادة كنظرات الاسد، لا يستطيع الانسان صبراً عليها وله صوت قوي مرعب يحمل الروع الى سامعه[٢١].

وورد في المخطط الكنسي بسيرة البيعة المقدسة «كان منظره مثل الاسد، وعيناه واسعة شهل اذا نظر الى الانسان يرتعد لعظم هيبته وكان صوته جهر مخوّف»[٢٢].

ويقول الانطاكي: «ولقد كان جماعة يتعمدون لقاءَه في أمور تضطرهم الى ذلك. فاذا اشرف عليهم سقطوا على الأرض وجلاً منه وفحموا على خطابه»[٢٣].

ويقول المؤرخ المصري محمد عبدالله عنان، وهو من المؤرخين الحاقدين على الحاكم بامر الله، وكذلك على الموحدين الدروز وعقيدة التوحيد، فقد شن عليهم هجوماً شرساً لا هوادة فيه: «تقدم الرواية الاسلامية الينا، الحاكم في صور مروعة مثيرة. فتقدمه الينا اولاً، في صورة جبّار منتقم، وسفاك لا يخبو ظمؤه الى الدماء. ثم تقدمه الينا في صورة طاغية، مضطرم الاهواء والنزعات، متناقض الرأي والتصرفات، لا تكاد تلمس لاعماله باعثا او حكمة، شرساً جموحاً، ميالا الى الشر، لا يستقر على

(٢٠) انظر اللائحة باسماء بعض المؤرخين الاوائل الذين كتبوا عن الحاكم بامر الله.

(٢١) كتاب اخبار الدول المنقطعة، مخطوط من دار الكتب في مصر رقم ٨٩٠ للوزير جمال الدين ابي الحسن الخزرجي المصري.

(٢٢) ساويرس ابن المقفع اسقف الاشمونيين.

(٢٣) كتاب تكملة التاريخ، سعيد بن البطريق، ص ٢٢١ .

ثقة او صداقة». وثم يقول: كان سيء الاعتقاد، كثير التنقل من حال الى حال وكان مؤاخذاً بيسير الذنب، حاداً لا يملك نفسه عند الغضب»[٢٤].

رغم ذلك لم تفت الحقيقة المؤرخ محمد عبدالله عنان، الذي يظهر انه تأثر كثيراً بأقوال المؤرخين الاوائل من النصارى والمسلمين السنة والمؤرخين العباسيين واعتمد عليهم في كتابه بالرغم من انه ذو معرفة عميقة في التاريخ الاسلامي، اذ يقول: «ولكنها لم تكن نزعة دموية فقط، ولم تكن بالأخص دون غاية. كان الارهاب في نظر الحاكم وسيلة للحكم، وكان القتل المنظم دعامة هذا الارهاب الشامل، فاذا زعيم او رجل من رجال الدولة او رجال الخاص، وصل الى مدى خطر من السلطات والنفوذ، فان القتل المجع وسيلة لسحقه وسحق نفوذه. واذا وزير او كاتب او موقع بدرت منه بادرة انحراف او خيانة او تطلع او تدخل فيما لا يعنيه قضى عليه ان يختفي من الميدان. واذا بدرت من قاضٍ نزعة ضعف فمال مع الهوى وامتدت يده الى مال حرام او رشوة، فان مقتله يغدو كفيلاً لسحق الفساد والظلم وعود الثقة الى القضاء والعدالة. وكانت هذه السياسة ركيزة عرش الحاكم ويؤيد حفظ النظام والامن والسكينة». وثم يقول: «فقد كان القتل وسيلة العصر لحماية المجتمع من موجة غلاء او قحط مصطنعة او سبيلاً لحماية الاسعار وصون النظم الاقتصادية من عبث الجشعين والمستغلين الذين لا وازع لهم ولا ضمير»[٢٥].

وصف احد المؤرخين الاوائل عهد الحاكم بامر الله كما يلي: «وعصر الحاكم اغرب عصر في تاريخ الاسلام يمازجه الروع والرهبة والعدل والقسوة، يحيطه التناقض، وهذا ما يسبغ عليه اهميته. التناقض يحيط بشخصه واعمال الحاكم صعب فهمها. تحيطه نواحي الخير والخلال الجميلة والصفات الكريمة والعدل. كريماً وعادلاً ومتقشفاً زاهداً في متاع الحياة الدنيا، قاسياً وحتى ظلوماً في الحق».

كان يرفض ملذات الجسد بالرغم من كثرتها، فالجواري كانت تباع بالاسواق. اقفل الملاهي ودفع الناس الى تحصيل العلم والمعرفة وبنى لهم «دار الحكمة» اكبر

---

(٢٤) كتاب الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية، ص ١٠٥ .

(٢٥) كتاب الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية، ص ١١٨ و ١١٩ .

جامعة في بلاد الاسلام كان يؤمها المئات من المفكرين والعلماء والطلاب من جميع الاجناس والمذاهب.

لم يكدس الاموال بالرغم من وفرته، بل كان يعطيه للمحتاجين والفقراء. قال الهمذاني: «ارسل الحاكم بامر الله توصية الى ناظر المالية الذي كان لا يحب صرف الأموال تقول: «الغربة مذلة للاعناق، والفاقة مرة المذاق، والمال من الله الرزّاق، فاجرهم على عوائدهم من الانفاق. ما عندكم ينفذ وما عند الله باق»[٢٦].

فاق كرم الحاكم بأمر الله كل حد، ولما اوقف امين بيت المال عن صرف الاموال، خوفاً على الخزينة ان تفرغ، ارسل له: «ما عندكم ينفذ وما عند الله باق، المال مال الله، والخلق عيال الله، ونحن امناؤه في الأرض. اطلق الارزاق ولا تقطعها والسلام»[*].

قال عن الحاكم بامر الله العالم والمفكر الالماني «فون موللر»: «يوجد شواهد واضحة على ان هذا الامير هو اعجب من انجبت اسرته، فقد كان اشدهم اثارة للاساطير من حوله، وان حجاباً كثيفاً قد اسبغ على صورته فلا نستطيع ان نظفر منها الاّ بلمحات، ومن الواضح انه لم يكن شخصية ساذجة وانما لغز عصره وفيلسوف زمانه، ذهناً كبيراً، بعيد الغور، جم العطاء وعقلية تقدمت على عصرها وعليه ان يأخذ مكانه اللائق في التاريخ»[٢٧].

وقال المستشرق الالماني «شروطمان»: «ان الحاكم بامر الله الفاطمي اعاد الى اذهان العالم الاسلامي بتقشفه وبلبسه الخشن من الثياب واقلاعه عن الملذات الجسدية وسهره على راحة شعبه سيرة الخلفاء الراشدين، وخاصة جده الامام علي بن ابي طالب»[**].

ويقول المؤرخ النصراني، يحيى سعيد الانطاكي: «لعمري ان اهل مملكته لم

---

(٢٦) كتاب عيون الاخبار، ادريس عماد الدين، ص ٢٦٦ .

(*) كتاب الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية، محمد عبدالله عنان، ص ١٥٢ .

(٢٧) Von Mueller. *Der Islam in Morgen und Abendland*

(**) Strothmann Rudolf. Kleinere Ismailitische Schriften

يزالوا في ايامه آمنين على اموالهم مطمئنين على انفسهم فقد تقدم الى كل من قبض منه شيء من العقار او الاملاك بغير حق، او صدر منه في ايامه، او ايام ابيه، ان يعاد اليه»[٢٨].

وقال المؤرخ المقريزي: «ان جملة القوانين التي اصدرها الحاكم بامر الله، جاءت بدافع الشعور الديني لاصلاح النفوس والاخلاق وتطهيرها من رذائل المجتمع».

وكان شغل الحاكم الشاغل وهمّه الاول القضاء العادل، لأن الانسان يركن الى الطمأنينة عندما يتأكد ان حياته وحقوقه وامواله مصانة بقضاء نزيه وعادل فيأخذ كل انسان حقه، وقال الانطاكي: «ان الحاكم اظهر من العدل ما لم يسمع بمثله»[٢٩].

بيد ان العدالة ونزاهة القضاء لم يكونا لدى الحاكم مجرد عاطفة فقط، انما كانا ركناً من اركان حكمه، فقد قام بتنظيم القضاء وتطهيره من الفساد والرشوة، فكان ينتقي القضاة من الفقهاء، والمتعلمين فيعطيهم رواتب كبيرة ويُغدقُ عليهم صلاته كي لا تكون الحاجة السبب للرشوة والفساد.

ويقول محمد عبدالله عنان: «وكان قاضي القضاة اعظم زعيم ديني في الدولة، واليه مرجع الاحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والحدود، اعني في الشؤون الدينية والمدنية والجنائية. والنظر في شؤون السكة (دار ضرب النقود) وشؤون المساجد وائمتها وسائر المتصرفين فيها، وكان اختصاصه يشمل مصر، والشام، والمغرب والحرمين[٣٠].

ويقول في السجل الصادر في عام ٣٨٩هـ بتولية القاضي الحسين بن علي بن النعمان: «وامره ان يتقي الله، عز وجل، حق التقوى في السر والجهر والنجوى، ويعتصم بالثبات واليقين والنهى، وينفصم من الشبهات والشكوك والهوى، فان تقوى الله تعالى وتبارك موئل لمن وئل اليها حصين، ومعقل لمن اقتناها امين ومعول لمن عول عليها مكين، ووصية الله التي اشاد بفضلها، وزاد في سناها بما عهد انه من

---

(٢٨) كتاب نظم الجواهر المعروف بتاريخ سعيد بن البطريق، ص ٢٠٦ .

(٢٩) كتاب صلة تاريخ «اوتجانس»، ص ٢٠٦ .

(٣٠) كتاب الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية، ص ٣٣٧ .

اهلها. وامره ان يجعل جلوسه للحكم في المواضيع الضاحية للمتحاكمين، ويرفع عنهم حجابه ويفتح لهم ابوابه ويحسن لهم انتصابه ويقسم بينهم لحظه، ولفظه، قسمة لا يحابي بها قوماً لقوته ولا يردي فيها ضعيفاً لضعفه، بل يميل مع الحق ويجنح الى جهته، ولا يكون الاّ مع الحق وفي كنفه»[٣١].

عيّن الحاكم بامر الله ابا عبدالله الحسين بن علي بن النعمان قاضي القضاة واوصله بالمال وضاعف ارزاقه واغدق عليه الكثير مما يحتاجه وقال له: «قد ارحت عليك فلا توجد لي سبيلاً اليك بتعرضك الدرهم من اموال الناس فقد اغنيتك عنها».

منح القضاة السلطة والمال وامتيازات عدة حتى لا يطمعوا بأموال الناس، ومن قبل الرشوة او ظلم فله السيف.

عين في عهده خمسة «قاضي قضاة» جلهم من عائلة النعمان وهي عائلة مغربية تدين بالاسماعيلية، اشتهرت بالفقه والقضاء الاّ انه قتل ثلاثة منهم هم:

- الحسين بن علي بن النعمان، ضاعف اقطاعه ومنحه التكريم وكان من امتيازاته ان كان له حرس خاص ومركب يسير في نهر النيل ولكن الحسين بن النعمان سرق وارتشى فأمر بضربه حتى مات عام ٣٩٥هـ.
- عبد العزيز بن محمد بن النعمان، منحه سلطات واسعة حتى قيل انه لما رفض احد القادة الكتاميين الحضور امامه، امر الحاكم ان يجلب امام القاضي مغلول اليدين ومهاناً. ولكن القاضي عبد العزيز تورط في فضيحة تتعلق بشرب المسكرات فقتله الحاكم عام ٤٠١هـ.
- وعيّن مالك بن سعيد الفارقي ومنحه جميع السلطات والامتيازات وقربه اليه وبالغ في تكريمه وجعل راتبه خمسة عشر الف ديناراً وكان يشاركه الطعام ولكن مالكاً تورط في قضية لامرأة عاهرة فقتله الحاكم عام ٤٠٥هـ.
- وثم عين ابا العباس احمد بن محمد بن عبدالله بن ابي العوام، الفقيه الحنفي السني المصري عام ٤٠٥هـ وعيّن له اربعة مساعدين من الفقهاء الشيعة،

(٣١) كتاب الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية، ص ٣٨٥ و ٣٨٦ . وكتاب صبح الاعشى، لأبي العباس القلقشندي، مجلد ٣، ص ٣٨٥ .

واستمر ابن ابي العوّام يتولى القضاء حتى نهاية عهد الحاكم. ولما تولى الخلافة الخليفة الظاهر بقي ابن ابي العوّام في وظيفته قاضي القضاة. وعندما قيل للحاكم، ان ابن ابي العوام. «ليس على مذهبك ولا من مذهب من سلف من ابائك؟ اجاب: «هو ثقة مأمون مصري عارف بالقضاء وباهل البلد». وهذا دليل على ان مذهب القاضي لا يهمه بل يهمه ان يكون مأموناً وثقة.

ابن ابي العوام هو القاضي الذي ارسل اليه الامام حمزة بن علي وفداً من اتباعه وامروه بان يدعو الى تأليه الحاكم بامر الله بأن لا يحكم على موحّد لان الحكم يكون للامام. فحدث الشغب واثار الناس على اتباع الامام حمزة وقتلوهم.

كان القاضي الاول، في عهد الحاكم، محمد بن علي بن النعمان وكان ابوه اول من درس الفقه في الجامع الازهر. توفي القاضي محمد بن النعمان عام ٣٨٩هـ وخلفه على القضاء ابنه الحسين بن محمد بن علي بن النعمان الذي قتله الحاكم بامر الله عام ٣٩٥هـ.

وفي الفترة ما بين عام ٣٩٥هـ الى عام ٤٠٥هـ اصدر الحاكم بامر الله طائفة من القوانين التي اخذها المؤرخون واعتبروها اجراءات «غير طبيعية» وانتقدوها بشدة واعطوها تفسيرات مليئة بالتجني والانحراف عن الحقيقة.

وفي محرم عام ٣٩٥هـ، صدرت اول طائفة من القوانين والسجلات بمنع أكل الملوخية، والجرجير، والصدف «الدلينس» والترمس وحرّم ذبح الابقار السليمة ما لا تصلح للحرث، حرّم بيع الخمور وخصوصاً الفقاع[٣٢] وثم صيد السمك الذي لا قشر له، وحرّم دخول الحمامات العامة بدون مئزر وشدد على عدم بيع الجواري الى النصارى واليهود وان لا يدخل سوق الرقيق من لا يكون بائعاً او مشترياً وحرّم على النساء البكاء والعويل في المآتم ومنع البيع والشراء وقت الليل.

واصدر في ربيع الاول عام ٣٩٩هـ قانوناً يمنع بيع المسكرات حتى انه منع بيع الزبيب والعنب وامر بكسر اواني الخمر واتلاف بساتين الكرمة، وثم في شهر ذي القعدة عام ٤٠٠هـ اصدر سجلاً بذلك كتبه ابو منصور سيرين مدير ديوان الانشاء.

---

(٣٢) نوع من البيرة يصنع من الشعير كان منتشراً في ذلك الزمن.

واصدر الحاكم امراً عام ٣٩٥هـ بقتل الكلاب، الاّ كلاب الصيد السليمة من الامراض. فخلت شوارع القاهرة منها[٣٣]. ثم امر بقتل جميع الخنازير وعاقب من يقتنيها بقسوة فقتلت عن اخرها.

واصدر في شعبان عام ٤٠٤هـ سجلاً منع النساء من مغادرة منازلهن والتجول في الشوارع، حتى انه منع السكافين من صنع احذية لهن، ومنعهن من التطلع من النوافذ ومن دخول الحمامات العامة ومن زيارة القبور والسير وراء الجنائز ومن التبرج وامرهن ألا يكشفن عن وجوههن في الاماكن العامة. وثم امر الباعة ان يحملوا السلع الى منازلهن حيث يمد البائع عصاً بها مغرفة او كيساً الى المرأة، وهي داخل المنزل، فتأخذ ما تريد وتضع المال مكانه ولا تظهر للبائع[٣٤]. وكان صارماً في تنفيذ هذه القوانين ويعاقب المخالفات بالضرب والسجن. بقيت هذه الاوامر سارية المفعول حتى غيبته عام ٤١١هـ.

إلاّ ان صدور هذه القوانين والتشدد في تطبيقها، لم يكن من دون سبب او عن نزوات طائشة كما قال بعض المؤرخين الذين دأبوا على تأويل اوامر الحاكم بامر الله تأويلاً سيئاً منحرفاً عن الصدق، منها التعصب المذهبي وحبه لقهر الناس كي يدفعهم الى الزهد والتقشف وترك ملذات الجسد. فالكثير من هذه القوانين، وان كانت صارمة، كان لها مبررات فرضتها الاوضاع الاجتماعية في ذلك الوقت، خصوصاً المجون والتهتك وانعدام الاخلاق الفاضلة. ويقول المؤرخ محمد عبدالله المسبّحي، عن الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله، ابن الحاكم بامر الله، «وشاهد من سكر النساء وتهتكهم وحملهم في قفاف الحمالين، سكارى، واجتماعهم مع الرجال امر يقبح له[٣٥]».

اما منعه بعض المأكولات، كالملوخية والجرجير وغيرها، فكان سببه، ان الحاكم كان خبيراً ومتمكناً من العلوم الطبيعية، وخصوصاً الكيميا، يجالس العلماء

---

(٣٣) كتاب سيرة البيعة المقدسة، ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونيين.

(٣٤) الانطاكي، ص ٢٠٨ . المقريزي، الخطط، مجلد ٣، ص ٥٧٣ .

(٣٥) كتاب اخبار مصر عام ٤١٤ و ٤١٥، ص ٤٠ .

ويدرس عنهم العلوم وحتى يجري التجارب العلمية بيده، فخاف من وجود مواد ضارة او مهيجة للغرائز الحيوانية في هذه الاطعمة، وليس كما ادعى بعض المؤرخين من اهل السوء، بأنه منع اكل الملوخية لأن يزيد بن معاوية كان يحبها ولأن ام المؤمنين عائشة تحب الجرجير، او كما قالوا انه امر بقتل الكلاب، لان نباحها يزعجه في الليل(*) او لان كلباً نبح فاجفل حصانه. كل هذه الادعاءات من المؤرخين لم يكن جاداً ولا يمت الى الحقيقة او المنطق بصلة. اذ ان الاضرار الصحية وتأثير هذه الاعشاب على صحة المواطنين، التي كانت شغله الشاغل، اوجبت هذه القوانين ولا علاقة بالنزوات النفسية او الحقد على يزيد بن معاوية وغيره بها.

امر الحاكم بعدم ذبح الابقار السليمة بغية حفظها تحرث، وهذا امر طبيعي، لان مصر كانت بلدا يعتمد على الزراعة في اقتصاده. وثم يجب ان لا ننسى، ان الحليب والسمن والاجبان، التي تنتجه هذه الابقار، كان مادة غذائية اساسية للناس، رخيصة الثمن وفي متناول الجميع، وخصوصاً الفقراء. ومعظم المزارعين، في يومنا هذا، في لبنان وسورية، يقتني الابقار والماعز لهذه الغاية.

اما قتله للكلاب، فلم يكن لانها تزعجه في نباحها خلال الليل وهو يسكن في قصر تحيطه الجنائن والبساتين الواسعة وثم لديه المئات من الحرس، والخدم يمكنها ردع الكلاب من الاقتراب من القصر، بل لان في عهد العزيز بالله كثرت السرقات بوجود اعداد كبيرة عن الغرباء في القاهرة، فاقتنى الناس الكلاب بكثرة للحراسة. ولكن

(*) يصف الداعي الاسماعيلي، ناصر خسرو، عام ٤٣٩ هـ قصر الخلافة الفاطمي في القاهرة - كتاب سفرنامة، ص ٨٩ - . «ويقع قصر السلطان في القاهرة، وهو طلق من جميع الجهات ولا يتصل به اي بناء، وكل ما حوله فضاء ويحرسه كل ليلة الف رجل، خمسمائة فارس وخمسمائة راجل، ينفخون البوق ويدقون الطبول من وقت صلاة المغرب، ويدورون حول القصر حتى الصباح وهو لا يرى من خارج المدينة كانه جبل لكثرة ما فيه من الابنية المرتفعة وهو لا يرى من داخل المدينة لارتفاع اسواره. ويقول كذلك المقريزي - مجلد ٢، ص ٢١٤ - كتاب اتعاظ الحنفاء - «ادار عليه سوراً محيطاً به. وهذا القصر كان دار الخلافة وبه سكن الخلفاء الفاطميون الى آخر ايامهم». فكيف يمكن للكلاب ان تدخل هذا القصر بالرغم من اسواره وحراسه كي تنبح تحت شرفاته وتزعج الحاكم بامر الله فيأمر بقتلها؟ اتهامات باطلة، كغيرها من الاتهامات، ضد الحاكم بامر الله.

عندما استتب الأمن في عهد الحاكم بامر الله، وانيرت القاهرة، استغنى الناس عن اقتناء الكلاب فشردت في الشوارع باعداد كبيرة واصيبت بالامراض الخطرة، فاصبحت تشكل خطراً على المواطنين، وخصوصاً الاولاد منهم، فامر بقتلها حفاظاً على سلامة الرعية.

ومنع الحاكم بامر الله النساء من البكاء والعويل في المآتم، لان ذلك محرّمٌ في الدين الاسلامي. وكلنا يعرف قصة الخليفة عمر بن الخطّاب عندما توفي النبي الكريم اتى من قال له «ان نساء النبي يبكين وينحبن» فدخل عليهن مهدداً ومتوعداً بضربهن ان لم يكففن عن ذلك. وثم عندما مات خالد بن الوليد، ولم يكن على وفاق مع عمر بن الخطّاب، أتى من قال لعمر «ان النساء يبكين على خالد». فقال كلمته المشهورة: «ان لم تبك النساء على ابي سليمان على من يبكين اذاً». وانتقد عمر على تساهله في ذلك الوقت.

كلنا يعرف انه عندما كان الامير السيد عبدالله التنوخي في دمشق، اتت وفود طالبة رجوعه إلى بلدته عبيه. فكان من شروطه للعودة، ان تمنع النساء من العويل والنوح في المأتم.

بالغ الحاكم بامر الله بقسوته على النساء كثيراً، ولكن ذلك كان لتفشي الفجور والتهتك في القاهرة، انتشار بيوت الدعارة، ولهذا منع اهل الذمة من شراء الجواري، وخصوصاً اليهود منهم، لانهم كانوا يملكون هذه البيوت ويتاجرون بالرقيق الابيض.

وقد ساعدت كثرة المال عند الناس والرخاء، على اقتناء الجواري الذين جلبوا الى القاهرة باعداد كبيرة، وكانت توجد اسواق عدة لشراء الرقيق، فكانت تجاريةً للمتعة والمتقدمات بالسن منهن للخدمة فكثر الفسق والمجون.

والمعروف ان الحاكم كان ورعاً تقياً زاهداً ابتعد عن ملذات الجسد، التي كان يمقتها وقيل انه لم يتزوج الا امرأة واحدة انجبت ثلاثة اولاد؛ ابو الحسن علي وهو الذي خلفه ولقب الظاهر لاعزاز دين الله، وابو الاشبال الحارث وقد توفي في ربيع الاخر عام ٤٠٠هـ في حياة والده وابنة تسمى ست مصر.

ويقول المؤرخون ان الحاكم، عندما استلم الحكم، بعد مقتل برجوان، اطلق جميع الجواري اللواتي كن في القصر واعطاهن حقوقهن وما يكفيهن للعيش الكريم.

وعفته هذه مع زهده في ملذات الدنيا، كانا سبب تشدده الصارم مع النساء: «حتى انه منع الغناء واللهو وامر ان لا تباع مغنية، وهوجمت اماكن البغاء والقصف بشدة وازيلت اوكارهم ودورهم وطهّرت منهم احياء المدينة»[٣٦].

وتشدد كثيراً في منع المسكرات، لان الدين الاسلامي يمنعها، ومن كلام الله تعالى: «يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون»[٣٧].

ثم قال الله: «يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلوة وانتم سُكارى حتى تعلموا ما تقولون»[٣٨]. وكانت المسكرات منتشرة في القاهرة لان الفاطميين تركوا للمصريين ان يعيشوا كما يرغبون، والمصريون ورثوا شرب الخمر وارتياد الحانات من الاخشيد الاتراك.

وفي شهر ذي القعدة عام ٤٠٠ هـ اصدر الحاكم السجل المنهي عن الخمر الذي يقول فيه: «ان احسن الامور عائدة على الاسلام والمسلمين واجمعهم اصلاحاً في حراسة اصول الدين، نهى الكافة عن الالمام بالمسكر واستحسان المناكر في الاصرار على المسكر الذي هو متجمع السيئات والقائد الى اقبح الافعال والسيئات» ثم يقول: «بالنهي عن شرب شيء من المسكر على اختلاف اصنافه والوانه وطعمه»[٣٩]. وكما قلنا سابقاً ان الذي كتب هذا السجل هو ابو منصور بن سيرين رئيس ديوان الانشاء في عهد الحاكم بامر الله، وذلك قبل نشوء الدعوة التوحيدية الدرزية.

وفي العام الثاني، اي، عام ٤٠١ هـ صدر سجل ثان بالتشديد في بيع الخمور والمسكرات بانواعها والمواد التي تصنع منها، فكسرت اواني الخمور وشدد على الخمارين ودمر حوانيتهم ودورهم وحرّم بيع الزبيب، الاّ خمسة ارطال وما دونها، ثم

---

(٣٦) كتاب نظم الجوهر المعروف بتاريخ سعيد بن بطريق، يحيى سعيد الانطاكي، ص ١٨٦ .

(٣٧) سورة المائدة، آية ٩٠ .

(٣٨) سورة النساء، آية ٤٣ .

(٣٩) كتاب الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية، محمد عبدالله عنان، ص ١٣٠ بها شرح كامل عن منع المسكرات.

أتلف الكرمة فاختفى العنب من الاسواق ثم صادر العسل واغرقه في نهر النيل وهكذا اختفت الخمر ومصادرها طوال حكم الحاكم بامر الله.

واتهم بعض المؤرخين الحاكم بامر الله بانه «سفّاك دون رادع يقتل لحبه في القتل». ويقول الاب ميخائيل[٤٠]: «ان الحاكم قتل ثمانية عشر الف شخص». فاذا اخذنا عهد الحاكم بامر الله من تاريخ استلامه الحكم الفعلي، وذلك بعد مقتل برجوان، حتى نهاية عهده عام ٤١١ هـ نجد، حسب ادعاء الاب ميخائيل، ان الحاكم كان يقتل يومياً، بما فيه الاعياد والاحاد، ستة اشخاص على الاقل، ولكن المؤرخين، حتى النصارى منهم، قالوا عنه انه كان قاسياً وبدون رحمة فقط، مع كبار رجال الدولة من قضاة وقادة والموظفين الذين سرقوا اموال الشعب ولم يحكموا بالعدل مع ان رواتبهم وصلاتهم كانت كبيرة. وثم ان التاريخ لم يشر انه قتل من عامة الشعب او جرت مذابح في عهده لاهل الذمة او غيرهم. فمن اين جاء الاب ميخائيل بهذا العدد الضخم من الضحايا؟.. الاّ اذا ادخل في ادعائه الباطل الجنود الذين قتلوا في حروبه والثورات التي اندلعت في عهده.

كانت احكام الحاكم بامر الله قاسية ومن دون رحمة ولكنها اقتصرت على المفسدين وسارقي اموال الشعب وقد استعمل الارهاب والقسوة في الحكم لنشر العدل والطمأنينة بين الناس، وهذا ما يحدث حتى يومنا هذا في العديد من الدول، لأن القسوة والصرامة في الحكم رادعان للمفسدين الذين يستغلون نفوذهم لسرقة اموال الشعب فقد اصدر الحاكم بامر الله قوانين صارمة ليكافح الانحلال الخلقي الشامل الذي انتشر في مجتمع عصره.

ورغم انه في عهد الحاكم بامر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) كان ثلثا سكان مصر مسلمين على مذهب السنة والثلث الباقي نصارى ويهوداً لم يتعرض الفاطميون لاهالي مصر ليجبروهم على اعتناق العقيدة الاسماعيلية لان جوهر الصقلبي قائد الجيش الفاطمي اعطى وفداً مصرياً في الاجتماع الذي جرى في قرية «باتروجة»

(٤٠) الاب ميخائيل كان كاتب الاخبار الدينية في بطركية مار مرقص. كتاب الأنبا زخريا البطرك الرابع والستين والبطرك «فيلاتاوس» الثالث والستين في القسم الخاص عن الحاكم بامر الله.

قرب الاسكندرية، وكان الوفد يضم، ابو جعفر مسلم بن عبدالله الشريف الحسيني، وابو اسماعيل المرسى، وابو الطيب الهاشمي، والوزير ابو جعفر احمد بن نصر بن الفرات، وذلك في شهر شعبان عام ٣٥٨هـ، اماناً جاء فيه بالنسبة الى دينهم ما يأتي: «انكم ذكرتم وجوهاً التمستم ذكرها في كتاب امانكم، فذكرتها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم، فلم يكن لذكرها معنى ولا في نشرها فائدة، اذ كان الاسلام سنة واحدة لشريعة متبعة، وهي اقامتكم على مذهبكم وان تنزلوا على ما كنتم عليه في اداء المفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم»[٤١].

اذن تعهد القائد جوهر الصقلبي لاهل مصر ان يبقوا على مذاهبهم وان يمارسوا فروضهم كما يرغبون وذلك تمشياً مع سياسة الفاطميين «ان لا اكراه في الدين».

والمعروف ان الخليفة الحاكم بامر الله لم يكن متعصباً لدين من الاديان، بل متسامحاً حيث ترك الناس يمارسون طقوسهم كما يرغبون من مسلمين وغير مسلمين، وله قول مأثور: «ان كل الناس في دولتنا احرار في اختيار مذهبهم واظهار ما في ضميرهم وممارسة طقوسهم، ولا اكراه في الدين».

وفي شهر رمضان عام ٣٩٨هـ صدر سجل يحمل التوفيق بين المذهب السني والمذهب الشيعي فيقول: «اما بعد، فان امير المؤمنين، يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين «لا اكراه في الدين»[٤٢]. مضى امس بما فيه، واتى اليوم بما يقتضيه، معاشر المسلمين، نحن الأئمة وانتم الأمة، من شهد الشهادتين، ولا يحل عروة بين اثنين، تجمعهما هذه الاخوة، عصم الله بها من عصم وحرّم عليها ما حرم».

وكدليل على انفتاح الحاكم بامر الله على جميع المذاهب وعدم تعصبه الديني، تقول الدكتورة نجلا ابو عز الدين، «قبل اظهار الدعوة، كان اجتمع حول الحاكم مريدون ممن كان الدين لهم عبادة روحية. ولما كانوا تخلوا عن ممارسة الشعائر فقد رفعت شكوى عليهم الى الامام الحاكم الذي وبّخ منتقديهم في رسالة «الجام

---

(٤١) كتاب اتعاظ الحنفاء باخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، المقريزي، ص ١٤٨ - ١٥٣ .

(٤٢) سورة البقرة، آية ٢٥٦ .

الجاحدين المعترضين على الزاهدين من ذوي المجاهدة الموحدين». وهذه الرسالة مؤرخة في شهر صفر عام ٤٠٠هـ وصادرة عن ديوان الانشاء في القاهرة(٤٣).

ويخاطب الحاكم بامر الله اولئك الذين اتوا بكتاب المجادلة فيقول: «ثم جئتم تجادلوننا باعيننا واحبتنا الذين بصرت عيون البابهم الحق فاتبعوه وزهدوا بالباطل وهاموا في جنات شوقهم وانكرتم عليهم ما هو فيهم من وجد وهيام، وقلتم انهم لا يأتون المساجد ولم يؤدوا الصلاة وهجروا الفرائض وتركوا السنة وتلوموننا لكوننا ابحنا لهم ذلك، ووسعنا عليهم دعوتهم وجلسنا مجالسهم ندعو الناس الى تلك المجالس، وهولاء الذين اتخذوا الكتاب حجة لهم جهلوا حقيقة ما يدعو اليه الكتاب وحقيقة تأويله»(٤٤) (*).

بعد هذه الأدلة على انفتاح الحاكم بامر الله على جميع المذاهب وتأكيده ان «لا اكراه في الدين» وعدم تعصبه الديني، نأتي الى اضطهاده للنصارى الذي ينقض هذه التأكيدات فنرى ان الحاكم غالى في قسوته في معاملة النصارى واليهود، رغم انه هنا ايضاً يوجد مبررات لهذه القسوة والاضطهاد والظلم ولكن هذه المبررات ضعيفة بالنسبة للظلم الذي قام به.

اعتمد الحاكم بامر الله «الشروط العمرية» التي وضعها الخليفة عمر بن الخطّاب لتنظيم تصرف اهل الذمة في المجتمع الاسلامي والتي اهملها الخلفاء المسلمون الاّ في حالات الحروب مع دولة مسيحية.

حظّر عمر بن الخطّاب في شروطه على النصارى بناء الكنائس والاديرة، ورفع الصلبان فوق الكنائس واظهار كتبهم المقدسة في الاماكن العامة ورفع اصواتهم بالترتيل في الكنائس وحذرهم الاّ يحاولوا تنصير مسلم او يحولوا دون اسلام

---

(٤٣) كتاب الدروز في التاريخ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٤٤) تقول الدكتورة نجلا ابو عز الدين، ان هذه الرسالة وردت في احدى المخطوطات المكتشفة حديثاً وتعتقد انها من كتب المذهب التي تعتبر مفقودة.

(*) يجوز ان يكون هؤلاء المريدون من بقايا القرامطة الذين تصوفوا. انتهى دور القرامطة في بلاد الشام في عهد الخليفة العزيز بالله.

نصراني، ولا يحملوا السلاح او يستعملوا السروج او يشتروا مسلماً او يتخذوا لأنفسهم ازياء خاصة[٤٥].

الاّ ان عمر بن الخطّاب لم يتصرف بقسوة وصرامة الحاكم بامر الله، فعمر لم يضع في عنق النصراني صليباً خشبياً بطول يبلغ ذراعاً ونصف وبوزن يصل الى أربعة ارطال ولا في عنق اليهودي جرساً وزنه ثلاثة ارطال، ولم يمنع اهل الذمة من ركوب الجياد ولم يهدم الكنائس، بما فيها كنيسة القيامة في بيت المقدس، الذي كان امير المؤمنين عمر بن الخطّاب امر باعادة بنائها بعد ان هدمها القائد الروماني «تيتس» عندما دمّر مدينة القدس.

ويقول البطريرك وليم الصوري: «ان عمر بن الخطّاب صرف قدراً من المال في ذلك الغرض وجلب لبنائها العمّال وشتى مواد البناء اللازمة من الرخام والخشب واوقف على الكنيسة كثيراً من الاملاك الغنية التي كان دخلها كافياً للحفاظ عليها سليمة، كما جلب لها المصابيح والفرش اللازم»[٤٦].

وفي عام ٤٠٣هـ اصدر الحاكم بامر الله الى والي مدينة الرملة «بارخكتين» قائلاً: «امر الامامة اليك بهدم كنيسة القمامة[٤٧] فاجعل سماءها ارضاً وطولها عرضاً. وقيل ان الحاكم امر بهدم كنيسة القيامة لان ملك الروم هدم جامع القسطنطينية[٤٨].

العقل يرفض هذا السبب الواهي الطائش لأن اعمال جدّية مهمة، كهدم كنيسة القيامة واثارة غضب العالم المسيحي، لا يصدر عن عوامل نفسانية إنفعالية طارئة بل يجب ان يكون له اسباب اهم واعمق من نزوات عابرة غير جدّية.

المعقول، وهذا واقع ديني كان بارزاً في ذلك العصر، ان سبب هدم كنيسة القيامة اعمق من الاسباب الواهية التي قالها المؤرخون وهي غضب الحاكم من

---

(٤٥) كتاب فتوح مصر لابي الحكم، ص ١٥١ .

(٤٦) كتاب الحروب الصليبية، ص ٦٦ .

(٤٧) كتاب سيرة الاباء البطاركة.

(٤٨) كانت كنيسة القيامة تدعى بالقمامة لانها بنيت في المكان الذي كان اهل القدس يرمون فيه القمامة ويقال انه المكان الذي صلب فيه السيد المسيح.

استغلال الكهنة المسيحيين عاطفة الدين والايمان عند العامة لكسب المال، او لأن البيزنطيين هدموا مسجداً في القسطنطينية، بل السبب ان الحاكم بامر الله، وهو امام اسماعيلي، لاحظ ان النصارى يعتبرون كنيسة القيامة قبلة المسيحية كما يعتبر المسلمون الكعبة قبلة الاسلام، ولهذا تتدفق وفود النصارى اليها من انحاء العالم المسيحي كافةً. فاراد القضاء على هذا المد المسيحي الذي قد يشكل خطراً على الحكم الاسلامي على القدس ويبرهن على صواب خوف الحاكم، لان تحرير القدس من السيطرة الاسلامية كان احد اسباب الحروب الصليبية.

عرف الفاطميون بتسامحهم وبتعاونهم مع النصارى واليهود. وفي عهد الخليفة العزيز بالله، والد الحاكم بامر الله، التي كانت زوجته نصرانية، عيّن اخويها في اعلى مناصب الكنيسة فأصبح «اريستس» بطريركاً على بيت المقدس «وارسانيوس» بطريركاً على القاهرة ومصر، وكان لهما نفوذ واسع. وعرف عهد الخليفة العزيز بالله ببلوغ نفوذ النصارى ذروته فكان منهم الوزراء، الذين استولوا على معظم اعمال الدولة، ومنهم عيسى ابن نسطورس، وكذلك كان طبيبه موسى بن العازار اليهودي(٤٩)، كما انه شارك في بناء الكنائس والاديرة.

اما الخليفة الحاكم بامر الله، فقد ولى النصارى، في حكمه، مناصب ثقة ونفوذ، وكان منهم وزراء يحتلون ارفع المناصب، ومنهم فهد بن ابراهيم، ابو النصر بن عبدون، وزرعة بن عيسى بن نسطورس، وطبيبه الخاص كان منصور بن مقشر النصراني، ولما مات خلفه في هذا المنصب طبيب نصراني آخر ابو يعقوب ابن نسطاس(٥٠).

اشتد خطر البيزنطيين على الدولة الفاطمية، وكانت، في ذلك الوقت، ثقة الحاكم بامر الله لجيشه يشوبها الشك، لأن معظم الجيش كان من الاغراب، ومن قبائل البربر، كتامة وبني قرة وقادته من الصقالبة والترك والمغاربة، فيما كان هو عربياً لا قبيلة تسانده ولا عائلة قوية يعتمد عليها.

---

(٤٩) كتاب اتّعاظ الحنفاء باخبار الأئمة الخلفاء، المقريزي، ص ١٩٦ .

(٥٠) المصدر السابق، ص ٦٢ .

وبما ان ثلث اهالي مصر كان من النصارى وكان الاعداء البيزنطيون من ابناء دينهم، كان من الطبيعي ان يعطف ابناء الملة الواحدة على بعضهم، مما اغضب الحاكم بامر الله وجعله يشك بولائهم له، وخصوصاً في وقت الحرب حين كانت الجاسوسية تلعب دوراًخطراً قد يتسبب بكوارث وخسائر كبيرة. وامثلة التعاطف والتقارب بين أفراد الملة الواحدة معروفة تاريخياً وقائمة حتى يومنا الحاضر.

ويقول البطريرك وليم الصوري عند محاصرة مدينة طرطوس، في بلاد الشام، من الصليبيين: «وعلى الرغم من عدم قدرة المسيحيين الموجودين في المدينة من الخروج، الاّ انه لم تكن العواطف الاخوية تنقصهم، فراحوا يدلون الحبال بالسلال ملأى بالخبز والردايا المترعة بالنبيذ، وهكذا امكنهم امداد الذين بالخارج بالطعام الكافي لهم في هذه الليلة»(٥١).

وثم يقول: «فلما عرف رجالنا انهم مسيحيون مثلهم دعوهم لدخول المينا وصافح بعضهم بعضاً وتبادلوا فيما بينهم قبلات السلام»(٥٢).

ثم يقول: «كانت هناك طائفة معينة من نصارى الشام تعيش على قمم جبال لبنان الشاهقة التي تطل ذراها العالية على المدن الواقعة الى الشرق، كما ذكرت حالاً، وجاء هؤلاء النصارى، المعروفون بالمارونيين، مهنئين الحجاج (الصليبيون) ومبدين لهم حبهم الاخوي، ولما كانوا على دراية تامة بالمنطقة وما حولها، فقد استدعاهم القادة مستفسرين منهم، باعتبارهم اهل خبرة بالناحية، عن اسلم طريق الى بيت المقدس، ودلوهم على الدروب المختلفة وبينوا احوالها ثم تركوا لهم في النهاية طريق الساحل»(٥٣).

اذن عطف اهل الملة الواحدة ومساعدتهم لبعضهم البعض قضية عرفها التاريخ مراراً ولا تبدو مستغربة. ففي عام ١٩٢٥ عندما اندلعت الثورة السورية على الفرنسيين، التحق بثوار جبل الدروز اعداد كبيرة من دروز لبنان، حتى قيل في

---

(٥١) كتاب الحروب الصليبية، ص ٢٤٠ .

(٥٢) كتاب الحروب الصليبية، ص ٢٤٣ .

(٥٣) كتاب الحروب الصليبية، ص ٦٢٠ .

بعقلين «لم يبق رجل واحد يجر محدلة على سطح».. كما وان كثيراً من رجال الموارنة تطوع في الجيش الفرنسي وذهبوا الى مرجعيون، بقيادة غطاس كرم، لقتال ابناء بلدهم الدروز.

عندما جيء بغطاس كرم اسيراً في جديدة مرجعيون الى زيد الاطرش، قائد الحملة، قال له زيد الاطرش: «نحن يا اخي لم نأت لقتال اخواننا المسيحيين، وهذا الزعيم المسيحي، عقلة القطامي ورجاله يقاتلون معنا. جئنا نطرد الفرنسيين الغرباء من بلادنا. ارجع ورجالك الى بيوتكم وادعوا لنا بالتوفيق لأن توفيقنا هو توفيقكم»(*).

وعندما اجتاحت اسرائيل لبنان عام ١٩٨٢، سُمع مختار احدى القرى الدرزية يتحدث باعجاب عن الجنود الدروز في الجيش الاسرائيلي، قيل له: «هؤلاء الجنود اتوا من عدوتنا اسرائيل!..». اجاب: «بالنسبة لي الدرزي درزي ولو أتى من جهنم».

اذن تبدو ردة فعل الحاكم بشكّه في ولاء النصارى امراً طبيعياً، وكلنا يذكر انه في الحرب العالمية الثانية اعتقلت السلطات الاميركية مئات الألوف من رعاياها من اصل ياباني ووضعتهم في المعتقلات حتى نهاية الحرب. وكذلك وقعت، في الحرب العالمية الاولى الحادثة الشهيرة، عندما نحت الحكومة البريطانية قائد البحرية الاميرال اللورد «مونتباتن»، جد الامير فيليب، زوج الملكة اليوم، عن قيادته لكونه من اصل الماني.

بالرغم من الاسباب المبررة لشك الحاكم باخلاص النصارى وولائهم للحكم الفاطمي، بالنظر لتعاطفهم مع اعدائه البيزنطيين ذلك لا يبرر الاضطهاد والظلم الذي اوقعه بهم. هذا التصرف القاسي تظهره بعض السجلات الاوامر التي اصدرها:

- في عام ٣٨٧هـ اجتمع اهل الذمة من نصارى ويهود وارسلوا وفداً من كبارهم وعلمائهم الى الحاكم بامر الله وطلبوا حقوقهم، وكانت النتيجة ان اصدر

(*) علاقة فرنسا بالموارنة قديمة العهد ترجع الى عهد الملك لويس الرابع عشر الذي اصدر مرسوماً في ٢٨ نيسان عام ١٦٤٩ يضع الموارنة الكاثوليك تحت حماية فرنسا. كتاب الصراع الدولي حول الشرق الاوسط. منير وعباس اسماعيل، ص ٤٥ .

(*) الموارنة يدعون فرنسا «الام الحنون» نسبة الى مقال توفيق اده La France notre mère نشر في ١٠ تشرين اول عام ١٩١٨ .

الحاكم سجلاً يثبت حقوقهم في حرية الاعتقاد والعبادة وبناء الكنائس وحرية العمل ولكن منعهم من دخول الجيش واقتناء الجواري المسلمات.

- في شهر محرم عام ٣٩٥هـ اصدر الحاكم سجلاً يأمر به النصارى بلبس الثوب والعمائم السود. اللون الاسود كان مكروهاً في مصر لأنه شعار العباسيين وهم خصوم الدولة الفاطمية.
- في عام ٣٩٨هـ اصدر الحاكم امراً يمنع النصارى من تزيين كنائسهم واديرتهم في عيد الشعانين كما كانت عادتهم.
- وفي العام نفسه اي ٣٩٨هـ اصدر سجلاً بمصادرة املاك الكنائس والاديرة.
- وفي عام ٤٠٠هـ اصدر امراً منع بموجبه الاحتفال بالأعياد النصرانية كعيد الصليب، والميلاد، والغطاس، وعاقب المخالفين بالضرب والسجن.
- وفي شهر رمضان عام ٤٠٠هـ اصدر الحاكم امراً بهدم «دير القصير» وهو اعظم دير في مصر وكان يسكنه البطريرك «ارسانيوس» خال ست الملك شقيقة الحاكم بامر الله. فنهب الناس جميع ما فيه من التحف ودمّر. بعد قليل قتل البطريرك «ارسانيوس» ولم يعلم احد من أمر بقتله.
- وفي شهر صفر عام ٤٠٠هـ امر بهدم كنيسة القيامة في القدس، فهدمت بكاملها ونهبت التحف المقدسة مما اثار غضب الدول المسيحية في العالم وكانت احد اسباب الحملة الصليبية(٥٤).

---

(٥٤) في كتاب سيرة الاباء البطاركة ان الحاكم امر بهدم كنيسة القمامة لان ملك الروم هدم جامع القسطنطينية. ولكن المقريزي يقول (اتعاظ الحنفاء في اخبار الخلفاء لوحة ٦٣ . وهذا ما تتداوله كتب التاريخ الاسلامية).« ان الحاكم لفت نظره كثرة خروج النصارى من مصر الى القدس لحضور عيد الفصح بقمامة، كما يخرج المسلمون الى الحج. فسأل ختكين العضدي، احد قواده وكان والي الرملة، عن ذلك بأمر قمامة، فذكر له ان هذه بيعة يعظّمها النصارى ويحج اليها من جميع البلاد ويأتيها الملوك وتحمل اليها الاموال العظيمة والثياب والستور والفرش والقناديل والصلبان المصنوعة من الذهب والفضة وكذلك الأواني الذهبية والفضية وبها من ذلك امر عظيم. فاذا كان يوم الحج، اجتمع النصارى بقمامة ورفعت الصلبان وعلقت القناديل في المذبح تحايلوا في ايصال النار اليه بدهن البلسان مع دهن الزيبق فيحدث له ضياء ساطع يظنّ من رآه انها نار نزلت من السماء، فانكر الحاكم ذلك وتقدم من ابي منصور كاتب الانشاء فكتب الى احمد بن يعقوب الداعي ان يقصد القدس ويهدم قمامة وينهبها الناس حتى يصفى اثرها». ويقول =

- وفي العام نفسه اي ٤٠٠هـ اصدر سجلاً حرّم دق الاجراس بالكنائس ونزع جميع الصلبان عنها.
- وفي عام ٤٠٣هـ امر جميع النصارى بحمل صلبان خشبية طول ذراع ونصف ووزنها اربعة ارطال واليهود ان يعلقوا في اعناقهم قرامي خشب او اجراس ويلبسوا الثياب والعمائم السود ويمنعوا من ركوب الخيل او ان يقتنوا عبداً او جارية مسلمة ومنع الملاّحين ان يحملوا في سفنهم نصرانياً او يهودياً.
- وفي ربيع عام ٤٠٣هـ اصدر سجلاً بهدم جميع الكنائس والاديرة في مصر ومصادرة جميع املاكها والتحف الموجودة فيها.
- وفي عام ٤٠٤هـ اصدر الحاكم سجلاً يسمح بهجرة النصارى الى انطاكية وبلاد الشام والحبشة وان يحملوا معهم اموالهم وينصرفوا آمنين. فهاجر كثير منهم برعاية الحاكم وحمايته وفي عام ٤١١هـ، اي قبل غيبة الحاكم، صدرت سجلات عدّة باطلاق حرية الشعائر المسيحية وممارسة الطقوس الدينية وبناء الكنائس وارجاع ما أخذ منها من التحف وسمح لجميع الذميين الذين اعتنقوا الاسلام خوفاً وكرهاً، ان يرتدوا الى دينهم الاصلي. ثم صدر سجل امان شامل فيه «بسم الله الرحمن الرحيم» «هذا كتاب من عبدالله ووليه المنصور ابي علي الحاكم بامر الله، امير المؤمنين، ابن العزيز بالله امير المؤمنين، لجماعة النصارى بمصر، عندما انهوا اليه الخوف الذي لحقهم، والجزع الذي هالهم فاقلقهم واستدراهم بظل الدولة، ومحرمهم بحضور الحضرة بما رآه وامر به من تكميل النعمة عليهم، بتوجيه لهم ذمة الاسلام وشرعه في تصييرهم تحت كنفه، بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة، وتضفو عليهم ملابس السكون والدعة، واجابتهم الى ما سألوا فيه من كتب الامان يخلد حكمه على الاحقاب ويتوارثه فيهم الاخلاف والاعقاب، فانتم جميعاً آمنون بأمان الله، عز وجل، وامان نبيه محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله

= بعض المؤرخين ان الذي اتى باخبار القمامة الى الحاكم كان راهباً قبطياً يدعى «يونس» قال له، «انت ملك الارض ولكن للنصارى ملك لا يعبأ بك لكثرة ما قد اكتنز الاموال الجزيلة لانه يبيع الاسقفية بالمال».

الطاهرين، وامان امير المؤمنين علي بن ابي طالب سلام الله عليه، وامان الأئمة من اباء امير المؤمنين سلام عليهم، هذا على نفوسكم ودمائكم واولادكم واموالكم واحوالكم وما تحويه ايديكم اماناً صريحاً ثابتاً، وعقداً صحيحاً باقياً، فثقوا به واسكنوا اليه وتحققوا ان لكم جميل رأي امير المؤمنين وعاطفته ونصرته تحميكم، وعصمته تقيكم، ولا يقدم عليكم لسوء احد، ولا تتطاول اليكم بمضرة يد، الاّ كانت زواجر امير المؤمنين مقصرة في باعه وعظم انكاره، وطيعاً فيه من ذراعه، والله عون امير المؤمنين على ما تعتقدون من صلاح واصلاح، لسكان اقطار مملكته، ومن له وسيلة الثواء في كنف دولته واياه يستشهد على ما امضاه من امانة لكم فهذه الذي يشرفه طرفكم، كفى بالله شهيداً. وليقرر في ايديهم حجة بما اسبغ من النعم عليهم ان شاء الله تعالى»[٥٥].

بولغ كثراً في عدد الكنائس التي هدمت، فأبو تغري بردي قال بأنه لم يبق في مملكته دير ولا كنيسة الاّ هدمها[٥٦].

ويقول المقريزي: «ان الحاكم لم يهدم غير كنائس واديرة الملكانية – الروم – وانه لم يهدم كل الكنائس خوفاً على المساجد في بلاد النصارى».

ويدل السجل الذي اصدره الحاكم الى عماله، عندما علم بهجرة النصارى، على رحمته وعطفه عليهم اذ اوصى في ان تكون هجرتهم بأهلهم واموالهم وما تحويه ايديهم والتصرف في ذلك على حسب اختيارهم من غير اكراه. ومما يجب ذكره، ان النصارى بقوا يعملون في مصر في دواوين الدولة طوال عهده محتفظين بديانتهم وطقوسهم وكانوا يمنحون الألقاب مثل المسلمين.

والجدير بالاشارة اليه ان الكنيسة في مصر، في عهد الحاكم، كانت تملك قرًى ومزارع وقياسر[٥٧] وحمامات وحوانيت وبساتين، فصادر الحاكم هذه الاملاك ووزع قسماً منها على الشعب واحتفظ بالباقي للدولة[٥٨].

---

(٥٥) كتاب تاريخ الانطاكي، ص ٢٠ وص ٢٣ .
(٥٦) كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص ١٧٧ .
(٥٧) القيسيرية بناء ضخم، اكبر من الخان، مؤلف من اربع طبقات تحتوي على مخازن ومكاتب .
(٥٨) كتاب مختصر الدول، ابن العبري، ص ٣١٦ .

لم تقتصر سياسة الحاكم بامر الله الدينية على اضطهاد النصارى واليهود، ولكنها تناولت الناحية الاسلامية بجميع مذاهبها، وخصوصاً السنّة، اذ في عهده ظهر التأويل، حتى المغالاة به، اذ كان الاسماعيلية يرون لكل ظاهر باطناً، والباطن علم الامام، وفسّروا القرآن كما يريدونه ان يكون ليخدم معتقداتهم واهوائهم.

هذا التفكير الاسماعيلي ومغالاتهم في التأويل والتهجم على اصحاب النص السنة اثار السنة، وهم ثلثا سكان مصر،فحصلت مشادات كثيرة، وشغب في الشارع بين اصحاب المذهبين. وبغية استقطاب الاسماعيلية، والحاكم منهم، اصدر الحاكم سجلاً امر بسبّ السلف(٥٩) وعلق السجل على ابواب الجوامع والمساجد وابواب الحوانيت، فضج الشعب وكادت تحدث فتنة من جراء ذلك.

بعد تأزم الوضع الذي وصل حتى الفتنة الشاملة اصدر الحاكم سجلاً جديداً عام ٤٠٣هـ نهى عن سب السلف وشدد في معاقبة من خالف ذلك وقال في السجل: ولا يعترض اهل الروية فيما هم عليه صائمون، ولا شتم السلف، ولا يبغي الخالق على من قبله خلق، تلك امة قد خلقت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون. معشر المؤمنين، نحن الأئمة وانتم الأمة. من شهد الشهادتين، ولا يحل عروة بين اثنين، تجمعهما هذه الأخوة، عصم الله بها من عصم وحرم عليها ما حرّم. يطوي ما كان مضى فلا ينشر، ويعرض عما انقضى فلا يذكر، ولا يقبل على ما مرّ وادبر في اجراء الأمور على ما كانت في الأيام الخالية، ايام ابائنا الأئمة المهتدين.

وقبل هذا التاريخ، اي عام ٤٠١هـ اصدر الحاكم سجلاً الغى فيه الرسوم الاختيارية، مما كان يسمى الفطرة والنجوى، وكان يؤديها المؤمنون لداعي الدعاة كرسوم تنفق على الدعاة، فاعتبر عمله هذا الغاء للزكاة. ثم أبطل صلاة الضحى وقال

---

(٥٩) السلف هم: عائشة ام المؤمنين، ابو بكر الصديق، عمر بن الخطّاب، عثمان بن عفان، الزبير ابن العوام، طلحة بن عبيدالله – وذلك لاشتراكهما مع عائشة في حرب الجمل – معاوية بن ابي سفيان وابنه يزيد، عمرو بن العاص وبعض الخلفاء العباسيين.

ان الصلاة تكون فقط صلاة الظهر وصلاة العصر، فاتهم بالغائه الفروض الدينية. وثم ابطل ارسال الكسوة النبوية الى الكعبة والغى الحج غير مرة. اعتبر بعض المؤرخين هذه التصرفات على انها انحراف الحاكم بامر الله عن الاسلام وانها تصرفات الحادية.

كثر اصحاب البدع والمذاهب الغريبة في القاهرة، ومما ساعد في ذلك، تسامح الحاكم وتخليه عن التعصب الديني وانغماسه في التأويل الروحي، اذ كان في ذلك الوقت اصبح زاهداً وسار في مسالك التوحيد.

اثار تسامح الحاكم مع اصحاب البدع واطلاق الحرية التامة لاهل السنة في تهجمهم السافر على العقائد الاسماعيلية تذمر وسخط غلاة الاسماعيلية. ولكي يعيد الأمور الى نصابها ويسترضي الاسماعيلية، خصوصاً الغلاة منهم، استدعى عدداً من العلماء الاسماعيلية الموثوق في عقيدتهم وعلمهم، وعلى رأسهم داعي الدعاة ختكين الضيف، واعطاهم جميع الصلاحيات التي طلبوها ليساعدوه في اعادة الأمور الى نصابها.

كان داعي الدعاة ختكين الضيف من اصل فارسي ويعتبر من اقطاب علماء الاسماعيلية عمل في بغداد مستشاراً عند عضد الدولة البويهي، ولهذا لقّب بالعضدي(٦٠).

ويقول الفيلسوف الاسماعيلي الكبير احمد حميد الدين الكرماني: «ان ابناء الدعوة الهادية لما تنكرت لهم صروف الزمان وضعف رجاؤهم، جاءهم نصرالله بالنظر، ووليه وابن وليه، سلام الله عليه وعلى ابائه المطهرين، فأضاء لهم ما كان مظلماً، وكان ذلك اختياره، سلام الله عليه، اصدقهم لهجة، وأأدهم امانة واقومهم ديانة، واثبتهم في الطاعة قدماً، ذلك ختكين الضيف»(٦١).

سبق وقلنا استقدم داعي الدعاة ختكين الضيف عام ٤٠٨ هـ، بطلب من ست الملك، اخت الحاكم التي كانت تراقب بقلق تصرفات الحاكم، المفكر الاسماعيلي الكبير الذي كان يلقب «بحجة العراقين» احمد حميد الدين الكرماني من بغداد لمحاربة البدع التي كانت مستشرية في القاهرة.

---

(٦٠) كتاب تاريخ الانطاكي، يحيى بن سعيد الانطاكي، ص ٢٠٩ .

(٦١) كتاب راحة العقل، الكرماني، ص ٢ .

في رسالة «مباسم البشارات» قال جملته المشهورة، عندما زار الحاكم بامر الله لأول مرة، «وجدته محاطاً بأصحاب البدع والمذاهب الغريبة وجلّهم من المنافقين». من كتب الكرماني المشهورة «راحة العقل» وهو عن العقائد الاسماعيلية، ثم رسالته «الواعظة» الى حسن حيدرة الفرغاني (الاخرم) عام ٤٠٩هـ يؤنبه بقسوة على دعوته لتأليه الحاكم بامر الله(٦٢).

يقول الدكتور عبد المنعم ماجد، نقلاً عن يحيى سعيد الانطاكي والمستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي، ان الحاكم استعان بداعية فارسي اسمه حمزة بن علي الزوزني، الذي عُرف باللبّاد ولكنه اشتهر بالزوزني نسبة الى بلده في فارس التي كانت تدعى «زوزن» وقيل ان وقت ظهوره كان في عام ٤٠٧هـ او اوائل عام ٤٠٨هـ(٦٣).

ثم يقول الانطاكي: «فكان الحاكم يكثر من زيارة حمزة بن علي، الذي اتخذ له مكاناً خارج القاهرة في مسجد اسمه التبر او التين او البئر(٦٤) ومنع الحاكم غير حمزة في الكلام في الدعوة، وكان يأتيه ويسأله عما حصل في اهل الدعوة»(٦٥).

من الصعب الاعتماد على صحة اخبار المؤرخين الاوائل بالنظر للتناقض والتشابك في الروايات التي يوردونها حتى في تسجيل التواريخ. لهذا لا بد من الحذر في التعامل مع هذه الروايات. مثلاً هناك مؤرخون يقولون ان الحاكم لم يعرف او يلتقي الامام حمزة بن علي وان سجلات القصر الموجودة حالياً في المكتبة المصرية في القاهرة لا تشير إلى ان حمزة بن علي كان من زواره او حضر الاجتماعات التي كانت تحصل في مكتبة الحاكم في القصر نفسه.

اما المؤرخ المقريزي فيقول: «فكان الحاكم حين يمر موكبه بالمساجد ، «مسجد ريدان» يخرج اليه حمزة بن علي ويحادثه طويلاً على انفراد. ولم يلبث ان اولاه

---

(٦٢) كتاب الحاكم بامر الله، عبدالله عنان، ص ٢٠٠ - ٢٠٢ .

(٦٣) كتاب الحاكم بامر الله الخليفة المفترى غليه ص ١١٧، يحيى سعيد الانطاكي، ص ٢٢٣ . وحسب كتب التاريخ الاسلامية ان حمزة بن علي قدم القاهرة عام ٤٠٥هـ.

(٦٤) جسب كتب التاريخ الاسلامية كان اسم الجامع «ريدان».

(٦٥) كتاب تاريخ الانطاكي، ص ٢٢٣ .

الحاكم رعايته بصورة ظاهرة وبعث اليه والى اتباعه بالسلاح ليدافعوا عن انفسهم وقت الحاجة اذ كانوا يوجوسون شراً من الكافة»(٦٦).

لم يكن الحاكم بامر الله متعصباً دينياً، بالرغم من كونه اماماً اسماعيلياً، ولكن في اواخر عهده اصبح زاهداً متقشفاً في مظاهره العامة وحياته الخاصة.

ويقول الانطاكي: «في عام ٤٠٣هـ اصدر سجلاً بألاّ يقبل احد له الأرض او ركابه او يده ولا يجوز الانحناء الى الأرض الاّ للمولى تعالى. ومنع ضرب الطبول والأبواق حول القصر، وترك ركوب الخيل واكتفى بالاتان، وكان يرتدي جبة من الصوف العادي ويتعمم بفوطة، وكان طوافه في القاهرة دون موكب ولا ضجة. وثم اطلق شعره حتى تدلى على كتفه واطلق اظافره، وكان يبدو في هذه المظاهر شخصية غريبة لا يدرك كنهها»(٦٧).

وثم كانت الهفوة الكبرى التي ارتكبها الحاكم بأمر الله بالرغم من عقله النيّر وفطنته ومعرفته الأمور على حقيقتها، وهذه الهفوة سببت تنافراً وانشقاقاً بين مؤيدي الحاكم وغلاة الاسماعيلية لأنها تتنافى مع التقليد الشيعي وهو النص على الامام من الأب الى الابن، فقد عيّن الحاكم بامر الله ابن عمه، ابا القاسم عبد الرحيم الياس بن ابي علي احمد بن عبيدالله المهدي، مؤسس الخلافة الفاطمية، خليفة له وولي عهد المسلمين وامر الناس بالسلام عليه. «السلام على ابن عم امير المؤمنين وولي عهد المسلمين».

صدر سجل التعيين في شهر صفر عام ٤٠٤هـ، وجمع الحاكم القادة واكابر الناس والعلماء وقرأ عليهم هذا السجل الذي يقول: «ان الحاكم بامر الله، امير المؤمنين، جعل عبد الرحيم بن الياس ولي عهد المسلمين والخليفة بعد وفاته». ثم قرئ السجل في جميع الجوامع والمساجد»(٦٨).

كان للحاكم في ذلك الوقت ولد في التاسعة من عمره، يعيش في قصر عمته ست الملك وهي من غلاة الاسماعيلية، اسمه ابو الحسن علي الذي، بعد غيبة الحاكم

(٦٦) كتاب اتعاظ الحنفاء في اخبار الخلفاء، ص ٦٩ . كتاب الحاكم بامر الله، عبدالله عنان، ص ١٩٨ .

(٦٧) كتاب سير البيعة المقدسة، ص ٢٠٥ و ٢١٨ .

(٦٨) كتاب تاريخ دمشق، ابن القلانسي، ص ١١٤ .

بامر الله عام ٤١١هـ، اصبح الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ولكن الحاكم، خلافاً للتقاليد الشيعية، اختار عبد الرحيم بن الياس ولياً للعهد.

هذا الانحراف عن العقائد الشيعية اثار غضب ونفور غلاة الاسماعيلية الذين كانوا القوة الدينية وراء العرش، وتحت ضغطهم وخوفاً من الفتنة، أرسل الحاكم عبد الرحيم بن الياس والياً على دمشق وذلك في عام ٤٠٩هـ.

وصل عبد الرحيم بن الياس الى دمشق يوم الثلثاء في اربعة وعشرين من جمادى الاولى عام ٤١٠هـ ونزل في المزة وبولغ في اكرامه والاعظام له والسرور بمقدمه[٦٩].

انغمس عبد الرحيم بن الياس في اللهو والمجون وشجع الفساد وظلم الناس. ويقول المؤرخ القضاعي: «واستولى على دمشق ورخص للناس ما كان الحاكم حظره عليهم من شرب الخمر، وسماع الملاهي، فأحبه اهل دمشق. وكان بخيلاً، ظالماً، فشرع في جمع المال ومصادرات الناس، فأبغضه الجند واهل البلد»[٧٠].

عند غيبة الحاكم عام ٤١١هـ، وكان ابنه ابو الحسن علي الذي، بمساعدة عمته ست الملك، بويع بالخلافة باسم الظاهر لاعزاز دين الله وكان لا يزال يافعاً فاستلمت الحكم ست الملك فاستدعت من دمشق عبد الرحيم بن الياس، وعند وصوله الى بلدة «تنيس» امرت بسجنه ثم قتلته، وذلك كي تقضي على الانحراف عن الامامة.

ورث الحاكم بامر الله مملكة مترامية الاطراف تشمل مصر، وشمال افريقيا، بلاد الشام واليمن والحجاز وحتى «ملتان» في بلاد السند وكانت هذه المملكة الضخمة مسرحاً لحروب داخلية وخارجية. بيزنطيا التي كانت ترغب في اعادة سيطرتها على بلاد الشام، والعباسيون الذين كانوا يخشون اقتراب الفاطميين الشيعة من حدودهم، ثم في الداخل القرامطة والقبائل العربية كبني كلب وبني الجرّاح وبني كلاب والحمدانيون وبني مرداس وبني عقيل وغيرهم، واطماعهم المادية التي ورثوها عن الاخشيد.

---

(٦٩) كتاب تاريخ دمشق، ابن القلانسي، ص ١١٣ .

(٧٠) مختصر التاريخ، القضاعي، مخطوطة بالمكتبة الاهلية في باريس رقم ١٤٩٠ .

في بلاد الشام، التي يهمنا امرها لترعرع وانتشار الدعوة التوحيدية فيها، فحدث ولا حرج، هجمات القرامطة المدمرة الذين ارادوا استرجاع نفوذهم بها بنو الجرّاح وولاؤهم لمن يدفع لهم المال، فيوماً مع الفاطميين ويوماً مع اعداء الفاطميين، الحمدانيون الشيعة الاثني عشرية وجيوشهم المرتزقة كان ولاؤهم للعباسيين ثم تأرجح بينهم وبين الفاطميين حسب مصالحهم، ثم بنو مرداس مع الفاطميين ضد البيزنطيين ومع البيزنطيين ضد الفاطميين، ومع القرامطة ضد الجميع وبنو عقيل يشدون ازر القرامطة. حروب متواصلة اساسها الكسب المادي لا يردعهم الدين او الولاء العنصري.

وكانت ثورة «ابو ركوة»[٧١] اخطر ما واجهه الحاكم بامر الله، فقد كادت هذه الثورة تزعزع الحكم الفاطمي وتقضي عليه.

يقول المؤرخون ان أبا ركوة ينتسب الى الامويين فهو وليد بن هشام بن المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، ولكن يقال انه ينتسب الى الخوارج الاباضية.

كان ابو ركوة متقشفاً، عالماً بالدين فتمكن ان يحوز على ثقة بني قرة وبني سليم وهما من اعداء الفاطميين كما التف حوله بعض الناقمين من ضباط الصقالبة كحسين بن جوهر الصقلبي الذي احتل مصر في عهد الخليفة المعز لدين الله.

في عام ٣٩٦هـ جرت اول معركة بين جيش ابو ركوة والجيش الفاطمي بقيادة القائد التركي «إينال الطويل» فانهزم الجيش الفاطمي فاحتل ابو ركوة برقة ولقّب نفسه «الثائر بامر الله». ثم جرت معركة ثانية قرب برقة حيث انهزم مرة اخرى الجيش الفاطمي وقتل قائده «إينال الطويل».

سار ابو ركوة لاحتلال مصر فجرت معركة قرب الاسكندرية فانهزم جيش ابو ركوة الذي فر الى الفيّوم حيث قبض عليه وقطع رأسه.

ثم كانت انتفاضة امير مكة الحسين بن جعفر بن محمد الحسن العلوي، الذي يرجع نسبه الى الحسن بن علي بن ابي طالب وكان يلقب «بابي الفتوح». شجّع أبا الفتوح على هذه الانتفاضة الوزير علي بن الحسين الذي التجأ الى مكة هرباً من الحاكم بأمر الله.

---

(٧١) لقب بابي ركوة لانه كان يحمل معه دائما ركوة من الماء على الطريقة الصوفية.

لقّب ابو الفتوح نفسه بأمير المؤمنين الراشد لدين الله، وجمع جيشاً من العلويين وتقلد سيفاً قال انه «ذو الفقار»[٧٢] سيف الامام علي بن ابي طالب وأرسل مالاً الى بني الجرّاح على ان يساعدوه لارساء خلافته واحتلال بلاد الشام.

جرت معركة في الرملة بين جيش ابو الفتوح وحلفائه بني الجرّاح وبين الجيش الفاطمي بقيادة القائد التركي «بارختكين» فانهزم الجيش الفاطمي وقتل قائده. بعد هذا الانتصار استفحل امر ابي الفتوح وحلفائه بني الجرّاح وبسطوا نفوذهم على جنوب بلاد الشام.

وكان الحاكم بامر الله يعرف ضعف بني الجرّاح الى المال فأرسل لهم ما يريدون، وفي ذلك الوقت كان مال ابي الفتوح قد نفد، فعاد بنو الجرّاح الى الطاعة وأرسلوا ابو الفتوح الى مكة الذي أرسل الى الحاكم يطلب العفو، فعفا الحاكم عنه واعاده اميراً على مكة.

من اهم الحوادث التي جرت في عهد الحاكم بامر الله سقوط حلب في يد الخلافة الفاطمية والخطبة للحاكم في جوامعها.

كان احتلال حلب من احلام الفاطميين الذي لم يتحقق حتى عام ٤٠٧هـ عندما كاتب «فتح» والي حلب الحاكم بامر الله واظهر طاعته فأصبحت حلب تحت حكم الفاطميين.

كان اختفاء او غيبة الحاكم بامر الله لغزاً من الالغاز لا يزال حتى يومنا يلفه الغموض وتحاك حوله الاساطير. بعض المؤرخين يقول انه كان مؤامرة سياسية، والبعض الآخر يقول، كان جريمة مدبرة من اعدائه الكثيرين، كرجال الدولة، النصارى، والسنة الحاقدين او المغاربة الذين استبدلوا بالاتراك في المناصب المهمة وقيادة الجيش مما اثار سخطهم وحقدهم، ثم العباسيين وقد وصل خطره حتى حلب.

يقول المؤرخ المصري محمد عبدالله عنان: «كان اختفاء الحاكم، كحياته، لغزاً مدهشاً، بل كان ذروة الخفاء والروع، ما زالت قصة هذا الاختفاء وظروفه، وحقيقة

(٧٢) ذو الفقار سيف اعطاه النبي لعلي بن ابي طالب وكانت الناس تقول: «لا فتى الاّ علي ولا سيف الاّ ذو الفقار». كان هذا السيف مع الامام الحسين في موقعة كربلاء فاستولى عليه يزيد بن معاوية وكسره.

عوامله مدعاة للريب والجدل. ركب الحاكم ذات مساء في بعض جولاته الليلية وقصد جبل المقطم، ثم لم ير بعد ذلك قط، لاحياً ولا ميتاً، ولم يعرف مصيره قط، ولم يوجد جثمانه قط، ولم تقدم لنا الروايات المعاصرة او المتأخرة، أية رواية حاسمة عن مصرعه او اختفائه»[٧٣].

«في ليلة الاثنين من ٢٧ شوال عام ٤١١هـ ركب الحاكم حماره الاشهب (المدعو فخر) ورافقه حرسه وخرج الى الجبل من درب يقال لها درب السباع. ولما وصل الى جبل المقطم امر حرسه بالرجوع الى القصر ولم يبق معه الاّ اثنان من الخدم، فامر احدهم بالرجوع وتوغل في الجبل ولم ير بعد ذلك بل وجدت ثيابه وعليها اثر من الدم وطعنات خنجر».

قيل انه التقى بجماعة من بني قرة وكانوا يكنون له الكره لقتله اعداداً كبيرة منهم في ثورة «ابو ركوة» فقتلوه.

يقول المؤرخ محمد عبيد المسبّحي الذي عاش في عهد الحاكم بامر الله، وشغل مناصب مهمة في الدولة، انه قبض على رجل من بني حسين اقر بأنه قتل الحاكم وان الغاية من قتله هي غيرة للّه وللاسلام واظهر قطعة من العمامة التي كانت عليه برهاناً على ذلك. بعض المؤرخين يرفضون هذه الرواية ويقولون ان الرجل كان معتوهاً[٧٤]. الاّ ان الارجح ان مقتله كان مؤامرة قامت بها شقيقة الحاكم، ست الملك، التي كانت من غلاة الاسماعيلية والتي خافت ان تؤدي تصرفات الحاكم، وخصوصاً بعد اجتماعاته المتواصلة مع اصحاب البدع وتخليه عن ادارة الدولة الى الموظفين والاتباع، الى انهيار الخلافة الفاطمية. وكما قلنا سابقاً وقيل انها كانت تقول له: «يا اخي احذر ان يكون خراب هذا البيت على يديك».

ويقول شمس الدين يوسف بن قزأوغلي، المعروف بسبط الجوزي: «كانت ست الملك تعترض الحاكم وتسدي له النصح وتحذره من العواقب. فكان يغضب

(٧٣) كتاب الحاكم بامر الله، ص ٢١١.

(٧٤) محمد عبيد المسبّحي، هو عز الملك ابو عبيدالله محمد بن عبد العزيز المسبّحي. ولد في مصر عام ٣٦٦هـ والتحق بخدمة الحاكم بامر الله عام ٣٩٨هـ وشغل منصب رئاسة ديوان الترتيب في الادارة المركزية وكان يحضر مجالس الحاكم. مات عن عمر ثلاث وتسعين سنة، من مؤلفاته «درك البقية في الاديان» اخبار مصر» «كتاب التاريخ».

لتدخلها ويردها بغليظ القول واللوم ويقصيها عن كل تدخل واشتراك في الشؤون»[٧٥].

ويقول ابن خلدون: «ان الحاكم ينعي على ست الملك سوء مسلكها وفضائحها الغرامية»[٧٦].

كلام ابن خلدون تجنٍ ومرفوض عقلياً لأن في تلك الحقبة كانت ست الملك تبلغ من العمر فوق الخمسين سنة ولم تكن في مرحلة الشباب حتى تكون مهيأة للغواية والمجون. وكذلك لم يذكر عنها ما يشينها. وغير معقول ان هذه الاميرة الذكية الحازمة ان تنحدر في كهولتها الى مسلك مشين. وقد قال عنها المؤرخ ابن تغري بردي: «انها كانت ذات عقل وحزم وكياسة»[٧٧].

ويقول ابن القلانسي: «وزاد خوف خدمه وخواصه منه واستوحشوا من فعله، وشكا المقدمون والوجوه الى اخته ست الملك بنت عبد العزيز بالله، هذه الاحوال، فانكرت ما انكروه، واكبرت ما اكبروه واعترفت بصحة ما شكوه وحقيقة ما كرهوه، ووعدتهم احسان التدبير في كشف شره واجمال النظر في امورهم وامره، ولم تجد فيه حيلة يُحسم بها داؤه الا العمل على اهلاكه وكف اذاه بعدمه واعملت الرأي في ذلك واسرته في النفس الى ان وجدت الفرصة مستهلة»[٧٨].

اتصلت ست الملك بالقائد الكتامي، سيف الدولة حسين بن دواس الذي كان يكره الحاكم ويخافه، فوعدته ان تجعله قائد الجيش اذا قتل الحاكم بامر الله. وكان ذلك سهلاً، لأن الحاكم كان يذهب الى جبل المقطم وحده بدون حرس او خدم. ويقال ان ست الملك دفنت جثته في مكان مجهول ثم عملت على قتل القائد حسين بن دواس والعبيد الذين نفذوا الجريمة.

ينفي المقريزي هذه الرواية ويرى ان هذا الخبر من اختراع مؤرخي العراق، لأن ست الملك لم تكن على خلاف مع شقيقها الحاكم بامر الله، بل كانت تعيش في

---

(٧٥) كتاب مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، ص ٤٠٥ .
(٧٦) كتاب العبر، مجلد ٤، ص ٦١ .
(٧٧) كتاب النجوم الزاهرة، ص ١٨٥ .
(٧٨) كتاب تاريخ دمشق، ص ١٢٨ .

رغد وسلام في ايامه، فكان لها القصر الغربي الذي بناه والدها العزيز بالله يخدمها الألوف من الجواري والعبيد»[٧٩].

واما المؤرخ الانطاكي فيقول: «ان سيف الدولة حسين بن دواس، القائد الكتامي، قتل الحاكم بدون معرفة ست الملك، وذلك حماية لنفسه ولعوامل سياسية، لأن الحاكم تحول عن المغاربة وخصوصاً بعد ثورة ابي ركوة»[٨٠].

توجد روايات كثيرة عن اختفاء الحاكم او مقتله: ابو هلال الصابي (توفي عام ٤٤٨هـ) وابو عبدالله القضاعي (توفي عام ٤٥٤هـ) وابن القلانسي (توفي عام ٥٥٥هـ) يتفقون على ان ست الملك قتلته بمعاونة القائد الكتامي الحسين بن دواس. ويتفق محمد المسبّحي (توفي عام ٤٢٠هـ) ويحيى بن سعيد الانطاكي (توفي عام ٤٥٨هـ)، والمقريزي (توفي عام ٨٤٥هـ) في تبرئة ست الملك[٨١] من هذه الجريمة.

اما في المخطط الكنسي فيعتمدون فكرة الغيبة ويقولون ان الحاكم ذهب الى الصحراء واعتنق المسيحية وترهب. اما ابن العبري فيقول: «وذهب وحده الى داخل البرية ولم يرجع بعد ولا عرف الى اين توجه الى يومنا هذا»[٨٢].

والموحدون الدروز يؤمنون بغيبة الحاكم، «لأن الناس غلبهم الجهل واساءوا التصرف فغضب الحاكم عليهم فغلق الدعوة دونهم، والآن عليهم الصلاة والاستقامة ليرضى الله عنهم». ويعتقدون ان الحاكم سيعود في آخر الزمان لاقامة العدل[٨٣] وبسط الخير على المؤمنين.

كانت غيبة الحاكم بامر الله خسارة شديدة وعظيمة للموحدين الدروز، فقد كان حاميهم وكان محور دعوتهم وعمادها واساسها، فلما غاب الحاكم ضعفت الدعوة في مصر حتى الانهيار وتفرق الدعاة في مختلف البلدان خوفاً من اضطهاد

---

(٧٩) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، ص ٧٤ .

(٨٠) كتاب تاريخ الانطاكي، ص ٢٣٨ .

(٨١) حفظت ست الملك الخلافة الفاطمية واوقفت انهيارها وانهت بدعة نص الامامة على غير ابن الامام. فحافظت على التقاليد الشيعية. توفيت ست الملك عام ٤١٤هـ وقد بلغت من العمر ٥٥ سنة.

(٨٢) كتاب تاريخ ابن صالح الارمني، ص ٥٢ .

(٨٣) عقيدة المهدي المنتظر، امام الزمان وصاحب الكشف.

غلاة الاسماعيلية. ضعف الدعوة التوحيدية في مصر كان عدم وجود انصار لها في مراكز النفوذ، فلما غاب الحاكم اصبح الموحدون من دون حماية او عطف من اصحاب النفوذ فانهارت الدعوة بكاملها في مصر ونزح الموحدون الى بلاد الشام.

أ – المؤرخون الاوائل النصارى الذين كتبوا عن الحاكم بأمر الله.

١ – يحيى بن سعيد الانطاكي، صلة تاريخ اوتيخيا (تاريخ الانطاكي)
٢ – ابن صالح الارمني (تاريخ الاديار والكنائس)
٣ – ابن الراهب (تاريخ الكنائس والاديار المصرية)
٤ – ابن العبري غريغورس الملطي (تاريخ مختصر الدول)
٥ – المكين ابن العميد جرجس (تاريخ المسلمين)
٦ – ساويروس ابن المقفع اسقف الاشمونيين (سير البيعة المقدسة)
٧ – ابن العمري (تاريخ الدول)
٨ – الاب ميخائيل (سيرة الابناء المقدسة، البطرك الثالث)
٩ – الانطاكي (تكملة تاريخ سعيد بن بطريق الملكية من الاسكندرية)

ب – المؤرخون المسلمون ومعظمهم من السنة.

١ – ابن القضاعي (عيون المعارف وفنون اخبار الخلائق اختفاء الحاكم ومصرعه)
٢ – جمال الدين المصري (اخبار الدول المنقطعة، الحاكم بأمر الله)
٣ – شمس الدين يوسف بن قزأوغلي (سبط الجوزي) (مرآة الزمان)
٤ – الحافظ الذهبي، محمد ابن احمد (تاريخ الاسلام)
٥ – ابن خلكان، احمد بن محمد (وفيات الاعيان)
٦ – النويري، شهاب الدين (نهاية الارب في فنون الادب)
٧ – القلقشندي ابو العباس (صبح الاعشى)
٨ – المقريزي، تقي الدين احمد (اتعاظ الحنفاء باخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء)

٩ – ابن تغري بردي، جمال الدين (الملوك الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)

ج – بعض كتب المستشرقين.

١ – سلفستر دي ساسي (دين الدروز)
٢ – دوزي (دين الاسماعيلية)
٣ – فون مللر (الاسلام)
٤ – جولدزيهر (مذهب الشرق)
٥ – خرستيان زيبولد (دين الدروز)
٦ – فون ليين (مذهب الفاطميين)
٧ – ايفانوف فلاديمير (مذهب الفاطميين)
٨ – فرهاد دفتري (الاسماعيلية)
٩ – كاهين كلود (الاسلام في العصور الوسطى)
١٠ – تشرشل شارل (جبل لبنان)
١١ – دائرة المعارف الاسلامية
١٢ – دائرة المعارف البريطانية

د – الكتب التي صدرت حديثاً.

١ – محمد عبدالله عنان (الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية)
٢ – عبد المنعم ماجد (الحاكم بأمر الله، الخليفة المفترى عليه)
٣ – اسعد صادق (عهد الحاكم بأمر الله)
٤ – الدكتورة نجلا ابو عز الدين (الدروز في التاريخ)
٥ – روبرت برنبتون بتس (الدروز)
٦ – صالح زهر الدين (تاريخ المسلمين الموحدين الدروز)

الحدود الخمسة

- حمزة بن علي بن احمد الزوزني.
- ابو ابراهيم اسماعيل بن محمد بن حامد التميمي.
- ابو عبدالله محمد بن وهب القرشي.
- ابو الخير سلامة السامري.
- بهاء الدين ابو الحسن علي بن احمد الطائي السموقي، المقتنى.

الحدود

الحدود هم القيمون على مذهب التوحيد الذي ساد في مختلف ادوار الكشف. هم غاية الوجود سادات الامم، وابواب رحمة الله عز وجل، وينابيع حكمته ورحمته. دعوا الناس الى معرفة وعبادة وتوحيد المولى تعالى وهم اهل قائم الحق وامام الزمان وصاحب الكشف.

اذا نظرنا الى عقائد من اشار بالتوحيد وجدناهم ثلاث فئات: فئة تطلبه بالرؤية وهم اهل التنزيل. وفئة تطلبه بالقول والمنطق والتفسير وهم اهل التأويل. وفئة توحّده بالعقل وهم الموحدون.

الحدود عند الموحدين هم: العقل – يتجلى بالامام حمزة بن علي بن احمد. النفس – القائد الداعي ابو ابراهيم اسماعيل التميمي. الكلمة – محمد بن وهب القرشي. السابق – ابو الخير سلامة السامري. التالي – بهاء الدين ابو الحسن علي بن احمد الطائي، المعروف بالمقتنى[1].

١ – حمزة بن علي بن احمد الزوزني الخراساني[2].

داع اسماعيلي اتى القاهرة عام ٤٠٥ هـ وسكن مسجد ريدان حيث تعرف الى محمد بن اسماعيل الدرزي (نشتكين) بواسطة الداعي الاسماعيلي علي بن احمد ابو جعفر الحبّال.

كان حمزة بن علي عالماً في اصول الدين كونه من خريجي جامعة «جنديا سابور» وداعياً اسماعيلياً كبيرا، مارس الدعوة في «فارس» قبل قدومه الى مصر.

---

(١) كتاب الدروز في التاريخ، الدكتورة نجلا ابو عز الدين، ص ١٣١ . ثم الفصل الثاني، مذهب الدروز ص ١٢٨ – ١٥٣ دراسة مستفيضة عن انتشار المذهب واصول وواجبات الحدود الخمسة. كتاب تاريخ الموحدين الدروز. الدكتور صالح زهر الدين ص ٣٧ – ٤٠ دراسة عن الحدود الخمسة.

(٢) الزوزني نسبة الى بلدة «زوزن» في فارس.

قال عنه المستشرق «هنري لامنس»، «كان يمتلك كل المعارف التي هي فوق الطبيعة»[٣](*).

ولد حمزة بن علي بن احمد يوم الخميس في ٢٣ ربيع الاول عام ٣٧٥هـ، وهو التاريخ الذي ولد فيه الخليفة الحاكم بامر الله، في بلدة زوزن من مقاطعة خراسان من فارس. اعتنق العقيدة الاسماعيلية وصار من كبار دعاتها.

نشتكين الدرزي، وهو ملعون عند الموحدين الدروز، استغل تسلطه على بيت المال وثقة الخليفة الحاكم بامر الله به، حاول اغتصاب الامامة من حمزة بن علي والانفراد بالدعوة التوحيدية مما سبب نفوراً وانقساماً بين الدعاة، فكان مؤيدو نشتكين الدرزي حسن بن حيدرة الفرغاني[٤] الملقب بالاخرم، ابو جعفر الضرير، ابو منصور البرذعي[٥]، معاند، وعلي بن ابي جعفر الحبّال، قال عنهم الامام حمزة: «هؤلاء المرتدون هم اول الخاسرين بين اهل الاديان». انضم الى الامام حمزة بن علي الحدود الاربعة، اسماعيل التميمي، محمد بن وهب القرشي، ابو الخير سلامة السامري، بهاء الدين السموقي (المقتنى)، وموحدون معظمهم من المغاربة واهل مصر.

في عام ٤١١هـ اختفى الامام حمزة بن علي، وقيل انه بقي في مصر، والدليل على ذلك انه، بعد شهرين من اختفائه ارسل رسالة الغيبة من الاسكندرية مع الداعي ابي يحيى الى بلاد الشام. ثم في عام ٤١٨هـ، ارسل رسالة الى الداعي بهاء الدين (المقتنى) يأمره باستئناف نشر الدعوة التوحيدية. المؤسف ان المؤرخين لا يشيرون الى المكان الذي ارسلت منه هذه الرسالة وما اذا كان في بلاد الشام أم فارس أم الهند.

٢ - ابو ابراهيم اسماعيل بن محمد بن حامد التميمي.

الذي يرجع نسبه الى قبيلة تميم في الجزيرة العربية، التي في حروب الردة، قتل

(٣) كتاب الاسلام عقائد ومؤسسات.

(*) كتاب الموحدون الدروز في الاسلام - الشيخ مرسل نصر ص ٨٤/٨٣ دراسة عن الحدود الخمسة.

(٤) قال بتأليه الحاكم بامر الله وناصر نشتكين الدرزي ولكنه لم يكن من الموحدين قتل عام ٤٠٨هـ.

(٥) كان البرذعي من الدعاة الاسماعيلية الكبار انضم الى نشتكين الدرزي لأن الامام حمزه رفض ان يطلعه على سجل الحاكم بالنص عليه بالامامة.

خالد بن الوليد زعيمها المشهور مالك بن نويرة، وتزوج امرأته ليلى بنت سنان، مما سبب عداءً مع عمر بن الخطّاب.

قال الامام حمزة بن علي في تعيين اسماعيل التميمي: «جعلتك خليفتي على سائر الدعاة والمأذونين والنقباء والمكاسرين، ومن خالفك فقد خالفني ومن اطاعك فقد اطاعني.

كان اسماعيل التميمي قائداً في الجيش الفاطمي واشتهر بشجاعته واقدامه، له مؤلفات عديدة منها كتاب «تقسيم العلوم واثبات الحق وكشف المكنون». وهو الحامي والحارس للموحدين الدروز، يستغيثون به عند ضيقهم «يا بو ابراهيم». بالاضافة، كان شاعراً واديباً نظم شعر «النفس»(**).

٣ - ابو عبدالله محمد بن وهب القرشي.

يرجع نسبه الى قريش عائلة النبي الكريم.

يقول المؤرخ حسين محمد كامل «وتفسير الكلمة عند فلاسفة اليونان الاسكندريين، ان الله ابدع الكلمة «Logos» ويقول الفلاسفة المسلمون، ان الكلمة «كن» من قوله تعالى: «واذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون»(٦).

وفي التأويل الباطني، كلمة «كن» حرفان، كاف ونون. فالكاف رمز العقل

- في عام ٤٠٨هـ، وهي السنة الاولى من دور الكشف، تخلى الامام الحاكم بامر الله عن الامامة الى حمزة بن علي. مما يلفت النظر، ان كلمة «نص» لم تستعمل، لان النص بالامامة، حسب التقليد الشيعي، يكون من الامام الاب الى ابنه فقط، كما ان الامام يجب ان يكون عربياً ومن آل البيت، وحمزة بن علي كان فارسياً كما ان في النصّ يبقى الحاكم إماماً وهذا يتنافى مع التقليد الشيعي لعدم جواز الامامة في شخصين في وقت واحد.

(**) لا بد من توضيح مراتب «السابق» «والتالي» بالنسبة الى الحدّ ابو الخير سلامة والى الحد بهاء الدين السموقي (المقتنى). ابو الخير سلامة هو السابق الجسماني اما السابق الروحاني فهو العقل، كذلك بهاء الدين السموقي هو التالي الجسماني والتالي الروحاني هو النفس، ويُعتبر الروحانيون حدود الحق والجسمانيون حدود الشريعة.

(٦) سورة البقرة، آية ١١٧ .

الاول او القلم، وهو اقرب الحدود الى الله واسبقهم الى معرفة الله وتوحيده ويسمى «السابق». اما النون، فهي رمز للنفس الكلية، وهي يرمز اليها في القرآن الكريم باللوح وسميت «بالتالي»(٧).

٤ – ابو الخير سلامة السامري.

هو الجناح الايمن، فقد كان تقياً زاهداً مخلصاً في ايمانه، لا يعرف كثيراً عنه فقد كانت مهمته سرية لا يعرفها الاّ الامام حمزة بن علي ولد في مدينة «سامّراء».

٥ – بهاء الدين ابو الحسن علي بن احمد الطائي السموقي المعروف بالضيف (المقتنى) ولد في قرية السموقية قرب حلب في سورية.

كان عالماً، خصوصاً بالدين المسيحي، وكاتباً بليغاً كلف بالمهمّات الصعبة واكمال الدعوة عام ٤١٨ هـ حسب طلب الامام حمزة بن علي. ارسل رسائله الى جميع البلدان، سورية، فلسطين، الهند، العراق والى القرامطة في البحرين، حتى كتب الى ملوك الروم في القسطنطنية(*).

يرجع نسب بهاء الدين الى قبيلة طي العربية التي كان منها حاتم طي، الذي اصبح اسمه مرادفاً للكرم والسخاء، وابنه عدي الذي كان من ابطال المسلمين ومن طي كان الشاعر العربي الكبير، ابو تمام. من بطون طي كانت قبيلة بني الجرّاح التي انتشرت في فلسطين وتحالفت مراراً مع القرامطة في حروبهم مع الفاطميين. ومن طيّ الموحدان الاميران مفرج بن دغفل بن جرّاح وأخوه جابر.

بعد غيبة الامام حمزة وباقي الحدود عام ٤١١ هـ وقع عبء الدعوة على اكتاف بهاء الدين المقتنى، فقام بها احسن قيام (وبنشاط) كبير بالرغم من خلافات بين

---

(٧) كتاب ادب مصر الفاطمية، ص ٢٨ .

(*) ان افلوطين اليوناني والفرقة الاسماعيلية اعتبرا في عقيدة الفيض العقل والنفس قوى روحانية من دون تحديد موضع لانطلاقها، ولهذا لم يشيرا اليها باسماء اوقوى جسمانية. اما عقيدة التوحيد فقد اشارت اليها كقوى جسمانية كحمزة بن علي، اسماعيل التميمي، ابو الخير سلامة، القرشي، وبهاء الدين فوضعوها في قوالب جسمانية تنطلق منها كقوى معلومة من قواعد معروفة.

الموحدين، وخصوصاً بعض الدعاة، منهم مسعود بن سكين الكردي، وابن البربرية ثم ظهر لاحق بن الشرف العباسي الذي ادعى لنفسه الدعوة فامر بهاء الدين بعزله.

كان مسعود بن سكين الكردي اكثر هؤلاء المرتدين خطراً وسبب ازعاجاً كبيراً للمقتنى. وسكين، ويدعوه الدروز «بالسكيني الملعون» مكروه عند الدروز واسمه يعني عندهم النفاق والغدر.

قلّد المقتنى بهاء الدين سكين الكردي الدعوة في بلاد الشام عام ٤١٨هـ وبقي في مركزه حتى عام ٤٢٦هـ فنشر الدعوة بنشاط ونجاح حتى سماه المقتنى «بالشيخ المرتضى وصفوة الموحدين» ولكن لم يطل به الامر حتى ظهر على حقيقته، فنشر الالحاد والفساد وقال بالاباحية وشرب الخمر.

بعد ان استفحل امر سكين وضج الموحدون في وادي التيم من اعماله المشينة، كتب اليه المقتنى بهاء الدين رسالة توبيخ شديدة اللهجة، ولكن بدون فائدة، فارسل اليه الداعي التقي ابو اليقظان عمّار الى وادي التيم لاقناعه بالتخلي عن اعماله الفاسدة، ولكن سكين الكردي وانصاره قتلوا الداعي عمّار في قرية «ابل السقي». غضب المقتنى وارسل «الست سارة»[8] ابنة أخيه على رأس وفد من الموحدين، الى وادي التيم، ولكن الوفد لم يتمكن من لجم اعمال سكين واتباعه الفاسدة.

لما بقي سكين على اعماله المشينة وتحديه اوامر المقتنى بهاء الدين، عندها ارسل المقتنى الى الامير ابو الفوارس معضاد التنوخي، وكان الداعي المسؤول عن منطقة عاليه ومسكنه في قرية «فلجّين» بالقرب من بلدة عاليه، ان يتوجه الى وادي التيم لانهاء تمرد سكين الذي اصبح خطراً على دعوة التوحيد، ذهب الامير ابو الفوارس الى وادي التيم وقضى على سكين وانصاره.

بعد غيبة الامام حمزة بن علي واستلام المقتنى بهاء الدين الدعوة تمكن من اقناع زعماء متنفذين من اعتناق الدعوة التوحيدية منهم: ابن سومر رجبال من مدينة «ملتان» في السند، الشريف فخر الدولة بن يعلا حمزة بن ابي العباس نقيب العلويين، امراء آل تنوخ في بلدة عبيه، أبو الفضائل عبد الخالق بن محمد، ابو اسحق ابراهيم بن

(٨) رئاسة «الست سارة» على رأس وفد من الموحدين تدل على تقدير الموحدين الدروز للمرأة.

عبدالله، امير البيرة، الاميران البحتريان ناهض الدولة ابو العشائر وعلي بن الحسين من آل تنوخ امراء الغرب وبيروت، الامير ابو الفوارس معضاد بن يوسف الفوارسي التنوخي، الامير بن زمّاخ بن مفرج بن دغفل بن جرّاح الطائي واخوه جابر، امراء بني الجرّاح في فلسطين، الامير رافع بن ابي الليل بن عليّان امير بني كلب، والشيخ ابو الخير سلامة بن جندل القرمطي من بني جندل في وادي التيم.

ولمساعدة بهاء الدين «المقتنى»، عيّن له حمزة بن علي ثلاثة حدود ثانويين وهم، الجد والفتح والخيال، وفي العقيدة الاسماعيلية يدعونهم الملائكة، جبريل، اسرافيل وميكايل.

اسماء الحدود الثانويين هي.

١ - الجد؛ ايوب بن علي، سمي الجد لانه يجد في طلب علم التوحيد من الامام، ورتبته الداعي.

٢ - الفتح؛ رفاعة بن عبد الوارث، سمي فتح لانه يفتح باب العهد والايمان للمستجبين ورتبته المأذون.

٣ - الخيال؛ محسن بن علي، سمي الخيال لأنه يلوح بعلمه ومكاسرته مثل الخيال، ورتبته المكاسر.

اما الفيلسوف الاسماعيلي احمد حميد الدين الكرماني (توفي عام ٤١١هـ) فيقول عن الحدود الثانوثيين ما يلي: «واما الوحي فهو اسم لما يعلم كلياً من غير تفسير وتفصيل وينقسم قسمين: احدهما لا يعلم بواسطة، والثاني ما يعلم بواسطة محسوسة، فالذي لا يعلم بواسطة محسوسة هو الذي يكون بعلو «الجد» فيحصل لنفس ما يجيئها من نور دار القدس من جهة الملك المتمثل بشرر النار، وذلك اعلى المراتب كلها من وجوه المعارف. اما الذي يعلم بواسطة محسوسةفينقسم الى قسمين: احدهما خاص وهو ما يعلم من جهة تختص بالنفس المبعوثة صورة بادراكها اياها حساً من غير مشاركة غير فيها، مثل الملك الذي يتمثل لها صورة عن حصول المعاني الكلية المعراة من المواد من خارجها وحياً في الذات، على ما ذكرناه، فتراها بالحس وتخاطبها، وغيرها لا يراها ولا يحس بها، وذلك هو «الخيال». وثانيهما وهو ما يعلم من وجوه تشترك فيها بالاحساس النفس المؤيدة المبعوثة، وتنفرد بمعرفة

المنطوي فيها من المعالم كلها النفس المبعوثة والمقتفون اثارها، مثل الذي يعلم من جهة المحسوسات بالموجود فيها من اثار الحكمة والصنعة واحكامها اللازمة لها والطارئة الناطقة عن ذاتها، اذا كانت ساكتة المنبئة له، وان كانت صامتة المعرفة به، وان كانت بها غير عارفة وذلك هو «الفتح»[٩].

اذن يرجع الكرماني بالوحي الى الحدود الثانويين، يقول: الوحي عند الاسماعيلية هو «ما قبلته نفس الرسول من العقل وقبله العقل من أمر باريه، ولم يخالفه علم تؤالفه النفس الناطقة بقواها. والفرق بين الوحي وغيره من سائر العلوم ان الوحي يرد على من يوحي اليه، مفروغاً منه قد استغنى عن الزيادة فيه والنقصان منه»[١٠]. يقول: «فللوحي مراتب، اعلاها شبيه بالشرر الذي يضيء الذات الشريفة بنور القدس المتصل بها من خارجها، الجاري منها مجرى الضوء الذي تبصر العين حقائق الالوان والاشكال».

وفي عام ٤٣٥هـ كتب «المقتنى» بهاء الدين منشور الغيبة وهو آخر رسالة من رسائل الحكمة، استعفى به من ادارة الموحدين فعزم على الاختفاء والغيبة بعد طول عذاب وعناء من اختلاف الدعاة وعدم التقيد بتعليماته والأخذ بنصائحه فأقفل دعوة التوحيد وذهب الى انطاكية حيث توفّي.

هذه الدراسة المختصرة هي عن الواقع التاريخي للحدود، ابواب رحمة الله تعالى واهل امام الزمان، من دون البحث في معتقداتهم وانجازاتهم الدينية وايمانهم الروحاني وذلك تمشياً مع موضوع هذه الدراسة الذي لا يتعدى تسجيل تاريخ المعتقدات التوحيدية من دون الخوض بها.

(٩) كتاب راحة العقل، ص ٥٥٩ .

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٠٣٢ .

المسلمون الاوائل الذين شايعوا للامام علي بن ابي طالب

- سلمان الفارسي
- ابو ذر الغفاري
- المقداد بن الاسود الكندي
- عمّار بن ياسر

المسلمون الاوائل الذين شايعوا للامام
علي بن ابي طالب

يؤمن معظم اهل الفكر والمعرفة، ومن نوّر الله عقلهم بالحكمة، ان الفلاسفة اليونانيين، سقراط افلاطون وارسطوطاليس وفيثاغورس هم من اوائل السادة الذين يجب تقديسهم واعتبارهم من سادات التوحيد لانهم اول من قال بالمعرفة الفكرية ونادى بالعقل منارة العلم وخالقه، فهو المخلوق الاول وعلة العلل ومدبر الكون والارادة الالهية على الارض.

وكذلك توجد قلة من الناس، تعتقد ان بعض قادة القرامطة، كابي طاهر سليمان الجنابي وزكرويه بن مهرويه وغيرهما، هم من الذين قاتلوا لأجل الاسلام وقتلوا الكفار الملحدين ونادوا بالتوحيد. هذا الاعتقاد بعيد عن الواقع وتجنٍ على الحقيقة، لان اعمال القرامطة كانت جلها قتل الابرياء والسّلب والدمار ولا يوجد للتوحيد ذكر في عقائدهم.

وفي عام ٢٩٠هـ دمّر القرامطة الاسماعيليون مدينة سلمية، التي كانت عاصمة الاسماعيلية في سورية، تدميراً كاملاً. وقال ابو جعفر محمد بن جرير الطبري: «قتلوا جميع من كان فيها من رجال ونساء واطفال حتى الماشية والعلاف، ولم يبق في سلمية حتى كلب ينبح او عين تطرف»[١].

تقول الدكتورة نجلا ابو عز الدين: «نشر القرامطة الدمار في الشام من الجنوب الى الشمال». ثم تقول: «غير انه ما كان لبعض اعمال القرامطة الرهيبة الاّ ان تكون بغيضة لدى الفاطميين»[٢].

---

(١) كتاب تاريخ الرسل والملوك، ابو جرير الطبري.

(٢) كتاب «الدروز في التاريخ».

ان الدروز يقدرون وينظرون باحترام كلي الى الصحابة الاوائل الذين شايعوا لعلي بن ابي طالب وهم:

سلمان الفارسي

ابو ذر الغفاري

عمّار بن ياسر

المقداد بن الاسود الكندي

هؤلاء الاتقياء الابرار كانوا من الاوائل الذين شايعوا الامام علي بن ابي طالب ورفضوا مبايعة ابي بكر الصديق، حتى بايعه الامام علي، وكان ذلك بعد ستة اشهر من وفاة النبي.

قال ابو حاتم سهل بن محمد السجستاني: «ان لفظ الشيعة على عهد رسول الله، كان لقب اربعة من الصحابة، سلمان الفارسي، ابو ذر الغفاري، عمّار بن ياسر والمقداد بن الاسود»[٣].

وقال الشيخ المفيد، محمد بن محمد (توفي عام ٤١٣هـ) عن الامام علي: «فاختلفت الأمة في امامته يوم وفاة النبي، صلى الله عليه وسلم، فقالت شيعته بها، وهم بنو هاشم كافة وسلمان وعمّار والمقداد وابو ذر»[٤].

ويقول الشيخ محمد جواد آل الفقيه عن تشيع سلمان الفارسي: «لم يكن التشيع بالنسبة اليه هواية تتحكم بها العاطفة وتقتصر على حب آل البيت بل كان يرى فيه المكمل لرسالة محمد»[٥].

الزمن الذي دونت فيه سيرة سلمان الفارسي لم يكن واضحاً ويفتقر الى مصادر موثوقة وعلمية، فمن الصعب جداً الاعتماد على اساطير وروايات روجها بعض المؤرخين يحدوهم تعصب مذهبي او غايات سياسية او بدع مستوردة ومقولات وصلتهم بالتواتر من مصادر غير موثوق بها يرفضها العقل ولا يقبلها الايمان الصحيح.

---

(٣) كتاب الشيعة وفنون الاسلام، ص ٣١ .

(٤) كتاب بيان امامة امير المؤمنين، ص ١٠ .

(٥) كتاب سلمان الفارسي، ص ١٠٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون يقول: «وتاريخ القرن الاول الهجري لم يتضح بعد الاّ على نحو ناقص، التسلسل التاريخي فيه ينطوي على كثير من المتناقضات - خصوصاً في السنتين ٣٦ و ٣٧هـ - التي يحول الفقر من المصادر الاجنبية المستقلة دون حلها. واذا ما انتقلنا الى دراسة التراجم، كما هي الحال بالنسبة الى سلمان، وجدناها تتحلل بين ايدينا كما يتحلل الكثيب من ذرات الرمل الدقيق، فما هي الاّ حكايات متناثرة مذيلة، واحاديث تنسب الى هذا الشاهد المباشر او ذاك بسلسلة من الاسانيد المتفاوتة في الثقة مضمونها ينطوي غالباً تحت مظهر ساذج على تحريفات مقصودة وعلى اشياء مستمدة من الاساطير الشعبية، لا تملك، كما لاحظ «فلهورن» اي مقياس ثابت نستطيع اتباعه (ما دمنا لا نملك مصدراً رئيسياً نتخذه دليلنا في بيان درجة الثقة به) بل نضطر الى الالتجاء الى بعض المناهج غير المباشرة للتقريب»[٦].

ومما زاد في البلبلة والمغالطات ما كتبه فريق من المؤرخين الاوائل عن سيرة سلمان الفارسي والتي اعتمدوا فيها على اسانيد متناقضة أملتها عليهم عصبية مذهبية وغايات سياسية، فالشيعة يمجدون سلمان وافعاله، والسنة يتجاهلونه، الاّ قلة منهم تشير اليه بطريقة عابرة بأنه أشار الى حفر الخندق، والنصيرية جعلوه «الباب» وقالوا انه وكيل الامام يتمتع بالعصمة، العلم الالهي ويحق له التأويل والتمييز بين الظاهر والباطن، والموحّدون الدروز يقدسونه، واسماعيلية «قلعة الموت» جعلوا مرتبته فوق مرتبة النبي محمد، واما الفرس فقد شيعوا ان سلمان ساعد الرسول على كتابة القرآن الكريم.

ويقول المستشرق لويس ماسينيون: «خبر سلمان حديث مفرط الطول ان قورن بنظائره مما يتصل بغيره من الصحابة، وهو قديم، فحوالى سنة ١٥٠ - ١٨٠هـ، كان معروفاً بسبع او ثماني روايات مختلفة: رواية ابي اسحق السبيعي المتوفى سنة ١٢٧هـ)، واسماعيل السُّدي (المتوفى سنة ١٢٧هـ) وعبيد المكتب (المتوفى سنة ١٤٠هـ)، وابن اسحق (المتوفى سنة ١٥٠هـ) وعبد الملك الخثعمي (المتوفى سنة

(٦) كتاب شخصيات قلقة في الاسلام، ص ٥ .

١٨٠هـ)، وسيار العنزي (المتوفى سنة ١٩٩هـ)، وعلي بن مهزيار (المتوفى سنة ٢١٠هـ)»[٧].

وثم يقول لويس ماسنيون: «من الصحيح ان اسطورة سلمان قد نمت وحفظت خصوصاً بفضل عناية المسلمين الفرس ولكنها تكونت وتحددت في صورة عربية اولاً في الكوفة»[٨].

وولد سلمان الفارسي في بلدة «جيّ» بالقرب من مدينة اصفهان ونشأ على دين المزدكية الذي كان منتشراً في فارس، وكان اسمه قبل الاسلام «روزبه بن مرزبان» «او ما به بن لودخشان» ولما سئل عن اسمه قال: «انا سلمان ابن الاسلام، كنت عبداً فاعتقني محمد، ووضيعاً فرفعني محمد، فاغناني بمحمد، فهذا نسبي وحسبي»[٩]. والنبي محمد سمّاه سلمان[١٠].

كان سلمان الفارسي اول مؤمن فارسي واول من بشّر بالنزعة الروحية في الاسلام، وهو احد الثلاثة السابقين في الدين الاسلامي من غير العرب وهم: صهيب الرومي، سلمان الفارسي وبلال الحبشي مولى ابي بكر الصديق ومؤذن الرسول.

قال محمود الشلبي: «من الرجال رجال، الرجل منهم خير من امة، ومن هؤلاء، سابق الفرس الى الاسلام، سلمان الفارسي، صاحب رسول الله، قيل فيه، اذا قضيت في صحبته لحظة، كانت لك خيراً من عمرك كله، لانك تصل قلبك برجل قال فيه، صلى الله عليه وسلم. «سلمان منا اهل البيت»[١١].

عن ابن عباس قال: حدثني سلمان قال: «كنت رجلاً من اهل فارس، من

---

(٧) كتاب شخصيات قلقة في الاسلام، ص ١٣ .

(٨) كتاب شخصيات قلقة في الاسلام، ص ٩ .

(٩) كتاب الفهرست، محمد بن الحسن الطوسي، ص ١٠٦ .

(١٠) سلمان اسم بئر لحميْر بين الكوفة والبصرة، ياقوت معجم البلدان، مجلد ٣، ص ١٢١ . وكذلك اسم يطلق على بطون يمنية من قبائل مراد وهمذان.

(١١) كتاب حياة سلمان الفارسي، ص ٥ .

اصبهان[١٢] من «جيّ»، ابن رجل من دهاقينها، وكنت احب الخلق اليه، فاجلسني في البيت كالجواري فاجتهدت في المجوسية فكنت في النار التي توقد فلا تخبو[١٣] وكان ابي صاحب ضيعة»[١٤].

ويقول علي بن محمد بن الاثير، قال سلمان لابن عباس، قال ابي، يا بني قد شغلني ما ترى، فانطلق الى الضيعة ولا تحتبس فتشغلني عن كل ضيعة بهمي بك. فخرجت لذلك، فمررت بكنيسة النصارى وهم يصلون، فملت اليهم، واعجبني امرهم، وقلت، والله هذا خير من ديننا، فاقمت عندهم حتى غابت الشمس، لا انا اتيت الضيعة ولا رجعت اليه، فاستبطأني وبعث رسلاً في طلبي، وقلت للنصارى حين اعجبني امرهم، اين أصل هذا الدين؟ قالوا بالشام.

فرجعت الى والدي فقال: يا بنيّ، قد بعثت اليك رسلاً فقلت: قد مررت بقوم يصلون في كنيسة، فاعجبني ما رأيت من امرهم، وعلمت ان دينهم خير من ديننا.

فقال؛ يا بني، دينك ودين ابائك خير من دينهم.

فقلت؛ كلا و الله. فخافني وقيدني.

فبعثت الى النصارى واعلمتهم ما وافقني من امرهم، وسألتهم اعلامي من يريد الشام. ففعلوا، والقيت الحديد من رجلي وخرجت معهم حتى اتيت الشام فسألتهم عن عالمهم فقالوا الاسقف[١٥].

نأتي الى المرحلة الثانية من حياة سلمان الفارسي الدنيوية والدينية. كان في

---

(١٢) اصبهان مدينة عظيمة الاهمية عند الفرس ويسمونها «نصف جهان» اي نصف الدنيا. كان اسمها الاول «انزان» ثم اصبح «كايان» ثم «جيّ» وبقي هذا الاسم حتى عصر الساسانيين وعصر الاسلام. فتحها العرب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذي ارسل جيشاً بقيادة ابو موسى الاشعري وعبدالله بن بديل. اصبهان كانت عاصمة فارس في عهد «الصفاويين» ومنها ابدل الشاه اسماعيل مذهب الفرس من السنة الى الشيعة (البلاذري فتوح البلدان، ص ٣١٠).

(١٣) الزرادشتيون يعتبرون النور رمز الخير والظلام رمز الشر، فقد جعلوا النار والنور موضع اجلالهم فهم يوقدونها ليلاً نهاراً كي لا تخبو فالنار عندهم نار على الدوام ومقدسة.

(١٤) كتاب حياة سلمان الفارسي، محمود الشلبي، ص ١٠ .

(١٥) كتاب اسد الغابة في معرفة الصحابة، جزء ٢، ص ٣٢٨ .

فارس فسار الى بلاد الشام في طريقه الى مدينة الرسول. ونشأ مجوسياً فلم يقتنع بها، فهاجر الى الشام، حيث جذبته الى المسيحية نزعة الزهد المتأصلة في نفسه، فعاش النصرانية بتراتيلها وكهنوتها لعله يجد الحق الذي ينشد، وفي الشام سلم نفسه الى كهّان النصارى، يخدمهم لقاء ان يرشدوه الى الله الذي تشده روحه اليه. ولما لم يشعر انه عثر على بغيته، القى المسيحية وتبع من أرشده ان نبياً سيبعث في تهامة بأرض العرب.

ويتابع سلمان الفارسي حديثه الى ابن العباس: «اتيت الاسقف، وكان كبير السن، وطلبت ان اخدمه كي اتعلم منه، ولكنه كان رجل سوء، يأمر بالصدقة ويمسكها لنفسه، حتى جمع سبع قلال من الذهب. فلما توفي دللت لمن جاء لدفنه على ماله فرجموه بالحجارة وصلبوه واحلّوا مكانه رجلاً فاضلاً وزاهداً، القى الله حبه في قلبي، فأحببته حبّاً لم احبه من قبله واقمت معه زماناً اخدمه واتعلم منه، فلما حضرته الوفاة، اوصاني ان اذهب الى الموصل حيث التحقت باسقف كان من خيرة الناس واحسنهم، ولمّا حضرته الوفاة اوصاني ان آتي نصيبين فاقمت مع خير رجل، ولما نزل به الموت قال لي، ما اعرف احدا على ما نحن عليه الاّ راهباً «بعمورية» في أرض الروم، فسرت اليه واخبرته بخبري وكان رجلاً صالحاً زاهداً، يصلي يومه ونهاره فأعطاني بقراً وغنمات، فصار لدي ما املكه، وعندما حضرته الوفاة قال: «لا اعرف شخصاً اوصيك باللحاق فيه ولكن سيظهر نبي في أرض بها نخيل وفي بلاد العرب، هو يبعث بدين ابراهيم الحنيفية به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وبين منكبيه خاتم النبوة[١٦]، فان استطعت فأذهب اليه».

«التقيت ركباً من بني كلب فقلت لهم: «اعطيكم غنمي وابقاري واخدمكم وتحملوني الى بلدكم». فحملوني الى وادي القرى حيث باعوني الى رجل من اليهود، فكنت اعمل له في زرعه ونخله، فبينا انا عنده اشتراني رجل من قريظة[١٧]

---

(١٦) خاتم النبوة قطعة لحم ناتئة على غضروف الكتف اليمنى، شخصيات قلقة في الاسلام عبد الرحمن بدوي، ص ١٤ .

(١٧) كان اسم هذا الرجل عثمان بن اشهل من بني قريظة في يثرب (المدينة).

واخذني الى يثرب (المدينة) فعرفتها بصفتها، فأقمت معه أعمل في حقوله. ثم قيل لي ان رجلاً أتى يثرب ونزل مع اصحابه في بني عمرو بن عوف».

واني لفي رأس النخلة اذ اتى ابن عم صاحبي وقال: «اي فلان، قاتل الله بني «قيلة»،[١٨] مررت بهم انفاً وهم مجتمعون على رجل بقباء قدم عليهم من مكة يزعم انه نبي»[١٩].

وقال سلمان: «فوالله ما ان سمعتها فأخذني القر والانتفاض ورجفت بي النخلة حتى كدت ان اسقط، ونزلت سريعاً، فقلت ما الخبر؟ فلكمني صاحبي لكمة وقال: «ما انت وذاك اقبل على شأنك»[٢٠].

ويقول محمود الشلبي عن لسان سلمان الفارسي: «فأقبلت على عملي حتى امسيت، فجمعت شيئاً فأتيته به، وهو بقباء عند اصحابه، فقلت: اجتمع عندي اردت ان اتصدق به، فبلغني انك رجل صالح ومعك رجال من اصحابك ذوو حاجة، فرأيتكم احق به، فوضعته بين يديه، فكف يديه وقال لاصحابه كلوا، فأكلوا، فقلت هذه واحدة. وتحول الى المدينة، فجمعت شيئاً فأتيته به، فقلت: احببت كرامتك، فأهديت لك هدية وليست بصدقة، فمد يده فأكل واكل اصحابه فقلت: هاتان اثنتان ورجعت.

فأتيته، وقد تبع جنازة، في بقيع الفرقد[٢١] وحوله اصحابه وتحولت انظر الى الخاتم في ظهره، فعلم ما اردت فألقى رداءه. فرأيت الخاتم فقبلته وبكيت. فأجلسني بين يديه، فحدثته بشأني كله، كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجبه ذلك»[٢٢].

---

(١٨) بني قيلة لقب يطلق على الاوس والخزرج قبيلتي الانصار.

(١٩) كتاب اسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الاثير، جزء ٢، ص ٣٢٨ - ٣٣١ .

(٢٠) كتاب سلمان الفارسي، الشيخ محمد جواد آل الفقيه، ص ٩٥ .

- كتاب اكمال الدين واتمام النعمة، محمد بن علي الصدوق، توفي عام ٣٨١هـ. ان اليهودي من قريظة باع سلمان الى امرأة يهودية من قبيلة سليم اسمها «مبيث» كانت تعطف على سلمان وتعامله كاحد افراد العائلة. هذه الرواية لم يشر اليها ابن الاثير او ابن ابي الحديد.

(٢١) بقيع الفرقد مكان مدافن المدينة.

(٢٢) كتاب حياة سلمان الفارسي، ص ١٥ - ١٦ .

اعتق سلمان نظير ثلثماية ودية[٢٣] واربعين اوقية[٢٤] من الذهب دفعها سلمان الى سيده اليهودي عثمان بن الاشهل.

قال الرسول الكريم لاصحابه، اعينوا اخاكم سلمان بالنخل، فأعانوه، اما الذهب، فيقول سلمان الفارسي: «اعطاني رسول الله بيضة من الذهب لو وزنت باحد لكانت اثقل منه»[٢٥].

ويقول المؤرخ الفارسي حمدالله المستوفي عن العهد الذي تم بموجبه عتق سلمان الفارسي: «ان هذا نص العهد الذي كتبه علي بن ابي طالب عندما افتدى الرسول سلمان الفارسي من عثمان بن الاشهل اليهودي، وكانت كنيته ابو نعيم. «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما افتدى محمد بن عبدالله سلمان الفارسي من ابن الاشهل اليهودي، ثم القرظي القرشي على ثلاثمائة نخلة واربعين اوقية من ذهب، تفدية محمد بن عبدالله لثمن سلمان الفارسي وولائه لمحمد بن عبدالله واهل بيته ولا سبيل لاحد على سلمان». شهد على ذلك ابو بكر بن قحافة وعمر بن الخطاب وحذيفة بن اليمان وابو الدرداء وابو ذر الغفاري والمقداد بن الاسود وبلال مولى ابي بكر وعبد الرحمن بن عوف. كتب علي بن ابي طالب في جمادى الاولى من هجرة محمد»[٢٦].

انتسب سلمان الفارسي كمولى[٢٧] للنبي محمد لان الذين اشتركوا في تقديم فديته كان جمع من الصحابة فكان من المتعذر ان ينتمي اليهم ككل فانتمى الى النبي محمد فأصبح مولى الرسول.

---

(٢٣) الودية هي النخلة الصغيرة.

(٢٤) مما يلفت النظر ان الموازين لم تتغير منذ الجاهلية حتى استبدالها حديثاً بالكيلو غرام الفرنسي كانت (حبة الشعير = ١٠٠ حبة خردل) (المثقال = ٦٠ حبة شعير) (الدرهم = ٧ مثاقيل) (الاوقية = ٤٠ درهم) (الرطل = ١٢ اوقية) (المد = رطل وثلث) (الصاع = ٧ ارطال) هذه الاوزان اخذها العرب من اليونان، كتاب النقود والدواوين في العصر الاموي. الدكتور حسين حلاق، ص ٥٢ .

(٢٥) كتاب اسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الاثير، جزء ٢، ص ٣٣٠ .

(٢٦) كتاب تاريخ «كرنده». حمدالله المستوفي، ص ٢٢ .

(٢٧) عندما يعتق العبد يصبح مولى للذي أعتقه وما عليه الاّ الولاء له.

ان العهد الذي كتبه علي بن ابي طالب لافتداء سلمان والمؤرخ في جمادى الاولى من هجرة محمد، ثم قول المستشرق الفرنسي «هيورات»[٢٨] والدكتور حسين مجيب المصري ان سلمان الفارسي اسلم في السنة الاولى من الهجرة، يعتريها الشك، لأن معظم المؤرخين يقولون، «ان سلمان حبسه الرق حتى فاته مع رسول الله بدر واحد، ولما اعتق اشترك في معركة «الخندق». ولما كانت معركة بدر حدثت في السابع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية ومعركة احد في يوم السبت في السابع من شوال في السنة الثالثة من الهجرة، يكون سلمان اسلم في اواخر السنة الثالثة او خلال السنة الرابعة بعد الهجرة وليس السنة الاولى[٢٩].

ثم ان وجود أبي ذر الغفاري شاهداً على العهد يجعل الشك يحوم على صحته، لأن أبا ذر لم يحضر بدراً واحداً وحتى الخندق لأن النبي محمد ارسل ابا ذر، قبل الهجرة الى يثرب، الى قومه بني غفار يعلمهم القرآن ويفسر لهم احكامه[٣٠]. فأبو ذر الغفاري لم يكن في يثرب في السنة الاولى للهجرة ليكون شاهداً على هذا العهد.

ونأتي الآن الى مرحلة وجود سلمان الفارسي في المدينة من وقت اسلامه وعتقه حتى خروجه الى العراق، الذي كان يومئذ عربي العنصر واللغة، ولكن تحت الحكم الفارسي. خرج سلمان الى العراق مع حملة القائدين، خالد بن الوليد والقعقاع بن عمرو التميمي وذلك عام اثني عشر هجري.

يقول بعض المؤرخين، ان سلمان الفارسي سار من العراق الى الشام عام ١٣ هجري مع جيش خالد بن الوليد واشترك في معركة اليرموك وكان مع خالد عند فتح دمشق. وهذه الاخبار لا تؤكدها كتب التاريخ الاسلامي[٣١] ولكنها اخبار تناقلها الناس فأشير اليها في بعض المؤلفات التي لا تعد من امهات الكتب التاريخية الموثوق بها.

---

(٢٨) Hurat, Nouvelles Recherches sur la legende de Salman, p. 3

(٢٩) كتاب سلمان الفارسي الصحابي الجليل، ص ١١٠ و ١١٦ .

(٣٠) كتاب ابو ذر الغفاري، الشيخ محمد جواد آل الفقيه، ص ٣٩ .

(٣١) ان اللافت للنظر ان كبار المؤرخين المسلمين، كابن خلدون والمقريزي وغيرهم لا يشيرون الى سلمان الفارسي الا باقتضاب وفقط الى نصيحته في حفر الخندق في المدينة.

سلمان الفارسي قال القليل وقيل عنه الكثير. وصف ابن الاثير[٣٢] رحلة سلمان من فارس الى الشام ثم يثرب وقصة اسلامه، كما رواها سلمان الى ابن العباس، وكانت مجرد تسجيل ما حدث له، ثم بعض المؤرخين الشيعة حصر كتابه عن سلمان في الثناء على تقشفه وزهده وما قال فيه الرسول الكريم وبعض كبار الصحابة والأئمة.

كان سلمان الفارسي مقتصداً، وحتى شحيحاً بالقول عن معتقداته ومعرفته بأمور الدين وعلمه اللاهوتي، ومما يثير الاستغراب، في رحلته الى بلاد الشام وحياته مع الأساقفة والرهبان انه لا يذكر شيئاً عن معتقداتهم الدينية ونمط حياتهم، بل صمت صمتاً تاماً عن العلوم التي اكتسبها منهم، وخصوصاً العلوم اللاهوتية المسيحية التي كان من البداهة ان يتعلمها فهي كانت هدفه من الالتحاق بهم. ان صمته عن شرح المعتقدات المسيحية وطريقة حياة الاساقفة والرهبان النصارى في ذلك الزمن كان مؤسفاً، اذ انه لو شرح هذه الأمور لكان قدم لعلم الدين والتاريخ حقائق عن عهد لم يعرف الانسان عنه الا شذرات قليلة.

وجل ما قيل عن سلمان الفارسي كان تمجيداً لصفاته واخلاقه العالية ولتصرفات لم يعرف التاريخ مثلها في الزهد والورع وعبادة المولى الكريم الصادقة، والجهاد لأجل الحق، والايمان المطلق، بما انزل الله تعالى على عباده المؤمنين.

قال الرسول الكريم: «لو كان الايمان بالثريا لتناوله رجل من هؤلاء». ووضع يده على كتف سلمان.

وعن الصحابي الكبير، انس بن مالك، قال: قال الرسول «ان الجنة لتشتاق الى ثلاثة، علي وسلمان وعمّار». قال الامام علي بن ابي طالب: «كان سلمان من خيار الصحابة وزهادهم وفضلائهم وذوي القرب من رسول الله. سلمان من صفوة العلماء بالله ومن اكابر العارفين بالله».

وعن الامام علي؛ سئل عن سلمان فقال: «علم العلم الاول والآخر وهو بحر لا ينزف وهو منا اهل البيت».

---

(٣٢) كتاب اسد الغابة في معرفة الصحابة.

- يقول المؤرخ الزهري، ونقل عنه المستشرق «هوروفتش» ان سلمان اعتق في سنة ٥ هجري.

وقال رسول الله: «من اراد ان ينظر الى رجل نوّر الله قلبه بالايمان فلينظر الى سلمان الفارسي».

وقال الامام علي: «ضاقت الأرض بسبعة بهم ترزقون وبهم تنصرون وبهم تمطرون: سلمان الفارسي، المقداد بن الاسود، ابو ذر الغفاري، عمّار بن ياسر، حذيفة بن اليمان وانا امامهم، وهم الذين صلوا على فاطمة عليها السلام».

وكذلك الامام علي: «سلمان امرؤ منّا والينا اهل البيت، من لكم بمثل لقمان الحكيم[٣٣] علم الاول والآخر وكان بحراً لا ينزف».

وقالت عائشة ام المؤمنين زوجة الرسول وابنة ابي بكر الصديق: «كان لسلمان مجلس من رسول الله، ينفرد بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول الله».

وابن تيمية قال: «وهو اعني «السين»[٣٤] سبب الشد التلقين، تدعو الى سبيل الله بالحسنى والاقناع، كما ان نداء المؤذن يزكي القلب بالصلاة وهو «الباب» الذي يدخل منه «النور الشعشعاني»[٣٥] ومنه يتصل المؤمن بالحضرة الالهية ويحقق عمل الله، ينفخ الروح مولداً الابدان ومعلماً النفوس وهو «المقدرة» التي تمنح الوجود»[٣٦].

ويقول المستشرق لويس ماسينيون: «بيد ان هذه الرغبة في العدل في الدنيا، وهي التي بذر سلمان بذورها وتحولت الى مذهب الشيعة، قد تحولت في الاسلام شوقاً الى الحياة الابدية اخلاص الشيعة لقضية الامامة وللمهدي المنتظر، وصوفية لنزعة الى الزهد، كل هذا نجده، اذا ارتفعنا الى الأصول الاولى، في سلمان»[٣٧].

ثم يقول المستشرق لويس ماسينيون: «نرى منذ بداية القرن الثاني أدمجت شخصية سلمان التاريخية في النموذج الالهي الاعلى الذي تجسدته زمناً والذي

(٣٣) لقمان الحكيم كان عالماً كبيراً في عهد الملك داود.

(٣٤) السين في المثلث المقدس «عمس» يعني سلمان الفارسي.

(٣٥) النور الشعشعاني هو فيض الله على العقل. هو الوحي الذي نزل على الرسول. هو الصلة التي تربط المولى الكريم بمخلوقه الاول العقل.

(٣٦) كتاب «الاذنى» مجلد ص، ص ١٩٨ .

(٣٧) كتاب شخصيات قلقة في الاسلام، ص ٤٦ .

سيسمى من بعد «سلسل»[٣٨] او باول حرف منه «السين». ونعتقد نحن ان ابا الخطّاب (المتوفى سنة ١٣٨) هو الذي ادرك في تلك الفترة رسالة سلمان بكل قوتها، وهو لا يجعله هو نفسه روح الامر مباشرة، انما يوحّد بينه وبينها تدريجياً بعملية رفع روحي وبهذا يرفعه الى مرتبة الالوهية فوق مرتبة الامام»[٣٩]. وعند الموحدين الدروز «يلقب سلمان «سلسل» وهي السلسلة التي كانت في المسجد الأقصى في القدس وهي التي عندها يقسم الناس»[٤٠].

ويقول المستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي: «وعند الدروز يجب على المتلاعنين ان يمسكا السلسلة ذات السبعين حلقة المعلقة في الحرم الشريف في القدس، وهذه السلسلة ترمز الى سلسل، الاسم الفتوحي لسلمان، الذي كان في نظرهم حكماً على محمد في مباهلة المدينة»[٤١].

يعتقد الموحدون ان الملك داوود هو الذي اوجد السلسلة في المسجد في القدس، وان السلسلة، وهي سبعون ذراعاً، يمثل كل ذراع احد حدود الحق، وان اولها في السماء وهو العقل، واخرها في الارض وهي النفس، والسلسلة تعني التوحيد. اختفت السلسلة عندما حاول محتال غشها بوضع المال المتنازع عليه في عصا اعطاها للمدعي على ان يسترجعها منه بعد اداء القسم.

وتقول الشيعة، بعد المباهلة اتخذ سلمان في العرفان الشيعي مقامه التهائي، فهو الحلقة الضرورية بين النبي محمد ووصيه علي بن ابي طالب، تؤكدها اسماعيلية «قلعة الموت» في ثالوثهم المقدس «عسم» أي، علي وسلمان ومحمد.

---

(٣٨) يبدو ان اللفظ سلسل الذي لقّب به سلمان قد تكون من الكلمة «سلسلة» الواردة في سورة الحاقة، آية ٣٢ «ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه».

(٣٩) كتاب شخصيات قلقة في الأسلام، ص ٣٧ .

(٤٠) من كتاب الدروز يقول المستشرق «زيبولد»، ص ٨٨ . يقول الدروز: «الحدود السبعون هم اذرع السلسلة كما جاءت في القرآن خذوه فغلوه» وهي سبعون ذراعاً بعضها في بعض، وكانت معلقة في مسجد بيت المقدس، اذا اختلف خصمان اتيا الى السلسلة ويتعلق بها الجاحد فاذا كان صادقاً في ما يدعي مالت السلسلة اليه واذا كان كاذباً تباعدت عنه. نشره «زيبولد» كتاب الدروز، ص ٨٨ Drusenschrift .

(٤١) كتاب دين الدروز، ص ١٣ .

ذكر «المباهلة» عند الاسلام، فالمباهلة هي الملاعنة الشرطية مأخوذة من الجذر «بهل». في العبرية بمعنى رهب، وفي السريانية بمعنى هدوء او اطمئنان ولكنها دعاء فتسمى ابتهالاً، وبالعربية بمعنى لعن او ملاعنة متبادلة»[42].

وحين امتدت الدولة الاسلامية الى اليمن خاف نصارى نجران من استيلاء المسلمين على بلدهم وان يصيبهم ما اصاب يهود يثرب وخيبر، فعقدوا اجتماعاً عاما لليمنيين، ضم قبائلهم النصرانية، للاتفاق على خطة لصد هذا الخطر عن دينهم واموالهم. اقترح بعضهم حشد جيش وارساله الى المدينة ولكن اعيان بني الحارث اقترحوا ارسال وفد الى المدينة للبحث مع المسلمين امكانية اتفاق سلمي او المباهلة كي يتبين من هو صاحب الحق وطريقة اظهار وحفاظ هذا الحق.

وفي الرابع من شوال عام ١٠هـ وصل وفد الى المدينة من نصارى نجران يتكون من سبعين فارساً بينهم سبعة اساقفة وجمع من الاعيان، وقيل ان خالد بن الوليد وصهيب الرومي، كانا في نجران فرافقا هذا الوفد الى المدينة.

فلما اجتمع نصارى نجران مع الرسول لامهم على تأليه عيسى وقولهم انه ابن الله وتلا عليهم آية ٥٩ من سورة آل عمران «ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من ترابٍ ثم قال له كن فيكون». ثم دعاهم للمباهلة بتلاوة الآية ٦١ من سورة آل عمران «فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكذبين».

ويقول احد الرواة، وهذه المقولة لا تؤكدها كتب التاريخ الاسلامية: «كان سلمان مع النبي ليفسر اقوال النصارى لانه عارف بها، فهو كان من اتباع المسيح قبل اعتناقه الاسلام، قال سلمان للوفد – «انا سلمان الفارسي كنت على دينكم واعرف اسراره، أشير بالوفاق والمصالحة، لأن النبي لديه العدل والرحمة، ومن هو على يساركم (خالد بن الوليد) لديه القسوة والقتال»، وقيل ان النصارى قبلوا الاتفاق عن خوف وليس اقتناع. بعد اجتماع المباهلة، قال الرسول لسلمان «ويحك يا سلمان اني اردتها مصالحة رضى واقتناع وليس ترهيباً».

(٤٢) كتاب شخصيات قلقة في الاسلام، ص ١٦٠ .

وفي اليوم الثاني، ٥ شوال عام ١٠هـ. جاء اعيان النصارى، وجلهم من بني «بلحارث» الى النبي وكان جالساً في قباء مع علي وفاطمة والحسن والحسين. ويقول المستشرق هنري كوربان في ذلك «عمل الرسول على شجرتين مقصوصتين وتدين، نسيجاً كبيراً اسود، يشكل مجازاً، جلس وراءه وخلفه ابنته فاطمة الزهراء (البتول العذراء) وعلى يمينه زوجها وابن عمها، علي الامام الاول، وعن يسارها الامامان الطفلان حسن والحسين. وهؤلاء الاشخاص الاربعة من اسرته هم الذين الى جانبه هو نفسه، شكلوا عرضه للمباهلة. انهم يكونون معاً الجماعة التي يشار اليها «باصحاب الكساء الخمسة». وهذا الكساء الذي سيرتديه الامام المستور ابان رجعته»(*).

وصل وفد نجران واعلن تخليه عن «المباهلة» وقبولهم بالمصالحة والاتفاق الذي نص على ان يؤدوا كل عام الفي حلة من النسيج وان يقدموا الاسلحة الى جيش المسلمين اذا قدموا اليمن في مقابل ذلك يكونون في حماية الدولة الاسلامية تضمن لهم اشخاصهم واموالهم وحرية ممارستهم عقائدهم الدينية ولا يؤدون خدمة عسكرية ولا نفقات جند.

كان هذا الاتفاق السياسي النموذج الاول من الامتيازات التي يسرت للطوائف المسيحية في الدولة الاسلامية العيش بسلام ووفاق مدة ثلاثة عشر قرناً نظير دفع جزية.

ونصيحته الصائبة في حفر الخندق حول المدينة جعلت من سلمان قطباً بارزاً مرموقاً عند المسلمين، فقالت الانصار، سلمان منّا، وكذلك قال المهاجرون. فقال رسول الله، «سلمان منّا اهل البيت».

وسئل النبي الكريم: «هل سلمان من بني هاشم او يتصل النسب بعبد المطلب؟» فقال، صلى الله عليه وسلم. «كلا؛ ولكن ابراهيم، عليه السلام، قال: انما رجل يتبعني فهو مني، وبما ان سلمان تبعنا فهو من اهل البيت»(٤٣).

(*) كتاب الشيعة الاثني عشرية، ص ٧٤ .

(٤٣) كتاب سلمان الفارسي، الدكتور حسين مجيب المصري، ص ١١٩ .

وقال بعض المؤرخين، ان النبي محمد عني «بالبيت»، بيت الحكمة والمعرفة والايمان، وليس بني هاشم. ومرض سلمان الفارسي فعاده رسول الله وقال له: يا سلمان، لك في علتك ثلاث خصال. انت من الله، عز وجل، بذكر، ودعاؤك مستجاب، ولا تدع العلة عليك ذنباً الاّ حطته. متعك الله بالعافية الى منتهى اجلك»[٤٤].

قال الامام موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وهو الامام السابع عند الشيعة الاثني عشرية: «اذا كان يوم القيامة، فينادي مناد، اين حواري محمد بن عبدالله الذين لم ينقضوا العهد ومضوا عليه، فيقوم، سلمان، المقداد، ابو ذر الغفاري وعمّار بن ياسر».

وقال الامام جعفر الصادق، وهو الامام السادس صاحب الفقه الجعفري، عن صفات سلمان الفارسي: «ايثاره هو امير المؤمنين علي، عليه السلام، على نفسه، والثانية حبه للفقراء واختياره اياهم على اهل الثروة والعدد، والثالثة حبه للعلم والعلماء. ان سلمان كان عبداً صالحاً، حنفياً مسلماً وما كان من المشركين».

وقال احد الشعراء:

قيل لي، هل مدحت سلمان يوماً ... قلت مدح النبي يغنيه عنا

هل يفيد المديح من قال فيه ... سيد المرسلين، سلمان منّا

وكما ذكرنا سابقاً، ان سلمان الفارسي قال القليل وقيل عنه الكثير، فمن اقواله:

عندما سأله عمر بن الخطّاب: «يا سلمان املك انا ام خليفة؟» قال سلمان: «يا عمر إن أنت جبيت من ارض المسلمين درهماً او اقل او اكثر ووضعته في غير حقه، فأنت ملك غير خليفة، والملوك لا يدخلون الجنة».

وقال سعد بن ابي وقّاص لسلمان: «اوصني يا ابا عبدالله» فقال سلمان: «اذكر الله عند همتك اذا هممت، وعند لسانك اذا حكمت، وعند يدك اذا قسمت».

قال صحابي لسلمان الفارسي: «اوصني يا ابا عبدالله قال سلمان: اياك والغضب» قال: «لا اقدر»، قال سلمان: «اذن امسك لسانك ويدك».

---

(٤٤) كتاب الدرجات الرفيعة، السيد علي خان، ص ٢٠٩ .

وقال سلمان لحذيفة بن اليمان: «يا اخا عبس، العلم كثير والعمر قصير، فخذ من العلم ما تحتاج اليه في امر دينك ودع ما سواه فلا تعانه».

كان سلمان يقول: «لو حدثت الناس بكل ما اعلم لقالوا رحم الله قاتل سلمان». ثم قال: «لا تقل فيمالا تعلم فتتهم فيما تعلم»(*).

وعندما كتب ابو الدرداء عويمر بن عمر لسلمان «ان الله رزقني مالاً وولداً وزرت الارض المقدسة»، اجابه سلمان: «انك كتبت الي ان الله رزقك مالاً وولداً، فاعلم ان الخير ليس بكثرة المال والولد ولكن الخير ان يكثر حلمك وان ينفعك علمك. وكتبت لي انك نزلت الارض المقدسة، ان الارض لا تعمل لاحد. اعمل كأنك ترى، وعد نفسك من الموتى»[٤٥].

عندما كان سلمان الفارسي والياً على المدائن ورده خطاب من عمر بن الخطّاب يطلب فيه معلومات عن اعمال الوالي السابق، حذيفة بن اليمان، ويلوم سلمان على تقشفه ولبسه الرث من الثياب الذي لا يليق بمنصبه كوالٍ. فكتب سلمان لعمر جواباً قاسياً يحتج على ما كلفه به وهذه بعض فقرات كتاب سلمان الفارسي.

«واتى منك كتاب يا عمر تؤنبني وتعيرني وامرتني ان اقصي أثر حذيفة واستقصي ايام اعماله من سيرة، ثم اعلمك قبيحها، وقد نهاني الله عن ذلك يا عمر. ما كنت لاعفى الله في اثر واطيعك». اما عن تأنيب عمر له على تقشفه ولبسه الرث من الملابس فيقول لعمر: «اما ما ذكرت من انني اقبلت على سف الخوص واكل الشعير فما هو لا يعيّر به مؤمن ويؤنب عليه. وايم الحق يا عمر لأُكل الشعير وسف الخوص والاستغناء عن رفيع المطاعم والمشرب، وعن غصب مؤمن حقه، وادعاء ما ليس له بحق، افضل وأحب عند الله، عز وجل، واقرب للتقوى»[٤٦].

هناك شك قوي وواضح في صحة هذه الرسالة. فعمر ابن الخطّاب لا يمكن ان يؤنب سلمان على زهده وتقشفه وقد عرف عن عمر التقشف والزهد وثم جرأة

(*) كتاب عيون الاخبار ابن قتيبه الدينوري، ص ١٢٧ .

(٤٥) كتاب حياة سلمان الفارسي، محمود شلبي، ص ٨٢ .

(٤٦) كتاب سلمان الفارسي، الدكتور حسين مجيب المصري، ص ٨٤ . النص الكامل لهذه الرسالة في الكتاب المذكور.

سلمان على عمر بن الخطّاب، الذي عرفت عنه الصرامة والقسوة، حتى الفظاظة وشدة الوطأة على امرائه وعماله، لا يمكن ان يقبلها المنطق او العقل السليم، هذا مع العلم، انه لم تكن توجد صداقة او مودة بين عمر وسلمان، فسلمان كان ينكر على عمر قسوته وفظاظته، وعمر كان ينظر الى سلمان كالرفيق الدائم لعلي بن ابي طالب ومن غلاة شيعته.

وبعد اجتماع السقيفة ومبايعة ابي بكر الصديق بالخلافة قال سلمان كلمته الفارسية: «كرديدو وتكرديد» اي «صنعتم وما صنعتم» او كما ترجمها الزيديون، «اصبتم واخطأتم» وكذلك «اصبتم ذا السن منكم واخطأتم اهل البيت نبيكم» ولكن المستشرق الفرنسي «لويس ماسينيون» يقول: «كلام شديد الابهام يستغلق فهمه». وفسرها بعض مفكري الشيعة انها كانت فورة ونفرة غضب من شخص خاب امله من حادث لم يتوقعه».

وقال ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: «انه لا يعلم شيئاً اظهر بطلاً ولا افسد معنى من تلك المقولة التي يخالجه الشك في جريانها على لسان سلمان، معللاً ذلك بتعجبه من ان يكلم سلمان العرب بالفارسية، وهو في العربية مشرق البيان، وما كان في حضرته احد من الفرس ليظن انه وجّه الخطاب اليهم بلسانهم، كما ان العرب لا تفقه عنه ما يقول بالفارسية. وكيف لم يزجر سلمان عن مثل هذا من قوله زاجر، وما كان شديد الشكيمة معروفاً بالشجاعة، فأنى يتفوه بمثل هذا، وهو منه جرأة على ابي بكر»(٤٧).

---

(٤٧) كتاب العثمانية، ص ١٧٧ و ١٨٨ .

- تهجم ابو عثمان الجاحظ على سلمان الفارسي في كتابه (العثمانية صفحة ١٧٨) وقال «ان سلمان كان حديث الاسلام قليل المشاهد، وما اسلم الاّ حين انحسرت الشدة وانكشف معظم الكربة، وهو ليس من الاكفاء في الامامة ولا موضع الشورى والخلافة ليكون قوله في ذلك حجة يؤخذ بها فتنقض بها الامامة، وتعرف الخلافة، وانه ولي على المدائن لعمر مطيعاً غير مكره، وان سلمان رجل فارسي وكان شاهد كسرى».

من المعلوم ان ابا عثمان الجاحظ يتجنى على سلمان الفارسي، فالجاحظ معتزلي حارب اهل النص، الاشاعرة والحنابلة واصحاب الثنوية اي الزرادشتية وفروعها المانوية والمزدكية ولهذا يعتبر =

هذا جل ما قاله سلمان الفارسي وقيل عنه، الاّ بعض الاساطير مبالغ فيها وغير مقبولة عقلياً، وكما قلنا سابقاً، ان ما قاله سلمان كان قليلاً جداً.

ان عملية المؤاخاة، التي آخى بها رسول الله بين الانصارو المهاجرين قبل غزوة بدر فهي، لانه شعر بنفور بدأ يدبّ بين الفريقين. فالانصار وهم اهل المدينة (يثرب) والمهاجرون هم اصحاب دعوة قدموا المدينة لنشر دعوتهم وهرباً من اضطهاد قريش. ولم يكن من روابط قبلية تجمع بين المضيفين والضيوف فكانت المؤاخاة لسد هذا الفراغ. صار سلمان الفارسي اخاً للزاهد المتعبد ابي الدرداء عويمر بن عمرو الانصاري، ولهذا عدّ بين المهاجرين.

غزوة الخندق، التي بدأت في شهر شوال في العام الخامس من الهجرة، كانت اول مشهد لسلمان الفارسي بعد برقه وجعلت منه شخصية مرموقة بين المسلمين وصار من اصحاب الرأي مستشاراً في الامور الدنيوية والدينية.

كان اليهود يأملون، في اول الامر، ان تنتقل السلطة، بسبب المسلمين، الى مدينتهم «يثرب» وتنتقل معها تجارة قريش فتصبح «يثرب» سوق العرب بدلاً من مكة، ولكنهم اكتشفوا ان هدف المسلمين نشر الدين الاسلامي وليس الكسب المادي، وكذلك شعروا ان المسلمين سيشكلون في يثرب اكثرية ستكون خطراً على معتقداتهم وتسلطهم على المنطقة بكاملها.

سار وفد من بني نضير اليهود الى مكة واقنعوا قريش بمهاجمة يثرب والقضاء على المسلمين، ثم ساروا الى غطفان من قيس غيلان والى بني مرّة وفزارة وسليم وبني سعد فصار عددهم يفوق عشرة آلاف مقاتل تحت امرة ابي سفيان بن حرب، وقصدوا يثرب.

اتصل نبأ هذا الزحف بالمسلمين ففزعوا وقرروا التحصّن في «يثرب» ولكن الانصار اعترضوا على ذلك خوفاً على النساء والاطفال، فأشار سلمان الفارسي بحفر

= ان سلمان الفارسي كان سابقاً زرادشتي المذهب فارسي الاصل ثم صار شيعياً حين كان جل اهل الاعتزال على مذهب السنة وعرباً.

خندق[٤٨] حول المدينة كما كان الفرس يفعلون في حروبهم فحفر الخندق في ستة ايام.

وكان الخندق، مع بعض العواصف والصقيع، سبب فشل قريش وحلفائها من الحاق هزيمة بالمسلمين.

يجب توضيح مقولات خاطئة تتداولها قلة من الناس هي، ان سلمان الفارسي ساعد النبي محمد على كتابة القرآن الكريم. هذه المقولات بعيدة عن الحقيقة وتعتبر الحاداً وكفراً.

والقول ان سلمان الفارسي ساعد النبي محمد «صلعم» على كتابة القرآن قد يكون نتيجة التباس بين اسم سلمان الفارسي واسم سلمان الحضرمي النصراني الرومي الذي كان اعجمي اللسان ومولى حويطب بن عبد العزي الذي توفي عام ٥٤ هجري.

ويقول الدكتور جواد علي[٤٩]: «ومن هؤلاء رجل نصراني كان بمكة قيل ان اسمه: سلمان او يسار او جبر، ادعى اهل مكة انه كان هو الذي يلقن الرسول ما كان يقوله للناس في رسالته، وانه هو الذي كان يعلمه. وقد اشير الى قول قريش هذا في الآية: «ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي، وهذا لسانٌ عربي مبين»[٥٠]. كان سلمان الحضرمي عالماً قرأ التوراة والانجيل وكان المشركون يرون الرسول يدخل عليه ويجتمع به فقالوا: «انه يتعلم من هذا الرومي». ثم نزلت الآية: «وقال الذين كفروا إنْ هذا الاّ افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون...[٥١]».

يقول المستشرق لويس ماسينيون: «ان النبي دعي الى ان يقارن بين ما انزل وبين ما اتت به كتب النصارى ولهذا استعان بسلمان الفارسي على ذلك»[٥٢].

---

(٤٨) الخندق كلمة فارسية الأصل وهي تدل على حيلة حربية. لويس ماسينيون. كتاب شخصيات قلقة في الاسلام. عبد الرحمن بدوي، ص ٨ .

(٤٩) كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، مجلد ٦، ص ٦٠٤ .

(٥٠) سورة النحل، الآية ١٠٣ .

(٥١) سورة الفرقان، آية ٤ .

(٥٢) كتاب سلمان الفارسي والبواكير الروحية للاسلام في ايران، نشرته جماعة الدراسة الأيرانية.

وفي تفسير الضحّاك بن مزاحم (توفي عام ١٠٥هـ) يقول ان سلمان عان النبي على معرفة الكتب الدينية السابقة على ما انزل اليه ولم يكن لسلمان من دور اكثر من هذا مع الرسول»[٥٣] ويقول: «فلاديمير ايفانوف» قالت الاسماعيلية «ان سلمان هو في الواقع الذي حمل القرآن كله الى محمد، وان الملاك جبريل لم يكن الاّ الاسم الذي اطلق على سلمان بوصفه حامل هذه الرسالة الالهية، فعندهم ان التنزيل القرآني من عند الله، فالاسماعيلية هم مسلمون»[٥٤].

اعطيت لسلمان هالة كبيرة عند بعض الشيعة حيث اصبح باباً من ابواب الجنة وان له منزلة المعلم الاول ومرتبته اعلى من مرتبة النبي. هذه النزعة التي حاولت وضع سلمان في مكانة قاربت، بل تعدت، مكانة النبي، كانت فارسية لاثبات منزلتهم في الاسلام وان كان لهم التأثير المهم في نشأته وتطويره وان الدين الاسلامي، ليس ديناً عربياً فقط، حتى ولو انزل باللغة العربية وانزل على نبي عربي.

استغل الفرس قول عائشة ام المؤمنين «كان لسلمان مجلس من رسول الله ينفرد به بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول الله». استغل الفرس هذا القول واشاعوا ان سلمان كان يأتي ليلاً الى الرسول ويساعده في كتابة القرآن، اذن للفرس اليد الطولى في خلق القرآن.

مما يثبت عدم صحة هذا الادعاء الفارسي، ان سلمان قدم يثرب (المدينة) في العام الاول من الهجرة. والمعروف تاريخياً انه لم يشترك في موقعتي بدر وأُحد، لأنه كان ما يزال رقيقاً لعثمان ابن الاشهل اليهودي، ولكنه تمكن من ان يحضر موقعة الخندق، التي جرت في شهر شوال السنة الخامسة للهجرة، وكان ذلك بعد ان اعتقه الرسول الكريم.

مما لا يقبل الجدل، ان سلمان الفارسي لم يكن في مكة عندما انزل الله الوحي على النبي محمد، وهذا الوحي الذي نزل في مكة، اشتمل على خمس وثمانين

---

(٥٣) كتاب شخصيات قلقة في الاسلام، عبد الرحمن بدوي، ص ٣٣ .

(٥٤) كتاب اسماعيليات، ص ٣٤ وص ٧٤ . المعروف ان المستشرق ايفانوف الروسي هو اكثر المؤرخين معرفة بالعقيدة والتاريخ الاسماعيليين وله مؤلفات عديدة في الموضوع.

سورة (٨٥) من مجموع مائة واربع عشرة سورة (١١٤). اذن كيف يمكن الادعاء، ان سلمان ساعد النبي على كتابة القرآن الكريم وهو لم يكن موجوداً عندما نزلت هذه السور المكية؟ وهي تمثل ثمانين بالمئة من القرآن الكريم.

بعد احتلال المسلمين للمدائن، اصاب العرب ضعف وهزال، فكتب سعد بن ابي وقّاص الى عمر بن الخطّاب «ان الذي غيرهم وخومة البلاد وان العرب لا يوافقها الاّ ما وافق ابلها من البلدان». فأمر عمر بيعث سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان كي يجدا مكاناً يوافق مناخه العرب. أتيا الكوفة فأعجبتهما واخبرا سعداً بذلك فارتحل اليها مع قسم من جيشه فنزلها في شهر محرم عام سبعة عشر هجري(*).

وفي عام اربعة عشر للهجرة[٥٥] او خمسة عشر، جهّز امير المؤمنين عمر بن الخطّاب جيشاً من ثلاثين الف لغزو القادسية وجعل سعد بن مالك بن ابي وقّاص قائداً له وسلمان الفارسي رائده»[٥٦].

بعد الانتصار الرائع في غزوة القادسية وشفاء سعد بن ابي وقّاص من مرضه، سار سعد وجيشه لفتح المدائن[٥٧] التي كانت عاصمة الفرس والمركز الاداري للامبراطورية الساسانية وبها قصر كسرى انوشروان اكبر واجمل قصور العالم ويقال ان في جهتها الغربية كانت جامعة جندياسبور التي انشأها كسرى انوشروان ودرس فيها حمزة بن علي بن احمد الدين والفلسفة.

وصل جيش المسلمين الى نهر دجلة، وهو حصن المدائن الطبيعي لسعة مجراه وسرعة تدفق مياهه، فوجدوا ان الفرس احرقوا جسره، فاندفع الجند الى لجة النهر

(*) الكوفة اسم يطلق على الارض التي بها رمل احمر وحصباء.

(٥٥) كتاب «الفاروق عمر». محمد حسين هيكل، ص ١٧٤ حاشية رقم ١ . يقول اختلف المؤرخون متى وقعت القادسيّة، يقول ابن خلدون كانت القادسية سنة اربع عشرة وقبل خمس عشرة وقبل ست عشرة. ويقول ابو الفداء عماد الدين القرشي انها سنة خمس عشرة.

(٥٦) يقول بعض المؤرخين ان قبل غزوة القادسية، ذهب سلمان الى العراق ثم الى بلاد الشام مع خالد ابن الوليد وانه حضر معركة اليرموك وفتح دمشق.

(٥٧) كان اسم المدائن بالفارسية «طسفون» انما سمتها العرب مدائن لانها سبع مدن قريبة من بعضها وهي وريثة بابل وتقع على الشاطئ الشرقي من نهر دجلة.

فخاف سعد على جنده، فهم من العرب الذين لا خبرة لهم في اجتياز الانهر او الموانع المائية لعدم وجودها في بلادهم.

سمع سلمان الفارسي سعد بن ابي وقّاص يقول للجند: قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، والله ينصرنّ وليّه، ويظهرن دينه ويهزمن عدوه، لا حول ولا قوة الاّ بالله العلي العظيم». فقال له سلمان: «الاسلام جديد، ذللت لهم البحور كما ذلل لهم البر، اما والذي نفس سلمان بيده، ليخرجن منه افواجاً كما دخلوا فيه افواجاً». فخرجوا منه كما قال سلمان ولم يفقدوا شيئاً(٥٨).

ولى عمر بن الخطّاب الصحابي حذيفة بن اليمان على المدائن، ولكن لمدة قصيرة، ثم نحّاه وولى سلمان الفارسي(*).

رفض سلمان الاقامة بدار الامارة في المدائن انما طلب ان يستأجر له حانوت في السوق ليتاح له التعرف لمشاكل الناس والنظر في مطالبهم دون ان يغلق الابواب ويوقف الحجاب(٥٩).

وفي سبب حلفه مع بني قيس، يقول ابن سعد: «جعل سلمان زيد بن صوحان العبدي (توفي عام ٣٦هـ) يؤم الصلاة، بدلاً منه، في فصيلة من فصائل الجيش في العراق، لأن سلمان مولى غير عربي، لم يكن يحق له الصلاة في الناس، وزيد بن صوحان العبدي كان احد رؤساء بني قيس وكانت له مودة لسلمان بعد ان فقد سلمان اقطاعه في المدينة، لما صودرت اموال اهل البيت صدقة لحساب بيت المال، شاء ان تكون له ضماناً امانة شخصية، شأنه شأن كل الذين اعتنقوا الاسلام من غير العرب، وذلك بأن لا يصبح حليفاً لبني قيس وكانت وجود رابطة بين سلمان وبني

---

(٥٨) كتاب حياة سلمان الفارسي، محمود شلبي، ص ١١٣ - ١١٤ .

(*) الصحابي حذيفة بن اليمان كان حليف الانصار فصار منهم وكان رفيق النبي، كتاب طبقات سعد، مجلد ٤، ص ٦٠ .

(٥٩) كتاب سلمان الفارسي، الدكتور حسين مجيب المصري، ص ٨٣ .

قيس»[٦٠]. بنو قيس اول من شايع لعلي بن ابي طالب في العراق وهم اساس شيعة العراق.

ويحدثنا عز الدين بن ابي الحديد عن زهد سلمان الفارسي خلال ولايته على المدائن فيقول: «كان عطاؤه خمسة آلاف غير ان نفسه كانت تعف عنه، فكان اذا أخرج عطاءه الوفير بادر الى التصدق به غير مبق على شيء منه، وما اكل الاّ من عمل يده وما يملك الاّ عباءة يلبس بعضها ويفرش بعضها، واتخذ نسيج الحصر من ورق النخل حرفة تدر عليه ليأكل من عمل يده وكده»[٦١].

تزوج سلمان الفارسي امرأة من كندة اسمها «بقيرة» او «صفوة» ولدت له ثلاث بنات. بنت تزوجت وهاجرت الى مصر واثنتان هاجرتا الى اصفهان[٦٢]. ويقال انه كان له ولد اسمه عبدالله.

من الصعب جداً معرفة مولد سلمان الفارسي، لان العرب لم تعرف التاريخ الاّ بعد الهجرة، وقبلاً كانت تؤرخ بعام الفيل. قال بعض المؤرخين ان سلمان الفارسي ولد في اصفهان عام ٤٨ قبل الهجرة وتوفي عام ٣٥ هجرية في علّية ابي قرة الكندي في المدائن فيكون عاش ثلاثاً وثمانين سنة.

ويقول ابو منصور بن الحسن الطوسي، عندما مات سلمان في المدائن عام ٣٥ هجرية، كان جميع ما يملك بعشرين درهم اعطاها لزوجته «بقيرة» وهي من كندة[٦٣].

ويقول القزويني، ان من الجانب الشرقي في المدائن يوجد مشهد سلمان الفارسي، رضي الله عنه، وله موسم في منتصف شهر شعبان وفي ذي الحجة من كل عام، تهرع الجموع من أهل بغداد لزيارته، وسلمان معروف لديهم باسم سلمان «باك» اي سلمان الظاهر.

---

(٦٠) كتاب طبقات سعد الكبرى، جزء ٦، ص ٨٥ .

(٦١) كتاب شرح نهج البلاغة.

(٦٢) اسم زوجة سلمان «بقيرة» من كتاب طبقات سعد، واسم «صفوة» في كتاب المؤرخ لويس ماسينيون

(٦٣) كتاب الاحتجاج، ابو منصور الطوسي.

ما اتينا به في هذه الرسالة والكتب العديدة التي تناولت سيرة الصحابي الجليل سلمان الفارسي يؤيد بدون شك كون سلمان شخصية كبيرة اسلامية مجدته، حتى التقديس، الفرق الشيعية بما فيها الموحدون الدروز. ازدهار الاساطير حول اسلامه من جانب غلاة الشيعة، لم يحدث الاّ بعد القرن الثاني في العهدين الاموي والعباسي وقت اضطهاد العلويين، آل البيت، فكانت ردة الفعل عند الشيعة تمجيد رجالاتهم، ومن جملتهم سلمان الفارسي الذي كان من غلاة شيعة علي بن ابي طالب والمنادي بحق علي بالخلافة(*).

نسب بعض المؤرخين الشيعة لسلمان الفارسي مؤلفات عديدة منها:

١ - رسالة الى حذيفة بن اليمان.

٢ - خبر الجاثليق، تمجيد لعلي بن ابي طالب.

٣ - انجيل سلمان الفارسي، ذكره ابو الريحاني البيروني في كتابه «الاثار الباقية».

٤ - رواية سلمان، تفسير القرآن، ذكرها الفرات بن الاحنف الكوفي.

والمعروف ان عند مشايخ الاجاويد الموحدين اشعاراً عديدة لسلمان الفارسي.

اما عن المؤرخين الذين كتبوا عن سلمان الفارسي فتوجد لائحة كاملة في كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي «شخصيات قلقة في الاسلام» من صفحة ٥١ الى صفحة ٥٨ وهو الفصل الذي كتبه المستشرق لويس ماسينيون «سلمان الفارسي والبواكير الروحية للاسلام في ايران».

وابو ذر الغفاري، جندب ابو جناده البدري، كان اول اشتراكي في الاسلام. اشتراكية ابو ذر الغفاري كانت مبنية على مبادئ الاسلام وما يقوله القرآن الكريم. نادى بها ابو ذر يوم كان الاسلام في اوج عزته وازدهاره والمسلمون اصحاب السلطة والقيمون على الحكم.

(*) يقول ابن جبير، كتاب «رحلة ابن جبير»، ص ١٥٧ . عندما قدم ابن جبير الى المدينة عام ٥٨٦هـ كان فيها مسجد سلمان الفارسي. وهذا يدل على مكانة سلمان الكبيرة حتى يكون له مسجد في المدينة.

اشتراكية ابو ذر الغفاري من صميم التعاليم الاسلامية التي تهدف إلى ازالة التهافت على المادة وتأمين العدل والمساواة بين المؤمنين وتأمين فرصة العيش الكريم للجميع.

قال امير المؤمنين عمر بن الخطّاب: «لو استقبلت في أمري وما استدبرت، لاخذت فضول اموال الاغنياء وقسمتها على الفقراء المهاجرين».

ابو ذر الغفاري كان من سادة قبيلة غفار، وهي قبيلة عرفت بشدة البأس وكانت مضاربها على طريق مكة وبلاد الشام حيث كانت تمر قوافل قريش التي كانت تحذر عداءها لتأمين سلامة تجارتها.

في الجاهلية كان ابو ذر الغفاري فارساً مغواراً يغير على القوافل ولا يعرف الخوف. روى عنه بن سعد في الطبقات: «كان ابو ذر يصيب الطريق، وكان شجاعاً ينفرد وحده لقطع الطريق ويغير على الصرم (الصرم الفرقة من الناس) في عماية الصبح على صهوة فرسه، او على قدميه، كانه السبع، فيطرق الحي ويأخذ ما يريد، ثم قذف الله في قلبه الاسلام»(٦٤). نهى الاسلام الغزو والاغارة على الناس، وعندما اسلم ابو ذر، انتهى عن هذه الاعمال.

عندما سمع ابو ذر نبأ ظهور الرسول الكريم في مكة قرّر اللقاء به لاستطلاع خبره، فأرسل اخاه أنيساً ليكون على بيّنة بما يحدث. رجع انيس من مكة قائلا: «رأيت رجلاً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويأمر بمكارم الاخلاق»(٦٥).

قدم ابو ذر الغفاري مكة حيث لقيه علي بن ابي طالب فأخذه الى بيت النبي محمد حيث اسلم وقيل انه كان الخامس من المسلمين.

قال ابو ذر ان الرسول حذّره من ان يخبر اهل مكة باسلامه كي لا يصيبه منهم مكروه، قال ابو ذر خرجت حتى اتيت الكعبة فناديت «اشهد ان لا اله الاّ الله وان محمداً رسوله». فثار علي القوم وضربوني حتى اتى العباس بن عبد المطلب وقال: «ويلكم السنم تعلمون ان هذا الرجل من غفار وان طريق تجارتكم الى الشام تمر في بلدهم»؟

---

(٦٤) كتاب اعيان الشيعة، محسن الامين، ص ٣٢ .

(٦٥) كتاب ابو ذر الغفاري، الشيخ محمد جواد آل الفقيه، ص ٣٣ .

رجع ابو ذر الى غفار حيث اسلم جمع غفير منهم وقال رسول الله «غفار غفر الله لها واسلم سالمها الله»(٦٦).

لقد اراد رسول الله ارسال ابي ذر الى قومه لأنه كان يحتاج الى مؤيدين واعوان بين القبائل لنشر الاسلام خصوصاً ان لقبيلة غفار مكانة مرموقة بين القبائل.

ابو ذر الغفاري لم يحضر بدر او أُحد ولا الخندق لأن الرسول امره ان يبقى مع قومه يعلمهم القرآن ويفسر لهم احكامه. كان تخلفه عن الاشتراك في هذه الغزوات من ايعاز النبي وليس تهرباً من ابي ذر وهو المشهور بشجاعته واقدامه. وقال الله في كتابه الكريم «وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون»(٦٧).

وقال الرسول الكريم: «ما اظلت الغبراء في ذي لهجة اصدق من ابي ذر، ومن سرّه ان ينظر الى تواضع عيسى ابن مريم فلينظر الى ابي ذر»(٦٨).

وفي غزوة «تبوك» تخلف ابو ذر الغفاري لتخلف ناقته فأخذ حمله عنها وحمله على ظهره ولحق بالنبي الذي قال: «هذا ابو ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده ويشهده عصابة من المؤمنين»(٦٩).

نفي ابو ذر الى الشام حيث اقام عشر سنوات. وقد نفاه الخليفة عثمان بن عفان تخلصاً منه ومن التعريض لحكمه وانتقاد اعماله.

في عهد عثمان سيطر الامويون على الحكم فكان انقلاب على جميع التقاليد ونمط الحياة وانتهى التقشف والزهد وانتشر الثراء والترف لدرجة لم يعرفها العرب سابقاً. نفر ابو ذر من تهالك الناس على المال ومن بذخ الحكام وتبذيرهم اموال المسلمين، فأطلق صوته منادياً بالرجوع الى التقاليد الاسلامية والتقيد بتعاليم القرآن ووجه سخطه ولومه واتهاماته الى اصحاب الحكم وانتقد بشدة الخليفة عثمان بن عفان ومعاوية بن ابي سفيان والي بلاد الشام.

---

(٦٦) كتاب صحيح مسلم، ابو الحسين بن الحجاج، ص ٤ .

(٦٧) سورة التوبة، آية ١٢٢ .

(٦٨) كتاب الاستيعاب ابن عبد البر، ص ٢١٦ .

(٦٩) كتاب الكامل في التاريخ، ابن الاثير ٢٨٠ . وكتاب «الاصالة» ابو حجر العسقلاني، ص ٦٤

كانت كلمة ابي ذر جريئة لاذعة دون رياء او مداهنة يقولها في المساجد والشوارع ويردد قول الله تعالى «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم».

اراد معاوية بن ابي سفيان شراء ابي ذر بالمال، فأرسل اليه ثلاثمائة دينار فارجعها اليه قائلاً: «اذا كان من عطائي الذي منعتوه عني اخذه، وان كان صلة فلا حاجة لي بها».

جيء به الى معاوية فقال له معاوية «يا عدو الله وعدو رسوله، تأتينا في كل يوم فتصنع ما تصنع، اما اني لو كنت أقاتل رجلاً من اصحاب محمد لقتلتك ولكني استأذن فيك». فرد ابو ذر على معاوية: «ما انا بعدو الله ولا لرسوله، بل انت وابوك عدوان للّه ورسوله، اظهرتما الاسلام وابطنتما الكفر ولقد لعنك رسول الله ودعا عليك الاّ تشبع»(٧٠).

ضاق معاوية ذرعاً بأبي ذر وخاف ان يثير عليه اهل الشام، فكتب الى الخليفة عثمان بن عفان، «ان ابا ذر تتجمّع اليه الجموع ولا امن ان يفسدهم عليك، فان كانت لك في القوم حاجة فاحمله اليك»(٧١).

كتب عثمان بن عفان لمعاوية: «احمل جندباً على اغلظ مركب، وارسله الي».

سار ابو ذر الغفاري الى المدينة التي تحتل في قلبه مكانة كبيرة، فهي مدينة الرسول وفيها مسجده الذي بناه وصلى به، وفيها قبره الذي، قبل اقصائه الى الشام، كان يزوره يومياً، وكذلك فيها رفيقه وصفيه علي بن ابي طالب.

دخل يوماً ابو ذر على عثمان بن عفان فقال له عثمان: وانت الذي تزعم انّا نقول يد الله مغلولة وان الله فقير ونحن اغنياء؟ فقال ابو ذر: «اني سمعت رسول الله يقول، اذا بلغ بنو ابي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً، وعباده خوّلا، ودينه دخلا». غضب عثمان وقال: «ويلك اتكذب على رسول الله!». فقال علي بن ابي طالب: «ان ابا ذر لا يكذب وقد قال رسول الله: «ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء من ذي لهجة اصدق من ابي ذر».

---

(٧٠) كتاب مروج الذهب، المسعودي، ص ٣٤٠ .

(٧١) كتاب ابو ذر الغفاري، الشيخ محمد جواد الفقيه، ص ١٣٥ .

قال الخليفة عثمان بن عفان: «اترك هذه الديار وارِ عني وجهك» فقال ابو ذر، اسير الى مكة الى بيت ربي اعبده فيه حتى اموت او الى الشام، فرفض عثمان وقال مسيرك الى الربذة. فقال ابو ذر: «صدق رسول الله لقد اخبرني باني امنع عن مكة والمدينة واموت بالربذة ويتولى مواراتي نفر ممن يريدون من العراق نحو الحجاز»[٧٢].

وجاء في شرح نهج البلاغة عن ابن عباس: «لما اخرج ابو ذر الى الربذة، امر عثمان، فنودي في الناس، ألاّ يكلم احد ابا ذر، ولا يشيّعه. وامر مروان بن الحكم ان يخرج به. فخرج به وتحاماه الناس، الاّ علي بن ابي طالب وعقيلاً اخاه وحسناً والحسين، عليهما السلام، وعمّار بن ياسر»[٧٣].

ولما حضرت الوفاة ابي ذر الغفاري بكت زوجته وقالت، انت تموت بفلاة من الارض وليس عندي كفن لك ولا من يدفنك لا يد لي للقيام بجهازك[٧٤] فقال ابو ذر: «سمعت رسول الله يقول «ليموتن رجل منكم بفلاة من الارض، تشهده عصابة من المؤمنين، انا ذلك الرجل»[٧٥].

ويقول ابن عبد البر: «مرّت جماعة من المسلمين فدفنوا أبا ذر الغفاري».

وقال الامام علي لابي ذر: «يا ابا ذر، انك غضبت لله، فارج من غضبت له، فان القوم خافوك على دنياهم، وخفتهم على دينك، فاترك في ايديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم ما خفتهم عليه، فما احوجهم الى ما منعتهم وما اغناك عمّا منعوك»[٧٦].

---

(٧٢) كتاب مروج الذهب، المسعودي، جزء ٢، ص ٢٤٠ .

(٧٣) كتاب شرح النهج، ابن ابي الحديد، جزء ٨، ص ٢٥٣ .

(٧٤) كتاب ابو ذر الغفاري، الشيخ محمد جواد آل الفقيه، ص ١٥٥ .

(٧٥) كتاب اعيان الشيعة، جزء ١٦، ص ٣٦٨ .

(٧٦) كتاب الاستيعاب، جزء ١، ص ٢١٤ .

المقداد بن الاسود، هو بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر بن مطرود البهرائي[٧٧] وكان يعرف باسم المقداد بن الاسود الكندي، وكنيته ابو معبد.

كان والده عمرو بن ثعلبة يتمتع بشجاعة عالية دفعته الى قتل احد اعيان قبيلته فاضطر الى تركها والالتحاق بقبيلة كندة، التي كانت كبيرة ومرهوبة الجانب بين العرب، حيث تزوج منهم وولد له المقداد فصارت كنيته الكندي.

عندما كبر المقداد وقع بينه وبين احد زعماء كندة، الفارس المشهور ابي شمر بن حجر، وكاد يقتله، فهرب الى مكة لاجئاً.

في مكة كان عليه ان يحالف احد ساداتها كي يحميه من اذى الغير لانه غريب لا قبيلة لديه ولا ملاذ، حالف المقداد الاسود عبد يغوث الزهري الذي كان مرهوب الجانب ومن كبار قريش، فاكتسب كنية اسود منه فصار يعرف باسم، المقداد بن الاسود الكندي وكان يلقب ابو عمرو وحارس رسول الله.

كان طويل القامة ابيض اللون فارساً شجاعاً. قال عنه عمرو بن العاص، وهو القائد الذي فتح مصر: «مقداد اول فارس الاسلام ويقوم مقام الف رجل»[٧٨].

وفي السنة الاولى للهجرة التحق بالرسول الكريم وعندما ارسل النبي عمه حمزة بن عبد المطلب مع ثلاثين رجلاً كي يعترضوا سبيل قافلة من قريش التحق المقداد معهم وكانت بداية جهاده الطويل للاسلام[٧٩].

ثم كانت غزوة بدر الكبرى في ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة. كان عدد

---

(٧٧) كتاب «الاصابة» ابن حجر العسقلاني، جزء ٣، ص ٤٥٤ .

– البهرائي نسبة الى بهراء بن عمرو، بطن من قضاعة كانت منازلهم شمال بلدة ينبع والشكر الجزيل للعلامة الشيخ جواد آل فقيه على كتابه «المقداد بن الاسود الكندي» الذي اعتمدته في هذه الدراسة، لأن المصادر التاريخية لم تعط سيرة هذا الصحابي البطل حقها. لولا جهود الشيخ محمد المشكورة، لما عرفنا عن المقداد بن الاسود، الاّ نبذات لا تفيه حقه. يقول العلامة الشيخ محمد: «فوجئت بسيرة هذا الصحابي البطل متناثرة هنا وهناك في بطون الكتب، مما يعني ان ثمة اهمالاً قد امتدت يده اليها».

(٧٨) كتاب الاستيعاب، يوسف بن عبدالله ابن عبد البر، ص ٤٧٣ .

(٧٩) كتاب الكامل في التاريخ، عز الدين ابن الاثير، ص ١١١ .

المشركين يراوح بين التسعماية والألف مقاتل معهم سبعماية من الابل ومائة جواد بينما كان المسلمون ثلاثمائة مقاتل معهم فرسٌ واحدة يقال لها «سبحة» وكانت للمقداد ابن الاسود.

كان الوضع في غاية من الحرج نظراً لفقدان التوازن وكان يتطلب ثباتاً واصراراً على الجهاد. قال المقداد لرسول الله: «يا رسول الله أمضِ لامر الله فنحن معك، اذهب انت وربـك فقاتلا إنّا معكم مقاتلون». وقال عبدالله بن مسعود فرأيت رسول الله اشرق وجهه بذلك وسره واعجبه»[٨٠].

اسر المقداد ابن الاسود النفر بن الحارث، الملقب «ثعلب قريش» الذي كان اشد قريش في تكذيب النبي، فضرب علي بن ابي طالب عنقه.

وقعت غزوة احد في السابع من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة وكان المقداد مع الرماة الذين وضعهم الرسول لحماية مؤخر جيش المسلمين ثم كان من الستة الذين دافعوا عن الرسول عند هجوم المشركين عليه.

قيل عن شجاعة المقداد ابن الاسود الكثير ولكن لم يصلنا الا بعض النبذات، منها ما قال القاسم بن عبد الرحمن بن عوف «اول من عدا به فرسه في سبيل الله المقداد بن الاسود». وقال العباس بن عبد المطلب «في معركة احد لم يبق مع النبي الاّ علي وطلحة والزبير وعبدالله بن مسعود والمقداد ابن الاسود».

كانت من مشاكل العرب في ذلك الوقت التفوق العرقي، فكان العربي الذي ينتمي الى قبيلة ما يأنف تزويج ابنته الى من ينتمي الى قبيلة يراها دونه في الحسب او الى غير عربي او مولى حليف. فجاء الرسول الكريم يعمل على دفن هذه العادة الجاهلية انطلاقاً من ان الناس كلهم ابناء آدم واكرمهم عند الله تعالى اتقاهم. ابتدأ بنفسه فتزوج صفية بنت حُيي بن الاخطب بعد ان اعتقها ثم زوج ابنة عمه زينب بنت جحش القرشية من مولاه زيد بن حارثة.

طلب المقداد ابن الاسود من عبد الرحمن بن عوف ان يزوجه ابنته فغضب عبد الرحمن واغلظ له الكلام[٨١]. حزن المقداد من كلام عبد الرحمن بن عوف فذهب

---

(٨٠) كتاب الاستيعاب، يوسف بن عبدالله ابن عبد البر، ص ٤٧٤ .

(٨١) كتاب الاصابة، ابن حجر العسقلاني، جزء ٣، ص ٤٥٤ .

الى رسول الله فشكا له ذلك[٨٢]. فقال له الرسول: «انا ازوجك» فاختار له ابنة عمه ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب من اعز بيت في الاسلام والعرب حتى يعرف ان لا فرق بين مسلم ومسلم الاّ بالتقوى. ولدت ضباعة للمقداد عبدالله وكريمة. عبدالله قتل في معركة الجمل، وكان مع جيش عائشة ام المؤمنين يقاتل الامام علي بن ابي طالب رفيق والده المقداد، ويقال ان عمّار بن ياسر أنبه بقسوة على قتاله الامام علي.

ويقول عروة بن الزبير[٨٣]: «عند وفاة عمر بن الخطّاب اجتمع ستة من الصحابة الكبار – علي وعثمان ابناء عبد مناف، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف خال رسول الله، والزبير حواري رسول الله وابن عمته، وطلحة الخير»[٨٤].

وقال عمر للمقداد بن الاسود الكندي: «اذا وضعتموني في حفرتي، فاجمع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم»[٨٥]. ثم قال عروة بن الزبير: «ولما دفن عمر جمع المقداد بن الاسود اهل الشورى في بيت عائشة، باذنها، وهم خمسة معهم ابن عمر وطلحة غائب وامروا ابو طلحة فحجبهم»[٨٦].

كانت وفاة المقداد بن الاسود عام ٣٣ هجري وكان عمره سبعين سنة. لم يكن المقداد في آخر حياته، متقشفاً زاهداً مثل سلمان الفارسي وابو ذر الغفاري، ولكن كان ورعاً تقياً اشتهر بشجاعته واقدامه ويمثل عند الموحدين الدروز الشجاعة والفروسية وهي صفات يقدسونها.

---

(٨٢) عبد الرحمن بن عوف من بني زهرة من صميم قريش ومنهم القائد سعد بن ابي وقاص.

(٨٣) عروة ابن الزبير هو ابن الصحابي الكبير الزبير بن العوام ابن صفية بنت عبد المطلب عمة النبي محمد، وام عروة اسماء بنت ابي بكر الصديق واخت عائشة زوجة الرسول. كتب عروة «سيرة الرسول» التي تعتبر اول سيرة في الاسلام، خاصة ان عروة من معاصري عهد الرسول واستند الى اقوال خالته عائشة.

(٨٤) كتاب اول سيرة في الاسلام، سلوى مرسي الطاهر، ص ٣٢٠ .

(٨٥) المصدر السابق، ص ٣٢٠ .

(٨٦) المصدر السابق، ص ٣٢١ .

عمّار بن ياسر ابوه ياسر بن عامر عنسي مذحجي قحطاني من اليمن. ولد عمّار في حي بني مخزوم، اكبر عائلة في قريش، كان لهم في الجاهلية راية الحرب ويقررون الوقت والمكان ويقودون جيش قريش. ومن بني مخزوم كان الطاغية أبو الحكم والقائد العربي الكبير خالد بن الوليد المغيرة الذي اشتهر في حروبه مع الفرس والروم وحرب الردة، وكذلك عرف منهم الشاعر الغزلي عمر بن ابي ربيعة.

وكانت مكة في ذلك الزمن ملاذاً لليمانيين يأتونها لأن فيها رخاء ورغدة عيش وفيها امان من الغزو واعتداء القبائل لقوة جيشها وشجاعة اهلها. وفي مكة التحق ياسر اليمني والد عمّار، بخدمة ابي حذيفة سيد مخزوم الذي كان كريماً وذا مهابة عند القرشيين، والذي عطف على مخدومه الوفي النشيط وزوجه سمية بنت الخياط، احسن الاماء عنده، بعد ان اعتقها، فأصبح اولادها موالي وليسوا من الرقيق ولكن ياسر زوجها بقي رقيقاً للزعيم المخزومي ابي حذيفة.

توفي ابو حذيفة واستلم زعامة مخزوم أبو الحكم ابو جهل هشام وكان ظالماً قاسياً لا يعرف الرحمة ولا الشفقة.

ابتدأت دعوة النبي محمد الى الاسلام فالتحق ياسر بن عامر اليمني به كغيره من الموالي الذين وجدوا في هذه الدعوة الخلاص من حرمانهم وعبوديتهم.

وجرت حادثة ضرب ابي جهل زعيم مخزوم من فارس قريش وعم النبي، حمزة بن عبد المطلب اذ اتى من اخبره ان ابا جهل يشتم الرسول ويتهدده. دخل حمزة بن عبد المطلب الكعبة حيث ابو جهل فضربه بالقوس حتى شج رأسه وهدده بالمزيد اذا تعرض للنبي في المستقبل.

هاجت مخزوم، لان ابا جهل كان زعيمها واهين امام حشد من الناس، وقرروا الانتقام من حمزة بن عبد المطلب، ولكن ابا خالد الوليد بن المغيرة، الذي كان من عقلاء مخزوم ولم يكن راضياً عن ظلم وتعذيب ابي جهل للعبيد والموالي، اقعدهم لان الاصطدام مع حمزة بن عبد المطلب يعني الحرب مع بني هاشم له نتائج وخيمة قد يجر الى حرب مجهولة النتائج.

ذهب عمّار بن ياسر مع زيد بن حارثة، مولى النبي، ليريا ما خبر ضرب حمزة

ابن عبد المطلب لابي جهل، فلما رآه ابو جهل شتمه وامر غلمانه بضربه فكانت هذه اول معاناة لعمّار بن ياسر من ابي جهل.

تحول غضب ابي جهل من اهانة حمزة بن عبد المطلب له الى حب الانتقام من ياسر، والد عمّار، وزوجته سمية، اخذهما عبيد ابي جهل وضربوهما بالسياط ووضعوا الاحجار على صدورهما، ثم تناول ابو جهل حربة أغمدها في صدر سمية ورفس ياسر حتى ماتا فكانا طليعة الشهداء في الاسلام.

بعد مقتل والديه هرب عمّار بن ياسر من ابي جهل وهاجر الى الحبشة، ومنها الى المدينة، حيث التحق برسول الله ونزل ضيفاً على الانصاري بشر بن عبد المنذر.

هاجر عمّار بن ياسر الهجرتين وشهد بدر وأُحد والخندق، ثم اشترك مع خالد ابن الوليد في حرب الردة وفي هذه الحروب اظهر شجاعة واقداماً.

اسر خالد بن الوليد رجلاً كان اسلم عن يد عمّار بن ياسر واراد قتله. اعترض عمّار وتنازع مع خالد حتى تشاتما. فلما قدما المدينة اجتمعا عند رسول الله، فقال خالد: «يا رسول الله ايشتمني هذا العبد!.. اما والله لولاك لما شتمني! فقال رسول الله: «كف يا خالد عن عمّار، فانه من يبغض عمّار ليبغضه الله». كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب ابن العديم، ص ٣١٤٧ .

عيّنه عمر بن الخطّاب اميراً على الكوفة وجعل معه عبدالله بن مسعود وزيراً للمال، وعثمان بن حنيف وزيراً على سواد الكوفة وبساتينها، وهذه الامارة لم تزده الاّ تواضعاً وخشوعاً وزهداً.

عزله عمر بن الخطّاب عن امارة الكوفة لانه رفض في المساجد الخطبة لانها تأييد لامير المؤمنين والدعاء له وقال: «ان المسجد هو للدعاء لله وليس الدعاء لعمر». اوقف الخطبة واستعاض عنها بقراءة القرآن الكريم، كما اننا نعلم ان عمّار كان من اتباع علي بن ابي طالب، وكان يقول، «ان مبايعته لعمر كانت قسراً وليست طوعاً».

كان عمّار يرافق رسول الله مثل ظله، حتى قيل، اذا اردت ان تعرف اين الرسول ابحث عن عمّار بن ياسر.

كان لعمّار حظوة كبيرة عند النبي الذي غضب غضباً شديداً على عثمان بن عفان، وهو رفيقه وزوج ابنتيه رقية وام كلثوم، عندما بلغه انّه قال لعمّار: «سمعت ما

تقول يا ابن سمية، والله اني لاراني ساعرض هذه العصا لانفك ايها العبد». قيل ان سبب ذلك كان قول عمّار شعراً تهكم به على عثمان.

هاجم عمّار بن ياسر الخليفة عثمان بن عفان وانتقده، ووجه تهم الفساد لعمّاله واقاربه. ارسل مع الزبير بن العوام رسالة شديدة اللهجة وبها طلب مقابلة عثمان برفقة الزبير وطلحة بن عبيدالله والمقداد بن الاسود وسعد بن ابي وقّاص. في اليوم الذي قبل عثمان ان يجتمع بهم تخلف الجميع وحضر الاجتماع عمّار بمفرده، اما عثمان فلم يحضر بل ارسل مندوباً عنه.

حدث شجار مع مندوب عثمان بن عفان، وضرب الجند عمّار حتى غشي عليه، فرمي بالطريق، فأخذه بعض الناس الى ام المؤمنين ام سلمة التي اعتنت به. وأتت ام المؤمنين ام سلمة، عثمان بن عفان وأنبته بقسوة امام جمع من الناس لضربه عمّار. اعتذر عثمان عن الحادثة وانكر انه امر بضرب عمّار بل ذلك كان من فعل أمر الجند.

اما البلاذري فتختلف روايته اذ يقول: «ذات يوم بأن عثمان اخذ من جوهر كان في بيت المال فخلّى به بعض اهله، فغضب الناس لذلك ولاموا عثمان فيه حتى اغضبوه، فخطب فقال: «لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وان رغمت انوف اقوام» فقال له علي اذن تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه. وقال عمّار بن ياسر: اشهد الله ان انفي راغم من ذلك. فقال عثمان: اعليّ يا ابن المتكأ تجترىء؟ خذوه فأخذ، دخل عثمان فدعا به فضربه حتى غشي عليه»(*). ثم اخرج محمولاً حتى اتى به منزل ام سلمة زوج النبي.

اشترك عمّار مع علي بن ابي طالب في معركة الجمل، وقلنا سابقاً وقيل انه شتم عبدالله بن المقداد لقتاله مع عائشة ام المؤمنين وهدده بالقتل.

وشارك في معركة صفين، بالرغم من انه كان له من العمر اثنان وتسعون سنة، وابلى بلاء حسناً، حتى تمكن من قتله ابو الغادية الجهني بمساعدة فارسين، فتصايح الناس «ويلك يا كافر قتلت ابا يقظان» وكان ذلك عام ٣٧ هجري.

ومن اقوال رسول الله الكريم في عمّار بن ياسر. «ان عمّار مليء ايماناً الى

(*) كتاب انساب الاشراف، ص ٤٨ .

اخمص قدميه». وقال «من يعادي عمّار يعاده الله ومن يبغض عمّار يبغضه الله» وقال واذا اختلف الناس عليكم بابن سمية، فانه لن يفارق الحق حتى يموت. وكانت جملته المشهورة «ويحك يا عمّار تقتلك الفئة الباغية».

الفيلسوف هرمس

يقول الامام حمزة بن علي بن احمد في سجل المجتبي عند تعيين القائد الفاطمي اسماعيل التميمي، في مرتبته الدينية، «هو اخنوخ الاوان وادريس الزمان، هرمس الهرامسة».

اما الصابئة – المندائيون –[1] الذين اعتمدوا في معتقداتهم فلسفة هرمس وكانوا سبب ذيوعها قبل وبعد انتشار الاسلام، فيقولون: «ان اسم هرمس ورد في كتبهم الدينية – الف سر شيالة وحرّان كوتيا – وهو «انش اثرا»، و «انش» تعني الكائن البشري «واثرا تعني كائناً سماوياً»، اي روح من الارواح السماوية».

«كما ان اسمه ورد في التراث اليهودي، اخنوخ بن يارد الذي يشغل الموقع الخامس من سفر التكوين حيث يشار ان «اخنوخ» عاش ٣٦٥ عاماً وانه لم يمت انما سار «اخنوخ» مع الله ولم يوجد لان الله اخذه، وان «اخنوخ» كان الوسيط الذي حمل الى البشرية اسرار السماء واسرار الكون[2].

اما في مصر واليونان فيطلقون عليه اسم هرمس الهرامسة، اي حكيم الحكماء،

---

(١) الصابئة قوم انفصلوا عن اليهودية وسكنوا شرق الاردن واتبعوا يوحنا المعمدان – يحيى بن زكريا – وكانوا يؤمنون بالعمادة كسبيل للطهارة وازالة النجس والاثام، وينظرون الى الماء نظرة شبه مقدسة ويستعملونها بكثرة حتى اطلق عليهم العرب اسم «المغتسلة». بعد ان دمّر الروم القدس عام ٦٦م نزح المندائيون – الصابئة – الى العراق وسكنوا «ميسان» جنوبي بابل ثم نزح قسم منهم الى بلدة «حران» حيث ان لهم مدارس علموا بها الفلسفة اليونانية وفلسفة هرمس، نتيجة تزمتهم واغلاق عقائدهم الاّ لقلة من الناس واتباع السرية الصارمة على كتبهم والسماح لقلة الاطلاع عليها وكذلك رفضوا التطور العلمي والفكري فتقلّصت هذه الدعوة، التي كانت مزدهرة في العهدين الاموي والعباسي واصبح الصابئة اليوم قلة متناثرة في بلاد الشرق واميركا ويمكن القول انها اندثرت كلياً.

تقول الصابئة ان الله هو النور الاعلى والنور هو الخير الالهي، والظلام هو اصل الفساد والشر.

(٢) The Jewish Encyclopedia of Religion. «Enoch»

وفي القرآن الكريم ورد اسمه ادريس. يقول المؤرخون المسلمون، ان ادريس، اي هرمس، علم الناس العلوم الدينية وكان يدعو الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنه كان عنده اسرار الحكمة وعلم النجوم وكان يقول «ان الله هو النور الاول والازلي في الافلاك».

لم يعرف مكان مولده ونشأته، فبعض المؤرخين يقول انه ولد في بابل ثم انتقل الى مصر وبعضهم يقول انه ولد في مصر، ولاحقاً، كان له اتباع في الاسكندرية. اما المفكر الصابئي، عزيز سباهي، فيربط بين هرمس وبين احد ملوك هومر البابلي الذي ورد ذكره في قائمة ملوكهم لما قبل الطوفان، ويقول «ان الدراسات الاحدث ترى ان صورته قد صيغت على طراز حكماء، ابا كالو - الذين علموا البشر الحكمة والفنون المدنية قبل الطوفان، كما تروي الاساطير[٣].

وتقول الدكتورة نجلا ابو عز الدين: «هرمس المثلث العظمة هو الاسم اليوناني للإله المصري القديم تحوت (Thoth) مخترع الكتابة وكافة العلوم والفنون وكانت رسالة الهرمسية، ان الله الذي لا يدرك عن طريق العقل والحس يرقى الى معرفته القلب النقي المنسلخ عن هذا العالم، اي ان كنه الاسرار الربانية تدرك عن طريق الكشف لا عن طريق المنطق والبرهان وهذا هو العرفان (الغنوص)[٤]».

ثم تقول الدكتورة نجلا ابو عز الدين: «لقد دخل هرمس دار الاسلام على انه ادريس - اخنوخ الذي كان نبياً في زمن ما قبل الطوفان لكنه نبي لم يوح اليه بنص عن طريق ملك. وعن طريق الهرمسية دخل الفكر اليوناني الى الحضارة الاسلامية قبل ان يتسنى لفلسفة ارسطو حق المواطن في هذه الحضارة. وتدعى الفلسفة الهرمسية حكمة لدنية وكان اول من اعتنق الهرمسيات هم من الشيعة»[٥].

يقول الدكتور سامي مكارم: «وهناك، وهو معروف بصيانته الشديدة للاسرار، وهو مكرّم عند الدروز ينظرون اليه بعين التقديس ويجعلونه في مصاف الانبياء الخمسة الذين سبقوا «ماني»[٦].

---

(٣) كتاب اصول الصابئة، ص ١٣٩ .

(٤) كتاب الدروز في التاريخ، ص ١١٣ .

(٥) المصدر نفسه، ص ١١٣ . (فلسفة لدنية اي فلسفة نبوية).

(٦) كتاب اضواء على مسلك التوحيد، ص ١٤٥ .

واشار اليه «جيمس برستيد» قائلا ان «امحوتب»، اي هرمس الهرامسة، قد سبق اخناتون لعبادة «اتوم» وانه محرر العقل البشري من جميع القيود القديمة، وهو الذي بنى اول هرم في مدينة الشمس بالقرب من القاهرة وشاد الهيكل الرائع المدهش فناً وعمارة»(٧).

وابو الفتح الشهرستاني يقول عن هرمس «المحمودة اثاره، المرضية اقواله وافعاله الذي يعد من الانبياء الكبار، ويقال هو ادريس النبي، عليه السلام وهو الذي وضع اسامي البروج والكواكب السيارة رتبها في بيوتها»(٨).

ويقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان: «الفلسفة النبوية عند الشيعة، من جهة، قد يتبادر الى ذهننا تلقائيا، الى اي طبقة نبوية ينتمي هرمس؟. فهو لم يكن رسولاً مشرعاً مكلفاً بان يعلن للناس عن شريعة جديدة بل ان دوره في «تاريخ الرسل القدساني» ودور نبي ارسل لكي ينظم الحياة في المدن المتحضرة يعلم اهلها الأمور التقنية والفنية»(٩).

واما الصابئة من اهل «حرّان» الذين كانوا يتوجهون في عبادتهم الى الهياكل السماوية، الافلاك فكانوا ينسبون حكمتهم الى هرمس ويقولون بتقديسه(*). وقال ابو الفتح محمد الشهرستاني: «ان في هرمسية الصابئة عقيدة لا تتفق والاسلام لانها تستطيع الاستغناء عن النبي بالاعتقاد بصعود الروح الى السماء كما كان هرمس يعلم اتباعه، لذلك يبطل الاعتقاد بنزول الملاك ليوحي للنبي بالنص الالهي»(١٠).

---

(٧) كتاب الشرق القديم، ترجمة احمد بدوي، ص ١٤٥ James H. Breasted. Ancient Records of Egypt

(٨) كتاب الملل والنحل، مجلد ٢، ص ٤٥ .

(٩) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ١٩٨ .

(*) كان في حرّان مدرسة كبيرة تعلم الفلسفة ومنها دخلت فلسفة هرمس الى الإسلام.

(١٠) كتاب الملل والنحل، مجلد ٢، ص ٤٥ .

قال الفيلسوف ابو يوسف الكندي: «ان ما كتبه هرمس لابنه، فيما يتعلق بتعالى الله وسنائه، فانه لا يوجد فيلسوف مسلم الاتيان بأفضل ما قاله هرمس»(١١).

الطبيب الشهير الصابئي، ثابت بن قرة (توفي عام ٢٨٨هـ) الذي فسّر انظمة هرمس يقول: «كان هرمس من الرسل الخمسة الكبار الذين سبقوا «ماني»(١٢) ثم انتقل من فلسفة النبوة المانوية الى فلسفة النبوة الاسلامية حيث تمثل بالنبي «ادريس»، في التوراة كان اسمه «اخنوخ».

كان الاسلوب الذي اتبعه هرمس في رسائله، هو الحوار مع ابنه «طاط» فكانت تُعرض تعاليمه في شكل اجوبة وتساؤلات يطرحها الابن في اطار رؤيا معينة يريد هرمس البحث فيها وشرحها.

اما عن الغنوصية الاساسية، اي الغنوصية قبل المسيحية، وهي التقصي عن اصل الكون وسبب وجوده والحياة والقوى التي تتحكم بالطبيعة، والقدرة العقلية للانسان والحياة والموت. ويقول هرمس: «ان الانسان غير قادر على اكتساب المعرفة الالهية التي تنشدها الغنوصية، اي العرفان الالهي، الاّ بواسطة وسيط سماوي يوجهها الى طريق الخلاص، والجانب العملي من الوصول الى هذه المعرفة هي الفروض الدينية وتطهير الفرد الذي يسمح للنفس البشرية تخطي الجواهر الكونية التي تقيمها قوى الظلام امام النفس، والنفس في طريقها نحو السماء تتجرد عن كل شيء غريب حتى تصل الى ملكوت الله وتتحد هناك بالجوهر المقدس وهو العقل الالهي».

---

(١١) هذه الرسالة المهمة موجودة بكاملها في كتاب «الصحف الموسومة بالشريعة الروحانية في علوم اللطيف والبسيط والكثيف، تحت عنوان «شرعة العرفان في علم اللطيف والبسيط لمولانا هرمس الهرامسة»، ذي إمحتبه، من صفحة ٢٠ الى صفحة ١٣٧ . هذا الكتاب اكتشفه المفكر كمال جنبلاط ولكنّ مشايخ الاجاويد يشكّون في مصدره.

(١٢) ماني مؤسس العقيدة المانوية الثنوية ولد عام ٢١٦م في «ميسان» عند المندائيين – الصابئة. كان والده فارسياً واسمه فاتك ماني الذي، انتقل بعائلته من «طيسفون» فارس الى «ميسان» واعتنق المندائية. امضى ماني طفولته في ميسان وظل يتمسك بمعتقداتهم حتى بلغ سن السادسة والعشرين من عمره حين شرع يدعو الى دينه الخاص. لقد تأثر «ماني» بالمندائية وخصوصاً عقيدة النور والظلام.

يعتبر هرمس الانسان مكوناً من عقل ونفس وجسد، العقل والقوة الالهية والجوهر المقدس، والجسد وعاء يفنى بالموت، النفس هي القوة الفاضلة، وفي الوقت نفسه، الشريرة. منها الحب ولها البغضاء. منها الحلم ولها الغضب. منها العفو ولها الانتقام.

يتوجه هرمس، واسمه «ذي إمختبه»، في رسالته الى ابنه «طاط»(١٣) فيقول: «ثم يا نفس اصعدي الى جرم الفلك الذي هو صفو ما تحته والمخصوص بالشرف على سائر الاجرام في تقلباتها، للطافته واشفافه وشدة انواره وحسن نظامه وترتيبه وقربه من الحياة ومجاورته الأشياء الشريفة الحية العاقلة، وتشكله بسيد الاشكال واتمها واضحها الذي هو الشكل الكُريّ المدوّر. ثم، يقول: «والشيء التالي بجوهر النفس والعالي عليها والمحيط بها هو العقل، وبحق إنّه الطف الموجودات واشرفها واعلاها منزلة».

ويقول هرمس: «يا نفس انما رُتبت الدنيا على هذه المعاني المختلفة التي هي خير وشر ونعيم وبؤس وشدة ورخاء تبنيها لك وايقاظاً، ومثالات تعملين عليها لتكسبي بذلك هدياً الى العقل المضيء المنير والعلم التام الثابت الذي هو الحكمة والمعرفة بحقائق الأشياء».

«واعلمي يا نفس، علم اليقين واستمعي استماع المقبلين ولا يغبن عنك ان مهلكات الامور ثلاثة اجناس: اولها كفر الشِرك وسائر انواعه، والظلم وسائر انواعه، والتلذذ وسائر انواعه، وجامع هذه الاجناس، وسائر انواعها كلها اصل واحد، هو حب الدنيا». ويقول المفكر الصابئي عزيز سباهي ان الصابئة يعتمدون فلسفة هرمس في معتقداتهم ويذكرون العديد من رسائله منهم الرسالة المعروفة باسم «بويماندر» (Poimandre) حيث يقول ان الله، الاب الاول للكون هو العقل الذي وجد قبل كل شيء، قبل الطبيعة الرطبة التي ظهرت من الظلام، وان الكلمة المضيئة التي جاءت من العقل الاول هي ابن الله، اي ان ما يبصر ويسمع لدى الانسان هو كلمة الله هذه، اما

(١٣) كتاب الصحف الموسومة بالشريعة الروحانية في علم اللطيف والبسيط والكثيف، من صفحة ٢١ الى صفحة ١٣٧ .

عقل الانسان فهو الله الوالد. ولا ينفصل احدهما عن الآخر، والحياة تتألف من اتحادهما، من العقل ومدركاته. وان هذا العقل يوجد الحياة والنور، وبكلمة مقدسة من العقل الاول وجد الخالق»(١٤).

اضافةً الى ما سبق يقول عزيز سباهي «ويتكرر في الرسائل الاخرى الحديث عن سجن النفس في الجسد والحديث عن الظلام والنور المشع، وعن النعاس، والحذر على الارض، وكيف ان الانسان بعد ان يتشرب بالمعرفة الالهية (Gonosis) لا يعود يبدي اهتماماً للجسد ورغباته، وكيف يغدو غريباً عن العالم المادي، وباكتسابه هذه المعرفة يكون قد اعيد خلقه(١٥).

ومن اقوال الفيلسوف هرمس المعروفة:

- مودة الاخوان ان لا تكون لرجاء منفعة او لدفع مضرة ولكن لصلاح فيه.
- افضل ما في الانسان الخير والعقل، واجدر الاشياء العمل الصالح الذي لا يندم عليه صاحبه، واظلم الظلمات الجهل.
- من افضل البر ثلاثة: الصدق في الغضب، والجود في العسرة والعفو عند المقدرة.
- الفصل بين العاقل والجاهل، العاقل منطقه له والجاهل منطقه عليه.
- الاستحقاق بالموت احد فضائل النفس.
- احمد الاشياء عند اهل السماء والأرض، لسان صادق ناطق بالعدل والحكمة والحق في الجماعة.
- من كان دينه الرحمة والكف عن الاذى فدينه دين الله.

---

(١٤) كتاب اصول الصابئة، ص ١٦٨ . ان هذا الكتاب القيم احسن ما كتب عن الصابئة، فيه جميع التفاصيل التاريخية والفكرية عن هذه الفرقة.

(١٥) المصدر نفسه، ص ١٧٠ .

الامير السيد عبدالله التنوخي

الولي الموحد الامير السيد عبدالله بن سليمان ولد الامير بدر الدين محمد التنوخي. ولد في بلدة عبيه في ناحية الغرب في لبنان، في الثاني عشر من ربيع الاول عام ٨٢٠هـ، وتوفي في جمادى الآخرة عام ٨٨٤هـ، ودفن في عبيه حيث له مقام يزوره الموحدون الدروز وغيرهم طلبا للبركة والشفاعة.

التنوخيون، جدود الامير السيد عبدالله، حلف من بعض القبائل اليمنية، كالازد، وكهلان وقضاعة ونمارة بن لخم. اجتمعوا في البحرين (الاحاء) في مكان كانت تنوخ به الابل[١] وتعاهدوا على ان يكونوا يداً واحدة ينصرون من ينصرهم ويعادون من يعاديهم.

هاجرت هذه القبائل وسكنت غربي الفرات في جوار الحيرة، حيث كان لها اليد الطولى في قيام مملكة الحيرة، وانشأت علاقات مع بعض القبائل العربية التي كانت هاجرت من الجزيرة العربية وسكنت بلاد الشام.

ويقول احمد اليعقوبي «صاروا يداً واحدةً في الناس وضمَّهم اسم تنوخ، فكانوا بذلك الاسم كأنهم عمارة من العمائر وقبيلة من القبائل»[٢].

وقال ابن جرير الطبري: «كره كثير من تنوخ ان يدينوا للفرس فهاجروا الى الشام وانضموا من هنالك الى قضاعة»[٣]. والارجح انهم كانوا على دين النصرانية.

---

(١) كان هذا سبب لقبهم بالتنوخيين، يقول القلقشندي، كتاب نهاية الارب في معرفة انساب العرب، ص ١٨٩ . هم حي من اليمن يعني من القحطانية. سموا تنوخيين لانهم حلفوا على المقام بمكان في الشام، والتتنخ المقام.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ص ٣٣١ .

(٣) كتاب الامم والملوك، مجلد ١، ص ٥٩ .

وفي موقعة دومة جندل، قاتل التنوخيون مع حلفائهم من قبائل بهراء[٤] وكلب وغسان مع الروم، الجيش المسلم بقيادة خالد بن الوليد الذي هزمهم. بعد هذه المعركة اتصل التنوخيون بالقائد ابو عبيدة عامر بن الجرّاح وقالوا «حاربنا مع الروم رغماً منا، نحن عرب ونريد نصرة المسلمين». عفا عنهم ابو عبيدة واعتنق قسم منهم الاسلام وانضموا الى جيش خالد بن الوليد.

سكن التنوخيون معرة النعمان واللاّذقية باعداد كبيرة، ثم نزح قسم منهم الى بلاد الشام حيث استوطنوا منطقة الغرب في لبنان وكان منهم، في معرة النعمان، المفكر والشاعر الكبير ابو العلاء المعري[٥].

اما عن القدوم التنوخي الى لبنان، فيقول بعض المؤرخين ان الخليفة الاموي معاوية بن ابي سفيان (٤١ - ٦٠هـ) نقل من البصرة والكوفة مجموعات من الفرس الى الساحل اللبناني، اي طرابلس، جبيل، بيروت وصيدا لحماية هذه الثغور من هجمات البيزنطيين البحرية. ويؤيد هذه الرواية المؤرخ التنوخي صالح بن يحيى اذ يقول: «لما استخلف ابو عبيدة يزيد بن ابي سفيان على دمشق، سار يزيد الى صيدا وبيروت وعرقه وعلى مقدمته اخوه معاوية ففتحها فتحاً يسيراً». ثم يقول: «ثم غلب الروم على هذه السواحل في آخر خلافة عمر واول خلافة عثمان، رضي الله عنهما، ففتحها معاوية ثم رمّها وشحنها بالمقاتلة»[٦].

معظم المؤرخين يقولون ان الخليفة العباسي ابا جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ) ارسل جيشاً عام ١٤١هـ لحماية هذه الثغور بعد ان حصّنها وبنى ما احتاج من الحصون وانزلها المقاتلة[٧].

---

(٤) البهراء هي بطن من قضاعة منها الصحابي المعروف المقداد بن الاسود بن عمرو البهرائي وهو فارس الاسلام المشهور.

(٥) كان الاديب الكبير مارون عبود يقول ان ابا العلاء المعري اعتنق مذهب التوحيد. الواقع ان ابا العلاء كان اسماعيلي المذهب يقول بامامة العقل حتى تقديسه كالموحدين الدروز. من شعره في العقل.

كذب الناس لا امام سوى العقل ... مشيراً في صبحه والمساء

ايها الغر إن خصصت بعقل ... فاسألنه فكل عقل نبي

(٦) كتاب تاريخ بيروت، ص ١٢ .

(٧) كتاب فتوح البلدان احمد بن علي البلاذري، ص ١٦٧ .

يقول نديم نايف حمزة: «في حدود عام ١٤١هـ قدمت من معرة النعمان دفعة تنوخية الى المناطق الجبلية المحاذية لبيروت بامر من ابي جعفر المنصور. ويذكر السجل الارسلاني، ان هذه الدفعة كانت بزعامة الامير منذر بن مالك بن بركات بن منذر التنوخي»[٨].

ويقول طنوس الشدياق: «ان دفعة من التنوخيين قدمت عام ٢٠٥هـ الى جبل لبنان وانها كانت من عشر طوائف، منهم بنو فوارس، وهلال، وعبدالله، وخضر وعزّام وغيرهم»[٩]. ويقول اليعقوبي: «ان الهجرة التنوخية في بلاد الشام الى جبال وساحل لبنان استمرت طيلة القرن الثالث للهجرة».

سيرة الامير السيد عبدالله التنوخي (٨٢٠ - ٨٨٤هـ)، سيرة ولي تقي، زاهد عن الدنيا، منقطع الى عبادة الله تعالى، يعمل لصالح عباد الله وتعليمهم وارشادهم. وتصفه الدكتورة نجلا ابو عز الدين بقولها: «نال الامير السيد الاوصاف التي عرف بها، فهو ينبوع الخيرات، ومعدن البركات، العالم، العامل التقي المفيد الزاهد العابد العارف بالله الربّاني»[١٠]. نشأ يتيماً، تلقى العلم في حداثته، وقيل انه حفظ القرآن غيباً وكان يتلوه عن ظهر قلب.

ويصف الامير السيد عبدالله، حمزة ابن احمد بن سباط «كان قوي البدن صحيح النظام، يديم الجلوس والتمام، كثير اليقظة، عذب المنطق، فصيح اللسان، خفيف الخطرة، متمهل الاعتدال، وقوراً في مجالسه، ثابتاً في مواقفه، قليل الكلام في غير الحكمة، لا يرى بهجة الاّ لربه، ولا يتبدل مسعاه الاّ لقربه»[١١].

ويقول حمزة بن سباط: «ثم جمع الشروحات والتفاسير في تفسير القرآن العزيز المكرم الشريف، وجمع كتب اللغة العربية مثل كتب «الصحاح» للجوهري، ثم جهز

---

(٨) كتاب التنوخيون، ص ٢٥ .

(٩) كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان، ص ١٥٤ .

(١٠) كتاب الدروز في التاريخ، ص ٢٢٨ .

(١١) كتاب الدروز في آخر عهد المماليك، تحقيق الدكتورة نائلة تقي الدين قائدبيه، ص ٦٩ .

الى الديار المصرية بسبب كتب الحكم وكذلك القاموس، وغالب الكتب اللغوية، حصلها وجمعها، وكذلك سير الملوك واخبار الانبياء وكتب التواريخ ودواوين الشعر والاخبار النبوية، والكتب الفلسفية وكتب علم الفقه على المذاهب»[١٢]. وقيل كان في خزانته ثلاثمائة واربعون مجلداً.

كان ينهى عن الوقوف بابواب الحكّام، وعن التماس العطاء او العون منهم، كان ينهى الناس عن المحذورات وينصحهم بعمل الخير وكان يقول «الحظ والعلم دليلك، والورع مشيرك والحلم وزيرك».

بعد نزوح الموحدين من مصر، وكانوا قلة، استقروا في بلاد الشام، والتزموا الستر والتقيّة، خوفاً من اضطهاد الفاطميين وغلاة الاسماعيلية، دون اي خاصية تميزهم. بالاضافة، كانت رسائل وكتب الحكمة غير متوفرة لديهم، ويمكن القول ان الدعوة التوحيدية مرّت بمرحلة من التشتت والفوضى والضياع من وقت المحنة، اي عام ٤١١هـ حتى زمن الامير السيد عبدالله، اي اوائل القرن التاسع هجري.

اخذ الامير السيد عبدالله رسائل الحكمة، التي كادت ان تضيع جميعها، من شيخ العقل المعاصر للامير السيد، الحفيد الخامس للامير عيسى التنوخي اول شيخ عقل للطائفة الدرزية وكانت ١٠٧ رسالة.

مما يلفت النظر، انه خلال الاربعمائة سنة التي امتدت من المحنة وتشرد الموحدين وتشتتهم، حتى عهد الامير السيد عبدالله ابتعد الموحدون عن الجو العلمي والتطور الحضاري الذي كان منفتحاً في مصر خلال العهد الفاطمي، كما ابتعدوا عن مراكز التثقيف والتعليم، فزال ارتباطهم بالتقدم العلمي الديني والفكري وحل مكانه الزهد والتقشف والتفرد فابتعدوا عن التقدم والتطوّر وطغت عليهم روح التصوف.

يعتبر الامير السيد عبدالله بحق، محيي المذهب التوحيدي الدرزي بعد ان كاد يندثر ويزول نتيجة الجهل وعدم الاطلاع على الرسائل، او تفسير ما بقي منها، فانبرى، بكل قوته وجهده، الى ترتيب القواعد وشرح النصوص ووضع قواعد السلوك، وبجهده وعمله المتواصل، اصبح لمذهب التوحيد هوية فرقة متميزة لها قواعدها الدينية المسلكية وكتبها التي تحدد معتقداتها الروحانية.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٧١ .

قبل جهد الامير السيد وترتيبه للدعوة التوحيدية، كان الموحدون الدروز جمعات صوفية منتشرة بين المذاهب والفرق الاسلامية، دون اي خاصة تميزهم او عقائد تجمعهم، ولهذا لم يشر اليهم المؤرخون المسلمون كفرقة او مذهب، فقد كانوا متصوفة كباقي اهل التصوف في ذلك الزمن ويقال، وهذا حق واضح لا يقبل الجدل، لولا جهود واخلاص الامير السيد عبدالله، لكان اندثر المذهب الدرزي وصار الموحدون فرقة صوفية.

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «في زمان الامير السيد، حاول هذا الامير ان يضبط المخطوطات ويرتب الرسائل ويوقف الفوضى ويعيد التوحيد الى ينابيعه واصوله الحقيقية، فوفّق الى حد ما مع ان الامر قد بلغ مدى بعيداً، فلم يعد باستطاعته ان يتمم هذا العمل بمفرده حتى نهايته، ولكن وضع حجر الاساس بادراجه للسجل المعلق في اول الرسائل معتبراً اياه نقطة الارتكاز والقاعدة التي بموجبها تتم قراءة باقي الرسائل قراءة تسمح بمعرفة النصوص الاصلية من النصوص الدخيلة»[١٣].

ويقول الدكتور انور فؤاد ابي خزام: «ان شروح الامير السيد هي بداية الاجتهاد التوحيدي ونهايته حتى الآن[١٤] وتشكل اعمال الامير السيد المحاولة الاولى والمحاولة الاكبر لبناء عقيدة مذهبية تامة ترتكز على اتساق فكرية مترابطة، وسلاسل من النظريات الفقهية المتجانسة، وقواعد سلوكية، وشروط خلفية، تستمد من آيات القرآن الكريم، ونصوص رسائل الحكمة في الدرجة الاولى. كما تستند الى الاحاديث النبوية الشريفة والكتب المقدسة (التوراة والانجيل) احياناً. ونقول عن هذه الاعمال انها بداية الاجتهاد التوحيدي ونهايته، لأن كل المؤلفات التي وضعها المجتهدون الدروز، الذين اعقبوا الامير السيد، كانت في جوهرها دوراناً في فلكه»[١٥].

---

(١٣) كتاب مذاهب المسلمين، مجلد ٢، ص ٥٤٩ .

(١٤) إن شروح الامير السيد عبدالله (شرح الاصول التوحيدية) لم تتناول الاّ ثلاث رسائل ولكنها شكلت مسحاً شاملاً تقريباً لرسائل الحكمة كلها.

(١٥) كتاب اسلام الموحدين، ص ٩٢ .

حاول الامير السيد عبدالله ان يجعل لمذهب التوحيد اساساً متيناً يرتكز عليه فيكون فرقة اسلامية تحوي افكاراً متقدمة تتوافق مع الواقع الديني الذي كان يعتنقه معظم الناس ومسيطراً على اكثر البلاد الاسلامية، ولهذا يقول «واسلمت الى الله نفسي وسلكت منهج السنة وقصدت الصراط المستقيم الى لقاء ربي»(١٦).

ويقول بعض المؤرخين، ان الامير السيد عمّر المساجد والجوامع والمدارس في القرى واوقف كثيراً من املاكه في سبيل الخير. كما انه اوصى لجيرانه المسيحيين من آل سركيس بقسم من املاكه، كما كان يبعث الى كل قرية، يوم الجمعة، مشايخ من الفقهاء حيث يقيمون الصلاة الجامعة.

عرف الامير السيد عبدالله ان الرسائل التي بحوزته غير كاملة ولا تشمل كامل المذهب التوحيدي، فأرسل الى مصر الشيخ ابو علي مرعي زهر الدين من قرية الفساقين، وهي قرية من عبيه، كي يأتيه بجميع الرسائل التوحيدية كي يضمها الى رسائل الحكمة، ولكن الشيخ ابو علي لم يتمكن من جلب الا «السجل الذي وجد معلقاً على المشاهد في غيبة مولانا الحاكم» والسجل «المنهي عن الخمر» وهذا كتبه عام ٤٠٠هـ ابو منصور بن سيرين، مدير مكتب الانشاء عند الحاكم بامر الله، وسجل «خبر اليهود والنصارى» ونسخة عن رسالة القرمطي الى الحاكم بامر الله. فضمها الامير السيد الى الرسائل الموجودة بحوزته فأصبح المجموع ١١١ رسالة(*).

الموحدون الدروز ينظرون باحترام كبير، حتى بقدسية، الى تعاليم وفروض وشروح الامير السيد عبدالله، ولكن لا يتقيّدون بها جميعاً، وعلى سبيل المثال، الامير

---

(١٦) شرح الاصول التوحيدية، ص ٤٦٤ .

(*) مما يلفت النظر ان جلّ ما كتب عن عقيدة التوحيد الدرزية، عدا رسائل الحكمة، كان خلال او بعد زمن الامير السيد عبدالله. قبل زمن الامير السيد عبدالله، اي في عام ٤١١هـ، وقت الغيبة، حتى وفاة الامير السيد، وذلك في منتصف القرن التاسع هجري، اي خلال اربعمائة سنة، لم يكتب عن عقيدة التوحيد، او حتى لم تذكر في كتب التاريخ. اربعمائة سنة من الاختفاء الكامل والغموض الشامل.

السيد يقول ان على الموحد ان يتزيا بالزي المألوف للمجتمع الذي يعيش فيه كي لا يتميز عن غيره من الناس، ولكن يظهر ان تعلق المشايخ الاجاويد بالصوفية غلب على هذا الاجتهاد، فهم لا يقبلون في صفوفهم الاّ من ارتدى هذا الزي الصوفي بصورة دائمة، مما جعل الكثير من الموحدين الدروز لا ينخرط، في سلك المشايخ، لان نسق حياتهم وطرق معيشتهم واعمالهم واختلاطهم بالناس لا تسمح لهم بارتداء لباس متميز عن لباس الجميع.

اشاع بعض المفسدين والرجعيين من اهل الحسد والبغضاء ان الامير السيد عبدالله يشدد على العلم بمذاهب غير توحيدية لا يقرها الدين ولم يتكلم العلماء الاوائل فيها، وانه شديد العناد متصلّب في رأيه يرفض المشورة ويأنف من البحث معهم لتصحيح هذه الامور التي تتنافى مع معتقداتهم.

غضب الامير السيد عبدالله من هذه الاشاعات الفاسدة فهاجر الى دمشق حيث بقي اثنتي عشرة سنة يدرس ويبحث مع كبار العلماء في الدين والفقه والفلسفة وعلوم اللغة والتاريخ.

قبل ان يرجع من دمشق الى بلدته عبيه، وذلك تجاوباً مع الرسائل الكثيرة والوفود التي اتت دمشق طالبة رجوعه، وضع شروطاً في سجل قبله الجميع وقوفاً احتراماً له ودليلاً على قبولهم هذه الشروط بحذافيرها. كانت مطالبيه:

١ – دراسة القرآن في جميع المدارس.

٢ – حث الناس على مجاراة الكثرة فيما يرغبونه وقبول قراراتها.

٣ – منع النساء المناداة على الاموات والنحيب ورفع اصواتهن والمشي في الجنازة.

٤ – تعليم البنات وفتح المدارس في القرى.

رزق الامير السيد ثلاثة اولاد توفوا جميعاً في حياته، وكان اخرهم عبد الخالق الذي مات من رفسة بغل ليلة الاحتفال بعرسه، فكتم الامر على المحتفلين حتى انتهاء حفلة العرس ثم اعلمهم آخر الامر وارتجل خطبة قال فيها: «سبحان الله والحمد لله، لا حول ولا قوة الاّ بالله. له البقاء الدائم وهو العالم الحاكم، هو الواهب والآخذ وامره الحازم والنافذ. فله الحمد على ما اولى والشكر على ما ابلى، اعطى ومنح وتكرم

واوسع. منه الامتنان وعليه التكلان واليه الايمان. هو العظيم الجليل، وانا القليل الذليل الواقف بباب الرحمة الطالب من الكريم مزيد النعمة»(١٧).

ومن اقوال الامير السيد عبدالله:

– الفروض على الانسان كثيرة ولكن اولها المعرفة لانها قاعدة الدين، واول الديانة بالله معرفته.

– اللسان ابو الكبائر والكاسر الذي لا ينفع كسره شد الجبائر، وآفة اللسان هي الكذب، فيجب على العبد ان يحفظه من الكذب، كذلك يجب اعتزال الرجل الكذّاب والتبرؤ منه. وما تحلى اللسان ولا الانسان بمثل الصدق. وقال الله تعالى: «يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصدقين»(١٨).

ويقول الامير السيد عبدالله بوجوب حفظ اللسان من الوعود الكاذبة، لان اخلاف الوعد ضرب من الكذب ايضاً. كما يشدد على وجوب تجنيبه «الزور والبهتان والغيبة والنميمة والهزل والمزاح والهذر والهذيان والاستهزاء والمضحكات والمساخر والشتم والفواحش باجمعها»(١٩).

ويقول: «ان العين تستعمل للاعتبار في حكمة الله وقدرته وعليه ان يصونها ويحميها من النظر الى الخيانة، كما يجب عليه تذكر حضور باريه عند النظر لاي شيء ويعلم ان الله مطلع على سره».

«اما الاذن فيجب استعمالها في سماع حكمة الباري وعلى الانسان ان يجعل العقل فاصلاً بين القلب والاذن. خلقت الاذن لتسمع به كلام الله سبحانه وحكمه».

ويقول: «يجب حفظ اليد عن تناول مال الحرام او اذية احد من الخلق او كتابة ما لا يجوز النطق به».

– «اما الرجل فيجب التجنب السعي بها في غير مرضاة الله، واحفظها عن ان تمشي بها الى حرام او تسعى بها الى باب سلطان».

(١٧) كتاب تاريخ الدروز في آخر عهد المماليك، حمزة بن احمد سباط، ص ٦٥ .

(١٨) سورة التوبة، آية ١١٩ .

(١٩) شرح الاصول التوحيدية، ص ١٥٢ . كتاب اسلام الموحدين، الدكتور انور فؤاد ابي خزام، ص ٢٣٤ .

- «الزوجة ان تكون من اهل التوحيد وان تكون راضية بزوجها، وعلى الزوج ان ينصفها ويساويها بنفسه»..

وفي كتاب «الموحدون الدروز في الاسلام» تأليف الشيخ مرسل نصر، اقوال كثيرة للامير السيد عبدالله منها:

صفحة ١٢٦ . «اعلموا ان الله خلق الملائكة عقلاً بلا شهوة. وخلق الحيوان شهوة بلا عقل. وخلق الانسان من شهوة وعقل. فمن غلب عقله لشهوته فهو افضل من الملائكة. ومن غلبت شهوته عقله، كان شر من الحيوان».

صفحة ١٢٧ . «انزعوا من اعناقكم قلائد الفخر والتكبر، والزموها سبيل الحلم والتواضع وسلوك نهج التدبير. واعلموا ان المكافأة على القبائح والمناظرة في الشرور والمكائد هي مولود الجهل، والجهل مولود الكبر، والكبر بدعة ابليس، والعفو عن المكائد والكف عن الاذى واحتمال المكاره هي مولود الحلم، والحلم مولود العلم، والعلم نتيجة العقل، والعقل خزانة العبادة، والعبادة فرض الله».

يقع مقام الأمير السيد عبدالله في قرية عبيه، يؤمه الدروز وكذلك بعض المسيحيين، الذين يعتقدون بقدسيته وطهارته ويطلبون شفاعته وبركته. لسوء الحظ، خلال الأحداث اللبنانية الأخيرة والمشؤومة، دمرت «القوات اللبنانية» هذا المقام المقدس، فكانت نتيجة هذا العمل الاحمق، ان دمرت بعض الكنائس في الجبل.

من مؤلفات الامير السيد عبدالله:

١ - الجوارح السبعة.
٢ - الموسومة بكشف الحقائق.
٣ - شرح الاصول التوحيدية.
٤ - فصول عن امام العارفين وحجة الطالبين ومنهل الواردين.
٥ - نصائح وحكم.
٦ - سياسة الاخبار في شرح كمالات النبي المختار.
٧ - سفينة اللغة.
٨ - رسائل في الحكمة.

ومن المؤسف أن يد السوء عبثت في كتب الولي الأمير السيد عبدالله فدسّت فيها اقوالاً وأكاذيب متناقضة لا يمكن ان تصدر عن عالم تقي ورع كالامير السيد عبدالله. إنّ هذا الدسّ المشين كان في الماضي، ولا يزال حتى يومنا هذا يقوم به اصحاب النفوس المريضة بتعصب ذميم لتشويش حقائق الدعوة التوحيدية وزرع الفتنة بين ابناء الوطن الواحد. اتمنى لو ان احد مفكري الموحدين الدروز يكتب سيرة هذا الولي الكبير بكامل اداتها، ولو كان عند الدروز امام لكان الامير السيد عبدالله امامهم وهاديهم.

الشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين التنوخي

انتقلت عائلة تقي الدين التنوخية من عبيه الى بعقلين في الشوف بعد قدوم المعنيين، بقيادة الامير معن بن ربيعة، الى جبل لبنان، وجعلوا بعقلين عاصمتهم[١].

اشتهرت عائلة تقي الدين بالفقهاء ورجال الدين والادباء والقضاة[٢]. في عهد وجود ابراهيم باشا المصري في لبنان، كان قاضي القضاة الشيخ احمد تقي الدين، وشيخ العقل الشيخ حسن تقي الدين.

ولد الشيخ زين الدين عبد الغفار عام ٩١١هـ. في بعقلين حيث اخذ العلم على يد علماء عائلته. ثم انتقل الى بلدة عبيه التي كانت مركزاً كبيراً يؤمها من يريد درس علوم الدين والفقه، لوجود العلماء والفقهاء فيها. ومن عبيه انتقل الى بلدة كفرمتى حيث صرف اوقاته بالعبادة والدرس وتأليف الكتب، وبقي في كفرمتى حتى توفي عام ٩٦٥هـ، ويقال قتله شخص من آل منذر، وقبر الشيخ زين الدين في كفرمتى يزوره الناس للبركة.

خلف الشيخ زين الدين تراثاً ادبياً ودينياً كبيراً في التفسير وشرح علوم الدين، وتأتي منزلته في هذه العلوم بعد الولي الامير السيد عبدالله التنوخي.

ومن مؤلفات الشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين:

١ - كتاب النقط والدوائر.

ترجم هذا الكتاب الى اللغة الالمانية المفكر «خريستيان فريدرخ سيبلد» مدرس

---

(١) انتقل المعنيون من بعقلين الى دير القمر لحاجتهم الى الماء وعدم توافره في بعقلين.

(٢) في عهد التنوخيين كان القضاء محصوراً في اسرة القاضي التنوخية التي سكنت بلدة بيصور. غلب اسم القاضي على اسم التنوخيين فصاروا يعرفون باسم اسرة القاضي.

الالسن الشرقية في جامعة «توبينغن» في «ڤورتبورغ» عام ١٩٠٢ مع الرسالتين، الموسومة «ببدء الخلق» والموسومة «بكشف الحقائق» من كتاب «ذكر البدعة ومجرى الزمان».

٢ - كتاب مختصر البيان في مجرى الزمان، ترجمه الى اللغة الفرنسية المستشرق الفرنسي «هنري تميز» عام ١٨٦٢م.

٣ - كتاب شرح البدعة.

٤ - كتاب قاموس الحكمة، شرح مفصل لرسائل الحكمة التوحيدية.

٥ - كتاب التذكرة.

ومن المشايخ الاجاويد الذين كتبوا عن العقائد التوحيدية الدرزية هم:

- الشيخ نصرة الدين العيد، كتاب الدرر المضيئة واللمع النورانية.

- الشيخ محمد مالك الاشرفاني، كتاب «عمدة العارفين في قصص النبيين».

- الشيخ يوسف بن سعيد الكفرقوقي كتاب «درر النحور في التوبة الى الملك الغفور».

- الشيخ محمد ابو هلال، المعروف بالشيخ الفاضل. اشتهر بالورع والتقشف والعلم. له اشعار دينية ولكنه لم يؤلف كتباً.

- الشيخ ابو علي مرعي زهر الدين، تلميذ الامير السيد، كتاب «سيرة العارف بالله الامير السيد جمال الدين عبدالله التنوخي».

- الشيخ يوسف العقيلي، كتاب «خبايا الجواهر».

- الشيخ ابو عز الدين شرف الدين الحلبي، كتاب «شجرة الامامة».

الآن يا مروان

والآن يا مروان هل عرفت من انت؟. والى من تنتمي؟. هذه الدراسة هي تفسير مقتضب لبعض التيارات والمدارس الفكرية الاسلامية وتأثيرها في العقيدة التوحيدية الدرزية، لان مذهب التوحيد، بالرغم من المدة القصيرة التي برز فيها وانتشر خلالها، له جذور فلسفية واصول فكرية اقتبسها من مدارس وتيارات بني عليها هذا المذهب العقائدي منها، الفلسفة اليونانية، اي الافلوطينية المحدثة، وبعض العقائد الاسماعيلية، والحكمة الهندية، واقوال المعتزلة والمسالك الصوفية.

ان هذه الدراسة لم تتطرق الى حقائق مذهب التوحيد كمعتقد ديني، لان المعتقدات المذهبية التوحيدية تكتنفها سرية صارمة وجازمة، فرضها اوائل الموحّدين لحجبها عن العامة، للاعتقاد بأن الحكمة يجب ان تحجب عن غير اهلها.

ان هذا التكتم والسرية هما تراكم اعتقادات اسلامية للحفاظ على العقيدة ومنعها من ان تصل الى من لا يفهمها، فتختلط عليهم حقيقتها، ولكن رجال الدين المسلمين، لم يفرضوا سرية تامة، فالقرآن الكريم، في متناول جميع المسلمين، وغيرهم، وكتب التفسير متيسرة لمن يرغب في الاطلاع على اراء وشروحات اهل العلم والفقه، والمساجد والجوامع مشرعة ابوابها لكل طالب معرفة وراغب في الايمان من المسلمين.

المؤرخة المعروفة الموحدة الدكتورة نجلا ابو عز الدين تقول: «هناك سبب للكتمان اكثر اهمية، وهو الحفاظ على العقيدة كي لا تصل الى الذين لم يتهيأوا لقبولها فيسيؤا تفسيرها ويشوهوا حقيقتها ويختلط عليهم ما يعتقدونه»[1].

وفي سجل تعيين احد كبار الدعاة الاسماعيليين أوصى الخليفة الفاطمي الداعي بان تحفظ الحكمة عن غير اهلها بقدر حرصه على ان لا يمنعها عن مستحقها[2].

---

(١) كتاب الدروز في التاريخ، ص ١٥٠ .

(٢) كتاب صبح الاعشى، القلقشندي، ص ٤٣٦ .

اما اخوان الصفا فيقولون: «انهم لم يكتموا اسرارهم عن الناس خوفاً من سطوة ذوي السلطنة الارضي، ولا حذراً من شغب جمهور العوام، بل ليصونوا الحكمة عن غير اهلها»[٣].

اما الامام جعفر الصادق فيقول: «قضيتنا حق، بل هي حق الحق، انها الظاهر وباطن الظاهر، وباطن الباطن، انها سر، سر امر مستور ابداً، وحسب السر انه سر».

الحفاظ على المعتقدات الدينية والتكتم على عدم البوح بأسرارها، هي من القواعد والتعاليم الاسلامية، ولكن علماء الدين واصحاب الفقه من المسلمين تركوا الباب مفتوحاً للعامة بقولهم، «ليصنوا الحكمة عن غير اهلها». السؤال هو، من لديه العلم الوافي والمعرفة الحقة كي يقرر من هم، «غير اهل الحكمة» كي يمنعها عنهم.

هذا التكتم يحرم الناشئة من الموحدين على الاطلاع على معتقداتها الدينية. اما بالنسبة لأولاد الطوائف الاخرى، فكتبهم الدينية في متناول ايديهم، لهم شيوخهم وكهنتهم يفسرون لهم ما يغيب عنهم من اسرار دينهم، مساجدهم ومعابدهم ابوابها مشرعة لهم حيث يستمعون لشرح وتفسير عقائدهم، لهم الوعد بالجنة والوعيد في جهنم ولهم ثوابهم وعقابهم.

واما الولد الدرزي، فله الاقتداء بمسلك الاتقياء من رجال الدين، وامه هي التي ترعى تصرفه وتنهيه عن عمل السوء وتجنب المفاسد، وتحثه على العمل الصالح، فتجعل منه مثالاً في الاخلاق العالية والتصرف الحسن، بالرغم من ان معرفتها بالأمور الدينية، وحتى الدنيوية، محصورة بما تسمعه بالتداول، اذ لا شيخ ولا كاهن تستند او ترجع اليه لتزويدها بما تحتاج من المعرفة اليقينية التي هي صفاء العبادات ووليدة العقل والسبيل الصحيح الى التوحيد، فجُل ما تعرفه قواعد اخلاقية سامية يعيش لها وبها الموحدون الدروز.

الأم الدرزية، وهي عنوان الطهارة والعطف والحنو، هي سيدة البيت من دون منازع، لها القرار النهائي والسلطة الاخيرة في تربية اولادها وادارة بيتها.

يقول الدكتور محمد كامل حسين عن المرأة الموحدة الدرزية، عماد البيت الدرزي. «ولا يعرف المجتمع الدرزي شيئاً عن الزنا او الخيانة الزوجية او ما شابه ذلك

(٣) رسائل اخوان الصفا، رسالة ٧، ص ١٦٩ .

من المفاسد الاجتماعية، فالمرأة الدرزية اعف نساء العالم واشدهن طهارة ومحافظة على شرفها»[٤].

ويقول الدكتور مصطفى الشكعة: «لقد عشت بين الدروز فترة من حياتي وعاشرتهم في احدى قراهم، واشهد اني لمست فيهم الوطنية الكاملة والعفة وهذه الصفات الطيبة اسجلها غير مبالغ ولا مجامل». ثم يقول «والزهد عند مشايخ الدروز لا يعني التواكل بل هو هدوء وعفة ونزاهة وابتعاد عن الشبهات والمحرمات والشهوات، واعراض عن بهارج الدنيا وزخارفها، والبعد عن الحكام والسلطان وتلاوة وعبادة مع توخي كسب الحلال من الرزق»[٥] .

ونتيجة هذه الدراسة يا مروان وما يبدو لك من ظاهر الواقع الذي تعيشه، من دون الخوض في مذهب التوحيد وعقائده الروحانية، هي ايجاد نفسك امام ثلاث حقائق تشكل بالتحديد هيكيلية عقيدة تنهل من فلسفة عقلانية منطلقها الفكر اليوناني، كما يحدد مسارها العرفان الأسلامي، في الايمان بالتوحيد والتجلي. والعرفان الاسلامي هو محبة الله، النابعة من القلب، وعبادته وابتغاء رحمته ورضاه.

ورحمة المولى، الرحمن الرحيم، نعمة جعلها، سبحانه وتعالى، شعلة مقدسة في قلوب عباده وهي التفاني بالحق لردع الظلم والقسوة.

١ - **الحقيقة الاولى**. وهي العقيدة الروحانية وتشمل:

أ - فلسفة الفيض اليونانية. ابدع الله، عز وجل، العقل من نوره الشعشعاني، وفاض العقل على النفس، والنفس فاضت على الكلمة التي فاضت على الهيولى، وهي الوجود من مادة ومخلوقات. اعتنق الاسماعيلية فلسفة الفيض ونادت بها رسائل اخوان الصفا خلال القرن الثالث للهجرة.

ب - التوحيد بنفي الصفات عن الله، والاقرار بوحدانيته بان لا مثيل او شبيه له، جل ذكره. قال بها المعتزلة، اهل العدل والتوحيد في القرن الثاني من الهجرة،

(٤) كتاب طائفة الدروز، ص ٢٩ .

(٥) كتاب اسلام بلا مذاهب، ص ٢٥٩ وص ٢٦٣ .

فاعتنقتها الاسماعيلية وجعلتها من اركان معتقداتها. ونحن يا مروان موحّدون.

ج - العقل. هو ثاني الله وارادته على الارض، علة العلل، مدبر الكون. يقدسه الموحدون الدروز فهو مولاهم، وينبوع معرفتهم الروحانية والدنيويّة كتبهم المقدسة، رسائل الحكمة، والحكمة وليدة العقل.

د - التجلي. غاية العبادة عند المتصوفة لمعرفة الباري، سبحانه وتعالى، بالشعور بحضوره وليس مشاهدته بالبصر. والتجلي ما ينكشف للقلب من انوار الحكمة والمعرفة، والمعرفة الصادقة الروحانية هي تجلي الله بالعقل، والعقل ثاني الله.

٢ - **الحقيقة الثانية**. تشمل التصرف الديني والدنيويّ والمسلك الروحي في عبادة المولى تعالى المباشر من دون وسيط كالأئمة، والاحبار والكهنة، والتسليم والرضا والخضوع لله والفناء في عبادته في خلوات خالية من الزخارف ومظاهر الترف وبهارج الدنيا، يسودها الورع والتقوى والخشوع، لأن العبادات لا تنال في مطالب الجسد بل بصفاء التوحيد. هذا التعبد المباشر من دون وسيط، بالاضافة الى التقشف والزهد، هو مسلك التصوف الروحاني الذي ينشده ويسلكه المتصوفة للفناء بالله سبحانه وتعالى.

٣ - **الحقيقة الثالثة**. هي من صلب عقيدة التوحيد وركن اساسي في العبادة والايمان عند الموحدين وهي عقيدة «الامام المهدي المنتظر»، قائم الحق وامام الزمان وصاحب الكشف والقيامة، التي اطلقتها الاسماعيلية ونشرها الدعاة في ألبلاد الاسلامية.

بما ان هذه الدراسة هي لتفسير تاريخ والاصول الفكرية لهيكلية عقيدة التوحيد فقط ولا علاقة لها بالمذهب الروحاني، اي الدين، وثم بالنسبة للسرية المفروضة على مذهب التوحيد، اصبح من المتعذر بحث تأثير عقيدة «الامام المهدي المنتظر» ونتائجها على العقيدة التوحيدية، بل يجب تركها امانة بيد القيّمين على المذهب، فعندهم الحكمة الوافية والمعرفة الكافية في هذا الموضوع المهم.

انت يا مروان موحد درزي ولدت كذلك، هكذا شاءت الاقدار. تنتمي الى طائفة، يشهد لها حتى الأعداء بصفات لك ان تفتخر وتعتز بها، الصدق، الشجاعة، الكرم، النخوة والوفاء والابتعاد عن الفساد والاعمال الشائنة.

قال عنهم الاديب الكبير مارون عبود[٦].

والصدق شرعتهم فان عاهدتهم بروا وان نطقوا بأمرٍ يصدقوا
خلقُ الاسود متى يُمَسّ حماهم وسخاء حاتم طيءٍ ان يَطرُقوا
تمّت مروءتهم فان ناديتهم طاروا اليك عصائباً تتدفقُ
يمشي الدم العربي في اعراقهم صرفاً صراحاً والدليل المنطقُ

(٦) ولد الاديب الكبير مارون عبود عام ١٨٨٦م في قرية «عين كفاع» في قضاء جبيل ودرس في مدرسة كان يسميها «مدرسة تحت السنديانة» ثم انتقل الى مدارس عديدة وتخرج في مدرسة «الحكمة» التي اعطت لبنان الكثير من الادباء والشعراء. علم في مدارس كثيرة منها «الفرير» واليسوعية ثم في عام ١٩٢٢ التحق بالجامعة الوطنية في عاليه فدرّس اللغة العربية وادابها وكان مديرها لمدة ٢٧ سنة. تركها في عام ١٩٥٩ بسبب مرضه وتوفي عام ١٩٦٢ .

كنا تلاميذه ندعوه «مارون بك» ونرى فيه الاب الرؤوف نأتيه بمشاكلنا ومصاعبنا فلا يبخل علينا بعطفه ونصحه. وكان «مارون بك» صاحب نكتة ناعمة ولطيفة. كان يكره التعصب ويندد بالمتمسكين بقشور الدين. فالدين عنده محبة الناس والسير وراء الخير والعمل الصالح.

غرس مارون عبّود في قلوب طلابه كره التعصب الديني وحب الانسان لبلاده وقومه. كان يقول لنا: «التراث العربي تراثنا وتاريخ العرب تاريخنا وما اجمل لغتنا العربية».

عندما رزقه الله ابنه البكر سمّاه محمداً فكانت كنيته «ابو محمد مارون» وعند مولد ابنه قال فيه.

عشت يا ابني ويا خير صبي ولدته امه في رجب
لم تلده مسلماً او مسيحياً ولكن ولدته عربي

عاش مارون عبّود بين الدروز سبعاً وعشرين سنة، كان لهم صديقاً وفياً، أحبّهم واحبوه.

وفي قصيدته يقول:

سبع وعشرون انقضت في ظلهم لله ظلُّهمُ المنيفُ المورقُ
فاذا اقول عشيرتي، فهو الوفا يملي عليّ، فما هناك تملّقُ

سلفستر دي ساسي

«كان البارون انطون اسحق سلفستر دي ساسي من ارفع مستشرقي القرن التاسع عشر شأناً، ومؤسساً في حقيقة الامر، للاستشراق الحديث في اوروبا. وقد ارتبط اسم دي ساسي، من خلال تبحره ومهنته المميزة، بكل حقل من حقول الدراسات الشرقية تقريباً، كما اكتسب من خلال دائرة واسعة من الطلبة والتلاميذ والمراسلين، ميزة كونه المعلم او الناصح لاكثر المستشرقين بروزاً في زمنه».

ولد سلفستر دي ساسي في باريس في الحادي والعشرين من ايلول سنة ١٧٥٨م، وتلقى تعليماً خصوصاً في دير «بنيدكتي» حيث درس الكلاسكيات في اول الامر، ثم اصبح مهتماً بدراسة الشرق الاوسط فيما بعد، وكان يجيد مزيجاً نادراً من اللغات الشرقية القديمة والحديثة ومنها، السريانية، الكلدانية، والعبرية والعربية والفارسية، وكانت اعماله الفكرية والتاريخية أسساً لازمة لانطلاقه دراسة العلوم الفلسفية والدينية الاسلامية في اوروبا.

اصبح دي ساسي استاذا للعربية في مدرسة «اللغات الشرقية» عام ١٧٩٥م. وفي سنة ١٨٠٦م تم تعيينه استاذ اللغات الشرقية في الكلية الفرنسية وكان رئيساً لمعهد الآداب، بالاضافة الى كونه اميناً للمخطوطات الشرقية في المكتبة الملكية في باريس، وكان اول رئيس للجمعية الاسيوية وهي اقدم واهم الجمعيات الاوروبية الشرقية. توفي في ٢١ شباط عام ١٨٣١م بعد ان منح لقب نبيل فرنسا وتلقى اوسمة والقاباً اجنبية كثيرة.

حافظ دي ساسي على اهتمام استمر طوال حياته باستقصاء ودراسة مذهب الدروز، وتعود دراسة دي ساسي للدروز الى اوائل عام (١٧٩٠م) اي سنوات الثورة الفرنسية. وقد بدأ دراسة عن الدّروز على اساس ادبهم الخاص، وهي كتب دينية تألفت بشكل رئيسي من كتابات ورسائل مؤسسي المذهب الدرزي، ولا سيما، حمزة بن علي والمقتنى بهاء الدين، وهذه النصوص توافرت منذ عام ١٧٠٠م عندما

قدم طبيب سوري الى فرنسا واهدى الملك لويس الرابع عشر (١٦٤٣ - ١٧١٥م) مجموعة من اربع مخطوطات(*) درزية فكان اول اتصال دي ساسي بالمذهب الدرزي عبر تلك المخطوطات الاربع. بعد حوالي اربعين عاماً والعديد من الدراسات الدرزية، كتب كتابه الضخم المؤلف من مجلدين المعروف باسم «دين الدروز» (Exposé de la Religion des Druzes) الذي نشر في باريس عام ١٨٣٨م ويحوي جميع الرسائل وتفسير العقائد الدرزية ويعتبر مرجعاً هاماً ورئيسيا لمذهب الدروز. لسلفستر دي ساسي مؤلفات عديدة في العقائد الاسماعيلية وعلوم الدين الاسلامي.

بالاضافة الى كتاب دي ساسي عن مذهب الدروز كتب المفكر الالماني «خرستيان فريدريخ سيبلد» استاذ اللغات الشرقية في دار العلوم من جامعة «تو بينغن» من اواخر القرن التاسع عشر كتاباً عن دين الدروز احتوى جميع رسائل الحكمة وتفسيراً عن كتبهم السرية ويعتبر كتابه مرجعاً هاماً عن مذهب الدروز. المفكر «سيبولد» ترجم الى الالمانية كتاب «النقط والدوائر» للشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين الذي نشر عام ١٩٠٢ في المانيا واوروبا.

(*) يقول الكولونيل شارل تشرشل في كتابه «جبل لبنان» مجلد ١، ص ٢٠٥ .

«ان الذي قدّم كتب رسائل الحكمة الدرزية، وكانت أربعة اجزاء تضم سبعين رسالة، وذلك في ١٥ تموز عام ١٧٠٠ الى الملك لويس الرابع عشر، كان الدكتور السوري «نصرالله ابن جلده» وقد ترجمها الى اللغة الفرنسية، استاذ اللغة العربية السيد بتي دى لاكرواه، (Petit de la Croix) . ويقول لذلك، توجد مجموعة كاملة لرسائل الدروز في مكتبة الڤاتيكان، ومجموعة في المكتبة الملكية في ڤيينا. ومجموعتان في مكتبة Leyden واربع مجموعات في مكتبة Bodlian في اوكسفورد».

بعض المخطوطات وقصائد عن
الموحدين الدروز

شرح تائية الشيخ محيي الدين بن عربي الطائي

والجمعية الاحدية الذاتية التي هي الغرض الالهي من التنزيل والقصد الرباني
من عالم التفصيل لان به يحصل الغرض الالهي وهو كمال الجلاء والاستجلاء كما
اوجد الحق تعالى عالم الفرق والتفصيل لاجل المعرفة والشهود والتنزيل وتحصيل
السعادة الذاتية والتكميل وكان هذا الامر من اجل العلوم الالهية واعز الاسرار الغيبية
ما اطلع عليه الا الكمل من المحمديين وما وقف عليه الا النذر من الخلفاء الالهيين
نظم الشيخ الكامل والحبر الفاضل خاتم الولاية الخاصة المحمدية كاشف الحجب الغيرية
عن وجه الاحدية مربي صنوف الارواح في العوالم الروحية مكمل جسوم الاولياء
في العوالم الخلقية اعني الشيخ محيي الملة والدين العربي الطائي الحاتمي الاندلسي رضي الله عنه
وارضاه قصيدة مشتملة على الغرض الالهي من التجلي الجمعي الاحدي الذاتي والظهور
والتجلي من هذا المظهر الكلي المحمدي وبين فيها مراتب الوجود وموطن الشهود
من التعين الاول الى المظهر المحمدي الاكمل ونظم في سلسلتها جواهر اسرار عزيزة
ولآلي علوم عريضة حتى يحصل الغرض الالهي من الايجاد في اعلى
مراتب الشهود والاشهاد فلما اشتملت تلك القصيدة على لآلي الاسرار العلمية
الالهية وجواهر الحقائق الغيبية الذاتية المستاثرة في العلم المكنون
والمستجنة في الغيب المصون ما اطلع عليها الا من اسرى في اسرائه الى حضرة
العماء وارتقى في مدارج معارجه الى مناهج شهود الاعيان الثابتة في الحضرة العلمية
التي هي حضرة تعين الاسماء والاشياء بقيت ذيال عرائس اسرارها مصونة في حجاب
عزتها عن اصابة ايدي الفحول من الرجال وحور حقائقها ودقائقها المقصورة
في الخيام على بكارتها ما كشف قناع العزة وحجاب الغيرة عن وجهها الا اهل
التجرد والكمال فما حصل بها الامر الذي لاجله التفت صورتها من الحضرة العلمية والخزانة الغيبية
فجاء بها الى يومنا واحد من اولاد الشيخ رضي الله عنه والتمس مني التماس محب صادق

... الكشف فباح عن عزيزها وحجابت وقيها عن وجهها فتجلى كل [illegible] التي من الاتحاد على اكمل الوجوه واجمعها ونظرها السر الالهي المصون [illegible] الغيبي المكنون على اتم الطرق واكشفها واجلاها فشرحتها بعون الله وتوفيقه [illegible] فيه عن الاستعانة بالنظر الفكري وتدقيقه وقدمت على الشرح مقدمة
تشتمل على تسعة افلاك الفلك الاول في الغيب المطلق واللاتعين والوحدة الذاتية
الفلك الثاني في التعين الاول الفلك الثالث في العماء والاحدية بالفلك
الرابع في الالوهية وحضرة الاسماء الالهية وحضرة الوجوب وحضرة الواحدية
الحضرة العلمية الفلك الخامس في الحقيقة الكلية الكمالية المحمدية الفلك السادس
في التنزل الالهي وايجاده عالم الامكان الفلك السابع في السير الانساني
الى عالم الغيب وحضرة الواحدية والاحدية وحضرة العماء الفلك الثامن في التنزيه
الفلك التاسع في التوحيد وهو الفلك الجامع للافلاك كلها به تنكشف اسرار
الابيات في القصيدة الفلك الاول في الغيب المطلق واللاتعين والوحدة
الذاتية المطلقة اعلم ان الحق من حيث اطلاقه الذاتي واللاتعين غني عن الكثرة النسبية
الاسمائية منزه عن كل وصف ونعت واسم ورسم وحكم لا يصح ان يحكم عليه بحكم
ولا يوصف بوصف ولا يسمى باسم ولا يضاف اليه شيء من وحدة او وجوب وجود
او مبدئية او اقتضاء ايجاد وصدور اثر او تعلق علم بنفسه او بغيره لان كل ذلك يقضي
بالتعين والتقيد وينافي الاطلاق والاسماء الالهية فيه في الاستهلاك فلا يدرك
باعتبار وحدته الحقيقية ولا يحاط ولا يشار به ولا يعرف ولا يوصف والمدرك
في الاكوان والمشهود في الاعيان انما هو الالوان والاضواء والسطوح المختلفة التي
كيفيتها مختلفة وكميتها متباينة والوجود في هذه المرتبة عين حقيقته تعالى وذاته
لا سواها مزائد عليها وفي ما عداه فامر زائد على حقيقته لان حقيقة كل موجود عبارة

ونفل ولا بد من التعيين لو فرضا وواجبا دون نفل وكفاه
وينوي المقتدي المتابعة ولو نوى فرض الوقت جاز الا في الجمعة
الا اذا كان عنده انها فرض الوقت ولو نوى ظهر الوقت
مع بقائه جاز ولو مع عدمه وهو لا يعلم لا وفي الجنازة
ينوي الصلوة لله تعالى والدعاء للميت وان اشتبه الميت
يقول نويت ان اصلي مع الامام الصلوة على من يصلي
عليه والامام ينوي صلوته فقط لا امامة المقتدي لو ام
رجالا وان ام نساء فاقتدت به محاذية لرجل
في غير صلوة جنازة فلا بد من نية امامتها وان لم تقتد
محاذية اختلف فيه ونية استقبال القبلة ليست
بشرط كنية تعيين الامام في صحة الاقتداء واستقبال
القبلة فللمكي فرضه اصابة عينها ولغيره اصابة جهتها
والمعتبر الوجهة لا البناء وقبلة العاجز جهة قدرته
ويتحرى عاجز عن معرفة القبلة فان ظهر خطاؤه
ولم يعد وان علم به في صلوته او تحول رأيه استدار
وبنى وان شرع بلا تحر لم يجز وان اصاب ومن صلى جماعة
عند اشتباه القبلة بالتحري وتبين انهم صلوا
الى جهات مختلفة فمن تيقن مخالفة امامه في
الجهة حالا لا داء لم تجز صلوته ومن لم يعلم ذلك
فصلوته صحيحة باب صفة الصلوة من فرائضها
التحريمة وهي شرط ومنها القيام في فرض لقادر

عليه ومنها القراءة لقادر عليها ومنها الركوع ومنها السجود
ومنها القعود الاخير قدر التشهد ومنها الخروج بصنعه
وتشترط في ادائها الاختيار فان اتى بها نائما لا يعتد به
ولها واجبات وهي قراءة فاتحة الكتاب وضم سورة
في الاوليين من الفرض وفي جميع ركعات النفل والوتر وتعيين
القراءة في الاوليين وتقديم الفاتحة على السورة ورعاية
الترتيب فيما يتكرر في كل ركعة كالسجدة وتعديل
الاركان والقعود الاول والتشهدان ولفظ السلام
وقنوت الوتر وتكبيرات العيدين والجهر والاسرار
فيما يجهر ويسر وسننها رفع اليدين للتحريمة ونشر
الاصابع وان لا يطأطئ رأسه عند التكبير وجهر الامام
بالتكبير والثناء والتعوذ والتسمية والتأمين
سرا ووضع يمينه على يساره تحت السرة وتكبير الركوع
والرفع منه والتسبيح فيه ثلاثا واخذ ركبتيه بيديه
وتفريج اصابعه وتكبير السجود وكذا الرفع منه وتكبيره
والتسبيح فيه ثلاثا ووضع يديه وركبتيه وافتراش
رجله اليسرى والجلسة والصلوة على رسول الله صلى
الله عليه وسلم والدعاء ولها آداب نظره الى موضع
سجوده حال قيامه والى ظهر قدميه حال ركوعه
والى ارنبته حال سجوده والى حجره حال قعوده والى
منكبه الايمن والايسر عند التسليمة الاولى والثانية

قصيدة الشاعر مارون عبّود

قَالُوا الدّرُوزُ فَقلتُ: جِيلٌ مُعْرِقُ ... «العَقلُ» دِينٌ، وَالوَفاءُ «المَوثِقُ»

وَالصِّدقُ شِرعَتهُم فَإِنْ عَاهَدتَهُمْ ... بَرُّوا وَإِنْ نَطَقُوا بِأَمْرٍ يَصدُقوا

خُلقُ الأُسُودِ مَتَى يُمَسُّ حِمَاهُمُ ... وَسَخَاءُ حَاتِمِ طَيِّءٍ إِنْ يُطرَقُوا

تَمّتْ مُرُوءَتهُمْ فَإِنْ نَادَيتَهُمْ ... طَارُوا إِلَيكَ عَصَائِبًا تَتَدَفّقُ

رَبَضُوا بِبَابِ الشّرقِ خَيرَ ضَرَاغِمٍ ... تَحمِي العَرِينَ، فَأَيْنَ مِنهُ الأَبلَقُ؟

غَنّتْ سُيُوفُهُمُ أَنَاشِيدًا شَجَتْ ... قَلبَ العُرُوبَةِ وَاستَعَزّ المَشرِقُ

فَإِذَا مَشَتْ بِيضُ العَمَائِمِ لِلوَغَى ... حُمّ القَضَاءُ، فَكُلُّ شَيخٍ بَيرَقُ

وَفَتَاهُمُ يَلقَى الجُمُوعَ مُجَازِفًا ... فَكَأَنَّمَا تَحتَ العَبَاءَةِ فَيلَقُ

تَتَلثّمُ الآفَاقُ مِنْ نِيرَانِهِمْ ... وَسُيُوفُهُمْ كَكَوَاكِبٍ تَتَأَلّقُ

وَتَضِيءُ أَوجُهُهُمْ إِذَا طَايَبْتَهُمْ ... وَتَخَالُهُمْ جِنًّا إِذَا مَا أُطبِقُوا

فَإِذَا سُئِلتَ عَنِ الدّرُوزِ فَقُلْ: هُمُ ... قَومٌ لَهُمْ فِي كُلِّ حَالٍ مَنطِقُ

إِنْ تَستَفِزَّهُمُ، فَقُلْ خَابَ الرّجَا ... العَقلُ يَعقِدُ وَالسُّيُوفُ تُطَلّقُ

قَالُوا الدّرُوزُ، فَقلتُ شَعبٌ مُعرِقُ ... العَقلُ دِينٌ وَالوَفَاءُ المَوثِقُ

يَتَنَاهَمُونَ البِرَّ فِي «خَلَوَاتِهِمْ» ... مُتَنَسِّكِينَ، وَإِنْ جَنَفتَ استَغرَقُوا

وَإِذَا الكَرِيهَةُ شَمّرَتْ عَنْ سَاقِهَا ... كَرُّوا وَفِي أُفُقِ البُطُولَةِ حَلّقُوا

مَا قَصّرَتْ عَنْ غَايَةٍ فُرسَانُهُمْ ... فَاستَنطِقُوا تَارِيخَهُمْ تَستَوثِقُوا

يَمْشِي الدَّمُ العَرَبِيُّ فِي أَعْرَاقِهِمْ ... صِرْفاً صُرَاحاً ، وَالدَّلِيلُ ٱلْمَنْطِقُ

لِمَ لا تُصَانُ أُصُولُهُمْ وَفُرُوعُهُمْ ... وَالبَابُ فِي وَجْهِ البَرِيَّةِ مُغْلَقُ ؟

فَهُمُ ذَوُو الجَبَلِ الطَّوِيلِ نِجَادُهُ ... حَلُّوا رُبَاهُ وَفِي ذُرَاهُ تَعَلَّقُوا

تَتَدَهْوَرُ الأَرْيَاحُ عَنْ جَبَهَاتِهِ ... وَعَلَى ذَوَائِبِهِ الصَّوَاعِقُ تَزْلَقُ

لاذُوا بِهِ مُسْتَعْصِمِينَ ، وَمُذْ غَدَا ... حُصْناً لَهُمْ عَزُّوا بِهِ وَتَفَوَّقُوا

وَتَأَلَّبُوا عُصَباً تَصُونُ ذِمَارَهُ ... فَرَعَتْ سِيَادَتَهُ قُلُوبٌ تَخْفِقُ

فَإِذَا تَعَرَّضَ لِلْمَطَامِعِ أَرْعَدُوا ... وَإِذَا تُشِيرُ إِلَيْهِ كَفٌّ أَبْرَقُوا

السَّيْفُ يَخْطُبُ عَنْهُمُ إِنْ هُوجِمُوا ... وَالصِّدْقُ فِي نَدَوَاتِهِمْ إِنْ يَنْطِقُوا

قَالُوا الدُّرُوزُ ، فَقُلْتُ : شَعْبٌ مُعْرِقٌ ... العَقْلُ دِينٌ ، وَٱلوَفَاءُ ٱلمَنْطِقُ

سَبْعٌ وَعِشْرُونَ انْقَضَتْ فِي ظِلِّهِمْ ... لِلَّهِ ظِلُّهُمُ ٱلمُنِيفُ ٱلمُورِقُ

فَإِذَا أَقُولُ عَشِيرَتِي ، فَهُوَ الوَفَا ... يُمْلِي عَلَيَّ ، فَمَا هُنَاكَ تَمَلُّقُ

فَأَنَا مُوَاطِنُهُمْ بِفَضْلٍ مِنْهُمُ ... وَالفَضْلُ يَعْرِفُهُ الدُّرُوزُ السُّبَّقُ

قَدْ هَوَّنَ ٱلمَوْتَ اعْتِقَادُهُمُ فَمَا ... أَجْسَادُهُمْ إِلَّا تُرَابٌ يُنْفَقُ

فَإِذَا هَزَزْتَ هَزَزْتَ رُمْحاً طَيِّعاً ... وَإِذَا سَلَلْتَ سَلَلْتَ سَيْفاً يَفْلِقُ

وَإِذَا تَمُرُّ طَارِئٌ صَاحُوا بِهِ : ... أَبْشِرْ فَإِنَّ «السَّيْفَ» حَيٌّ يُرْزَقُ

نَحْنُ ٱلأُلَى هَانَ ٱلمَمَاتُ عَلَيْهِمِ ... الرُّوحُ تَبْقَى ، وَالقَمِيصُ يُمَزَّقُ

قصيدة الشاعر أسعد نصار الى الزعيم القبلي فنديي الطيار

يا راكباً فوق هزبر العيس تطيار   يسبق هبوب الريح عند النهج بيه

وآن جيت من يمين الشرق ويسار   خذ لي كتابي لليفهم معانيه

سلم على فندي هليكني ببتار   شيخ القبايل والعرب هرجت بيه

بالعون فندي على الدشمان لوغار   بيجيبها من العدا بقطاع يبريه

لا تحسبوني يا فندي من سجار   ولا من الترك هلما تعتنوا بيه

وآن سألوك من أي ربع وأي دار   قلو من طوبلي لتلج رحوا أمر بيه

ما تذكر يوم تحالفت أنا وياك بدار   علي ومطلق والعرب يتشهدوا بيه

وان كان غيرت عهدك والذي قد صار   كرب حزام الجرد ولا ترخيه

وآسقي جوادك من البل ويكار   واقطر وعندك ليوم تنطلب بيه

بيوم كما الليل تلهب ب نار   ونصير ديوان والشعار تحكي بيه

عمال بتهتنا هذا عليكم عار   عيباً على شيخ ما ينظر قوافيه

وتقول لابدما تغزي شعاراً عليك تغار   وتنوخ الابل فيها مع بواديه

وتنزل على عيونها تنصب بيوت كبار   وتهدم الدار من غالي مبانيه

يا شيخ كبرت هاللقمه تراها نار   زغر درابيك وشراب محصافيه

لا تحسبوها دفينه من جناع النار ولا لبن إبل والعربان تحضيه

عشب الذي تعهدوها السنين ما صار — صار عشب غيره وترهاك مراعيه

أصلو من الأرض أسمر اللون كرار — مكفن بالجوز معتني بيه

يا شوق عيني لضغط الكحل لوثار — أمو خماسي وستو زلغطت بيه

وبارودتي فلنطا مزنره بإسوار — حالفي رصاصها عا الأرض ما ترميه

وسيوفنا الجدب تبري كل زنار — وشفارها لو صدت بالدم نجليه

حنا بني معروف ونجير من جار — نبغى المزند وفتيلك ما ندا ريه

وما لنا دوم مساريح يمنها ويسار — لا عاش يا شيخ من يبدي مدانيه

من دونهم كل هندي صارما بتار — عود البطنا يروي مثانيه

من سمهري اللون لو جرى كما الفرار — مدموجات الجدب بتساوي حواشيه

كاس المنيه لو ساعات ودهار — غير السميدع من يقدر يداريه

تتدحرج الروس من يد أسعد النصار — ورصاصهو لو سقط بالصخر يفريه

يا شيخ من حربنا من هو عليكم ثار — نقال نميمه وها النسمع محاكيه

إرماك في بحر ظلمه ما ألوش قرار — وتشوف قوما لو على روس العواليه

وتنظر بعينك لركض الخيل والنار — والحرب سوق الأسنه النار تبنيه

يا فندي طير البغو بالجو لو طار   لا بد عن صايبو من الجو ترميه

ولا بد ما للمنا جوران وهالديار   وأهل الحقايق يا فندي بيتهم وابيه

ما تذكر يوم مردك والذي قد صار   وشر الجنينه يا فندي إنت ناسيه

وسميح لما ثنى جوادو وعلينا غار   صابو صوابي ومهرو ما رجع بيه

من كان ليث يهاب العيب ثم العار   لو شاف حبل المنيه ينذبح بيه

ونصيح فندي عليكم يا حماة الدار   ونريد منكم بطل يا شيخ يحميه

يا شيخ بالعون ما بات لنا ثار   قبل أن رآنا العدو وجينا نناديه

أخخب الدم يكفي هالذي قد صار   وان كنت ناوي على شيء إجريه

في ٧ شوال ١٣١٨ هجريه

المراجع والمصادر

أ – مخطوطات

مخطوطة تفسير للامير السيد عبدالله التنوخي.
المصحف المنفرد بذاته.
سجل سرائر الاول والأخير ومعالم الاكوار والادوار.
الصحف الموسومة بالشريعة الروحانية.
الصحفية السجادية. دعاء الامام علي زين العابدين.
شرح تائية محي الدين عربي. لعبدالله الرومي.
تنوير الابصار للامام ابي حنيفة النعمان بن ثابت.
درة الغواص من اوهام الخواص. الامام القاسم بن علي الحريري.
كتاب النقّط والدوائر وقسم من كتاب مجرى الزمان. زين الدين عبد الغفار تقي الدين.

ب – مراجع عربية

ابن الاثير. الكامل في التاريخ.
– اسد الغابة في معرفة الصحابة.
ابن حوقل أبو القاسم النصيبي. صورة الارض (جزء ١–٢)
البغدادي، عبد القاهر. اصول الدين، اسطمبول ١٩٢٨
ابن خرداذبه، عبيدالله بن عبدالله. المسالك والممالك. ليدن ١٨٨٩ .
ابن سعد، محمد.
كتاب الطبقات الكبير. ليدن ١٩١٨
ابن منظور. مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر.

السفرجلاني. تاريخ الثورة السورية.
ابن القلانسي. تاريخ دمشق، تحقيق الدكتور سهيل زكار.
ابن كثير. البداية والنهاية في التاريخ (١٤ جزءاً).
ابو شقرا، حسين غضبان. الحركات في لبنان. تحقيق عارف ابي شقرا بيروت ١٩٥٢
رسائل اخوان الصفا وخلّان الوفا (٤ اجزاء).
تاريخ اخبار القرامطة، تحقيق وجمع سهيل زكار.
التوحيدي، ابو حيان. كتاب الامتناع والمؤانسة. تحقيق احمد امين.
الدمشقي، ميخائيل. تاريخ حوادث الشام ولبنان. تحقيق لويس معلوف.
الدويهي، البطريرك اسطفان. تاريخ الازمنة.
الشدياق، طنوس. اخبار الاعيان في جبل لبنان (مجلّدان).
الشهابي، حيدر احمد. تاريخ الامير حيدر احمد الشهابي (٤ اجزاء).
صالح بن يحيى. تاريخ بيروت. تحقيق كمال الصليبي.
ابن سباط، حمزة بن احمد. تاريخ الدروز في آخر عهد المماليك.
الطبري. تاريخ الرسل والملوك (١٥ مجلد).
الهمذاني، محمد بن عبد الملك. تكملة تاريخ الطبري.
الكرماني، احمد حميد الدين. كتاب راحة العقل.
- الرسالة الواعظة. تحقيق محمد كامل حسين.
- كتاب الرياض. تحقيق عارف تامر.
- المصابيح في اثبات النبوة. تحقيق مصطفى غالب.
المسعودي، ابو الحسن علي. مروج الذهب ومعادن الجوهر.
المنيّر، حنانيا. كتاب الدرّ المرصوف في تاريخ الشوف.
ابو عز الدين، سليمان. ابراهيم باشا في سوريا.
ابو عز الدين، نجلا. الدروز في التاريخ.

بدوي، عبد الرحمن. افلوطين عند العرب.
- مذاهب الاسلاميين. الجزء الاول.
- شخصيات قلقة في الاسلام.
ماسينيون. سلمان الفارسي.
ماسينيون. دراسة عن الحلاّج
هنري كوربان. السهروردي الحلبي.
السهروردي. رسالة اصوات اجنحة جبريل.
طه، حسين. الفتنة الكبرى.
- حديث الاربعاء.
لامنس، هنري. تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من آثار.
ماجد، عبد المنعم. الحاكم بامر اللّه، الخليفة المفترى عليه.
عنان، محمد عبدالله. الحاكم بامر الله وأسرار الدعوة الفاطمية.
الشيرازي المؤيد في الدين، هبة الله موسى الشيرازي. مذكرات داعي الدعاة الدولة الفاطمية.
مكارم، سامي. اضواء على مسلك التوحيد.
ابن باجه، ابو بكر. رسائل ابن باجه الالهية.
ابن حزم الظاهري الاندلسي. الفصل في الملل والاهواء والنحل (٥ اجزاء).
ابن خلدون، المقدمة.
- تاريخ ابن خلدون
ابن رشد. تهافت التهافت.
- تلخيص كتاب النفس.
ابن سينا. الاشارات والتنبيهات.
- المبداء والميعاد.
- منطق المشرقيين.
- كتاب الشفاء.
ابن النديم. الفهرست.

الاشعري. مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين.
البخاري، محمد بن اسماعيل. صحيح البخاري.
الجاحظ. كتاب البخلاء.
- كتاب الحيوان.
- كتاب البيان والتبيين.
خسرو ناصر. سفرنامه، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب.
الشهرستاني. الملل والنحل (جزءان)
ابن تغري بردي، جمال الدين ابو المحاسن. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٢ جزءاً)
البلاذري. انساب الاشراف.
ابن تيمية. التصوف والفقراء.
- الرسائل الكبرى.
- الرد على المنطقيين.
- معارج الوصول.
الغزالي، ابو حامد. تهافت الفلاسفة.
- احياء علوم الدين.
- مشكاة الانوار.
- فضائح الباطنية. تحقيق عبد الرحمن بدوي.
- المنقذ من الضلال. تحقيق جميل صليبا وكامل عياد.
- مقاصد الفلاسفة. تحقيق سليمان دنيا.
فخري، ماجد. تاريخ الفلسفة الاسلامية.
- دراسات في الفكر العربي.
الاعسم، عبد الامير. الفيلسوف الغزالي.
كوربان هنري. تاريخ الفلسفة الاسلامية.
- الشيعة الاثني عشرية.
- السهروردي مؤسس المذهب الاشراقي.

مروه، حسين. النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية (جزءان).
مرحبا، محمد عبد الرحمن. من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية.
البعيني، حسن امين. دروز سوريا ولبنان في عهد الانتداب الافرنسي.
- سلطان باشا الاطرش.
- جبل العرب.
الحمصي، نهدي صبحي. تاريخ طرابلس في النصف الثاني من القرن الشابع عشر.
الزين، سميح عاطف. الصوفية في نظر الاسلام.
تامر، عارف. ابن سينا في رحاب اخوان الصفا.
- تاريخ الاسماعيلية. (٤ اجزاء).
- معجم الفرق الاسلامية.
- الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله.
- اربع رسائل اسماعيلية (تحقيق).
بيطار، امينة. موقف الامراء العرب من الفاطميين.
اسماعيل، منير وعادل. الصراع الدولي حول المشرق العربي.
ابو صالح، عباس. التاريخ السياسي للامارة الشهابية في جبل لبنان.
ابو مكاريوس، شاهين. مذبحة الجبل، حسر اللثام عن نكبات الشام.
ابكاريوس، اسكندر بن يعقوب. نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان.
هيكل، محمد حسين. حياة محمّد.
- الصدّيق ابو بكر.
- الفاروق عمر.
- عثمان بن عفان.
عرجون، صادق ابراهيم. خالد بن الوليد.
لوتسكي، ڤلاديمير. الحرب التحريرية في سوريا.
ضاهر، مسعود. لبنان الاستقلال الصيغة والميثاق.
- تاريخ لبنان الاجتماعي.
- بيروت وجبل لبنان على مشارف القرن العشرين.

– المشرق العربي المعاصر من البداوة الى الدولة الحديثة.
– الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية.
– الانتفاضات اللبنانية ضد النظام المقاطعجي.
– الهجرة اللبنانية الى مصر.
الاهواني، احمد فؤاد تحقيق: رسالة الاتصال. ابن الصائغ.
رسالة النفس. اسحق بن حنين.
رسالة الاتصال. ابن رشد.
رسالة العقل. يعقوب الكندي.
ابن عربي، محيي الدين. محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار (جزءان).
المرتضى، احمد بن يحيى. طبقات المعتزلة.
ابن القلاعي، المطران جبرائيل اللحفدي. زجليات ابن القلاعي.
قاضي القضاة عبد الجبّار الهمذاني (المعتزلي). «المغني» في ابواب التوحيد والعدل – «المعتزلة» (١٤ جزءاً)
النيسابوري. في التوحيد.
الخازن، فيليب وفريد. المحررات السياسية والمفاوضات الدولية في سوريا ولبنان.
امين المعلوف، الحروب الصليبية.
لنجار، عبدالله. مذهب الموحدين الدروز.
طليع، أمين. الشهيد رشيد طليع. ملخص تاريخ حياته.
الشكعة، مصطفى. اسلام بلا مذاهب.
– الأئمة الاربعة.
الامام مالك بن انس. الموطّأ.
الامام احمد بن حنبل. المسند.
مغنية، محمد جواد. الفقه على المذاهب الخمسة.
المقريزي. اتعاظ الحنفاء باخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء.
– المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. (الخطط المقريزية).
– درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة. (جزءان).

- امتاع الاسماع بما للرسول من الانباء والاموال والحفدة والمتاع.

ابن بطوطة. رحلة ابن بطوطه. تحقيق كرم البستاني.

ابن ابي الحديد. شرح نهج البلاغة. تحقيق محمد ابراهيم.

الجليلي، عبد الرحمن. حصار الموصل والعلاقات العثمانية الفارسية.

- تملك الاموال وتدخل الدولة في الاسلام.

- من قتل الملك غازي.

ابن خلكان. وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان.

ابن كثير. البداية والنهاية.

الباقلاني، محمد بن الطيب. التمهيد في الرد على المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة.

قاضي القضاة عبد الجبّار الهمذاني.

- تثبيت دلائل النبوة. تحقيق عبد السلام عثمان.

- شروح الاصول الخمسة. تحقيق عبد السلام عثمان.

البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة.

الجويني، ابو المعالي عبد الملك، امام الحرمين. الارشاد الى قواطع الادلة في اصول الاعتقاد.

الرازي. المباحث الشرقية.

الحموي، علي بن نظيف. التاريخ المنصوري. تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان.

القاضي النعمان ابو حنيفة ابن محمد بن حيّون المغربي.

- الارجوزة المختارة.

- اختلاف اصول المذاهب.

البغدادي، عبد القاهر محمد التميمي. الفرق بين الفرق.

تشرشل. بين الدروز والموارنة. ترجمة فندي الشعار.

القلقشندي،

نهاية الارب في معرفة انساب العرب. تحقيق ابراهيم الأنباري.

الفاخوري، حنا، الجديد في الادب العربي.

خليل احمد خليل. كمال جنبلاط، ثورة الأمير الحديث.
العش يوسف. تاريخ عصر الخلافة العباسية.
العبادي، احمد مختار.
- في التاريخ العباسي والفاطمي.
- في التاريخ العباسي والاندلسي.
عطوان، حسين. الفرق الاسلامية في بلاد الشام في العصر الاموي.
سيد الاهل، عبد العزيز. الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز.
ضرار صالح ضرار، الحجاج بن يوسف الثقفي. شلبي محمود. حياة سلمان الفارسي.
آل الفقيه، ابو ذر الغفاري.
- سلمان الفارسي.
- المقداد بن الاسود الكندي.
صدر الدين شرف الدين. عمّار بن ياسر حليف مخزوم.
المصري، حسين مجيب. سلمان الفارسي عند العرب والفرس والترك.
معروف نايف. الخوارج في العصر الاموي.
دي خويه. القرامطة.
السهروردي. مقامات الصوفية. تحقيق اميل المعلوف.
زينه، حسين. العقل عند المعتزلة. تصور العقل عند القاضي عبد الجبّار.
الترك، نقولا. حملة بونابرت الى الشرق.
يزبك، يوسف ابراهيم
- اوراق لبنانية (٣ مجلدات).
- الجذور التاريخية للحرب اللبنانية.
- ولي من لبنان. حياة الأمير السيد عبدالله جمال الدين التنوخي.
ارسلان، الامير شكيب. بنو معروف اهل العروبة والاسلام.
العقّاد، عباس محمود. عبقرية خالد.
- عبقرية الصديق.
السحمراني اسعد. التصوف منشأه ومصطلحاته.

الفارابي. كتاب الواحد والوحدة.
- رسالتان فلسفيتان. تحقيق جعفر آل ياسين.
حكيم، يوسف. بيروت ولبنان في عهد آل عثمان.
- سورية والعهد العثماني.
- سورية والانتداب الفرنسي.
البندر، رشيد. مذهب المعتزلة من الكلام الى الفلسفة.
لويس، برنارد. اصول الاسماعيلية، والفاطمية والقرمطية.
غالب، مصطفى. الحلاّج الحسين بن منصور.
- السهروردي.
- تاريخ الدعوة الاسماعيلية.
العوا، عادل. حقيقة اخوان الصفا.
- المعتزلة والفكر الحر.
عشقوتي، راجي. كمال جنبلاط في الحقيقة والتاريخ.
محمد جابر آل صفا. تاريخ جبل عامل.
المسبحي، محمد بن عبيدالله. اخبار مصر في سنتين: ٤١٤ و ٤١٥هـ (تحقيق وليم ميلورد).
الاغرناطي، علي بن بشرى. عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس.
السجستاني، ابو يعقوب اسحق. اثبات النبؤات.
- الافتخار.
- رسالة دعوة المستجيبين. تحقيق عارف تامر.
يبش، يوسف. السهروردي المقتول.
- الامام والامامة عند الشيعة.
- الخلافة وشروط الزعامة عند اهل السنة والجماعة.
نوح، علي. الخطاب الاسماعيلي في التحديد الفكري الاسلامي المعاصر.
القاضي عبدالله بن عبد الكريم اليمني.
المقتطف من تاريخ اليمن.

دفتري، فرهاد. الاسماعيليون، تاريخهم وعقائدهم. ترجمة سيف الدين القصير.
احمد اسماعيل علي. تاريخ بلاد الشام منذ قبل الميلاد حتى نهاية العصر الاموي.
- تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي.
جار الله، زهدي. المعتزلة.
عيسى، رياض. النزاع بين افراد البيت الاموي ودوره في سقوط الخلافة الاموية.
مرسي الشيخ. الامارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين
زكار، سهيل. امارة حلب.
- الحروب الصليبية.
- اخبار القرامطة.
- مائة اوائل.
الخشب، محمد عثمان. حركة الحشاشين. اسرار الباطنية والفرق الخفية.
الحريري، ابو موسى. العلويون النصيريون.
الاعسم، عبد الامير. الفيلسوف الغزالي اعادة تقويم لمنحى تطوره الروحي.
لوقا، نظمي. عمرو بن العاص.
السجستاني. كتاب المصاحف.
عرجون، صادق ابراهيم. عثمان بن عفان.
ترحيني، محمد احمد. الاسس التاريخية لنظام لبنان الطائفي.
العظمة، عبد العزيز. مرآة الشام واهلها.
الريحاني، امين. ملوك العرب.
- قلب لبنان.
- المغرب الاقصى ونور الاندلس.
الثعالبي النيسابوري. تتمة اليتيمة.
الدينوري، محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة. عيون الاخبار.
جاسم، عزيز السيد. متصوفة بغداد.
النيسابوري، احمد بن ابراهيم. كتاب اثبات الامامة.

الشرقاوي، محمد عبدالله. الصوفية والعقل.
- التصوف الاسلامي.
غنّام، طلعت. اضواء على التصوف.
خاطر، لحد. عهد المتصرفين في لبنان ١٨٦١ - ١٩١٨ .
اسماعيل، المير علي. القرامطة.
ريدان، يوسف. الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي.
الراوي، عبد الستار. العقل والحرّية. دراسة في فكر القاضي عبد الجبّار المعتزلي.
بروكلمان، كارل. تاريخ الشعوب الاسلامية. ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي.
الطبري، محمد بن جرير. تفسير القرآن.
- تاريخ الرسل والملوك.
أرنولد، توماس. الدعوة الى الاسلام. ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين.
النيسابوري، أبو القاسم القشيري. الرسالة القشيرية في علم التصوف.
سبط ابن الجوزي. مرآة الاعيان.
ابن العبري. تاريخ مختصر الدول.
ابن هشام. سيرة النبي.
سالم عبد العزيز. تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس.
السيوطي. الامام جلال الدين بن ابي بكر
شرح شواهد المغني.
القزويني، محمد كاظم. الامام علي من المهد الى اللحد.
إبن جماعة. تحرير الاحكام في تدبير اهل الاسلام.
شوفاليه، دومينيك. مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية الاوربية.
كوثراني، وجيه. الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي.
دبس، المطران يوسف. الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل.
بيضون، احمد. الصراع على تاريخ لبنان.
المعلوف، عيسى اسكندر. تاريخ زحلة.
ابو خاطر، هنري. جمهورية زحلة اول جمهورية في الشرق.

الكونت دي باري. دمشق ولبنان ربيع ١٨٦٠ .
صليبي كمال.
– منطلق تاريخ لبنان.
– خفايا التوراة واسرار شعب اسرائيل.
– تاريخ لبنان الحديث.
– بين منازل كثيرة.
بازيلي. سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي.
دياب، حسن. تاريخ صور الاجتماعي.
شبارو، عصام محمد. تاريخ بيروت منذ اقدم العصور حتى القرن العشرين.
المبرد. اخبار الخوارج في الكتاب الكامل، تحقيق محمد ابو الفضل اسماعيل.
العياش، غسان. مجمع اللويزة ١٧٣٦م.
الصورى، وليم. الحروب الصليبية (٣ اجزاء).
قطان، المطران باسيلوس. حوادث لبنان وسوريا (١٧٤٥ – ١٨٠٠).
ابن العديم. بغية الطلب من تاريخ حلب (١١ جزءاً) تحقيق سهيل زكار.
جبر، اميرة. الرحالة الفرنسيون في موطن الارز.
البستاني، فؤاد افرام. لبنان مباحث علمية واجتماعية (جزءان).
زيادة، نقولا. شاميات.
– لبنان تاريخ وصور.
– دمشق في عصر المماليك.
الغزي، كامل البالي الحلبي. نهر الذهب في تاريخ حلب (٣ اجزاء). تحقيق شوقي شعث.
رعد، مارون لبنان من الامارة الى المتصرفية.
الامام محسن الامين، خطط جبل عامل.
جبور، جبرائيل سليمان. من ايام العمر.
الاصفهاني، القاضي عماد الدين. البرق الشامي (الجزءان الثالث والخامس).
رستم، اسد. بشير بين السلطان والعزيز (جزءان).

الصليبي، اكرم حسن. دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين.
الخالدي الصفدي، احمد بن محمد. لبنان في عهد الامير فخر الدين المعني الثاني. تحقيق اسد رستم وفؤاد افرام البستاني.
لبنان في عهد الامراء الشهابيين. الجزءان الثاني والثالث من كتاب الغرر الحسان للامير حيدر الشهابي. تحقيق اسد رستم وفؤاد افرام البستاني.
ايڤانوف، نيقولاي. الفتح العثماني للاقطار العربيّة (١٥١٦ - ١٥٧٤)
الشيخ سلمان ظاهر. جبل عامل في الحرب الكونية.
القائد سعيد العاص. صفحة من الايام الحمراء.
العبد، حسن آغا. حوادث بلاد الشام والامبراطورية العثمانية.
كوثراني، وجيه. السلطة والمجتمع والعمل السياسي في تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام.
ابو علم، توفيق. الحسين بن علي.
الحلو، يوسف خطار. العاميات الشعبية في لبنان.
خالد، محمد خالد. في رحاب علي.
حمزة، نديم نايف. التنوخيون، اجداد الموحدين.
الزعبي، محمد علي. الاسلام والمسيحية في لبنان.
نيكوس كازانزاكيس. رحلة الى فلسطين.
المسعدي، محمود. حدّث ابو هريرة قال....
عبد الرحمن، عائشة. قراءة وثائق في البهائية.
زين، نور الدين زين. الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان.
مهدي، فضل الله الاجتهاد والمنطق الفقهي في الاسلام.
البغدادي التميمي. الفرق بين الفرق. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
القمني. النبي ابراهيم والتاريخ المجهول.
الطاهر، سلوى مرسي. بدايات الكتابة التاريخية عند العرب.
عمارة، محمد. المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية.
زيّود، محمد احمد. العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والاخشيدي.

الشرباصي، أحمد. الغزالي والتصوف الاسلامي.
ابو جعفر محمد بن جرير الطبري، دلائل الأمامة.
سعيد عبد الفتاح عاشور، الايوبيون والمماليك في مصر والشام.
دهمان، محمد. ولاة دمشق في عهد المماليك.
عزيز سباهي، اصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية.
امام عبد الفتاح امام. معجم ديانات واساطير العالم.
حنفي، عبد المنعم. الموسوعة الصوفية.
شوقي شعث، في مكتب البلدانيين العرب.
قتيبة الشهابي. مشيدات دمشق ذوات الاضرحة وعناصرها الجمالية.
عبد المنعم نمر. الشيعة – المهدي – الدروز. تاريخ ووثائق.
محمد غازي عرابي. التصوف. مصطلحات.
علي بن ابي طالب، الجفر، الجامع والنور اللامع.
حمادة، محمد عمر. تاريخ الصابئة المندائيين.
السيوطي، تاريخ الخلفاء.
إبن جبير. رحلة ابن جبير.
الاشعري، الامام أبو الحسن. مقالات الاسلاميين.
ابو الفرج العبري. تاريخ الزمان.
ابن عربي، محيي الدين. رسائل ابن عربي.
زيدان، يوسف محمد طه. الطريق الصوفي.
الانصاري، عبد الرحمن. مشارق انوار القلب.
علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الأسلام (عشرة اجزاء).
بهجت، احمد. بحار الحب عند الصوفية.
جبر، فريد. ترجمة وتحقيق كتاب تاسوعات افلوطين.
بزون، حسن. القرامطة بين الدين والثورة.
الانصاري، عبد الرحمن بن محمد. مشارق انوار القلوب ومفاتيح اسرار الغيوب.
قاسم، عبد الكريم عبد الغني. المذاهب الصوفية ومدارسها.

الشعراني، الامام عبد الوهاب. الانوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية.

ج - مراجع أجنبية

Noam Chomsky, *Chronicles of Dissent.* Common Courage Press, 1992.
Tarif Khalidi, *Arabic Historical, Thought in the Classical Period.* Cambridge University Press, 1994.
William R. Polk, *The Opening of South Lebanon 1688 - 1840.* Harvard University Press, 1963.
Kamal S. Salibi, *Syria Under Islam.* Caravan Books, 1977.
Secrets of the Bible People. Saqi books, 1988.
Farhad Daftary, *The Ismailis: The History And Doctrine* Cambridge University Press, 1990.
Trevor N. Dupuy, Paul Martell, *Flawed Victory: The 1982 War in Lebanon* Hero Books, 1986.
Leila Tarazi Fawaz, *An Occasion For War: Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860.* I.B Tauris, 1994.
Antony Pearson, *Conspiracy of Silence.* Quartet Books 1978.
Engin Akarli, *The Long Peace: Ottoman Lebanon 1861* - 1921. I.B. Tauris London, 1993.
Paul E. Walker, *Early Philosophical Shiism: The Ismaili Neoplatonism of Abu-Yaqub al-Sajistani.* Cambridge University Press, 1993.
Roger Stevens, *The Land of the Great Sophy.* Cox, Wyman, Fakenham, 1962.
Robert Brenton Betts,*The Druze.* Yale University Press, 1988.
Silvester de Sacy, *Exposé de la Religion des Druzes.* Imprimerie Royle, Paris, 1838.
Patric Seale, *The Struggle for Syria.* Oxford University Press, 1965.
Freya Stark, *Letters from Syria.* John Murray, 1942.
Alamuddin Nura S. and Paul Starr, *Crucial Bonds: Marriage Among the Lebanese Druze.* Caravan Books, 1980.
George Antonius, *The Arab Awakening.* Hamish Hamilton, London, 1939
Sadik Assaad, *The Reign of Al-Hakim Bi-Amr Allah.* Arab Institute for Research & Publising, Beirut, 1974.
Narcisse Bouron, *Les Druzes. Histoire du Liban et de la Montagne Haouranaise.* Berger-Levraut, Paris 1930.

George Washington Chasseaud, *The Druzes of the Lebanon, Customs and History*. Richard Bentley, London 1855.
Henry Guys, *La Nation Druse. Son Histoire, Sa Religion et ses Mœurs*. Paris, 1863.
Philip Hitti, *The Origins of the Druze People and Religion*. Columbia University Press, 192
– *A Short History of Lebanon*. St Martin's Press, 1961.
Albert Hourani, *Minorities In The Arab World*. Oxford University Press, 1947.
– *A History of The Arab Peoples*. London 1991.
Puget de Saint-Pierre, *Histoire des Druses*. Paris 1763.
Constantin-François Volney, *Voyage en Syrie et Egypte pendant les années 1783 - 1785*. Paris 1787.
Lucas Grollenberg, *Palestine Comes First*. London 1980.
Majid Fakhry, *A History of Islamic Philosophy*. London, 1983.
John Lewis Burkhardt, *Bedouins and Wahabys*. 2 Vol. London 1992.
– *Travels in Syria and the Holy Land*. Darf Publishers, London, 1992.
Col. Charles Churchill, *Mount Lebanon 1842 - 1852*. 3 Vol. London, 1853.
– *The Druzes and the Maronites*. London 1862 .
Vladimir Minorsky, *Iran and Islam*. Edinburgh University Press, 1961.
Bernard Lewis, *The Middle East*. London, 1988.
Bernard Lewis, *Islam*. Oxford University Press Oxford 1987.
Raouf Sa'd Abujaber, *Pioneers Over Jordan*. London, 1989.
Edward W. Said, *Orientalism*. N.Y., 1979.
– *Culture And Imperialism*. New York, 1993.
– *The Politics of Dispossession*. N.Y., 1993.
Marwan Buheiry, *The Formation and Perception of the Modern Arab World*. Darwin, 1989.
F.E. Peters, *Aristotle and The Arabs*. London University Press. 1968.
Yusuf Al-Qaradawi, *The Lawful and the Prohibited in Islam*. American Trust Publications, no date.
Sidi Ali Al-Jamal of Fez, *The Meaning of Man*. Diwan Press, 1977.
John Richards, *The Mughal Empire*. Cambridge University Press, 1993.
Heinz Halm, *Shiism*. Edinburgh University Press, 1987.
Sami Nasib Makarim, *The Doctrine of the Ismailis*. Beirut 1972.
Ibn Ishaq, *The Life of Muhammad*. Oxford University Press, 1968.
Martin Lings, *Sheikh Ahmad Al-Alawi. A Sufi Saint of the twentieth* entury. The

Islamic Texts Society Cambridge 1993.
Capitaine N. Bouron, *Les Druzes*. Paris, 1930.
Kais M. Firro, *A History of The Druzes*. Leiden, 1992.



محتويات الكتاب

صفحة



ولد سليمان سليم علم الدين عام ١٩٢١ في بلدة بعقلين، والده القاضي سليم علم الدين وامه وداد تقي الدين. تلقى علومه الثانوية في مدرسة برمانا العالية، ثم في الجامعة الوطنية في عاليه وتخرج عام ١٩٤٤ في الجامعة الاميركية بشهادة بكالوريوس في العلوم التجارية. عمل مدير عام ثم رئيس مجلس الأدارة في شركة موارد الشرق الادنى حتى تقاعد عام ١٩٨٤ . سليمان علم الدين متزوج من تحية خليل المصفي وله ثلاث بنات: وداد وهي خريجة جامعة ميشيغان في Ann Arbor في العلوم البيولوجية؛ نوره وهي خريجة الجامعة الاميركية وتحمل شهادة ماجستير في «العلوم الانسانية» ولها كتاب باللغة الانجليزية («العادات الدرزية في الزواج» يباع في الولايات المتحدة)؛ وهَنا، خريجة جامعة MIT في الهندسة المعمارية الاسلامية.

عرف سليمان علم الدين كخبير في السجاد الشرقي وله كتاب «السجاد الشرقي» نشره متحف سرسق.













يستند هذا الكتاب الى أحداثٍ ووثائق تاريخية، والى مصادر ومراجع لأكثر الباحثين والمؤرخين شهرةً، ويحثّ القارئ على المتابعة وطلب الاستزادة، ومِن ثَمَّ، الاستنتاج التاريخي. لقد استطاع المؤلف سليمان علم الدين أن يبسّط، بدقةٍ وإسهاب، مراحل مهمّة من تاريخ الفكر العربي والاسلامي، وأن يبيّن بوضوح، مناحي المدارس الفكرية، والمذاهب الفلسفية، والفرق الاسلامية التي ادّى الاختلاف فيما بينها، في التفسير والشرح والرأي والمناظرة، إلى غنًى حضاريٍّ أكيد.

لئن تمكّن المؤلّف من أن يرسم لنا، بواقعية وموضوعية، الإطار الكامل الذي بُعِثتْ فيه دعوة التوحيد الدرزية في العهد الفاطمي، فانّه لم يتناول، في كتابه، عقيدة الموحّدين الدروز نفسها، وما فيها من معاني ورموز، لانه ترك الحقّ في البحث والتفسير والشرح لأُولي الأمر المخوّلين والراسخين في العقيدة؛ غير انه، في الوقت نفسه، يدلّ على طريق الانتماء وعلى نشوء المذهب التوحيدي المبنيّ على العقل والمعقولية وعلى الفكر الفلسفي.